جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

تفسير

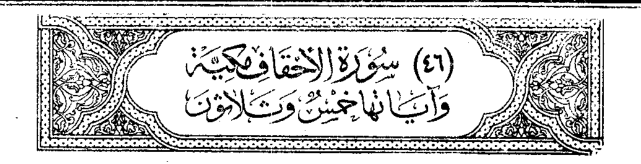


من سورة الأحقاف إلى سورة المرسلات

للأستاذ أحمد حسين

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

القاهرة { ١٣٩٦ هـ
١٩٧٦ م



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ
ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ
ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا
تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى
مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى
مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ
ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن
قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ

مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ
فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ * وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ
خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ
أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم
مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ
بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟
بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ
لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ
يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى
ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ
إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

ســـورة مكية :

الذى فى المصحف أن عدد آياتها خمس وثلاثون وأنها مكية . والمطالع لهـــا يرى فيها كل خصائص السور المكية من الدعوة للتوحيد والترغيب والتهديد والوعد والوعيد والعقاب والثواب وفيها حديث عن الجن كيف آمنوا حيث كفر مشركو قريش . وفيها دعوة الى تقوية دعائم الأسرة مما سنتعرض له بالتفصيل عند سرد الآيات .

الحـــواميم :

وهذه السورة وفقا لترتيب المصحف تعتبر آخر مجموعة « الحواميم » وهى مجموعة من السور تبدأ بسورة غافر ثم تتتابع حتى سورة الاحقاف ، وقـــد سميت بالحواميم لأنها تبدأ كلها بحرفى « حم » وقد قيل كثير نقل عن بعض أعلام الصحابة عن الحواميم ، من ذلك ما قيل : **((أن لكل شىء لباب ولباب القرآن الحواميم))** .

وطالما أبدينا عدم موافقتنا لتقسيم القرآن الى مراتب ودرجات وأوليات ، فالقرآن كله كلام الله وليس للبشر أن يصنفوه ، خذ على سبيل المثال هذا القول الذى قدمناه من أن لكل شىء لباب ولكن الله سبحانه وتعالى **((ليس كمثله شىء))** وكذلك كلام الله ليس كمثله كلام ، فلا مجال للتشبيه ، وسور الحواميم هى كبقية سور القرآن فى النظم والمعانى وطالما أشرنا الى أن أى آية من آيات القرآن تصبح فى بعض الظروف والاحوال والمناسبات كالشمس أو كالقمر فى ليلة حالكة السواد ، يلمس ذلك من يحفظون القرآن ، أو يداومون على مطالعته أو سماعه ، ومع ذلك ففى ظرف معين ، أو مناسبة خاصة يسمعون آية فكأنهم يسمعونها لأول مرة وذلك لفرط انطباق الآية وما تشتمل عليه من قوة الايحاء والتوجيه ، ومن ثم فنحن نكتفى بالقول أن الحواميم فى مجموعة السور المتعاقبة فى المصحف والتى تبدأ كلها بحرفى **((حم))** ولا نتابع قدامى المفسرين فى أحاديثهم عن أن لهذه المجموعة من السور فضل خاص والله تعالى أعلم .

حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم :

((حم)) تحدثنا أكثر من مرة عن هذه الحروف فى مفتتح بعض السور وكيف كانت محلا لكل صنوف الاجتهادات وانتهينا دائما الى ترجيح القول القائل أنها مجرد حروف هجائية سرها عند الله عز وجل ، ورأى البعض أنها بمثابة الرمز الا أن القرآن المعجز مؤلف من نفس الحروف التى اعتاد الناس التخاطب بها ، ومع ذلك فشـــتان بين كلام وكلام .

الرحـــــمن :

وقـــد لاحظ البعض ملاحظة ذكية وصـــفناها أكثر من مرة بالطرافة ، وهذه الملاحظة أن « **الر** » التى تبدأ بها بعض السور ، و « **حم** » التى تبدأ بها الحواميم

و « **نون** » التى تبدأ سورة نون تؤلف فى مجموعها « الرحمن » ونحن نسوق دائما هذه الملاحظة لتكون تحت نظر القارىء أمامن حيث التفسير فنقف كما قدمنا عند حد القول أنها حروف هجاء والله يعلم حقيقة المقصود منها .

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم :

حرص القرآن الكريم على استعمال عبارة « **تنزيل الكتاب** » اى القرآن الكريم . وهو لا يفتأ يكرر هذه العبارة ويستعمل كلمة الانزال والتنزيل على التبادل بينهما ، ويستعمل أقوى التعبيرات لتأكيد المعنى وتعميقه « **وبالحق انزلناه وبالحق نزل** » وذلك لابعاد كل شبهة أو شك فى أن يكون القرآن قد الهم لسيدنا محمد الهاما ، ولم يكن الالهام بعيدا عن مفهوم العرب ، فقد كان الشعراء يلهمون الشعر ، حتى قالوا أن لكل شاعر شيطانا يلهمه الشعر . ومن هنا كان حرص القرآن الكريم على ابعاد كل شبهة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه شاعر من ناحية : « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** » كما كان حرص القرآن الكريم من ناحية اخرى على وصف القرآن الكريم بأنه تنزيل من رب العالمين . ومن هنا فنحن نلفت كل ناظر فى القرآن ، أن فارق ما بين الايمان وعدم الايمان منحصر فى هذه النقطة « **التنزيل** » فليس يكفى أن يتغنى المتغنى بعظمة القرآن وبلاغته وقوة تأثيره ، دون أن يكون ذلك مشفوعا بالايمان أنه تنزيل من رب العالمين ، خذ على سبيل المثال جماعة المستشرقين، فان البعض منهم يتغنى بعظمة تأثير القرآن ويشيدون بقوة التعاليم الاسلامية ، مما يحملنا على نقل كلامهم ونحن فى معرض استعراض كمال التعاليم الاسلامية ، فننقل عن علماء الغرب أقوالهم فى هذه الناحية استنادا على قاعدة « **والفضل ما شهدت به الاعداء** » وسيظل المستشرقون مهما قالوا فى تمجيد رسالة سيدنا محمد غير مسلمين بالمعنى الدقيق للكلمة ، ذلك انهم لا يؤمنون ان القرآن تنزيل من رب العالمين ، والمسألة عندهم ان سيدنا محمدا عظيم ، وليس هناك ما يمنع ان يكون من أعظم العظماء ، ومما لا يمارى أو يشك فيه أن العظماء قوم ملهمون ، ومن هنا فليحذر اى مسلم أن يتصور الأمر على هذه الصورة فانه بذلك ينسلخ من الايمان والاسلام .

التنزيل من رب العالمين هو المشكلة :

ولكى نفهم ابعاد هذه القضية فيجب أن نستحضر فى اذهاننا ان قريشا فى حقيقة الأمر قد ركزوا كل اعتراضهم ، بل واستنكارهم لسيدنا محمد حول هذه القضية فالدارس للقرآن والسيرة النبوية يرى بوضوح أن قريشا أدركت لأول وهلة عظمة القرآن وعمق تأثيره ، ولم يشكوا فى أن مايدعو اليه سيدنا محمد وهو ما تدعو اليه مكارم الاخلاق والقرآن الكريم يحكى عنهم انهم كانوا يعرفون ان الله هو خالق السموات والأرض ، واذن فقد كان تكذيبهم فى الدرجة الأولى منصبا على أن القرآن تنزيل

من رب العالمين ، ولذلك فقد وصفوا سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام وعلى ما سجل القرآن من أنه شاعر أو ساحر أو كاهن أو مجنون ، وهى كلها أحوال كان العرب يتصورون فيها ان ثمة شيطانا يحل بالانسان فيجعله ساحرا أو كاهنا أو شاعرا ، وهذا يدل على أن حالة معينة كانت تعترى سيدنا محمدا قبل ان ينطق بالقرآن ، فراحوا يتخبطون فى تفسير هذه الحالة .

امانة سيدنا محمد :

وقد عرضنا عند تفسير سورة « العلق » كيف تلقى سيدنا محمد نزول الوحى عليه لأول مرة بمعنى أنه لم يبادر بالادعاء أن ما نزل عليه كان وحيا من رب العالمين ، بل عاد بما تلقاه أول مرة من سيدنا جبريل وهو خائف ومضطرب . وكانت زوجته السيدة خديجة رضوان الله عليها هى التى هدأت من روعه وطمأنته على نفسه وأن الله لا يخزيه أبدا ، وكانت هى التى راحتتقص على ورقة بن نوفل حديث سيدنا محمد فكان هو أول من بشرها ، بأن ما رآه سيدنا محمد وسمعه هو الناموس الذى كان ينزل على الأنبياء ، ولعل نداء القرآن الكريم لسيدنا محمد **« يا أيها المدثر ، ويا أيها المزمل »** اشارة لما اعترى سيدنا محمدا فى بادىء الأمر من الخشية والتردد ، وهو لم ينهض بأعباء الرسالة الا بعد أن قال له الوحى بصريح اللفظ : انا جبريل وأنت رسول رب العالمين ثم صدر له الأمر :

— قم فأنذر .

وربك فكبر .

وثيابك فطهر .

— والرجز فاهجر .

هنا آمن الرسول بما انزل اليه من ربه وصدع بالأمر وبلغ ما عهد به الله اليه لتبليغه فليدرك هذا المعنى جيدا كل مسلم مؤمن ، فلا يتصور أن القرآن الكريم قد الهم لسيدنا محمد كما يلهم الشعراء أو الكتاب والمخترعون ، وانما هو تنزيل من رب العالمين .

وهو ما تقرره هذه الآية **« تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »** كمئات أخرى من الآيات والعزيز الحكيم هنا يندرج تحتها كل أسماء الله الحسنى .

— ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما انذروا معرضون .

ما الذى نفهمه من كلمة بالحق :

واذا كنا قد وقفنا أمام كلمة **« نزل »** فان لنا وقفة أخرى أمام كلمة **« بالحق »**

فما الذى نفهمه من معنى أن خلق السموات والأرض كان بالحق ، فقد ورد هذا المعنى بعديد من الصيغ .

— ما خلقت هذا باطلا .

— وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ، أو عندنا أن هذه الآيات وامثالها تكشف عن **أن الله** سبحانه وتعالى قد خلق الكون لحكمة شاءها ، **أى أنه** سبحانه وتعالى **قد جعل لهذا الكون غاية بحيث ينتهى أجله عند بلوغ هذه الغاية .**

وهذا هو جوهر الخلاف بين المؤمنين والماديين الملحدين ، فنحن معاشر المؤمنين نؤمن أننا ما وجدنا على ظهر هذا الكون الا لحكمة ، وأن خلق هذه السموات والأرض ، كان لغاية وبالتالى ينبثق الايمان **أن لهذا الكون** خالقا مريدا فعالا حكيما ويكون هذا هو مفهوم كلمة ((**بالحق**)) .

اما الماديون الملحدون فيقولون أن هذا الكون من حولنا هكذا وجد قديم لا بداية له ، **كما أنه لانهاية له ، ثم لا يلبثون أن يعزوا** الى هذه المادة كل الصفات التى نعزوها نحن **المؤمنين** لله سبحانه وتعالى ، وبين تصور أن يكون هذا الكون من خلق نفسه أو أنه خلق بمعرفة خالق لا نعرفه ولا نستطيع أن نعرف شيئا عن ماهية قضية أيسر على العقل **أن يتقبلها من قضية الماديين** ، ذلك أن العقل فى حدود ادراكه لا يستطيع أن يتصور فضلا عن أن يتقبل شيئا حادثا الا أن يكون له محدث فهو اذا رأى ساعة لا يمكن أن يتصور أنها صنعت نفسها ، فكيف يمكن أن يتصور أن هذا الكون بسمائه وأرضه بشموسه وأقماره بنجومه وكواكبه ، بانسانه وحيوانه ونباته ، كيف يمكن للعقل أن يتصور أن ذلك كله قد أوجد نفسه بنفسه ، ومرة أخرى نقرر أنه أيسر على العقل أن يفهم ويعى أن يكون هذا الكون من صنع خالق حكيم ، من أن يتصوره من صنع نفسه ، هنا يتصايح الماديون الأغرار كأى طفل أبله **(ومن الذى خلق الله ؟)** وينسون أن ايماننا بالله يجعله من طبيعة أخرى تخرج عن حدود المادة التى نعرفها وبالتالى يصبح لا محل للتساؤل عما اعتدنا أن نوجهه من أسئلة فى حدود قدرتنا المادية لأن خالق الكون يخرج عن نطاق عقولنا ومنطقنا (المبنى كله على معارفنا ومقاييسنا المادية) لان ((**ليس كمثله شئ**)) واعجب لاقوام يريدون منا أن نتصور أن كل ما فى هذا الكون عبث فى عبث ، وأن لا غاية وراءه ، فيم اذن التحدث عن الخير والشر ، فيم التحدث عن التقدم والتخلف وفيم التحدث عن الحضارة وعن الأخلاق والقيم ، مادام أن الحياة لا غاية لها ولا هدف ، وهذا الكون لا معنى له ولا اى مدلول ؟ اى انه عبث وباطل وهو قد وجد لغير حكمة . ضد هذا العبث والسخف نزل القرآن الكريم ليقول لنا : لا ان وراء خلق هذا الكون حكمة وان له لغاية ، سيعرفها البشر عندما تحين نهاية هذا الكون ويبلغ (أجله المسمى) فى علم الله ، والمؤمنون يؤمنون بذلك ويرونه بقلوبهم رأى اليقين ، أما الذين كفروا ، الملحدون والماديون **((عما أنذروا معرضون))** اى غافلون جاهلون وذلك بحماقتهم واختيارهم فاستحبوا العمى على الأبصار .

ـــ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم أن كنتم صادقين . ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين .

اثارة من علم : اى بقية من علم ، وقال البعض ان المقصود بها « **الخط** » اى الكتابة وقال البعض : أصل الكلمة من الأثر وهى الرواية يقال اثرت الحديث اذا ذكرته عن غيرك ومنه قيل حديث مأثور اى نقله خلف عن سلف .

محاجة المشركين بالعقل والنقل

والحديث موجه الى عبدة الأصنام وقد كانوا على زمن نزول القرآن هم قريش فيقول لهم أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله وتتقدمون اليهم بالقرابين (**أرونى : أى أخبرونى)** ماذا خلقوا من الأرض، وهو سؤال لا جواب له الا النفى ، والنفى المطلق فما من كائن على ظهر الأرض جمادا كان أو حيوانا أو انسانا يجرؤ على الادعاء أنه يخلق شيئا والخلق هو الايجاد من العدم ومجرد هذا المعنى (الايجاد من العدم) لا يستطيع العقل البشرى أن يتصوره ، بحيث أصبحت احدى بديهيات العقل « **ان فاقد الشىء لا يعطيه** » فعملية الخلق هى من خصوص الخالق أى « **الله** » الذى ليس كمثله شىء ، أى أن له قوانينه وخاصياته التى هى شىء يخالف كل المخالفة كل قوانيننا وأحكامنا ومنطقنا ، وما أصدق كلمة علمائنا الأوائل عندما قالوا « ان الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار » فالقرآن الكريم عندما يتحدى المشركين والكفار فتحديه قائم الى أبد الأبدين أن كل معبود خلاف الله وهم وضلال فالعبادة لا تكون الا للخالق الواحد الأحد . (**أم لهم شرك فى السموات**) .

شرك : اى نصيب . ومعنى هذا أنه اذا صح انه قد يوجد من يجترىء على الادعاء بأنه خلق شيئا على الأرض فهو لا يستطيع أن يمد هذا الادعاء ليشمل السموات ، ومن هنا جاء التعبير أم لهم شرك فى السموات .

دفع شبهة

ولما كنا نكتب هذا التفسير وعيوننا على الشباب بخاصة وتفتيح أذهانهم على مكائد الماديين ، ومن هنا فنحن ندفع شبهة قد تعرض على عقول بعض الشبان فقد يتصورون أن الانسان الحديث يخلق مايحيط بهم من اختراعات وليس هناك ما هو أبعد فى عملية أى اختراع عن الخلق ، وقد قدمنا أن الخلق معناه الايجاد من عدم وكل مايراه الانسان من حوله فى أى ميدان من ميادين النشاط الانسانى ماديا كان أو معنويا هو ثمرة أعمال انسانية سابقة ، وما كان باستطاعة أى خلف أن يفعل شيئا الا استنادا على ما فعله السلف ، فليتدبر كل شاب هذا المعنى ، فما من فكرة ، ما من قول فضلا عن عمل الا وهو الثمرة لما سبق فلولا اختراع العجلة مثلا ما وجدت العربات

والسيارات ولولا اكتشاف النار منذ مئات الالوف من السنين لما كانت عشرات الألوان من الأنشطة التي تعتمد على الطاقة التيتولدها النار ابتداء من اشعال عود ثقاب حتى اطلاق صاروخ يصعد الى القمر فليس ذلك كله سوى استعمالات لطاقة النار .

فليكف هؤلاء الذين أصبحوا ولا همهم الا التشدق بكلمات الخلق الأدبى والخلق الفنى والخلق العلمى فان أحدا لا يخلق ولا يمكن أن يخلق شيئا فى دنيا المادة فضلا عن الفكر وكل شىء موجود فى متناول الانسان وكل ما يستطيعه هو أن يفهم حيث لم يكن يفهم، هو ان يعيد صياغة أو ترتيب شىء ، هو ان يهتدى لاستعمالات جديدة ، وامكانات لم يحتج اليها من سبق فلم يفكروا فيها ، أما استعمال كلمة خلق حتى فى المجال الأدبى فهو تعبير خاطىء أصبح شائع الاستعمال فنحذر منه ، وقد كان القدامى يستعملون للتعبير عن كل المعانى التى نستخدم فيها كلمة الخلق كلمة ((**الابداع**)) بمعنى أول من جاء بهذا الشىء أو ذاك فالانسان يبدع بمعنى ان يرى رؤيا جديدة لأول مرة ولكنه لا يخلق أى يوجد شيئا من العدم ، فهذه هى خاصية الله فقط **((والله خلقكم وما تعملون))**

ــ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين .

بعد أن تحدى القرآن عبدة الأصنام بما تنتهى اليه عقولهم من أن هذه المعبودات لم تخلق ولا يمكن أن تخلق شــيئا ، فهو يمضى فى تحديهم ليظهر أن ما يفعلونه هو مجرد تخبط لا يقوم على أساس ، حتى لو كان واهنا .

فيسائلهم هذه العبادة التى تقومون بها هل أمرتم بها فى كتاب سماوى أو غير سماوى (**أو اثارة من علم**) .

وهم يحدثوننا اليوم عن اقوام يقفون الساعات الطوال تحت الثلج وربما الأيام فى طوابير متصلة ليلقوا نظرة على انسان مات منذ نصف قرن وأصــبحوا يعتبرون النظرة الى هذا الانسان المحنط عنوان البركة أو الولاء أو الوعى بمبادىء أو سمها بما شئت من الأسماء والتعبيرات الجديدة ، أليست هذه هى الوثنية ، وأليس لمثل هؤلاء الضالين يقول القرآن الكريم منددا بهــذه الفعلة (**ائتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين**) .

وكما لم يستطع كفار قريش أن يجيئوا بكتاب (أى كتاب) ليبرر فعلتهم فلن يستطيع كذلك كفار اليوم .

ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون .

هذا هو حكم الله سبحانه وتعالى ينزله على من يصنع هذا الصنيع وهو ان يعبد (ويدعون) من هو أعجز حتى عن أن يسمعه فضلا عن أن يستجيب له أى يحقق ما يــدعوه من أجلــه (**وهم عن دعائهم غافلــون**) أى أن الأصــــنام والأوثان

ســـواء كانوا حجارة أو كانـــوا موتى(١)منـــذ أمد بعيـــد لا يعـــون شـــيئا فمن يفعل ذلك فهذا هو الضال بل لا احد أضل أو أجهل منه ، ذلك هو حكم الله فلا تتردد عن أن تنزله على كائن من كان مهما لبس لك لباس العلم والتقدم المادى .

ترتيب الأدلة :

وقد حاول البعض أن يستنتج من هذه الآيات ترتيب الأدلة فيقدم الدليل العقلى على الدليل النقلى ، على أساس أن الآية الكريمة قد احتكمت الى العقل أولا ثم طالبت بالكتاب أو (اثارة من علم) .

ثانيا وليس هناك ما هو اضر فى دنيا العلم من ارسال المبادىء على اطلاقها ، فاذا كان الدليل العقلى يتقدم فى بعض الأحوال فان الدليل النقلى هو الذى ينبغى أن يقدم فى أحوال أخرى ويتوقف ذلك على نوع القضية التى نعالجها .

ـ واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين .

هذه الآية كقوله تعالى : « **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا .** » أى سيخونونهم وهم أحوج ما يكونون اليهم .

وفى آية أخرى يقول الله عز وجل على لسان الأصنام لعبدتها يوم القيامة « **تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون** » .

واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا ســـحر مبين . أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكـــون لى من الله شـــيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين .

افتريته : أى تقولته : والافتراء هو الكذب ، والمعنى اذا كنت أدعى كذبا أن هذا القرآن من عند الله والحقيقة أنه من عند نفسى ، أى من تولى وانشائى .

بدعا من الرسل : أى أول الرسل.

تقولات قريش على سيدنا محمد

طالما حكى القرآن أقوال مشركى قريش فى الطعن على سيدنا محمد وبالتالى

---

(١) يلاحظ هنا أن الله قد وصف بعض الموتى بأنهم أحياء وهؤلاء جميعا يخرجون من بحثنا .

على القرآن وهم هنا يصفون القرآن الكريم بأنه نوع من السحر وذلك على الرغم أن كلام السحرة على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما هو شأنهم فى كل زمان ومكان لايخرج كلامهم عن أن يكون طلاسم وأحاجى والغاز حيث كلام القرآن وآياته نورا واشراقا وابداعا ، الأمر الذى كان يجعلهم ، يؤثرون أن يصفوا سيدنا محمدا بأنه شاعر ، فلا يستقيم هذا القول الجديد مع اسلوب القرآن وخصائصه .

ثم كانوا ينتهون دوما من جولتهم بين السحر والكهانة والشعر الى أنه أيا كان شأنه فهو ليس من عند الله وانما هو من افتراءات سيدنا محمد أى من أكاذيبه حاشاه صلى الله عليه وسلم .

وفى أول مراحل حياتنا الفكرية عندما تملكنا خاطر ترتيب سور القرآن بحسب نزولها وقطعنا فى هذا المضمار شوطا بعيدا ، ترجح عندنا أنها يجب أن تكون من أوائل السور التى نزلت بمكة فهى تحمل طابع هذه المرحلة فها هى ذى تتحدث عن ادعاء المشركين أن القرآن مفترى ، وقد جاءت الآيات فيما بعد تتحدى قريشا أن يجيئوا بقرآن آخر مفترى على غراره ، ثم تحداهم القرآن بأن يأتوا بعشر سور مفتريات ، ثم وصل التحدى الى حد المطالبة بسورة واحدة ، مثل هذا التفكير كان يراودنا كما قدمنا فى مراحل تفكيرنا الاولى ، أما الآن فنحن نلتزم بصورة المصحف كما هو فى أيدينا ولا شك أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وفق جامعى القرآن تحت اشراف سيدنا أبى بكر الصديق ، الى ترتيب القرآن على هذا النسق فأصبح مما لا يجوز التفكير فيه محاولة ترتيب نزول القرآن (من وجهة نظرى) فالكل قرآن والكل كلام الله ، والكل عامل به ولا أحد يمارى فى أن القرآن قد نزل على امتداد ٢٣ سنة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أنزلت عليه بضع آيات أرشد أصحابه على مكانها من هذه السورة أو تلك ، وهكذا الحقت آيات لاحقة بسور سابقة فدل ذلك كما قدمنا على أن العبرة فى القرآن لم تكن حسب نزوله فكله قرآن والكل كلام الله تهدف كل جملة فيه ، بل كل كلمة وكل حرف لهداية البشر .

فزع سيدنا محمد من الافتراء على الله

وليس هناك ما يدل على أن هذا القرآن الكريم وحى من الله عز وجل **(تنزيل)** من أن العديد من آيات القرآن الكريم قد سجلت ما كان يتوقعه سيدنا محمد من عذاب وأهوال ، لو هو تقول على الله بعض ما لم يقله الله ، واذا كانت هذه الآية التى نحن بصددها قد أجملت القول وجهلته **(قل أن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا)** .

فان آيات أخرى قد فصلت القول فيما كان يمكن أن يحل بسيدنا محمد لو كان قد افترى حرفا واحدا .

— ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين .

ـ قل انى لن يجيرنى من الله أحد .ولن اجد من دونه ملتحدا . الى غير ذلك من الآيات .

ـ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى بهشهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم .

ويصل القرآن الكريم الى أقصى صور التحدى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجعل الله الذى يزعم الكافرون أنه يفترى عليه فيجعله هو الحكم فى القضية (**كفى به شهيدا بينى وبينكم**) فهويعرف ما أقول وما تقولون (بما تفيضون فيه) .

صرخة عالم وفيلسوف انجليزى

ولما كان هذا الهراء من أن القرآنليس تنزيلا من عند الله بل هو من عنديات محمد صلى الله عليه وسلم ويكون ما يقولهسيدنا محمد من أنه حى من رب العالمين هو محض افتراء (أى كذب) هذا القول ليس ووقفا على كفرة قريش،بل سيوجد فىكلزمان ومكان منيقول هذه التخرصات ، وابانالعصور الوسطى عندما اشتعلت الحرب الصليبية لم يكن لكتاب أوروبا ورجال الدينمن عمل الا التهجم على سيدنا محمد ونعته فى الدرجة الاولى بالكذب فلما جاء عصرالنور والحضارة قامكتا بالغرب المنصفون بالدفاع عن سيدنا محمد رغم مسيحيتهم ،وكان على رأسهم الكاتب والفيلسوف الانجليزى « كارليل » مؤلف كتاب الأبطال ،فراح يندد مستخدما أشد العبارات وأقساها ضد من يتهم سيدنا محمد صلىالله عليه وسلم بالكذب ، ويعجب كيف يمكن أن يكون الكذب نقطة انطلاق لقيامحضارة من أزهى ما عرفت الانسانية من حضارة وأن تكون هذه (**الأكذوبة**) هىمبعث النور والرجاء لمئات الملايين من البشر على مر العصور ، ثم يعلق كارليل علىهذا السخف **بقوله : لئن صح هذا الزعم فالحياة كلها وهم وضلال وأكاذيب .**

(**وهو الغفور الرحيم**) انى أرجو أناكون قد وفقت لغرس بعض المفاهيم فى نفوس مطالعى هذه الفصول وكيف أنالقرآن الكريم لايكاد يشير الى احدى الكبائر التى يمكن أن يتردى فيها الانسان ، حتىيعاجله على الفور بأن باب التوبة مفتوح على مصارعه (**وهو الغفور الرحيم**) .

ـ قل ما كنت بدعا من الرسل ومأدرى ما يفعل بى ولا بكم ان اتبع الا مايوحى الى وما أنا الا نذير مبين .

الكلام على ماسوف يجرى فى الدنيا

يقف بعض قدامى المفسرين متسائلين عن المقصود بجهل سيدنا محمد بما سوف يحل به أهو فى الدنيا أم الآخرة ، ولعل هذا يكشف لك كيف كان بعض القدماء

لا يتحرجون من شيء ، ولا يقفون عند حديسرع ابن كثير فينقل عن السلف مايقطعون فيه أن ذلك فى الدنيا بحيث يقول الحسن البصرى ((**معاذ الله أن يكون ذلك فى الآخرة**)) .

أما نحن فنقول انه كان من الممكن أن يؤخذ الكلام على اطلاقه أى فى الدنيا والآخرة ، لو أن الكلام اقتصر على سيدنا محمد أى ((**ما أدرى مايفعل بى**)) فلو وقفت الآية عند هذا الحد ، لجاز التصور انها تشمل الدنيا والآخرة ، أما بعد أن أضيف لها ((**ولا بكم**)) فقد تحدد المعنى ولم يعد له سوى مدلول واحد وهو فى الحياة الدنيا ، اذ ليس من المعقول فى مجال الدعوة الى الحق والرشد والتوحيد أن يستوى فى التجهيل بالمصير بين سيدنا محمد وبين الكفار فى الحياة الآخرة ، والا لم يكن هناك محل للدعوة من أساسها فيجب استبعاد كل قول من أن السؤال يشمل ما يقع فى الدنيا والآخرة بما فى ذلك قول من قال : انها منسوخة بآية ((**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**)) ويكون معنى الآية بعد ذلك واضح مبين فهو قول على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب فيه المشركين بقوله : انه ليس أول رسول قد جاء لهداية قومه فكذبوه ، وهو لا يعلم ماذا يكون مصير هذا الصراع بين الحق والباطل فى هذه الدنيا ، والأمر الوحيد المحقق ، أن سيدنا محمدا انما يطيع هذا الوحى الذى يهبط عليه والذى جعل منه (**نذير مبين**) تلك هى المهمة التى سيضطلع بها سيدنا محمد بكل حزم وعزم وأمانة .

– قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم . ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين . ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون .

المكى والمدنى

حاول بعض المستشرقين الذين لايؤمنون بأن القرآن تنزيل من رب العالمين أن يفرقوا بين ما هو مكى ومدنى من حيث اسلوب النظم فزعموا ان المكى من القرآن يتميز بقصر الايات وتوحيد أواخر الايات ثم يفرعون على ذلك ما يحلو لهم من أقوال من أن القرآن الكريم فى أول الدعوة كان له أسلوب أما بعد أن انتقل الرسول الى المدينة فقد أصبح للقرآن اسلوب ونظم آخرين ، ونحن ما كنا لنحفل بهذه التخرصات التى يوحى بها الجهل اذا أحسنابهم الظن ، لولا أننا نجد أقوالهم مبسوطة فى كتب يقبل عليها الشباب ويتأثرون بها وبهذا يقعون فى المزالق التى أعدت لهم وهو التفريق بين أسلوبين للقرآن .

ويهمنا فى كل مناسبة أن نلفت النظرلهذه القضايا ونحذر منها ونحن طالما بينا ان السور المدنية قد تعرضت لموضوعاتوقضايا لم تتعرض لها السور المكية وذلك بحكم الظروف الجديدة التى طرأت حيثقام المجتمع الاسلامى فى المدينة وما استتبع ذلك من نزول التشريعات الواجب تطبيقها،وكان هناك موضوع الحرب والقتال والذى فرض فى المدينة وهكذا . أما من حيث الاسلوب والنظم فواحد فى أول كلمة نزلت من القرآن حتى آخر كلمة لم يتغير أو يتبدللانه كلام من لا يتغير ولا يتبدل وسترى السور المدنية الطويلة كالبقرة وآل عمرانوالى جانبها السور المكية الطويلة كالاعراف والأنعام والمتوسـطة والقصيرة والقصيرةجدا .

فالى جوار قل هو الله أحد المكية ستجد اذا جاء نصر الله والفتح المدنية أما من حيث النظم فها نحن بصدد سورة مكيةقد تكون من أوائل ما نزل من السور المكية ولا خلاف على مكيتها ومع ذلك فنظم آياتهاهو بذاته نظم الآيات المدنية .

ـ قل أرايتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدىالقوم الظالمين .

فى الكلام شرط (لو كان من عند الله) وجوابه محذوف وتقديره فانكم **(تكونون ظلمتم أنفسكم)** أو حول هذا المعنى ويستفادذلك من ختام الآية **(ان الله لا يهدى القوم الظالمين)** .

وتثير هذه الآية فى نفسى بهذا الترتيب فى النظم والمعنى المستفاد منه بما اعتاد أن يقوله أحد أعلام الاسلام فى جيلنا (وقدتوفاه الله) كان يقول لى رحمة الله عليه : يا فلان الا يؤمن الناس على أنفسهم ضدالمخاطر المجهولة ، أليس الايمان بالثواب والعقاب والجنة والنار تأمين ضـد هذهالمخاطر الغيبية ، فهى تنفع ولا تضر ، فهى تمنحنا فى الحياة الدنيا مكارم الأخلاق وحسن السلوك وفى فوق ذلك تعدنا بمزيد فى حياة آخرة ، فلو فرضنا **(من وجهة نظرالماديين)** ان لن تكون هناك حياة أخرى فهم لم يخسروا شيئا ، أما اذا كان هناكاحتمال ، (مجرد احتمال) والعلم لا يسد الباب أبدا أمام الاحتمـالات فأين يذهبعندئذ هؤلاء الملاحدة ، ويضـيف صاحبى (العالم الاسـلامى) **أليس من الخير أنيؤمنوا على حياتهم بالايمان بالغيب ؟**

هذه الأقوال انبعثت من جديد اثارتهافى نفسى هذه الآية الكريمة فهى تقول للكفار فى كل زمان ومكان ، ماذا يكون موقفكملو كان هذا القرآن من عند الله .

(وشهد شاهد من بنى اسرائيل علىمثله فآمن واستكبرتم) .

وقد أطال المفسرون القدامى الوقفةأمام (وشهد شاهد من بنى اسرائيل) فقال البعض أن المقصود بها هو سيدنا موسىفقد سبق وجاء بمثل ما جاء به سـيدنا

محمد ، وقال آخرون أن المقصود به هوعبد الله بن سلام احد زعماء اليهود العلماء ويوردون قصة اسلامه بطولها ، ولكن المعترضين يقولون أن عبد الله ابن سلام قد آمن فى المدينة وفى اخريات عهد الرسول(عامان قبل وفاته) وسورة الاحقاف سورة مكية ، فيرد الآخرون بأن هذه الايةمن دون بقية السورة مدنية وليس هناك ما يمنع ذلك ومن ناحيتنا فأيا كانت مناسبةالتنزيل فالآية أمامنا عامة ومطلقة وكتب السيرة النبوية كلها تحدثنا عن أن اليهود مروا فى علاقتهم بسيدنا محمد فى دورين مختلفين كل الاختلاف قبل البعثة المحمديةوبعد البعثة وخاصة بعد الهجرة . فأما قبل البعثة فقد كان اليهود (كل اليهود) فىجزيرة العرب يتحدثون عن قرب ظهور نبى يؤمنون به ويقاتلون العرب تحت لوائهوينتصرون ، وقد ظلت كذلك صدرا من سنوات البعثة فلما أن هاجر رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، وفشلوا (فى احتوائه) انقلبوا عليه وأنكروا نبوته وبناءعلى ذلك فعندما يرد فى سياق سورة مكية حديث يشير الى أن بعض اليهود آمن بماانزل على سيدنا محمد فلسنا فى حاجة الى الاستشهاد بواقعة محددة وقعت فى وقتمتأخر ، فقد كان جمهرة اليهود فى جزيرة العرب آنذاك يؤمنون بما جاء به سيدنامحمد من دعوة الى التوحيد وهجر عبادة الأصنام .

ولا نأخذ من الناحية الأخرى بأن من آمن من بنى اسرائيل هو موسى عليهالسلام فحيث أراد القرآن الكريم أن يذكر اسمهولم يكن عنه اطلاقا وقد ذكر اسم سيدنا موسى بالذات فى الآية التالية ، ويبقى منالأفضل ابقاء التجهيل والتعميم من انه مطلق شاهد من بنى اسرائيل .

وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم .

طبيعة المسلمين الأوائل :

قيل أكثر من مناسبة لنزول هذه الآية ، فقيل أن المقصود بها هو سبق بلال وصهيب وعمار وفلان وفلان .. وقد كانوا اما من الرقيق أو ضعاف القوم ، وقيل بل المقصود امراة تدعى زنيرة اذ قال سادةقريش عندما سمعوا باسلامها لو كان ماجاء به محمد خيرا لما سبقتنا اليه زنيرة ، وقيلانها قيلت من بعض القبائل الكبيرة الشهيرة مثل أسد وغطفان وتميم قالوها عندماسمعوا باسلام بعض نفر من قبائل أسلم وغفار وجهينة وقد كانت قبائل دون الاولىفى المكانة والعز والجاه . وأيا كان المقصود فالمعنى واحد وهو الغرور الذى يتملكالكافرين فيتصورون أنفسهم أعلى قدرا وأعظم شأنامن آمنوا ولكى يزينوا لانفسهمصحة ما يقولون يستشهدون بهذه الحالة أو تلك ويتعامون عن عشرات الحالات التىتدحض نظريتهم ، فاذا كان بلال على سبيل المثال وصهيب ممن كانوا رقيقا ، فقد كانأبو بكر الصديق وكان من أكرم من عرفت

قريش فى الجاهلية ، يدل على ذلك انه أسلم على يديه هو وبالذات بضع نفر من أعرق بيوتات العرب مثل عثمان بن عفان وقد أسلم بعد فترة وجيزة من بدء الاسلام عمر ابن الخطاب، كما أسلم حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت ترى أن من سبق الى الاسلام نفر من أكرم رجال قريش ونسائهم أما بالنسبة للرقيق ، فلم يكن كون الانسان رقيقا فى ذلك يعنى وضاعته الا فى نظر هؤلاء المغرورين فقد كان أسرى أى حرب يعتبرون رقيقا اذا لم يقتلوا وقد يكون فيهم الكبراء والأمراء والعلماء ومن الحوادث البارزة فى التاريخ أساتذة الرومان ومعلميهم فى مختلف فروع المعرفة والفنون كانوا من الاغريق الذين وقعوا فى الأسر فأصبحوا عبيدا فى الوقت الذى كانوا يمثلون فيه ذروة التحضر حيث كان سادتهم من الرومان يمثلون الجهل والبربرية وقد كان هذا هو حال الرقيق فى قريش عند بزوغ الاسلام فأى رقيق حبشى أو رومى أو فارسى هو سليل حضارة كبرى ومدنية ، ومن هنا سارع كل من كان ذا قلب كبير من هؤلاء الأرقاء الى اعتناق الاسلام ، بينما ظل السادة الجهلاء فى عماهم وغباوتهم عن تقرير عظمة ماجاء به الاسلام ولاذوا خلف غرورهم وعنجهيتهم يرددون هذه الحجة الواهية التى سجلها عليهم القرآن ليظلوا عنوانا على الحماقة الى أبد الآبدين **(لو كان خيرا ما سبقونا اليه)** ويمضى القرآن الكريم فى تصوير تعنت القوم ولجاجتهم ، حتى اذا وجدوا أنفسهم صفر اليدين من هذا النور الجديد اكتفوا بأن يقولوا كلاما أى كلام حتى ولو لم يكن له معنى **(واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم) وافك قديم** :أى كذب قديم ، وذلك يساوى قولهم **(اساطير الأولين)** وكلا التعبيرين ليس الا كلاما يقال ولا يتصل بجوهر القضية من أنهم يدعون الى التوحيد وتنزيه أنفسهم عن عبادة الأصنام .

ــ ومن قبله كتاب موسى أماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين .

تقدم القول على لسان سيدنا محمد **(ما كنت بدعا من الرسل)** أى ما كنت أول رسول جاء يدعو قومه الى طريق الحق طريق الله ، وكذلك القرآن فليس هو أول كتاب أنزل من السماء بل سبقته كتب أخرى كالتوراة ، وهو **(كتاب موسى)** اماما أى قدوة يقتدى به ورحمة فان كل هداية للبشر هى رحمة بهم وانقاذا لهم من ويلات الجهل. **(وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا)** وهذا القرآن واختلف فى (مصدق) أهو مصدق للتوراة أم لسيدنا محمد وفى القرآن ما يعزز أى معنى تختار . **(لسانا عربيا)** اى بلسان عربى فالقرآن كتاب أنزل يخاطب الناس كافة ولكن بلسان عربى مما شرف اللغة العربية وحافظ عليها من الفناء كما فنيت من قبلها لغات كان العالم كله يتكلم بها كاللغة الاغريقية أو الرومانية ، حيث ماتت كلها ، وتبقى اللغة العربية حية قائمة فى ازدهار وذلك بفضل القرآن وكونه باللغة العربية **(لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين)** .

ــ أن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الايمان والعمل

لم يذكر الايمان فى القرآن فى أغلب الآيات الا وشفع على الفور بالعمل الصالح **(الذين آمنوا وعملوا الصالحات)** ذلك أن العمل هو ترجمان الايمان وهو الدليل عليه، فحيث لا ايمان لا يكون عمل وحيث لا عمل لا يكون ايمان، فهما أشبه بالروح والجسد، فحيث لا روح لا تكون حياة وبالتالى لا يقوم جسد ولولا الجسد هذا (الوعاء) لما ظهرت الروح وما كان لهـا أى فاعلية وفى هذه الآية الكريمة تطبيق لذلك فليس يكفى القول « ربنا الله » وانما يجب أن يترجم ذلك الى عمل وقد عبر عن العمل فى هـذه الآيات الكريمة « ثم استقاموا » أى استقاموا على طريق الله وكل ما يأمر به وينهى عنه .

والذين يفعلون ذلك **(فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)** فى الحيـاة الآخرة، وسيكون جزاؤهم الخلود فى الجنة **(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون)** .

ــ ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضـعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين .

الأسرة نواة الاجتماع البشرى

يبنى القرآن الكريم المجتمع البشرى على دعامتين :

١ ــ الاسرة .

٢ ــ المجتمع الانسانى كله باعتباره وحدة واحدة .

أى أنه لا يجب أن يوجد فى المجتمع البشرى المثالى سـوى هاتين الصورتين واللطيف أن المجتمع الانسانى شرق وغرب ابتدع وطنيات وقوميات قسم اليها البشر، وها نحن نشهد تطور البشرية لتعود الى هذا التقسيم الالهى، عالم واحد يتألف من ملايين الملايين من الخلايا التى هى الأسر. وقد جاء وقت وهنت فيه الروابط الاسرية وحل محل الولاء للاسرة الولاء للدولة ولكن ذلك كله فى طريقه الى الزوال لينتصر الوضع الالهى الذى هو الوضع الطبيعى الملموس والمحسوس فالروابط الاسرية ليست وهما ولا خيالا ولا هى افتراض وانما هى حق واقع مادى كما تقـرره هـذه الآية وكما يمارسه أى كائن حى .

الاسرة بعد التوحيد

وقد رفع القرآن الكريم من شـأن الأسرة بحيث جعلها بعد الايمان به مباشرة.

« وقضى ربك ألا تعبـــدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » .

وهكذا جعل الاحسان الى الوالدين قرين عبادته ، والاحسان فى حقيقته بالنسبة للوالدين يعنى طاعتهما فليس هناك مايؤذى أى من الأبوين أكثر من أن يخرج ابنهما من الطاعة .

اى أن المقصود هو تأكيد السلطة الأبوية فكل حديث عن اضعاف هذه السلطة هو هدم للمجتمع من أساسه لانها السلطة الوحيدة فى هذا الكون التى يحركها الحب ويضع لها الضوابط والقيود وهدفها الوحيد والنهائى هو خير الابن وما من انسان فى الوجود الا وهو يحب بالغريزة أن يهيىء لابنه ظروفا أحسن وأسعد من تلك التى عاناها ، وما من أب الا وهو يبتهج لنجاح ابنه وتفوقه ومن هنا كانت السلطة الأبوية هى السلطة الوحيدة التى تنبثق من الحب فكل توهين أو اضـــعاف لها يحرم الحياة البشرية من أجمل ما فيهـــا وهو الحـــب الخالص الصادق .

حملته أمه كرها

نصل الآن الى احدى الدلائل الناطقة بأن هذا القرآن ليس من صنع انســـان ولا يمكن أن يكون من صنع انسان كل أفكاره لا يمكن الا أن تكون من وحى البيئـــة والعصر .

فالسلطة الأبوية شىء معروف فى الدنيا كلها وعليها قام التنظيم الاجتماعى فى القديم ، وقد كانت الســـلطة الأبوية على أشدها فى الجاهلية فجاء القرآن الكريم :

أولا ــ يجعل الاحسان هو اطار هذه العلاقة .

ثانيا ــ وهو الأهم من حيث كون القرآن الهى انه علل وجـــوب ترابط الأسرة وتلاحمها ، لا بما للاب من قوة وسلطة التربية ولكن لما تحملته الأم من معاناة وما تحمله لابنها من حب عجيب لعله هو قوام الحياة الذى لا تقوم الا به ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن أكثر من مرة ، جاء فى سورة لقمان :

ــ « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » .

فالوصية دائما للوالدين والتعليل بما تتحمله الأم من مشاق ومعاناة وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أولى الناس بحبى يا رســـول الله ؟ قال : امك فسأل السائل ثم من ؟ قال : امك ، قال :ثم من ؟ قال : امك قال : ثم من ؟ قال :أبوك وليس ذلك كله الا تطبيقـــا لنص القرآن « **حملته أمه كرها ووضعته كرها** » .

وهكذا فى مجتمع لا يعرف ســـوى الرجل جاء الاسلام بما كان يعتبر تحديا لكل المفاهيم البشرية فجعل الأمومة هى المبرر الأعظم لدوام الترابط العائلى .

وانظر الى عظمة القرآن وهو يلخص فى كلمات قلائل كل ما تعانيه الأم طوال اشهر الحمل وساعة الوضع ومشقة الارضاع :

« حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » .

الفصال : الفطام

حتى اذا بلغ أشده وبلغ اربعين سنة

يقف بعض المفسرين فيفصلون بين عبارة « **بلغ أشـــده** » وبلغ اربعين سنة ، ويقررون ما يختارون من السنين للقول بأن الانسان قد بلغ أشده ، وعندنا أنه لا محل لذلك فعبارة وبلغ الأربعين فى هذا الموطن هى تحديد « **بلغ أشده** » ، ونحن نعلم أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد بعث على رأس الأربعين .

« قال رب اوزعنى ان أشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى » .

اوزعنى : اى الهمنى .

والمعنى اظهار جلال تكامل النعمة على من ابلغه الله سن الأربعين فى ظل الايمان والتقوى فما اجدره بأن يلهج لسانه بالشكر على نعمة الله عليه وعلى والديه .

وقيل أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ونحن نفوض العلم لله .

« **وأن أعمل صالحا ترضاه** » ، من أكبر نعم الله على العبد أن يوفقه للاعمال

الصالحة ، وكمال سعادة المرء فى الدنيا والآخرة أن ينعم بذرية صـــالحة ولذلك يبلغ الدعاء ذروته « **وأصلح لى فى ذريتى** » « **انى تبت اليك** » أى رجعت بالاستغفار عن عن كل ذنب أو هفوة ، « **وانى من المسلمين** » أى المخلصين الصادقين الموحدين .

ـ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصـــحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون .

الأعمال أما أن تكون خيرة أو شريرة وقد سمى القرآن الكريم الأعمال الخيرة والصالحة بأنها « **احسن ما عملوا** »، وهذا ما يجب أن يفهم من عبارة « **أحســـن ما عملوا** » .

ونتجاوز عن سيئاتهم :

هذه هى احدى القواعد التى سنها الله سبحانه فى موضوع الثواب والعقاب ، فقد ولد الانسان وهو معرض بحسب طبعه للخطأ « **كل ابن آدم خطاء** » ولكن شاءت

رحمة الله به أن لا يحاسبه الحساب العسير الا اذا أربت سيئاته على حسناته ، أما اذا كثرت الحسنات فانها تجب السيئات ((**ان الحسنات يذهبن السيئات**)) وهذه الآية التى نحن بصددها تطبيق لهذه القاعدة فالله سبحانه وتعالى يقبل أعمال عباده الطيبة (**أحسن ما عملوا**) ويعفو عن غير الطيبة اذا كانت بحيث لا تطغى من حيث شناعتها أو كثرتها على الأعمال الطيبة .

والنتيجة الحتمية لذلك أن يدخل أصحاب هذه الأعمال الجنة جزاء بما عملوا (**وعد الصدق الذى كانوا يوعدون**) وهكذا وعد الله عبيده المحسنين ، ومن أصدق من الله اذا وعدا .

ـــ والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن أن وعد الله حق فيقول ما هذا الا أســـاطير الأولين . أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانـــوا خاسرين .

الصورة المقابلة

وكشأن القرآن الكريم لا يكاد يرسم صورة من صور الخير أو صورة من صور الشر حتى يتبعها على الفور الصورة المضادة وذلك لكى يعمق فى نفوســـنا حب الخير ويكرهنا وينفرنا من الشر ، وهكذا بعد أن صور لنا الانسان المؤمن الصالح وكيف يكون خيرا أو بركة على أبويه فهو هنا يحدثنا عن الابن العاق المارق الذى يكون مصدر الأذى لوالديه ، فحيث يدعو الولد الصالح لأبويه فها هو ذا الابن المارق يقول لهما ((**أف**)) ونحن نعلم أن كلمة ((**أف**)) تعبير عن التبرم وقد حذر القرآن الانسان من مجرد اظهار التبرم مهما كان موضوع النقاش ((**فلا تقل لهما أف**)) وحتى لو كان موضوع النقاش هو محاولة صرف الابن عن التوحيد ((**وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا**)) أى انه حتى فى تحريض الأبوين لابنهما على الشرك فحتى فى هذه الحالة فلا يجوز له الا أن يصاحبهما بالمعروف بل وأن يدعو لهما فـــوق ذلك ((**وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا**)) .

فهل يمكن أن يكون هذا القرآن الا من وحى رب العالمين وليس من صنع انسان ، فقد كانت المعركة بين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وبين كفار قريش تدور حول الشرك والتوحيد ، ومع ذلك فهو يحذر المؤمنين الموحدين من أن يؤذوا والديهم حتى لو كانوا مشركين ويجعل من صـــور الايذاء أبسط الحركات الدالة على التبرم وهى ((**أف**)) وما عليك الا أن تتصور تعاسة هذا الابن عندما يكون أبواه هما اللذين يدعوانه الى الرشاد والهدى وهو الذى ينكر عليهما ذلك ويتأفف (أى يقول أف) ((**والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى**)) .

اخرج : أى أبعث .

أى أن صاحبنا الذى تصوره لنا الآية الكريمة يستنكر كلام أبويه عن البعث والقيامة ويسفه قولهما بأن الناس تموت منذ ألوف السنين ناسيا أو غير عارف أن هذه الالوف من السنين ليست الا كومضة عين أو دون ذلك ، وأن ملايين البشر كنفس واحدة .

ــ وهما يستغيثان الله ويلك آمن أن وعد الله حق .

الويل : العذاب والهلاك ولكنها هنا تقال من الأبوين على سبيل التحذير (وهما يستغيثان الله) تصوير للحنان الأبوى فكم هو عزيز على نفس الوالدين أن يريا ابنهما وهو سائر نحو الهلاك ومن هنا فهما يستغيثان بالله أن يهدى ابنهما ويعلم أن (وعد الله حق) ولكن الابن العاق يواصل عناده المدمر فيصف دعوة والديه له بانها ((أساطير الأولين)) أى بلغتنا المعاصرة ((خرافات)) وأحسب أن هذه الصورة ليست غريبة ولا نادرة فى أيامنا هذه ، فما أكثر الآباء الذين يدعون أبناءهم الى الهدى والرشاد باتباع أوامر الدين ، وما أكثر الأبناء الذين أصبحوا ينظرون شذرا الى التدين باعتباره من أساطير الأولين (**الخرافات**) .

ــ أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين)) .

وينزل الله سبحانه وتعالى على مثل هذا الطراز من البشر ممن وجدوا فى كل زمان ومكان ليس فقط من المخلوقات الظاهرة التى نعرف بل وحتى من المخلوقات الخفية (الجن) وحكم الله هو الخسران والبوار لكل من سار فى هذا الطريق .

رواية لا ناخذ بها

ولعله من الشرح الذى قدمناه يتبين أن القرآن الكريم قد رسم صورة عامة لشخص تدجمع الكفر الى العقوق بالوالدين وهو ما أخذ به جمهرة المفسرين ولكن واجب الأمانة قد اقتضاهم ، كما يقتضينا ، أن يثبتوا رواية جاءت فى صحيح البخارى تقول ان مروان بن الحكم (الأموى) زعم أن هذه الآية نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وقيل عبد الله بن أبى بكر ، وكلا الرجلين قد أسلم وحسن اسلامه والاسلام يجب ما قبله ، حيث تنص الآية على أن قائل هذا القول ((أولئك الذين حق عليهم القول)) أى وجب عليهم العذاب لكفرهم وعقوقهم ، ولم يكن كذلك عبد الرحمن ابن أبى بكر ولولا أن الرواية وردت فى صحيح البخارى لما أثبتناها ، ولكن التزمنا بأن نشير الى كل ما قيل ثم نبين ما نوافق عليه وما لا نوافق . ونحن بطبيعة الحال ماكان لنا أن لا نوافق على شىء جاء فى صحيح البخارى ، لولا أنه من حسن الحظ لا يروى لنا شيئا عن رسول الله وانما يروى حديثا نسب الى مروان بن الحكم ، ولولا أن اسم السيدة عائشة

لها رأى فى الموضوع لما اثبته البخارى فى صحيحه وقد نفت السيدة عائشة الرواية ، فنحن عندما نرد العزية فنحن نأخذ بقول السيدة عائشة رضى الله عنها ونرد قول مروان ونحن فى نفس الوقت لا نرد ما جاء فى البخارى والذى يروى لنا بدقته ((**العجيبة**)) رواية وصلت اليه ، واليك هذه الرواية بنصها :

حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانه عن أبى بشر عن يوسف بن ماهك قال كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر ((**شيئا**)) فقال (أى مروان) خذوه، فدخل الى بيت عائشة فلم يقدروا ، فقال مروان : ان هذا الذى أنزل الله فيه ((والذى قال لوالديه أف لكما ... الآية)) .

فقالت عائشة من وراء حجاب :

ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن الا ان الله أنزل عذرى . انتهى ما جاء فى البخارى ، وانت ترى أن القول هو قول مروان بن الحكم ، وقاله فى معرض (السياسة) والتكالب على الحكم ، واذا كان البخارى بدقته وأمانته قد أورد ما نقل اليه من أن عبد الرحمن ابن أبى بكر قال ((**شيئا**)) استوجب أن يأمر مروان بالقبض عليه فان روايات اخرى تفصل هذا الشىء وانه كان استنكارا لمبايعة يزيد بن معاوية ليكون خليفة للمسلمين ومن هنا كانت غضبة مروان على عبد الرحمن حتى لقد أمر بالقبض عليه ، فلما لم يقدر لالتجاء عبد الرحمن الى بيت أخته أم المؤمنين ، قال هذه القولة العجيبة من أن عبد الرحمن هو الذى نزلت بحقه هذه الآية وكذبت السيدة عائشة القول وشكرا وتقديرا الى أبد الأبدين للامام البخارى الذى مكننا بعد ثلاثة عشر قرنا أن نرد رواية تأسيسا على نص ما اثبته بكل دقة وأمانة والله تعالى أعلم .

ـ ((ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون)) .

تفاوت البشر بالعمل :

خلق الله البشر متساوين من حيث كونهم مواليد ثم سوى بينهم بدون استثناء من حيث الموت ((**انك ميت وانهم ميتون**)) وأى شىء متى تساوى طرفاه مع اى شىء آخر فهو لابد أن يكون مساويا له ؟ فالبشر من الناحية المادية البحتة متساوون وهى حقيقة أكدها القرآن وعمقها فى نفوس متبعيه ، فلا فرق بين انسان وانسان من حيث اللون أو الأصل أو الجاه والحسب والنسب ، وانما يتفاوت البشر بحسب أعمالهم فيصبح منهم الأعلى والأدنى وهو ما تتحدث عنه هذه الآية الكريمة (**ولكل درجات مما عملوا**) أى ان لكل انسان درجة ورتبة حسب عمله (**وليوفيهم أعمالهم**) ويمنح الله الجزاء الحق بقدر عمل الانسان (**وهم لا يظلمون**) فاذا سمعت المتشدقين يتشدقون بأن هذا النظام أو ذاك أعلى من سلطان العمل ، فقل لهم سبق الاسلام الى ذلك منذ أربعة عشر قرنا فلسنا فى حاجة الى هذه الشقشقات .

ــ ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتمتستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون .

مفردات :

اذهبتم طيباتكم : اى تمتعتم بالطيباتفى الدنيا واتبعتم شهواتكم وملذاتكم .

وقيل افنيتم شبابكم فى المعاصى والكفر .

عذاب الهون : اى عذاب الهوان والذل .

فارق مابين الايمان والكفر .

والآيات واضحة وصريحة فى انها توبيخ للكفار يوم القيامة ، ان لا حق لهم فى شىء من نعيم الآخرة فقد كفروا به وجحدوه،واستغرقوا فى الملذات والشهوات وملأوا الدنيا فسادا وطغيانا .

ذلك هو صريح نص الآية فهى تقول« **ويوم يعرض الذين كفروا على النار** » اى يوم يصلى الكفار بنار جهنم ، فلا محلللحديث عن المؤمنين وان يتخذوا هذه الآية شعارا لهم فيحرمون انفسهم من الطيباتخوفا من ان لا يدخلوا الجنة . فالقرآن لم يجز فقط للمؤمنين أن يأكلوا ويتمتعوا فىالدنيا ، بل انه أمر بذلك أمرا ونعى على كل من يحرم ما أحله الله ، ولكنه كما هوشأنه دائما وضع الضوابط والقواعد التى يتمتع المؤمن فى حدودها فلا يكون عليه لومولا تثريب . وهـذه القواعد والضـوابط تنحصر فى مبدأين :

أولهما ــ الاعتدال والتوسط .

وثانيهما ــ الاحساس بنعمة الله والشكر عليها بالقول والعمل .

ــ كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون .

ــ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين .

وهذا فارق ما بين المؤمن والكافر فالمؤمن يأكل من طيبات الله اذا جاءته بالحلال فيزيده ذلك ايمانا وتحدثا عن نعمة الله عليهويظهر ذلك كله فى تصرفاته تواضعا للناس وحنوا عليهم واشراكهم قدر استطاعته فيماأنعم الله به عليه .

أما الكافر فلا يزيده اقبال الدنيا عليه الا اسـتكبارا وعلوا فى الأرض وطغيانا وقسوة بالآخرين .

ويعجبنا فى هذا المقام ما قاله القرطبى فى تفسيره تعقيبا على من حاول أن يمد هذه الآية لتشمل المؤمنين ، وقال : « وقدكان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع اذا وجد ويصبر اذا عدم ، ويأكل الحلوى اذاقدر عليها ، ويشرب العسل اذا اتفق له ويأكل اللحم اذا تيسر ولا يعتمده أصلاولا يجعله دينا ومعيشة النبى صلى الله عليه وسلم معلومة وطريقة الصحابةمنقولة ، هذا ما قاله القرطبى .

وخلاصة القول أن سمة المؤمن انهاذا وجد شكر وان لم يجد صبر .

الحديث عن سيدنا عمر بن الخطاب .

بقى أن المفسرين فى هذا الموطن يكثرون من النقل عن سيدنا عمر بن الخطاب ما قد يشعر أنه التزم فى حياته ما التزم من التقشف تطبيقا لهذه الآية ، وهو وهم وخطأ ، وان كان فى هذا الوجود شخصان قد فهما الاسلام فهم سيدنا محمد له فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أحدهذين الشخصين ، فما أخذ به سيدنا عمر ابن الخطاب نفسه من الشدة فقد فعل ذلك باعتباره حاكما أراد أن يعطى بنفسه القدوة للناس (واكثر الناس هم من البسطاء الذين لا يملكون) فأراد أن لا يتميز ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد أراد أن يقاوم مغريات الدنيا التى زحفت عليه حتى لقد جىء له بأموال الدنيا شرقا وغربا حتى قال لأصحابه ان شئتم كلنا لكم المال بالكيل وان شئتم بالوزن فبالوزن ، فى مواجهة هذه الحالة الجديدة احتفظ سيدنا عمر بطريقة حياته التى اعتادها ولم يشأ أن يغير فيها ويبدل فهى سياسة رشيدة لرجل عظيم لا تعرف الدنيا مثيله فى العظمة ، وقد نجحت هذه السياسة بصورة تذهل التاريخ ، اذ ظل هذا الرجل يحكم زعماء المسلمين بحيث كانت كلمة واحدة منه تجعلهم ينصاعون وذلك لتجرده وزهده واقتناع كل من حوله انه رجل اشترى آخرته بدنياه فعمر بن الخطاب لم يأخذ نفسه بالتقشف الشديد لان ذلك حكم الاسلام ، ولكن لان هذا هو ما أملاه عليه اجتهاده لاعلاء كلمة الاسلام وقد كان من ذلك على سبيل المثال أنه زار الشام بعد فتحه وهو راكب حمارا فلما وصل اليه احاط به قادة الجيوش الاسلامية وهم ركوب على الخيول الفاخرة والملابس الثمينة فلم ينكر عليهم ذلك أو كما تقول بعض الروايات أنه أنكر فلما قالوا له أنهم فى ثغر من ثغور الاسلام والوضع يحتم عليهم ذلك فسحب عمر اعتراضه والنتيجة واحدة فما كان لعمر أن يسحب اعتراضه ان لم يقتنع بأن هذا هو الحق .

الرواية عن سيدنا عمر

بعد هذا التمهيد الذى رأينا ان الواجب يمليه علينا حتى لا تختلط الامور نسوق ما يرويه المفسرون عن سيدنا عمر بصدد هذه الآية .

قال عمر بن الخطاب : لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا . ولكنى استبقى طيباتى للآخرة ، ولما قدم عمر الى الشام صنع له طعام لم يرقط مثله . قال هذا لنا

فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ، قال خالد بن الوليد : لهم الجنة فاغرورقت عينـا عمر بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الطعام وذهبوا هم فى حظهم بالجنة فلقد باينونا بونا عظيما ، (أى فازوا وخسرنا) وحكايات كثيرة مماثلة .

ـ بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون .

أى تتعاظمون عن طاعة الله وعباد الله بغير الحق وتعصون أوامره وهذه هى الآية التى تجعل القول موجها للكفار وليس للمؤمنين المبرئين من هذا الوصف والا لما كانوا مؤمنين .

ـ واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه الا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قومـا تجهلون . فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيهـا عذاب أليم . تدمر كل شىء بامـر ربهـا فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين . ولقد مكناهم فيمـا ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصـارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحـدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون .

مفردات :

الاحقاف : مكان فى جنوب شرق جزيرة العرب فيما يعـرف الآن بحضرموت وعمان والربع الخالى ، أى أن المكان ليس محددا بالضبط .

لتأفكنا : أى لتصرفنا أو تزيلنا عن طريق الافك أى الكذب .

عارضا : السـحاب يعرض فى الافق .

أفئدة : جمع فؤاد وهو القلب **حاق بهم : احاط او حل بهم .**

صرفنا الآيات : أى كررناها بأساليب مختلفة .

أفكهم : كذبهم .

يفترون : يكذبون .

قصة هود وقومه عاد :

وتحكى هذه الآيات الكريمة قصة عاد ، وقد ذكرناها من قبل وسنعود لذكرها حسب ورودها فى مختلف السور ، وقداشرنا كيف أن القرآن الكريم هو مصدرنا الوحيـد عن عاد وثمود . فقد كانوا من العرب البائدة الذين كانوا وانقرضـوا ، والعرب كما هم اليوم هم العرب المستعربة؛أما عاد وثمود فقد كانوا ثم أبيدوا والقرآن الكريم يقص علينا نبأهم وحـديث أفنائهم وذلك لتحذير قـريش أن يـلاقوا نفس مصيرهم ، ولكن من حسن حظ قريش أن الأمر انتهى بها الى الايمان .

وحديث عاد هو حديث سيدنا هود ،وقد أشير له فى هذه الآيات (أخا عاد) وقد جاء الى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام،بدعوة التوحيد وعبادة الله الحق ، ووجوب تحطيم الأصنام ، فما كان جواب قومه على هذه الدعوة الرشـيدة الا أن اسـتنكروا دعوته اياهم للتخلى عن عبادة الأصنام .

(**أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا**) أى لتصرفنا عن عبادتهم بالكذب والتضليل . ولما كان هود قد حذرهم من الاستخفاف بغضب الله ، فقد أمعنوا فى تحديه (**فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين**) وليس وراء ذلك تحد ورعونة أن يستعجلوا بطلب العذاب ، ولكنهم فعلوا ذلك لاظهار سخريتهم واستهانتهم بهود الذى رد عليهم رد الصادق الأمين (**قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون**) .

وجاء ما أنذر به هود وما كـانوا يستعجلون به من العـذاب ، وجاء على صورة سحاب كثيف ملأ الأفق ، فظنه قوم عاد أنه جـاء يحمـل الغيث الذى طال انتظارهم له ليروا أراضيهم ويرتووا (**فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا**) .

وكان الله وحده سبحانه وتعالى هو الذى يعلم أن الأمر ليس كذلك وانما هو العذاب الذى أنذر به ، وقد يـكون الله سبحانه وتعالى أوحى الى هود بذلك فكان هو القائل (**بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم**) .

نهاية عاد :

وقد كانت نهاية عاد بواسطة هذه الريح ((**تدمر كل شىء بأمر ربهـا فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القـوم المجرمين**) .

وقد ظل هذا الحادث يؤثر على سيدنا محمد طوال حياته فرويت عنه الأحاديث المختلفة أنه لم يكن يمشى لرؤية السحب كما اعتاد قومه أن يفعلوا فلما سألته السيدة عائشة فى ذلك ذكرها بهذه الواقعة ، ولم يكن يسرى على سيدنا محمد الا أن يرى المطر وقد هطل بالفعل .

موضع العظة :

وجاء موضع العظة فى القصة وماتنطوى عليه من تحذير لقريش ، فتقــول الآيات الكريمة (**ولقد مكناهم فيما أن مكناكم فيه**) وفى الكلام حذف تقديره (**لكنتم اشد عتوا وكفرا**) .

« **وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وافئدة فما أغنى عنهم ســمعهم ولا أبصــارهم ولا افئدتهم من شىء** » .

وهذا هو شأن الكفار والملاحدة فى كل زمان ومكان، لهم السمع والأبصار والقلوب والعقول ، وبدلا من أن يتوصــلوا بها لادراك الخــالق وما يــؤدى ذلك به الى اسعادهم تراهم يغفلون عن هذه الحقيقة فيعيشون فى هم وقلق دائمين فى الدنيا .

— **اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .**

اى واحاط بهم (فى الآخرة) ما كانوا به يستهزئون .

— **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون .**

يرى بعض المفسرين ان المقصود بالقرى التى كانت حول مكة وكانت أخبارها متداولة هى بلاد ثمود (الحجر) وقرى لوط ونحو ذلك وقلنا عن تصريف الآيات أنه يعنى تكرارها بأساليب مختلفة ، وقيل بل معنــاها اشــتمالها على الوعد والوعيد والمعنى تسع لكل من التأويلين والقصص لتكون أبلغ فى العظة (**لعلهم يرجعون**) .

— **فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون .**

لولا بمعنى هلا . اى هلا نصرهم آلهتهم (أيا كان نوع هــذه الالهة) التى يتقربون اليها (**بل ضلوا عنهم**) وقد اختلف المفسرون حول من الذى ضل عن صاحبه، اهى الالهة المعبودة أم العابدون لها ، وفى القــرآن الــكريم ما يدل على أن كلا من الطرفين يضــل عن صــاحبه يوم القيامة بمعنى يفترق عنه ويتبرأ منه ، بل ويختصمه ويتنكر له ، سواء المعبودات من عابديها أو العابدون من معبوداتهم ، وهكذا ينفضح (**افكهم وما كانوا يفترون**) .

— **واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين .**

تثير هذه الآية ثلاث قضايا :

ـ قضية الجن .

ـ كم مرة تم اجتماعهم بسيدنا محمد .

ـ هل رآهم سيدنا محمد رأى العين .

تعرضنا لموضوع الجن عند تفسيرنالسورة الجن ولا بأس من اعادة القول .

جاء فى معجم ألفاظ القرآن لمجمع اللغة .

الجن : الأصل فى الجن : ستر الشىء عن الحاسة ، يقال جن الشىء ، يجنه جنا مثل ستره وزنا ومعنى وكل شيء ستر عنكفقد جن عنك . وجن عليه وأجنه : ستره.

فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ويقال لمن حيل بينه وبين عقله مجنون .

والجنين : المستور من كل شيء والحمل فى بطن أمه ، وجمعه أجنة .

والجن : عالم مستتر لا يرى .

وهكذا تكون مادة الجن قد اشتقتمن الاستتار والخفاء ، ولعل هذا ما دفع ببعض المتحذلقين (بحسن نية طبعا) أنيؤولوا ما جاء فى هذه السورة مثل الذى جاء فى سورة الجن على أن المقصود بهم همجماعة الأنصار الذين اجتمعوا بسيدنا محمد فى موسم الحج خفية عن الناس عند العقبةوهذا التفسير نموذج لمن يجترئون على تفسير القرآن عن طريق المعنى اللغوىللالفاظ دون نظر للحقائق الاخرى .

ولقد دفع اصحابنا الذين قالوا بهذاالقول رغبتهم فى أن يوصفوا بالتجديد والعصرية والعصرية عندهم هو أن ينكرواوجود عوالم اخرى غير العالم الانسانى ويجهل هؤلاء السذج أن العصرية منتهىالعصرية هى التى اصبحت تسلم بوجود عالم غير منظور الى جوار هذا العالمالمنظور وعلى شاكلته تماما ، حقا لايطلقون عليه اسم الجن ولكننا بعد أن رأينا الاشتقاق اللغوى لكلمة جن وانه الاستتار والخفاء اصبح لا مناص من الايمان بأن هذا القرآنهو تنزيل من السميع العليم من خلق السموات والأرض وبالتالى يعلم كل مافيهامن عوالم ظاهرة وباطنة .

ولا شك أن القرآن الكريم حدثنا عنالعالم المنظور وغير المنظور وأشار الى أن سكان العالم المنظور هم الانس ، وسكانالعالم غير المنظور هم الجن ، وقد بعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام للانسوالجن معا ، وهذه الآية دليل ذلك وقدا أورد المفسرون فى هذا الموطن حكايات وقصصاطويلة ومسهبة عن حوادث وقعت لبعض افراد من الجن ويذهبون الى حد نعتهمبأسماء محددة ، ونحن نتجاوز عن كل هذه الحكايات باعتبارها لا تمت الى تفسيرالقرآن بأى صلة سواء عن قرب أو بعد وليس فى ذكرها أى فائدة وثمة مبحث آخريخوض فيه المفسرون وهو ما اذا كان الجن سيدخلون الجنة أو لا يدخلون ذلك أنالبعض قال انما يعفى الجن من عذاب النار

فقط ، وطالما قلنا أن هذه مباحث وأحكام تدور حول الغيب وحول مشيئة الله فى هذا الشىء أو ذاك وهو ما لا يجوز للانسان أن يقحم نفسه فيه والأمر يجب أن نستيقنه كمسلمين أن الجن مكلفون كالانس ، ومادام هناك تكليف فهناك ثواب وعقاب وقد بين لنا الله عز وجل أن الثواب يكون بدخول الجنة وأن العقاب يكون بدخول النار أما الكيفية ومن الذى سيدخل ومن لا يدخل فهذه أمور علمها عند الله .

مرة أو مرتان

أما القضية الثانية التى يثيرها المفسرون فتدور حول التقاء الجن بسيدنا محمد ، اجرى مرة واحدة او مرتين ، ذلك انه جاء فى سورة الجن ما يفيد سماع الجن للقرآن .

— قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . (الى آخر السورة) .

وهنا فى هذه السورة الحديث عن واقعة مماثلة ، فهل هما حديث عن نفس الواقعة أم هناك واقعتان مختلفتان ، ان الذين يقولون بانهما واقعتان يستندون الى قول منسوب الى عبد الله بن مسعود يفيد انه حضر مع رسول الله احدى الواقعتين على أن هناك أقوالا تنسب أيضا الى عبد الله بن مسعود وبنفس الدرجة تنفى على لسانه انه كان حاضرا ، ولذا رأينا استبعاد كلا القولين ، ومن شاء الاطلاع والاستقصاء فعليه مطالعة ابن كثير .

الواقعة كما قال بها ابن عباس .

والآن فلنثبت لك الواقعة كما أشار اليها ابن عباس وهى تمثل مشهدا مؤلما من مشاهد المعاناة التى كان يعانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبلغ الرسالة .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم لما مات أبو طالب خرج النبى صلى الله عليه وسلم وحده الى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة فقصد عبد ياليل ومسعودا وحبيبا وهم اخوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فدعاهم الى الايمان وسألهم أن ينصروه على قومه ، فقال أحدهم : ان كان الله أرسلك ؟ وقال الآخر ما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا أن كان أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وان كنت تكذب فما ينبغى لى أن أكلمك .

ثم اغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيع .

فقال (للمرأة) الجمحية : ماذا لقينا من أحمائك ؟

ثم قال : اللهم انى اشكو اليك ضعفىوقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى،لمن تكلنى الىعبد يتجهمنى أم الى عدو ملكته امرى ؟ ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى،ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضبك ، أو يحلعلى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك ، فرحمه ابنا ربيعةوقالا لغلام لهما نصرانى يقال له **((عداس))** خذ قطفا من العنب وضعه فى هذا الطبقثم ضعه بين يدى هذا الرجل ، فلما وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلمقال النبى : (بسم الله) ، ثم أكل ، فنظر عداس الى وجهه ثم قال : والله أن هـذاالكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنتيا عداس وما دينك ؟ قال : أنا نصرانى من أهل نينوى . فقال له النبى صلى الله عليهوسلم : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال : وما يدريك ما يونس بن متى؟قال : ذلك اخى كان نبيا وأنا نبى .

فانكب عداس حتى قبل رأس النبىصلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه . فقال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا ؟ فقال :يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا ، اخبرنى بأمر ما يعلمه الا نبى .

ثم انصرف النبى صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثقيف . حتى اذا كان ببطن نخلة قام من الليل يصلى فمر بهنفر من جن أهل نصيبين . وكان سبب ذلك أن الجن كانوا يسترقون السـمع ، فلماحرست السـماء ورموا بالشـهب قال ابليس : ان هذا الذى حدث فى السماء لشىءحدث فى الأرض ، فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أولهم ركب نصيبين وهم أشراف الجن الى تهامة ، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يصلىصلاة الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : انصـتوا ، وقالتطائفة : بل أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن ويدعوهم الى الله تعالى ويقرأعليهم القرآن . (انتهى) .

هذا جزء من الرواية التى اشتملتعليها كتب التفسير المطولة نقلناها لك عن القرطبى ويعلق ابن كثير على هذه الروايةبعد ايرادها بأن ذهاب سيدنا محمد الى الطائف كان قبل عـامين من الهجـرة ،واستماع الجن للقرآن كان فى بداية الدعوة مما جعله يجوز أن يكون الجن قد التقوابسيدنا محمد مرتين ثم يفوض العلم لله ، ونحن لا نزعم أننا تقصينا هذا الموضوعبالبحث ولذلك فان رأينا لا يعدو أن يكون مجرد احساس وما كنا لنثبته لولا أنه يوافقما قال به جمهرة من المفسرين وهو أن ماجاء فى سورة الأحقاف هو عين ما جاء فى سورةالجن وهذا يجرنا الى المبحث الثالث .

هل رأى سيدنا محمد الجن

انقسم المفسرون حول هذه القضية ، فالبعض يقرر أنه جالس الجن وسمع منهم وسمعوا منه ، وفى بعض الأحاديثالتى نقلت عن عبد الله بن مسعود ما يفهم منه ذلك .

وفى تفسيرنا لسورة الجن تمسكنابنص الآية « **قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن** » أى أن مصدر علم سيدنا محمدهو الوحى وهذه الآيات التى نحن بصددها ليس فيها ما يمكن أن يخالف هذا الرأى ،والله تعالى أعلم .

وبعد ذلك نمضى فى تفسير الآية .

— **واذ صرفنا اليك نفرا من الجن** يستمعون القرآن .

الرأى عندنا هو ترجيح قول من قالمن المفسرين انها اشارة الى ذات الواقعة التى وردت فى سورة الجن .

— **قل أوحى الى انه استمع نفر منالجن . فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا .**

ومعنى صرفنا اى وجهنا اليك وبعثنا.

فلما حضروه : اى حضروا النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل لما حضروا القرآن واستماعه .

قالوا أنصتوا : أى قالبعضهم لبعض : اسكتوا ، وهذا ما يرجح أن سيدنا محمدا لم يكن يراهم والا كان هو الذىأسكتهم والدعوة الى الانصات اذا تلى القرآن هى الأدب الواجب فى حق القرآنالمفروض على سائر المكلفين .

— واذا قرىء القرآن فاستمعوا لهوأنصتوا .

فلما قضى : أى فلما فرغ رسول اللهمن تلاوة القرآن .

« **ولوا الى قومهم منذرين :** أى أن الجنبعد أن سمعوا القرآنولوا الى قومهم أى هرعوا الى قومهم منذرين .

— **قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم .**

يقص القرآن علينا ما حكاه الجن لاخوانهم بعد أن سمعوا القرآن وهذه الآية تفيد علما دقيقا عميقا ما كان لسيدنا محمدالأمى الذى لا يقرأ العائش فى صحراء العرب بعيدا عن العلم والعمران أن يدرك هذهالحقيقة ، لولا أنه لم يكن بشرا عاديا وانما كان يوحى اليه ، فقليلون جدا هم الذينيعرفون أن سيدنا عيسى لم يأت بشريعة جديدة ، وان ما جاء لاصلاح ما أفسده اليهود من الشريعة الموسوية جاء فى الانجيل على لسان المسيح :

« **ما جئت لاهدم الناموس ولكن لاكمله** » .

من أجل هذا فالمسيحيون فى العصورالحديثة بعد أن أباحوا طبع هذا الكتاب المقدس ونشره فهم يطبعون التوراة ويطلقون عليها اسم العهد القديم ، ثم يلحقونها

بالأناجيل الأربعة مطلقين عليها اسم العهدالجديد ويتخذ المسيحيون من الكتابين معا ما يعتبرونه الكتاب المقدس كل هذه الحقائقلم تصبح معروفة بهذا التفصيل الا فى عصرنا الحاضر ، أما على أيام سيدنا محمدعليه الصلاة والسلام ، فالصورة جد مختلفة فالمسيحيون هم سادة العالم (الروم)حيث اليهود شراذم مبعثرين فى الأرض والعداء قائل بين اليهود والنصارى ، ولمتكن هناك كتب منشورة فضلا عن مطبوعة يمكن للدارس أن يستخلص ما يخالف هذاالوضع العالمى السائد من أن النصرانية شىء يختلف كل الاختلاف عن اليهودية ،ومع ذلك فها نحن أولا نطالع فى القرآن على لسان الجن هذه الحقيقة التى لم يكن يعرفهاأحد فى صحراء العرب منذ أربعة عشر قرنا من أن الشريعة أنزلت على موسى ، وأنالقرآن الكريم هو الكتاب التالى الذى جاء بشريعة تنسخ الشريعة التى أنزلت علىموسى . (١)

ـ مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحقوالى طريق مستقيم .

أى أن القرآن وان جاء بشريعة جديدة ، الا انه فى الموضوع الأساسى وهو التوحيد والدعوة الى الخير وكل ما يرشدمخلوقات الله الىما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم فالجوهر واحد لان المصدر واحدوهو الله عز وجل .

ـ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوابه يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم .

فى هذا السياق منذ بدأ الحديث عنالجن تسرية عنسيدنا محمد وتوبيخ وتقريع لقريش ، فاذا كان الانس يا محمد كذبوكفهاهم الجن ذلك العالم غير المنظور قد آمنوا بما تدعو اليه . وهو تقريع وتوبيخ للكفاروالمشركين فها هم الجن يسبقونهم بما كان ينبغى عليهم يقولوه ويفعلوه وهو تلبيةدعوة سيدنا محمد الى الله حيث أن ذلك هو السبيل الوحيد للنجاة من عذاب الآخرة .

ـ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين) .

معجز : أى فائت بالهرب .

جاء فى سورة الجن ما نعتبره تفصيلالما أجملته هذه الآيات .

ـ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا .

والقول فى كلتا الآيتين ايماء الى الانسأنه اذا كان الجن المقول بأن قدرتهم لا حد لها يقررون بأنهم أعجز من أن يهربوا منالله أو يجدوا لهم (من دونه أولياء) وعلى ذلك فليتيقن كل من لايؤمن انسا كان أو جنا أنه فى **(ضلال مبين)** .

---

(١) هذا هو الرأى الذى نأخذ به فى موضوع الناسخ والمنسوخ .

— أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى أنه على كل شيءقدير . ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجللهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القـــومالفاسقون .

مفردات :

يعى : يتعب : يعجز : يضعف .

أولو العزم من الرسل : ذوو الحزموالصبر .

فلا تستعجل : اى لا تستعجلبالدعاءعليهم .

— أو لم يـــروا أن الله الذى خلق الســـموات والأرض ولم يعى بخلقهن —
الرؤية هنا (أو لم يروا) تعنى العلم ، أىأفلا يعلمـــون أن من كان قادرا على خلق الأرض بكل عجائبها والسموات بكل ابعادها واجرامها السماوية . **بقادر على أن يحيى الموتى ،** فليس اعادة ميت الى الحياة،بأعصى وأصعب من خلق الكون .

بلى أنه على كل شيء قدير

واذا كان الله سبحانه وتعالى يضعالســؤال أمام عقول البشر فانه يحســم القضية « بلى » أى نعم هو **(على كل شيء قدير) .**

— ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق .

يكذب الكفرة والماديون والملحدون بيوم القيامة ولكنه آت لا ريب فيه ويشـــهد المكذبون النار ويعاينونها عين اليقين ويسألهم السائل : **أليس هذا بحق ؟**

وينطقهم السميع العليم بالحكم علىأنفسهم « **بلى وربنا** » أى نعم والله القيامة حق والنار حق. ولكن هذا الاقرار المتحمسجاء بعد فوات الوقت ومن هنا يقال لهم **(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .**

— فاصبر كما صبر أولوا العزم منالرسل .

طالما نبهنا الى أن فى قصص الرسلفى القرآن قد أريد بها فيما أريد من أغراض التسرية عن سيدنا محمد وافهامه انه مامن رسول سبقه الا وأوذى من مواطنيه ولكنه صبر وكابد الى أن انتصر وهاهى ذىالآية الكريمة تصرح بذلك تصريحا فتدعو رسول الله الى التحلى بالصبر كسابقيه منالرسل .

من هم أولوا العزم من الرسل .

حاول جمهور من المفسرين أن يقسموا الرسل الى أولى عزم ، ومن لا عزم لهم ، وقد دفعهم الى هذا التصور أن حرف **((من))** للتبعيض فيكون معنى من الرسل : أى بعض الرسل واختلفوا فى عدد الرسل مابين أربعة : ابراهيم وموسى وعيسى وداود وقال البعض خمسة وقالوا ستة ، وقال البعض انما قصد بهم نجباء الرسل وهم المذكورون فى سورة الأنعام وعدتهم ثمانية عشر . ويستشهد كل على قوله بآيات من القرآن .

كل الرسل أولوا عزم .

ولم نرتح نحن من ناحيتنا لهذه الأقوال ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يختار رسله لتبليغ رسالته وما كان ليختار من ليس له عزم وتصورنا انه لم يوقع أصحابنا فى هذا المزاق الا اصرارهم على أن حرف من للتبعيض . ولكن ((**من**)) كما تكون للتبعيض فهى تفيد الجنس ((**فاجتنبوا الرجس من الأوثان**)) فلا يمكن التصور بحال ان المقصود هو بعض الأوثان ، وانما المقصود هو جنس الأوثان . على أن هذا الرأى مهما كان اقتناعنا به فما كان لنا أن نسوقه على انه الرأى ، لولا أنه قد سبقنا اليه حبر هذه الأمة ابن عباس ولانقل لك ما جاء فى القرطبى بهذا الصدد :

وقال ابن عباس أيضا : كل الرسل كانوا أولى عزم ، واختاره على بن مهدى الطبرى (وهو غير ابن جرير) قال : وانما دخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما تقول: اشتريت أردية من البز وأكسية من الخز(١) .

ولا تستعجل لهم : أى لا تستعجل عليهم بطلب العذاب .

ـــ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار .

وصف لحالة الكفار يوم القيامة وكيف تصبح الحياة الدنيا بكل طولها تبدو وكأنها ساعة من نهار ولا يتصور متصور أن كلمة الساعة هنا بمفهومها المتفق عليه من أنها تعنى ستين دقيقة وانما هى هنا كناية عن قصر اللمحة الزمنية .

بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون

اى أن هذا القرآن بلاغ فاحذروا من عدم الايمان به وما دعا اليه ، فليس هناك من نتيجة لذلك الا هلاك وبوار كل من يخرج عليه والله ولى التوفيق .

---

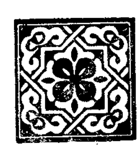
(١) نأخذ على هذا المثال أن (ص) تفيد الجنس والتبعيض معا فالمشترى لا يمكن أن يشترى كل الجنس .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ
مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ
ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ
يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ
وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ
ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا
نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى
وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ
مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ
أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ
ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ
ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ
ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾



الذى فى المصحف وعليه الاعتماد أن السورة اسمها سورة محمد ، ولكنا وجدنا من المفسرين من يطلقون عليها اسم سورة القتال ، ولسنا نفهم سببا لذلك ، فاذا كانت السورة قد اشتملت على آيات تتحدث عن القتال فهى ليست السورة الفريدة التى تحدثت عن القتال ولا هى أول سورة اذنت لسيدنا محمد بالقتال ، ولا هى اقتصرت على ذكر القتال ، ومن هنا فنحن لا نقف عند القول بأن المقرر فى المصحف ان اسم السورة محمد ، بل ونزيد أن لو كان لنا أن نختار بين تسميتها بسورة محمد أو القتال ، لما ترددنا لحظة فى اختيار اسم محمـــد ، ومن حســـن الحظ أن هوانا هو بعينه نص ما جاء فى المصحف ونحن ننصح كل مسلم أن لا يسمى هذه السورة بغير اسمها الحقيقى وهو محمد .

وسنرى عندما نستعرض الآيات أن اسم سيدنا محمد قد ورد بنصه فى السورة وما اجمل واكمل أن لا تخلو اسماء سورة القرآن من اسم محمد .

ســــورة مدنية :

الذى فى المصحف أن عدد آياتها (٣٨) وهى سورة مدنية تتحدث عن الحـــرب والقتال وتضع لهما القواعد والمبادىء شأن القرآن بالنسبة لكل مظاهر الحياة اذ ينظمها ويضع لها ما يتفق وسنن الحياة .

هل الاسلام دين حرب ؟

وهذا يجرنا الى بحث دقيق وعميق ، وهو هل الاسلام دين حرب ؟ ونستميح القارىء عذرا اذا نحن استفضنا بعض الشىء فى بحث هذا الموضوع .

ونريد بداءة ذى بدء ان نقرر أن الاسلام دين وقد قرر الله سبحانه وتعالى بصريح النص : ((**لا اكراه فى الدين**)) وهذا نص تقريرى عندما يقرره الله عز وجل فهو تقرير عام خالد ومستقر لا يجوز المماراة فيه .

ـ المبدأ كما طبقه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

وحتى لا تضل بنا السبل فى معرفة أسرار الشريعة فما علينا الا أن نستلهم مبادئنا ونحســـن فهمها من كيفية تطبيق سيدنا محمد لها .

وقد رأينا بمناسبة سورة الفتح ما جرى فى صلح الحديبية ، وكيف آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الســـلام على الحـــرب مع قدرته عليها اذ كان معه ١٥٠٠ مقاتل بايعوه على الاستشهاد اذا لزم الأمر ، وقد كانت الغلبة مضمونة ومؤكدة بدليل أن المسلمين جميعا كانوا آسفين وكانوا حزانى لعودتهم من مكة بدون حرب ، وما ذلك الا ليقينهم انهم لو حاربوا لانتصروا وهو أمر أكده الله سبحانه وتعالى فى سورة الفتح كما رأينا ((**ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار**)) .

العفو عن مشركى قريش

ولقد أمكن الله عز وجل سيدنا محمد بعد فتح مكة من مشركى قريش الذين اخرجوه وقاتلوه ، وكانوا شديدى العزم والرغبة فى القضاء على المسلمين ، ومع ذلك وبعد أن كسرت شوكتهم ، ولم يعودوا خطرا على المسلمين ، فقد عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودار بينه وبين مشركى قريش الحوار التاريخى الخالد :

— **يا أهل مكة ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟**

— **خيرا أخ كريم وابن أخ كريم .**

— **اذهبوا فأنتم الطلقاء .**

وهكذا بعد اكثر من خمسة عشر عاما من جرائم المشركين وحربهم للمسلمين صدر هذا العفو العام الشامل الذى أسدل الستار على المـــاضى وذلك فى اللحظة التى وصل فيها رسول الله الى ذروة القوة العسكرية فقد كان عدد جنوده عند فتح مكة عشرة آلاف ، فدل ذلك على أن رسول الله لا يقاتل لمجرد القتال ، وانما هو قد قاتل عندما قاتل دفاعا عن النفس والعقيدة ، فأما وقد أصبحت النفس آمنة ، والعقيدة فى حرز حريز فلم يعد هناك مبرر للقتال . وقد كان من المتصور أن يشترط عليهم رسول الله أن يدخلوا فى دين الاسلام قبل أن يعفو عنهم وهو لو طلب لبادروا على الفور مستجيبين . ولكنه منحهم العفو بدون قيد أو شرط حتى اذا اعتنقوا الاسلام بعد ذلك اعتنقوه عن طواعية واختيار تطبيقا للمبدأ الخالد **((لا اكراه فى الدين))** .

وجلس الرسول صلوات الله عليه غداة فتحه مكة يتلقى بيعة من يريد أن يبايعه على الاسلام عن طواعية واختيار .

وهذا هو الاسلام وهذه روحه وهو ما فهمه عمر بن الخطاب وطبقه .

فتح فارس :

قد لا يعرف الكثيرون أن فتح فارس (ما وراء النهرين) بالصورة التى تم بها ، كان على غير رغبة سيدنا عمر ، فبعد المعارك الأولى بين جيوش المسلمين والفرس على أرض السواد ، وهو ما يعرف الآن (بالعراق) فقد تصور سيدنا عمر لحرصه الشديد على أرواح المسلمين أن لا تتقدم الجيوش الاسلامية بعد ذلك ، ولكنه فوجىء بالثورات تترى فى أرض العراق رغم كل ما بذله من جهد لاقرار العدل واستتباب الأمن ، وكان قواد جيوشه يؤكدون له أنه ما لم يسمح لهم فى أن (ينساحوا) الى بلاد فارس ويحطموا قوة كسرى العسكرية فلن يكون هناك سلام ، اذ سيظل كسرى يثير الفتن ، وما بقيت قوته العسكرية قائمة فسيظل يعمل فى هذا السبيل ،

وتوالت الفتن (فى أرض السواد) وأخير اقتنع سيدنا عمـــر بضرورة المضى فى محاربة كسرى ، لا لنشر الاسلام بالسيف كما يزعم الزاعمون ، ولكن لكى يستتب الأمن والنظام وينعم البشر بالعدل . وأعطى سيدنا عمر الاذن لقواد جيش المسلمين ان ينساحو فى الأرض فانساحوا ، وكان أن دخلت فارس كلهـــا تحت ظل الحـــكم الاسلامى ، وكانت تعرف فى ذلك الوقت ببلاد ما وراء النهرين (الدجلة والفرات) وأحيانا ما وراء النهر .

لا اكراه فى الدين :

فاذا كانت الحروب الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين قد انتهت الى ما انتهت اليه من تقويض أعظم قوتين عرفهما البشر آنذاك ، وهما قوة الروم والفرس ولا يشبهما فى التاريخ الا قوتى الولايـــات المتحـــدة والاتحاد الســـوفيتى فى الـــوقت الحاضر ، أقول اذا كان المسلمون قد قاموا بهذه المعجـــزة ، فقد كان ذلك بتوفيق من الله لا بقوة عسكرية فالقوة العسكرية كانت فى الجانب الآخر وحسبنا أن نتصور انه فى احدى المعارك استخدم الفرس فيلا واحدا فنكل بالمسلمين تنكيلا شديدا ، فما كان من الفرس الا أن استخدموا فى المعركة الثانية بضعة عشر فيلا ، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون ومن ناحية أخرى يحاول بعض المستشرقين أن يصوروا الموقف على أن الضعف والفساد كان قد أوهن الدولة الرومانية وهذا هو ما مكن المسلمين من الانتصـــار عليهم ، وهو مجرد تخرصات فقد كانت الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها وعظمتها على عهد هرقل امبراطور الروم (على ما بينا بالتفصيل فى كتابنا موسوعة تاريخ مصر) .

فالانتصارات العسكرية التى أحرزهـــا المســـلمون فى عهـــد الخلفاء الراشـــدين شىء غير قابل للتعليل الا أنها معجزة الهية أراد بها الله عز وجل أن يحقق وعده **((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات)) .**

فالمسألة بكل ما يحيط بها آية ربانية ، وانما الذى يعنينا من ذلك كله هـــو كيف فهم سيدنا عمر رضى الله عنه روح الاسلام وكيف طبق مبادئه حيال الحرب والســـلام .

الجزية والخراج :

فالمعروف أن العجم كانوا يعبدون النار ومن هنا فضـــل القرآن الروم على العجم باعتبار أن الروم أهل كتاب ، على ما يفهم من ســـورة الروم **((الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .**

ومناسبة نزول هذه الآية قصة سوف نعرض لها فى حينها ، والذى يهمنا هنا أن نسجله هو الحديث عن فرح المؤمنين بانتصار الروم على الفـــرس وذلك ردا

على مشركى قريش الذين فرحوا لانتصار فارس على الروم الذين هم من أهل الكتــاب .

ومع ذلك فقد صالح سيدنا عمر أهل فارس على الجزية أسوة بأهل الكتاب وما لم يفعل ذلك لظلت الحرب مستعرة بين الفرس والعرب ، ومن ناحية أخرى فقد امتنع سيدنا عمر عن توزيع أرض السواد على المسلمين الفاتحين باعتبارها غنائم ، وأبقى الفلاحين على أرضهم فى مقابل الخراج ، وقد فصل هذه القضية « ابو يوسف » فى كتاب الخراج ونقلناه عنه فى كتابنا من « قضايا الرأى فى الاسلام » فالحرب ليست أحــد أركان الاسلام كما يتصور البعض خطأ وانمــا هى ضرورة تقاس بموجباتها .

قدامى المفسرين :

وعندما شرع فى تدوين تفسير القرآن كانت الدولة الاسلامية هى أعظم وأقوى دولة فى العالم بعد أن أصبحت تسيطر على آسيا وأفريقيا وحتى أوربا ســيطر الاسلام على الجزء الأشهر منها والأعظم وهو أسبانيا والبرتغال وكادت فرنسا كلها تصبح تحت سلطان المسلمين لولا هزيمتهم فى معركة (بواتييه) واذا كان شرق أوربا قد ظل بعيدا عن متناول السيطرة الاسلامية فقد جاء الأتراك ليستأنفوا الفتوح الاسلامية فوصلت جيوشهم الى أسوار فينا ، بعد أن أصبح ما يعرف الآن بيوجوسفلايا وتشكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان تحت سلطانهم فلا عجب وهذا هو مدى قوة المسلمين العسكرية أن يجتهد المفسرون فى دعم ذلك كله من آيات القرآن حتى لقد ذهبوا الى حد القول الى أن كل ما اشتمل عليه القرآن الكريم من مثل : « **فاصبر** » و « **اصفح** » و « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** » « **فذكر انما أنت مذكر** » كل هذه الآيات وأمثالها قد نسخ بآية السيف .

وقد ناقشنا موضوع الناسخ والمنسوخ بالتفصيل فى كتابنا « **الاسلام ورسوله بلغة العصر** » وانتهينا الى القول أن كل آيات القرآن الكريم عاملة الى يوم الدين عندما تتهيأ ظروفها ففى مثل عصرنا الحاضر حيث غلب المسلمون فى مجموعهم على أمرهم وانتقلت القوة من ايديهم فلا مجال للحديث عن الحرب الا أن يكون دفاعا عن النفس والعقيدة كما هو شأننا بالنسبة لاسرائيل أما الحديث عن نشر الاسلام بالسيف فأحسب أن ذلك ليس من مصلحة المسلمين أو الاسلام فى شىء .

شاهد من هذه السورة :

وسنرى ونحن نعرض بالتفصيل لآيات هذه السورة كيف نحا بعض قدامى المفسرين هذا المنحى وبالغوا فيه ولو على حساب المعنى اللغوى والاصطلاحى معاعلى بعض الآيات . من مثل « **حتى تضع الحرب أوزارها** » والتى تعنى بكل

وضوح نهاية الحرب ، ولكنهم فسروها كما سوف نرى على أنها تعنى أن يزول الشرك والكفر من فوق ظهر الأرض . كما فسروا كلمة ((**يثخن**)) والتى تعنى : يوهن أو يضعف بأنها تعنى يقتل ويهلك مع أنها لو تعنى ذلك لمـــا استقام المعنى كما سنرى .

وحسبنا أن نشير الى أن البعض كما قدمنا قد استحب أن يسمى السورة سورة القتال بدلا من سورة محمد كما هو مثبت فى المصحف وبعد هذا التمهيد نشرع فى تفسير السورة فنقول وبالله التوفيق .

ـــ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم :

أضل أعمالهم : أى احبطها وأصبح لا قيمة لمـــا اسموه مكارم الأخلاق . (يعنى كفار قريش والكفار من كل صنف فى كل زمان ومكان) .

صدوا عن سبيل الله : أى حالوا ومنعوا وقاوموا رسالة محمد عليه الصلاة والســـلام .

قال ابن عباس : نزلت فى المطعمين ببدر وكانوا اثنى عشر منهم أبو جهل وأمية بن خلف وآخرين عددهم بأسمائهم وكانوا على سبيل الفخر تباروا فى اظهار الكرم باطعام جيش الكفار الذى تصدى لحرب سيدنا محمد فى غزوة بدر . فكان أن أحبط الله أعمالهم ورد كيدهم ودارت عليهم الدائرة كما نعرف .

ـــ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم .

اسم سيدنا محمد فى القرآن :

ورد اسم سيدنا محمد فى القرآن أربع مرات . فى هذه الآيات .

ـــ **محمد رسول الله والذين معه** (الفتح) .

ـــ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم** (الأحزاب) .

ـــ **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل** (آل عمران) .

وورد باسم (أحمد) مرة واحدة وكلا من محمد وأحمد مشتق من الحمد ، ولعل مجرد تسمية النبى صلوات الله عليه بمحمد من طفولته هو بذاته من أعلام النبــوة ذلك أن اســم محمد لم يكن من الاسماء المألوفة عند العــرب الذين كانوا يفضلون الأسماء الخشـــة والقاسية بل الوحشية والمخيفة لأبنائهم من مثل : وحش

أسد ، عكرمة ، مضاض .. الى آخره ،ولذلك فلم يفت قريش تسمية سيدنا محمد بهذا الاسم الرقيق الذى لا عهد لهم به من قبل(١) فدار بينهم وبين جـده عبد المطلب الحوار التالى :

ـ لم رغبت يا عبد المطلب عن أسماء أهل بيتك ؟

فرد عليهم بقوله :

ـ أردت أن يحمده الله فى السماء ويحمده خلقه فى الأرض .

وقد قال أهل اللغة فى معنى محمد:كل جامع لصفات الخير يسمى محمـدا وقد قلنا فى كتابنا « نبى الانسانية » تعليقا على هذه التسمية ما يأتى :

« ونحن لا نملك انفسنا من أن نقف طويلا أمام هذه التسمية باعتبارها الهاما من الله لعبد المطلب أو لأمه آمنة لاطلاقهذا الاسمالمشتق منالحمدعلى هذا المولود الجديد وهكذا يتوج اسم محمد هذا الحشد من الأسماء الكريمة غير العادية فى البيئة العربية فالأب عبد الله والأم آمنة والمرضعة حليمة السعدية ، والحاضنة أم ايمن بركة وهكذا تتلاحق الصفات الطيبة ابتداء من العبودية لله (الأب) والأمن (الأم) والحلم (المرضعة) واليمن والبركة (الحاضنة) لتكون هى أخلاق النبوة وطابعها وخصائصها وقد بقى أن نشير لخاصية اسم محمد ، أن قريشا عز عليها بعد أن بعث سيدنا محمد أن تطلق عليه هذا الاسم الجميل فراحت تتحدث عنه باعتباره « **مذمما** » فكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما معناه : « **انهم يسبون مذمما وأنا محمد** » وهكذا شاءت ارادة الله أن يصرفهم حتى عن سب كلمة « محمد » .

عمومية الآية :

حاول بعض المفسرين أن يخصص مدلول المؤمنين الذين آمنوا بما نزل على محمد بأنهم هم الأنصار وقال آخرون بل هم المهاجرون ، والجمهور على أن المقصود هم كل من آمن بما نزل على محمد ، أى القرآن وهو الحق من ربهم ثم عمل صالحا ، فكل من فعل ذلك الى يوم الدين فالله سبحانه وتعالى يعده أن يكفر عنه سيئاته أى يتغاضى ويعفو عما قد يقع فيه من أخطاء ، وفوق ذلك « يصلح بالهم » وقد قيل أن ذلك معنـاه أن يصلح أمورهم ، أو شـأنهم أو حالهم ، وكل ذلك متقـارب .

وقد يرد البال بمعنى القلب أو العقل باعتبار واحد منهما محل الفكر تقول : خطر على بالى .

---

(١) طالعنا فى بعض كتب السيرة المتأخرة أنه وجدفى العرب من تسمى قبل بعثة الرسول باسم (محمد) ونحن نتصور أن لو صح هذا فلا بد أن يكون ذلك قدحدث بعد تسمية سيدنا محمد بذلك فكان قد شاع أن سيخرج من العرب نبى اسمه محمد فراح البعضيسمون أولادهم كذلك .

راحة الضمير :

ونحن يجب أن نضيف ما نحسه نحن من عبارة أصلح بالهم ، وبالتالى نعبر عنه بالتعبير المعاصر ، فنحن نشهد أن المؤمن الذى يعمل الصالحات يشعر براحة الضمير ، وهدوء النفس وطمأنيتها ، وهذا هو فضل الايمان على صاحبه فى الحياة الدنيـــــا .

وهذا فارق ما بين الذين كفروا فهم فى ضلال وبهتان وباطل وظلام ، حيث يعيش المؤمنون فى الحق والنور والطمأنينة ((**كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**)) أى يبين لهم الخير من الشر ، والحسن من القبيح ، مستخدما نفس كلامهم وما ألفوه من التعبيرات ليكون أقرب الى أذهانهم .

فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم .

مفردات :

جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم للمجمع اللغوى :

يثخن : ثخن الشىء يثخن ثخانة : غلظ ولمـــا كانت الثخانة يصحبها فى العادة ثقل وضعف فى الحركة استعير منها مثل قولهم أثخنت فلانا (أى أضعفته وأوهنته بالجراح) .

أثخنتموهم : أى أضعفتموهم بالقتل والجرح عن المقاومة .

وجاء فى قواميس اللغة القديمة أثخنته : أوهنته بالجراحة وأضعفته .

تضع الحرب أوزارها : كناية عن انقضاء الحرب والمعنى على حذف مضاف والتقدير « حتى يضع أهل الحرب أثقالهم » فأسند الفعل الى الحرب مجازا ويسمى السلاح وزرا لثقله على لابسه .

وجاء فى المعجم : ويقال أوزار الحرب آلاتها وأسلحتها اذ كانت أحمـــالا ثقيـــلة .

من : من على الأسير أطلقه من غير فدية .

ناموس الحرب :

نصل الآن الى الآية التى لا تخرج عن كونها ناموسا لتنظيم الحرب جريا على خصائص القـــرآن من حيث كونه ينظم كل السنن الاجتماعية ويضـــع لها القواعــــد والضوابط الالهية التى تهذبها لتكون أكثر صلاحية لخير البشر .

فقد كانت القاعدة قبل الاسلام فى العصور القديمة جدا هو قتل الأسرى جميعا فالمسألة بين المتحاربين أن كلا منهما يريد افناء الآخر ، ثم تطورت هذه الحالة فشرع نظام الرق فأصبح الطرف المهزوم رقيقا وبالتالى فقد وقع فى الأسر ، رقيقا (عبدا) بطريقة آلية وجاء الاسلام ينظمه يهذب كل شىء ، ويجعل ريح الرحمة تنفذ الى كل شىء ، حتى فى الحرب ، فهدف الحرب كل حرب ، لم يعد هو افناء العدو وانما كسر شوكته واضعافه وبالتالى كف أذاه ودفع شره فاذا تحققت هذه الغاية ، فقد أصبح على الطرف المنتصر ان يفتح الباب أمام كل أسير ليشترى حريته فمن لم يقدر على دفع الفدية فمن حق ولى الأمر (وهو هنا الطرف الغـالب والمنتصر) أن يمن على الأسرى كلهم أو بعضهم باطلاق سراحهم (بغير عوض) وهو ما فعله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما رأينا فى أهل مكة بما فيهم المحاربون .

هذه هى القواعد الثلاث التى تنظمها الآية :

١ ــ **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب .**

٢ ــ **حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق .**

٣ ــ **فاما منا بعد واما فداء .**

ــ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب :

هذه هى القاعدة الأولى والأساسية فى الحرب خلال أى معركة وهو أن يكون الهدف الأول والأخير هو ازهاق روح الخصم واعدامه ومن هنا فقد استعمل القرآن أقسى تعبير وهو (ضرب الرقاب) حتى ينفذ الى قلوب السامعين فلا مجال ابان وطيس المعركة للتحدث عن الرحمة أو الشفقة أو الرفق فان ذلك كله له مكانه ودوره بعد المعركة لا أثناءها ، ذلك أن المسـألة خلال المعركة اما قاتل أو مقتـول ولأن تقتل عدو الله وعدو الحق خير من أن تقتل على يده ، ويقتل فى المعركة من يتردد ولو لثانية واحدة ، هذا هو ناموس الحرب وهذا هو قانونها ازهاق روح العدو عبر عنه القرآن ببلاغته وبيانه فى جملة ((**فضرب الرقاب**)) .

ذلك أن الحرب فى هذه الفترة التى نزل فيها القرآن الكريم تتم من خلال الالتحام وأقوى أسلحة الالتحام هو السيف وأنجح طريقة وأسرعها لابطـال كل مقاومة للعدو هو فصل رأسه عن جسده ولهذا يشير القرآن ((**فضرب الرقاب**)) .

هذا هو ما يأمر به القرآن المؤمنين أن يفعلوه خلال المعركة .

وسنرى فى (سور قادمة) انه يزيد الأمر تفصيلا فاذا لم يستطع المؤمن أن يقتل خصمه فى المعركة فلا أقل من أن يثبت .

— **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا .**

أما الفرار من المعركة فشيء حظر على المؤمن حظرا كاملا .

— **اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار .**

هذه هي المبادىء التي يجب ان يكون عليها كل مؤمن يحارب في سبيل الله وهي كلها تنطوي على فكرتين لا ثالث لها وهما النصر أو الاستشهاد في المعركة وقد وعد الله الشهيد بأرفع الدرجات في الجنة ، بل وعدهم بالحياة الدائمة .

— هدف الحرب الحقة هو كسر شوكة العدو

نصل الآن الى المبدأ الرحيم الذي ادخله الاسلام على الحروب العادلة والشرعية فهذه الحروب لما كانت ضرورة اقتضاها حق الدفاع عن النفس والعقيدة فهي تقاس بموجباتها ، وموجبات الحرب هي بغي العدو وتسلطه وعدوانه ، وهو ما كان ليتسلط ويعتدي ويبغي الا لفرط قوته وعنفوانه ، ومن ثم فقد كان ولابد بداءة ذي بدء أن نحطم هذه القوة والعنفوان ونكسر الشوكة وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بكلمة ((**أثخنتموهم**)) وقد رأينا معنى الكلمة اللغوي ومعناها الشائع (اثخنته بالجراح) أي أضعفته وأوهنته .

ولذلك فنحن لا نقول بقول ابن كثير ومن سار على نهجه بأن معنى أثخنتموهم اي ((أهلكتموهم قتلا)) وما كنا لنخالف ابن كثير اعتمادا على المعنى اللغوي فقط او استنادا على قول غيره من المفسرين فمكانة ابن كثير في نفوسنا عظيمة ولابد أن يكون الذين يتابعوننا في هذا التفسير قد استشفوا ذلك ، وانما سمحنا لأنفسنا ان نخالفه استنادا الى الآية نفسها والتي لا تستقيم ولا يكون لها معنى اذا كانت كلمة أثخنتموهم تعني أهلكتموهم قتلا فلو أننا أبدنا العدو وأفنيناه بالقتل ، ففيم الحديث اذن عن الأسر والفداء والمن ، ان الحديث عن ذلك يعني أن أعدادا من العدو قد ظلوا احياء بعد المعركة ، فدل ذلك على وجه القطع واليقين على صحة ما قاله المجمع اللغوي وما جاء في معاجم اللغة أن الاثخان هو اضعاف العدو وكسر شوكته وليس هو (الاهلاك قتلا) .

ولا جدال أن شيخنا ابن كثير قد أراد بهذا التعبير ما عبر به القرطبي من أن أثخنتموهم تعني (أكثرتم من القتل) ومرة أخرى نقول ان الاكثار من القتل ليس هدفا في حد ذاته وانما الهدف هو استسلام العدو فاذا فرضنا أن الله قد قذف في قلوب الذين كفروا الرعب فاستسلموا بغير قتال فقد قضى الأمر وحل المبدأ الثالث .

فاما منا بعد واما فداء :

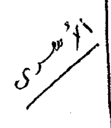
والحق أن هذه هى الخاتمة الطبيعية لأى حرب مشروعة وعادلة فهى لا تستهدف القتل لمجرد القتل أو التدمير لمجرد التدمير وقد جاء سيدنا محمد هاديا ومرشدا وأن يهدى الله به النـــاس هو محور حياتهوكل كيانه وهـــو لم يمتشـــق الحســـام الا استمرارا فى دعوته الى التوحيد والتخلى عن عبـــادة الأصنام وهو لم ييأس أبدا من هداية قومه المشركين ومن بالغ فى خصومته يوما فقد انقلب بعد ذلك مسلما من أعظم المسلمين ونعنى به خالد بن الوليد فقد كان هو الذى فعل ما فعل فى غزوة أحد ، ثم كان هو نفسه من صاحب الرسول فى فتح مكة ولـــا كان المسلمون الصادقون سيبقون الى أبد الأبدين رسل رحمة وخير للبشرية فان سلوكهم فى الحرب يجب أن يتصف بهذه الصفات :

١ ــ استبسال وثبات فى المعركة حتى يحصلوا على احدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد .

٢ ــ وذلك حتى يتغلبوا على العدو ويكسروا شوكته ويصبح ضعيفا تحت رحمتهم .

٣ ــ وهنا وبعد أن يصبح العدو مكسور الجناح فيتعين عليهم أن يختاروا ما يرونه فى صالحهم من حيث ابقاء العدو ضعيفا .

١ ــ اما اطلاق سراح الأسرى بدون مقابل .



٢ ــ واطلاق سراحهم بمقابل (فدية) شريطة أن لا يؤدى اطلاق سراحهم الى تقوية العدو بحيث يعود لقتال المسلمين (وهو ما عاتب عليه القرآن الكريم سيدنا محمد عندما أطلق أسارى بدر اذ عادوا لحربه) وقد قدمنا أن الاطلاق مشروط بالاثخان أى صيرورة العدو ضعيفا عن الحركة ، ليس فقط فى المعركة التى يدور فيها القتال ولكن فى كل معركة قادمة .

ــ حتى تضع الحرب أوزارها .

هناك فرق بين المعركة والحرب فالحرب تتألف من عديد من المعارك وقد يهزم العدو فى معركة ثم لا يلبث أن يسترد قوته ويستأنف الحرب كما فعل مشركو قريش فبعد هزيمتهم فى بدر قاموا بمعركة أحد ، وعاد لقتال المسلمين بعض من كان الرسول قد أطلق سراحهم ، ومن هنا نزلت الآية الكريمة تنبه المؤمنين بأن حق الخيار المـــتروك لهم فى اطلاق سراح الأسرى لا يكون الا فى نهاية الحرب كلهـــا .

وهذا هو ما انتهت اليه البشرية اذ يحتفظون بالأسرى حتى نهاية الحرب ، ثم يطلق كل فريق أسرى الفريق الآخر .

اغراق فى التأويل :

وقد أغرق بعض قدامى المفسرين وأغربوا فى تفسير نهاية الحرب فقالوا انها قائمة أبدا حتى ينزل المسيح على الأرض ، أو حتى تنتهى فتنة يأجوج ومأجوج ، وهذا من نوع القول بأن الصراع بين الخير والشر ، أو بين الحق والباطل سيظل الى قيام الساعة .

وانما نحن بصدد وقائع قائمة وحرب دائرة ، فاذا انتهت هذه الحرب فتطبق القواعد التى ذكرناها ، كذلك فعل رسول الله صلوات الله عليه كما رأينا فى فتح مكة على ما سـبق حيث من على أهل مكة المحاربين وغير المحاربين .

وما ذلك **الا تقديرا** منه أن الحرب **قد** انتهت **نهائيا مع** أهل **مكة** ، أما الحرب فى عمومها فلم تنته ، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة فتح مكة الى حنين ، وغزا بعد ذلك الطائف وغير ذلك من الغزوات وعلى ذلك فيجب أن نفهم معنى « **حتى تضع الحرب أوزارها** » أنه نهاية الحرب مع عدو معين بالذات بكسر شوكته .

— ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض :

بلوت كذا : أى امتحنت واختبرت .

أى ولو شاء الله لأهلك المشركين بغير قتال ، ويمضى البعض مع هذه الفروض فيقول : ولـمـاذا خلقهم ؟

وهذه الشطحات كلها لا مجال لها اذ لا جواب عليها الا ما يقوله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة وهى أنه شاء أحوال الدنيا بعامة والبشر بخاصة على هذه الصورة من قيام الشر الى جوار الخير والكفر الى جوار الايمان ونفخ فى الانسان من روحه وبهذه النفخة زود الانسان بالعقل والحرية ، وبالتالى أصبح فى امتحان واختبار أى الطريقين يختار طريق الخير أو الشر ولكل من الطريقين درجات ومراتب يرقاها الانسان أعلاها بطبيعة الحال فى طريق الخير هو الحرب فى سبيل الله ، وسنعود الى الحديث عن ذلك .

والذين قتلوا فى سبيل الله

١ — فلن يضل أعمالهم

٢ — سيهديهم ويصلح بالهم

٣ — ويدخلهم الجنة عرفها لهم

الشهداء أحياء :

تجعل هذه الآية نعم الله على الشهيد وما أعد له الله من ثواب .

الشهيد

جاء فى مسند أحمد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ويرى مقعده من الجنة ويزوج من الحـور العين ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبـر ويحلى حـلة الايمـان .

وقد تعددت الأحاديث بهذا المعنى مما سنفرد له فى مناسبة آيات أخرى مبحثا خاصا ، أما الآن فنريد أن نقف أمام عبارة ((**أصلح بالهم**)) جاء فى تفسير القرطبى :

قال القشيرى قراءة أبى عمرو : « **قتلوا** » بعيدة لقوله تعالى : « **سـيهديهم ويصلح بالهم** » والمقتول لا يوصف بهذا ، قال غيره يكون المعنى سيهديهم الى الجنة أو سيهدى من بقى منهم أى يحقق لهم الهداية وقال ابن زياد سيهديهم الى محاجة (أى محاجة ، مجادلة منكر ونكير فى القبر) ، قال أبو المعانى وقد ترد الهداية والمراد بها ارشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المفضية اليها من ذلك فى قوله تعالى فى صفة المجاهدين فلن يضل أعمالهم سيهديهم ومنه قوله تعالى : « **فاهدوهم الى صراط الجحيم** » معناه فاسلكوا بهم اليها انتهى كلام القرطبى .

استوقفنا ما نسبه القرطبى للقشيرى من قوله : « **سيهديهم ويصلح بالهم** » المقتول لا يوصف بهذا فعدنا الى تفسير القرآن للقشيرى (لطائف الاشارات) فلم نعثر على هذا النص ، ولذلك فقد يكون استقاه من كتاب آخر للقشيرى ، أو يكون هناك عالم آخر اسمه القشيرى تصدى لتفسير القرآن غير القشيرى امام الصوفية(١) .

والذى يهمنا أن نثبته هنا ، أنه لا محل للقول بأن المقتول لا يقال له : « **سيهديهم ويصلح بالهم** » وعندنا أن الله سبحانه وتعالى أكد لنا فى أكثر من آية أن الشهيد لا يموت .

— ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون .

— ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .

ومن هنا فنحن نرى أن الله سبحانه وتعالى قد تحدث هنا عن القتلى فى سبيل الله حديثه عن الأحياء على السواء فكرر عبارة : ((ويصلح بالهم)) التى وعد بها المؤمنين الأحياء فى مفتتح السورة على ما تقدم تأكيدا لمعنى أن الشهيد لم يمت ولذلك فيجب أن نفهم من هدايتهم واصلاح بالهم ما يتفق ويتناسب مع حياتهم الجديدة التى خصهم الله بها ولذلك لم يعد هناكمجال للتحدث عن منكر ونكير وعذاب القبر أو القول بأن أصلح بالهم لا تقال لمقتول هذا ما وفقنا الله اليه وهو تعالى أعلم .

---

(١) نرجو ممن له علم بهذه المسألة أن يتفضل بارسالها لنا حتى ننشرها فى عدد قادم وله أجره عند الله تعالى وقد قال لنا بعض العلمـاء : أن القشيرى الذى يشير اليه القرطبى هو غير القشيرى أمام الصـوفية .

ـ ويدخلهم الجنة عرفها لهم :

افترق المفسرون حول « **عرفها** » فراى البعض أنها من التعريف أى الاعلام ، بينما رأى البعض الآخر أنها تعنى « **طيبها** » لهم بكل أنواع الملذات . مأخوذ من العرف وهو الريح الطيبة وطعام معرف أى مطيب تقول العرب : عرفت القدر اذا طيبتها بالملح والابزار . وهذا هو رأى ابن عباس استند ميه الى اللغة واستعمال العرب للكلمة كما رأيت ، أما الذين قالوا بأن عرف من التعريف أى الاعلام وهم جمهرة المفسرين فقد استندوا على حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه والذى اورده البخارى وجاء فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا** » .

ولكنا نلاحظ على هذا الحديث انه يتحدث عن المؤمنين بعامة وليس عن الشهداء الذين اختصهم الله بالدرجة الرفيعة بحيث نميل الى أن تكون عرفها لهم بمعنى طيبها .

والقضية أبسط من ذلك كله وما علينا الا أن نأخذ بالمعنيين معا فجوهرهما واحد وهو تكريم الله للشهداء وايثارهم بفضله .

ـ يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم :

مفتـــاح النصر

تعتبر هذه الآية مفتاح النصر فى أى معركة من المعارك ومن أراد أن يفهم ما يحار كل علماء التاريخ من الأوربيين فى فهمه وهو كيف استطاع المسلمون الأوائل على قلة عددهم وضعف امكانياتهم المـــادية أن يهزموا جيوش الفرس والرومان معا ، والسر فى الأمر هو ايمان المسلمين العميق بهذه الآية بحيث تجسدت فى نفوسهم تجسدا ماديا يصل الى حد أن الطبرى يروى لنا فى تاريخه أن الفتح تأخر على بعض جيوش المسلمين فى فارس وظلت الجيوش المعادية صامدة لا تهزم فبعثوا يشكون لسيدنا عمر بن الخطاب ، فما كان منه الا أن رد عليهم بهذه الآية ، ولفت نظرهم الى أنه يستحيل أن يبتعد عنهم النصر الا لمـــا قد يكونوا ارتكبوه من ذنوب ومعاص ، اذ هنا وهنا فقط يتأخر عليهم النصر لتأخرهم عن نصر الله ، ويمضى الطبرى فى تاريخه فيقول : ان الجيش الاسلامى عندما وصلته رسالة أمير المؤمنين راحوا يبحثون فيما يمكن أن يكونوا قد وقعوا فيه من الذنوب فلم يعثروا على ذنب واحد فقد كانوا محافظين على صلواتهم ، راعين لأماناتهم ، متآخين متحابين ، كلهم على استعداد أن يموت فى سبيل الله ، ولكن واحدا منهم نبههم الى أن ظروف الحرب قد حالت بينهم وبين ممارسة ســـنة التســـوك ، (أى تنظيف الفم والأسنان بالسواك) فقر رأيهم أن يستأنفوا هذه العملية فلما أصبح الصباح

تسلق كل الجيش الأشجار المحيطة به وراح كل فرد من أفراد الجيش يصنع لنفسه (مسواكا) ولا يكاد يفرغ من صنعه حتى يلوكه فى فمه بقوة ليعوض ما فاته ، ورأى جيش الفرس هذ المظهر العجيب ، فسألوا عن هذا الذى يجرى فى جيش المسلمين ما معناه فقال بعضهم لابد أنهم يسنون أسنانهم ليأكلونا ، وما كاد هذا التصور يشيع فى جيش الفرس حتى دب الرعب فى قلوب أفراده فأطلقوا لسيقانهم الريح وفوجىء المسلمون بهذا النصر الذى أحرزوه بغير أن يفعلوا شــيئا .

ولقد اعتدت عندما أطالع أمثال هذه الوقائع . أن أقول أنها سواء كانت صحيحة بحرفيتها أو غير صحيحة فجوهرها صحيح وهو أن ايمان المسلمين بهذه الآية « **أن تنصروا الله ينصركم** » كان كاملا بحيث كانوا يطبقونه بمثل هذا الأسلوب الذى ترمز له هذه القصة .

معنى نصر الله :

ولا يجب أن يخطىء أحد فيتصور أن الله فى حاجة لنصرتنا فهو القوى الغنى عن العالمين ، وانما معنى نصر الله هو أن‌ننصر أوامره وندافع عن العــدل والخير والحق وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته رمزا على ذلك كله فكانت نصرة الله تعنى نصرة رسوله ، أما بعد أن لحق رسول الله بالرفيق الأعلى فقد أصبحت نصرة الله فى نصر دينه الذى ارتضى لعباده ، فى نصرة الحق والعدل والخير والسلام وقد أكد الله عز وجل هذا الوعد بكثير من الصيغ كقوله تعالى :

ـــ((**ولينصرن الله من ينصره**)) ((**ويثبت أقدامكم**)) أى خلال المعركة فلا تفروا والثبات يؤدى الى النصر وقال بعض المفسرين ويثبت أقدامكم على الاسلام ، وقيل على الصراط يوم القيامة ، ولكن ذلك‌كله أغراب فالحديث هو عن المعـــركة فى الحرب .

ـــ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم . أفلم يسيروا فى الأرض‌فينظـــروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم . أن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

وهديناه النجدين :

انما هما طريقان لا ثالث لهما طريق الخير وطريق الشر ، طريق النور ، وطريق الظلام والقرآن الكريم يسمى الطريق الأول طريق الايمان بالله والطريق الثانى طريق الكفر ذلك أن الايمان بالله كمثل أعلى للخير والحق والعدل هو ينبوع كل فضيلة ، حيث الكفر والجحود لهذا المثل الأعلى هو ينبوع لكل رذيلة .

وفى الآيات التى نحن بصددها ككل ما يهدف له القرآن الكريم ويكرره حتى ينغرس فى النفوس هورسم هذين الطريقين وكيف يؤدى أحدهمـــا الى الجنة والثانى الى **النار** .

ـ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم :

فبعد أن بين طريق الذين آمنوا وكيف سيهديهم ويصـــلح بالهم ، فها هو يبين مصير السالكين الطريق الثانى طريق الكفر « **فتعسا لهم** » وقال فى معنى تعسا لهم : أى بعدا لهم وقيل : حزنا لهم ، وقيل : شقاء لهم وقيل : خيبة لهم ، وهلاك لهم وعندنا أن التعبير يشع ذلك كله « **وأضل أعمالهم** » أى أبطلها .

ـ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم :

وهذا هو تعليل ما استحق الذين كفروا من أجله الزجر « **تعسا لهم** » وهو أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع ، وهى لا تتضمن ولا تدعو الا لكل ما هو حق وخير وحسن وجميل « **فأحبط أعمالهم** » لأنها ما دامت ليست لوجه الله الذى يمثل الحق والخير والعدل فهى لا يمكن الا أن تكون لوجه الشــــيطان وهو الذى جعله رمزا على كل ما يناقض الحق والخير والحسن .

ـ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها .

السير عبر المكان والزمان :

طالمــا نبهنا الى الآيات التى قادت العرب الى ذروة العلم فى عصرهم والعصور التالية لألف سنة وهذه هى احدى هذه الآيات التى تدعو للارتحال والسفر والتنقل التماسا للاعتبار والاتعاظ ، والارتحال والسفر كما يكون عبر المكان فكذلك يكون عبر الزمان وذلك عن طريق القراءة والمطالعة لمعرفة من سبق ، فحيث كفر الناس بكل مايعنيــــه الكفر من رذائل وفـــواحش وطغيان فقد كانت العاقبة وخيمة ، حيث دك الله بنيان الذين طغـــوا وبغـــوا فوق رؤوسهم وما الطغيان والبغى الا مظهـــر الـــكفر .

وقد أسعد الله جيلنا بأن جعلنا نشهد أحد هذه الآيات ممثلة فى الامبراطورية البريطانية والتى قامت على الظلم والعسف والطغيان ثم رأيناها رأى العين وهى تتفكك وتتقلص ، حتى لتحاول الآن أن تنتسب الى أوربا وهى التى عاشت طول حياتها تتعالى عليها وتعتبر نفسها من طينة غير طينة البشر وربما لم تعش هذه الامبراطورية فى ذروة مجدها أكثر من نصف قرن فاذا أردنا أن نعد لها فانما هو قرن واحد ولا زيادة ، قارن ذلك بدولة المسلمين التى عاشت ألف سنة فى ذروة القوة ، واذا كانت ضعفت بعد ذلك ، فما ذلك الا لانصرافها عن مصدر قوتها الذى

قامت عليه وهو الايمان القوى العميق بكتاب الله الذى يقودهم ويهديهم كما هو الشأن فى هذه الآية .

وللكافرين أمثالها : فها هو ذا يحذر كل كافر وجاحد أن يكون مصيره الدمار ، ويجب أن نفهم الدمار على أنه معنوى مثل ما هو مادى ، وربما كان الدمار المعنوى أقسى من المـــادى .

ــ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم :

المولى : لها عدة استعمالات وهى هنا بمعنى السيد المتصرف فى مواليه والمولى للمرء هو الذى يقوم بأمره ويعينه ويظاهره والله مولى المؤمنين يسددهم ويهىء لهم سبل الخير .

كل آيات القرآن تنطبق على كل زمان ومكان .

ففى عصرنا مثل ما فى أى عصر لن تجد مؤمنا بالله ينتحر ، ذلك بأن من يؤمن بالله تظل كوة الأمل مفتوحة فى وجهه حيث تسد هذه الكوة فى وجه من لا يؤمن بالله فلا يبقى أمامه الا أن يضع نهاية لحياته فهو لا يعرف ســيدا اليه المرجـــع .

ــ ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

الأنعام : الحيوانات .

مثوى : مقر ومقام ومنزل .

وهذا هو نهاية الطريقين ، طريق الايمان فنهايته الجنة وطريق الكفر فنهايته النـــار .

وتصور لنا الآية الكريمة حياة الكفار فى الدنيا وما قد يبدو عليها فى الظاهر أنها حياة تمتع ورغد فهى فى حقيقتها لا تزيد عن كونها حياة حسية مادية ، أشبه بحياة الحيوان حيث يأكل بنهم وشهية ولكن ذلك لا يخرجه عن كونه حيوان .

أما الانسان فشىء غير ذلك .

ــ وكاين من قرية هى أشـــد قوة من قريتـــك التى أخرجتك أهلكنـــاهم فلا ناصر لهم :

قال قتادة وابن عباس : لمـــا خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى الغار (أثناء الهجرة) التفت الى مكة وقال : اللهم أنت أحب البلاد الى ولولا

أهلك المشركون أخرجونى لمـا خرجت منك . قال الثعلبى فنزلت هذه الآية ومن هنا فقد استثنى البعض هذه الآية من الســورباعتبارها مكية حيث الاجماع على مدنية السورة كما قدمنا .

ومعنى الآية واضح وجلى فى التسرية عن سيدنا محمد بأن كم فى التــاريخ من بلاد أكثر قوة من مكة التى أخرج أهلها سيدنا محمد فبطش بها الله وأهلكها هى ومن فيها .

ويستوقفنا تسمية القرآن الكريم مكة بأنها قرية ، وقد سماها فى موضع آخر بأنها : « أم القرى » وذلك بسبب الكعبة بها ، والمهم انه لم يطلق عليها اســم المدينة أبدا ، وما ذلك بالفعل الا لأن مكة لم تكن تزيد عن كونها قرية اذا قيست بمدن عصرها ، فانظر يا رعاك الله معجزة الاسلام الفذة والتى جعلت هذه القرية وسط الجبال المقفرة المجدبة هى مهوى أفئدة مئات الملايين من البشر ويقصدها فى كل عام ما يناهز المليون ليطوفوا حول الكعبة وهو شىء لا مثيل له من قبل أو بعـــد .

أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم :

قلنا انهما طريقان : الكفر والايمان والسؤال التقريرى هنا يعنى انهما لا يستويان كما لا يستوى من يسير فى النور ومن يسير فى الظلام . والبينة من الله هى الهداية وهى النور ، ويحاول البعض أن يخصصها بالوحى الذى نزل على سيدنا محمد فى مقابل العماية والضلال الذى عاش فيه أبو جهل واذا جاز أن تكون هذه مناسبة نزول الآية ، فهى اليوم والى أبد الأبدين تدعو الناس لسلوك الطريق المستقيم طريق الله ، وتحذرهم من اتباع أهوائهم (شهواتهم) اذ يزينها الشيطان لهـــم .

ـــ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذةللشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وســقوا ماء حميما فقطع أمعـــاءهم .

مفــردات :

غير آسن : غير متغير ولا منتن .

لذة : اللذة هى السرور أو ملاءمة الشىء للشهوة أو الرغبة .

مصفى : منقى من جميع الشوائب .

ماء حميما : بالغا منتهى الحرارة .

الجنة والنار : يعلم الذين يتابعون تفسيرنا أننا نقف فى موضوع الجنة والنار عند حد الايمان بهما باعتبارهما مظهرى الرضا والغضب الالهى أى الثواب والعقاب .

أما عن وصفهما فهو من الأمور الغيبية ونقف عند حد الفاظ القرآن لا نعدوها .

وقد تعرض القرآن الجنة وما يلقاه ساكنوها من النعيم مما يفيد اشتمالها على كل ما هو محبب لكل النفوس بعامة وما تهواه كل نفس على حدة ، من ملذات حسية أو معنوية وفقا لما يسعد كل انسان فمن حرم فى الدنيا من اللذائذ الحسية عوضه الله عنها فى الجنة ، ومن كانت متعته فى اللذائذ المعنوية حقق الله له أمله ومبتغاه يجمع ذلك كله قوله تعالى : « **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين** » (الزخرف) .

غير أننا بمناسبة هذه الآية نريد أن نلفت النظر الى حقيقتين :

الأولى : أن القرآن قد نزل بلغة العرب وكان أول من خوطب به العرب وكان طبيعيا أن يتحدث اليهم بما يفهمون ويضرب لهم بعض الأمثال من واقع حياتهم ولطالما لفتنا النظر الى اشتمال القرآن على صور وأحوال لا عهد للعرب العائشين فى الصحراء بها مثل حديثه عن البحار والمحيطات والسفن والأحوال الجوية التى يصادفها المتجولون فى البحار وما ذلك الا لأن القرآن يخاطب كل الناس فى كل زمان ومكان .

وقد يقف شاب ممن يعيشون علىضفاف النيل أو أى نهر مماثل حيث تتدفق المياه العذبة النقية الى ما شاء الله ، أقول قد يقف شاب ما (متلجلجا) أمام القول بأن الجنة فيها ماء غير آسن لمثل هذا الشاب أقول له أن السائر فى الصحراء (والصحارى تغطى جزءا كبيرا جدا من العالم) السائر فى الصحراءتصبح كل أمنيته فى الحياة أن يصل الى واحة يشرب فيها شربة ماء هنية ، وهو الماء العذب السلسبيل ولا يكون كذلك الا اذا كان غير آسن وهو لا يكون غير آسن الا اذا كان جاريا ، ومن هنا تحدث القرآن عن أنهار من هذا النوع من الماء العذب السلسبيل لمن أقصى أمانيهم أن يعبوا منه عبا ولا يتصورون النعيم الا حيث يجدون ماء عذبا جاريا .

اللبن والعسل والخمر :

ويلى الماء فى ضرورته للكائن الحىاللبن ولعل البشر جميعا يتساوون فى طفولتهم أنهم يعيشون على اللبن وهو هنا يحدث هؤلاء الذين يشقون للحصول على « وعاء من اللبن » يعيشون عليه ، أن الجنة فيها أنهار جارية من اللبن وكذلك

عسل النحل (أحد أعاجيب الحياة) بعد أن يصفى مما قد يشوب العسل العادى من مكدرات .

الخمــــر :

نصل الآن الى موضوع الخمر ولقد تحدثنا عنه بمناسبة آيات مماثلة وأول ما نريد أن نلفت النظر اليه أن الله سبحانه وتعالى عندما يحرم أمرا على الناس فانما يحرمه لمـــا فيه من ضرر على الناس أنفسهم فالخمر قد حرمت للاضرار الجسيمة التى تلحق بالبشر ذهنيا وجسديا ، فهى تذهب بعقل الانسان وتفقده صوابه وقد قلنا أن الانسان لا يستحق انسانيته الا بالعقل ، أما من حيث فعلها بالجسد فالأطباء تحذر أى مريض من شرب الخمر ففيها هلاكه وقد تنبه العالم بعد أن أصبح مفتونا بما يسمى (علم حديث) تنبه الى ما فى الخمر من أثر مدمر على الصحة فقامت محاولات فى أمريكا لحظرها ولكن هذه المحاولات فشلت . حيث نجح الاسلام أعظم نجاح فكتلة المسلمين الكبرى لا تشرب الخمر ، ونعود الى ما كنا بسبيله وهو أن الله سبحانه وتعالى عندما يحرم فانما يريد خير العباد ، ولذلك فهو هنا يعد المؤمنين بأنهار من الخمر ولكنه خمر أزيل منه عنصر الضرر وهو ما أشير له فى أكثر من آية مما تحدثنا عنه فيما سبق .

وفيها من كل الثمرات :

وهذا هو خلاصة القول فى الجنة حيث يجد فيها كل انسان ما يريد وما يشتهى ، واذا كانت هذه الآية تتحدث عن الثمار ففى آيات أخــرى الحــديث عن صـــنوف المطعومات الأخرى ثم يعد الله بأن الجنة فيها فوق ذلك « ولدينا مزيد » ومغفرة من ربهم .

كمن هو خالد فى النار : فهل من يقيم فى هذا النعيم يقارن بمن هو خالد فى النار ، فحيث يشرب سكان الجنة أعذب المـــاء واللبن والعسل وبقية ما عرف البشر من مشروبات طيبة ، وما لم يعرفوا يشرب أهل النار المـــاء المغلى الذى يقطع أمعاءهم « **وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم** » .

ـ ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم .

ماذا قال آنفا : أى ماذا قال الآن . تقول استأنفت الشىء أى بدأت به .

المنـــافقون :

لا تكاد تخلو سورة مدنية (أى نزلت فى المدينة) من حديث عن النفاق والمنافقين ،

ذلك أن النفاق فى مكة لم يكن له وجود بطبيعة الحال اذ كانت السلطة بيد المشركين وكان اعلان الاسلام يؤدى الى اضطهاد المسلم وازدرائه على الأقل ، أما فى المدينة حيث أصبحت الكثرة الغالبة مسلمة وبالتالى آلت السلطة الى يدها ممثلة فى شخص رسول الله صلوات الله عليه ، ولو كان سيدنا محمد حاكما كل ما يحرص عليه هو السلطان لنكل بهؤلاء المنافقين ولكنه لم يكن رجل حكم وسلطان ولكن رسـول رب العالمين ، ولذلك فقـد رضى منهم بظاهر الأمور وتركهم لله سبحانه وتعـالى هو الذى يحميه من كيدهم ، ويتولى بعد ذلك حسابهم ، وقد كان عبد الله بن أبى ابن سلول هو زعيم المنافقين فقد فوت الاسلام عليه زعامته للمدينة ورئاسته لها ، حتى استشفع له البعض عند رسول الله فى بعض المواقف وقالوا : « أرفق به يا رسـول الله فقد جئت المدينة ونحن نعد له الخرز » أى ليتوجوه ملـكا على المدينة ، أى أن عبد الله بن أبى كان يعتقد أن سيدنا محمدا قد سلبه ملكا ، قد عجب أن ظل يضمر البغض والحقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد ظلت له بعض الشوكة وخاصة فى السنوات الأولى للهجرة بحيث نراه فى غزوة احد ينخذل عن رسول الله قبل الموقعة وينسحب معه بعض رجاله فكان ذلك أول الوهن .

وكان باستطاعة رسول الله أن يؤدبه ، وقد رأينـا عند تفسير سـورة (المنافقون) أن ابن عبد الله نفسه قال لرسول الله : اذا أردت أن تقطع رأس أبى فأمرنى أنا بهذه المهمة فكان رد رسول الله صلى الله عليه وسلم هاديا ومرشدا ولم يأتهم حاكما متسلطا ، ومن هنا ترك سيدنا محمد المنافقين لله ، فراح القرآن وهو تعليم وتهذيب وارشاد يندد بالمنافقين ويظهر خطرهم وضررهم .

احدى صور النفاق :

وفى هذه الآية الكريمة بعض صور ماكان المنافقون يفعلونه لبلبلة الخواطـر واشاعة الفتنة والقلق بين صفوف المسلمين فكانوا يستمعون لرسول الله كغيرهم من المسلمين ، حتى اذا انفض المجلس وخرجوا ، راحوا يتظاهرون بأنهم لم يفهموا شيئا مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسألون الصحابة ماذا قال ؟ وقد كان هذا هو أقصى ما يستطيعون أن يقولوه بطبيعة الحال دون أن يكشفوا عن أنفسهم . ولكن الله سبحانه وتعالى أخذهم بأقوالهم من حيث كونهم لم يفهموا حيث فهم الناس جميعا « **طبع الله على قلوبهم** » أى ختم عليها وحقق لهم ما أرادوا وهو أن لا يؤمنـوا ، وتركهم لأهـوائهموشهواتهم .

ـ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم :

وأما الذين آمنوا وبالتالى اهتدوا الى طريق الحق والصواب والنور فقد زادهم الله هدى واستقامة وبصيرة ووفقهم للأعمال الصالحة « وآتاهم تقواهم » .

— فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم اذا جاءتهم **ذكراهم . فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم .**

بغتة : اى فجاة .

أشراط الساعة :

هذه الآية تهديد ووعيد لاحتمال قيام الساعة (اى يوم القيامة) فى أى لحظة ، وقد جاء فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « **بعثت انا والساعة كهاتين** » وضم (أصبعيه) السبابة والوسطى . لفظ مسلم ، وفى صيغة أخرى : « **بعثت والساعة كفرسى رهان** » والمعنى واحد وهو تلازم بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نهاية الكون وليس يعنى انقضاء أربعة عشر قرنا على بعثته حتى الآن أن الأمر ليس كذلك فألوف السنين انما هى بحساب الانسان ، أما عند الله سبحانه وتعالى ، فلا زمان ولا مكان ونحن نطالع فى التاريخ : قامت الدولة الرومانية ، سقطت الدولة الرومانية ، ولا تزيد مطالعتنا لهذا الخبر عن الزمن اللازم لقراءتها مع أنه بين قيام الدولة الرومانية وسقوطها ألف سنة أو يزيد ، فطول الزمن انما هو بحسابنا نحن البشر ما بقينا على ظهر الحياة أما بعد أن نموت فلا زمن ، فعندما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **بعثت والساعة كفرسى رهان** » فهو قول حق شهد على صحته ألف عام وبضعة قرون ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خاتم الأنبياء ، وأن لا نبى بعده ، وقد كان فلم تشهد البشرية رسولا أو نبيا بعده فاذا علمنا أنه قبل سيدنا محمد شهدت (منطقة الشرق الأوسط) عديدا من الأنبياء كما قد شهدت من الرسل موسى وعيسى ، فعندما يقول سيدنا محمد أن لا نبى بعده فيصدقه الزمان محسوبا بمئات السنين ، ورب قائل يقول هذا عن الماضى فربما يظهر فى المستقبل فنقول أن شواهد الحال تدل على أن التفكير المادى قد غلب على البشر بحيث أصبح فريق منهم يعظمون من يقول لهم أن لا وجود لأنه وانما هى المادة ، فاذا تصورنا أن انسانا ما ، فى وقت ما سيقوم ليرد البشر الكافرين الى جادة الايمان بالله ، فسوف يكون عمله عمل مصلح لا عمل نبى لأنه سيعمل فى نطاق الدعوة المحمدية التى ارتفعت بالتصور الالهى الى ما لا مزيد عليه وهى تعبر عن الله عز وجل بأنه « **هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** » .

وهذا الحدث ، بمعنى ظهور مصلحيعمل على اعادة البشر الى الجادة فى آخر الزمان ، لم يفت سيدنا محمد صلوات الله عليه فحدثنا عن المهدى وانه سيكون مما قد نفصله فى مناسبة قادمة أما الآن فنحن نقف أمام قولة الرسول : « **لا نبى بعدى** » ونقول صدق رسول الله فحيث شهدت البشرية عيسى وموسى ومن قبلهما اسحق ويعقوب ومن قبلهما ابراهيم ، فهى لم تشهد بعد رسول الله نبيا جديدا فضلا عن رسول يجىء بشريعة جديدة حتىبالنسبة للديانات التى لا نعرف

مدى حقيقتها ولكن لها تأثير وسط مئـات المـلايين من البشر كالهندوكية والبوذيـة والكونفوشيوسية فهذه بدورها قديمة أقدم من المسيحية ولم تخرج من صفوفها من يدعى أنه نبى . وهكذا من أية ناحية نظرنا الى قولة سيدنا محمد من أنه لا نبى بعده» ، وليس ذلك الا ترديدا لوصف القرآن له من أنه خاتم النبيين ، ومن هنا فحق ما يقوله رسول الله من أنه والساعة كفرسى رهان ، ويجب أن نفهم الحديث عن أشراط الساعة على هذا الضوء .

اشراط الساعة :

والاجماع بين المفسرين ونحن معهم أن بعثة سيدنا محمد فى حد ذاتها هى من أشراط الساعة وذلك مستفاد من نصوص القرآن ذاته .

ـ اقتربت الساعة وانشق القمر .

ـ اقترب للناس حسـابهم وهم فى غفلة معرضون .

ـ اتى أمر الله فلا تستعجلوه .

أما ما وراء ذلك فقد اختلف المفسرون فمنهم من راح يعدد أشياء محددة معينة بالاسم تدل على قرب نهاية الكون ، بينما راح بعضهم يتحدث عن ظواهر عامة مثل كثرة المـال وعبادة المـادة وقلة الكرام وشيوع اللئام وقطع الأرحام .

ونحن نفوض العلم لله فنقف عند حد ما وقف عنده القرآن ونؤمن بأن للساعة اشراطها (أى **علاماتهـا**) وبعثة رسـول الله صلى الله عليه وسلم هو أحد أشراطهـا .

ـ فانى لهم اذا جاءتهم ذكراهم :

قيل ان فى الذكرى وجهين الأول : انى لهم النجاة لمـا عملوه ان كان خيرا أو شرا .

ـ فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم .

يجد بعض المفسرين صعوبة فى تأويل أن الله عز وجل يأمر النبى : « **أن يعلم وحدانية الله** » ولذلك قالوا : اعلم بمعنى اذكر ، أو بمعنى علم أمتك ، والأمر عندنا ان القرآن كله خطاب للنبى صلوات الله عليه وسلامه ولكن المقصـود بهذا الخطاب هم البشر جميعا ، ومن هنا يصح عندنا ما قاله البعض من أنه كلما استغفر الانسان لنفسه ، استغفر كذلك للمؤمنين والمؤمنات .

ـ والله يعلم متقلبكم ومثواكم :

القول الذى نرجحه أن المعنى الله يعـلم متقلبكم (فى الدنيا) أى أحوالكم وشئونكم وتصرفاتكم .

فقرة ناقصة !

ومثواكم : اى نهايتكم فى الدنيا والآخرة .

ـ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .

محكمة : جاء فى معجم الفاظ القرآن لمجمعنا اللغوى أحكم الشيء أتقنه والشيء محكم وهى محكمة والسورة المحكمة والآية المحكمة هى المتقنة الواضحة .

وعندما تقرر علماؤنا الاعلام فالقول ما قالوا ولكننا نستأذنهم فى قبول معنى واضحة فقط دون متقنة فليس هناك انسان يستطيع أن يحكم على آية متقنة وأخرى غير متقنة فالكل كلام الله الذى لا يمكن الا أن يكون قمة الاتقان وقد جاء فى القرآن الكريم .

« **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ...** » الآية .

فدل ذلك على أن المحكم غير المتشابه وغنى عن البيان ، أن المعنى المستفاد لا يمكن أن يكون هو الاتقان وغير الاتقان وعندنا أن كلمة « **أحكمت** » فى القرآن يجب أن تفسر فى كل آية وردت فيها حسب ما يتفق وسياق الآية وليس بمفهوم محدد ينطبق فى كل الآيات ولاشك أن هذا هو ما عناه بالذات أساتذتنا الأجلاء على ما نصوا عليه بالفعل فى مقدمة المعجم فهم بعد أن يحددوا المعنى اللغوى لكل كلمة فى حد ذاتها مجردة عن كل شىء ، يدعون للمفسرين فهم المقصود فى كل حالة ، من ذلك على سبيل المثال ما جاء فى سورة هود : « **الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** » .

واحسب أن أحكمت هنا لا يمكن أن تفسر بالمعنى الثانى وهو الوضوح ، ذلك أن الآية تشير الى الاحكام، ثم التفصيل الذى يوضح المجمل .

والحق أن كلمة محكمة أحد مشاكل القرآن التى افترق حولها المفسرون واللغويون معا يقول القرطبى نقلا عن قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة .

وقال آخرون « **المحكمة** » التى لم تنسخ مع أن الآخذين بمذهب النسخ لا يجدون مجالا للحديث عن الناسخ والمنسوخ أكثر من موضوع القتال بالذات ومن هنا فقد أعجبنا قول من قال من المفسرين : المحكم هو ما دلت الفاظه على المعنى الشائع المستفاد منها ، أما غير المحكم فهو ما كان لفظه لا ينطبق تماما على حقيقة معناه كقول القرآن الكريم « **الرحمن على العرش استوى** » فما هو الاستواء وما هو

العرش يقينا أنه استواء وعرش يختلف كل الاختلاف عما هو موجود فى أذهاننا ، وأيا كانت حقيقة العرش وحقيقة المقصود بالاستواء فلا بد أن يكون ذلك كله متفقا مع جلال الله وتنزيهه عن التشبيه والتجسيد .

ومن هنا فنحن نفهم من قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال » فالمعنى كما نتصوره والله تعالى أعلم ، أن المؤمنين الصادقين كانوا يدعون الله ويتمنون باستمرار أن ينزل الله سبحانه وتعالى أمرا صريحا يخول لهم الحرب دفاعا عن أنفسهم وعقيدتهم ، فقد طال ما صبروا وما احتملوا فعندما نزل الاذن من السماء بالقتال : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير** » .

وعندما توالت الآيات الداعية للقتال والمحرضة عليه كانت واضحة وصريحة كل الوضوح تنطق الفاظها بحقيقة المقصود منها وهو المعنى الشائع المتعارف عليه من مفهوم « **الحرب والقتال** » ولقد رأينا كيف ينظم القرآن فى هذه السورة كل مقتضيات الحرب فى مختلف مراحلها ، وكيف أن قانونها عند التلاحم يتلخص فى جملة واحدة « **ضرب الرقاب** » وقد كان هذا التفصيل والتحديد يسعد المؤمنين الصادقين الذين يبتغون مرضاة الله بكل الوسائل ولا يخافون من الموت فى سبيل الله لأنه هو الحياة التى لا تطاولها حياة وذلك كله بعكس المنافقين الذين كانوا يفزعون من فكرة الحرب لاحتمال وقوع الموت بهم ، وهم على استعداد أن يتظاهروا بالاسلام حيث لا يكلفهم الاسلام الا شقشقة باللسان ، أما أن يتعدى الأمر ذلك الى امتحان جدى لمدى ايمانهم وصدقهم ، فهنا يدب الهلع الى نفوسهم ، وقد صورهم القرآن فأبدع تصويرهم « ... **رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت** » .

أى بتحديق وتحديد كمن يشخص بصره عند الموت (أو كما نقول تجحظ عيناه) وهو ما يحدث عند الموت هلعا وجزعا .

ـ فأولى لهم طاعة وقول معروف :

لهؤلاء المنافقين والجبناء يقول الله سبحانه وتعالى ان ذلك النفاق وهذا المروق لن يفيدهم بشىء ولن يرد ما قدره الله عليهم فالموت لا ريب فيه ولا فرار منه ولا محيد أليس من الخير ومن الأحسن والأفضل أن يقولوا خيرا وأن يسمعوا ويطيعوا .

وتزيد الآية الكريمة الأمر تفصيلا وايضاحا وتأكيدا :

« فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » :

أى فعندما يجد الجد ويصبح لا مناص من القتال فعلى كل مسلم أن يصدق

الله فى القتال بمعنى أن يثبت ولا يفر وذلك هو الأحسن والأفضل للانسان نفسه فى الدنيا والآخرة معا . ففى الدنيا ليس سوى اليقين بالله والثبات ما يؤدى الى الحياة والنصر .

والذى يبقى حيا فى أى معركة هو الأكثر بلاء واقداما وشجاعة حيث يموت الجبناء والخائفون من الموت .

— **فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم :**

فهل عسيتم : أى لعلكم .

ولقد جنح بعض المفسرين الى تأويل معنى « **أن توليتم** » من الولاية أى أصبحتم « **ولاة أمور** » حكاما .

وعندنا أن هذا (ابتعاد) عن السياق فسياق الآية حديث للضعفاء والمترددين والمنافقين ، وأنه من الخير لهم أن يصدقوا الله وأن يسمعوا ويطيعوا وهو هنا يحذرهم مغبة الاعراض عن كتاب الله فيعودون كفارا فى الجاهلية يقتل بعضهم بعضا « **تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** » كما كان شأنهم دائما قبل نعمة الاسلام عليهم حيث كانت الحرب بين الأوس والخزرج لا تكاد تهدأ حتى تشتعل من جديد ، ولهذا أشار القرآن الكريم بقوله : « **وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » ويكون المعنى العام فى منتهى الوضوح فى تصورنا فالله تعالى يقول للمنافقين لا بديل للاسلام الا أن تعودوا لسابق ما كنتم عليه من حروب لا نتيجة لها الا الفساد فى الأرض حيث القتال فىسبيل الله هو قتال من أجل نصرة المثل الأعلى على الأرض الخير والحق والعدل والفضيلة .

ذوو الأرحام :

يقرن الله سبحانه وتعالى الفساد فى الأرض بقطع الأرحام باعتبارهما مظهرا واحدا للشر والكثيرون ينظرون الى موضوع صلة الرحم باعتباره أحد مظاهر الاحسان بمعناه الشائع أى التصدق ، مع أن الأمر أعمق وأبعد غورا من ذلك فهو يتصل أولا بموضوع تدعيم الأسرة ، وتدعيم مركز المرأة من ناحية أخرى كما هو مبدأ الاسلام حيث ارتفع بالمرأة من حضيض الامتهان الذى طالما تحدثنا عن شتى مظاهرها فى مختلف المناسبات . فالقرآن يجعل من الأسرة لا الدولة هى وحدة المجتمع ؛ وهو ما سوف يعود اليه المجتمع بعد أن يشرق ويغرب ، فبعد أن يتكتل البشر فى ظل تجمعات تضم مختلف الجنسيات والقوميات فلن يبقى سوى الأسرة من جديد باعتبارها خلية المجتمع الأولى .

وقد كان هذا هو الحال فى بلاد العرب بخاصة وفى الدنيا بعامة ولكن العرب كانوا يقيمون العائلة على عنصر الذكورة وكانوا يسمون هذه العلاقات بأنها من

ناحية العصب ولا يعترفون الا بهذه العلاقات ، أما القرابة عن طريق النساء فكانوا لا يقيمون لها وزنا بل ويهدرونها ويدوسونها وكانوا يطلقون على الأقارب من هذا النوع ذوو الأرحام وجاء الاسلام وفعل الذى فعل من أجل المرأة ، وكان من بين الذى فعل تشديده وتغليظه على من يقطع رحمه كما هو الشأن فى هذه الآية حيث جعل الافتراق عن القرآن هو بمثابة العودة الى الجاهلية والافساد فى الأرض وتقطيع الأرحام . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله خلق الخلق حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت : بلى ، قال فذاك لك — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا ان شئتم : «فهل عسيتم ان توليتم أن تفسـدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم »» .

— أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم :

ويمضى القرآن الكريم فى تشديده وتغليظه على المنافقين والكافرين فينزل عليهم لعنة الله وكيف سيصبحون فى حقيقتهم عميانا ولو كانوا يبصرون ، صما ولو كانوا يسمعون ، ذلك أن العمى الحقيقى والصمم الحقيقى هو عمى القلب وصمم القلب ، وهو ما نكاد نلمسه باليد عندما نصادف ماديا ملحدا كافرا بالله .

— أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها :

ما شأن هؤلاء المنافقين وكل معرض عن كتاب الله والآخرة .

« **أم على قلوب أقفالها** » « **وأم** » هنا يجب أن تفهم بأنها تعنى « بل » فما داموا قد استحبوا الكفر على الايمان فالله يطبع على قلوبهم كما لو كان يقفلها بالأقفال . والقفل هو هذه الآلة المعروفة والتى تغلق بها الأبواب والأصل فى الكلمة مشتق من « قفل » بمعنى « اليبس والصلابة » فاستعيرت لكلمة القفل المتعـارف .

والأمر قد جاء هنا على سبيل الكناية للتعبير عن المعنـى فى « **طبـع الله على قلوبهم** » .

— أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالـوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم أسرارهم . فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم .

مفـردات :

ارتدوا على أدبارهم : أى نكصوا على أعقابهم : المنافقون .

سول لهم : زين لهم .

وأملى لهم : أى مد لهم فى الأمل والأمانى ، وقد جرى الخلاف فى ضمير الغائب بمعنى من هو الذى مد بالأمانى أهو الشيطان المذكور فى الآية من أنه زين لهم الضلال ، أم هو الله عز وجل الذى يمد للكافرين مدا والجمهور على أن الضمير يعود الى الشيطان (مع الايمان الدائم بأن شيئا لا يحدث فى السموات والأرض الا بعلم من الله واذنه ، وما الشيطان الا واحد من مخلوقاته) .

يعلم أسرارهم : أى أن الله يعلم كل ما يحاولون اخفاءه من قبيح أعمالهم وأفكارهم .

الحديث عن المنافقين :

قال قتادة : الذين ارتدوا على أدبارهم بأن المقصود بهم هم كفار أهل الكتاب ، وقال ابن عباس وآخرون : هم المنافقون قعدوا عن القتال بعد ما فرضه القرآن . ونحن من رأى أن الحديث موجه للمنافقين من أهل المدينة والذين أعلنوا الاسلام بألسنتهم فلما أن كتب عليهم الجهاد اذا فريق منهم يعرضون فارتدوا على أدبارهم (أى تراجعوا) عن الاسلام (فى قلوبهم طبعا) وذلك على الرغم من أنهم كانوا قد أصبحوا على بينة من نور الاسلام وتعاليمه وذلك كله من عمل الشيطان الذى استولى عليهم وزين لهم سوء أعمالهم وخدعهم بالأمانى والوعود الكاذبة .

ـ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم أسرارهم .

أى أن المنافقين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله (وهم المشركون واليهود) « **سنطيعكم فى بعض الأمر** » (وهذه هى الآية التى تد لعلى أن الحديث هو عن المنافقين أنهم بعدوا بالطاعة لأعداء الاسلام) « **فى بعض الأمر** » وليس فى كله ، اذ يجب أن يحافظوا على الشكل باعتبارهم مسلمين فيكون خطرهم أشد ، عندما يشيعوا البلبلة ويوهنون من العزائم .

والله يعلم أسرارهم : ولكن الله سبحانه وتعالى وقى نبيه وجماعة المؤمنين بعامة من شرهم وأذاهم اذ أنه عليم بخبيئة أنفسهم ثم يطلع رسوله عن طريق الوحى بما يدبرون ويكيدون .

ـ فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم :

تهديد ووعيد لهؤلاء المنافقين « فكيف » أى فكيف يكون حالهم عندما يدركهم الموت وتنزل بهم ملائكة العذاب بعض ما يستحقون من اللطم على الوجوه وعلى القفا أو على « **مؤخرتهم** » .

صور القرآن البيانية :

ونحب من حين لآخر أن نلفت النظر الى بيان القرآن وكيف يعبر بالصــور

التى تكون أكثر تأثيرا فى النفس وتحريكا لها ، فنحن نعلم أن أخوف ما يخافه الانسان هو أن يصفع على وجهه فان يزاد على ذلك أن يضرب على قفاه أو مؤخرته ، فهذا هو الذل والهوان واهدار الكرامة مما لا يرضاه انسان لنفسه .

— ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم .

الذين يقولون أن الحديث عن أهل الكتاب يقولون أن « اتبعوا ما أسخط الله » هو كتمانهم ما اشتملت عليه التوراة من نعت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكننا نرجح أن الحديث ما زال مستمرا عن المنافقين فهم قد اختاروا لأنفسهم أن يضمروا ما أسخط الله عليهم وكرهوا رضوانه (أى الايمان « **فأحبط أعمالهم** » .

— أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم .

الضغن والضغينة : الحقد .

سيماهم : أى بعلاماتهم .

فى لحن القول : أى فى فحواه ومعناه ، ومنه قول الشاعر :

وخير الكلام ما كان لحنا ، أى ما عرف بالمعنى ولم يصرح به .

استمرار الحديث عن المنافقين :

ولعل هذه الآية هى التى جعلتنا نرجح أن الحديث فى كل الآيات السابقة هى على المنافقين .وليست على أهل الكتاب فضلا عن الكافرين فالآية الكريمة وهى فى معرض حديثها عمن تحدثت عنهم الآيات السابقة ، وصفتهم بأن فى قلوبهم مرض وهو ما وصف به القرآن المنافقين دائما ثم أنذرهم أنه تعالى لابد مخرج أحقادهم وكاشف عن كرههم للاسلام والمسلمين ، وأنه لولا حكمة أرادها لكشف عن نبيه الحجاب فجعله يبصرهم بأشخاصهم وذواتهم فردا فردا ولعرف نبيه علامة يعرفهم بها ، بل لجعله يدرك ذلك من فحوى كلامهم ، وكيف يلحنون بالقول أى يقولون شيئا وهم يقصدون شيئا آخر .

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أرجأ الأمر لقوله : « **ولو نشاء** » فقد كان ذلك كافيا لأن يخاف أى منافق على نفسه أن يفتضح ، ومن ناحية سيدنا محمد فيقول أنس : فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله .

والله يعلم أعمالكم : أى لا يخفى عليه شىء منها .

— ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم . ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا

الله شيئا وسيحبط أعمالهم . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول ولا تبطلوا أعمالكم .

بلغة البشر :

لا يجب أن يغيب عن مطالع القرآن لحظة أن الله سبحانه وتعالى انما يخاطبنا بلغتنا ، أى بمقدار ما يمكن أن تعييه عقولنا ، فما دام هناك عقاب وثواب فلا بد أن يكون هناك اختبار ، ومن هنا كانت الآية :

— ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم .

والله سبحانه وتعالى يعلم بعلمه القديم كل شىء ولكن عدله وحكمته شاءت أن يمنحنا القدرة على الاختيار وأن لا يحاسبنا الا على ما نختار وهذا هو الامتحان الذى يتميز فيه الصالح من الطالح والمجاهد الصابر ممن يفر على عقبيه ، بحيث يكون الانسان شاهدا على نفسه .

— ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى .

قال بعض المفسرين أن المقصود هم المنافقون أو اليهود ، وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . ونحن الذين رجحنا أن يكون الحديث فى الآيات السابقة كان يعنى المنافقين ، نراه فى هذه الآية صريحا فى التحدث عن الكافرين وأعمالهم من حيث كونهم يصدون (يمنعون) ويشاقون أى يعادون . والمنافقون ما كانوا ليجرأوا أن يفعلوا ذلك فى مجتمع المدينة وان أضمروا ذلك فى نفوسهم .

وربما ما جعل بعض المفسرين يتصورون أن المنافقين هم المقصودون هو قول الآية : « **من بعد ما تبين لهم الهدى** » باعتبار أن المشركين لم يكن قد تبين لهم الهدى . ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الآيات عندما نزلت ، كان المشركون أو بالأحرى جمهرتهم العظمى قد تبين لهم صدق ما يدعو اليه سيدنا محمد ولم يكن يبقى القلة منهم على الشرك سوى العناد وهؤلاء هم الذين يوجه القرآن اليهم القول أنهم : « **لن يضروا الله شيئا** » بكفرهم وعنادهم « **وسيحبط أعمالهم** » أى يبطلها ويجعلها بغير قيمة أو جدوى .

— يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم .

ومن الحديث عن المنافقين ثم الكافرين ، ثم وجه حديثه للمؤمنين ليحدد لهم سبل النجاة وهى تنحصر فى طاعة الله ورسوله وذلك بتنفيـذ أوامره واجتناب نواهيه ، وستعرض لنا هذه الآية فى سورة قادمة بعد أن يزاد عليها عنصر ثالث وهو أولى الأمر ، من حيث وجوب طاعتهم ، وبذلك تصبح من أعظم مشاكل القرآن ، فمن هم أولياء الأمور ؟ وما هى الشرائط التى يجب أن تتوفر فيهم بحيث تصبح

طاعتهم من طاعة الله أما فى هذه الآية التى نحن بصددها ، فهى جد واضحة ، وهى أساس الدين وعماده ، فطاعة الله فى طاعة رسوله « **ولا تبطلوا أعمالكم** » وجزاء عدم الطاعة هو احباط وابطال كل أعمـــال الانسان ، فتصبح ولا ثواب لها فى الآخـــرة .

ـ ان الذين كفروا وصدوا عن ســـبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم .

وهذه الآية تؤكد أن الاشارة الى الكفار مقصود بها المشركون . فمغفرة الله حاضرة لكل من يثوب الى رشده ويؤمن بالله ، أما من أصر على عناده ، واستمر كافرا حتى مات على الكفر ، فقد حكم على نفسه بذلك والله سبحانه وتعالى يتوعدهم بأنه لن يغفر لهم والآية عامة . ولكن ربما كان مناسبة نزولها هو موت من مات من مشركى قريش فى غـــزوة بدر ممن أطلق عليهم (أصحاب القليب) .

ـ فلا تهنوا وتدعوا الى الســـلم وأنتم الأعلون والله معـــكم ولن يتركم أعمـــالكم .

تهنوا : من الوهن أى الضعف .

لن يتركم : أى لن ينقصكم .

اختلف العلماء فى حكمها فقيل انها ناسخة لقوله تعالى : « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها** » لأن الله تعالى منع من الميل الى الصلح اذا لم يكن بالمسلمين حاجة للصلح ، وقيل منسوخة بقوله تعالى : « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها** » وقيل هى محكمة والآيتان نزلتا فى وقتين مختلفى الحال (انتهى كلام القرطبى) .

ونحن ممن يأخذون بهذا الرأى الأخير ، فكل ما هو موجود الآن فى المصحف الشريف هو آيات محكمة عاملة عندما تتوفر ظروفها . وقد عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل خلفاؤه من بعده بهذه الآية فى بعض الأحوال وبتلك الآية عندما تناسبها الأحوال . وقد رأينا فى صلح الحديبية كيف جنح رسول الله الى السلم عندما جنح اليه مشركو قـــريش .وعند فتح مكة كان أبو سفيان هو من توجه للمدينة يعتذر لرسول الله عن اخلالهم بالعهد ويتلمس من رسول الله أن يطيل أجل صلح الحديبية ، ولكن رسول الله الذى لم يكن ينطق عن الهوى ويرى بنور الله علم وتيقن أن الساعة قد حانت لفتح مكة وأنها أصبحت كالثمرة الناضجة سوف تسقط بغير قتال . فأصدر أوامره للمسلمين بالتجهز لفتح مكة ، وكان أن دخل رسول الله (تقريبا) بغير قتال ، فمسائل الحرب والسلم لا يمكن أن يكون لها وجه واحد وهو سلم دائم بأى ثمن ولو بالذل والامتهان ، كما لا يمكن أن يكون الأمر حربا بغير نهاية ، وانما هما حرب وسلام ، وعلى من بيده الأمر أن يقدر كل حالة بظروفها واضعا نصب عينه خير الاسلام والمسلمين فى كل حالة .

الحرب والسلم

— فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون .

فالأمر هنا لجماعة المسلمين انهم متى تجهزوا واستعدوا للقتال لتوفر موجباته ، فلم يعد يجوز لهم أن يضعفو اويؤثروا السلامة بترك مناجزة الخصم ، بل يتعين عليهم أن يخوضوا المعركة بايمان أن الله ناصرهم « **وأنتم الأعلون** » أى وأنتم الغالبون .

ولن يتركم أعمالكم : أى أن كل شيء بحسابه وأجره على الله الذى طالما وعدكم بأعظم العطاء فى مقابل الجهاد فى سبيله فهو لن ينقصكم شيئا « **لن يتركم** » وهو قبل ذلك (معكم) بنصره وتأييده .

— انما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم .

يحفكم : الحف والح بمعنى واحد والحفى المستقصى بالسؤال وهى هنا بمعنى يجهدكم بطلبها ملحا ملحفا (المجمع اللغوى) .

— انما الحياة الدنيا لعب ولهو :

طالما وصف القرآن الدنيا بما يزهد فيها ، ويبصر الانسان بحقيقتها وأنها وهم وخداع وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فاذا أتاه لم يجده شيئا ، وأنه ليس فى الدنيا سوى العمل الصالح الذى يفيد الناس من أى ناحية من النواحى فهذه الأعمال الصالحة هى وحدها الباقيات الصالحات التى ستنفع الانسان فى أخراه الباقية أما هذه الدنيا فهى لعب ولهو أى عبث لا طائل تحته وهو ما يدركه كل انسان بعد أن يمتد به العمر ويتخطى مرحلة الشباب .

الاسلام لا يكره فى الدنيا :

على أن الاسلام وهو دين الحياة لا يقرر هذه الحقيقة لكى يكره البشر فى الدنيا كما تفعل بعض الأديان ، ولكن ليحث على اتخاذها مزرعة للآخرة يزرع الانسان فيها من الأعمال الصالحة ما يجعله يحصد ثماره فى الحياة الباقية « **وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم** » .

— ولا يسألكم أموالكم . ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم .

والله سبحانه وتعالى وهو يرشدنا الى التقوى والعمل الصالح يترفق بالناس وهو خالقهم وعالم بغرائزهم ، ومن هنا لا يطالب الناس بالنزول عن أموالهم والتجرد من ثرواتهم ، فان ذلك يشق على النفوس ، فالزكاة على سبيل المثال لا تؤخذ الا بعد

أن يفيض الدخل عن قدر معين ، ولا تزيد عن نصف العشر فى بعض الأحوال وذلك مراعاة من الله عز وجل لمـــا أودعه هو نفسه فى نفوس البشر من غريزة الامتلاك وهو فى هذه الآية الكريمة يكشف عن هذه الغريزة وأنه لو سأل الناس أموالهم لشق عليهم ذلك وبخلوا بها ، وبهذا يقعون فى المعصية ، وهو ما جنبهم اياه بصفة عامة .

ــ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء .

وأنتم الفقراء :

واذا كانت الزكاة المفروضة قد راعى الله سبحانه وتعالى أن تكون قدرا بسيطا للسبب المتقدم ، فهو فى نفس الوقت قد فتح الباب على مصارعه لنيـــل الدرجات العلى بغير نهاية أو حدود ، وذلك عن طريق الانفاق فى سبيل الله ، واذا كانت الزكاة المفروضة لا مناص من دفعها ، فان ما زاد عليها انما يدفع على سبيل التطوع ، وهنا تظهر النفوس على حقيقتها وهى البخل والشح الا بالنسبة لمن فتح الله عليهم فسلموا من هذه الآفة .

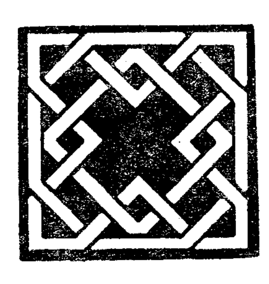
وينبه الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين يبخلون ببعض أموالهم أن تنفق فى سبيل الله أنهم انما يقصرون نحو أنفسهم ، اذ لا ينالون الدرجات العلى ، أما الله سبحانه وتعالى ، فهو غنى عن العالمين « **وأنتم الفقراء** » .

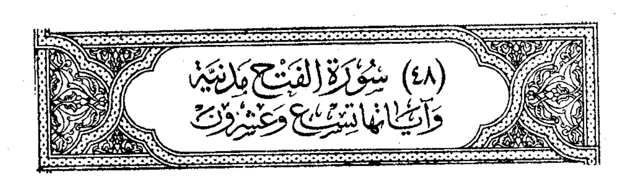
ــ وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم .

ويختم الله تعالى السورة الكريمة بتحذير جماعة المؤمنين أنهم اذا (**تولوا**) اى أعرضوا عن سبيل الله فما أهون وأيسر عليه من أن يجىء بأقوام جدد يكونون أطوع الى الله سبحانه وتعالى ثم **لا يكونوا أمثالكم** .

قال الطبرى :

أى فى البخل بالانفاق فى سبيل الله .





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ
إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ
وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا
وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ
أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ
أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ

قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل
لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ
أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ
فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ
ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ
فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

عدد آياتها :

تفادينا حتى الان أن نجرى على مادرج عليه بعض المفسرين حيث يبدأون فى تقرير عدد آيات السورة ، وذلك لنخلص من هذا الخلاف بين البصريين والكوفيين حيث لكل منهما طريقة فى العد وذلك لشديد حرصنا على أن يبرأ تفسيرنا من شبهة أى خلاف حول نصوص القرآن حتى من حيث طريقة عد آياته بل وحروفه ولكن الذين يتتبعون هذا التفسير يعرفون أننا درجنا على القول بمناسبة مكية السورة ومدنيتها أن العبرة والمعول هو على المكتوب فى المصحف الموجود بين أيدينا ولما كان هذا المصحف يتضمن ذكر عدد آيات السورة فقد رأينا أن نمد القاعدة لتشمل عدد آيات السورة كما هو مدون فى المصحف، والمقرر فى المصحف أن عدد آيات سورة الفتح هو ٢٩ فوجب أن نسجل ذلك .

تقديس القرآن والتراث الاسلامى :

أما لماذا نفعل ذلك (ورب سائل يسأل وما هى أهمية ذلك) والجواب أننا يجب أن نسير على نهج الاقدمين دائما فذلك هو الأساس الأول لقيام أى حضارة ومدنية وهو أن يحتفظ كل جيل بما فى يديه من عمل وفكر الاقدمين ، فاذا كانت لديه اضافة فلا بأس من اضافتها بل وربما تكون هذه الاضافة مندوبة ، أما أن يتصور جيل من الأجيال أن يهدم القديم بحجة أنه سيبنى بناء جديداً ، فهذا هو الضياع ، والذى لا يقوم معه علم أبدا فضلا عن حضارة ذلك أن كليهما لا يخرج عن كونه عملية (تراكم) فأنا على سبيل المثال ما كنت أستطيع أن اضطلع بهذا التفسير، لولا علم وجهود كل من سبقونا ولذا فانى التزم به أولا فان كان لى رأى نشأ على ضوء متغيرات العصر ، فانى أسوقه مع النص على القديم بما هو واجب له من احترام .

وعلى هذا الأساس فقد شرعنا منذ هذه السورة على ما جرى عليه العمل دائما وهو اثبات عدد آيات السورة وانهاهنا (٢٩) .

وقد بقى أن نلفت نظر الشباب الى أن هذه الدقة التى حرص عليها القدامى فى تقييد كل ما يتصل بالقرآن كانت (بتوفيق من الله) هى التى حفظت للقرآن سلامته عبر القرون وواجبنا أن نؤدى دورنا بنفس الدقة التى أدوه بها .

سورة مدنية :

سورة الفتح سورة مدنية باتفاق لم يشذ كائن من كان عن قول ذلك فهى تحدثنا عن حدث عظيم جرى للنبى صلوات الله عليه وسلامه فى العام السادس من الهجرة وهو « صلح الحديبية » وقد نزلت السورة الكريمة اثر انصرافه من عقد

الصلح أى فى الطريق من مكة الى المدينةفهى مدنية بمعنى أنها أنزلت بعد الهجرة وتتصل بحدث جرى لرسول الله فى علاقاتهمع قريش ، وقد تضمنت بضع سور أخرى الاشارة الى غزوات الرسول كالانفال اذتشير الى غزوة بدر وسورة آل عمران اذ تشير الى غزوة أحد وسورة الأحزاباذ تشير الى غزوة الخندق وسورة التوبة اذ تشير الى غزوة تبوك .

اما سورة الفتح فتحدثنا عن أكبر عمل سياسى قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وصفه الله سبحانهوتعالى بأنه فتح مبين مما يدل على روح الاسلام التى طالما نوهنا بها من الاسلاميعنى السلام فسوف نرى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم كان قويا ، وكانباستطاعته أن يناجز قريشا وأن يتغلب عليها فهى كانت قد ذلت وضعفت والا لماعقدت هذا الصلح بالذات .

وقد تهيأ رسول الله ومن معه للحرب فعلا وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدم الفرار ولكن قريشالم تكد تظهر استعدادها للتفاهم على طريقة للمسالمة ، حتى فتح رسول الله باب التصالح على مصارعه حتى لقد قبل أن يتنازل (من الناحية الشكلية) عنبعض المسائل التى تصور بعض كبار الصحابة أنه لا يمكن التنازل عنها وهكذاشاءت ارادة العلى القدير أن يوجد فى حياة سيدنا محمد شتى المواقف لنتعلم منهاكيف تكون الحرب وكيف يكون السلم وكيف تكون السياسة وكيف يتراجع القائدوالزعيم فى بعض المواقف خطوة لكى يقفز الى الامام عديدا من الخطوات ، وصلحالحديبية أكمل نموذج لهذا النوع من التصرفات .

صلح الحديبية :

وقد حفظ لنا تاريخ السيرة النبويةسجلا كاملا لكل ما يتصل بصلح الحدبية وهو تفصيل لا يدور حوله خلاف كبيروالفضل فى ذلك يرجع الى سورة الفتح التى دعمت باياتها (كما سنرى) تفاصيلالواقعة .

وقد جرى جمهرة المفسرين علىتقسيم تفاصيل واقعة (صلح) الحديبية على آيات السورة ، ولكننا نؤثر أن نوردأولا تفاصيل القصة بكاملها أولا ثم نستعرض الايات ثانيا فاذا بها واضحةكفلق الصبح .

سيرة ابن اسحاق :

ولقد جاء فى البخارى ومسلم وبقيةيكمل بعضها بعضا ، ولكننا لاحظنا أن الكل قد نقلوا عن ابن اسحق أو مصادرابن اسحق بالذات ، ولما كان ابن هشام كاتب ابن اسحق قد لخص كتابه عنالسيرة النبوية ، ولقد ضاع كتاب ابن

اسحق ، ولكن كتاب ابن هشام قد بقى لنا لحسن الحظ ، ولما كانت الأحاديث الصحيحة التى وردت فى البخارى ومسلم هى بعض ما جاء فى كتاب ابن هشام ، فقد رأينا أن ننقل القصة بأكملها من ابن هشام ونحن مطمئنون كل الاطمئنان الى دقة الرواية لموافقتها كل الموافقة لما ورد فى سورة الفتح من اشارات لهذا الحدث العظيم فنقول وبالله التوفيق :

ما سبق وعاصر ولحق صلح الحديبية

قال ابن اسحق : ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة شهر رمضان وشوال (وذلك كله فى العام السادس) وخرج فى ذى القعدة معتمرا لا يريد حربا واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الاعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من الاعراب وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربة وليعلم الناس أنه انما خرج زائرا لهذا البيت (الكعبة) ومعظما له .

حتى اذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى ارادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين . ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم الذى هم بها ، قال رجل من أسلم ، أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقا وعرا بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا الى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس : قولوا نستغفر الله ونتوب اليه ، فقالوا ذلك فقال : والله انها « للحطة » التى عرضت على بنى اسرائيل فلم يقولوها . (ثم أمر رسول الله الناس) أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهرانى الحمض فى طريق تخرجهم على ثنية المرار مهبط الحديبية(١) . من أسفل مكة ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رات خيل قريش قترة الجيش (اى غباره) قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين الى قريش ، وخرج رسول الله حتى اذا سلك ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس خلات الناقة (أى حرنت) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما خلات وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطينهم أياها ثم قال

خالد بن الوليد

(١) يطلق الآن على هذا الموضع فى الذاهب من جدة الى مكة باسم الشميسى .

للناس : انزلوا ، قيل له : يا رسول اللهما بالوادى ماء ينزل عليه ، فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به فى قليب (بئر) فغرزه فى جوفه فجاش (علا وارتفع) بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن (أى شرب الناس حتى ارتووا هم ودوابهم) .

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتاه جديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذى جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وانما جاء زائرا للبيت ومعظما له ثم قال لهم نحواما قال لبشر بن سفيان ، فرجعوا الى قريش فقالوا يا معشر قريش انكم تعجلون على محمد ، ان محمدا لم يأت لقتال وانما جاء زائرا لهذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم (أى خاطبوهم بما يكرهون) وقالوا ان كان لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تتحدث عنا بذلك العرب . (وراحت قريش تبعث برسلها واحدا بعد آخر) .

ثم دعا رسول الله عمر بن الخطاب ليبعث به الى قريش فقال عمر يا رسول الله انى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة أحد من بنى عدى يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى اياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان واشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه انما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته ، فقالوا لعثمان : ان شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لافعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عثمان قد قتل .

بيعة الرضوان :

فقال رسول الله عندما بلغه أن عثمان قد قتل : « لا نبرح حتى نناجز القوم » فدعا رسول الله الناس الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعنا رسول الله على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر ، وبايع رسول الله الناس ثم اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

امر الهدنة :

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه الا ان يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا يتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ، فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقبلا قال : قد

أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ،فلما أنتهى سهيل بن عمرو الى رسول الله ، تكلم فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثمجرى بينهما الصلح . فلما التأم الأمر ، ولم يبق الا الكتاب (أى كتابة عقد الصلح)وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ، قال : بلى .قال : أو لسنا بالمسلمين ، قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال ، بلى ،قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ، قال أبو بكر : يا عمر الزم غراه (أى اتبعهولا تحيد عنه) فانى أشهد أنه رسول الله ، قال عمر وأنا أشهد أنه رسولالله ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ألسترسول الله ؟ قال : بلى ، قا ل: أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوابالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد اللهورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى ، قال فكان عمر يقول : أتصدق وأصوموأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوتأن يكون خيرا ، قال : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالبرضوان الله عليه ، فقال (أى سيدنا محمد) : أكتب ، بسم الله الرحمن الرحيم،فقال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلىالله عليه وسلم : أكتب باسمك اللهم فكتبها ، ثم قال : أكتب هذا ما صالح عليهمحمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لمأقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضعالحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ،على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده اليهم ومن جاء قريشا ممنمع محمد لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكفوفة (أى يكف كل من الطرفين عنالاخر) وأنه لا اسلال (أى السرقة الخفية) ولا أغلال (خيانة) وانه من أحبأن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهمدخل فيه ، فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكرفقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ،وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنها ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثا معكسلاح الراكب السيوف فى القرب (أى فى اغمادها) لا تدخلها بغيرها .

امر أبى جندل بن سهيل بن عمرو :

فبينما رسول الله صلى الله عليهوسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو (وكان قد أسلم) يرسف (فى الحديد) قد انفلت الى رسول الله .

وقد كان أصحاب رسول الله قد خرجوا (أى من المدينة) وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله ، فلمارأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما

عمر يجادل الرسول

تحمل عليه (أى عاناه) رسول الله فى نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فلما رأى ســهيل(ابنه) أبا جندل قام اليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد قد لجت القضية (أى أن الاتفاق قد أبرم وانتهى الأمر) بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا .

قال (أى رسول الله) صدقت ، فجعل ينتره (أى يجذبه) بتلابيبه ويجره ليرده الى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فزاد ذلك الناس الى ما بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل أصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله وأنا لا نغدر بهم ، قال : فوثب عمر بن الخطاب مــع أبى جندل ، يمشى الى جنبــه ويقول :أصبر يا أبا جندل فانما هم المشركون وانما دم أحدهم دم كلب ، يقول ذلك وهو يدنى قائم السيف منه ، ويقول عمر « رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ولــكن الرجل ضن بأبيه ، ونفذت القضية » .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح قام الى هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه ، فلما رأى النــاس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد نحــر وحــلق تواثبوا ينحرون ويحلقون ويقصرون فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : يرحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله ، قال : يرحم الله المحلقين، قالوا والمقصرين يا رسول الله ، قال : يرحــم الله المحلقين ، قالوا والمقصرين يا رســول الله ، قــال : والمقصرين ،فقالوا : يا رسول الله فلم ظاهرت (أى قويت) الترحيم للمحلقين دون المقصرين ،قال : لم يشكوا .

رجوع الرسول ونزول سورة الفتح :

ثم انصرف رسول الله قافلا (أى راجعا) حتى اذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح « **انا فتحنا لك فتحــا مبينا** » .. **الايات** .

ما جرى عليه أمر قوم من المستضعفين بعد الصلح :

فلما قدم رسول الله المدينة أتاه أبوبصير عتبة بن أسيد (مسلما وكان ممن حبس بمكة) فلما قدم على رسول الله كتب فيه (رجال من قريش) وبعثا برجــلين لاعادته ، فقال رسول الله : يا أبا بصير انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح فى ديننا الغدر وأن الله جاعل لك ومن معك من المســتضعفين فرجــا ومخرجا ، فانطلق الى قومك ، فانطلق معهما حتى اذا كان بذى الحليفة جلس الى جدار وجلس معه صاحباه فقال أبوبصير « أصارم سيفك هذا » فقال : انظر اليه ؟ قال : انظر ان شئت . قال فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله ، ونجــا

رفيقه بنفسه وعاد الى رسول الله وهوجالس فى المسجد فلما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ان هذا الرجل قدرأى فزعا ، فلما انتهى الى رسول الله قال : ويحك مالك ؟ قال : قتل صاحبكم صاحبى ، فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحا بالسيف حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك أسلمتنى ليد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى ، فقال رسول الله :ويل أمة محش حرب (أى موقد حرب) ، لو كان معه رجال .

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش الذى كانوا يأخذونه الى الشام ، وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة قول رسول الله لأبى بصير « ويل أمة محش حرب لو كان معه رجال » فخرجوا الى أبى بصير بالعيص فاجتمع اليه منهم سبعون رجلا وضيقوا على قريش لا يظفرون بأحد منهم الا قتلوه ولاتمر بهم عير (قافلة) الا اقتطعوها حتى كتبت قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله بأرحامها أن يأويهم ، فلا حاجة لهم بهم ، فاواهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدموا عليه فى المدينة .

« انتهت قصة الحديبية كما جاءت فى سيرة ابن اسحق » .

عمرة القضاء :

ونريد كى تكون الصورة كاملة أمام القارىء نكمل له وقائع ما حدث بعد ذلك لانه بدوره يفسر كيف كان صلح الحديبية فتحا ففى العام التالى قام رسول الله وأصحابه بأداء العمرة طبقا للاتفاق وهى ما أطلق عليه فى التاريخ النبوى « عمرة القضاء » حيث أخلت قريش مكة لمدة ثلاثة أيام ودخلها رسول الله حيث طاف بالبيت هو وأصحابه وسعى بين الصفا والمروة وقد لا يعرف مئات الألوف من الحجاج ان نظام « الهرولة » فى الطواف والسعى قد سن فى هذه العمرة لسبب خاص ، وظل حتى الان كذكرى لهذا اليوم العظيم ، ولكن قليلا جدا من الحجاج من يعرف ذلك. وحقيقة الأمر أن قريشا عندما أخلت مكة ليدخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفت فوق رؤوس الجبال تتفرج على سيدنا محمد ومن معه وهم يطوفون بالكعبة ، وكان زعماء قريش قد روجوا بين الناس أن محمدا وأصحابه قد انهكتهم الحرب حتى ليكادون يتساقطون من فرط الضعف والأعياء ، ولما كان ذلك يخالف الحقيقة بطبيعة الحال ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « رحم الله امرءا أراهم من نفسه قوة» ومن هنا فقد سن نظام «الاضطباع» وهو أن يكشف المحرم ذراعه الايمن وهو يطوف حول الكعبة ويسعى وذلك لكى ترى قريش يومئذ كذب ما قيل لهم عن ضعف المسلمين ، ولنفس السبب راح الصحابة يهرولون فى طوافهم فى ركنين من أركان الكعبة حيث كانت أبصار قريش تقع عليهم ، ويسيرون الهوينى فى الركنين

الاخرين حيث لا تقـع عليهم الأبصـار ،وكذلك الحال فى السعى فكان المسلمون يهرولون فى جزء من السعى حيث تقـع عليهم أبصار قريش ، ويمشون الهوينى فى غير ذلك .

وقد فطن سيدنا عمر بن الخطاب أيام خلافته لذلك فقال « كنا نهرول على أيام رسول الله لنغيظ كفار قريش ، فعلام نفعل ذلك اليوم وقد زال السبب » ولكنه بعد التشاور مع أهل الشورى رؤى الابقاء على فعل فعله رسـول الله فبقيت الى اليوم سنة متبعة .

فتح مكة بعد عمرة القضاء :

واذا كانت عمرة القضاء قد حققت نبوءة القرآن التى وردت فى سورة الفتح « لتدخلن المسجد الحرام .. الاية » .

فان العام التالى مباشرة (الثامن من الهجرة) قد شهد فتح مكة نهائيا وحيث وفد الرسول ومن معه الى مكة عام صلح الحديبيـة فى عـدد يتراوح بين ١٤٠٠ و ١٥٠٠ فقد دخل مكة بعد ذلك بعامين فقط فى جيش مقداره عشرة آلاف .

والان وبعد سرد حادث صلح الحديبية وما عاصره ولحقه بكل هذا التفصيل نمضى فى ذكر آيات السورة ، وسـنرى كيف أشارت الايات كلها الى هذه الوقائع التى سردناها ممـا جعلنا مطمئنين كـل الاطمئنـان لرواية ابن اسـحق لصـلح الحديبية ، وما جعل جميع المفسرين بلا استثناء يثبتونها .

انا فتحنا لك فتحا مبينـا :

يكاد الاجماع ينعقد على أن الفتـح المقصـود هو فتح صلح الحديبية ولكن البعض ذهبوا الى أن المقصود به هـو فتح مكة وقـد بشر به الرسـول عقب انصرافه من الحديبية ، وقد جاء الحديث بصيغة الماضى ويضـيفون الى ذلك ان الفتح لا يكون الا عنوة وصلح الحديبية لم تستعمل فيه أى قوة ، وهذه حجة واهية فقد استعمل تعبير الفتح هنا على سبيل المجـاز وتثبيتا لقلوب المسـلمين الذين تصوروا انهم عادوا بصفقة المغبون .

ويروى انه عندما نزلت سورة الفتح تساءل بعض المسلمين « أفتح هو ؟ » فقال رسول الله « بل هـو أعظم فقـد رضى المشركون أن يردوكم عن بلادهم بالـراح ويسألوكم القضية ويرغبوا منكم فى الامان وقد رأوا منكم ما كرهوا .

انا فتحنا لك فتحا مبينا :

وقد بقى أن نثبت حديث البخارى ومسلم بصدد سورة الفتح قالا رضى الله عنهما بسندهما :

كان رسول الله يسير ليلا ومعه عمربن الخطا بفسأله عمر عن شيء فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه(١) فقال عمر ثكلت أمعمر ، نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات لم يجبك قال عمر :فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام النــاس وخشيت أن ينزل قرآنا فما نشبت (أىما لبثت) أن سمعت صارخا يصرخ بى فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ،فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال « لقد نزلت على سورةلهى أحب الى مما طلعت عليها الشمس ثم قرأ « انا فتحنا لك فتحا مبينا » .

ــ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبكوما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا .

هل للرسول صلوات الله عليه ذنوب ؟

يخــوض بعض قدامى المفسرين فى محاولة تحديد المقصــود بمغفرة الذنوب وان جاز أن يكون لرسول الله ذنوب فىالجاهلية فهل له ذنوب بعد البعثة ويصل الأمر ببعضهم الى محاولة تقصى هــذهالذنوب بينما يحــاول البعض أن يصرف معنى الكلام عن ظاهره فيقولون انالمقصود به هو ذنوب أمته ، أو هو ذنب آدم ، وذلك كله لا يتفق ــ الرأى مع عصمةالرسول والتى تجعله لا يذنب ، ومثل هذه الاراء تطلعك على الحرية المطلقــةالتى كان علماء السلف يخوضون بها هذه المسالك الوعرة ، اما نحن فلا نخوضفيما خاضوا فيه وندع الأمــر كله لله ، فعلاقة سيدنا محمد بربه مسألة ندعهالله عز وجل فهو أعرف برســوله ونبيه منا ، ولنا ما يدل عليه الكلام الالهى دلالةقاطعة فى هذه الاية يتحدث عن فضل الله عز وجل على سيدنا محمد فهو :

١ ــ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

٢ ــ وهو قد أتم نعمته عليه .

٣ ــ وهو قد هداه الى الصراط المستقيم .

٤ ــ وهو قد نصره نصرا عزيزا .

ومن هنا فلا عجب أن يقول رسول الله :

لقد أنزلت على الليلة سورة خير مماطلعت عليه الشمس .

وقد لاحظ من هم حول سيدنا محمد فى أخريات حياته استغراقه فى العبــادة وقيام الليل فقالوا له : أو لم يغفر اللهما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فكان يقــول

---

(١) اذكر ما قاله ابن اسحاق عن موقف سيدنا عمر فى صلح الحديبية .

لهم : ((**أفلا أكون عبدا شكورا**)) ولقدتكرر فى القرآن الكريم ، دعوة سيدنا محمد الى الاستغفار والتوبة كلما فتح الله عليه ، وقد مر بنا ذلك فى سورة النصر التى أنزلت عليه عقب فتح مكة .

ــ اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا .

الأدب الالهى :

ولنا نحن فى الوقت الحاضر الأدب الالهى الذى يؤدبنا به ، فاذا كان يعلمنا أنه حتى النبى ذروة الكمال الانسانى مدعو الى الاستغفار وحتى بعد أن غفرت ذنوبه مقدما ، فكان الاحرى بنا نحن عباد الله الناقصين الضعفاء الغارقين فى الاثم ، علينا أن نتوب ونستغفر بالليل والنهار وفوق ذلك وقبل ذلك ان لا تداخلنا ذرة من الغرور أيا كان ما نفعله .

ــ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما . ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما .

نشيد النصر :

لست أدرى أهو خيال خاص بى أم هو احساس عام يحسه كل من طالع هذه الآيات التى تثير فى نفسى هذا الشعور ، وأعنى بها الآيات من سورة الأنفال وهى تحدث الأجيال والدهور عن الانتصار الحاسم الذى أحرزه المسلمون فى بدر ، ثم هذه الآيات من سورة الفتح ، ذلك انه يخيل الى كلما تلوت الآيات فى السورتين كما لو كانت السموات والارضين والملائكة والجن والأنس والشمس والقمر وبقية النجوم والكواكب الاخرى ، كلها تضج بالبشرى وتطفح بالسرور والحبور . ان أصداء الموسيقى السماوية تتجاوب فى كل آية بل وفى كل كلمة وكل حرف . ومن هنا ولكى أكون دقيقا فى التعبير قلت ان ذلك قد يكون من محض خيالى واحساسى خاص بى .

ــ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم .

السكينة : الطمانينة

يتبين من العرض الذى قدمناه لصلح الحديبية كيف كان الموقف صعبا وشاقا

على جماهير المسلمين حول سيدنا محمد ،فهم قد خرجوا معه وهم لا يشكون فى أنهم سيدخلون اما بالتراضى أو عنوة ،ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقدم على ما أقدم عليه الا بعد رؤيا رآها فى منامه من أنهم سيدخلون الكعبة مما سترد الاشارة اليه فى آيات السورة .

وها هم المسلمون يرون أنفسهم يعودون ولما يدخلوا مكة وذلك فضلا عما جرى فى احداث الصلح نفسه حيث كتبت باسمك اللهم بدلا من باسم الله الرحمن الرحيم ، ومحمد بن عبد الله بدلا من محمد رسول الله ، كل ذلك كان صعبا وشاقا على نفوس المسلمين ، ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل الطمأنينة على قلوبهم فانصاعوا لأمر رسول الله عندما أمرهم بالتحلل من العمرة والعودة الى المدينة بدون أن يدخلوا مكة ويؤدوا فريضة العمرة .

ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم :

قال المتكلمون كلاما كثيرا حول الايمان وهل يزيد وينقص . أم أنه قدر ثابت فاما ايمان أو لا ايمان . وهذه المباحث المستفيضة فقد دارت على الرغم من صراحة الآية (**ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم**)وخص بعض مفسرى أهل السنة من هذا الخلاف بقولهم : ((**أى تصديقا بشرائع** الايمان من تصديقهم بالايمان . وقال الربيع ابن أنس : خشية مع خشيتهم وقال الضحاك **يقينا مع يقينهم**)) .

هذا نموذج لبعض ما قيل لتفادى المباحث العويصة حول الايمان وهل هو يزيد وينقص .

راى نسوقه :

وهناك رأى نسوقه نستمده من تجاربنا الذاتية فنحن ممن يقولون أن الايمان كالحب وكبقية الاحاسيس يقع أو لا يقع ثم يأتى دور العقل فى تقدير مدى هذه العاطفة وهذا الاحساس ومدى قوته وشدته ، فنحن للقرآن مثلا تهتز نفوسنا لسماعه وتنشرح له صدورنا ومع ادامة النظر نتبين أوجه الجمال ويتأكد فى نفوسنا الاحساس بالجمال وهذا هو ما يحدث فى كل شىء فبالنسبة للقرآن مثلا تهتز نفوسنا لسماعه وتنشرح وتطمئن حتى اذا اخذنا فى دراسته تبين لنا مبعث هذه الاحاسيس وما من مسلم الا وهو مؤمن بالله ومع ذلك فهو عندما يطالع الأدلة العقلية على وجود الله فهو يفرح بها وهنا يصدق عليه القول بأنه (ازداد ايمانا على ايمانه) ولنا على ذلك كله شاهد من القرآن عندما طلب سيدنا ابراهيم عليه السلام من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، فقال له أو لم تؤمن بعد فكان الجواب «بلى ولكن ليطمئن قلبى» وعندنا كلمة قلبى هنا تعنى الفكر والعقل ، فقلب سيدنا ابراهيم بمعنى مشاعره ، ووجدانه كان مؤمنا منذ البداية حتى لقد كان هو الذى حطم الاصنام وانما كانت رغبته فى

رؤية كيف يحيا الموتى طلبا فى زيادة الاقتناع الفكرى والذى يزداد باستمرار تبعا للمطالعة والتجارب وهكذا يكون الايمان كشعور ووجدان يكون أو لا يكون ، ثم يأتى دور العقل فى تفهم هذا الايمان وتقويته عن طريق البحث والدرس والمشاهدة ونعود الى موضوع المؤمنين حول سيدنا محمد فهم مؤمنون ايمانا كاملا فهاجروا وحاربوا الى جوار الرسول ولم تداخلهم أدنى ذرة من الشك فى رسالته ، قد رأينا كيف أن سيدنا عمر وهو فى أوج اعتراضه على ماكان يجرى أمامه لم يكد أبو بكر يقول له أشهد أنه رسول الله ، حتى قال على الفور ((**وأنا أشهد أنه رسول الله**)) فالمسألة لا تعدو أن تكون عدم قدرة على فهم الحوادث المفاجئة وغير المتوقعة فلما ان نزل القرآن يسجل ويقرر أن ما حدث كان فتحا ازداد المؤمنون طمأنينة فوق طمأنينة واقتناعا فوق اقتناعهم .

الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين والنصر هبة من عند الله

واذا كان القرآن منذ بدايته حتى نهايته هو وعد للمتقين بالجنة ووعيد للكافرين بالنار ، فان الانسان يحس هنا للوعد والوعيد بمذاق خاص اذ أنه يشير الى جرعة من كليهما ساقها الله لمستحقيها .

فهو بعد أن غفر لسيدنا محمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم عليه نعمته بالنصر والهداية من فضله ليشمل كل من كان مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى واقعة الحديبية فوعدهم بأن يدخلهم الجنة ، واذا كان الوعد فى هذه الآية عاما (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار) فان ذكر من كانوا مع سيدنا محمد فى صلح الحديبية بالذات مستفاد من قوله تعالى فى آية تالية كما سيرد علينا ((**لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة**))

فدل ذلك على أن كل من بايع النبى فى ذلك اليوم فقد رضى الله عنه ، وهل ثم جزاء لرضاء الله الا الجنة .

وفى الوقت الذى يتفضل الله بنعمته على من رضى عنهم وهم الذين بايعوا رسول الله (**ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما**

فانه يتوعد المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات (**الظانين بالله ظن السوء**) وكما حدد الله المؤمنين الذين ضمنت لهم الجنة بأنهم (**الذين يبايعونك تحت الشجرة**) واذا كانت جهنم هى نصيب كل مشرك ومنافق فى كل زمان فالقرآن هنا قد خصص طائفة (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) وهذه الطائفة هى (**الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء**) وكما بينت لنا آية تالية المؤمنين الذين رضى الله عنهم ، فكذلك بينت لنا آيات لاحقة ما هو الظن السىء الذى ظنه المشركون والمنافقون ((**بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا**)) .

وهكذا تحدد الظن السيء وأصبح كلمن دار فى نفسه هذا الظن ، ما لم يتداركه الله برحمته ، هو المعنى بهذه الغضبةواللعنة .

ـ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما .

واذا كنا قد رأينا عظم الفتح الذىفتحه الله على المسلمين بصلح الحديبية حيث لم يمض عامان كما قدمنا الاواستسلمت مكة وجاءت الجزيرة العربية كلها على آثارها . فقد تم ذلك بلا حربولا قتال فحق أن يكون هذا النصر والفتح من عمل جنود الله (الملائكة) وهم منتشاء حكمته تعالى ان يستخدمهم فى بعض الظروف والمناسبات (بالكم والكيف) اللذينتقتضيها حكمته ، ولا جدال أن ما حدث فى صلح الحديبية كان أحد هذه المواطن ،حيث تم فتح من أعظم الفتوح ، بتوفيق الله لرسوله أن يتصرف على النحو الذىتصرف به .

ـ انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا .

تعزروه : أى تعظموه . والتعزير التعظيم والتوقير .

وتوقروه : أى تعظموه .

وفى رأى بعض المفسرين أن الضمير فىتعزروه وتوقروه يرجع الى سيدنا محمد ، والرأى الآخر ان الضمير فى الكلمات كلهاعائد الى الله سبحانه وتعالى وهو مانميل له نحن .

ومبشرا ونذيرا .

وقد ورد وصف سيدنا محمد بأنه قدأرسل مبشرا ونذيرا فى عديد من الآيات وغنى عن البيان انه يبشر من آمن باللهوأطاع الرسول بالجنة والأصل فى التبشير انه يكون بالخير وقد يكون بالشر اذا كانمقيدا به يقال بشره تبشيرا اذا أخبره بخبر يظهر أثره على بشرة وجهه.ولكنالاستعمالقصر التبشير على الخير ، ومنه البشير .

والنذير من الفعل (أنذر) أى أبلغوأعلم ويكون ذلك فى الأعلام بالشىء المخوف (منه) فى مدة تتسع للتحفظ منه .

ووصف سيدنا محمد بأنه نذير أىأنه يحذر الكفرة والمشركين والعصاة من نار جهنم .

والاتفاق تام على المقصود من معنىبشير ونذير .

شـــاهدا

وانما جرى الخلاف حول وصف سيدنامحمد بأنه شـــاهد فمن قائل : على أمتك بالبلاغ . وقل شاهدا عليهم بأعمالهم منطاعة ومعصية ، وقيل شاهدا عليهم يوم القيـــامة .

وعندنا انـــه لا يجب حصر المعنى أوتحديده على (أمة محمد) فهو قد أرسل للناس كافة وقد جاء مبشرا لكل من آمنبه منذرا لكل من عصى ، شاهدا على كل النـــاس .

وفى الآية التالية ، موضوع البشارة والانذار وموضوع الشهادة :

ـ لتؤمنوا بالله ورســـوله وتعزروهوتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا .

أى ان موضوع رسالة سيدنا محمد.

ـ الايمان بالله وان محمدا رســـول الله .

ـ تعظيم الله واجـــلاله بافـــراده بالألوهية والعبادة .

ـ تســـبيح الله (أى تنزيهـــه) بكرةوأصيلا ، أى غدوة وعشيا .

وقدمنا ان البعض يقف وقفا تاما بعدتعزروه وتوقروه ، باعتبـــار أن الضـــمير يعود على سيدنا محمد فهو الذى يجب أنيعظم ، ثم يستأنف الكلام بعد ذلك بحيث يكون المقصود بالتسبيح هو الله عز وجل. وقد قدمنا أن الضمائر كلها تعود الى الله عز وجل ، لا لاننا (**وحاشا لله**) لا نرغبفى تعظيم ســـيدنا محمد فهو عندنـــا أعظم العظماء ولا يتم لأى انسان اسلام الا اذاشـــهد بأنه رســـول الله وليس وراء ذلك **عظمة** ، ولكن القرآن ابان نزوله كانشديدالحرص على اختصاص الله وحده بالعظمة والجلال بغير شريك فى هذه العظمة . ولقدرأينا كيف أن كل ما طلب من المؤمنين فى سورة ((**الحجرات**)) أن لا يقدموا بين يدىالرسول ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى وان لا ينادوه من وراء الحجرات .

وليس فى كل ذلك أكثر من اجـــراءاتالواجب اتباعها حيال أى معلم ومرشـــد ومؤدب .

وقد كان سيدنا محمد ينهى أصـــحابهعن أن يعظموه كما يفعل الاعاجم بملوكهم، فدل ذلك على أن العظمة هى لله وحـــده،وليس ينقص ذلك سيدنا محمد مقـــدار ذرة من عظمة (الانسانية) . ب

ـ ان الذين يبايعونك انما يبايعونالله يد الله فوقأيديهمفمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه اللهفسيؤتيه أجرا عظيما .

نكث : أى نقض البيعة

هاهى الاشارة الى بيعة الرضوان ،غير ان الاشارة هنا وردت عامة ، وستأتى فى آية تالية الاشارة الخاصة الى بيعة الرضوان بالذات .

يد الله فوق أيديهم

بعد أن أشارت الآية الى أن من يبايعون سيدنا محمد على أى أمر من الأمور انما يبايعون الله فسيدنا محمد هو رسوله والناطق باسمه فكان من الطبيعى أن يد الله كانت فوق أيديهم عندما كانوا يضعون أيديهم فوق يد الرسول رمزا على العهد والميثاق ويد الله يجب أن تفسر هنا كما تفسر فى أى مكان آخر بأنها تعنى ((**عناية الله**)) أو ((قدرته)) أو ((**نعمته**)).

فمن نكث فانما ينكث على نفسه .

أى أن من نقض بيعته فانه انما يعود بالضرر على نفسه لحرمانه من الثواب أولا ولاستحقاقه الجزاء لاخلاله بتعهده .

ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما .

أما من يوفى بعهده مع الله أى مع (رسوله) فسوف يوفى الله له أجره العظيم بادخاله الجنة .

ـ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو اراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا .

قال ابن عباس ومجاهد أن المخلفين من الاعراب هم من كانوا حول المدينة آنذاك وسموا القبائل بأسمائها والآية تنبأ بأن هؤلاء الاعراب الذين تخلفوا عن رسول الله عندما دعاهم للسير معه عندما قصد مكة سوف يقولون له عندما يرونه وقد رجع بسلامة الله الى المدينة (على خلاف مايظنون) انه لم يمنعهم من الخروج معه اذ دعاهم الا اشتغالهم بالسعى وراء (المعايش) أى **طلب الرزق وحرصهم على** أن لا يتركوا أولادهم وعيالهم بدون من يعولهم ويزيدون على ذلك فيطلبون منك أن تستغفر لهم ، ولكن الله سبحانه العالم بالنوايا قد فضح سرهم فحكم عليهم بالنفاق وأنهم يقولون بأفواههم (السنتهم) ماليس فى قلوبهم ، فهم انما يتظاهرون بطلب المغفرة والحقيقة أنهم لا يضمرون الا السوء ويكلهم سيدنا محمد الى الله الذى يقرر وحده ان يشاء أن يضرهم أو ينفعهم ، بل **كان الله بما تعملون خبيرا بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا**

بورا : اى هلكى تقول بار فلان اى هلك . وقيـــل قوما بورا أى فاســـدون لا يصلحون لشىء من الخير .

الله يكشف الحقيقة

وفى هذه الآية الكريمة يكشف الله عن حقيقة ما دار فى نفس الاعـــراب وجميـــع المنافقين الذين تخلفوا عن السير مع رسول الله فقد تصوروا أن هذه الرحلة ســـتكون نهاية سيدنا محمـــد ومن معه من المؤمنين فما كانت قـــريش بالتى تتركهم يفلتون من أيديها فقد قصـــدت قريش المدينة فى غزوة بدر فى ألف مقـــاتل منهم ٣٠٠ فارس فى غزوة بدر ثم قصـــدوها فى العـــام التالى بثلاثة آلاف مقاتل ، وفى غزوة الخنـــدق قصدوا المدينة بعشرة آلاف وقد كانت قريش تقطع مئات الكيلو مترات لتدهم المســـلمين فى المدينة ، ومن هنا تصور الاعـــراب أن محمدا ومن معه عندما يصبحوا فى يد قريش وفى عقر دارهم فسوف يفتكون بهم ، واغفل هؤلاء الاعراب والمنافقون قدرة الله التى تعلو كل قدرة ، وهو ما كان يوجه سيدنا محمد هذا التوجيه لو سبق فى علمه غير هذا الذى حدث .

— ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما . وانزل الله حكمه على من تصور التصور السابق نتيجة كفره بالله ورسوله بأنه قد أعد لهم سعيرا أى (نار جهنم) دعاء بالتذكير أنه هو المتصرف فى كل ما يجرى من أحداث فى الســـموات والأرض ، وكما هو شأنه (جلت قدرته وعظمت رحمتـــه) فهو لا يقنط أبدا من رحمته ولذلك فقد ختمت الآية بأنه هـــو الغفور الرحيم ، وذلك بعد أن أطلق مشيئته فى الغفران .

— سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوهـــا ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحســـدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا . قل للمخلفين من الإعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله **أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عـــذابا اليما . ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما .**

فتـــح خيبـــر :

وعد ســـيدنا محمد صـــلوات الله عليه المسلمين وهم عائدون من صلح الحديبية أن الله قد أذن له بفتح خيبر وكانت آخر وكر لليهود قد انحازوا اليه وكان اليهود فوق عدائهم لسيدنا محمد قد ازدادوا عليه حقدا، فكانت خيبر بؤرة مؤامرات ودسائس ومع

ذلك فلم يكن الله قد أذن له بعد فى اجلائهم فلما ان تلقى الأمر من ربه بفتحها ، كان من الطبيعى أن لا يشرك معه فى هذا الأمر الا الذين برهنوا على ايمانهم بالسير معه الى مكة عندما دعاهم ومبايعته على الجهادمعه حتى النصر أو الموت .

ولكن الاعراب عندما رأوهم قد عادوابسلامة الله ، ورأوهم يتجهون للسير نحو خيبر لفتحها ، طمعوا هذه المرة فى مصاحبةرسول الله يقينا منهم أن المعركة ستكون سهلة والغنائم وفيرة . والذى يهمنا فى هذا الموطن أن هذه الوقائع كلها قد نبأ بها القرآن، سيدنا محمدا، من أنه سيكون فتح وستكون مغانم ، وسوف يطلب المخلفون من الاعراب أن يصاحبوا رسول الله ،يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو ما قضى به على لسان رسوله من ان لا يصحبه الى خيبر الا من حضر معه الحديبية .

وهنا يقرر القرآن الكريم هذا الحكم ((**قل لن تتبعونا كذلكم قال الله**)) .

— ((فسيقولون بل تحسدوننا))

ومرة اخرى ينبىء القرآن بما سوف يقوله المخلفون من أنهم يمنعون من الخروج حتى لا يأخذوا نصيبا من الغنائم ، وهكذا يكشفون عن خبيئة أنفسهم وانهم لا يخرجون الا طمعا فى الغنيمة .

— بل كانوا لا يفقهون الا قليلا :

وهذا هو شأن المنافقين ومن فى قلوبهم مرض يتصورون الأمر على انه مجرد غنائم وينسون أن الأمر بالنسبة للمؤمنين هو استعداد أولا للموت فى سبيل الله ، فاذا تم النصر فمن عند الله وتكون الغنائم بعض نعم الله يفيئها على المؤمنين فى الحياة الدنيا ولهم بعد ذلك الثواب أعظم الثواب فى الآخرة .

وكل هذه المعانى لا يفقه المخلفون منها شيئا والا لما تخلفوا أما القليل الذى يفهمونه فهو فى أوهامهم وظنونهم السيئة وبقية شئون الدنيا .

— قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون .

من هم القوم أولو البأس

جرى الخلاف بين من حاولوا تحديد(من هم القوم أولو البأس ، فقال بعضهم انهم هوازن (فى غزوة حنين) وقال بعض آخر انهم بنو حنيفة(فى حروب الردة)وعدد كبير من المفسرين يقولون ان المقصود هم فارس والروم ، بينما اختار الطبرى ونحن من رأيه أن الوصف جاء عاما ويجب أن يبقى على عمومه ، والسياق عندنا واضح كل الوضوح فقد دعى الاعراب للسير مع رسول الله فلما أن تصوروا أن سيكون قتال نكلوا وتعللوا بشتى الأعذار فلما قصد الرسول خيبر وتصوروا أن لن يكون

قتال انما هى مغانم طلبوا أن يخرجوا معه فرفض الرسول انصياعا لأمر الله سبحانه وتعالى أن لا يخرجوا معه ، فلمـــا احتج الاعراب وادعوا انهم مسلمون مؤمنون ، قيل لهم أن الفرص ستكون متاحة لهم فى المستقبل ، فسوف يدعون الى قتال أقوام ذوى بأس ((**تقاتلونهم أو يسلمون**)) ونحن نميل الى تأويل يسلمون هنـــا بمعنـــى بستسلمون ، فقد جرى العمـــل على ذلك أيام سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكانت جيوش المســـلمين تحارب جيوش فارس فاذا استســـلمت الجيوش توقف القتال .

— فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليمـــا .

هذا هو نتيجة الامتحان والفرصة التى لا تزال أمام الاعراب ، فسوف يدعون من جديد ، حيث يكون القتال على أشده فان هم أطاعوا فسيكون لهم الأجر عند الله ، أما اذا نكصوا وتخلفوا كما فعلوا من قبل فسوف يعذبهم الله عذابا شديدا .

وسنرى أن الاعراب قد سقطوا فى الامتحان عندما دعوا الى غزوة تبوك ، ومن هنا فقد أنحت عليهم ســـورة التوبة بكل شـــدة .

— ليس على الاعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المـــريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما .

((لا يكلف الله نفسا الا وسعها)) .

نصل الآن الى أحد المبادىء الرئيسية والجوهرية للشريعة الاســـلامية وهى أن مناط التكليف هو القدرة فعند فقدان القدرة يسقط التكليف واذا كانت هذه الآية التى نحن بصددها قد رفعت الحرج عن المريض والأعمى والأعرج ، فقد عممت آية أخرى المبدأ (**لا يكلف الله نفسا الا وسعها**) .

وتقدير العجز المانع من أداء الواجب فى حالة المرض والعرج متروك بطبيعـــة الحال الى المريض نفسه فهو وحده الذى يقدر .

وفى صحابة رسول الله رفض (ابن أم مكتوم) وقد كان أعمى ، رفض الانتفاع بهذه الرخصة عقب وفاة الرسول ، فكان يقول لهم فى حـــروب فارس ((ســـلمونى الراية فانى لا أستطيع الفرار)) .

وهكذا أوجد لنفسه عملا لا يحتاج الى بصر أو حركة وفى عصرنا الحديث ، حيث أصبح القتال بالطائرات والصـــواريخ فكل انسان يقدر حالة العجز التى تمنعـــه عن أداء واجب القتال .

وفى الجيوش العصرية يتشددون فى اللياقة البدنية للجنود ولكنهم فى حالة الحرب يستعينون بكل انسان ، ويبقى المبدأ العام ((**لا يكلف الله نفسا الا وسعها**)) والأمـــر كله يجرى تحت رقـــابة الله المطلع على ما فى السرائر .

((ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه عذابا اليما))

ــ لقد رضى الله عن المـــؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عـــزيزا حكيما . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هـــذه وكف أيدى الناس عنـــكم ولتكون آية للمؤمنين ويهـــديكم صراطـــا مستقيما .

هذه هى الآيات التى اعتاد المفسرون أن يذكروا بمناســـبتها قصة الحـــديبية باعتبارها نصا مبـــاشرا على البيعة التى عقدها رسول الله عند الحديبية أما نحن فقد أوردنا القصة بتمامها قبل الشروع فى تفسير السورة وقد تحدثنا فيما تحدثنا عن مبايعة الصحابة لرسول الله عندما انتوى فى لحظة أن يقاتل القوم عندما بلغه خطأ أن المشركين قد قتلوا عثمان بن عفان سفيره اليهم ، ثم عدل عن القتال عندما تبين عدم صحة الخبر وأدرك أن قريشـــا قد جنحت للسلم فكان لزاما عليه بنص القرآن أن يجنح هو بدوره للسلم الذى هو الغرض الأساسى ونقل عن بعض الصحابة قوله انهم بايعوا رسول الله فى ذلك اليوم على الموت بينمـــا قال آخرون انما بايعوه على **((أن لا يفروا))** وعندنا أن هذا هو الصحيح ، فالغـــرض الأساسى من أى قتـــال هو النصر (أى الحياة) ولكن النصر لا يتحقق الا اذا استرخص المقاتل حياته فى سبيله . ومن هنا فأن يبايع الصحابة سيدنا محمدا على أن لا يفروا من المعركة حتى الاستشهاد اذا لزم الأمر مفهوم . اما ان يعتبر الموت فى حد ذاته غرضا يبايعون عليه فقول لا نســـيغه ونفضل عليه قول من قال بايعوا على أن لا يفروا والله سبحانه وتعالى يقرر هنا انه **قد رضى عن هؤلاء المـــؤمنين** وهو وعـــد بالجنة .

الجزاء فى الدنيـــا :

ولكن شاءت ارادة الله أن يعجل لهم بعض ما يشعرهم برضاه .

ــ فـــانزل عليهـــم الســـكينة أى الطمأنينة .

ــ وأثابهم فتحا قريبا وهو فتـــح خيبر .

كما قدمنا ، والذى حصلوا منه على مغانم كثيرة **(وكان الله عزيزا حكيما)** .

ــ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه .

قال ابن عباس ومجاهد : أنها المغانم التى تكون الى يوم القيامة . (فعجل لـــكم هذه) أى غنائم خيبر .

وكف أيدى الناس عنكم

كان ترك سيدنا محمد عليه الصلاةوالسلام للمدينة وهو يبعد عنها بكل من معه من المقاتلين فرصة ذهبية لليهود ولكلخصوم سيدنا محمد ان يدهموا المدينة فى غيابه ، ولكن الله سبحانه وتعالى صرفالجميع عن أن يفعلوا ذلك مع قدرتهم عليه وتفكيرهم فيه .

ولقد اخترنا هذا الرأى مجازاةللطبرى ذلك أن البعض قال : ان المقصود هو كف أيدى قريش عن القتال .

ولكن هذا المعنى ورد فيما بعد بوضوح يحدد المقصود منه كما سنرى .

ولتكون آية المؤمنين :

أى صرف خصوم الاسلام عن مهاجمة المدينة فى غيبة رسول الله ، هو آية للمؤمنين ليعلموا منها أن الله يرعاهمفى حضورهم وغيبتهم **(ويهديكم صراطا مستقيما)** أى يثبيكم على الهداية ، أويزيدكم هدى . **ـ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىءقديرا .**

واخرى معطوفة على **((هذه))** أىفعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى . أما ما هذا الذى لم يقدر المسلمون عليه الىأن أقدرهم الله ، فمن قائل أنها خيبر ومن قائل أن المقصود بها هو مكة ، وقيل حنين ، وقال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين كأرض فارس والروم ، وكلذلك جائز ، واختلف فى معنى (قد أحاط الله بها) فالبعض يقول : أى أعدها لكمفهى كالشىء الذى احيط به من جوانبه فهو محصور لن يفوتكم بقدرة الله .

وقيل : أحاط الله بها ، أى علم أنهاستكون لهم .

وعندنا أنها على كلا المعنيين نبوءةلما سوف يتحقق فى مستقبل الزمان وقد تحقق بالفعل .

(وكان الله على كل شىء قديرا)

ـ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنةالله تبديلا .

حكم من الله عز وجل أن لو حاربسيدنا محمد ومن معه كفار مكة لهزموا هزيمة ساحقة ولفروا هاربين دون أن يهب أحد لنجدتهم ، وهو ما دلت عليه وقائع الحال ، فكل الذى طمعت فيه قريش عندماأنست من سيدنا محمد استعداده للسلم ، هو أن يرجع عنهم عامهم هذا ، وهوما نسميه بلغة العصر (حفظ ماء الوجه) وفى مقابل ذلك تعهدوا أن يخلوا له مكةفى العام القادم ليدخلها بسلام كما قدمنا ،

ولو كان فى قريش بقية قدرة من قتال لـــاوافقوا على ذلك بحال ، وكيفما كان الأمر فلا محل للاجتهاد مع صراحة النص .

ـ ((ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار))

مبدأ الكون كله :

ونصـــل الى نص قرآنى سيصادفنا اكثر من مرة ويمكن أن يقال إن كل العلوم الكونية نابعة منه وقائمة عليه وهو ثبات كل القوانين والنـــواميس الطبيعية ممـــا سنعود له بتفصيل أوسع فى مناسبة قادمة وذلك النص هو قول القـــرآن الـــكريم : **((سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)) .**

والسنة الطريقة :

وخلت من قبل : أى مضت بمعنى ان الله قد قدرها وسنن الله بمعنى طرائقه وبلغتنا المعاصرة نواميسه وقوانينـــه ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحـــول وبغير ذلك ما كان الـــكون ليقوم على ما هو عليه .وسنة الله فى هذا الموقف الذى نحن بصدده أن أولياءه هم المنصورون أبدا ، وأعـــداؤه أعداء الحق هم المهزومون أبدا وان طال المدى .

ـ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا .

صلح الحديبية :

هذه هى الاشارة التى تشير الى صلح الحديبية والتى تقطع بأن الرسول صلوات الله عليه لم يعقد صلح الحديبية عن ضعف ،بل من قوة فالله سبحانه وتعالى يقـــول هنا أنه هو الذى كف أيدى المـــؤمنين بعد أن أظفرهم على الكافرين ، وقد رأينا فيما سبق أنه سبحانه وتعالى قرر أن لو حارب الكافرون يومئذ لولوا الأدبار .

وقد جرى التساؤل حول بطن مكة ماهو المقصود بها والجمهور على أنه الحديبية، ونحن ممن يرون أن الآية تشير بصفة عامة الى ما جرى بعامة فى يوم الحديبية ولـــكن الترمذى أورد حديثا يخصص واقعة معينة هى المقصودة بهذه الآية .

قال الترمذى عن أنس : أن ثمـــانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون ان يقتلوه فأخذوا أخـــذا (أى قبض عليهم) فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى **((وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ... الآية)).**

ـ هم الذين كفروا وصـــدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونســاء مؤمنـات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معـرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشــاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما .

مفـــردات :

الهدى : هى البدن (النــوق) التى ساقها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنحر عند الكعبة .

معكوفا : أى محبوسا أى مخصصا لما أعد له وهو أن يذبح بعد الفراغ من مناسك العمرة .

محله : أى المـكان الذى يحل فيه ذبحـه .

تطئوهم : أى تقتلوهم وتوقعوا بهم .

معرة : قيل اثم وقيل غم وقيل شدة .

تزيلوا : تميزوا من الكفار .

بعض ما يعلمه الله وجهله المسلمون

يكشف الله عز وجل فى هذه الآية عن بعض الأســباب التى من أجلها كف الله أيدى المؤمنين عن قتال أهل مكة مع انهم كانوا مستحقين أن يقاتلــوا فهم قد كفروا وزادوا على كفــرهم أن صدوكم (منعوكم) عن المسجد الحــرام ، وهو الأمــر الذى كان حسب عقيدة قريش نفسها من أكبر الكبائر .

فقد خرج رسول الله معتمرا هو ومن معه فى شهر ذى القعدة وهو أحد الأشهر الحرم التى لم يكن يجوز فيها قتال .

وقد كانت القاعدة المقدسة لدى العرب أن لا يمنع كائن من كان عن الوصول الى الكعبة لأداء الشعائر .

ومع ذلك فقد خـرجت قريش على هذا المبدأ المقدس فحالــوا بين الرســول ومن معه للوصول الى الكعبة وأداء النسك بالطواف والسعى ، ثم نحر الهدى .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

ـ هم الذين كفروا وصـــدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفـا أن يبلغ محله .

نصيحة أم سلمة أم المؤمنين

وقد قدمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أبرم صلح الحديبية على أن لا يدخل مكة هذا العام ، قام الى الهدى فذبحه (فى الحديبية) وقد كان هذا أعظم ما ضايق المسلمين فلم يسبق للعرب أن يذبحوا ما أهدى الى الكعبة الا عند (محله) حتى لقد بلغ الأمر بالمسلمين أن توقفوا عن الذبح فكان أن غضب رسول الله غضبا شديدا وهنا تجلت حكمة أم المؤمنين ((**أم سلمة**)) اذ اشارت على رسول الله أن يذبح هو أولا فيتابعه الناس على الفور ، ولنذكر نص الحديث كما أورده القرطبى نقلا عن البخارى والدارقطنى : عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة وحلق رأسه (قيل أن الذى حلق رأسه يومئذ خراش ابن أمية بن أبى العيص الخزاعى) وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا ويحلوا ففعلوا بعد توقف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له أم سلمة « لو نحرت لنحروا » فنحر رسول الله هديه ونحروا بنحره وحلق رسول الله رأسه ودعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة .

ــ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم .

تفشى الاسلام فى مكة :

هذه هى الحقيقة التى جهلها المسلمون وعلمها الله والتى من أجلها ، كف أيدى المؤمنين عن القتال ، فقد كان الاسلام فى هذه الفترة تفشى فى مكة وكثر عدد من دخل الاسلام من الرجال والنساء ولكنهم كانوا يخفون اسلامهم لضعف أغلبيتهم ، ومن هنا فان الله سبحانه وتعالى الذى يعلم من الأمر ما لا يعلمه المسلمون جنبهم أن يقتلوا بطريق الخطأ (عن غير علم) بعضا من هؤلاء المستضعفين ، فتصيبهم نتيجة ذلك (معرة) وقد قدمنا ان كلمة معرة قد فسرت على أنها العيب أو الأثم أو الشدة أو الغم وعندنا أنها هنا بمعنى عمل (يندمون عليه ويتمنون لو لم يفعلوه) .

ــ ليدخل الله فى رحمته من يشاء

ويذكر الله من حين لآخر برحمته المفتوحة على الدوام ، ومن هنا فقد قال بعض المفسرين (الضحاك) : ان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه سينحدر من أصلاب هؤلاء الذين ظلوا على شركهم مسلمين صادقى الاسلام ، بل أن بعض هؤلاء المشركين أنفسهم سيعتنقون الاسلام وسيبلون بلاء حسنا ، وعندنا أنه معنى مقبول وتتسع له آية ((**ليدخل الله فى رحمته من يشاء**)).

ــ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما .

ويزيد الله سبحانه وتعالى تأكيدا أن السبب السالف الذكر هو ما جعله يصرف

المؤمنين عن القتال فيقول تعالى ، أن هؤلاء المؤمنين لا تعلمونهم ، (لوتزيلوا ، أى لو امتـــازوا بمعنى تميـــزوا عن الـــكفار (**لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما**) أى لسلطناكم عليهم .

— اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحميةحمية الجاهلية فانزل الله ســكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوىوكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما .

الحمية : الانفة والغضب الشديد .

هذه الآية الكريمة تشير الى هذا الموقف العصيب الذى سردناه من قبل ، عندما اتفق على ابرام الصلح فى شرع فى كتابة الوثيقةفاعترض ممثل المشركين على كتابة **بسم الله الرحمن الرحيم** ، كما اعتــرض علىعبارة ((**محمد رسول الله**)) .

ولم يكن ذلك الا بقيـــة من عنـــــادوعنجهية المشركين كما هو شأنهم وكان هذا الموقف من جانبهم قمينا أن يغضب رسول الله وهو الاقوى ، ولكن لتتم مشيئة الله أنزل السكينة على رسول الله (أى الطمأنينة) وما ارتضاه المؤمنون من بعده ، ومن هنا فقد شملتهم السكينة التى شملت ســيدنامحمدا من قبلهم بفضـــل من الله فلم تدب الحمية الى قلوبهم .

— وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها .

(**وألزمهم**) أى الزم المؤمنين وحضهم بـــ (**كلمة التقوى**) قيل هى لا اله الا الله، وزاد بعضهم عليها (محمد رسول الله) وقال البعض (الله أكبر ولله الحمد) وقيل (بسم الله الرحمن الرحيم) وهو ما نميل اليه نحن على أساس ما ورد فى تفاصـــيل الحادثة من الاعتراض عليها والاصرار على رفعها من عقد الصلح وفى احساســـنا أن (لا اله الا الله محمد رسول الله) هى كل الاسلام وجوهر التوحيد ، وكلمة التقوى، أشبه بـــ (باسم الله الرحمن الرحيم) وعلى كل حال فكلها كلمات التقوى والجمع بينها كله جائز وكان الله بكل شىء عليما .

— لقد صدق الله رسوله الرؤيابالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعـــل من دون ذلك فتحـــا قريبـــا .

الرؤيـــا الصـــادقة :

يجب اعتبـــار هذه الآية من أعـــلام النبوة فهى الدليل الذى لا ينقصه دليل على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول الله حقا وصدقا وان هذا القـــرآن ليس من صنع البشر وانمـــا هو وحى من رب العالمين . فها هنا وعد قاطع وصريح فى أن المسلمين سوف يدخلون المسجد الحرام آمنين لا يخافون .

وقيل ذلك فى السنة السادسة من الهجرة وفى السنة التالية كان ذلك يتحقق بحرفيته، وفى العام الذى تلا ذلك كان فتح مكة يتحقق نهائيا ، ويدخل الرسول والمؤمنون مكة بعد أن أصبحت تحت رحمتهم ، ثم كانت حجة الوداع بعد ذلك ، حيث شرع النبى صلوات الله عليه بوحى من ربه المناسك الصحيحة لفريضة الحج وهو يقول ((**خذوا عنى مناسككم**)) .

كل ذلك اراه الله لنبيه فى منامه كما يقرر القرآن وكل ذلك أصبح حقا واقعا بعد سنوات مع أن الوقائع تتغير من لحظة لأخرى وتنتقل من النقيض الى النقيض ، وما يبدو محتملا يتحول الى مستحيل ، والمستحيل يتحول الى محتمل ، وهذا هو شأن الدنيا ووقائع الدهر وقد شهد جيلنا كيف أن رجلا مثل « هتلر » زعيم ألمانيا فى الثلاثينات كان يتكلم فترجف الدنيا كلها، وعندما قرر أن يحكم العالم انساحت جيوشه شرقا وغربا حتى أصبحت أوربا كلها ملك يمينه ، وفى عام واحد كان هتلر لا يسيطر الا على مخبأ تحت الأرض كان كافيا لان ينتحر فيه وتحرق جثته .

هذه وقائع عاصرناها وعشناها . ولولا ذلك لما تصورناه ، وليس ذلك الا نموذجا يتكرر عبر التاريخ فعندما نرى بين أيدينا قرآنا يتعبد به يقطع بأن سيدنا محمدا سيدخل المسجد الحرام ومن معه من المؤمنين آمنين لايخافون ويحدث هذا التأكيد والقطع فى وقت (عاد فيه المسلمون بالفعل دون أن يدخلوا مكة) .

اقول أن ذلك هو آية الآيات على أن سيدنا محمدا لم يكن ينطق عن الهوى وانما ينطق بالوحى الذى يهبط عليه من رب العالمين ماكان أغناه لو أنه هو الذى يتكلم، ماكان أغناه عن أن يجزم ويؤكد ويقطع بأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين ان أبسط احتمال هو أن يتوفى رسول الله ، وهوقد توفى بالفعل ولكن بعد أن حقق الله رؤياه فدخل والمؤمنون المسجد الحرام آمنين لا يخافون .

والرؤيا التى تشير لها الآية هى رؤيا رآها رسول الله فى منامه ، وقد دعا المسلمين على أثر هذه الرؤيا ان يتجهزوا للسفر الى مكة على ما بينا من قبل وهى الحوادث التى انتهت بصلح الحديبية ،وتقول بعض الروايات أن سيدنا أبا بكر الصديق رضى الله عنه عندما شهد البعض يلغط وهم منصرفون من الحديبية ، ويتساءلون « وأين اذن رؤيا رسول الله »فكان سيدنا أبو بكر هو الذى لا حظ أن الرؤيا لم تكن محددة ويقررها ، فأصبحت كما نص القرآن حقا بالفعل كيفما كان الأمر فها هو القرآن جاء يؤكدها بزمن .

ويهمنا أن نلفت النظر بصدد هذه الآية الى ثلاث مسائل :

١ — آمنين لا تخافون .

٢ — محلقين رؤوسكم ومقصرين .

٣ — ان شاء الله .

الأمن وعدم الخوف :

فأما المسألة الأولى فهى اشارة الآية الى حالة الأمن التى ستكون سمة الداخلين، وعندنا أن عظمة النبوءة وروعتهـا هى فى هذا الوصف بالذات ، فقد كان من الممكن ان تتجهز قـريش طوال العـام كى توقع بسيدنا محمد ومن معه عندما يجيئون وكان من الممكن ان ينتصر المسـلمون بالذات ،ولكنهم ما كانوا يدخلون آمنين ، ولكن الذى حدث هو أنه لم يكن حرب أو قتال أو حتى مجرد مناوشـة فدخل المؤمنون المسـجد الحرام آمنين لا يخافون ، وتحدثنـا كتب السيرة أن قريشا أو بالاحرى زعماء الكفر فيها هم الذين خافوا وروعوا .

محلقين رؤوسكم ومقصرين :

الحلق والتقصـير بمعنى حلق شـعر الرأس كله ، أو الاكتفاء بتقصير الشـعر هو أحد مناسك الحج والعمرة (وللمؤلف كتاب فى هذه المناسـك ، فليرجع من يريد الاحاطة) ولكننا فى مقامنا هذا نكتفى بالقول أن الحلق أو التقصير لا يكونان الا بعد تمام النسك حجا كان او عمرة فذكرهما هنـا مقترنين بالدخول هو رمز وتأكيد لحالة الامن التى سيكون عليها المسلمون بحيث سيتحللون من النسك وبالحلق أو التقصير وهم فى اشد حالات الطمأنينة (لا تخافون) .

ان شـاء الله :

وهذه هى المسألة الثالثة التى تثيرها هذه الآية وقد وقف أمامها المفسرون فقالوا: خاطب الله العباد بما يجب أن يقولـوه .وقالوا ان شاء الله أى كما شاء أما نحن فنرى أن الاستثناء بالنسبة للانسان شىء ،وهو بالنسـبة لله عز وجل شىء آخـر . فبالنسبة للانسان يجب أن يعلـق كل شىء على مشيئة الله فهو الفاعل وهو المقـدر لكل شىء (ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله) فعمل الانسـان مرهون بارادة الله ، أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فالامر كله معلق بمشيئته وهو وحده الذى يشاء انى يشاء وكيف يشاء ولا يقيد مشيئته الا مشيئته فهو ان شـاء أدخل المسلمين مكة وان شاء لم يدخلهم و (لايسأل عما يفعل وهم يسألون) ومن هنا لا نرى ضرورة لتأويل الكلام أو صرفه عن معناه الظاهرى من أنه سبحانه وتعالى يعد المسلمين بأن يدخلهم مكة آمنين ، وقد شاء فتحققت النبوءة .

— فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا .

وقد قدمنا أن ذلك الفتح هو صـلح الحديبية بالذات ويرى البعض أن الاشارة لفتح خيبر على ما أسلفنا .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شـــهيدا .

(هو الذى أرسل رسوله) أى سيدنامحمدا عليه الصلاة والسلام **(بالهـــدى ودين الحق)** أى بكل ما جاء به سيدنا محمدمن تعليم وارشاد لخير البشر ابتـــداء من التوحيد حتى مكارم الأخلاق .

ليظهره على الدين كله :

أى ليعليــــه على كل الاديـــان وهوما حدث بالفعل ، بغض النظر عن قـــوة المسلمين العسكرية أو ضعفهم ، تقـــدمهمأو تخلفهم فالشريعة الاسلامية والتعـــاليم الاسلامية تعلو وتعلو وهى دائما فى علو عند كل باحث وكل دارس وكل مفكر .

وما من ظاهرة عالمية تأخذ بلبك الا وهى من تعاليم الاسلام وما من قوم حققوا قدرا من النجاح فى أى زمان أو مكان الانتيجة اتصافهم ببعض التعاليم والفضـــائل الاسلامية .

(وكفى بالله شهيدا) أى انه حسبسيدنا محمد أن يكون الله شاهدا بنبوته ، ويرى البعض أن فى ذلك اشـــارة لرفضمندوب قـــريش أن يكتب فى عقد الصـــلح (محمد رسول الله) وأصر على أن يقالمحمد بن عبد الله ، وقد رأينا كيف شق ذلك على المســـــلمين ، حتـــى أن بعضالرواياتتقول انسيدنا عليا كرم الله وجهه توقف عن محوها عندما طلب منه ذلك ،فمحاها سيدنا محمد بنفسه ، وها هو الله سبحانه وتعـــالى يبين لنـــا لمـــاذا ارتضىسيدنا محمد برفع هذه العبارة من الصلح فما دام صلوات الله عليه قد ارتضىبالصلحفماذا عليه أن يـــرفض بعض الـــكفار أن يشهدوا له بالرسالة **(وكفى بالله شهيدا)**وباستطاعتك أن تبقى الآية على عمومـــها بعيدة عن هذه الواقعة المعينـــة كما هوالشأن فى كل آيـــات القـــرآن وان نزلت بمناسبات خاصة الا أن معناها عام مطلقويكون المعنى كفى بالله شهيدا على نبوة سيدنا محمد ورسالته .

ـــ محمد(١) رسول الله والذين معهأشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضـــلا من الله ورضـــواناسيماهم فى وجوههم من أثر الســـجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرعأخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعدالله الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما .

---

(١) سنتكلم عن أسم محمد صلى الله عليه وسلم فى سورة الحجرات .

مفـــردات :

سيماهم : علامتهم .

شطأه : أى أفراخه وأولاده والمقصودهنا فروعه .

سوقه : جمع ساق .

ذروة الموسيقى الالهية :

قدمت فى مطلع السـورة أننى كلماطالعت سورة الفتح أحسست كما لو كانت السموات والأرض تهزج نشيد النصر واذاجاز لى أن أتـابع هذا الاحســـاس فى نفسى ، فانه يصل الى ذروته فى ختـام السـورة فى هذه الآية حيث يصـف الله سبحانه وتعالى سيدنامحمدا وصحبه أجمل وصف وأكمله وأدقه .

فيتقرر أولا صـفتهم العليا من أنهم أشداء على الكفار فى الوقت الذى يتراحمون فيه فيما بينهم ، وذلك انصياعا لمـا دعاهم اليه فى سورة الحجرات على ما بينا من أنهم اخوة أى أسرة واحـدة فهم يتـراحمون ويترابطون ترابط الأخـوة وتراحمهم وذلك كله فى الوقت الذى يتشددون فيه ويقاطعون الكفار حتى ولو كانوا ذوى قرباهم .

ثم تصور لنا الآية الكريمة سيدنا محمدا وصـحبه حيث شبهوا أن يكونوا نباتـا (زرعا) وسيدنا محمد هو ذلك النبات الكريم (فأخرج شطأه) أى تفـرع وأورق وأزهر وأخرج ثماره الكريمة .

(فآزره فاستغلظ) أى أن الزرع عندمانما وتفرع قواه ذلك وأعانه وشده ، فغلظ ساق النبات واستقام (**استوى**) على عوده بحيث أصبح منظره يسر الزراع فهم هكذا يريدوه ، وأحسن مما يريدوه .

وذلك فى الوقت الذى يغيظ فيه منظر المؤمنين الكفار وقبل هذه الصورة الرمزية كان القرآن الكريم يصور المؤمنين بصورتهم الواقعية **(تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود)** .

وركعا سجدا هو اشارة لصلاة المؤمنين ومداومتهم على الصلاة ، **(يبتغون فضـلا من الله ورضوانا)** أى يطلبون الجنة ورضا الله تعالى ، وقد افترق المفسرون حول كلمة **(سيماهم)** فذهب البعض الى أنها مادية ومن هذا القبيل (ما يرى فى الوجه من دكنة فى جلد الجبهة كأثر من آثار السـجود) بينما ذهب بعض آخر الى أنها نورانية فى الوجه وفى سنن ابن ماجه بسنده عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهـه بالنهار) .

وقال بعض أن هذه العـــلامة تكون للمؤمنين يوم القيامة وكل هذه معان يكمل بعضها بعضا فلا تعارض بينها **(ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم فى الانجيل)** .

وتساءل بعض المفسرين نظرا لتكرار كلمة مثل أهو مثل فى التوراة ومثل آخر فى الانجيل ؟

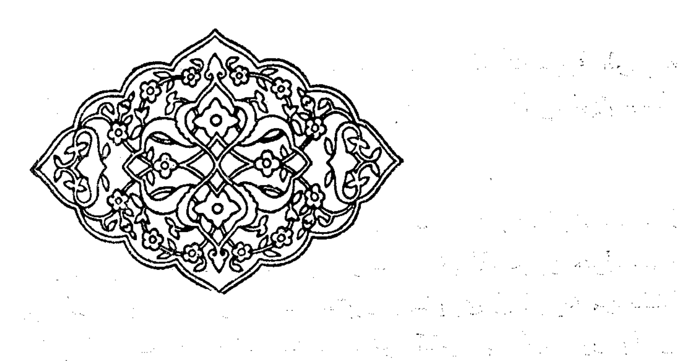
بينما ذهب بعض آخر الى أنـــه مثل واحد أى صورة واحدة فى القرآن مثل مافى التوراة مثل ما فى الانجيـــل عندمـــا يلتف المؤمنون حول نبيهم ويكثرون من العبـــادة والتقرب من الله فيصبح شأنهم كشأن الزرع عندما يجود وينجح على الصـــــورة التى قدمناها ، ونحن نفهم من الآية هـــذا الفهم فالمؤمنون صادقوا الايمان لهم صورة واحدة وهم يحيطون بنبيهم يسمعون له ويطيعون ارضاء لربهم .

(وعد الله الذين آمنـــــوا وعملـــوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) .

ذلك وعد الله الدائم للمـــؤمنين ممن يعملون صالح الأعمال أن يكفر عنهم سيئاتهم ، ثم يدخلهم الجنة .

ودار جدل كثير بين اللغويين حـــول موقع (منهم) فحرف من يفيـــد التبعيض ، فهل معنى ذلك أن بعض الصحابة لا ينطبق عليهم هذا الوعد بالمغفرة والأجر ومن هنا نفى البعض أن تكون (من) للتبعيض ولكنها للجنس وذلك مثل قوله تعالى ((**فاجتنبوا الرجس من الأوثان**)) أى جنس الأوثان .

ونحن ممن يـــرون أن مغفـــــرة الله ورضوانه هى لمن يشاء أنى يشاء كيف يشاء والله تعالى أعلم .

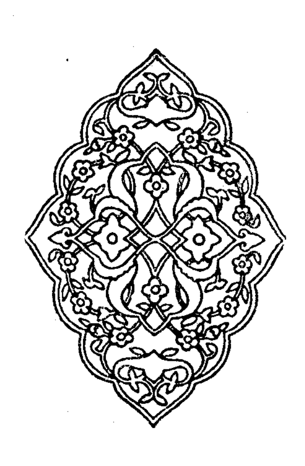


(٤٩) سُورَةُ الحُجُرَاتِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ
لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم
مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ
تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن
تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ (٦) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ
ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٨) وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن
فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ
أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (١٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا
مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ
ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا
مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا
فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا
وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (١٣) * قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ
وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ
هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾



ســـورة مدنيـــة :

سورة مدنية تتجلى فيها كل خصائص السور المدنية ففيها اشارة الى بعض حوادث السيرة وفيها التشريع والذى يصل الى تنظيم كيفية فض المنازعات بين مختلف الجماعات بالطريقة المثالية والتى تبدأ بالتحكيم ومحاولة حل النزاع بالطرق السلمية ((**فان بغت احداهما على الأخرى**)) فيتعين على المجتمـــع الانسانى أن يتصدى للبغى والعدوان .

على أن يكون الحل دائما وفقا لمقتضيات العدل مما سنشرحه بتفصيل أوفى عند استعراض الآيات وفى السورة الايةالتى تبرز عالمية الاســلام وانه دين الانسانية الى أبد الأبدين مما لا يطاوله فى ذلك دين آخـــر وهى الآية الكريمـــة ((**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعـــارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم**)) .

والسورة مليئة بما ينبغى أن يكون عليه سلوك المؤمن المثالى ليحقق لنفسه السعادة فى الدنيا والآخرة معا وهو ما تعمل الدعايات المـــادية الآن على تقويضه، بايهام الناس أن السعادة كل السعادة هى فى الحصول على (الثلاجة) والسيارة مما حول حياة الناس الى جحيم للجـــرى واللهث خلف هـــذه الترهات التى لا تزيد الانسان الا تسعرا كلما حصل على بعضها ولا يفتأ يقول هل من مزيد .

وهنا يظهر تفوق التربية الروحية التى يوفرها الدين على التعاليم المـــادية التى نكب بها العصر باسم التقدم والتحضر ، لقد حملت الينا البرقيات مؤخرا حقائق من أرقى مجتمع فى أوربا الغربية وهو المجتمع السويدى حيث لا فقر ولا بطـــالة وانما أمان مطلق لكل فرد من المهد الى اللحد .

هذا المجتمع المثالى من وجهة نظر المـــاديين ، ينتحر فيه سنويا ١٢ من كل مائة ألف ، أى ضعف من ينتحر فى أرقى مجتمع مادى يليه وربما كان المجتمـــع الأمريكى ، بينما تقرر الاحصاءات الأخرى أن أكثر من ٢٥ فى المائة من الســـكان مرضى بالأمراض العصبية والنفسية ، ولعل ذلك يكشف عن زيف وبطلان القـــول ان السعادة كل السعادة هى فى توفر الحاجات المـــادية لكل فرد وانما الســـعادة لا تنبع الا من التربية النفسية ، وفى هذه السورة التى نحن بصددها نموذج رائع لهذه التربية الروحية والخلقية والنفسية التى أخذ بها القرآن الكريم المؤمنين الى يوم القيامة فيعلمهم الأدب واحترام الآخرين ، وعدم تتبع عوراتهم أو اغتيابهم فى غيبتهم » وغير ذلك مما سيقابلنا عند استعراض الايات ولو كان بيدنا من الأمر شىء لكانت هذه السورة مما نحتم على كل طالب حفظها وتفهمها وأن يتخذها بعد ذلك ، نبراسا له لسلوكه فى الحياة .

وبعد هذا التمهيد الذى كان لابد منه للكشف عما تتضمنه هذه الســـورة من جواهر نشرع فى تفسيرها فنقول وبالله ومنه التوفيق :

— يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم .

مناسبة التنزيل :

اعتاد المفسرون أن يطلقوا على الحوادث والوقائع التى نزلت بعض الآيات بمناسبتها ((**أسباب التنزيل**)) أما نحن فنؤثر أن نطلق عليها ((**مناسبات التنزيل**)) فالقرآن قديم وقد سبق فى علم الله المناسبات التى سينزل على أثرها ، وليس بسببها .

وكثيرا ما أشرنا الى أن العبرة بعموم النص وليس بخصوصية المناسبة **(ولا نقول السبب جريا على رأينا)** .

ولقد ورد فى صحيح البخارى حديث يشير الى المناسبة التى نزلت على أثرها الآيات الأولى من سورة الحجرات :

يقول البخارى بسنده عن أبى مليكة قوله : كاد الخيران أن يهلكا (أبا بكر وعمر) رضى الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبى ، صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه وقد ركب بنى تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع ابن حابس أخى بنى مجاشع وأشار الآخر برجل آخر ، فقال أبو بكر لعمر ما أردت الا خلافى فقال ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما فى ذلك . فأنزل الله ((**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم .. الآية**)) .

قال ابن الزبير فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك حتى يستفهمه .

معجزة الاسلام :

هذه هى الرواية التى أوردها البخارى فى ذكر المناسبة التى نزلت هذه السورة بصددها وعلى الرغم من ورودها فى صحيح البخارى فقد أحسسنا بالقصة تتلجلج فى صدور بعض المفسرين ويترددون فى ذكرها أحيانا وذلك تصورا منهم ان فيها بعض المساس بالشيخين الجليلين أبى بكر وعمر ، مع اننا لا نرى فيها حرفا واحدا لا يتفق مع المعروف والمشهور فقد كان الشيخان على عهد رسول الله يتفانيان فى خدمة رسول الله كل بحسب مزاجه وتفكيره ، وطالما سجل تاريخ السيرة اختلافهما فى الرأى فى كثير من القضايا التى استشارهما فيها رسول الله .

ثم تأتى المعجزة الاسلامية وما أحدثته فى النفوس ، فقد كان سيدنا عمر بالذات هو الذى حسم قضية الخلافة بعد رسول الله بأن رشح لها أبا بكر وبايعه بالفعل ، وقد كان أبو بكر بدوره قد ابتدأ بترشيح عمر ، وهذا هو الاسلام وهذا هو أثره العظيم فى نفوس معتنقيه ، فحيث يعتز كل انسان برأيه ويرى بالغريزة البحتة نفسه أولى بالخير من أى انسان آخر نرى هذه الظاهرة الثابتة تختفى عندما جد الجد وأصبح الاسلام فى خطر فاذا بكل من الرجلين يصبحان رجلا واحدا .

فحديث الرواية عن اختلاف الرجلين حول من يكون أولى بالامارة مسألة عادية جدا ، بقى أن يقال أنهما رفعا أصواتهما فى حضرة النبى وتلاحيا فهذا ما نزل القرآن ليعاتبهما فيه ويلقى الدرس على المؤمنين الى أبد الأبدين ، أن يغضوا أصواتهم فى حضرة النبى ، وأن لا يقدموا بين يديه ، أى لا يسبقوه بقول أو فعل ، الى أن يقول كلمته ويقضى قضاءه ، ذلك فى حياته ، أما بعد موته فعن طريق الأخذ بالكتاب والسنة . ونعود الى الحديث الذى نحن بصدده اذ نلاحظ مدى تأثير نزول هذه الآيات على سيدنا عمر وقد كان جهورى الصوت ، اذ راح لا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم الا همسا وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستوضحه وقد كان بحسبنا أن نقرر أنه متى جاء الحديث فى البخارى فهو عنوان الصحة ولكنا أردنا زيادة الايضاح .

بقى أن نذكر بأن القرآن الكريم كان ينزل أحيانا وفيه عتاب لرسول الله نفسه ، وملاحظات على بعض مواقفه فمن باب أولى لا يجب أن يستغرب مستغرب فضلا عن أن يستبعد ملاحظة على موقف لأبى بكر وعمر ، وهما فى نهاية الأمر من البشر ، بكل صفات البشر .

أقوال أخرى :

وقيلت أقوال أخرى فى المناسبة التى نزلت السورة أو بالأحرى الآيات الأولى منها ، فقال قتادة : **ان ناسا كانوا يقولون لو أنزل فى كذا ، لو أنزل فى كذا فنزلت هذه الآية .**

ابن عباس : نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه .

مجاهد : لا تفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله

قال الحسن : نزلت فى قوم ذبحوا قبل أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يعيدوا الذبح .

وروى مسروق عن عائشة انه فى النهى عن صوم يوم الشك ، أى لا تصوموا قبل صوم نبيكم وعندنا ان ذلك كله وأمثاله داخل فى مدلول الآية وهو ما تلزم به كل المؤمنين فى كل زمان ومكان الى أبد الأبدين .

أما عن المناسبة فنحن نرتاح الى ما جاء فى صحيح البخارى .

ـ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سـميع عليم .

(يا أيها الذين آمنوا) الخطاب موجه للمؤمنين ، وهذا أحد الفـوارق فى الأغلب والأعم بين ما هو مدنى وما هو مكى .

فالحديث فى مكة كان موجها الى الناس كل الناس اذ كان دعوة الى التوحيد بكل أركانه وشرائطه ومقتضياته أما فى المدينة فقد كان المجتمع الاسـلامى قد قام بالفعل ، وأصبح القرآن ينزل بما يربى المؤمنين ويزيد فى تعليمهم ما ينبغى للمؤمن المسلم من كمال يتفق مع ايمانه ومن ذلك على سبيل المثال . **((لا تقدموا بين يدى الله ورسوله)) .**

جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم للمجمع اللغوى **((أى لا تتقدموا فتسبقوهما بقول أو حكم)) .**

وهو عين ما قيل من قبل أى فلتكن كل أعمالكم وأقوالكم موافقة لكتاب الله وسنة رسوله ولا يمكن الآن أن يكون المعنى الا من هـذا القبيـل فرسـول الله صلى الله عليه وسلم قد فارق الدنيا منذ أربعة عشر قرنا (تقريبا) .

(واتقوا الله) يعنى فى التقدم المنهى عنه .

(ان الله سميع) لقولكم **(عليم)** لفعلكم .

ـ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهـروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون .

تحبط أعمالكم : أى حتى لا تبطل أعمالكم من حيث لا تدرون .

موقف ثابت بن قيس :

وفى الصحيحين (البخارى ومسلم) واقعة تروى عن ثابت بن قيس أحـد الصحابة وكان جهورى الصوت بطبيعته ، بل وكان البعض يعتبره خطيب رسول الله كما كان حسان بن ثابت شاعره ، فلما نزلت هذه الآية خشى على نفسـه أن يكون هو من المقصودين بالآية الكريمة .

ولننقل الآن نص الحديث كما ورد فى الصحيحين بلفظ البخارى :

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : افتقد ثابت بن قيس: فقال رجل : يا رسول الله انا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكسا رأسه ، فقال له ما شأنك ؟ فقال شر ! (كان يرفع صوته فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم) فقد حبط عمله وهو من أهل النار) ، فأتى الرجل النبى صـلى

الله عليه وسلم فأخبره انه قال كذا وكذا ، فرجع اليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة فقال اذهب اليه فقل له انك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة ، انتهى حديث البخارى .

وقد أبلى ثابت بن قيس بلاء شديدا فى حرب الردة ومات رضوان الله عليه شهيدا فى معركة اليمامة .

— ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض :

كان المنافقون يرفعون أصواتهم فوق صوت النبى ليقتدى بهم ضعفة المسلمين، وكان بعضهم يناديه يا محمد ، بدلا من يا رسول الله ويا نبى الله ، فنزل القرآن الكريم يعلم المسلمين الأدب الواجب فى حضرة رسول الله ، وهو ما فرع عليه الأصوليون توقير المعلم والعلماء بعامة .

وما هو الحال الآن :

نحن نقول ونكرر أن القرآن الكريم خطاب آمر بأوامره ، وناه بنواهيه الى يوم القيامة ، ورب قائل يقول وأين رسول الله الآن ، حتى نرفع أو نغض من أصواتنا ، والرد على مثل هذا السؤال يجعلنا ندعو لكل قارىء أن يزور مسجد الرسول صلوات الله عليه فى المدينة ، ويقف أمام قبره الشريف مسلما ، ففى هذا المكان يجب أن تستحضر هذه الآيات الكريمة ، فيغض من صوته ولا يصيح كما يفعل بعض جهلة المسلمين **فالقول على أن حرمة النبى صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا ومن هنا وجب على كل مسلم يمثل فى حضرته أن يقترب من القبر الشريف فى وقار وسكينة : وأن يسلم على رسول الله فى صوت خفيض ، خوفا من ((أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)) أى تبطل أعمالكم فى قول نجاة البصرة ولئلا تحبط أعمالكم فى قول الكوفيين .**

— ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم .

يغضون : اى يخفضون .

امتحن قلوبهم : اى وسعها وشرحها .

تقول : امتحنت الفضة ، اى اختبرتها حتى خلصت . .

قال البعض ففى الكلام حذف يدل عليه سياق الكلام وهو الاخلاص وتكشف لنا هذه الآية الكريمة عن رد فعل آيات القرآن عندما كانت تنزل على جماعة المؤمنين حول رسول الله ولقد رأينا فيما تقدم كيف انخلع قلب ثابت بين قيس تصورا منه انه يدخل تحت نطاقها ، الى أن سرى عنه رسول الله ، كما رأينا فى

حديث البخاري الأول كيف أن سيدنا عمر رضى الله عنه عقب **نزول هذه الآية** راح لا يكلم رسول الله الا همسا ، ويقول لنا أبو هريرة : لما نزلت ((**لا ترفعوا أصواتكم**)) قال أبو بكر رضى الله عنه : والله لا أرفع صوتى الا كأخى السرار .

وهكذا كان رد الفعل واضحا عند المؤمنين الصادقين ، الذين يلتمسون رضوان الله ويخشون من **عدم رضائه ، بينما لم يتأثر بطبيعة الحال ، المنافقون** والذين فى قلوبهم مرض ، فمضوا فيما كانوا فيه يرفعون أصواتهم كما اعتادوا أن يفعلوا قبل نزول هذه الآيات فنزل القرآن يميز الخبيث من الطيب ، ويصف الذين استجابوا للتوجيه الالهى ، فخفضوا من أصواتهم عند رسول الله ، ولم يعودوا يخاطبونه ((**كخطاب بعضهم لبعض**)) ان الذين فعلوا ذلك هم المؤمنون حقا ، وهؤلاء هم الذين نجحوا وفازوا فى امتحان التقوى ، ولذلك فقد استحقوا المكافأة والثواب (**لهم مغفرة**) عما سلف من أعمال أو أقوال (**وأجر عظيم**) فى الجنة ان شاء الله .

ــ ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون .

الحجرات : جمع حجرة : والحجرة هى الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها واصل الكلمة المنع ، وكل ما منعت أن يوصل اليه فقد حجرت عليه ومن هنا جاء التعبير بالحجر على السفيه أى بمنعه عن التصرف فى أمواله والمقصود هنا بالحجرات فى الآية هو بيوت النبى وكانت تتألف من بعض حجرات يتاخم بعضها بعضا وأبوابها تفتح على المسجد ، وكما تدل الآية فهى حديث عن أقوام راحوا ينادون رسول الله ، ولندع مجاهدا يروى لنا ما حدث :

قال مجاهد وغيره : نزلت فى اعراب بنى تميم ، تدم الوفد منهم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادوا النبى من وراء حجرته ان أخرج الينا فان **مدحنا زين وذمنا شين** وكانوا سبعين رجلا قدموا لفداء ذرارى لهم وكان النبى صلى الله عليه وسلم نام للقيلة . وروى ان الذى نادى هو الأقرع بن حابس ؛ وانه هو القائل : ان مدحى زين وذمى شين . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ذاك الله » ذكره الترمذى . انتهى .

ونحن نرى الفارق هنا بين وصف القرآن لمن اخطأوا بحسن نية فرفعوا أصواتهم فى حضرة النبى ، حيث ناداهم الله ((**يا أيها الذين آمنوا**)) .

وعندما صدعوا بما أمروا وعدهم الله بالمغفرة والأجر العظيم اما هنا وفى هذا الموضع فالقرآن الكريم يقرر أن ((**أكثرهم لا يعقلون**)) .

على انه اذا كان الأكثرون لا يعقلون فان الأقلية لم تحرم من رحمة الله ولذلك فقد ختمت الآية بما يبقى الباب مفتوحا أمام من يرغب فى التوبة ((**والله غفور رحيم**)) .

— ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم .

فما ضر هؤلاء الاعراب (الاجلاف) لو انهم صبروا قليلا حتى يخرج اليهم رسول الله ، فهو ما كان ليحتجب عن أحد أبدا ، وهو فى كل الأحوال متـــواجد فى المسجد للصلاة ، وجالس بعدها للنظر فى حوائج الناس ويعلمهم ويزكيهم ، بحيث انه لا يكاد يدخل الى بيته الا لتناول الطعام أو النوم ، ولابد أن يكون من فى مسجد الرسول قد أفهموا وفد بنى تميم ذلك ، ولكنهم أبوا الا أن يخرج اليهم ســيدنا محمد فور وصولهم وتقول بعض الروايات انه عندما سألهم سيدنا محمد عليه الصــلاة والسلام عن حاجتهم قالوا انهم جاءوا يتشفعون فى بعض الأسرى وعرضوا اطلاق نصف الأسرى ودفع الفدية عن النصــف الآخر .

يقول بعض المفسرين الذين يستندون الى هذه الرواية ، انهم لو صبروا حتى يخرج لهم رسول الله ، لأطلق سراح الكل بدون فدية .

ولكنا نؤثر أن لا نخوض فى هذه الفروض ، وتصرفات سيدنا محمد تعلو على مزاجه الشخصى وحالته النفسية ، ولذلك نقف عند حد ألفاظ القرآن « **لكان خيرا لهم** » والأمر المحقق انه فى اطاعة الرسول وعدم ازعاجه فيه ســـــعادة الدنيـــــا والآخـــرة .

— يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين .

وتوالت الآيات بعــد أن علمت المؤمنين الأدب الواجب لرســـــول الله فى أعناقهم ، تعلم الســـلوك الحق والأمثـــل الذى يليق بالمؤمنين ، وفى المقدمة عــدم تصديق ما لا يرويه الثقة الأمين الا بعد التثبت والتحقق من روايته وخاصـــة اذا كانت تتصل بأناس آخرين ، واذا كان التثبت واجبا على الفرد العادى مرة فانه على من بيده السلطة أوجب ، فقد يترتب على تصديق نبأ كاذب « **ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** » ولنذكر أولا الواقعة التى أثبتتها كتب التفســـير باعتبارها المناسبة التى نزلت على أثرها الآية :

قيل أن هذه **الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط (وسبب)** ذلك ما رواه سعيد عن قتادة : ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبـــة مصدقا الى بنى المصطلق ، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم فى روايـــة لاحنـــة كانت بينـــه وبينهم فرجع الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره انهم قد ارتدوا عن الاســـلام فبعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجـــل ، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا ، فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالاسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه فعاد الى نبى الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فنزلت هذه الآية فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « **التأنى من الله والعجلة من الشيطان** » .

هذه هى الرواية التى أوردتها كتب التفاسير كلها تقريبا ، بصيغ مختلفة ، وقد ذكر الطبرى هذه الصيغ المختلفة ، وحاول ابن كثير جريا على أسلوبه باعتباره محدثا أن يستقصى كل ما روى فى هذه الحادثة فليرجع اليه كل من أراد البحث ، وعلى أية الحال فجوهر الواقعة لا يخرج عما ذكرنا والذى يهمنا أن نلاحظه ان ها هو رجل ائتمنه رسول الله حتى لقد أوفده فى مهمة ، ومع ذلك فلم يتورع الرجل عن أن يكذب على رسول الله الذى ينزل عليه الوحى فكم بالأحرى يكذب أى انسان مهما كانت صفته على من هم دون رسول الله .

ومن هنا نعود فنناشد كل من كان بيده سلطة ان يصدع بالأمر الالهى فيتثبت ويتحقق قبل أن يصدق ما ينقل اليه .

شهود الزور :

وليس هناك ما يكشف عن مدى التدهور الذى كان قد وصل اليه المسلمون ، انه منذ عشرات السنين كانت تقف على أبواب محاكمنا شهود يستأجرهم كل من يشاء ليشهدوا على أى شىء بمقولة أن حال المؤمنين يؤخذ على الصلاح وهذا حق ، ولكن من قال ان شاهد الزور مؤمن ، ولم تكن هناك أى شبهة فى احتراف هؤلاء القوم شهادة الزور فقد كان القاضى يراهم أمامه فى كل قضية ومع صراحة القرآن فى الأمر بالتثبت والتبين ، فقد كان العمل يجرى على الصورة التى قدمنا وحمدا لله ان هذه الصورة الكريهة قد اختفت ، ولكن ذلك لا يعنى بحال أن الصدق اصبح سائدا ، ومن هنا فنلفت النظر الى أمر الله سبحانه وتعالى التحذير من التصديق الأعمى ، ولا يقولن قائل ان التحذير هنا من الفاسق فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عندما أرسله لم يكن يعلم أنه فاسق والا لما أرسله ، ولم ينكشف كذبه الا فيما بعد فحق أن ينعته الله بالفسق ، والفاسق ليس مكتوبا على جبهته انه فاسق ومن هنا فقد لزم دائما الاحتياط والتوقى (**والتأكد والتثبت**) .

المخابرات والمباحث :

واذا كانت ظروف الاجتماع والتطور قد استلزمت انشاء جهازين أحدهما فى الجيش (المخابرات) للمساهمة فى الأمن الخارجى وجهاز فى البوليس (المباحث) فالعاملون فى هذين الجهازين يقومون بعمل جليل اذ الأولون (**مخابرات الجيش**) يسهرون على أمن البلاد وسلامتها وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبث العيون والارصاد لتتبع حركات العدوومعرفة كل شىء عنه ، ورجال بوليس المباحث يحافظون على أمن الجماعةوسلامتها من الداخل ويمنعون الجرائم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا وهو جهدمشكور ومأجور من الناس والله معنا ولكن يبقى عليهم أن يجعلوا هذا التوجيهالالهى شعارا لهم ، ذلك لمن كان منهم يؤمن بالله واليوم الآخر .

— واعلموا ان فيكم رســـول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون • فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم •

العنت : الاثم وهو ايضا الوقوع فى أمر شاق .

الفسوق : كل ما خرج عن الطاعة مشتق من فسقت الرطبة خرجت من قشرها والفأرة من جحرها . وهى من الكلمات التى حدد لها الشرع معناها الخاص .

افترق المفسرون حول ما فهموه من هذه الآية ويرى الجمهور ومنهم القرطبى ولننقل لك عبارته : ((**واعلموا أن فيكم رسول الله)) فلا** تكذبوا ، فان الله يعلمه أبناءكم فتفتضحون (**لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم**) أى لو تسارع الى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة واثم . انتهى كلام القرطبى .

وقد زاد النسفى فى تفسيره الأمر ايضاحا ، فعنده انه يفهم من الآية ان بعض المؤمنين قد استمعوا لمقولة الوليدبن عقبة بشأن بنى المصطلق وانهم ارتدوا عن الاسلام ، فأشاروا على رسول الله أن يدهم بنى المصطلق على الفور ولكن رسول الله صـــلى الله عليه وســـلم لم يتعجل ، بل أكثر التثبيت والتأكد ، فأرسل من أنبأه بالخبر اليقين كما رأينا ، أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ساير القوم ووافقهم على رأيهم لأصاب المسلمين عنت شديد ، أى اثم . ويرى بعض المفسرين (وهو محق كل الحق) ان كلمة الطاعة منسوبة الى الرسول قد استخدمت على سبيل المجاز وهى تعنى الموافقة . وعلى ضـــوء ما طالعناه فى كتب التفسير انشرح صدرنا لأن يكون مفهوم الآية على الوجه التالى :

يذكر الله المؤمنين بما أصبحوا فيه من نعمة بفضل وجود رســـول الله بين ظهرانيهم ، فلو حدث مثل هذا الحادث فى الجاهلية لوقع منه أذى وشر مستطير ، ولكن وجود رسول الله قد حال دون وقوع ذلك .

— ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم :

واستمرارا للمعنى الذى فهمناه ، فهذه الآية تشير الى استمساك المؤمنين بايمانهم ذلك ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يثبت الايمان فى قلوب المؤمنين ويعمقه ، بل ويحببه ويزينه ، فى الوقت الذى ينفرهم فيه ويبغضهم فى كل ما يكره ((**الكفر والفسوق والعصيان**)) .

أولئك هم الراشدون : والرشد مشتق من الرشادة وهى الصخرة وأصـــبح الرشد اصـــطلاحا بمعنى الاستقامة على الحق مع التصلب فيه . وهذه هى ســـمة المؤمنين بعد أن حل فيهم رسول الله ((**فضلا من الله ونعمة**)) ((**والله عليم حكيم**)) أى ((**عليم**)) بما يصلحكم ((**حكيم**)) فى تدبيركم .

ــ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهمــا على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

مفــردات :

الطائفة : من الشىء ، القطعة منه .

البغى : التطاول والفساد والتعدى .

تفىء : ترجع ، وفاءت ، رجعت .

أقسطوا : أى اعدلوا ، والمقسطين العادلين المحقين .

الخاص مناســبة العــام :

تكشف لنا هذهالآية ، كيف أنالحادثةالخاصةعلى زمنالرسول تكون هىالمناسبة لنزول تشريع عــام شامل كامل يمثل أعلى ما يمكن أن تصــبو اليه البشرية ، ولذلك فانى أريد أولا أن أفسر مدلول هذه الآية على ضوء مفاهيم عصرناومتطلباته ، ونكشف عن مدى تلهف البشر لتشريع مماثل ليســود السلام القائم على العدل ، وذلك قبل أن أشــير الى ما قيل عن مناسبة تنزيل هذه الآية ، ليلمس كل قارىء بنفســه كيف أن هذا القرآن لا يمكن ويستحيل أن يكون من صــنع البشر ، اذ يرتب على الحادث الصغير المحدود تشريعا عالميا أبديا .

فض المنازعات بالوساطة والتحكيم :

تشير الآية أول ما تشير الى الواجب الملقى على عاتق الجماعة فى حالة قيام نزاع بين طائفتين ، أى بين أى جماعتين مؤمنتين اذ يتعين على المسلمين أن لا يقفوا موقف المتفرج أو (اللامبالاة) بل ان الواجب يحتم ضرورة التدخل لاصلاح ذات البين وفض المنازعة المسلحة بالطرق الودية كما يقولون ، ولم يجعل القرآن فى هذه المرحلة أى شرط لفض النزاع ، فكل حل يؤدى الى المصالحة بين الطرفين فهو مقبول لأن الهدف هو السلام وما يقبله الطرفان بطيب خاطر ، وسنرى فى مرحلة تالية أن القرآن الكريم يشترط العدل لأنه سيكون هو السبيل الوحيد الذى يؤدى الى السلام أما فى هذه المرحلة الأولى ، فكل اتفاق يرضى عنه الطرفان فهو مقبول لأنه يؤدى الى الســلام والقانون الدولى الحديث يسمى هذه المرحلة مرحلة المساعى الودية والوساطة ، فالتحــكيم .

المرحلة الثانية : التكاتف لرد العـــدوان :

وقد تنجح المســـاعى الحميدة وتنجح الوســـاطة وأخيرا التحكيم فى ايقاف القتال والصـــلح بين المتنازعين وقـــد لا تنجح بطبيعة الحال نتيجة لصـــلف أحد الطرفين وغطرسته واستطالته بقوته ، بحيث يظلمتشـــبثا بموقفه ، ماضيا فى عـــدوانه ، هنـــا ويتعين على جماعة الخير أن يتدخلوا لمســـاعدة المظلوم ودفع عدوان الباغى وذلك حتى يثوب الى رشده ، ويرجع الى الحق .

« فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » .

المرحلة الثالثة : السلام القائم على العـــدل :

وتأتى المرحلة الثالثة فى خاتمة المطافحيث تنجح (جماعة الخير) فى ردع المعتدى وايقافه عنـــد حده ، وهنا تتجلى عظمة التشريع والتى تنطق بألوهيته وأنه لا يمكن أن يكون من صـــنع انسان .

فنحن هنا أمام جماعة معتدية (باغية) وقد خسرت الحرب وهزمت بفضل تدخل (جماعة الخير) أى أنها قد فقدت قوتها ولم تعد تشكل خطرا ، وقد كانتفى بادىءالأمر (بغت على الأخرى) ، ومع ذلك فان القرآن هنا يأمر من جديد بالمصالحة ، وينص هذه المرة على ان تتم المصالحة على أساس من العدل ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لاستقرار السلام ، فان أى حل لا يقوم على العدل لا يمكن أن يحقق السلام ، وانما يكون شأنه شأن هدنة مؤقتة ، فلا يكادالمغلوب على أمره يلتقط انفاســـه ويستعيد قوته حتى ينتهز الفرصـــة المناسبة لكى يقاتل من جديد ليرفع عن نفســـه ما يتصوره ظلما وقع عليه وتحيف من حقوقه . ومن هنـــا نص القرآن على وجوب العدل ، حتى لقد عبر عنه بأكثر من لفظ ووعد العادلين(المقسطين) بمحبته وباطيب من أحبه الله .

« فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

أمـــل البشرية :

فانظر يارعاك الله كيف أن ما شرعه القرآن منذ أربعة عشر قرنا لفض المنازعات العسكرية بين جماعات المسلمين هو أمل البشرية فى القرن العشرين ، وما نسعى لتقنينه وتطبيقه وأنشئت من أجله عصبة الأمم بالأمس ، وهيئة الأمم اليوم ، ولكنها لا تزال عاجزة .

ولكن الايمان يملأ قلوبنا ان سيجىء يوم تسود فيه التعاليم السماوية التى أنزلها من فوق ســـبع سموات ليكون فيها خير الانســـان والانسانية وتعال الآن نحدثك مما ورد فى التفاســـير عن أســـباب نزول هذه الآية وما اخترنا نحن ان نســـميه **« مناســـبة نزول الآية »** .

مناسـبة التنزيل :

روى مسلم فى باب الجهاد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قيل للنبى صلى الله عليه وسـلم لو أتيت عبد الله بن أبى ،فركب النبى صلى الله عليه وسلم حمارا وانطلق اليه مع بعض المسـلمين وكانت الأرض سبخة ، فلما اتاه النبى قال اليك عنى فوالله لقد آذانى نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار ، والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه وغضب للانصـارى رجل من قومه ، قال : فكان بينهم ضرب بالأيدى والجريد والنعال ، قال فبلغنـا أنه نزلت فيهم **« وان طائفتان من المؤمنين .. الآية »** . هذا ما رواه مسلم وأوردته كتب التفاسير ، ولكن ابن كثير والقرطبى يذكران روايات .

فقال مجاهد نزلت فى الأوس والخزرج « تقاتل حيان من الانصار بالعصى والنعال فنزلت الآية » . ومثله عن سعيد بن جبير : ان الأوس والخزرج كان بينهم على عهـد رسول الله قتال بالسعف والنعال ونحوه فأنزل الله هذه الآية فيهم .

وقد نقل القرطبى عن أعلام التابعين روايات غير هذه ، وكلها تتحدث عن نزاع قام بين الأوس والخزرج . وهو ما نميل نحن للأخذ به ، فان الآية تشير الى نزاع يقوم بين طائفتين من المؤمنين ، بينما تحدثنا الواقعـة عن كون أحـد الطرفين ليس مؤمنا ، وبصرف النظر عن هذه الحجة تأسيسا على ما قلناه من ان التشريع المنزل يكون عاما ولا يرتبط أرتباطا وثيقا بالحادث الذى نزل بمناسبته ، نقول أنه بصـرف النظر عن هذه الحجة ، فانه يبين من استقراء سورة الحجرات أنها نزلت بعد استقرار سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فى المدينة وتوافد القبائل عليه لشتى الاغراض بحيث راح جهالهم ينادون سيدنا محمد من وراء الحجرات ومعلوم أن الحجرات هى مساكن زوجات النبى ولم تتعدد زوجات الرسول صلوات الله عليه وسلامه الا بعد استقراره فى المدينـة .

كما رأينا أن فى السورة ما يشـير الى الانباء الكاذبة التى حملها البعض الى رسول الله عن ارتداد بعض القبائل عن الاسـلام .

وفى السورة كما سوف نرى ، اشـارة لاسلام الاعراب ، كل ذلك يدل على ان السورة الكريمة من السور المتأخرة فى النزول بينما يبدو من واقعة ابن أبى ، أنها كانت لأول مقدم رسول الله ، حيث لم يكن ابن أبى قـد أسلم بعد ، فانه لم يلبث ان دخـل فى الاسـلام .

ومن هنا نرجح قول قتادة ، أن الآية قـد نزلت بمناسبة نزاع قام بين الاوس والخزرج ، وفى السيرة النبوية ما يشير الى وقوع النزاع أكثر من مرة ، وتدخل الرسول بنفسـه صلوات الله عليه وسلامه لفضـه .

الوقوع فى الحرج :

وقد وقع بعض المفسرين فى حرج محاولة تطبيق هذه الآية على حوادث التاريخ الاسلامى الماضية ، وخاصة معرفة موقف الصحابة فى معركة الجمل عندما وقف فريق من الصحابة تحت زعامة السيدة عائشة ، أمام الفريق الآخر تحت زعامة سيدنا على .

وقد أعجبنا من كل ما طالعناه فى هذا الموضوع قول بعض التابعين وقد سئل عن رأيه فى هذه القضية ، فأجاب بالآية الكريمة : **« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (البقرة ١٣٤) . وسئل بعضهم فقال : تلك دماء قد طهر الله منها يدى : فلا أخضب بها لسانى .**

فى كتب الفقه :

وقد اتخذ الفقهاء هذه الآية أساسا لتحديد المواقف المختلفة خلال الازمات فليرجع اليها من شاء التفصيل ، وقد حوى تفسير القرطبى كما هو شأنه اشارة لهذه الاحكام .

اشارة صوفية :

بقى لكى نجعل بحثنا بقدر الامكان ملما بكل وجهات النظر ان نثبت ما رآه القشيرى اشارة فى هذه الآية فقال ان النفس اذا ظلمت القلب بدعائه الى شهواتها واشتغالها فى فسادها فيجب ان يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة فان استجابت الى الطاعة يعفى عنها لأنها هى المطية الى باب الله .

— انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون .

معنى الاخوة ومداه :

والأخوة هنا هى هذه الرابطة القوية فى العقيدة والدين والحرمة لا اخوة النسب ، فهى اثبت وأقوى من أخوة النسب ، فان أخوة النسب (الدم) تنقطع شرعا بمخالفة الدين ، حيث تقوم الاخوة فى الدين رغم انقطاع النسب .

والاحساس بالاخوة فى الدين احساس يحسه أصحاب العقائد المجاهدين فى سبيلها ، وهو احساس لازمنى أنا شخصيا طوال حياتى العامة وكفاحى من أجل حياة روحية أفضل ، فكان لى ولا يزال أخوة فى الدين ، بل وآباء وأبناء فى الدين ، أى فى الروح والعقيدة ، وشعورى نحوهم فاق شعورى نحو أقرباء الدم من اخوان وابناء وآباء (أجداد) وهو شعور طبيعى نظمه الاسلام وعمقه ، وجعله أصلا من أصول المجتمع الاسلامى .

واذا كان القرآن الكريم طبقا لمنهاجه قد جاء بالقاعدة الكلية : ((**انما المؤمنون اخوة**)) فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم **يفصل ويؤصل** فوضع لنا قواعد المجتمع الاسلامى المثالى الذى يسعى العالم جاهدا لتحقيقه دون جدوى، حيث حققه رسول الله بالفعل فى مجتمع المدينة ابان حياته فآخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان الرجل من الأنصار يقتسم أمواله وكل ما يملك مع من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم أخا له . وقد ظل عطر هذه الاخوة عبر القرون، حيث تشممت أنا نفسى عبيره عند زياراتى الأولى للمدينة المنورة منذ ثلاثين سنة ، فما راعنى عندما فزعت الى رسول الله أخيرا عقب مرضى الا أن يتقابل عندى ولأول مرة أشخاص متجاورون فى المدينة لبضع سنوات دون أن يتقابلا فضلا على أن يتعارفا ويتصادقا ، وما ذلك الا أن ريح المادة وعواصفها قد بدأت تهب على مجتمع المدينة الذى أصبح مثله الأعلى أن يكون كأى مجتمع مدينة آخر ، وعلامة التحضر هذه الأيام أن لا يعرف الانسان من هو جاره (فى الشقة المقابلة) فمن أراد أن يسائل نفسه ما هو سر تقهقر المسلمين ، فليس ذلك الا لاغفالهم أخص خصائص تعاليم دينهم الاجتماعية ولعل هذه الاية الكريمة من أولى هذه الخصائص ، وتعالوا معا نستروح بذكر أحاديث رسول الله وهو يحدد لنا تفاصيل ومقتضيات هذه الاخوة وما تفرضه علينا من واجبات .

احاديث نبوية :

فى الصحيحين عن أبى هريرة .

((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ولا يحقره .. التقوى ها هنا ، ويشير الى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه)) وفى غير الصحيحين عن أبى هريرة أيضا ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح الا باذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره الا أن يغرف له غرفة ولا يشترى لبنيه فاكهة فيخرجون الى صبيان جاره ثم لا يطعمونهم منها .

كالبنيان :

وهناك قبل ذلك كله الأحاديث المشهورة .

ورد فى الصحيح : **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .**

جسد واحد :

وفى الصحيح أيضا ((**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)) .

وحسبنا هذا القدر ، فالحديث فى هذا الموضوع لا ينتهى .

الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية :

فاذا حدثوك أيها الشاب أن الثورة الفرنسية فى ختام القرن الثامن عشر قد رفعت شعار الاخاء ، واذا حدثوك عن الثورة الشيوعية فى مستهل القرن العشرين قد دعت الى الاخاء ، فقل لهم لقد سفكت هاتان الثورتان من الدماء أضعاف أضعاف ما ارتكب قبلهما من جرائم ، ثم لم يحققا أخوة حيث فعل ذلك الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا ، وها هى تعاليمه باقية خالدة لتحقيق هذه الاخوة التى تفرض على الجار أن يشرك جاره فى طعامه اذا كان لهذا الطعام رائحة فواحة ، بل أن يشرك صبيان جاره فى الفاكهة الذى اعطاها لصبيانه وقد حدث هذا ويمكن أن يحدث ، بل هو يحدث بالفعل فى صفوف من لا يزال الايمان يعمر قلوبهم ولم يصابوا بعد بلوثة التقدم المادى (والحضارى المزعوم) .

فاصلحوا بين اخويكم :

واذا كان هذا هو مدى الأخوة التى يفرضها الدين على المؤمنين ، فباستطاعتنا أن ندرك كيف أن الاصلاح بين المتقاتلين يصبح من أوجب الواجبات .

واتقوا الله ، أى فى جميع أموركم **لعلكم ترحمون** ويعد الله برحمته المتقين .

يقول ابن كثير تعليقا على (**لعلكم ترحمون**) وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

وليسمح لنا شيخنا ابن كثير أن نخالفه فستظل رحمة الله على سبيل الرجاء يمن بها على من يشاء من عباده فهذا هو ما نفهمه من قوله سبحانه ((**لعلكم ترحمون**)) .

ـ يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .

مفردات :

سخر : سخر منه وبه يسخر سخرا وسخرية وسخريا ، هزأ به واحتقره فهو ساخر وهم ساخرون .

وسخر الله منهم : أى أهانهم .

قوم : القوم جماعة الرجال والنساء معا ، أو الجماعة من الناس يربط بعضهم ببعض روابط دم أو نسب أو اجتماع ولكنها هنا تعنى الرجال خاصة وذلك مستفاد من أنه ذكر النساء بعد ذلك .

تلمزوا أنفسكم : لا يعيب بعضكم بعضا .

ولا تنابزوا بالألقاب : نبز غيره بلقب ، لقبه به ودعاه ، ويكثر ذلك فيما يكره من الألقــاب .

الفسوق : قلنــا من قبل ان الأصل اللغوى لكلمة الفسق فسقت (الرطبة) من قشرها اذا خرجت . واستعمل الشرع كلمة الفسق بأنها الافحاش فى الخروج عن طاعة الله تعالى .

المزيد من الكمالات والأدب الالهى :

وتمضى السورة الكريمة فى تحديد الوان الأدب والكمال الذى يجب أن يتحلى به المؤمن . وقد علمنا حتى الآن :

١ ــ أن نتأدب فى حضرة النبى بما يليق بمقامه على الوجه الذى بيناه سابقا، ومنه أخذنا الواجب على التلميذ فى حضرة معلمه .

٢ ــ الموقف الواجب عند قيام نزاع بين طائفتين مؤمنتين .

٣ ــ اعتبار المؤمنين جميعا بمثابة اخوان .

الاحترام المتبــادل :

وهو هنا فى هذه الآية يعلمنا الاحترام المتبادل الواجب توفره بين جمــاعة المؤمنين مقررا أن كل اهانة أو عيب يوجه لأى فرد فى الجماعة فهو موجه للجمــاعة كلها ، بل هو مرتد الى نفس الشخص **(ولا تلمزوا أنفسكم)** أى أنه اعتبر اللمز أى العيب يتجه أول ما يتجه الى النفس .

وكان تحذيره أول ما حذر من أن يسخر (يستهزىء) أحــد من أحــد لما تضمنه السخرية من معنى احتقار المستهزأ به وازدرائه ، مع أنه قد يكون خيرا وأفضل من الساخر به والمحتقر له وهى حقيقة أكدها القــرآن بقوله **((عسى أن يكونوا خيرا منهم))** وقد جاء فى الحديث الشريف : **((رب اشعث أغبر لو أقسم على الله لابره))** .

وقد جاء فى الأمثال الشعبية التى هى فى حقيقتها تجارب الشعوب : **« يضع سره (أى الله سبحانه وتعالى) فى أضعف خلقه »** .

والعلوم المادية الحديثة قد كشفت لنا عن هذه الحقيقة ، فقد اعتبرت الذرة أصغرة جزء فى المادة ، ومع ذلك فقد اتضح أن هذه الذرة تنطوى على سر رهيب ، اذ ينبعث منها أكبر قوة فى عالم البشر ، ومثل ذلك يقال عن الميكروب الذى لا يرى الا بأعظم المجاهر ومع ذلك فهو يفتك لا بأعظم الناس قوة ، بل بالجماعات نفسها حتى لقد يفنيها . واذا كان هذا هو الحال فى دنيا المادة والحياة فانه بالنسبة للانسان أتم واكمل .

وقد تنبه البشر منذ أقدم العصور فنرى الشاعر يقول منذ أقدم العصور :

ترى الرجل النحيل فتزدريه وفى أثوابه أسد هصور

وهكذا يعلمنا الله ويؤد بنا والكلام موجه كما هى العادة للرجال والنساء معا ، ثم يخص السيدات بالتأكيد عليهم باتباع هذا النهج ، فلا يقدحن فى حق أحد من أصحابهن أو معارفهن أو مجرد عابرة فى الطريق .

فليحذر كل مسلم ومسلمة من أن يزدرى أحدا للونه أو سمته أو نشأته أو ملبسه ، وليعامل كل انسان على أنه ند له ، بكل الاحترام والاحتفال اللائقين بالانسان .

ومما يجدر بالملاحظة أن مقياس المجتمعات الراقية هو بمقدار اتباع هذه القاعدة ، فالذين يسافرون الى أوروبا وأمريكا يلاحظون كيف أن كل المواطنين يعاملون باحترام كامل ، بغض النظر عن ملابسهم أو هويتهم ، وليس الا فى المجتمعات المتخلفة من يعامل الناس على المظاهر الخارجية ، كالملابس ، والحلى والسيارات وغيرها .

ولا تلمزوا أنفسكم :

القرآن قد اعتبر حماية المسلمين كجسم واحد ، فيعتبر جريمة القتل هى بمثابة قتل النفس **(ولا تقتلوا أنفسكم)** والاحسان للغير هو احسان لنفس الانسان **« ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »** وكقوله تعالى **« فسلموا على أنفسكم »** وهو هنا يقول لنا **« ولا تلمزوا أنفسكم »** أى لا تعيبوها بأن تعيبوا فى غيركم ، وقد جاء فى الأثر **« طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس »** . وقد أورد القرطبى حديثا منسوبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم « **يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه !**

وقال الشـــاعر :

لا تكشفن مساوى الناس ما ستروا فيهتـــك الله ســترا عن مساويكا
واذكر محاســن ما فيهـم اذا ذكروا ولا تعب أحـدا منهم بمـــا فيكا

ولا تنـــابزوا بالألقـــاب :

اى ولا يلقب أحدكم الآخر بما يكره .

قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بعد اسلامه بكفره فينادى (يا يهودى، يا نصرانى) فنزلت هذه الآية :

بئس الاسم الفسوق بعد الايمـــان :

يقول الحسن ومجاهد أيضا : بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعــد اسلامه وتوبتـــه .

وفى الصحيح « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، ان كان كما قال والا رجعت عليه » .

ومن لم يتب : عن هــذه المعاصى (السخرية ، والعيب ، وتلقيب النـــاس بما يكرهون) **فاولئك هم الظـــالمون** اى لأنفسهم بارتكابهم هــذه الأمور المنهى عنهـــا .

ــ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم .

الظن المنهى عنـــه :

وتمضى الآيات فى تأديب وتهذيب المؤمنين وتحصينهم ضد الوقوع فى المعاصى فيبدأ معهم من اغوار النفس فيحذرهم من الظن السىء فى أهل الخير والصلاح .

والقرآن الكريم يحذر دائما من الظن بعـــامة **« ان الظن لا يغنى من الحق شـــيئا »** .

وقد بينا كيف ان هذه القاعدة هى أساس العلم الذى يجب أن يبنى على اليقين المستمد من الحقائق .

الظن الذى يؤثم صـــاحبه :

على أن الظن اذا **كان لا** يفيد فى العلم ، فهو عندما يتصل بتصور صـــور خاطئة سيئة بأهل الصلاح فهو يتحول الى اثم ، وكى لا يقع المؤمن فى الاثم فالله سبحانه وتعالى يأمره باجتناب كثير من الظن (**سدا للذريعة**) والظن الذى يوقع فى الاثم فى بعض الأحيان هو ظن السوء فيمن ظاهره الخير ، جاء فى القرآن الكريم « **وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا** » الفتح ١٢ .

وفى القـــرآن ما يدل على الظن الخـــير « **لولا اذ سمعتوه ظن المؤمنـــون والمؤمنات بأنفسهم خيرا** » .

فدل ذلك على أن من الظن ما هو خير عندما لا تتهم أحـــدا فى سريرة نفسك فضلا عن أن تحكم عليه حكما سيئا ثم يظهر ذلك فى كلامك أو تصرفـــاتك فغنى عن البيان ان مجرد (ما يدور داخل النفس) لا عقاب عليه الا أن يظهر له اثر فى الخارج بقـــول أو فعل .

وغنى عن البيان كذلك ، انه من اشتهر بين الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث ، فان العقل لا يستطيع الا أن يدين صاحب هذا الفعل ومن هنـــا كان الحديث الشريف المشهور « **تجنبوا (أو تنكبوا) مواطن الشبهات** » . ذلك أنه من ارتاد أمكنة (الفسق والدعارة مثلا فلا يلومن الا نفسه اذا ظن النـــاس به ظن الســـوء .

فالظن الخير بالناس هو الأصل ما لم يقع منهم ما يسىء الظن بهم وفى ذلك روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : لا تظنن بكلمة خرجت من فم اخيك المؤمن الا خيرا وأنت تجد لها فى الخير محملا وفى الحديث على ما جـــاء فى القرطبى « **ان الله حرم من المسلم دمه وعرضه** » .

وان يظن به ظن الســـوء :

وقد نقل ابن كثير الحديث بكامله عن ابن ماجة على لسان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « **ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك عند الله تعالى ماله ودمه وان لا يظن به الا خيرا** ».

وهكذا أعظم رسول الله حرمة المؤمن بما لا تعلوها حرمة فلا يظنن ظان بالمؤمنين الا خيرا الا أن يقع منهم ما يهدم حسن الظن بهم ، وما لم تقع هذه الحالة الأخيرة . فليجتنب المؤمنون كثيرا من الظن (السىء) فان بعض الظن اثم .

ولا تجسسوا :

الجوس : طلب الشىء بالاستقصاء أو التردد خلال الدور والبيوت والطواف فيها للغارة والقتل .

جاس يجوس جوسا وهذا هو الأصل الذى اشتقت منه كلمة الجاسوس.

وقد أصبحت علما على الأشخاص الذين يستمدون المعلومات عن العدو ، وقد بينا من قبل انه عمل مشروع فى الحرب بل ومندوب فقد كان رسول الله يبث العيون والارصاد لينقلوا اليه خبر الأعداء فى حالة الحرب ، ومعرفة أنباء العدو وتحركاته ونقط ضعفه وقوته هى نصف الطريق للانتصار فى أى معركة ، وربما أكثر من نصف الطريق ، ومع ذلك فها هو ذا القرآن الكريم ينهانا عن التجسس ، ولكن التجسس الذى ينهانا عنه القرآن ليس هو التجسس الخارجى فى حالة الحرب .

وانما التجسس المنهى عنه هو **((تتبع عورات المؤمنين)) .**

والمعنى ان الله يأمر : ان لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله .

وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول **((ان أنت تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم)) وعن أبى امامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ((ان الأمير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم)) .**

وعلى ذكر حظر القرآن التجسس بمعنى محاولة تتبع عورات الناس نذكر حكاية مشهورة وجدت طريقها الى تفسير الألوسى وفحواها أن سيدنا عمر رضى الله عنه وهو يعس فى المدينة بالليل سمع فى أحد البيوت ما أرابه فتسور البيت (أى دخله عن طريق السور) فوجد أحد الصحابة يشرب الخمر فلام صاحب البيت على ما يفعل فما كان منه الا أن قال لسيدنا عمر ، **اذا كنت أنا قد ارتكبت معصية فقد ارتكبت أنت يا عمر ثلاث معاص ، قال الله تعالى ((ولا تجسسوا)) وقد تجسست وقال ((وأتوا البيوت من أبوابها)) وقد دخلت من غير الباب ، وقال تعالى ((لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)) وأنت لم تفعل ذلك .**

فطلب عمر من الرجل أن يتكتم الموضوع وتركه عمر .

واضح ان القصة لا يمكن ان تكون صحيحة ولولا أننا سـمعنا القصة تتردد منذ طفولتنا واخيرا وجدناها فى تفسير الالوسى لما أثبتناها لنذكرها ونرددها فما كان سيدنا عمر وهو أمير المؤمنين بالذى يتسلق الجدران ليكشف عن عورة مؤمن ، وما كان هو بالذى يغفل عن اداب الاسلام فضلا عن آداب الحاكم وهو الذى هز الدنياهزا بعدله وورعه وتقواه وحكمته وفى القصة ما يهدم ذلك كله وان كان الذين صاغوها قد ارادوا أن يعبروا عن انصياع سيدنا عمر للحق ، على ان هناك من الحقائق الثابتة عن سيدنا عمر مايغنى عن افتعال الحكايات التى تشوه أروع صورة لانسان يأتى مركزه بعد سيدنا محمد وسيدنا أبى بكر على الفور .

ومن حسن الحظ أن القرطبى أورد فى تفسيره ما يصلح ان يكون الاساس لهذه القصة التى شوهت هذا التشويه ، وسترى بنفسك كيف تتفق هذه القصة والجلال والورع اللائقين بسيدنا عمر واليك القصة :

قال عبد الرحمن بن عوف : حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المدينة اذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف (أى موراب كما نقول) على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط .

فقال عمر هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الان شرب (أى سكارى) فما ترى ؟ قلت أرى اننا قد أتينا ما نهى الله عنه قال تعالى « ولا تجسسـوا » وقـد تجسسنا فانصرف عمر وتركهم .

فانظر يرعاك الله اذا كانت الحكاية صحيحة (والله اعلم بصحتها) فها هو أمير المؤمنين يرى بنفسه ويسمع بأذنه شخص معين ببعض المعاصى فيستشير زميله عبد الرحمن بن عوف عن التصرف الواجب فى الحـالة فكان من رأى عبد الرحمـن ابن عوف ان ذلك يكون لونا من الـوان التجسس ، فالمفروض ان البيوت حرمة ، ولا يجوز اقتحامها للكشف عن معصية .

ونعود فنكرر اننا لا نعرف مدى صحة الحكاية ولكنها على كل حال أكثر لياقة من الحكاية الاخـرى ومن القـواعد المقررة ان القـاضى لا يقضى بعلمـه ، ولدينـا حكاية أخرى عن سـيدنا عمر تقول انه استشار الصحابة يوما فى المسجد ما هو الحكم اذا شـاهد أمير المؤمنين بنفسـه واقعة زنـا ، فأجـاب سـيدنا على « يجب ان تأتى بأربعة شهداء ، والا كان أمير المؤمنين قاذفا ان هو صرح باسـم الزناة ولم يأت بأربعة شهود .ومرة اخرى لا ندرى ولا نستطيع أن ندرى اذا كانت هذه الواقعة صحيحة أو غير صحيحة ، والمهم اننا يجب أن نعرض كل ما ينقل الينا على عقولنا ومدى انطباق هذه الروايات على ما يجوز وما لا يجوز ، ومن حسـن الحظ ان الباحث الصادق سيجد دائما مايطمئن اليه وينشرح له صدره .

ولا يغتب بعضكم بعضا :

الغيبة هى ذكر الرجل (أو المرأة) فى غيبته بما يكره .

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : اتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله اعلم قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت أن كان في أخي ما أقول ؟ قـــال : « ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته .

والغيبة هي ذكر العيب بظهر الغيب

قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى : الغيبـــة والافك والبهتان . فأما الغيبة فهو ان تقول في أخيك ما هو فيه واما الافك فهو أن تقول فيه ما بلغك عنه ، وأما البهتان فهو أن تقول فيه ما ليس فيه .

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه :

علم الله سبحانه وتعالى وهو خالق الانسان العالم بطبيعته ان ذكر الاخرين في غيبتهم بما يكرهون هو شغل بعض الناس الشاغل حتى ليكاد يكون طعـــامهم وشرابهم وغذاءهم اليومي ، فلم يكتف القرآن بالنهي عن الغيبة كما نهى عن غيرها وانما اختار أن يستعمل تعبيرا يثير في النفس التقزز عند استحضار صورة العمل المنهي عنه ، فجعله أشبه بأكل لحم الانسان الميت .

فكرهتمـــوه :

فاذا كانت هذه الصورة (صورة أكل لحم الميت) مما تكرهون وتتقزز منهـــا انفسكم فاعلموا ان هذا هو شأنكم كلما اغتبتم انسانا .

واتقـــوا الله :

أى خافوا من الله واخشوه بالانتهاء عما نهاكم عنه .

(ان الله تواب رحيم) وكداب القرآن لا يكاد يحدثنا عن اثم أو معصــــية يقع فيها الانسان حتى يذكرنا بعفـــو الله وصفحه وغفرانه ورحمته وما علينا الا أن نتوب الى الله أى نرجع عن المعصية لنجد الله توابا رحيما .

لا غيبـــة في فاســـق :

بقى قبل أن نترك موضوع الغيبة أن نشير الى قاعدة متفق عليها وهي انه لا غيبة في فاسق ونحن في مثل هذه القضايا ننقل لك قول من سبقونا بالعـــلم ، يقول القرطبي : ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر فانه في الخبـــر

« **من ألقى جلباب الحيـاء فلا غيبة له** »وقال صلى الله عليه وسلم «**أذكروا الفاجر بما فيه حتى يحذره** » فالغيبة اذا فى المرء الذى يستر فيه .

وروى عن الحسن أنه قال : **ثلاثة لا حرمة لهم : صاحب الهوى والفاسـق المعلن ، والامام الجائر . ونكتفى بهذا القدر .**

تحـــذير :

ونحن اذ كنا نقلنا هذه الفقرة عن القرطبى فذلك لكى نرفع الحرج الذى يحس به بعض الناس فى بعض المواقف .

ولكن ما ننصح الناس به بعامة ، ان لا يذكروا النـــاس الا بخـير الا اذا الجأتهم الضرورة الى ذلك وليكن شعارك دائما « **طوبى لمن شغله عيبـه عن عيوب النـــاس** » .

ـ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير .

الشعب : الصنف من الناس تجمعه وحدة نسب وجمعه شعوب .

نبى الانســانية :

قبيل مرضى ألفت الجزء الأول من ثلاثة أجزاء كنت قد اعتزمت تأليفهـا فى سيرة الرسول **وقد تفضل المجلس الأعلى للشئون الاسلامية باصـدار الجـزء الأول ولو قدرت لى حياة فسوف أستأنف كتابة الجزء الثانى باذن الله .**

والمهم اننى اخترت اسم نبى الانسانية ليكون عنوانا على سيرة سـيدنا محمد لأنه عليه الصلاة والسلام ، كما دعى الى توحيد الألوهية الصارم والصافى والمبرأ من كل شـائبة فكذلك فقد دعا بنفس الصرامة والصــفاء الى وحـدة الانسانية ، والحق ان وحدة الانسانية هى النتيجـة الطبيعيـة والحتمية لوحـدة الألوهية ، فما دام الرب واحدا وهو خالق الانســان ، فلا يمكن الا أن يكـون من سلالة هذا الانسان .

والمسألة لا تحتاج الى كبير صعوبة لتصورها ، فما من انسان يمتـد به العمر الا ويصبح أصلا لعائلة كبيرة .

وعندما كنا صبيانا كان عدد سكان مصر ١٢ مليون وكانت مصر على أيام محمد على تضم ثلاثة ملايين فقط .

والذين عمروا أوروبا وملأوها بهذا العدد الضخم من السكان كانوا قبائل تعد بعشرات الألوف وهم بدورهم قد جاءوامن قلب آسيا (من سلالة آرية هندية) وسكان العالم حسب التقديرات الفنية لم يكونوا يتجاوزون بضعة ملايين فقط منذ الفى سنة وهكذا ، فلا يجب أن يجد أى انسان أى مشقة فى تصور انحدار البشرية كلها من أصل واحد ، وقد وجد فى القرن التاسع عشر ومستهل العشرين من حاول أن يتشكك فى هذه الحقيقة ليبرر نظام الاستعمار والاسترقاق ، فراح يتصور ان الانسان الأبيض قد انحدر من أصل غير الأصل الذى انحدر منه الزنجى ، وحاولوا جاهدين أن يوجدوا فروقا طبيعية خلقية بين الأجناس البيضاء والسوداء ولكن التجربة والبحث والتقصى سرعان ما أظهر افساد ذلك كله ففى الولايات المتحدة حيث لا تزال آثار التمييز العنصرى تحدث آثارها تفوق الزنوج على البيض فى كل ميدان فتح لهم على أساس تكافؤ الفرص . فكان تأثيرهم فى بادىء الأمر على الأمريكان البيض فى الموسيقى ، ثم فى مختلف الألعاب الرياضية ، واذا كانت الولايات المتحدة تفوز على العالم كله فى الألعاب الأولمبية فذلك بفضل أبطالها من السود ، وعندما فتحت أمامهم أبواب العلم بدأوا ينافسون ولن يلبثوا أن يتفوقوا كما فعلوا فى كل ميدان فتح لهم وهذه قضية ناقشناها بتفصيل واسهاب وبالوثائق والاحصاءات فى كتابنا « الأمة الانسانية » وأثبتنا فى ثنايا البحث ما انتهى اليه العلم والعلماء أخيرا ، واليك ما أثبتناه :

اجتمع علماء **(١٧ دولة بناء على طلب هيئة الأمم)** وأصدروا بانا من ثلاثة عشر نقطة أهمها على الاطلاق النقطة الأولى التى تقول :

كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتهى الى نوع واحد هو النوع البشرى وكلها ترجع الى سلالة مشتركة وأصل واحد .

— يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى :

أفرأيت هذا الذى انتهت اليه البشرية فى القرن العشرين باسم العلم والعلماء بعد أن شرقوا وغربوا وأغرقوا العالم فى طوفان من الدم فقد اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى والثانية فى ظل التصور فى أن الأوربيين هم وحدهم الناس ، فكان من الطبيعى أن يبالغ هتلر فيقول أن الألمان وحدهم هم الناس .

وفى ظل هذا الاعتقاد اشعل نيران الحرب العالمية الثانية ، وأخيرا انتهوا الى تقرير الحقيقة التى أثبتناها .

فعليك الآن أن تستوعب كيف ذكر القرآن هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرنا وقال بها فى مجتمع يقوم على العنصرية والعصبية والقبلية حتى لتحدثنا القصص والسير العربية حديثا عجبا عن مدى تغلغل العنصرية فى العرب فيقولون أن رجلا عربيا فى الجاهلية كشداد يأبى الاعتراف بابنه عنترة وذلك لسواد لونه ولأنه ابن

الجارية ولم يشفع لعنترة فى بادىء الأمر بطولته وفروسيته لولا أن تكرر وقوع نساء قبيلته فى الأسر وعجز القبيلة بأكملها فى أنقاذ النساء فيستغيثون بعنترة الذى كان يشترط اعتراف أبيه به ، وهذه القصة تعكس لك الروح التى كانت سائدة بين العرب واذا كانوا فى جنوب أفريقيا حتى اليوم يعيشون بهذه الروح فعليك أن تتصور ماذا كان عليه الحال منذ ألف وأربعمائة سنة .

هذا هو المجتمع الذى نزل فيه القرآن يقول :

((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى)) .

يا أيها النـــاس :

ونريد بداءة ذى بدء أن نلفت النظر الى صيغة الخطاب بيا أيها النـاس ، فحيث يجرى الخطاب منذ أول السورة بيا أيها الذين آمنوا لأن المجال كان مجال التربية والتهذيب وتوجيه جماعة المؤمنين الى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، فان الخطاب هنا موجه الى البشرية كلها على اختلاف أجناسها وألوانها وأديانها ، اذ الحديث يتكلم عن حقيقة طبيعية مؤكدة وهى وحدة الأصل البشرى واذا كانت العقيدة الاسلامية تنشىء بين المسلمين رابطة خاصة هى رابطة الاخوة (**انما المؤمنون أخوة**) فقد جاءت هذه الآية لتذكر المؤمنين ، وغير المؤمنين برابطة الدم التى تجمعهم فالكل هم سلالة آدم وحواء .

خلقناكم من ذكر وأنثى :

وكل انسان حى انما هو وليد ذكر وأنثى ، ولكن المقصود هنا هو الذكر الأول (آدم) والأنثى الأولى (حواء) لأن الآية تتحدث عن الشعوب والقبائل التى تفرعت من هذا الأب الأول والأم الأولى وتحدد ميدان التفاضل والتمايز ، والاحقية بالكرامة وان التقوى هى المعيار الوحيد كما سوف نرى .

المبـدأ فى التطبيق :

وما أكثر المبادىء والمثل العليا والمهم هو فى التطبيق ، ولم ينجح أحد كنجاح سيدنا محمد والخلفاء الراشدين من بعده فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الفعلى مما يقطع بأن الأمر لم يكن أمر جهد بشرى لانسان كائنا من كان مهما كان هذا الانسان عظيما ، وانما الأمر لا يمكن أن يكون قد تم بهذا النجاح الذى لا مثيل له من قبل أو من بعد الا بفضل تأييد قوة علوية هى قوة الله عز وجل .

بلال يؤذن على الكعبـة :

وقد قيل بين ما قيل عن مناسبة (سبب) نزول هذه الآية عن ابن عباس

قوله : لمـــا كان يوم فتح مكة أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فاذن فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص :

الحمد لله الذى قبض (أمات) **أبى** حتى لا يرى هذا اليوم ، وقال الحارث ابن هشام ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهيل بن عمرو أن يرد الله شيئا يغيره ، وقال أبو سفيان انى لا أقول شيئا ، أخاف أن يخبر به رب السماء ، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

رواية أخـــرى :

وذكر أبو داود فى أحاديثه المرسلة رواية أخرى عن مناسبة نزول هذه الآية فقال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بياضه أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزوج بناتنا موالينا » **فأنزل الله عز وجل « انا خلقناكم .. الآية .**

رواية ثالثـــة :

وأورد الترمذى حديثا آخر عن عبد الله بن عمر فى مناسبة نزول هذه الآية (ســـببها) قال :

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فقال أيها الناس ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله .

والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى :

يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ... الآية

وأيا كانت المناسبة التى نزلت بصددها الآية فهى صريحة فى ألفاظها واضحة فى معناها ولم يدخر رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعا فى وضعها موضـــع التنفيـــذ .

فكان بلال الحبشى هو من هو ، أما سلمان الفارسى فقد قال عنه « **سلمان منا أهل البيت** » كما أنه أعتق زيد بن حارثة (**الذى كان رقيقا**) وتبناه ، قبل الغاء نظام التبنى .

القرطبى يصل بايمانه الى حقيقة علميـــة :

ويسعدنا هنا أن نكشف عن توفيق الله للقرطبى فجعله يتقين من حقيقـــة

علمية لم تكتشف (**بطريقة معملية**) الا مؤخرا الا وهى أن الجنين يتكون من الأب والأم معا) **الحيوان المنوى الذى يودعه الذكر فى رحم الأنثى ، يتحد ببويضة تفرزها الأنثى** (ومن هذا الاتحاد يبدأ الجنين فى التخلق .

هذه الحقيقة العلمية التى ساعد (**الميكروسكوب**) المجهر على رؤيتها ، لم تكن معروفة بطبيعة الحال للقدامى . وكان الظن أن الجنين هو ماء الرجل فقط وأن دور الأنثى لا يزيد عن كونه ، مكان تربية الجنين ولكن القرطبى ذلك العالم العظيم ، أخلف الاعتقاد السائد تأسيسا على هذه الآية الكريمة وذلك بالهام وتوفيق من الله .

واليك عبارته :

ذهب قوم من الأوائل الى أن الجنين انما يكون من ماء الرجل وحده ويتربى فى رحم الأم ويستمد من الدم الذى يكون فيه .. والصحيح أن الخلق انما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية فانها نص لا يحتمل التأويل .

وهكذا قطع القرطبى فوصل الى حقيقة جهلها العلماء ممن سبقوه .

ـ وجعلناكم شعوبا وقبائل :

شاءت ارادة الله وحكمته أن يقيم كل ما فى الكون وبخاصة الحياة على التنوع والتشكل وجعل من هذا التنوع السبيل الى الارتباط فالموجب والسالب نوعان مختلفان . ولكن هذا الاختلاف بالذات هو سر تجاذبهما . وشبيه ذلك الذكر والأنثى ولكن هذا الاختلاف هو سبيل الوحدة . بحيث يكمل كل منهما الآخر فكذلك يجب أن نفهم التنوع والاختلاف بين الجماعات البشرية فقد أراده الله سبحانه وتعالى لا ليكون سبيلا الى التصادم والتنافر وانما للتعاون والتآلف .

(**لتعارفوا**) وقد فهم بعض المفسرين من كلمة (**تعارفوا**) أى تعرفوا انسابكم وذوى أرحامكم لتصلوهم ، ولكننا نؤثر اطلاق الكلمة الى آخر مداها لتشمل التعاون والتآلف كما قدمنا .

ان أكرمكم عند الله أتقاكم :

وبعد أن سجل القرآن الكريم وحدة الجنس البشرى وضع المقياس الذى يتفاضل به البشر عند الله ، ويستحقون به الكرامة . فلم يكن هذا المقياس هو الحسب أو النسب أو الجاه أو السلطة وانما هو التقوى وهى الايمان والعمل الصالح .

ـ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسـلمنا ولما يدخل الايمـان فى قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا .

الاعراب : هم سكان البـادية .

أسلمنا : انقـدنا :

لا يلتكم : لا ينقصكم .

العربيـة والاعراب :

نحن لا نسأم من التذكير دوما بأن هذا القرآن يستحيل أن يكون من صـنع بشر . فما من كتاب كتبه بمعنى (ألفه) انسان الا وهو يحمـل بصمات هـذا الانسان . ويستثنى القرآن من كل ما عرفته البشرية من كتب من هذه القاعدة .

فحيث كانت الناس كلها فى بيئة سيدنا محمد تعتز ببداوتها ، ولا يعتبرون الناس الا بمقدار أصـولهم من البادية ،بحيث كان الاشراف والاغنياء من سـكان القرى ، يرسلون أطفالهم الى البادية لينشأوا ويتربوا فيها منذ فترة الرضـاعة ولا يعودون من البادية الا بعد أن يشبوا عن الطوق ويصبحوا صـبيانا ، ولم يشذ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عن هذه القاعدة فقد تسلمته حليمـة السعدية من أمه لترضـعه فى البادية فى قبيلة بنى سعد من هوازن .

وأمضى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أياما سعيدة فى طفولته ولقى من حنان حليمة ما ظل يذكره طول حياته ، ولقد لقيت منه قبيلة بنى سعد عندما وفدت عليه فيما بعد اكراما لا مزيد عليه ، تعبيرا عن امتنانه لهذه الأيام أو بالأحرى أهم سنوات العمر فى حياة الانسان هذا هو سيدنا محمد الانسـان وهـذه مشاعره نحو البـدو والبادية ، فاذا طالعنا القرآن الكريم فلا نرى الا الذم والقدح فى البدو كما هو الشأن فى هذه الآية ، واليك بعض ما جاء فى القرآن من هذا القبيل :

ـ الاعـراب أشد كفرا ونفاقا . التوبة (٩٧) .

ـ وممن حولكم من الاعراب منافقون . التوبة (٩) .

ـ سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا (الفتح ٤٨).

ـ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا . (الحجرات ١٤) .

وليس الا فى آية وحيدة فى القرآن من لم يشأ الله أن يغلق باب رحمتـه فى وجوههم وهو الذى وسعت رحمته كل شىء فنص على أن منهم من يؤمن بالله واليـوم الآخر .

ـ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر (التوبة ٩٩) .

العربيـــة هى اللســـان :

وبينما كان القرآن لا يشير الى **أكثر من ٩٠ فى** المـائة من سكان الجزيرة العربية على عهده الا بأمثال هذه **الأوصاف** غير الكريمة ، كانت اشادته الدائمة باللسان العربى فوصف القرآن فى العديد من الآيات بأنه نزل بلسان عربى مبين .

— وهذا لسان عربى مبين (النحل ١٠٣) .

— انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . (يوسف ١٢) .

— وكذلك أنزلناه حكما عربيا (الرعد ١٣) .

الى غير ذلك من الآيات .

وليس وراء ذلك تأكيد لكراهية الاسلام للعنصرية .

والآن فلنذكر ما قيل عن مناســـبةسبب نزول الآية لنلقى مزيدا من الضـــوء على معناها وأبعادها .

قيل انها نزلت فى بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله فى سنة جدبة فاظهروا الاسلام بأفواههم لينالوا حظهم من الصدقات فى الوقت الذى قاموا فيـــه بأعمال آذت الناس .

وقال ابن عباس : نزلت فى أعراب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبـــل أن يهاجروا . وقال السدى نزلت فى الاعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع ، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا الى المدينة تخلفوا فنزلت الآية ، ولنا عموم الآية وأمثالها فى القرآن الكريم مما يدل على كراهة القرآن للبداوة وحثه على كل مكرمات التحضر الخلقى والأدبى والتربوى الذى تفصل هذه السورة الكريمة الوانا منه .

— قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا :

والاسلام ، هنا بمعنى استسلمنا خوف القتل .

ويقف المفسرون والفقهاء طويلا للتفرقة بين الايمان والاسلام كدين ، **وعندنا** أن هذه الآية ليست محل هذه المباحث . فالايمان هو تصديق بالقلب ونطق باللسان والاسلام (**بمعنى الدين الاسلامى**) لا يمكنأن يتم الا عن طريق الأقوال والأفعـــال معا وهو ما لا يكون الا نتيجة للايمان .

والآية هنا تقطع بأن الايمان لم يدخل القلب وبالتالى فلا اسلام ومن هنـــا فيجب أن يفسر الاسلام هنا بما فسره بهعامة المفسرين وهو الاستســـلام خـــوف القتل والسبى .

وهذه صفة المنافقين أظهروا الاسلام فى الظاهر ولم تؤمن قلوبهم .

ـ وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا : والله سبحانه وتعالى لا يغلق باب رحمته أبدا ، فها هو ذا يؤكد للاعراب انهم لو انصلح حالهم فى أى وقت باطاعة أوامر الله ورسوله ، فعفا الله عما سلف وسوف يوفى لهم أجورهمولن ينقصهم قدر خردلة من أعمالهم .

ـ الاسلام فالايمـــان فالاحسان :

وجمهور أهل السنة على أن الايمان أخص من الاسلام والاحسان أخص من الأخص ، ويستدلون بهذه الآية على عمومية الاسلام بالنسبة للايمان الذى هـــو أخص ، أما خصوصية الاحسان بالنسبة للايمان فيستمدونها من حديث البخـــارى عندما سأل جبريل عليه الســـلام سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام عن الاســـلام ثم الايمان ثم الاحسان متدرجا بذلك من الأعم الى الأخص فالأخص ، ولنا عـــودة الى هذا الحديث ، فنحن ما زلنا عند رأينا من أن كلمة اسلام هنا تعنى مجـــرد الاستسلام خوفا من الموت أو ضياع المصالح ، فهى ليست مقارنة بين الاســـلام والايمان بدليل ان الآية التالية لم تلبث أنعرفت الايمان بما يتفق ومدلول الاســـلام الصادق اذ تقـــول :

ـ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون .

فهذه الآية الكريمة تحدد ما الذى تعنيه الآية المتقدمة بمفهوم الايمـــان الذى لم يدخل بعد الى قلوب الاعراب ، فالمؤمن بالله ورسوله الذى نفذ الايمـــان الى قلبه سرعان ما يتجلى ذلك فى كل تصرفات المؤمن ، وأظهر هذه التصرفات الجهاد فى سبيل الله بالمـــال والنفس ، وهو ما لا يتم الا اذا امتلأ القلب بالايمان بالله ولم يداخله اى ذرة من الشك (ثم لم يرتابوا) فى جزاء له ومكافأته للمحسنين ، وقـــد بلغ هذا الايمان ببعض الصحابة أن سألرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض المعارك ، وكان هذا الصحابى يلوك فى فمه (تمرة) فسأل : « يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة الا أن أحارب فأقتل فأدخل الجنة » .

فأجابه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والله وأنه لا يحارب فى سبيل الله فى ذلك اليوم مؤمن فيقتل شهيدا الا أدخله الله الجنة فما كان من الصحابى رضوان الله عليه الا أن لفظ (التمرة) من فيه وانخرط يحارب المشركين حتى استشهد وهذا هو أثر الايمان عندما يملأ القلب .

الجهاد بالمـــال والجهاد بالنفس :

ولم يذكر الجهاد فى القرآن الا وقدم الجهاد بالمـــال على النفس . ذلك انه وجد دائما مئات والوف يضحكون بأنفسهم ويجودون بأرواحهم فى ســبيل الحق ولكن تاريخ الانسانية كله لم يعرف الا افرادا يعدون (ربما) على أصابع اليـــد الواحدة وهم الذين جادوا بكل أموالهم فى سبيل الحق (الله) .

وحول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان ابو بكر الصديق وحده هو الذى جاء (بكل ماله) تلبية لنداء رسول الله ، فلما عاتبه رسول الله (شفقة عليه) وقال له : هل أبقيت شيئا لعيالك فأجاب أبو بكر : لقد أبقيت لهم الله ورســوله وهذا هو قمة الايمان التى لم يصل اليها الا أقل القليل جدا كما قدمنا . والله الذى خلق الانسان ويعلم طبيعته . جعل الجهاد بالمـــال فى هذه الدرجة العليا .

وبهذا تقدم لنا الآية الصورة الكاملة عن المؤمن الصادق فى كل زمان ومكان .

ـ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم .

أتعلمون الله بدينكم : أى أتحيطون الله بما فى ضمائركم . وقد قيــل ان ان الاعراب التى نزلت فيهم هذه الآية اقسموا (كذبا) انهم مؤمنون باطنـــا مثــل ما هم مؤمنون ظاهرا ، فنزلت الآية الكريمة تنبؤهم انهم لن يعلموا الله بمـــا فى قلوبهم ، والتعليم هنا بمعنى الاعلام .

ـ والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم .

وليس أدل على أن الايمان بالله لم يدخل الى قلوبهم بعــد انهم تصــوروا ان الله لا يعلم ما فى قلوبهم مع أنه العالم بكل شىء فى الأرض والسماء لا يخفى عليه شىء ولو كان مثقال ذرة أو أدنى (وهو بكل شىء عليم) .

ـ يمنون عليك أن اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين . ان الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بمـــا تعملون .

المن فى اللغة القطع يقال من الشىء يمنه منا قطعه تقول مننت الحبـــل ومن عليـــه .

وتستعمل الكلمة (اصطلاحا عندما يحسن المحسن الى انسان ما ، ثم يروح يذكر من أحسن اليه به فى كل مناسبة ويعده عليه ويقرعه وهنا يندد القرآن بمن يتصورون أنهم يمنون على سيدنا محمد بأن دخلوا فى دين الاسلام ، ومناسبة الآية قول الاعراب الذين أشرنا اليهم فيما سبق (**بنو أسد**) اذ قالوا لرسول الله عندما وفدوا اليه فى المدينة : أسلمنا وقد قاتلك العرب ولم نقاتلك .

قيل فنزلت هذه الآية والتى تكرر معناها بعديد من الصيغ فى القــرآن . والآية الكريمة تقول لكل من يتصور ان يمن باسلامه أو احسانه ان الله سبحانه وتعالى هو صاحب الفضل والمنة على كل انسان يسلك ســبيل الهداية والرشــاد **(بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين)** .

ولعل هذه الآية ترجح ما قلناه فيما سبق من انه لا محل للمقارنة فى هــذا الموضع بالذات بين الايمان والاسلام فها هى ذى الآية تشير فى أولها الى الاسلام ثم تصفه فى نهاية الآية بالايمان **(ان كنتم صادقين)** وتختتم السورة بتذكير كل من له اذنان للسمع ، والمحسن والمسىء على السواء للانذار والتحذير للاشرار وبعث الأمل والتفاؤل فى نفوس الأخيار **(ان الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون)** . **صدق الله العظيم**

انتهى بفضل الله وتوفيقه تفسير سورة الحجرات وتليهــا ســورة الفتح ان شــاء الله .

شــــكر

أسعدنا أن نعلم ان شيخنا وأستاذنا الكبير فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى يتابع قراءة تفسيرنا وقد تفضل علينا فأشار بأنه كان يحسن — ونحن فى **معــرض** تفسير الآية **(لدينا رقيب عتيد)** ان نذكر ما جاء فى القرآن الكريم موضحا صــفة الرقيب والعتيــد :

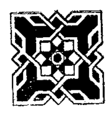
جاء فى القرآن الكريم :

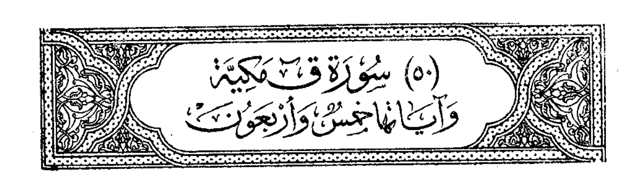
— **« وان عليكم لحافظين كراما كاتبين »** (١٠ انفطار) .

— **أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون »** (٨٠ الزخرف) .

وقد قلنا أكثر من مرة ان ليس هناك ما يسعدنا أكثر من أن نتلقى ملاحظات أساتذتنا فشكرا له ونرجو المزيد فنحن طلاب علم .

« وقل رب زدنى علما » « وفوق كل ذى علم عليم » .

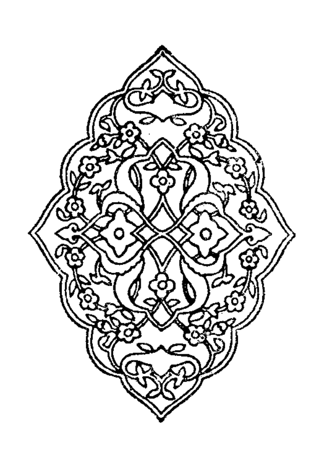




بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن
فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ
ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ
بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾
مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ
هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾
* قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم
بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ

مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ
ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ۖ وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ
بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ
ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾



سورة مكية :

الذى فى المصحف أنها سورة مكية ،وهى مكية باتفاق وهى تشتمل على خصائص السور المكية من خلوها من التشريع ومناقشة اهل الكتاب واثارتها الى وقائع السيرة فى المدينة وحديث الغزوات ، وتركز شأن بقية السور المكية على البعث والنشور والوعد والوعيد واستعراض صفحة الكون وما اشتمل عليه من آيات ناطقة بقدرة الله وعظمته ووحدانيته .

ما روى عن فضل السورة :

فى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : كان تنورنا (أى الفرن) وتنور رسول الله واحدا سنتين أو سنة وبعض سنة(١) وما أخذت ق والقرآن المجيد الا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها كل يوم جمعة على المنبر اذا خطب الناس وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبا واقد الليثى ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاضحى والفطر فقال كان يقرأ فيهما بـ **((ق والقرآن المجيد))و ((اقتربت الساعة وانشق القمر))** .

وفى رواية أخرى للحديث أن المسئول هو سيدنا عمر وهو الذى أجاب وهو ما نرجحه نحن ، فمن غير المعقول أن يكون سيدنا عمر هو السائل عما كان يفعله رسول الله فى صلاة الاضحى والفطر ، فما نحسب أن سيدنا عمر تغيب عنهما أبدا ، فلابد أن يكون فى الامر (تصحيف) وهو التعبير القديم الذى يساوى فى عصرنا الحاضر (غلط مطبعى) ويكون الاصح والاقرب أن يكون ابو واقد الليثى هو الذى سأل سيدنا عمر ، والله تعالى أعلم .

أول المفصل :

ويرى ابن كثير أن سورة « ق » هى أول المفصل(٢) من القرآن حيث يقول غير أنه يبدأ بالحجرات ويدلل على رأيه بعدة أدلة وينفى القول الشائع من أن حزب المفصل من سور القرآن يبدأ بجزء عم .

ـــ ق والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ .

ق

هو حرف من حروف الهجاء تبدأ به السورة على أسلوب القرآن مثل قوله **((ن))** أو **((ص))** وكأنه يقول أن هذا القرآن الذى تعجزون عن الاتيان بمثله

---

(١) اشارة الى الجوار المشترك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلقون على كل مجموعة من سور القرآن اسما خاصا .

هو من نوع كلامكم وحروفه التى يتكون منها هى بذاتها حروف كلامكم ، فهى بمثابة التحدى الرمزى للمشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن . وعلى ان الامر ليس بهذه البساطة فهذه الحروف فى أوائل السور كانت وستبقى الى أبد الابدين احد أسرار القرآن وقد ذهب المفسرون فى تأويلها مذاهب شتى ، فمن قائل انها اسماء الله عز وجل وكان من أطرف ما طالعنا فى هذا الموضوع ما ذكرناه سابقا ، من « الر » و « حم » و « ن » التى افتتحت بها عدد من السور هى مجموع كلمة « الرحمن »، وقيل ان هذه الحروف هى أسماء للسور، وفى بعض العصور حيث كان هناك مايسمى بحساب (الجمل) أعطيت هذه الحروف قيمة حسابية وراحوا يستدلون منها على بعض الوقائع التاريخية ، وفى عصرنا الحديث أمضى بعض اخواننا الافاضل جزءا كبيرا من حياته محاولا أن يثبت أن المدلول الرقمى لهذه الحروف يدل على ترتيب السور .

حتى العقل الالكترونى استعمله بعض فضلاء الباحثين العصريين لمعرفة أسرار هذه الحروف فخرجوا بالانطباع أن الحرف الذى تبدأ به السورة يتكرر أكثر من غيره فى آياتها وهو رأى تصورناه نحن أنفسنا فى بعض المراحل ، وهو أظهر ما يكون وضوحا فى هذه السورة بالذات (ق) وكذلك فى سورة (ص) و (ن) .

ولكن الصعوبة دائما هى أن كل نظرية سرعان ما تعجز عن تفسير كل الحالات .

ويكون السؤال الآن فلماذا اطمأن ضميرنا الى ما قلناه من أنها مجرد حروف هجاء من نوع كلام العرب ، فنقول وبالله التوفيق .

جاء فى تفسير ابن كثير :

(ق) حرف من حروف الهجاء المذكورة فى أول السورة كقوله تعالى (ص — ن — الم — حم) ونحو ذلك قاله مجاهد وغيره .

وجاء فى تفسير المنتخب الذى وضعه جلة علمائنا الاعلام :

(ق) حرف من حروف الهجاء افتتحت السورة به على طريقة القرآن الكريم فى افتتاح بعض السور ببعض هذه الحروف للتحدى وتنبيه الاذهان . وعندما يقول بالرأى بعض التابعين وعلماء السلف ويوافقهم علماؤنا الافاضل المعاصرون ، يصبح من حقنا أن نختار هذا الرأى ونرجحه ، وما نود أن نلفت اليه النظر ونؤكده ، ان هذه الحروف فى مستهل بعض السور كانت وستبقى الى أبد الابدين أحد أسرار القرآن لذلك نقول : الله أعلم بمراده .

اسرائيليات

تحدثنا من قبل عن موضوع الاسرائيليات التى امتلأت بها تفسيرات القرآن القديمة وشرحنا كيف أن ذلك أسلوب اتبعه اليهود منذ أقدم العصور حتى اليوم وهو انهم

يعمدون الى التخريب من الداخل بعد أن فشلوا فى التدمير من الخارج ، فبعد ان قهرهم رسول الله صلى الله عليه وسلموهم له معاندون ، وبعد أن أجلاهم عمر ابن الخطاب نهائيا عن شبه جزيرة العرب وظهر نور الاسلام وغمر العالم ، عمد اليهود الى اسلوبهم التقليدى وهو التخريب من الداخل فاعتنق بعضهم الاسلام وراح يوقع الفتن بين المسلمين ، وقد كان بطل أعظم فتنة أدمت قلوب المسلمين ، ونعنى بها ، فتنة مقتل سيدنا عثمان بن عفان ، كان بطل هذه الفتنة هو ابن سبأ اليهودى الذى تظاهر بالتشيع لسيدنا على رضى الله عنه ، وراح تحت هذا الستار يؤجج نيران الفتنة حتى كان هذا الذى كان .

وليس ذلك الا لونا من الوان الفساد الذى دأبوا عليه ، على أن أسلوبهم المفضل هو تخريب العقيدة ومن هنا وجدت الاسرائيليات فى تفسير القرآن ، وهى مجموعة من الخرافات والكفريات ، والهذيان وحتى لا يتصور متصور أن هذا الحكم من مقولاتنا نثبت هنا ما قاله الامام الحافظ (ابن كثير) فى هذا الموضوع بمناسبة ما حشى به تفسير هذه السورة بالذات ، قال ابن كثير جزاه الله عن المسلمين احسن الجزاء ، قال :

— وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا « ق » جبل محيط بجميع الارض يقال له قاف ، وكان هذا والله أعلم من خرافات بنى اسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس لما رأى جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى ان هذا واشباهه وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم كما افترى فى هذه الامة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وائمتها احاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بنى اسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتاب الله وآياته ، وانما اباح الشارع الرواية عنهم فى قوله « **حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج** » فيما يجوزه العقل فاما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل والله أعلم .

وقد اكثر كثير من السلف من المفسرين وكذلك طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية فى كتب : أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد وليس بهم احتياج الى اخبارهم ولله الحمد والمنة ، (ثم ضرب ابن كثير مثلا مما يروى من هذا القبيل من ان الله تبارك وتعالى ، خلق من وراء هذه الارض بحرا محيطا بها ، ثم خلق من وراء هذا البحر جبلا يقال له قاف سماء الدنيا مرفوعة عليه .. » ونكتفى بهذا القدر الذى يدل على أن موضوع الاسرائيليات قد اكتشف منذ عدة قرون ، غير أن النهضة العلمية الاسلامية الحديثة هى التى كشفت عن أبعاد هذه الاسرائيليات وشرعت فى تطهير التفسير منها ، وفى رأينا أنه لا يكفى حذفها ، بل ويجب التنبيه اليها كلما جاءت المناسبة ، فستظل التفاسير القديمة قائمة ، ويرجع اليها من يريد أن يرجع فلزم التنويه والتنبيه .

والقــرآن المجيــد :

الواو واو القسم والله عز وجل يقســمهنا بكلامه . وهو القرآن العظيم ، القرآن الشريف ، والقرآن الكريم ، وكل ذلك متفق عليــه بين المفسرين ، ولكنهم اختلفــوا فى جواب القسم أى شىء هو فقــال البعض(أهل الكوفة) جوابه بل عجبوا ، وحكى ابن جرير الطبرى عن بعض النحــاة أنجواب القسم هو قوله تعالى ((**قد علمنــا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ**))

واختار الترمذى على ما روى القرطبىان جواب القسم هو قوله تعالى : ((**ان فى ذلك لذكرى لمن كان لــه قلب أو ألقىالسمع وهو شهيد**)) .

وقال ابى كيسان : جوابه ما يلفظ منقول

ولكننا نرجح قول من قال : ان جواب القسم محذوف وتقديره ((**لتبعثن**)) **يدل عليه** قول المشركين كما يحكى عنهــم القــرآنالكريم ((**أئذامتنا وكنا ترابا**)) لانهم بذلك يردون على فكرة البعث التى ينذرهم بهــاسيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه .

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم

تحدثنا هذه الاية عن مشكلة المشــاكلالتى واجهت الرسل والانبياء بدون استثناء وهى أن البشر ينكرون أن يهبــط الوحىالالهى على واحد منهم، فالصورةالمضطربة فى اذهانهم تصور لهــم أن الله ســبحانهوتعالى لو أرسل رسولا لما كان من جنس البشر ولكان كائنا من طبيعةمغايرة للطبيعةالبشرية ، وينسى هؤلاء المتصورون أن لو اختلفت طبيعة الرسول عن البشرية ، لماأمكن أن يؤدى رسالته فكيف يفهم الناس منه اذا لم يكن يتكلم مثل ما يتكلمون وينطقمثل ما ينطقون ، وقبل ذلك يتجلى فىصورة يستطيعون أن يقتربوا منها فى غير خــوفأو وجل وذلك لا يتأتى الا اذا ظهر هــذا الكائن فى صورة بشرية ، أى أن الصــورةالبشرية التى يعجب الكافرون أن يكــون الرسول متصفا بها هى الاصل الذى يجبأن يكون .

وفى عصرنا الحــاضر حيث أصبحــوايحدثوننا عن كائنات فى الكواكب الاخرى لهم طبيعة تخالف الطبيعة البشرية فهم لا يستطيعون تصور هذهالكائنات لكىتظهر للناس الا على صورة بشرية .

ولهذا المعنى أشار القرآن الكريم بقوله:

((**ولو جعلناه ملكا لجعلنــاه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون**)) . الانعام ٩

قل لو كان فى الارض ملائكة يمشــونمطمئنين لنزلنا عليهم من الســماء ملكــا رسولا .. الاسراء ١٧

والمعنى أن الرسول لا يمكن الا أن يكونمن طبيعة المرسل اليهم ليكون من الممكن الاتصال والتفاهم هــذا من ناحية ، ومنناحية أخرى فان الله سبحانه وتعالى يريد للناس أن يستعملوا عقولهم ، وأن يزاولواحريتهم فى الاختيار ، وذلك لا يكون الا اذا كان من يدعوهم الى الله ويحذرهم وينذرهمواحدا منهم لتظل القضية تدور فى دائرة العقل والحرية والارادة الانسانية ، أما لوأرسل الله رسولا من طبيعة غير بشرية ، وبقدرات غير انسانية لاصبح الايمان باللهليست مسألة اختيار وحرية واقتناع ،وانما مسألة جبر وقهر ، وقد أختار الله عــزوجل أن لا يكون ذلك شأن الانسان تمييزا له عن بقية الكائنات .

بشرية الرســـول

وقد كانت بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور التى شقيت بها قريش فى بادىء الأمر لجهلها الحكمة الالهيـــة ،فكانوا يكثرون مناستنكار أنيكون الرسول انســـانا مثلهم يـــأكل ويشرب ويمشى فىالأسواق .

— « وقالوا مالهذا الرسول يأكلالطعامويمشى فى الاسواق لولا أنـــزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » الفرقان — ٧ وأهميةأن يكون الرسول بشرا تتجلى فى أننا نعرف كل شىء عن حدود الانسان وطاقاته ، فاذاما جاوزت أعمال أى انسان كل ما سبقه أو لحقه من البشر ، فهذا هو الدليل عـــلىأنه انسان زائد قوة غيبية مجهولة وهذه القوى الغيبية الزائدة المجهولة هى فى حالةسيدنا محمد هى الوحى من رب العالمين .

— « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى »

وهكذا نرى أن ما عجب منه المشركونفى بادىء الامر من بشرية الرسول هو فى الحقيقة سر الاعجاز وآية الرسالة ، ونحناليوم بعد هذا الدهر الطويل (١٤٠٠ سنة) نؤمن بسيدنا محمد رسولا من رب العالمين بسبب بشريته ، فما كان لانسان أن يؤثر على البشرية الى أبد الابدين مثل ما أثرسيدنا محمد صلىالله عليه وسلم، وما كان يجىء بكتاب يخلد على الدهر الا أنه حقـــاوصدقا **« وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى »** .

منهم :

ومتى وضح لنا أن الرسول لكى يكونمعجزا ومؤثرا فيجب أن يكون انسانا ، فقد بقى أن نوضـــح لـــماذا يجب أن يكون**(منهم)** أى ممن بعث اليهم ، ذلك أنه لو كان من غيرهم لجهلوا كل شىء عنه ، ولجازأن يذهبوا فى شأنه كل مذهب ، وانصرفوا بذلك عن جوهر الرســـالة الى الاشتغالبمعرفة حقيقتـــه ولظلت ظنـــونهم من أن الرسول قد يكون كاهنا أو ســـاحرا أوطامعا فى ملك ، قائمـــة وواردة ولكـــن معرفتهم الكاملة بسيدنا محمد وبكل ظروفههى التى جعلت هذه الظنون تتهاوى وتتبدد ولا يبقى أمامهم مناحى من التسليم بما يقوله سيدنا محمد من أنه يوحى اليه من

رب العالمين ، وهم يعرفونه الصادق الامين الذى يقول له أعدى اعدائه (أبو لهب) ((**ما جربنا عليك كذبا قط**)) ونحن اذا كناقد أفضنا في هذه النقطة فليس ذلك لان قريشا فقط كانت تعجب أن يكون الرسول الذى بعثه الله انسانا منهم ، بل ان ذلك ما يردده (كفار) عصرنا الحديث فكان لابدمن التوضيح .

ائذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد

الرجع ، الرد

بعيد : أى محال

واذا كان المشركون قد دهشوا أن يقوم الرسول من أنفسهم فقد كانت دهشتهم مما دعا اليه من البعث والنشور أعظم حتى لقد بلغت الى حد الانكار فقالوا ((**ذلك رجع بعيد**)) أى أن هذه العودة التى ينذرنابها مستحيلة ، فكيف يعود انسان مرة أخرى الى الحياة بعد انيصبح ترابا ولطالمالفت القرآن نظرهم الى أن ذلك ليس بعيدا عن قدرة الله وأشار الى المثل الواضح الذى يرونه بالعين ويلمسونه باليد وهو الارض حيث تموت فى فصل الجفاف موتافاذا نزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأثمرت ثم تعود سيرتها فتموت الى أن تأتى لها دورة الحياة من جديد ونحن نعلم اليوم ذلك ونعلم أن الحياة الخاصة بكل انسان وبكامل شخصيته انما تنشأ من كائنات (كروموزوم (١)) لا يمكن رؤيتها الا بأعظم المجاهر .

والمهم أن بعث الحياة من جديد ليست بأصعب من خلقها لاول مرة .

— قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ .

أما قدامى المفسرين فيقولون جميعا :أى ما تأكل الارض من أجسادهم فلا يضل عنا شىء حتى تتعذر علينا الاعادة . ونحن بطبيعة الحال لا نستطيع أن نخرج عما يقوله جمهرة المفسرين ولكننا نتساءل الايمكن أن نتأول ((ما)) هنا بمعنى ((لا)) أو ((**ليس**)) أى أن الأرض لا تنقص بمقدارذرة بموت من يموت ، وان الله سبحانه وتعالى يحفظ كل عناصر الانسان وهى مسجلة عنده ومحفوظة بحيث يعود بعث كل انسان من ((**التكوين**)) الخاص به .

أما لماذا نختار أن نتأول ((**ما**)) هنابمعنى ((ليس)) أو ((لا)) لان ذلك (لو جاز) فانه ينطبق على ما أصبح من حقائق العلم الثابتة وما أصبحنا نمارسه فى حياتنا اليومية من أن المادة لا تفنى فالحديد الخردة يعود جديدا ، وماء المجارى يمكن تنقيته بحيث يعود صالحا للشرب وهكذا ، ويكون القرآن الكريم قد نبه البشرية منذ أربعة عشر قرنا من أن الموتى عندما يموتون ،ويخيل للرائى أنهم قد تلاشوا أو بحسب تعبير المفسرين (أكلتهم الارض) فالقرآن ينبه الى أنه لا تنقص منهم ذرة واحدة واذا

---

(١) بل ان علماء الحياة ليزعمون أن مكونات الشخصية أجزاء دون ذلك يسمونها الموروثات .

كان هذا يحدث بالنسبة للانسان الحى فهويحدث كذلك لبقية الكائنات ، وهكذا تتسع فى كل زمان لقبول كل ما يكشف عنه العلمنرى من عظمة القرآن واعجازه كيف أن آياته خالدة بمجرد أن نفهم الكلمات فهماجديدا ، على انه اتباعا لمنهاجنا فى التفسير نؤثر ان نقف عند المأثور من اقوال السلف.

ــ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج

الحق : الجميع على أن الحق هنـــابمعنى القرآن ، وقيل الاســـلام ، وقيـــل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعندناأن هذه كلها صور الحق فهو سيدنا محمد الذى بعثه الله بشيرا ونذيرا ، وهذا حقونطق سيدنا محمد بالقرآن وهو حـــق ، وتعاليم سيدنا محمد والقرآن هى الاسلاموهو حق ، فالمعنى كله واحد وتكذيب الكفار قد انصب على سيدنا محمد صلى الله عليهوسلم والقرآن والاسلام .

فهم فى أمر مريج

مريج : اى مختلط وقالوا : **مختلف** .وقيل : **ملتبس** وقيل **فاسد** .

وأصـــل المرج الاضطراب والقلق ،يقال مرج أمر الناس ، ومرج أمر الدين .

وقد ذهب بعـــض المفسرين الى أنالمشركين والكفار اختلفوا فى أمر ســـيدنا محمد فقالوا عنه (كذا وكذا) ولكنا نؤثرأن يكون المعنى هنا أن الكفار عندما جاءهم الحق اختلطت عقولهم وضلوا عن طـــريقالحق والرشاد بدلا من اتباعه .

وما يجعلنا نستبعد فكرة أن المقصودبما وقع فيه المشركون من اختلاف حـــول شخصية سيدنا محمد من كونه ساحرا أوكاهنا . الى آخر ما قالوه من تراهـــات واكاذيب أن الاية تندد بهم وتصف موقفهمبالقلق والاضطراب .

فهل كان موقفهم يكون حسنا لو انهم اتفقوا على رأى واحد (كاهن مثلا) .

الحق أن وصف الكفـــار بأن أمرهممريج يجب أن يؤخذ على اطـــلاقه من أن أمرهم فسد واختلط واضطرب .

ــ أفلم ينظروا الى السماء فوقهمكيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والارض مددناها والقينا فيهـــا رواسىوانبتنا فيها من كل زوج بهيـــج : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من الســـماءماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقـــا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج.

١ ــ **فروج** : شقوق أو فتوق .

٢ ــ **رواسى** : اى الجبال الثابتـــةالتى تحفظ على الارض توازنها .

٣ ــ **بهيج** : حسن يسر الناظرين .

تبصرة : اى دليـــلا وتنبيهـــا لاولىالابصار .

منيب : راجع الى الله .

جنات : اى بساتين .

الحصيد : كل ما يحصد وهى أنواع الحبوب ويكون حب الحصيد هو بمثـــابة اضافة الشىء الى نفسه كما يقال : مسجدالجامع .

باسقات : طوال أو مستويات .

طلع : أول ما يخرج من ثمر النخل .

نضيد : اى متواكب قد نضد بعضهعلى بعض .

وفى البخـــارى ((**النضيد**)) الكفرىما دام فى أكمامه فاذا خـــرج من أكمامه فليس بنضيد .

كذلك الخروج : اى كـــذلك يبعثالموتى من القبور .

النظر فى ملكوت السموات والارض

وليس هناك ما يقربنا الى الله ويمـــلاقلوبنا ايمانا بخـــالق الكون ووحـــدانيته الا التأمل فى ملكوت الســـماء والارض ،ولذلك فقد نشأت الحضارات والاديان ، حتى قبل رسالة الرســـل الذين نعـــرفهمبكتبهم السماوية فى بلاد الشرق الاوســـط بعامة والمناطق الصحراوية بخاصة حيثتتجلى القبة السماوية بكل جلالها وبهائها ليلا أو نهارا صيفا وشتاء وحسب الانسانأن ينظر اليها لكى تحدث روحه عمن خلقها وأبدعها وليس من طريق الصدفة أن نشـــأالالحاد واستشرى فى عصرنا الحديث فى المدن التى لا ترى فيها الســـماء الا أياماأو سويعات على مر العام وحيث أصـــبح البشر يعيشونفى المصانع والمكاتب أبعـــدما يكونون عن الطبيعة وجمالها وما توحيه للانسان من حكمة وغدا سيعيشـون تحتالارض كالدود ويعملون كما تعملالحشرات فلا عجب ان حرم البشر (المتقدمون) كمايزعمون من نعمة النظر والتأمل ، وسيبقى الفلاح حتى فى أشد المناطق تخلفا أســـعدحالا واهنا بالا لانه ســـيظل يعيش مـــع الطبيعة ينظر ويتأمل (حتى رغم انفه) فىكتاب الكون الذى لا يمكن الا أن يهديه الى الله رب السماوات والارض ، ورب المطروالشجر والنخل ومدبر الارزاق .

ــ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيفبنيناها وزيناها وما لها من فروج .

تدمنا أن **(فروج)** من الناحيةاللغويةتعنى شقوقا أو فتوقا ، ولكننـــا نؤثر أن نفهمها وهى تتحدث عن دقة صنع السماءعلى ضوء المماثلة . ((**الذى خلق ســـبع**

سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن منتفاوت ! والمعنى المشترك هو الدقة والنظام والتوازن الذى يقوم عليه الكون ، ليستالسماء (وهى كل ما علا الانســـان) الا الكون فى جلاله وكماله ، والماديون يتحدثونعن الجاذبية وأنها هى التى تبقى الكون بنجـــومه وكواكبه ومجـــراته وأقمـــارهوشموسه ،ويتصورون أنهمتى قالوا كلمة الجاذبية فقد حلوا الاشكال وانتهى الامر ،وليس عندنا مانع أن نســـتعمل كلمـــة الجاذبية ، ولكن أى شىء هى ، ومن الذىأودعها الخاصية التى تعمل بها ما تعمل ، لا مناص من التسليم بوجود اله حى حكيممدبر هو الذى صـــاغ الكـــون على هذه الاسس وليس هذا كلامنا ، بل كلام أعظمعلماء الطبيعة الذى اكتشف قانونالجاذبية بالذات وهو نيوتن فهو الذى قال هـــذاالكلام فما أعجب أن يتصور مادى أحمـــق أن قانون الجاذبية يغنينا عن الايمان بالله حيث زاد مكتشف القانون ايمانا بالله ، مصداقا لقول القرآن الكريم من أن النظرالى السماء وكيفية قيامها (بنيناها) يؤدى بذاته وبغير حاجة الى شىء آخر الى الايمانالعميق .

« وزيناها » ليقل المتقولون عن عالمالفضاء ما يقولون ، وليصعد الانسان الى القمر والمريخ ، وليحدثونا عن طبيعة القمرالصخرية ، أو عن طبيعة الكواكب والنجوم والشموس ، فان ذلك كله لن يغير الحقيقةالواقعة وهى أن الناظر من فوق ســـطح الارض الى هذه الاجرام السماوية ، سيظليفتتن بجمالها وأنها تزين السماء وتبـــدو كالمصابيح ، وما عليك الا أن تزور بعـــضالمناطق الجبلية ، (كجبل لبنان مثلا) لترى كيف تختلط مصابيح البيوت ، بمصـــابيحالسماء ، حيث لا تفرق الا بصعوبة أحيانا (اذا كنت تنظر من سفح الجبل) .

أين تنتهى مصـــابيح الارض لتبـــدأمصابيح السماء ، فلتكن الكواكب والنجوم ما تكون ، وليكن القمر ما يكون فسيظلالىأبد الابدين يغمر الارض بنوره ، وبالتالى فسيظل هو والكواكب والنجوم بهجة ومتعةلعين الانسان الناظر اليها وبالتالى زينة .

والارض مددناها وألقينا فيها رواسى

وفى مواجهـــة الكون يقف الانســـانويعيش على الارض وهى مبسوطة أمامه ابدا ، ممتدةأمامه امتدادا بغير نهاية ، لان الأرض كرة ممتدة ابدا ، لا تعرف لها طرفا .

والقينا فيهـــا رواسى

لم يهتد العلم الا أخيرا جدا الى أنالجبال تلعب دورا هاما فى المحافظة على توازن الارض .

رسى الشىء رسوا ثبت اصله ورسخفهو راس جمع راسى وراسية وأرســـاه جعله ثابت الاصل راسخا .

ولانقل الان ما جاء فى تفسير المنتخب :

قال الخبراء : القشرة الارضيةمرتفعة فى مواضع معينة هى الجبال ومنخفضة فى مواضع أخرى هى قيعانالمحيطات وتتوازن أثقال هذه الاجزاء بعضها مع بعض ومن قدرة الله وحكمتهان أوجد هذا التوازن .

وانبتنا فيها من كل زوج بهيج :

انتقل الحديث الان الى معجزة النبات بأزاهيره وورده ومختلف ثماره . وقد تحدثنا طويلا بمناسبة سورة الذاريات ،كيف أن المفسرين القدامى كانوا يفسرون كلمة ((**زوج**)) عندما يرد ذكرها مقترنةبالنبات أنها تعنى النوع فيقول القرطبى على سبيل المثال : من كل زوج أى من كلنوع ((**بهيج**)) أى حسن يسر الناظرين (انتهى كلام القرطبى) أما نحن فقد أصبحنانفهم من كلمة ((**زوج**)) معناها الصحيح (أى الذكورة والانوثة) وذلك بعد ان ثبتلنا أن النباتكالحيوان كالانسانبل والجماد يتألف من الذكر والأنثى .

ــ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب :

وليست هذه الآيات البينات التىذكرت وسوف تذكر الا الدليل على قدرتنا يبصره ويعيه كل عبد مؤمن تقى يعلم انهعائد وراجع الى الله .

ــ ونزلنا من السماء ماء مباركافانبتنا به جنات وحب الحصيد :

من السماء (أى من السحاب ، ماء مباركا ، أى كاير البركة فأحيا هذا الماء الارض بعد موتها وانبت فيها الجنات أىالبساتين والحدائق ، أى شتى صنوف الفواكه والخضروات ، وذلك مفهوم من الاشارة بعد ذلك الى حب الحصيد ، وهو كل ما يحصد من الحبوب كالغلال والشعير وخلافه .

ــ والنخل باسقات لها طلع نضيد :

وقد أشرنا فيما سبق الى معانى كلمات هذه الاية ، ونلاحظ ان القرآن قد أفرد نخلة البلح واختصها بالذكر ، فلم يدرجهافى سلك الفواكه أو الحبوب ، ومازلت اذكر كيف ان زعيم بلد عظمى اراد أن يتفاخرويتبه الى استغناء بلاده عن العرب فقال ان بلاده (التى يبلغ حجمها سدس مساحة الدنيا كلها وتشتمل على مختلف الاجواء والاراضى الصالحة لكل شىء مازلت اذكرانه قال : « اننا ننتج كل شىء نستورده من بلاد العرب ما عدا البلح) .فالنخل والبلحبخاصة شجر مبارك اختص بهالله عز وجل « بلاد العرب»(١) .

---

(١) هذا لا يعنى أنه لا يمكن زرع النخل هنا وهناك والمهم أن البلاد العربية هى التى اختصت بالنخل المثمر بلحا باعتباره محصولا دائما .

– رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج :

واذا كان مجرد نزول الماء من السماء لضمان حياة البشر الذين لا يحيون فضلا عن أن يرزقوا الا من خلال الماء فهو دليل وآية على البعث حتى يحيى الماء الارض بعد موتها (كذلك الخروج) اى البعث .

– كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الايكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد .

تتحدث الاية عن بعض امثلة للامم والشعوب التى كذبت برسلها .
وبالحق الذى جاءوهم به .

ولقد تحدثنا من قبل وسوف نعود للتحدث فى مناسبات اخرى عن عاد وثمود وفرعون وقوم نوح ونقصر حديثنا اليوم عن أصحاب الرس وأصحاب الايكة وقوم تبع .

اختلف المفسرون حول اصحاب الرس من هم :

أصحاب الرس :

جاء فى معجم الفاظ القرآن الذى أصدره مجمع اللغة العربية وهو بحق من أكرم اعمال المجمع وأعظمها شأنا :

الرس البئر المطوية والحفر والدفن وقيل فى الرس أقوال ، منها انها قرية باليمامة يقال لها فلج كذب أهلها نبيهم ورسوه فى بئر اى رموه حيا فيها حتى مات . وقيل الرس الاخدود وقيل الرس ما بين نجران على اليمن الى حضرموت ، وهذا الذى أجمله مجمع اللغة العربية قد فصله ابن كثير ، وقد اختار ابن جرير الطبرى ان يكون اصحاب الرس هم اصحاب الاخدود ، ونقل فى رواية عن ابن عباس : انهم جماعة من ثمود .

ونحن بطبيعة الحال لانستطيع أن نرجح رأيا على رأى والمهم أنهم من بعض الأقوام الذين كذبوا برسلهم وانبيائهم يشير الله سبحانه وتعالى اليهم ليحذر مشركى قريش ان تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء من ناحية وليسرى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمنوا معه من ناحية أخرى . ان العاقبة دائما للمتقين وان الحق لابد أن يعلو فى خاتمة المطاف .

أصحاب الايكة :

أما أصحاب الايكة فالجمهور على أنهم قوم سيدنا شعيب وسترد علينا قصته بتفصيل أكثر فى بعض السور المقبلة . والايكة هى الشجرة الملتفة وكانت مساكن قوم شعيب كثيفة الاشجار .

قوم تبع :

تبع اسم يطلق على ملوك اليمن كمايطلق اسم فرعون على ملوك مصر وكسرى على ملوك الفرس وقيصر على ملوك الروم‌ولذلك لا نأخذ بما قال به بعض المفسرين حيث حددوا اسم ملك اليمن المقصود وانه‌أبو كرب الحمـــيرى وتبقى القضـــية على عمومها من أن بعض اهل اليمن (قوم تبع)كذبوا برسول أرسل اليهم فحاق بهم غضب الله وهذا يفهم من الاية التالية :

كل كذب الرسل فحق وعيد :

أى ان أصحاب الرس واصـــحاب‌الايكة وقوم تبع ، شأنهم شأن قوم نوح وعاد وثمـــود وفرعـــون واخـــوان لوط « **كل كذب الرسل فحق وعيد** » أى حـــل بهم غضب الله .

ـ أفعيينا بالخلق الاول بل هـــم فى‌لبس من خلق جديد . ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب‌اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظمن قول الا لديه رقيب عتيد .

حرف القـــاف :

واذا كان حرف القاف الذى افتتحت‌به السورة الكريمة كان يظهر على قلة فى الايات الاولى ، فهو هنا يتردد بكثرة غالبة‌من مثل قوله « **يتلقى المتلقيـــان** » بحيث تتقعقع القافات وتتجاوب ويرتفع ايقاعهاويتناغم ، الامر الذى جعلنـــا فى بعـــض الاوقات نتصور ان الحرف الهجائى المفردفى أول السورة يشير الى الحرف الخاص الذى سيكثر تردده فى السورة كما يشير‌المفتاح الموسيقى فى أى نوتة موسيقية لاى نغمات السلم الموسيقى سيكون هوالغالب،ولكنا كما قدمنا ان ذلك اذا كان يصـــلح لتفسير بعض الحالات كما هو الشأن فى‌هذه السورة وفى سورتى (ص.و.ن) فهو لا يصلح تفسيرا لبقية‌الاحوال ولذلك رضينابقول من قال أن هذه الحروف علمها عنـــد الله .

ـ أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من‌خلق جديد :

أفعيينا : أى هل عجزنا **لبس** : أى‌شك .

يذهب الرازى وبعض المفسرين الى‌أن الاية تشير الى خلق السموات والارض قد سبق خلق الانسان وان من لم يعجز عن‌خلق السموات والارض لن يعجز عن خلق الانسان ، ولكن ما عليه الجمهور هو ان من‌خلق الدنيا بسمائها وارضها وحيوانهـــا وانسانها أول مرة لن يعجز عن اعادة خلقهاثانية ، بل وثالثة ورابعة الى ما شـــاءت ارادته ان يكون .

وقد ذكر القرآن هذا الامر بصراحة أكثرمن مرة :

— وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيدهوهو أهون عليه .

— وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قالمن يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم .

القدرة فى الابداع الاول :

وفى حياتنا اليومية الوف الشـــواهدعلى ذلك ولكننىاكتفى بذكر شاهدينشاهد من الفن وآخر من الصناعة الحديثة .

فأما شاهد الفن فان الامر يحتاجالىعبقرية وموهبة غير عادية لكى ينحت اى تمثال أو ترسم أى صورة أو تؤلف اىقطعة موسيقية ولكن القطعة الفنية لا تكاد تخلق حتى يستطيع الكثيرون أن يصـــنعوامثلها وان يقلدوهـــا ، وكذلك الحـــال فى الصناعة فان ما يحتاج الى قدرة غير عاديةوالى زمن ومجهود هو صنع النموذجالاول من كل شىء ابتداء من المسمار حتى أعقدالصواريخ ، اما بعد ذلك فالمسألة تتحول الى مسألة روتينية تتولاها الآلات فالخالقالاول هو العملية الاشق ومن قدر عليها ، فهو على تكرارها اقدر ومن هنا فلا يحق لمنيؤمن بالله وبأنه خالق هذا الكون ان تكون لديه اى ذرة من شك (لبس) فى البعثوالنشور .

— ولقد خلقنـــا الانســـان ونعـــلمما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد :

الوسوسة : حديث النفس — الكلامالخفى .

حبل الوريد : الاوعية الدموية تبدأمن القلب بشريان كبير ووريد كبير ، هو المشار اليه .

رقيب : الشاهد والحافظ

عتيد : الحاضر الــذى لا يغيب —العتيد هو الشىء الحاضر المهيأ ومنه قوله تعالى : « **واعتدت لهن متكئا** » .

قدرة الله وعلمه تغشى الانسان وتتخلله :

الاية دالة على أن قـــدرة الله الذىخلق الانسان تعلم كل أسرار الانسان حتى خواطره ووساوسه .

وقد تحرج بعض المفسرين عن مدلول الاية من شدة قرب الله للانسان وذلك

خوفا من الوقوع فى شبهة الحلول ولذلكفقد أولوا المعنى على أن المقصود به هــو الملائكة ، ولكننا نرى أن الملائكة قد ذكرتفيما بعد على سبيل النص .

« **رقيب عتيد** » فعــلى من يريد أنيؤول « **ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** » فليكن ذلك بقدرة الله وعلمه ، اما قــربالملائكة الشديد من الانسان فهو لا يحتــاج الى تأويل لانه نص .

ــ اذ يتلقى المتلقيان عناليمين وعنالشــمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد .

الملــكان :

وكل الله بكل انسان ملكين (رقيبوعتيد) احدهما ملك الحسنات . ومكانه يمين الانسان واليمين من « اليمن » بينمايحتل ملك السيئات جانب الشمال (**من الشؤم**) من الانسان اى على يساره (**ربنالا تجعلنا من أهل الشمال**) والقرآن صريح بما لا يحتمل لبسا ولا تأويلا فى انه أى الانسان « **ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد** » .

واللفظ بمعنى الكلمة مأخــوذ من لفظالطعام بمعنى اخراجه من الفم ويكونمعنى الايات ان الله عز وجل قد أحاطت قدرته وأحاط علمه بكل ما يصدر عن الانســان من خاطر يخطر على ذهنــه وتحــدثه بهنفسه ، فضلا عما يصدر منه من اقــوال أو يقوم به من اعمال ولكن الله سبحانهوتعالى فضلا منه وكرما رأى ان لا يحاسب الانسان الا على قدر فهم الانسان وعقلهفوكل به ملكين يسجلون ويحصــون حتى يرى الانسان بنفسه كشف اعماله واقوالهطول حيــاته ، وذلك فى يوم الحســاب والدينونة يوم القيامة .

ــ أقرأ كتابك كفى بنفســك اليوم عليكحسيبا .

فالملائكة اذا كانت تكتب ، فليس ذلكلان الله فى حاجة الى هذه الكتابة ، ولكن الكتابة للانسان .

ــ ونخرج له يوم القيامة كتــابا يلقــاهمنشورا .

كيف تقيد الحسنات والسيئات

وقد رويت كثيرا من الاحاديث حول كتابة الحسنات والسيئات نختار لك منهــا حديث أبى أمامة قال : **قال رســول اللهصلى الله عليه وسلم « كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب الســيئات علىيساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فاذا عمل حسنة كتبها صــاحباليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعاتلعله يسبح أو يستغفر » .**

وروى عن أبى هـــريرة وانس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((**ما من حافظين يرفعان الى الله ما حفظا فيرى فى أول الصحيفة خيرا وفى آخرها خيرا ، الاقال الله تعالى للملائكه اشـــهدوا أنى غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة**)) .

فلنكثر اذن من عمل الخير حتى يصفح الله عن سيئاتنا ، (**وما اكثرها**) فـــان الحسنات يذهبن السيئات .

— وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد .

مفـــردات :

سكرة الموت : اى غشـــية المـــوت وغمرته وشدته . والاصـــل فى الســـكر ما يصيب العقل من خلل نتيجـــة تنـــاول ((الخمر)) .

تحيد : اى تميل عنه وتفر منه ، يقال: حاد عن الشىء يحيد حيودا ، مال عنه وعـــدل .

حديد : هنا بمعنى القوى النافذ .

— وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد .

وبعد أن ينبه القرآن الكريم الى أن هذه الدنيا ليست فى حقيقتها الا دار ابتلاء واختبار ، وان الملكين الموكلين به يرصدان درجاته ايجابا وسلبا . يصل الى نهاية كل حى بالموت وهو العتبة الى الحياة الاخرة (بالحق) وقد وصف القرآن مجيىء الموت أنه الحق ولطـــالما قلت فى مباحثى وفى كـــلما اكتب عن الموت أنه هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى هذه الدنيا بالنسبة لاى كائن حى ، الحقيقة التى يباشرها بنفسه . لقد مضى على سير البشرية قرون وقرون دون أن يفلت كائن واحد من الموت ، يستوى فى ذلك المشهور والمغمور والامير والحقـــير والملك والصعلوك ، الشرير والخير على السواء والمؤمن والكافر، ولعل هذه الحقيقة وحدها هى الدليل القاطع على أن الانسان قد وجد فى هذه الدنيا لحكمة يختص بعلمها خالق الانسان وأن وجودنا فى هذه القضية ليس الا بداية لها ما بعدها .

سيبقى الموت الى أبد الابدين :

ويحلو لاغرار القرن العشرين أنهم يتصورون أنه سيكون بقـــدرة العـــلم (والتقدم !) أن يتغلب على الموت فى يوم من الايام ويحدثونك عن التليفزيون والطيران والصعود الى القمر كآية على التقدم العلمى الذى سينتهى بالتغلب على الموت فى يوم ما مهما طال وبعد هذا اليوم .

وقد اعتدت أن اعجب لغفلة الانسان واستعداده لان يضـحك على نفسـه فى موضوع الموت وانه هو بالذات لن يموت ،حقا قد يقول بلسانه ((**أنه سيموت**)) ولكنه يبعد هذه اللحظة ، ويظل يتجاهلها ويتجاهلها الى أن تقع بالفعل (**ذلك ما كنت منه تحيـد**) .

ويقول بعض المفسرين أن الخطاب هنا موجه للكافرين ، ولكن الجمهور على أن الخطاب موجه لبنى الانسان كافة ، وهوما يقوم عليه الدليل فى كل وقت وان من رغبة كل انسان فى أن يعيش أبدا ، ونعود الى ما أشرنا اليه من تعـلق الانسـان المعاصر بالفرار من الموت بحجة التقـدم العلمى والتكنولوجى الذى لابد أن ينتهى بالتغلب على الموت ، او على الاقل يطيل عمر الانسان الى مائة سنة أو يزيد كحد ادنى .

وليس ذلك كما قدمت الا احد انواع الغفلة ورغبة الانسان فى أن يضحك على نفسه ، ذلك أن هذا التقـدم التكنولوجى والصعود الى القمر هو الدليل القاطع على ان الموت سيظل هو الموت لن يسـتطيع الانسان أن يدرك من أمره شيئا فى المستقبل القريب أو البعيد والبعيد جدا ، فما أعظم الانجاز الذى حققه الانسان منذ عوم أول جزع شجرة فى الماء الى أن بنى عـابرات المحيط ، وما أطول الشقة منذ طير الانسان فى الهواء قطعة من الورق الى أن صـنع الطيارة والصاروخ ، وهكذا بالنسبة لاى اختراع سما أصبح يزحم الدنيا ويكاد يغير وجهها ، ومع ذلك فان هذا التقدم العلمى الساحق ، يقف عاجزا كالابله أمام سر الموت ، لا يستطيع أمامه الا أن يقر بالعجز المطلق ، تماما كأى انسان جاهل وبدائى منذ الوف السنين .

ولطالما سجلت فى مثل هذا المقـام آخر نوادر الموت التى صعقت النـاس بالعجز ، فأشرت الى زعماء تتمنى الملايين حياتهم فلم يطل ذلك فى حياتهم دقيقة واحدة . وآخر ما طالعنا من هذا القبيل ، كيـف أن اغنى أغنياء العالم مات وحيده ولم تغن ملايينه عنه شيئا .

أما حكاية اطالة العمـر الى مائة سنة ، فليس الامر فى حاجة الى علم أو تقدم ، فقد كان الناس فى القديم يتجاوزون المائة سنة ، ولا يزال من آثارهم معمرون فى المجتمعات الجبلية والريفية والصحراوية (القوقاز فى أمريكا من الهنود وفى مصـر فى الواحات) .

أما قبل ذلك فالقرآن يحدثنـا عن سيدنا نوح الذى عاش قرابة الف سنة ، فعمر الانسان الحديث فى تناقص وليس فى زيادة كما يتصور البعض . وما أكثر من أصبحوا يموتون فى المجتمعات (المتقدمة) بالسكتة القلبية ، والذبحة الصـدرية ، والجلطة المخية ، مما كان لا يقع فى القديم فاذا وقع ، كان من الندرة بحيث لا يذكر ، على خلاف ما هو حاصل اليوم فى الطبقات (الممتازة) والمجتمعات (التقدمية) .

ان للموت لسكرات :

وعلى ذكر سكرة الموت التى تقع فى بعض الاحوال فقد اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه أن يكون ممن يعانون سكرات الموت ليعلمنا جميعا أنه كأس لا مناص من تذوقه ((**انك ميت وانهم ميتون**)) .

جاء فى صحيح البخارى : عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه وكدة (أو علبة) فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه ويقول لا اله الا الله)) ان للموت سكرات » **ثم نصب يده فجعل يقول : فى الرفيق الاعلى حتى قبض ومالت يده .**

سيدنا ابو بكر الصديق :

وحدثتنا السيد عائشة عن والدها أبى بكر عندما حضرته الوفاة قالت : لما احتضر ابو بكر أرسل الى عائشة فلما دخلت عليه قالت هذا كما قال الشاعر :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى   اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف ابو بكر عن وجهه وقال رضى الله عنه :

« ليس كذلك ولكن قولى : **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد .**

ونفخ فى الصور : يعنى فى يوم القيامة، الذى حذر الله سبحانة وتعالى منه البشر وانه آت لاريب فيه وأنذر بعقاب كل مسىء.

وكل احوال يوم القيامة من الغيبيات التى علينا أن نؤمن بها دون أن نحاول تصورها فضلا عن محاولة معرفة كنهها وكل ما نحن مأمورون أن نؤمن أن سيكون ثمة بعث ، وأنه سيتم بارادة الله .

وفى هذه السورة التى نحن بصددها تقابلنا ثلاث اشارات للحالة التى تسبق البعث ، وهذه الاحوال الثلاثة هى :

- **النفخ فى الصور**
- **يوم يسمعون الصيحة بالحق**
- **يوم يناد المناد من مكان قريب .**

فهناك نفخة وهناك صيحة ، وهناك نداء والله تعالى أعلم فهذه كلها تعبيرات عن شيء واحد أو أشياء متفرقة ولذلك فنحن لا نقر ما ذهب اليه بعض المفسرين من محاولة ترتيب هذه الاشياء وأيها يسبق الاخر ، ونفوض العلم لله .

— وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد

وتلك احدى أحـوال يوم القيامة ،حيث تجىء كل نفس يصحبها سائق وشهيد وقد اختلف فى السائق والشهيد فقـال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم ، الايدى والارجل ونرجح أن يكون ابن عباس قد أستلهم ذلك من قول القرآن الكريم .

— يوم تشهد عليهم السـنتهم وأيديهـم وأرجلهم

أما أبو هريرة فيقول السائق الملك والشهيد العمل .

وقال آخرون السـائق قرينهـا من الشياطين . أما مجاهد فيقول السـائق والشهيد ملكان .

وهو ما نرجحه نحن فالايات السابقة تحدثنا عن الملكين اللذين يحصـيان على الانسان أعماله ، وسماهما أو بالاحـرى وصفهما بأنهما ((**رقيب عتيد**)) فجاز أن يكونا هما أو من مثلهما ((**سائق وشهيد**))والله تعالى أعلم فكل هذه أمور غيبية كما قدمنا فمن العبث محاولة التحديد وعلينـا أن نقف عند حد النصوص .

— لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك

كشفنا عنك غطاءك ، أى رفعنا عنك الحجاب

والسؤال الذى تثيره هذه الآية . هو من هو المخاطب بها ، وقـد ابعـد أحد المفسرين فقال أن المخاطب بها هو سيدنا محمد والمعنى : لقد كنت يا محمد فى غفلة عن الرسالة فى قريش ابان الجاهليـة ،وعندنا أن ذلك افراط فى التأويل ليس له سند من النص أو مما سبقه أو لحقه أما ابن عباس والضحاك فيقولان أن المراد به المشركون ، أى كانوا فى غفلة من عاقبـة أمرهم . ولكن جمهـور المفسرين وعلى رأسهم ابن جرير الطبرى ووافقه ابن كثير على أن الخطاب فى السورة كلهـا موجـه للانسان بعامة ، كذلك كان الامر بالنسبة للموت (**ذلك ما كنت منه تحيد**) وهو هنا بالنسبة لأحوال يوم القيامة ومن من الناس يرى ما سوف يجرى فيها رأى العين ، وانما سوف تتحقـق رؤيا العـين ، يوم القيامة . ((**فبصرك اليوم حـديد**)) اى قوى ونافذ ونزيد عليها ((**معاين**)) أى يرى ما كان محجوبا عنه وتكون الاية بمعنى قول الرسول صلوات الله عليه وسلامه ((**الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا**))والاستثناء النادر لا حكم له فمن البشر من يدرك بقلبه وروحه أحوال يوم القيامة ، ولكن الحديث عندما يوجه فهو يحـكى عن الاغـلب والاعم .وما أكثر الغافلين فى دنيانا ، بل المعرضين عن يوم القيامة وأحواله .

— وقال قرينه هذا ما لدى عتيد .القيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله الها آخر فالقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا

ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد . يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد . وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد .

عقيد : معد محفوظ و (حاضر) مهيأللعرض .

عنيد : معاند مجاف للحق .

مناع للخير : يحاول البعض أن يفسرها بأنه يعنى منع الزكاة وكل حق واجب . ونحن نؤثر الأخذ بمدلولها وهو منع الخيربكل اشكاله وضروبه .

معتد : ظالم فى منطقه وسيرته وكلأموره .

مريب : شاك فى الله وفى وحدانيته كما دلت على ذلك الاية التالية .

وأزلفت : قربت وأدنيت .

أواب : رجاع الى الله بالتوبة ، وقالابن عباس وعطاء : الأواب المسبح من قوله يا جبال أوبى معه .

منيب : مقبل على الله بالطاعة .

— وقال قرينه هذا ما لدى عتيد .

اى أن الملك الموكل بالانسان يقول :هذا ما عندى من كتاب عمله معد ومحفوظ وهو حاضر . فيصدر الله عز وجل أمره بأنيطرح فى النار .

القيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله الها آخر فالقياه فى العذاب الشديد .

أى أن يقذف فى جهنم الكفرة والمعاندين فى الحق ، ومن سمات أهل النار فى الدنيا انهم يمنعون الخير عن أن يصل الىالناس ، وقد قدمنا أن البعض يريد أن يحدد نطاق منع الخير بأنه منع للزكاة المفروضة وبقية الواجبات ، وأضفنا اننا نؤثر ان نطلق المعنى الى آخر ما يصل اليهتعبير (مناع للخير) من حدود ، فقد ورد هذا التعبير بنصه فى سورة ((**القلم**))((**مناع للخير معتد أثيم**)) وقال بعض المفسرين عندها ، أن المقصود بها هوالوليد بن المغيرة وغنى عن البيان أن الوليد ابن المغيرة لم يكن القرآن يقرعه لأنه يمنع الزكاة لأنه كان مشركا من ناحية ، ولأن تشريع الزكاة لم يكن قد شرع بعد .

وقد حمل هذا التطابق بين النصين الى أن يقولوا هنا أيضا ، أن الاية نزلت فى حق الوليد بن المغيرة وقد قلنا هنـــاك ونقول هنا أن مناع للخير موجود دائمـــا وفى كل مكان وسيبقى موجـــودا الى آخر الدهر ، فليحذر أى منا أن يكو نمن مانعى الخير ، واذا كانت القاعدة ((**أن الدال على الخير كفاعله**)) فكذلك يجب أن نفهم أن مانع الغير من فعل الخير آثم كما لو كان هو بذاته المانع والمانع هو اسم الفاعل من الفعل « منع » ومنعه الشيء ومنعه من الشيء وعن الشيء حجبه عن الشيء وحال بينه وبينه فاياك ثم اياك أيهـــا القارىء الكريم أن تقف عقبة فى ايصال الخير لأحد ، وان كان من رحمة الله بنا أن جعل العقوبة على مناع الخير ، أى الذى أصبح منـــع الخير عادة له وحرفة .

قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد .

ارجح الأقوال أن القرين فى هذا الموضع هو الشيطان .

جاء فى القرآن الكريم :

ــ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا .

ويكون المعنى أنه وقد وصلت الأمور الى عالم الحقيقة وانتهى دور الشـــيطان وحانت ساعة الدينونة فقـــد بدأ كل من الانسان ومن الشياطين ومن الجن يتنصل من جرائمـــه وآثامه ، وتحـــكى الاية أن الانسان الذى حقت عليه الشقاوة يحاول أن يدافع عن نفسه بأن الشيطان أغواه ، والذين يرون أن ((**القرين**)) هنـــا لا تزال تعنى ملك السيئات يقولون أن المعنى هنا أن الانسان الخاطىء يتشكى من أن ملك السيئات أعجله وأسرع فى تسجيل السيئات ، ولكن السياق أقرب الى أن يكون القرين هو الشيطان ، حيث سيكون الرد الالهى هو زجر المتكلمين على ما سوف نرى .

ــ ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد .

يدفع (**القرين**) عن نفسه تهمة أنه كان هو الذى ضلل الكافر وصرفه عن اتباع الحـــق ، (ما أطغيته) وانمـــا فعل ذلك باختياره ومن تلقاء نفســـه ، وأنا برىء منه .

وهذا الموقف من الشيطان وتبرئة من الكافر والفاسق قد تكرر فى القرآن .

ــ وقال الشيطان لمـــا قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ... الآية) .

ولعل هذه الآية ترجح قول من قال ان القرين هنا هو الشيطان ويعزز ذلك قوله تعالى عقب سماعه شكوى الكافر من أنه كان ضحية قرينه وانه هو الذى أضله الشيطان .

لا تختصموا لدى وقد قدمت اليــكمبالوعيد ، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد .

ويزجرهم الله عز وجل ويكلفهم بأن يكفوا عن هذه المخاصمة فى حضرة العلى الكبير ويذكرهم بأنه أرسل رسله وأنبياءهليبصروا الناس ويحذروهم وقد فات الان أوان الاعتذار وحانت ساعة العقاب الذىأنذرت به الرســـل المعاندين والــكافرين والمارقين .

ـــ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد .

والله سبحانه وتعالى اذ يعاقب المذنبين والكافرين والظالمين فهـــو لا يظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون .

وقد سبقت كلمة ربك ((**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا !** .

وعبيد الله هنا تشمل الانس والجن .

مبحث لغوى :

وحول آية « القيا » فى جهنم أثار بعض اللغويين مباحث فى أن الخطاب فى حقيقته موجه الى فرد وانما جاء بصيغة**التثنيـــة** لان ذلك ضرب مـــن الفصـــاحة واستشهدوا بشعر **أمرىء القيس :**

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .

وقوله :

خليلى مرا بى على أم جندب .

وقول شاعر آخر :

فان تزجرانى يا ابن عفان أزدجر .

وقال نحاة آخرون غير ذلك .

وعندنا أن هذه كلها فروض وخوضفى الغيبيات فمن أدرانا أن لا يكون الخطاب موجها الى اثنين فى الحقيقة ، خاصة وقدأشـــارت الآيات السابقة الى ((**ســـائق وشهيد))** .

يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد .

للمفسرين من السلف اقوال كثيرة بصدد هذه الاية وفى صحيح البخـــارى أحاديث خاصة بها ، وقد أورد ابن كثيركعادته كل الاحاديث التى تتصل بالموضوع

فليرجع اليها من شاء البحث والاستقصاء ،أما نحن فنكتفى بما استقر فى روعنا من الاية فهى تتضمن الوعيد والتهديد ، ولعلبعض سفهاء المشركين (وكلهم سفهاء) قد تندر أو استبعد أن تتسع جهنم لكل هذاالعدد الكبير من الكفرة والعصاة ، فجاءت هذه الاية لتقول أن جهنم مهما ألقى فيها ،فستظل تتسع لغيرهم ، ويكون التعبير كناية عن شدة هول جهنم أعاذنا الله منهاواياكم وجعلنا ممن عناهم بقوله :

وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد .

وقد قدمنا ان أزلفت بمعنى قربت وأدنيت ويؤكد هذا المعنى آخر الآية « **غير بعيد** » وذلك كله يعنى أن الجنة لم تعدبالنسبة للمتقين حلما أو خيالا أو منالا بعيد التحقيق ، وانما أصبحت حقا وواقعا غيربعيد عنهم وانما هو فى متناول أيديهم .

— هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب .

الوعد الحـق :

ودخول الجنة هو ما وعد به الرحمنعباده المؤمنين والمتقين ، وقد ذكرنا أن الاواب هو من يذنب ثم يذكر الله فيتوبويستغفر لانه انما يفعل ذلك « **خشية الرحمن** » ولقد تحدثنا فى مناسبات سابقةعن أن خشية الله هى رأس العبادة فكل ما يطلبه الدين منا كى ننال السعادة فىالدنيا والاخرة معا هو أن تمتلىء قلوبنا بخشية الله فنراقبه فى كل أعمالنا صغيرهاوكبيرها ولو فعل الناس ذلك لصلح حال الدنيا ، ولما استشرى فيها الظلم والفسادوالثورات والحروب ، فان ذلك كله ليس الا النتيجة الحتمية لعدم الخوف من الله ، ومن أراد أن يعلم بأى سر ساد المسلم الأوائل فما عليه الا أن يتدبر هذه الحكاية ،فقد روى عن سيدنا عمر رضى الله عنه ، أن أحد الأعراب قال له يوما اتق الله ياعمر ، فانتهره من كان حول سيدنا عمر ، وقالوا له « أمثلك يا رجل يقول لامير المؤمنين اتقالله » واشتدوا على الرجل وأغلظوا له ، ولكن سيدنا عمر بكى وطلب منهم أن يكفواعن الرجل وقال لهم « دعوه فلا خير فيكم ان لم تقولوها ولا خير فينا اذا لمنسمعها » .

وتنسب بعض الروايات الواقعة الى غيرسيدنا عمر .

وقد اعتدت أن أقول دائما ان جوهرالواقعة هو المهم وهو يعبر أصدق تعبير واكمله عن حياة المسلمين فى صدر الاسلاموكيف استطاعوا ان يسودوا العالمين بتقواهم .

وقد كانت كلمة « **خف من الله** » تجرى على ألسنة الناس باعتبارها من أشد أنواع الزجر ، وكانت تحدث أثرها ومن هناجعل الله سبحانه وتعالى ان من أخص

خصائص المؤمنين التى استحقوا الجنة من أجلها هى أنهم كانوا « **يخشــون الرحمن بالغيب** » وبالغيب اى بدون أن يعاينوه أويشاهدوه وتلك هى ميزتهم ، اذ لو كان خوفهم بعد معاينة النار وأهوالها لـكان خوفهم أمرا محتوما .

وجاء بقلب منيب :

جاء فى القرآن فى موضع آخر « **الامن أتى الله بقلب سليم** » ومن هنـــا قال بعض المفسرين : منيب بمعنى سليم ، وقدقدمنا أن « وجاء بقلب منيب أى مقبل على الطاعة » .

وأناب الى الله انابة فهو منيب رجع اليه وهو مأخوذ من النوبة كأن العبـــد برجوعه الى الله سبحانه دخـــل فى نوبة الخير والحق وكان ســـيدنا ابراهيم عليه السلام منيبا يرجع الى الله فى أموره كلها .وقال بعض المفسرين : القلب المنيب هو القلب المخلص ، وهو ما نختاره نحن فليس أجمل من أن يكون عمل الانسان خالصا لوجه الله غير مشوب بشائبة النفاق .

ـــادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود :

وينادى المنادى داعيا المؤمنين المتقين أن يدخلوا الجنة التى وعدهم بها الله فى سكينة واطمئنان (سلام) مبشرا اياهم أنهم خالدون فى النعيم الى الأبد .

دار السلام :

ولعل أكمل أسماء الجنة هو دار السلام ، وقد صحبت كلمة السلام الجنة فى شتى أحوالها ، فهاهم المؤمنون يدعون الى دخولها فى سلام ، وتحية المؤمنين فيها سلام ، ولا يسمعون فيها الا قيلا ســـلاما سلاما ، والسلام هنا هو الطمأنينة والامن من كل كرب أو شدة أو حاجة .

وهكذا حرص القـــرآن الـــكريم أن يغرس فى نفوس المؤمنين حب السلام باعتباره المثل الأعلى والهدف النهائى من الحياة ،ومكافأة المؤمن فى الحياة الاخرة ، ولا عجب فى ذلك فقد ارتضى الله ســـبحانه وتعالى لنفسه أن يكون أحـــد أسمائه الحســـنى (السلام) .

هو الســـلام :

الاسلام دعوة الى السلام :

واذا كانت كلمة الاسلام معناها « **الانقياد والطاعة** » فقد اشتقت مادة الكلمة من السلام .

وتحية المسلمين « السلام عليكم » ويندد القرآن ويحذر من الاعتـــداء على من يلقى عليك السلام .

ـ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا .

فهو لم يدع للسلام فحسب بل بنى كل تعاليمه وأهدافه على موجبات السلام . ومن هنا كانت تحية المسلمين « السلام عليكم » وذلك على خلاف جميع شعوب العالم والذين يحيون بعضهم البعض ب « صباح الخير » و « مساء الخير » لا يشذ عن ذلك العرب انفسهم فى الجاهلية حيث كانت تحيتهم « عم صباحا وعم مساء » جاء الاسلام ليقول للدنيا « السلام عليكم » وليس من طريق الصدفة ان كانت كلمة الاسلام ، هى تقريبا السلام.

وعندما امتشق المسلمون السلاح فقد امتشقوه محافظة على سلام البشر وأمنهم وحقهم فى الحياة وحرية العقيدة ولكن السلام ظل هو الهدف النهائى وهو الغاية ، ومن هنا فقد طلب القرآن من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يلوذ بالسلم بمجرد أن يجنح محاربوه الى السلم .

ـ وان جنحوا للسلم فاجنح لها .

وقد يعجب انسان كيف تكون الحرب سبيلا للسلام ، ولكن ذلك شأن الحياة دائما ذات وجهين يؤدى أحدهما الى الاخر فالليل يؤدى الى النهار ، والموت يؤدى الى الحياة.

شاهد من أحوالنا المعاصرة :

ولعل أصدق مثال على أن تحقق السلام قد لا يتم الا من خلال الحرب هى الأحوال المعاصر التى نعيش فى ظلها فنحن العــرب والمسلمين نريد السلام ونحن نسعى لتحقيقه بكل الوسائل ولكن الاعداء يأبون الا الحرب ولن نفرض عليهم الســلام الا من خــلال الحرب .

ولعل هذا المثل الحى يبرز ويفسر كيف اضطر الاســلام الى شن بعض المعــارك للتوصل الى السلام .

دين المؤاخاة والمحبة :

وسوف ننتهز فرصة أخرى لنستعرض قيام المجتمع الاسلامى على التآخى والمحبة وحسبنا الان أن نشــير أنه لشــدة حرص الاسلام على السلام قد آخى بين البشر على اختلاف أجناسهم والوانهم وأديانهم فتحقق فى ظله (المجتمع الاسلامى) ما لم يتحقق قبله أو بعده ، ولا أمل للبشرية فى سيادة السلام مرة أخرى بين الأجناس المختلفة الا فى ظله . مم سنشرحه أن شاء الله فى سورة الحجرات .

ـ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد

وطالما قلنا ونحن فى صدد الحديث عن الجنة أن فيها كل ما يشتهى الانسان ويتمنى ويريد ، والله يعد هنا المتقين بأن لهم فوق ما يشتهون ويريدون **« مزيد »** اى زيادة وقد

حاول بعض قدامى المفسرين من السلف الصالح ، أن يحددوا هذا المزيد ، ولكنا نؤثر أن نقف عندما يقف عنده القرآن وعندنا أن« **مزيد** » من مثل قوله تعالى :

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » أى أن فضل الله لا يحده حد ولا يدركه تصور

ــ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدمنهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص

مفردات :

من قرن : أى امم سابقة وقد عبر القرآن بالزمان ، كما عبر فى مناسبات أخرى بالمكان (واسأل القرية) أى أهل القرية ، ويكون معنى من قرن ، أى الأمم التى عاشت فى القرون الخوالى .

فنقبوا : أى ضربوا فى الأرض وساروا .

محيص : أى مهرب .

والمعنى العام هو تذكير المخاطبين ان لا يمتثلوا غرورا وغطرسة واستطالة بقوتهم أو غناهم وثروتهم ، فالكل الى فناء ، وكم من الأمم والشعوب الماضية الذين كانوا عنوانا على القوة والسلطان والجبروت ، فلم يغن عنهم ذلك وأدركهم الفناء وليس ينفع الانسان فردا كان أوجماعة الا ايمانه وعمله الصالح .

ــ ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد .

يقول القرطبى مسايرا فى ذلك كثيرا من قدامى المفسرين « أى أن فيما ذكرناه فى هذه السورة تذكرة وموعظة (**لمن كان له قلب**) أى عقل يتدبر به فكنى بالقلب عن العقل لانه موضعه . وكون القلب موضع العقل مسألة فيها نظر ، والأرجح أن يكون مركزه المخ ، ولكن الشىء المحقق أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة القلب هنا عن قصد ، فالقلب وليس العقل هو الذى يؤمن أولا بوجود الله وبكل الأمور الغيبية ، وهو مهبط الوحى « **نزل به الروح الأمين على قلبك** » وهو مبعث الالهام ، وهو المصدر الأول للمعارف الانسانية ، والعقل مرحلة متأخرة جاءت بعد ذلك لتدلل وترتب وتصنف فقد قال الانسان الشعر ، ثم وضع علم العروض فيما بعد ، وغنى الانسان ، وعزف الموسيقى ، وتكلم وشيدوبنى ، ثم وضع بعد ذلك علوما للبناء وللموسيقى وللغة وكل المعارف البشرية ، فالقلب هو الذى يؤمن وهو الذى يخشع وهو الذى يتعظ ، والعقل انما يجىء بعد ذلك ليسوق الادلة ، وليثبت ويبرر ، ويعلل ما سبق للقلب أن اختاره ومن هنا فعندما يقول القرآن الكريم « **ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** » فهو يقصد الى ذلك قصدا ولا يكنى بالقلب عن العقل كما تصور القرطبى وآخرون .

أو ألقى السمع : أى استمع القــرآن« **وهو شهيد** » أى شاهد القلب حاضره ، هذا هو ما يقــول به جمهــور المفسرينفيحددون السمع بأنه يعنى الاســتماع الى القرآن ونحن نؤثر أن يبقى للمعنى اشعاعهبغير حدود ، فالكون كله هو كتاب الله ، وما فى الكون من ظواهر وعناصر وكائنــاتهى آيات الله البينات ، وما على الانسان الا أن ينظر ويسمع ويتأمل كى يهتدى ويؤمنويسبح بجلال الله .

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ،أو ألقى السمع وهو شهيد» .

ولنا عود ان شاء الله لموضوع القلبوالعقــل .

ــ ولقد خلقنــا الســموات والأرضوما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب .

ستة أيام : ستة أطوار .

اللغوب : التعب .

وتكشف هذه الآية عن هيمنة القرآنالــكريم على ما ســبقه من الكتب حسب نصوصها الموجودة بين يدى أهل الكتاب ،فكتاب اليهود يقول ان الله قد خلق الدنيا فى **ستة أيام ولكنه لا يدع شكا فى نفس المطالع : ان اليوم هو من نوع أيامنا ، اذ** يعقب على ذكر اليوم بقوله « **وكان صباح وكان مساء** » **أما القرآن الكريم فيقول لنا عن اليوم :**

ــ وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون .

ــ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

ويسأل الله سبحانه وتعالى البشر يوم القيامة كم لبثوا فى الارض فيقولون : يوما أو بعض يوم .

وهكذا يجهل القرآن الكريم مدلول اليوم ، فهو قد يكون ألف سنة وقد يكون خمسين ألف سنة ، وقد يكون أطول من ذلك بكثير ومن هنا قلنا ستة أيام بمعنى ست مراحل أو أطوار .

بعد كتابة ماتقدم طالعنا فى تفسير الرازى مايدل على أنه سبقنا بهذا الفهم من معنى اليوم فستة أيام عنده تعنى « **ستة أطوار** » واليوم عنده هو الحين أى الفترة من الزمن ، واليك مقال : فى ستة أيام اشارة الى ستة أطوار والذى يدل عليه ويقرره هو ان المراد من الايام لا يمكن أن يكون هو المفهوم فى وضع اللغة لان اليوم فى اللغة عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الارض من الطلوع **(أى الشروق) الى الغروب** وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت .. الى ان قال فكأنه أراد به الحين .

« انتهى ما قاله الرازى »

وطالما قلنا أنه ليس هناك ما يسعد طالب العلم أكثر من أن يعلم أن ما فهمه من القرآن هو عين ما فهمه الكبار من قبل ، بقى أن يلاحظ أن الرازى توصل الى هذه النتيجة من أن اليوم لا يمن أن يكون هو الذى نعرفه عن طريق التدليل العقلى البحت من أنه قبل خلق السموات والأرض لم يكن ثمة شمس يقاس بهـــا اليوم ، أما الضعيف فقد وصل الى هذه النتيجة باستقراء آيات القرآن نفسها ، ولله الحمـــد والمنـــة .

وما مسنا من لغوب :

تقوم الديانة اليهودية كما هى مقررة عند اليهود على ان الله قد خلق الدنيا فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع وهو عندهم يوم السبت ، ولذلك فقد اعتبروا العمل فى يوم السبت أكبر الكبائر فهو والكفر سواء والراحة لا تكون الا بعد تعب فانظر الى عظمة القرآن وهو ينزه الله سبحانه عن التعب « **وما مسنا من لغوب** »

ـ فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ●ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ●

وأمر القرآن سيدنا محمدا وسائر المؤمنين الى ابد الابدين أن يصبروا على تراهات الكافرين والمفسدين على ما يقولون وامره بالتسبيح وشكر الله عـــلى افضاله ونعمه « قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» .

ويبادر الامام البغوى فىتفسيرهفيقول:قبل طلوع الشمس ، أى صلاة الصـــبح وقبل الغروب أى صلاة العصر (ومن الليل) أى صلاة المغرب والعشاء ، ولكن الاقوال تعددت ، فمن قائل أن التسبيح قبل طلوع الشمس هو ركعتا الفجر ، وقبل الغروب الركعتين قبل صلاة المغرب وقال أخرون،ونحن من هذا الرأى،أنه التسبيح والتحميد بالقول ، أى ذكر الله سبحانه وتعالى .

وفى القرآن الكريم

ـ « **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** » وعندنا أن ذلك من قبيل الآية التى نحن بصددها ، وفى موضوع كموضوع الصلاة لا يكنى القرآن عنه أو يرمز له . وعندما أمر فقد أمر فى صراحة وفى غير ايمـــاء .

ـ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل .

ـ حافظوا على الصلوات ـ والصلاة الوسطى .

فعندما يأمر القرآن بالصلاة فالأمر يأتى صريحا وقاطعا وليس بالكناية .

ـ ومن الليل فسبحه وادبار النجوم

وتعددت الآراء كذلك حول المقصود من التسبيح بالليل فالقائلون أن التســبيح كناية عن الصلاة ، فالمقصود هنا هو صلاة العشاء ، وعند آخرين ان المقصــود هــو ركعتا الفجر ، بينما رأى فريق ثالث أن المقصود هو قيام الليل .

ونحن مازلنا نرجح قول من قال أن المراد بالتســبيح هو محض الذكر ، وقد قدمنا فى تفسير سورة الطور بعض أحاديث تتصل بهذا الموضوع .

وأدبار الســجود

روى عن ابن عباس أنه روى عن رسول الله قوله :

بت ليلة عند النبى صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين قبل الفجر ثم خرج الى الصلاة فقال **((يا ابن عباس ركعتان قبل الفجر ادبار النجوم وركعتان بعد المغرب ادبار الســجود)) .**

ويكون هذا نص ولا تعارض بينه وبين ما قدمنا ، لأن الصلاة هنـــا من النوافل وليست من الفروض وجاز أن يعبر عنها بالتسبيح باعتبار اشتمال الصـــلاة على التســـبيح .

واستمع يوم يناد المنـــاد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . انا نحن نحيى ونميت والينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيـــد .

مفـــردات :

الصيحة : نفخـــة البعث .

يوم الخروج : يـــوم البعث ، جاء فى القرآن الكريم : يخرجـــون من الأجـــداث كأنهم جراد منتشر .

سراعا : جاء فى القرآن الكريم مهطعين الى الداعى ، اى مسرعين .

تشقق الأرض : تتفتق الأرض وتتصدع .

ذلك حشر : أى بعث .

علينا يسير : اى سهل وهين .

نحن أعلم بما يقولون : أى أن الله ســبحانه وتعالى أكثر علما بمـــا يقوله الـــكافرون .

وما أنت عليهم بجبار : فاذا كان الله سبحانه وتعالى مع علمه بمايقوله الكافرون قد شاءت ارادته أن يمهلهم لغاية يعلمها هو ، فأولى بك (يا محمد) ويا من آمن برسالته الى أبد الآبدين أن تصبر وان تقف عند حد التذكير .

جاء فى القرآن الكريم

ـــ فذكر انما أنت مذكر

ـــ لست عليهم بمسيطر .

وهو هنا يردد نفس المعنى بألفاظ مغايرة شأن القرآن فى اعجازه البيانى :

« وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ومعنى متجبر : أى مسيطر .

والجبار اسم من أسماء الله الحسنى وما كان لبشر بداءة ذى بدء أن يكون جبارا فى الأرض فالجبروت خصيصة من خصائص الله عز وجل .

يقول الفراء من أئمة اللغة سمعت من العرب من يقول : جبره على الأمر أى قهره .

واجبرته على الأمر اكرهته عليه ومن هنا وصف كل من يقهر الناس ويكرههم على فعل أو قول ما لا يحبون ويختارون بأنه جبار وهو ما يحذر القرآن منه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم(لا اكراه فى الدين) .

ـــ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب

ولقد أشرنا من قبل الى أن قدامى المفسرين يحاولون أن يصفوا بدقة ما سوف يحصل يوم القيامة . فقالوا أن المنادى هو جبريل ، وقيل اسرافيل .

ونقل عن الزمخشرى قوله :

اسرافيل ينفخ وجبريل ينادى ونحن نقول هذه كلها غيبيات وما دام القرآن الكريم قد أجملها وجهلها فيجب الوقوف عندما وقف عنده القرآن ومحاولة الخوض تؤدى الى التخبط والانزلاق .

وقد نقل لنا القرطبى هذه التخبطاتفقال :

المكان القريب صخرة بيت المقدس ويقال انها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا ، وقال كعب ، ثمانية عشر ميلا (!) ونكتفى بهذا

القدر وعندنا أن المكان القريب يمكن تأويله على أنه كناية عن شدة الصيحة وقوة النداء حتى لكأنه يصدر للانسان من أقرب مكان الى سمعه .

ـ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج انا نحن نحيى ونميت والينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير .

الحديث عن يوم القيامة يوم تعود الأرواح الى أجسادها ويقوم الموتى ابتداء من آدم عليه السلام حتى آخر انسان يوم القيامة ، فتنشق الأرض عنهم وتعـود ذرات التراب بشرا سويا ، ويذكر القرآن الناس بأن لا يتعجبوا من ذلك فالأمر جد يسير على الله الذى يحيى ويميت واليه ترجع كل الأمور .

ـ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقـرآن من يخـاف وعيـد .

ويطيب لنا أن نختم تفسير السورة بملاحظتين :

الأولى : تحذير القرآن سيدنا محمد ، ومن باب أولى أى انسان على ظهر الأرض من أن يتحول الى متسلط مسيطر يستهين بأقدار الناس بأى حجـة من الحجج ، وقد عاش سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام يحاذر أن يخيف انسـانا حدث مرة أن ارتجف انسان فى حضرته فربت على كتفه .

وقال : هون عليك ، فانى ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

لطيفـة صـوفية

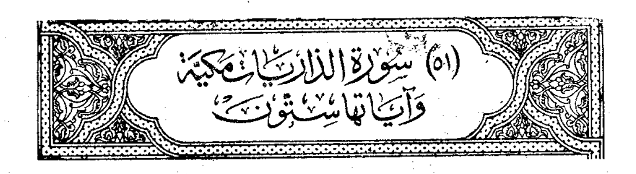
أما الملاحظة الثانية فلطيفة صوفية طالعناها فى تفسير القشيرى ولمـا كنا نحب لتفسيرنا أن يشمل لطائف التفسير فنحن ننقلها لك يقـول الدقاق شـيخ القشـيرى :

هى مراتب : الخوف والخشيـة والهيبـة : فالخـوف من شرط الايمـان « **وخافون ان كنتم مؤمنين** » .

والخشية من شروط العلم « **انما يخشى الله من عبادة العلماء** » .

والهيبة من شروط المعرفة « **ويحذركم الله نفسه** » .

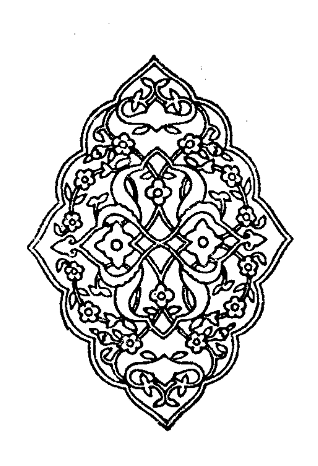
صـدق الله العظيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى
النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ
سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾

مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ
الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ
تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن
يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا
يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾



الذى فى المصحف وعليه المعول أنها سورة مكية وهى من السور التى لم يجر أى خلاف حول مكيتها وأحسب أن الذينيتابعون هذا التفسير قد أصبحوا يجيدون معرفة خصائص السور المكية لكثرة ما ردد ناها ، ولذلك فهى تلفت الأنظار الى الآيات الكونية وتشير الى عاقبة المكذبين ممن سبقمن الأمم ليكون فى ذلك تحذير لقريش ومواساة للنبى صلى الله عليه وسلم واصحابه أنهم يعانون ما عاناه المؤمنون فى كل زمان ومكان علما أن العاقبة دائماللمتقين وفىالسورة آيات كريمةتنطوى على كل أسرار الربوبية من ناحية والعبودية منالناحية المقابلة وهى تتضمن الآية التى يمكن أن تقال فيها المجلدات ثم لا توفى علىالغاية وهى آية ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**)) .

والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا .فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . انما توعدون لصادق . وان الدين لواقع .

يقال ذرت الريح التراب تذروه ذروا اذا طيرته ، واذرته تذريه بمعناه ، وعلى هذا تكون الذاريات ذروا هى الرياح وقد روى أن سيدنا عليا رضى الله عنه سئل عن تفسير هذه الايات فقال : الذاريات ذروا ((**الرياح**)) فالحاملات وقرا ((**السحاب**)) فالجاريات يسرا ((السفن)) فالمقسماتأمرا ((**الملائكة**)) .

وشبه السحاب بالدواب ذواتالأربعوهى تحمل الوقر، أىالأثقال ، وكذلكتحمل السحب الماء ، ثم تقسمها الملائكة على منيشاء الله أن تهطل عليهم انى يشاء بالقدر الذى يشاء ، وليس هناك ما يكشف عنارادة الله المطلقة ويدحض ادعاء الماديين من أساسه عندما يزعمون أن الأمر كلهفى هذه الدنيا لا يعْدو أن يكون نواميس طبيعية تعمل عملها بدون ارادة علوية ، منموضوع الأمطار بالذات ، فدورة الرياح كما يقولون فى علم الطبيعيات ثابتة لا تتغير،ونظام تبخر الماء من المحيطات نظام ثابت أيضا ، فلو أن الأمر مسألة آلية ماديةبحتة ، لوجب أن تسقط الأمطار بنظام ثابت ثبوت اشراق الشمس كل يوموغروبها ، ولكن الذى يحدث فى الواقع غير ذلك تماما ، اذ تهطل الأمطار فى سنةوتمتنع فى سنة ، بل لقد تمر السنة تلو السنة دون أن تسقط الأمطار حيث يجبان تسقط ويسود الجفاف وينتشر الجدب والقحط ، مما جعل مجتمعات كبرى فىوقتنا الحاضر تلجأ الى خصومها التماسا للحصول على الغذاء وذابت الطنطنةوالجعجعة من أنهم يتحكمون فى الطبيعة بعد أن أحاطوا بكل شىء علما ، وتابى عليهمالمكابرة الا أن يقولوا أن يوما ما سيكتشفون سر الطبيعة لماذا تسقط الأمطار فى سنةولا تسقط فى سنة أخرى والى أن يكتشفوا فعليهم أن يقروا بأن ما يزعمونه من قوانينثابتة لسقوط الأمطار غير صحيح ، وانه لا يزال فى الأمر سر لم يحيطوا به

وليس فى الأمر سر بالنسبة لنا معاشر المؤمنين ، فالأمطار باعتبارها أرزاق العباد مقدرة ومقسمة يقدرها الله ويقسمهاعلى من يشاء بالقدر الذى يشاء ويبقى

الخلود والبقاء والثبات لآيات القرآن حيث يلفت الله رب الوجود البشر الى عظيم قدرته فهو الذى يسير الرياح ، التى تحرك السحب المثقلة بالأمطار يسقطها الله بارادته على من يشاء (**فالجاريات يسرا**)قدمنا انه روى عن سيدنا على أنه فسرها بأنها تعنى السفن وعلى هذا القول الجمهور ، على أن البعض فسرها بأنها تعنى الكواكب السابحة فى السماء وهو مانميل له نحن فقد تكررت الاشارة فى القرآن للكواكب وجريانها .

ـــ **فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس**ـــ والجوارى والجاريات بمعنى واحد والحديث كله يتحدث على ظواهر طبيعية من رياح وسحب وأمطار فيكون الحديث عن الكواكب أقرب ، ومع ذلك فالجمهور على أنها السفن والله تعالى أعلم .

انما توعدون لصادق . وان الدين لواقع .

هذا هو جواب القسم ، وطالما نبهنا الى أن الله عز وجل وقد انزل القرآن عربيا . فقد استخدم أسلوب العرب ، وكان من أساليبهم القسم لاظهار أهمية المقسم عليه، ولاسترعاء الانتباه ، ومن هنا فقد استخدم القرآن هذا الاسلوب لتحقيق غرضين ، الأول : استرعاء الانتباه وتحريك العقول لاستيعاب الآية الكونية المقسم بها وهى هنا الرياح والسحب والأمطار والكواكب ،والأرزاق .

أما الغرض الثانى فهو عين ما اعتاده الناس من القسم وهو تأكيد المقسم عليه وتثبته وهو هنا .

ـــ **ان ما توعدون لصادق . وان الدين لواقع .**

وما كانوا يوعدون به من هول يوم القيامة والبعث النشور والحساب ثم الجزاء والثواب والعقاب ، فكل ذلك صادق ، اى صدق وحق .

وان الدين لواقع . (الدين) يوم الجزاء لاشك فيه .

ـــ والسماء ذات الحبك . انكم لفى قول مختلف . يؤفك عنه من أفك . قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون .يسالون ايان يوم الدين . يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون .

والسماء ذات الحبك :

الحبك : جمع حبيكة والحبيكة تطلق على الطريقة التى تخلفها الرياح الهادئة فى الرمال أو المياه .

والحبيكة : اى المحبوكة المتقنة من قولهم ثوب حبيك ومحبوك اى محكم النسيج .

ومن هنا فقد اتسع معنى : والسماءذات الحبك . لكل ما قال به المفسرون فمن قائل ، السماء ذات الحسن والاتقان والأنوار والشفافية ، ومن قائل : السماء ذات الطريق والمسارات للكواكب والنجوم ومن قائل : السماء ذات الزينة .

ونحن نؤثر أن لا نحددها بمعنى واحدفالكلمة كالكثير من الفاظ القرآن أصبحت تشع معانى لا نهاية لها ، وسيعرض لنا فى آية تالية الحديث عن بناء السماء .

انكم لفى قول مختلف . يؤفك عنه من أفك .

هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك ، واذا كان الحديث موجها لقريش فى بادىء الأمر فهو كشأن القرآن موجه للبشر فى كل زمان ومكان ، فاذا كان كفار قريش مختلفين فى شأن سيدنا محمد والقرآن ، فمن قائل انه ساحر ومن قائل انه مجنون أو كاهن وأن القرآن من صنعه وتأليفه ، فلا يزال بيننا من يكرر هذه الترهات بأسلوب أو بآخر متشدقين بالعلم والتقدم ، والعلم والتقدم منهم براء وليس أدل على ذلك من أنهم يرددون أقوالا قيلت منذ أربعة عشر قرنا ، ثم أثبت الزمن بطلانها وفسادها ، بغلبة الاسلام وانتصاره وانتشاره .

يؤفك عنه من افك :

أفكه يأفكه أفكاً : أى قلبه عن الشىء وصرفه ومنه قوله تعالى : ((**أجئتنا لتأفكنا**)) والمعنى هنا : أى يصرف عن الايمان بسيدنا محمد والقرآن من اختار أن ينصرف ، وعن ابن عباس وآخرين : يضل عنه من ضل ، وقال الحسن البصرى : يصرف عن هذا القرآن من كذب به والمعانى كلها متقاربة من أن كل ميسر لما خلق له فمن اختار أن يكفر بالقرآن أضله الله وصرفه عنه ، وهو ما نراه فى أيامنا رأى العين ، فمن يتشدقون باسم المادة ، لا يلقون نظرة على القرآن فضلا عن أن يدرسوه ذلك لانهم اختاروا الضلال واستحبوا العمى فأعماهم الله وأضلهم .

قتل الخراصون :

اى لعن وهلك المكذبون ، والخراصون جمع خارص ، والخرص : الكذب ، والخراص : الكذاب ، والخراصون هنا المكذبون بسيدنا محمد والقرآن الكريم فهذا هو ما يستحقونه وهو اللعنة وعبر عن اللعنة بالقتل لان من لعنه الله فهو ميت وان ظل يمشى على قدمين .

الذين هم فى غمرة ساهون :

الغمرة ما ستر الشىء وغطاه ، ومنه نهر غمر أى **يغمر من دخله : ومنه غمرات الموت .**

ساهون ، أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة ، وهذه هى صفة الكفرة والملحدين والمكذبين حيث ينكرون يوم الحساب (**يسألون أيان يوم الدين**) وسؤالهم هو سؤال انكار وتجاهل واستهزاء ، لا تساؤل الراغب فى المعرفة ومن هنا **ينذرهم الله** ويتوعدهم ، أن هذا الذى ينكرونه **آت لاريب فيه يوم هم على النار يفتنون .**

أى يوم هم على النار يحرقون وهو من قولهم « فتنت الذهب ، أى احرقته لتختبره وأصل الفتنة الاختبار ، وقال ابن عباس يفتنون : يعذبون ، والمعنى واحد .

ـ ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون .

وطالما نبهنا عند أمثال هذه الآية ان أشد الوان العذاب عندما يواجه الانسان بجريمة ، وهنا يجبه القائل الكفار والمكذبين ، أن ما يعانوه ليس الا ما كانوا يكذبون به ويستعجلونه من فرط تكذيبهم وتحديهم .

ـ ان المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالاسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم . وفى الأرض آيات للموقنين . وفى انفسكم افلا تبصرون . وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون .

بشرى بعد الانذار :

وكداب القرآن لا يكاد يحذر وينذر بويلات النار والجحيم ، حتى يبشر على الفور بالجنة والنعيم الذى أعد للمتقين (**ان المتقين فى جنات وعيون**) أى أن المتقين فى بساتين فيها العيون الجارية وهو أجمل ما تقر به عين الانسان وتسعد .

ـ آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين :

أى متمتعين بما أسبغه الله عليهم من الثواب والجزاء والعطايا .

ـ انهم كانوا قبل ذلك محسنين :

وتشاء ارادة الله وهو الكريم اللطيف ، أن يصف ما يلقاه المتقون أنه جزاء احسانهم السابق مع أن الله هو صاحب الفضل عليهم اذ وفقهم للاحسان ، وهى أعظم ما يسبغه الله من نعم على عبده ، ولكن هكذا شاءت ارادته أن ينسب الاحسان الى الانسان ، فعلى كل مؤمن أن يستزيد من الاحسان ما استطاع الى ذلك سبيلا وما أروع رسول الله وهو يدلنا على ابسط طريق للاحسان وايسره فيقول لنا « **تصدقوا ولو بكلمة طيبة** » وفى رواية « ولو بشق تمرة » .

– كانوا قليلا من الليل ما يهجعون :

الهجوع : النوم ليلا .

ويشرع القرآن فيحدثنا عن بعض ضروب احسان المحسنين ، فيصور لنا كيف أنهم لا ينامون الا غرارا ، أى لا ينامون الاقليلا ويظلون فى ذكر الله وعبادة وليس وراء ذلك تبتل واحسان ذلك أن للنوم سلطانالا يقاوم فضلا عن أن يغلب ، فاذا استطاع مؤمن أن يظل ساهرا فى ذكر الله وطاعتهفهذه هى الدرجات العلا التى تجعل صاحبها ممن وصفهم الله بالاحسان حيث تظل مشاعرهم وأحاسيسهم مرهفة فاعلة للخير أبدا (بعكس هؤلاء الذين ينامون ويفرطون فى النوم شريطة أن لا يكون السهر بطبيعة الحال فى معصية .

– وبالأسحار هم يستغفرون –

الأسحار : أواخر الليل .

وهذه هى الآية التى كشفت عن شغلالساهرين من المحسنين وأنه هو اشتغال بذكر الله (**يستغفرون**) وقيل أن الصلاة هى المقصودة ، وان ذلك ايماء الى قيام الليل، ولكنا نؤثر أن نبقى الاستغفار على عمومهباعتباره لونا من ألوان الذكر والتعبد بكافة الوانه وأشكاله فمن لا يغمض له جفن وهوساهر على حماية الحدود وأمن الجماعة فتلك ضروب من الاحسان.

– وفى أموالهم حق للسائل والمحروم .

نصل الآن الى الآية التى تصور ذروةالاحسان لمن عنده مال وهو أن يعتبر أن له شركاء فى هذا المال وهم كل سائل ومحروم وقبل أن نحدد من هو السائل والمحروم نريد أن نسجل هذه الملاحظة .

التضـــامن الاجتماعى والعدالة الاجتماعية :

نظام الاحسان بمعنى أن يجود الغنى ببعض ماله على الفقراء نظام قديم منذ كان الانسان انسانا نراه فى سائر الاديان وهو معمول به فى كافة المجتمعات ولكن عظمة الاسلام وتفوقه كانت فى انه منذ أربعة عشرقرنا والحياة تقوم أول ما تقوم على اعلاء سلطان الفرد وحريته شبه المطلقة فى أنيتصرف كما يشاء فى ماله الى أن جاء الاسلام يكشف عن تضـــامن المجتمع ، وان كافةأفراده شركاء فى طيباته ، ومن هنا ارتفع بالاحسان كما هو مفهوم فى بقية الأديان الأخرى من انه فضل يتفضل به الغنى على الفقير أن شاء أعطى وأن شاء لم يعط ،ألغى هذا التصور وجعل اعطاء الغنى للفقير ليس تبرعا وانما هو حق يجب أن يؤدى وأن يتولى السلطان بنفسه استقضاءه ، حتى

لقد شن سيدنا أبو بكر حربا طاحنة ضـــد المرتدين من العرب لمحض تصورهم أنه وقد مات سيدنا محمد فقد أصبح فى استطاعتهم أن يتوقفوا عن أداء هذا الحق وقد عجب الصحابة لموقف سيدنا أبى بكر وكيف يفكر فى محاربة كل العـــرب ، وقال له أعــلام الصحابة ، أتحارب قوما يقولون أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكن سيدنا أبا بكر لطول صحبته لرسول الله والتصاقه به ، فقد كان أكثرهم فهما للاسلام وروح الاسلام ، فليس لا اله الا الله محمد رسول الا المدخل لســلام الفرد والجماعة ببناء المجتمع على تعاليم الاسلام والزكاة هى أحد أركانها التى لا يقوم المجتمع الاسلامى الا على أساسها ، فاذا انهار ركن الزكاة انهار البناء كله ، وأصبحت « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، مجرد كلمات شكلية بغير مضمون ومن هنا كان تصدى سيدنا أبى بكر لحرب الذين منعوا الزكاة وعندما تم له النصر كانت الوثبة التالية التى جعلت الاسلام دين العالمين آنذاك اذ وجد فيه البشر التطبيق الحقيقى لفكرة التضـــامن الاجتمـــاعى ، وحق كل محتـــاج فى مـــال القادرين .

أعجوبة المجتمع الاسلامى :

ونحن نسمع الكثير من الشقشقة عن هذا النظام أو ذاك وما هيأه من فرص التعليم لهذا أو ذاك ولا يعرف هؤلاء المتشدقون أنهم لم يصلوا ولا يمكن أن يصلوا لبعض ما كان مطبقا فى مصر فى ظل الاسلام وبجوهر تعاليمه ، فالأزهر باعتباره مصدر العلم لم يكن يصد أى انسان يريد أن يغترف من علمه من أى ركن من أركان العالم الاسلامى وما على أى راغب أن يرغب فى طلب العلم كى يجد الباب مفتوحا على مصارعه ، بل ويجد المأوى والمسكن والمأكل والملبس وما على طالب العلم الا أن يسجل اسمه عند شيخ الرواق (رواق المغاربة أو الشوام الخ) كى يصبح (مجاروا أى طالب علم) يتمتع بكل المزايا التى تدهنا الاشارة اليها ، وشبيه بهذا فى عصرنا الحاضر نظام المنح الذى يعطى للمتفوقين ، أما نظام الأزهر فقد كان بغير حدود فكل طالب علم له حق التعليم وكل ما يعينه على ذلك من مسكن ومطعم وملبس ما بقى راغبا فى طلب العلم .

وليس ذلك الا نموذجا لتطبيق روح الاسلام المتمثلة فى هذه الآية .

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

ولكى نقرب لشباب اليوم هذه الروح التى كانت تغمر العالم الاسلامى فما علينا الا أن نذكرهم بوزارة الأوقاف التى تسيطر على عشرات الملايين من الجنيهات التى تركها أصحابها « **للسائل والمحروم** » وانه ليطيب لى أن أطلع أبناء الجيل الحاضر على روعة المجتمع الاسلامى والتى وصل الأمر فيه بعد أن غطيت كل الاحتياجات من أعراس وجنائز والأنفاق على المرضى وراغبى التعلم ، أقول بعد أن غطيت هذه الاحتياجات كلها وصل الأمر ببعض الناس أن يخصص بعض أمواله التى أوقفها على البر لشراء

آنية جديدة لكل طفل أو صبى ذهب الى السوق ليشترى شيئا فى آنية فكسرت هذه الآنية ، فعلى مثل هذا الصبى أن يتوجه للقائم على هذا الوقف لكى يبتاع له آنية جديدة .

واحسب أن كل مجتمعات الدنيا قديمها وحديثها لم تشهد مثل هذه الرقة التى غرسها القرآن فى القلوب ونجاحه الفائق فى أن يغرس فى قلوب اتباعه أن ما فى ايديهم من المال ليس ملكا خالصا لهم بل ان له فيه شركاء وهما ــ **السائل والمحروم** .

ليس هناك ما يكشف عن حقيقة نظرة الاسلام الى وحدة المجتمع الاسلامى وتضامنه من نوعية المستحقين للمال ، فهو لم يتحدث عن الفقراء الذين لا يملكون او المساكين الضعفاء المغلوبين على أمرهم وانما تحدث عن « **السائل والمحروم** » وقد قال المفسرون الكثير فيمن هو السائل والمحروم ، ولكننا نختار من هذه الأقوال من اطلق الكلمتين الى آخر مداهما فالسائل هو كل من سأل ، وما دام قد ارتضى لنفسه ان يسأل فقد أصبح حقيقا أن يعطى عند القدرة على الاعطاء .

روى الامام أحمد بسنده عن سيدنا على رضى الله عنه قال : **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للسائل حق وان جاء على فرس »** وقد بقى أن تعلم أن الفرس فى تلك الأيام كان من أعظم مظاهر القدرة ، ويكون المعنى المقصود أن أى انسان متى سأل فقد وجب ان يعطى عند القدرة على الاعطاء .

والمحروم :

وشبيه بذلك المحروم فهو بدوره يتسع لكل الصور التى يمكن أن تطوف بالذهن ومن هنا فقد كان السلاطين والأمراء والأغنياء والقادرون أن يطعموا الناس فى شهر رمضان وبعض المناسبات الاخرى من افخر واشهى ما أعتاد القادرون أن يأكلوا ، وذلك تطبيقا لهذه الآية من أن المحرومين شركاء لهم فى بعض ما يطعمون ، وفى كتابنا موسوعة تاريخ مصر وصف لهذه المآدب التى كان يؤديها حكام مصر منذ عهد الفاطميين لكل من يرغب من أبناء الشعب والتى كانت تضم كل ما اعتاد الخليفة أن يأكل منه وهذه هى دعوة الاسلام وهذه هى روحه ان لا يكون فى المجتمع محروم واحد، بل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستحثنا على التنقيب عن المحتاجين والمحرومين الذين تضمهم البيوت والذين يدفعهم الحياء والتعفف عن السؤال .

روى الشيخان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله . ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » .

وهذا الذى يقوله سيدنا رسول الله ليس الا بيانا لما قاله الله عز وجل فى محكم تنزيله « **يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا** » .

وهذا يوضح لنا مدى احتفال الاسلام بكل فرد من أفراد المجتمع ، بغض النظر عن المسميات ، وأن المجتمع الاسلامى لا يطيق وجود محروم فى المجتمع .

— وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون .

وهاتان آيتان تعتبران من مفاتيح العلم ، والتى وصلت بالعرب من شعب امى لا يقرأ ولا يكتب الى أن يصبحوا قادة مجتمع حضارى طالما تحدثنا عن مظاهر حضارته والتى وصل فيها علماء المسلمين الى حد النقل من شعوب وثنية كاليونان القديمة والهند وفارس ، والمهم انهم فعلوا ذلك لا انسلاخا عن الدين كما يفعل البعض فى وقتنا الحاضر بزعم أن العلم والدين لا يتفقان بل فعلوا ذلك وطلبوا العلم حيث وجدوه كلون من الوان التعبد بالذات وانصياعا لأوامر القرآن الذى طالما طالبهم كما فى هاتين الآيتين بالتدبر والتأمل فطاف علماء المسلمين العالم المعروف فى أيامهم وسجلوا كل أمر وقفوا عليه وشاهدوه والفلكيين فى العصور الوسطى من أمثال الطبرى والمسعودى والبيرونى وعشرات غيرهم من العلماء الأعلام والذين صدعوا بقول القرآن **((وفى الأرض آيات للموقنين))** كما بزغ نجم عشرات من العلماء الأعلام الذين صدعوا بالآية الثانية **((وفى أنفسكم أفلا تبصرون))** فراحوا يدرسون أحوال النفس والانسان بصفة عامة فكان منهم الأطباء والكيمائيون والفلاسفة من أمثال ابن سينا وابن رشد والرازى وابن النفيس وغيرهم وغيرهم .

لفت نظر .

ويهمنا فى هذا المجال أن نلفت النظر لحقيقة يغفل عنها الكثيرون فتضل بهم السبل ، وهو أن الانسان الراغب فى العلم ليس مضطرا أن يركب الصواريخ فيصعد بها الى القمر وكل ما فى السماء من كواكب ونجوم ، كما أنه ليس فى حاجة الى الغوص فى أعماق المحيطات التماسا للمعرفة ، ففى الانسان وفى النفس البشرية ، كل عناصر الطبيعة ونواميسها وسننها واتساعها .

وقد استطاع ارسطو أن يكون سيد المعرفة وأستاذها لألف سنة وأن يفرض نفسه على البشرية باعتباره المعلم الأول وقد كتب أرسطو فى كل فروع المعرفة ، وعرف الطبيعة بهذا التعريف الجامع المانع الذى كان هو آخر ما انتهوا اليه فى المعامل ودور ابحاث بالمجاهر والمناظير ، من أن الطبيعة هى الحركة وغنى عن البيان أن أرسطو لم يتوصل الى ما وصل اليه الا بالتأمل داخل النفس وهو ما يعلمنا اياه القرآن اذ يقول: ((**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**)) والبصر هنا ليس فقط بالعين ولكن بالتأمل ولقد كان هذا هو الذى حدا بسيدنا على رضى الله عنه أن يقول اذا صحت نسبة القول اليه ولكن الذى لا شك فيه هو صحة القول فى حد ذاته :

وتحسب نفسك جرما صغيرا   وفيك انطوى العالم الاكبر

وهو قول صحيح فمن أراد أن يعنم ، ومن أراد أن يعرف بل من أراد أن يصل الى الله فما عليه الا أن يتأمل ويديم التأمل في أغوار النفس ، ولنقرأ معا **((وفى الأرض آيات للموقنين)) ((وفى أنفسكم أفلا تبصرون))**

وفى السماء رزقكم وما توعدون

يقول بعض المفسرين ان الرزق هنا بمعنى المطر وان السماء بمعنى السحب ولكنا نأخذ بالمعنى الأعم أى أن الرزق مفرد الأرزاق والسماء بمعنى أن الأرزاق مقدرة منذ الازل .

لا يوجد فى الكون الا حقيقة واحدة شاملة وتلك هى وجود الله عز وجل **(أفى الله شك)** أما غير هذه الحقيقة الواحدة المطلقة ، فقد شاء الله عز وجل أن يجعل له أكثر من جانب ، ومن ذلك هـــذه الآية الكريمة فهى تتحدث عن أن الأرزاق كأى شىء آخر تصيب الانسان مقدر منذ الأزل ، وان كل انسان سوف يأخذ نصيبه المقدر له حتما ، ومن ناحية أخرى فالقرآن ملىء بالآيات التى تحض على السعى وبذل الجهد للحصول على الرزق .

ـــ وان ليس للانسان الا ما سعى .

ـــ فامشوا فى مناكبها .

ـــ وقل اعملوا .

وغير ذلك عشرات من الآيات التى تحض على السعى وطلب الرزق وقد جاء فى الأثر **((لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقـــول اللهم ارزقنى وقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة(١)))** .

ولطالما عرضنا لهذه القضية ووضحنا السبيل الذى يتعين على المؤمن أن ينتهجه، وهو أن يسعى دائما وما وسعه الجهد لتحقيق كل ما يعود عليه مستفيدا فى ذلك بتجاربه وتجارب كل من سبقه وآخر معطيات العلم البشرى ، على أن يظل دائما مؤمنا فى أعماق نفسه ان ماهو مقدر له منذ الأزل لابد واصل اليه ، غير أنه لما كان ذلك غيبا ومجهولا بالنسبة لنا فليس أمامنا الا أن نستخدم حواســـنا وعقولنا وكل امكانياتنا للسير فى الطريق الوحيد المفتوح أمامنـــا طريق العمل والسعى وبذل الجهد وتحرى الأسباب والمسببات على أن نقنع دائمـــا ونرضى بما يصل الينا فى خاتمة المطاف من الرزق ، ويلم بنا من الأحداث باعتبار أن ذلك هو قدرنا ونصيبنا أو كما تنص الآية **((وفى السماء رزقكم وما توعدون))** والسماء فى اللغة هى كل ما علا الانسان ،

---

(١) ينسب هذا القول أحيانا الى سيدنا عمر رضى الله عنه .

ونحن نعرف اليوم أن الأرض بكل من عليها ليست سوى ذرة فيهذا الكون الذى يحيط بنا ، ويكون المعنى أنقدرنا وحظنا ومصيرناوكل ما يتصل بنا محقق ومقدر ومسجل من قبل أن نولد على صفحات الكون .

— فورب السماء والأرض انه لحقمثل ما انكم تنطقون .

نصل الآن الى آية طالما اقشعر بدنيأنا شخصيا كلما نطقت بها ، ولذلك فقد اسعدنى وأنا اطالع فى التفاسير أن الأصمعىيقول انه أسمع اعرابيا هذه الآية « **فورب السـماء والأرض انه لحق مثـل ما أنكمتنطقون** » فصاح الأعرابى وقال : ياسبحان الله من الذى اغضب الجليل حتى حلف !ألم يصدقوه فى قوله حتى الجأوه لليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نفسه **(أى فارقالحياة)** .

وغنى عن البيان أن ذلكهو مدى تصور الأعرابى ، فما كان الله عز وجل بالذى يقسم كى يصدقه الناس ، وانما هو اسلوبفى الخطاب ولكنى سقت القصة لاظهر قوة الأسلوب القرآنى الذى يجعلنى اهتز كلماتلوت آية معينة وكيف أن نفس الآية بالذات كانت السبب فى موت أعرابى من شـدةالتـأثر وليس وراء ذلك آية على بـلاغة القرآن وعميق أثره وبخاصة على النفوسالمرهفة .

ملاحظة :

واريد بعد توضيح المعنى المقصود بالآيةوان الله سبحانه وتعالى يقسم هذا المرة بذاته على أن كل ما ساقه سيدنا محمد منالأحاديث عن الغيبيات ويوم القيـامة بكل مظاهره وحوادثه هو حق والملاحظة التيأريد أن الاحظها ، هى لماذا اختص النطق من سائر ملكات الانسان وقدراته باعتبارهآية على الحق الذى لايمـكن جحـوده ، وسرعان ماهدانى التأمل الى أن النطق هوأظهر ملكات الانسان اعتمادا على ارادته ، فالسمع والبصر والذوق والشم واللمسيحتاج الى مؤثر خارجى ، وانما يمارسها الانسان بمحض ارادته ومن ناحية أخرىفالنطق هو الذى يجعل الانسان انسانا وقديما عرفوا الانسان بأنه حيوان ناطقومن هنا أشار القرآن الى النطق باعتباره الحقيقة التى لا يشك اى انسان فيها .

— هل أتاك حديث ضيف ابراهيمالمكرمين . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ الى أهله فجاءبعجل سمين . فقربه اليهم قال الا تاكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروهبغلام عليم . فأقبلت امراته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قالربك انه هو الحكيم العليم . قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا انا أرسلنا الى قوممجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا منكان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذينيخافون العذاب الأليم .

مفردات

ضـــيف ابراهيم : هم الملائكة الذين بعثهم الله لاهـــلاك قوم لوط كما يبين من آيات أخرى .

منكرون : اى اغراب ، وربما كان هذا ما قاله فى نفسه لغرابة تصرفاتهم .

فراغ الى أهله : اى ذهب الى أهله فى الخفاء .

فأوجس منهم خيفة :

اى أنه خاف منهم فى دخيلة نفسه عندما وجدهم لايأكلون بالفعل وانما يرفعون أيديهم الى حلوقهم متظاهرين بالأكل وهم فى حقيقتهم لا يأكلون لأنهم ملائكة وذلك أيضا مبين من آيات أخرى .

قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم .

فطمأنه الملائكة وبشروه بأنه سيرزق بغلام عليم ، وجمهور المفسرين وســـير الوقائع يدل على أن الغلام العليم هو اسحاق ، يقول القرطبى جاء فى القرآن وبشرناه باسحاق وهذا نص .

وانفرد مجاهد بقوله أن المبشر به هو اسماعيل .

فأقبلت امرأته : اى السيدة سارة .

فى صرة : أى فى صــــيحة استغراب وجلبة .

فصكت ، أى لطمته من فرط التعجب باعتبارها .

عجـــوز عقيم : اى كيف تلد بعد أن أصـــبحت عجـــوزا عقيمـــا والعقـــم هو عدم الولادة وقد كانت سارة عقيمة فى صباها ، فكيف وقد اجتمعت الشيخوخة مع العقم .

وسنرى أن القول هو أنها كانت جاوزت التسعين سنة .

قالوا كذلك قال ربك : فقالت الملائكة هكذا شاءت ارادة ربك القـــادر على كل شىء(١) فلا تشكى .

---

(١) يأبى الله عز وجل الا أن يجرى آياته ويظهر قدرته الى أبد الآبدين ، ولكن قليل هم الذين يتعظون وقد تناقلت وكالات الأنباء مؤخرا أن امرأة عجوز جدا بمقاييس عصرنا ــ ٧٠ ــ سنة قد حملت .

فما خطبكم أيها المرسلون :

وهنا تنبه ابراهيم أن ضيوفه ليسوامن البشر فبادر يسألهم ما هو شأنهم الذى يبدو خطيرا .

قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين : وهنا كشف الملائكة عن حقيقتهم وانهم رسل العذاب لقوم مجرمين ، وهم قوم لوط الذين شاعت فيهم الفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين .

لنرسل عليهم حجارة من طين : وان سبيلهم لاهلاك قوم لوط هو أن يمطرهم بحجارة من طين .

مسومة عند ربك للمسرفين : وهي احجار خاصة (معلمة) أعدت لتعذيب من حق عليه العذاب فأخرجنا من فيها من المؤمنين : ذلك أن سيدنا ابراهيم كما يبين من آيات أخرى من القرآن راح يجادل الملائكة كيف يهلكون قوم لوط عن بكرة أبيهم وفيهم المؤمنون فوعد الله عز وجل سيدنا ابراهيم أن ينجي المؤمنين الصالحين من هذه النهاية المفجعة ، وأمر ملائكته باخراج المؤمنين من المدينة قبل أن يصبوا عليهم العذاب .

فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين: وصدع الملائكة بالأمر وأخرجوا المؤمنين ، فاذا هم بيت واحد وهو بيت لوط ، وحتى امرأة لوط نفسها كما يبين فى آيات أخرى لم تكن من الناجين لأن ايمانها لم يكن كاملا وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم : وتنتهى قصة قوم لوط بما ينتهى به قصص القرآن وهو الاتعاظ والاعتبار بما حدث ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ملخص الواقعة :

ومما تقدم يبين أن هذه الآيات الكريمة تروى حديثا يجمع بين سيدنا ابراهيم ولوط ، وقد كانا متعاصرين وقد تحدثنا فى سورة **القمر** عن قوم لوط . وفى هذه الآيات التى نحن بصددها حدث أن مر الملائكة الذين بعث بهم الله لاهلاك قوم لوط بسيدنا ابراهيم بتكليف من الله عز وجل بطبيعة الحال ، وهنا حسبهم سيدنا ابراهيم مجرد ضيوف عاديين فالملائكة لاتظهر على الأرض الا فى زى البشر ، وقد رأينا فى تفسير سورة القمر كيف أن قوم لوط أنفسهم تصوروهم بشرا عاديين وتجمهروا يريدون الاعتداء عليهم الى أن نفذ الملائكة رسالتهم وأنزلوا العذاب المقرر بقوم لوط .

ونعود الى سياق الآيات ، فتروى لنا أن الملائكة بشروا سيدنا ابراهيم بأنه سيرزق بولد ، فلما حاولت زوجته سارة أن تبدى عجبها باعتبارها عجوز عقيم ذكروها بقدرة الله التى لايحدها حد وهنا تبين ابراهيم أن لضيوفه شأنا خطيرا فمنذ

وقعت عيناه عليهم وهم يتصرفون على خلاف تصرفات البشر ، فسألهم عن حقيقتهم فأخبروه بما ذكرناه سابقا فراح يستعطفهم ويشفع فى قوم لوط وقد رجعنا الى العهد فوجدنا القصة التى رواها القرآن الكريم :

١ — استضاف ابراهيم رسل الله الذين كانوا فى طريقهم لاهلاك قوم لوط .

٢ — بشر الرسل ابراهيم وزوجته من انهما سيكون لهما ولد .

٣ — ابدت سارة دهشتها من أن تلدوهى عجوز عقيم فذكرها الملائكة بقدرة الله .

٤ — محاولة ابراهيم الاستشفاع لقوم لوط .

والسؤال الآن :

من أين عرف سيدنا محمد تفاصيل هذه الواقعة وما هو جدوى ذكرها اذا لم يكن نبيا مرسلا يصدع بما يؤمر به ويبلغما أوحى اليه به وأنا هنا أريد أن أخضع الموضوع للبحث العقلى البحت ، أو الأسلوب العلمى كما يقولون .

النقل عن التوراة :

أول ما يمكن أن يتخرص به المتخرصون فى أيام سيدنا محمد كما فى عصرنا الحاضر ، هو أن محمدا قد نقل عن التوراة ، وهذا هو ضرب من ضروب القاء القول على عواهنه بدون بحث أو ترو فمكة لم تكن مجتمعا يهوديا ، ومنذ أربعة عشر قرنا لم تكن الكتب متداولة ، وخاصة وسط شعب أمى لا يعرف القراءة والكتابة ، وقد لايعلم الكثيرون أن التوراة كانت تعتبر شيئا مقدساسريا لا يطلع عليه الا رئيس الكهنة ويلقى الشعب اليهودى على النسخة الوحيدة المتوارثة نظرة من العام الى العام .

وبقي بعد ذلك انها لم تكن مكتوبة باللغة العربية وانما بلغة اخرى (الارامية أو العبرية أو ترجمة بالاغريقية) .

وسيدنا محمد بنص القرآن لم يكن يعرف القراءة باللغة العربية فضلا عن أن يعرف القراءة بلغات اخرى(١) .

بقى أن يقال أنه سمعه يوما ما من حبر يهودى فوعاه وما أحسب الا أن يكون أبلها هذا الذى يتصور ان سيدنا محمدا يسمع قصة من شخص مافيرددها باعتبارها

---

(١) ومن هنا تظهر غفلة من انساقوا خلف بعض المستشرقين المغرضين الذين أرادوا أن يهدموا المعجزة المحمدية فزعموا أن كلمة (الأمى) لا تعنى الجهل بالقراءة ولكنها تعنى (الامى) أى من غير اليهود مع أن القرآن يفسر صراحة (ما كنت تدرى ما الكتاب — » (ولا تخطه بيمينك) .

كلام الله فما يدريه بصدق القصة ، واذاتصورنا انه يرددها فما الذى يجعله يهذبها ويصححها لتستقيم مع ما يليق بذات النبىمن التنزيه والاجلال .

واخيرا ما هو جدوى أن يتحدث عنلوط ومعتقدات اليهود لقريش عبدة الأصنام هم الذين يجهلون كل شىء عن هذه الأحاديث ،الحق انه لا يفسر حقيقة الأمر الا أن سيدنا محمدا لن يكن من الأمر شىء ،وانما هو وحى يوحى علمه شديد القوى ، فكان الوحى اذ هبط على سيدنا محمد نطقسيدنا محمد بما أنزل اليه ((**آمن الرسول بما أنزل اليه**)) .

ويكون سر **التطابق هو وحدة المصدر**وهو الله عز وجلويكون **القرآن** هو المهيمن على ما سبقه من الكتب التى حرفت وزيفتحتى امتلأت بما لا يطابق التوحيد الصافى والتنزيه اللائق بمقام الربوبية .

ـ وفى موسى اذ أرسلناه الى فرعونبسلطان مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فىاليم وهو مليم .

مفردات :

بسلطان مبين : أى بقوة الهية تتمثلفى معجزات سيدنا موسى فتولى بركنه : أعرض أى (فرعون) واستطال **بقوته وجنوده** وأتباعه وسلطانه المطلق .

فنبذناهم : أى طرحناهم .

اليم : البحر **وهو مليم** : أى وهو مرتكب ما يلام عليه .

قصة سيدنا موسى :

تشير **هذه الآيات** الى قصة سيدناموسى مع فرعون مصر ، وستترد علينا القصة مفصلة فى سور قادمة باذن الله ،حيث تتحدث هذه الآيات التى نحن بصددها عن عناصر القصة الأساسية بهذا الاسلوبالقرآنى المعجز .

فهى تتحدث عن تكليف موسى بالذهابالى فرعون بعد أن زود اللهموسى بالمعجزات وعلى رأسها **تحويل العصا الى ثعبان مماجعل فرعون يتصور أنه ساحر** ، كما تصور أنه مجنون اذ كان يدعو الى **عبادة اله غيرفرعون** ، وتتحدث الآيات عن خاتمة فرعون عندما اغرقه الله هو وجيوشه فى البحروطالما أشرنا الى أن قصة فرعون وموسى لابد ان تكون أصداؤها معروفة فى شبهجزيرة العرب يتوارثها الخلف عن السلف اذ دار الجزء الأخير من احداثها فى الصحراءالتى تصل مصر بشبه جزيرة العرب .

ومن هنا نجد الاشارة لها فى أول مانزل من السور لاستخلاص ما تنطوى عليه من عبرة .

وفى عاد اذ أرسلناعليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء اتت عليه الا جعلته كالرميم . وفى ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتىحين . فعتوا عن أمر ربهم فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وماكانوا منتصرين . وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين .

مفـــردات :

الريح العقيم : يقول عنها بعض المفسرين ، أنها الريح المهلكة لهم القاطعة لنسلهم ، وعندنا ان هذا تفسير على ضوءما أحدثته الريح بعاد ، ونحن نرجح قول من قال انها الريح الخاليـــة من كل بركةأو منفعة أسوة بالمراة العقيم .

وقد جاء فى الصحيح قول رسول اللهصلى الله عليه وسله « **نصرت بالصـــبا** واهلكت عاد بالدبور » .

كالرميم : اى ان الريح جعلت كل شىءاتت عليه ، أى مرت به كالهشيم ، كالشىء الهالك البالى .

تمتعوا حتى حين : انذر صالح بنى ثمود قومه ان العـــذاب سيحل بهم بعد ثلاثة أيام .

جاء فى القرآن الكريم : « **تمتعوا فىداركم ثلاثة ايام !**

عتوا عن أمر ربهم : اى خالفوا امرالله .

قصة عاد وثمود وقوم نوح :

وتشير الآيات الى ما أصاب عاد وثمود وقوم نوح وكيف اجتثوا من فوق ظهر الأرض والعرب تطلق على عاد وثمود العرب البائدة اى الذين ابيدوا ، وليس يعـــرف من تاريخهم الا أن عادا كانت تقيم بالاحقاف فى جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت وأن ثمود كانت تقيم فى شمال الجزيرة فىالطريق بين المدينة والشام فيما يعرف الآن بمدائن صالح ، وقد فصلنا القول من قبل وسنعود الى تفصيله فى سورة مقبـــلة ان شاء الله أما الآن فنقف عند حدود الآيات ان الله قد سلط على عاد ريحا صرصرا عاتية ، واما ثـــمود فقد أرســل عليهمالصاعقة ، وأحيانا يسميها القرآن بالصيحة (وهم ينظرون) اى نهارا (**فما استطاعوامن قيام وما كانوا منتصرين**) اى مااستطاعوا أن ينهضوا ويتحركوا مجرد حركة لينجوابأنفسهم (**وما كانوا منتصرين) اى ما كان**

لهم ناصر ؟ وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين » وكما هلكت عاد وثمـــود فكذلك هلك قوم نوح بالطوفان .

ــ والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون .

مفردات :

بايد : بقوة .

وانا لموسعون : اى قادرون : واناذو سعة لا تضيق عن خلق مثلها الى أبد الأبدين .

الماهدون : مهد الأمر : اى سواه واصلحه ، ومهد الفراش سواه وبسطه .

السماء والأرض والحياة :

وتتحدث هذه الآيات عن عناصر الكون الثلاثة التى تشمل الانسان وتحيط به ونعنى بها السماء والأرض والحياة ويتجلى اعجاز القرآن على أشده عندما تراه يصف كل عنصر من هذه العناصر التى تؤلف هــذا الكون من أخص ما يتميز به ، فخاصية السماء هذه الأبعاد غير المتصورة بين اجرامها وكواكبها ومن هنا أشار الى قدرة الله اللا نهائية التى لا يحدها حد **(بنيناها بايد وانا لموسعون)** وقد طالعنا لبعض علمائنا الأفاضل ، محاولة للربط بين كلمة لموسعون وبين ما تقول به بعض نظرات العـــلم الحديث ، من أن الكون فى حالة « تمدد مستمر » ولكنا لا نميل الى هذا الراى ونؤثر أن نقف عند حد تفسير ، **لموسعون :** اى لقادرون .

ظاهرة الأرض الكبرى

واذا كانت ظاهرة السماء الكبرى هى السعة وابعادها الخرافية ، فان ظاهرة الأرض الكبرى هو وجود الانســـان على ظهرها وتهيئتها لسكناه ببســـطها (رغم كرويتها) « والأرض فرشناها فنعم الماهدون !

ظاهرة الحياة :

أما أعظم ظواهر الكون على الأطلاق فهى ظاهرة الحياة ، واليها يشير القرآن الكريم بقوله **«ومن كل شيء خلقنا زوجين»**.

والمفسرون القدامى على أن زوجين بمعنى صنفين أما نحن فنفسر هذه الآية على ضوء آية سورة النجم .

((**خلق الزوجين الذكر والانثى**)) فعندما يطلق القرآن ويقول : ((**ومن كل شيء خلقنا زوجين**)) فان ذلك يعنى انهما من شيء فى هذا الكون الا ذكر واثنى الانسان والحيوان والنبات ، بل وحتى الجماد (الموجب والسالب) وهذه الحقيقة من انه حتى النبات فيه ذكورة وانوثة حقيقة كان يجهلها العالم حتى وقت قريب جدا وبطبيعة الحال لم يكن العرب يعلمونها ، فعلى أيام سيدنا محمد كان الزراع (يؤبرون النخل) أى يلقحونه دون أن يعرفوا ماذا يفعلون فيقتطعون بعض أجزاء من نخل معين ليضعوها فى نخل آخر ، وحدث ذات مرة أن شاهد سيدنا محمد المزارعين يقومون بهذه العملية فسألهم عنها فأجابوه أنهم هكذا يفعلون (**دون أن يدروا السبب، وهو عملية التلقيح بين الذكور والانوثة**) ولما كانت معارف سيدنا محمد الانسان لا تزيد عن معارف معاصريه فقد قال لهم ما معناه انهم لو كفوا عن هذه العملية فلن يتغير شيء ، وقد كانت هذه الملاحظة العابرة كافية لان يتوقف المزارعون عن ((تأبير النخل)) فلم يجد البلح فى هذه السنة بما اعتاد أن يجود به ، فلما ذكروا ذلك لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال قولته التى أصبحت أحد الاصول ((**أيها الناس أنتم أعرف بشئون دنياكم**)) . أى أعرف بشئون فنونكم وأسرار حرفكم وصناعتكم ، ولقد ذكرنا هذه الحادثة لندلل على أن سيدنا محمدا الانسان لا يعلم أن فى النبات كما فى الانسان ذكورة وانوثة وأنه لابد من عملية تلقيح بينها ليقع الانتاج ، فعندما يقول لنا القرآن ((**ومن كل شيء خلقنا زوجين**)) فيجب أن تقطع السنة المتخرصين ، وأن يقروا ويعترفوا قبل فوات الأوان ، ان ذلك وحى من رب العالمين من خلق السموات والأرض والحياة ويعرف كل أسرارها لعلكم تذكرون) .

وهو وحده المنفرد بالوحدانية :

وبقى أن نذكر ونحن نختم هذه الفقرة ان الله عز وجل هو وحده المنفرد بالوحدانية سبحانه وتعالى ، وأما من عداه ففيه الذكورة والانوثة وفيه السالب والموجب .

((**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**)) .

— ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله الها آخر انى لكم منه نذير مبين . كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين .

مفردات :

فروا الى الله : أى الجأوا اليه بعبادته واطاعة أوامره وتجنب معاصيه .

والنذير هو سيدنا محمد يحذر الناس من عصيان ربهم الى أبد الابدين .

انى لكم منه نذير مبين :

ولا تجعلوا مع الله الها آخر :

وعلى رأس الجرائم التى يمكن أنيرتكبها الانسان نحو ربه هو أن يشرك معه معبودا آخر ، ويخطىء بعض الناس فيتصورون أن هذا المعبود الآخر لا يكون الا صنما من الحجارة ، ولكن المعبود الآخر قد يكون المال ، وقد يكون ملكا أو سلطانا . وقد يكون مجرد هوى الشخص فيعبـــدالانسان نفسه .

ضد كل هذه المخاطر التى يمكن أنيتردى فيها **الانسان** ، جاء ســيدنا محمد لينذر ويحذر **(انى لكم منه نذير مبين) .**

ــ كذلك ما أتى الذين من قبلهم منرسول الا قالوا ساحر أو مجنون .

رأينا فى سورة الطور ومن قبلها فىسورة ن كيف تخرص مشركو **قريش** على ســيدنا محمد فوصفوه بالجنون وبأنه ساحرأو كاهن أو شاعر ، والقرآن هنا يسرى عن سيدنا محمد ويفهمه أن هــذه الاتهاماتوالأوصاف قد انصبت على رأس كل من سبقه من الرسل .

اتواصوا به : ويتساءل القرآن تساؤل العارف يجيئون بعــدهم بأن يكذبوا الرســـل .

بل هم قوم طاغون :

اى لم يوص بعضهم بعضا ، وانما جمع بينهم **الطغيان** ، **فالكافرون فى كل زمان** ومكان تجمعهم سمة واحدة وهى تجاوزالحدود فى كل شىء .

فتول عنهم :

أى أعرض عنهم ولا تعبأ بقولهم .

فما أنت بملوم :

أى عند الله ما دمت قد اديت الرسالة **فليس عليك هداهم .**

وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين :

ولكن ليس معنى ذلك أن تكف يا محمد (والكلام لكل **مجاهد وواعظ الى أبد** الآبدين) عن **الوعظ والارشـــاد فسيظلالمؤمنون انفسهم فى حاجة للوعظ والتذكير**،

فلا يقولن قائل (وخاصـــة فى مثل وقتناالحاضر) لقد بح صوتنا من كثرة التذكير ولا نرى جدوى من وراء مواصلة ما نحن فيه ، فلمثل هؤلاء يوجه القرآن الأمر الخالد الأبدى ((وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين))ودعوة الحق لا تذهب فى هباء أبدا ، وان جاء عليها وقت تبدو كما لو كانت صرخة فى واد فلا تلبث أن تذهب بعد حين بالأوتاد أى تقتلع الباطل من أصوله .

ـــ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ٠ ما أريد منهـــم من رزق وما أريد أن يطعمون ٠ ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ٠

سر الوجود :

نصل الآن الى الآية التى تشير الىسر الوجود ، وهى ككل المسائل الغيبية تكتفى بالاشارة والرمز ، تاركة حقيقـــةالمراد والمقصود الى الله عز وجل ، وقدامى المفسرين لم يواجهوا الآية من هذه الزاوية،وانما واجهوها من أعقد ما تثيره من مشاكل وصعوبات ولاثبت لك على سبيل المثالبعض ما جاء فى القرطبى :

قيل (أى الآية) خاص لمن سبق فىعلم الله أنه يعبده فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص .

المعنى وما خلقت أهل السعادة منالجن والانس الا ليوحدون .

قال القشيرى والآية دخلها التخصيصعلى القطع ، لان المجانين والصبيان ماأمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة .

وقال على رضى الله عنه : أى وماخلقت الجن والانس الا لأمرهم بالعبادة واعتمد الزجاج على هذا القول ويدل عليهقوله **((وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا))**.

فان قيل : كيف كفروا وقد خلقهم للاقرار بربوبيته والتذلل لامره ومشيئته قيل وقد تذللوا لقضائه عليهم ، لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون على الامتناع منه .

وقيل الا ((**ليعبدون**)) أى ليقروا لىبالعبادة طوعا أو كرها .

قال مجاهد : الا ليعرفونى .

ويعلق الثعلبى على قول مجاهد فيقول : وهذا رأى حسن لانه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده(١) .

ونكتفى بهذا القدر من النقل عن القرطبى .

---

(١) فى النفس أشياء من هذا القول .

أما الشيخ السلفى المحدث ابن كثيرفلم يشأ أن يتوسع وقال : **أى انما خلقتهم لآمرهم بالعبادة .**

واستعرض ابن جرير العديد من الاراء التى نقلت اليه ، ثم اختار قول من قال: أى ليقروا بعبادتى طوعا أو كرها .

رأينا الخاص :

وبعد أن أدينا لك أيها القارىء الكريم ، ما لك فى عنقنا من الأمانة بنقل المأثور فى التفسير عن أشياخ المفسرين ، نسمحلأنفسنا أن نذكر ما استقر فى ذهننا عن معنى هذه الآية ، فقد كان أول خطاب عامدخلت به الحياة العامة منذ أربعين سنة ، يدور حول هـــذه الآية وهى أن الغـــرض والحكمة من الوجود الانسانى هو عبادة الله فى الأرض أى ((**خلافته**)) .

وتكون العبادة هى خلافة الله فى الأرض ، بمعنى البنـــاء والانشـــاء والتعمير والاحسان وعمل الخير ، فاذا وجد علىظهر الأرض منشذ وانحرف واتبع العصاة، هكذا شاءت ارادة الله لحكمة يعرفها ، فلايجب أن نشقى أنفسنا بمحاولة الغوص فى حكمة الله ، ولماذا خلق العصاة والمنحرفين،فهذا شأنه و ((**لايسأل عما يفعـــل وهم يسألون**)) وعلينا أن نقتنع بظاهر ،القولمن أن الله قد خلقنا لنعبده على أن تفسر العبادة بمدلولها الواسع ، أى خلافة اللهفى الأرض بالانشاء والتعمير والاحســـان بعمل الخير بكل فروعه ومشتقاته ، ونقفعند هذا القدر ولا نخوض فيما وراءه مما اضطر الخائضين لصرف ظاهر الآية التىتجزم وتقطع بأن سر وجود الانسان وغير الانسان من الكائنات التى نعلمها أو التى لا نعلمها هو عبادة الله ((**وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**)) والله تعالى أعلم بمراده .

ـــ ما أريد منهم من رزق . وما أريد أن يطعمون . أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .

وهذا هو ما يجب أن يفهمه كل مؤمنوان يتعمق فى فهمـــه ، فالله فى غنى عن العالمين ، وما الدنيا بكل ما ومن عليها لاتساوى عند الله جناح بعوضـــة ، فنحن عندما نحسن لأنفسنا ، والعبادة أصدقالعبادة هى لخيرنا نحن ولفائدتنا ونفعنا ، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين ، اى الشديدالقوة .

ـــ فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوبأصحابهم فلا يســـتعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون .

فويل للذين ظلموا : قيل كفروا منأهل مكة ، ونراها عامة للكفار فى كل زمان ومكان (**ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم**) أىنصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة .

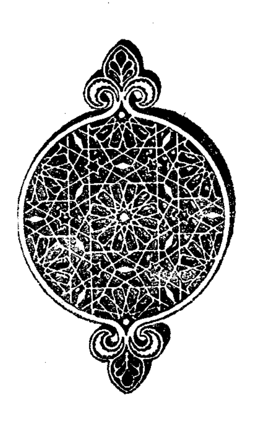
واصل الذنوب فى اللغة ((**الدلو العظيمة** وكانوا يستقون به الماء ثم يقسمونه بعد ذلك على الأنصباء .

ومن هنا قيل للذنوب نصيبا قال الشاعر :

لعمرك والمنايا طارقات — لكل بنى أب منها ذنوب

فلا يستعجلون : أى فلا يتعجل كل من كفر وعصى وانحرف نزول العذاب به، فيوم الكافرين حيث يقتص منهم آت لا ريب فيه ، وعندها فالويل لهم ، أى العذاب والهلاك لهم ((**فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون**)) .

صدق الله العظيم

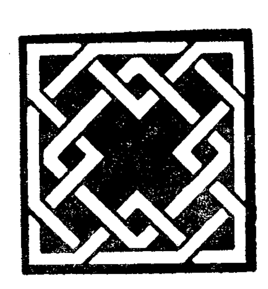




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)
هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ
رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ
وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ
عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ
فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ
يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن
كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل
لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ

مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾



ســـورة مكية :

سورة مكية باتفاق ولم نجد أحداً شذ عن هذا القول ، ولا بالنسبة لأى آية من آياتها ، وباستطاعة من يعايش القرآنمن ناحية ، وسيرة الرســـول من ناحية أخرى ، أن يحس بتدرج سور القــرآنالكريم مع مراحل الدعوة فعندما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته ، اقتصرتسور القرآن على التوحيد والانذار بالبعث والجزاء والحساب وما يلى ذلك من جنةأعدت للمتقين المؤمنين ونارا للجـاحدين الكافرين الفاسقين ولكن بعــد ذلك بدأتقريش تضيق بدعوة سيدنا محمد وتسفهها وبدأت تتقول على القرآن انه من تأليفسيدنا محمد ، ثم تحاول أن تصف سيدنا محمدا بما يبرر تكذيبها له فتصفها بأنه من نوع كهـــانهم ، فاذا تكشف لهـــم أن هذا الوصف لا ينطبق عليه ، وصفوه بالجنون ،واطمـــأنوا لذلك بعض الـــوقت ، ولكن سرعان ما تكذبهم الوقائع والأحداث ويتضحلكل ذى عينين ، أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أعقل من أعظم عاقل فيهم،فيختاروا أن يعتبروه شاعرا وقد عرفت الجزيرة شـــعراء من قبل ، ثم راحـــواايناقشون أفكاره فينكرون أن لهذا الكون خالقا ، كل هذه الاتهـــامات والجحـــود والنكران نرى أصداءها فى المرحلة التالية للمرحلة الأولى من السور المكية ، فنرىالقرآن الكريم يثبتها ، ويرد عليها وتلك هى عظمة القـــرآن وسر خلوده ذلك انهتضمن أقصى ما يمكن أن يتوله البشر فى الاعتراض على سيدنا محمد ثم يدحضه ،ثم جاء انتصار الاسلام وانتشاره وثباته على مر القـــرون والعصـــور آية قوتهورسوخه ، وأن ذلك هو الدليل على كون سيدنا محمد رسول من رب العالمين ، ومنهنا كان المسلم دائما وفى كل زمان ومكان محصنا ضد أى طعن فى الاسلام ونبىالمسلمين وكتاب المسلمين ، لانه لا يوجـــد ولن يوجد طعن الا وأجراه الله على لسانمشركى قريش وتولى القـــرآن من ناحية والأحـــداث من ناحية أخـــرى دحض هذهالمفتريات وابطالها .

وسيرى القارىء بعض هذه المفتريات فى هذه السورة كما سيرى أعظم دليل منطقى على وجود الخالق عز وجل .

سورة الطور فى الأحاديث :

وقد ورد ذكر اسم سورة الطور فى أكثر من حديث رواه البخارى ، **فروى عن زينب ابنة أم سلمة زوجة رسول اللهقولها : شكوت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى اشتكى ، فقال طوفى منوراء الناس وأنت راكبة فطفت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الى جنبالبيت يقــرأ بــ ((والطـــور . وكتاب مسطور)) .**

واورد البخارى رضى الله عنه فى صحيحه حديثا آخر عن محمد بن جـــبير ابن مطعم عن أبيه أنه قال : سمعت النبىصلى الله عليه وســـلم يقرأ فى المغـــرب

(بالطور) فلما بلغ هذه الآية : **((أم خلقوامن غير شيء أم هم الخالقون • أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون • أمعندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون))** قال : (أى جبير بن مطعم) كاد قلبى أن يطير .

وجاءت أحاديث ضعيفة عن أبى لا نرى داعيا لاثباتها لأنها تقال بالنسبة لكل سورة ، أن من قرأها فله بكل حرف من حروفها كذا وكذا ، وبركة تلاوة القرآن مسألة مقررة .

— والطور • وكتاب مسطور • فى رق منشور • والبيت المعمور • والسقف المرفوع • والبحر المسجور •

والطور :

جاء فى صحيح البخارى عن مجاهد قوله :

الطور فى اللغة السريانية يعنى الجبل وقيل هو الجبل الذى تنمو عليه الأشجار ولنا ما عناه القرآن من أن الطورهو جبل موسى عليه السلام وقد تكررت الاشارة اليه فى القرآن الكريم :

— واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور (البقرة ٦٣) .

— آنس من جانب الطور نارا (القصص ٢٩) .

وقد ورد ذكر الطور فى القرآن عشر مرات حدد مكانه فى اثنتين وأنه فى سيناء .

— وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين (أى شجرة الزيتون) (المؤمنون ٢٠) .

— والتين والزيتون وطور سينين •

والله هنا يقسم بالطور على أسلوب القرآن فى القسم ليسترعى انتباه السامعين واهتمامهم ، والوقوف طويلا أمام المقسم عليه لاستخلاص العبرة من ذكره ، وكيف يؤدى تأمل المخلوقات دائما الى الخالق .

سيدنا محمد رسول الله حقا وصدقا :

ونريد أن نقف قليلا كما عودنا قراءنا أمام كلمة الطور وتكرر ذكرها فى القرآن بمناسبة الحديث عن سيدنا موسى والاشارة برسالته والاحتفال بها واعتبار أن ماجاء به سيدنا محمد لا يخرج فى جوهره (وهو التوحيد) عما جاء به سيدنا موسى ، فنقول وبالله التوفيق :

يتقول المتخرصون أن القرآن ليس وحيا من رب العالمين ، وانمـــا هو من تأليف سيدنا محمد ، مع أن كل دارسللقرآن لا يلبث أن يثبت له أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من صنع البشر ، وطالمــانبهنــا الى ذلك ، وحسب الانســان أن يستحضر الاشـــادة بســيدنا موسى وكلما يتصل به ليتأكد كل انسان أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن « **ينطقعن الهوى . ان هو الا وحى يوحى** » .

فقريش ، والعرب الذين بعث فيهمسيدنا محمد لم يكونوا يهودا ، ولم يكونوا يؤمنون بموسى أو التوراة ، وانما هم قوموثنيون لهم معتقــداتهم وتقـــاليدهم ، وتاريخهم ، فلو أن سيدنا محمدا جاء منتلقاء نفسه لاصلاحهم وهدايتهم (كما يريد بعض الكفـــار أن يصـــوروا الأمر) ففيماحتفاله كل هذا الاحتفال بموسى وعيسى وهو لا يخاطب يهودا أو نصارى ، ولكنسيدنا محمدا لم يكن نبيا للعرب وحدهم وانما جاء برسالة للدنيا كلها بما فيها منيهود ومسيحيين ، ووثنيين ، وقد يقول (**أحد المتخـــرصين**) أن دعوة ســيدنامحمدا قد تطورت فى الاتجاه الانسانى فيما بعد ، فيكذب ذلك أن أوائل السور المكيةأى فى مستهل الدعوة ، تضمنت السور الحديث عن موسى وكل ما يتصل به ،وفى بيئة قامت على العصبية ، بل والتطرف فى العصبية ، ما كان أحرى بسيدنا محمد« لو كان ينطق عن الهوى » أن ينأى بنفسه عن مدح أديان ليست بعربية ، وأن ينادىبتفضيل أهل الكتاب ، على قومه وعشيرته ولكن المسألة كانت « وحى يوحى » ومنهنا تضمنت سور القرآن منــذ عصرها المبكر ، كل هذه الاشادة والتكريم بديانات لا يدين بها العرب ، ومن ذلك أقســم القرآن بجبل الطور وهو حجر الزاوية فى الديانة الموسوية ، وسيرد علينا تفصـــيل ذلك فى سور أخرى .

ـــ وكتاب مسطور . فى رق منشور :

قال المفسرون عدة أقوال بخصوص المقصود من « الكتاب » فقال بعضهم ان الكتاب هو القـــرآن الكريم ، وقد وردتسمية القرآن بالكتاب عشرات المرات فى القرآن الكريم ، ولكن الآية التالية « **فىرق منشور** » هى التى تفتح أمام الكلمة احتمالات أخرى ، ولذلك فنحن لا نأخذبقول من قال ان المقصود بالكتاب هو كتاب كل انسان : « **يوم القيامة كتابا يلقـــاهمنشورا** » .

كما قال البعض أن المقصود به هو « **اللوح المحفوظ** » .

اشادة القرآن بالكتابة والكتب كوسائل للعلم :

وعندنا أنه ما دام ليس لدينا قول محدد عن رسول الله ، فلنا أن نفهم من كلام القرآن ما تنطق به معانيه الظاهرةوعلى ضوء القرآن نفسه ، نفهم من الكتاب المسطور فى هذه الآية مطلق كتاب ينطقعلى علم مفيد للبشر ، نفهم هذا من « **رق منشور** » والرق هو ما تـــرقق من الجلد ليـــكتب عليه ، وقد اســـتخدم العـــرب

فيما بعد رق الغزال (**أى جلد الغزال**)ليكتبوا عليه ، وما علينا الا أن نستحضر فى أذهاننا كيف كانت أول كلمة من الوحى نزلت على رسول الله « اقرأ » ثم توالت مطالع السور وهى تشيد بالكتابة والقلم باعتباره وسيلتها « **ن . والقلم وما يسطرون** » واذا كان القلم هو وسيلة الكتابة ، فالورق هو مستودعها ، وهو هنا يقسم بالورق كما كان مستعملا فى ذلك الوقت من رقيق الجلد كما قدمنا .

سادة العلم :

فلا عجب وهذا شأن القرآن أن يتحول العرب الذين كانوا أجهل اناس فى الدنيا الى حفظة علم البشرية مذ وجد على الأرض علم ، ولقد لا يعلم الكثيرون أن أوربا لم تعرف الفلسفة الاغريقية ومنطق أرسطو أول ما عرفته الا عن طريق العرب ، أما عن احتفال العرب بالكتاب فقد بلغ الى الحد الذى جعل المأمون يشترط فى بعض معاهدات الصلح التى انتصر فيها على الروم أن يسلموه بضعة كتب حددها لهم .

ومرة أخرى نقول لا عجب فى ذلك ، فقد اقترن الايمان فى صدور المسلمين بالكتاب ، ابتداء من أعظم الكتب كتاب الله حتى مطلق الكتاب .

« وكتاب مسطور . فى رق منشور »

والبيت المعمور :

جمهرة المفسرين على أن البيت المعمور هو بيت فى السماء يسامت الكعبة ، (أى فوقها تماما) وذلك استنادا لحديث المعراج حيث يروى رسول الله أنه شهد ابان عروجه الى السماء البيت المعمور . وروى عن سيدنا على رضى الله عنه أن ابن الكواء سأله عن البيت المعمور فأجابه بقوله : **بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له « الضراح »** يقول القرطبى :

وقد جاء فى الصحاح « الضراح » بالضم بيت فى السماء وهو البيت المعمور .

والذى فى صحيح مسلم ، من حديث الاسراء قول مالك بن صعصعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : **ثم رفع الى البيت المعمور ، فقلت يا جبريل ما هذا ؟ فقال: البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك اذا خرجوا منه لا يعودون اليه ... الحديث .**

وقال بعض المفسرين : أن البيت المعمور هو الكعبة البيت الحرام وهو معمور بالليل والنهار بالناس القائمين الراكعين الساجدين ، الطائفين ، وقد أتيح لنا بفضل من الله ونعمه أن نشهد المسجد الحرام فى مختلف أيام السنة فى موسم

الحج والعمـــرة وفى غيرهمـــا من أوقات السنة ، شتاء وصيفا ، ليلا ونهـــارا ، فنشهد أن الكعبة لم تخل أبدا من الطائفين القائمين الركع السجود ، حتى لقد حدث فى بعض المرات أن أوشكت السيول أن تغرق الكعبة ، فكان أن ظل البعض يطوف حول الكعبة سباحة والبعض فوق الواح من الخشب ، والمهم أن الكعبـــة (البيت الحرام) لم تخل أبدا ولو للحظة واحدة من المصلين ، وبطبيعة الحال فالملائكة لا يمكن الا أن يحفوا بالمؤمنين فأى عمار بعد ذلك أو فوق ذلك ، وهذا لا يمنع بطبيعة الحال أن يكون ثمة بيت معمور آخر فى السماء أما لمـــاذا اخترنا أن نفسر البيت المعمور بأنه الكعبة فذلك لكثرة ما وصف الله الكعبة وما يحيط بها بما ينطبق على هذا الوصف واقرأوا ان شئتم :

ـ ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا (آل عمران ٩٦) .

ـ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس .

ـ فليعبدوا رب هـــذا البيت (قريش ٣) .

ـ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا (آل عمران ٩٧) .

وغير ذلك كثير فى القرآن ، فاذا وصف البيت بأنه معمور فذلك لا يصرفه عن الكعبة ، وما من شىء فى الأرض الا وله مثيل فى السماء .

ـ والسقف المـــرفوع . والبحر المسجور

السقف المرفوع هى السماء باعتبارها سقفا للأرض وذلك بنص القرآن « **وجعلنا السماء سقفا محفوظا** » .

والبحر المسجور :

فصلنا القول فى معنى المسجور عند شرحنا « **واذا البحار سجرت** » فقد قال البعض انها بمعنى اشتعلت أى تحولت نارا ، وقال البعض أنها بمعنى فاضت ، بينما ذهب آخرون الى ضد هذا المعنى فقالوا أنها بمعنى جفت وغاضت أى فرغت ويروون عن ابن عبـــاس قوله : خـــرجت (جارية) لتسقى ، فقـــالت أن الحوض مســـجور ، أى فارغ ، وقيل المسجور المفجور ودليله « **واذا البحار فجرت** » .

وعندنا أن أحوال يوم القيامة تحتمل ذلك كله ، ولا تعارض بين الصور المتقدمة فالبحار تنفجـــر ، فيفيض ماؤها وتتحول مواضعها الى فراغ وخواء ولا تلبث أرض البحار أن تنشق فتنطلق النيران من باطن الأرض وهكذا تتسع كلمة البحر المسجور لكل ما سبق .

بقى اتماما للفائدة أن ننقل لك ما جاء فى معاجم اللغة : سجرته سجرا من باب قتل ملأته ، وسجرت التنور ، أوقدته .

ـــ ان عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين .الذين هم فى خوض يلعبون . يوم يدعون الى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتمبها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواءعليكم انما تجزون ما كنتم تعملون .

ان عذاب ربك لواقع : جواب القسم .

تمور السماء : تضطرب وتتحرك حركة شديدة وتدور كالرحى .

فويل : اى هلاك وحسرة أو عذابشديد .

خوض : اى مندفعين فى الأكاذيب والأباطيل .

يدعون : يدفعون بشدة وعنف زائد .

اصلوها : اى ادخلوها وعانوا شدة حرها ولهيبها .

بعد أن يلفت القرآن الكريم الأذهان بشدة عن طريق استعمال القسم بما اقسم به من أول السورة ، يأتى القرآنبجواب القسم وهو التحذير من أهوال يوم القيامة وأنه آت لا ريب فيه وأن عذابربك واقع بالكفار والمشركين والفاسقين لا محالة .

صور يوم القيامة :

ويعود القرآن لتصوير أهوال يوم القيامة ، ويتجلى اعجاز القرآن وانه ليس من صنع البشر ، فى انه يستعمل فى كلمرة الفاظا وتراكيب جديدة فالسماء تنشق، والسماء تنفطر ، والسماء تمور وهى كلهابمعنى واحد والذى نفهمه منها ان ستكون أحوال غير هذه الأحوال المألوفة .

وتسير الجبال سيرا : اى تنتقل منأماكنها ولا تلبث أن تنفجر وتتمزق كأى شىء آخر « **ويسألونك عن الجبال فقلينسفها ربى نسفا** » .

فويل يومئذ للمكذبين :

الهلاك يومئذ والحسرة والعذاب والشقاء للمكذبين ، ويحلو لبعض قدامى المفسرين أن يقولوا أن « **الويل** » اسملكان فى جهنم .

الذين هم فى خوض يلعبون :

وسمة المشركين المكذبين ، انك تراهم غارقين فى الأكاذيب والأباطيل ، أو متهالكين على الدنيا ومادتها وشهواتها لا يفكرون فى بعث فضلا على حساب وعقاب .

يوم يدعون الى نار جهنم دعا :

وسوف يستيقظون من غفلتهم يوم يرون زبانية الجحيم ، يدفعونهم بشدة الى جهنم « **يوم يسحبون فى النار على وجوههمذوقوا مس سقر** » .

هذه النار التى كنتم بها تكذبون :

ما أمر المواجهة وما اقساها ، وهى أحد أساليب العذاب التى يعانيها المكذبون يوم القيامة حيث يذكرهم ملائكة العذاببما كانوا ينكرونه فى الدنيا ويسخرون منه ، من أنه لن يكون عذاب وليس الحديث عنالنار الا حديث خرافة .

أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون :

ولا عجب ان اصبح العرب المسلمون افصح وابلغ من عرفت الدنيـــا وهذا كتابهم يعلمهم أساليب الكلام ، انظـــر الىهذه الآية وكيف تشع بالتوبيخ والتقريع والسخرية والتهكم ، وخزنة جهنم يسألونالمكذبين على سبيل الاستهزاء « أهذا الذى تعانونه الآن هو من نوع السحر الذىطالمــا رميتم به سيدنا محمد » .

أم أنتم لا تبصرون :

قال بعض المفسرين ، ان « أم » هنا بمعنى « بل » أى بل كنتم لا تبصرون فى الحياة الدنيا ولا تعقلون .

وعندنا أن نبقى المعنى على جهة الظـــاهر وما فيه من تقـــريع وتوبيـــخ وسخرية .

ــ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون .

ويمضى محدثو المكذبين فى سخريتهموتعذيبهم لأهل النار فيقولون لهم ، لا فكاك لكم اليوم من معاناة عذاب جهنم والأمرعلى خلاف الحال فى الدنيـــا ، فصبركم أو عدم صبركم سيان « **سواء علينـــاأجزعنا أم صبرنا** » .

انما تجزون ما كنتم تعملون :

ولا تلوموا الا أنفسكم فأنتم اليوم لاتظلمون ، ولكنكم تنالون ما تســـتحقون .

ان المتقين فى جنات ونعيم . فاكهينبما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بمـــا كنتم تعملون .متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور

عين . والذين آمنــوا واتبعتهــم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ كل امرئ بما كسب رهين وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشـــتهون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطــوف عليهم غلمان لهم كأنهــم لؤلؤ مكنون .

مفــردات :

فاكهين : أى متلذذين ، متمتعين ، ناعمين مسرورين .

سرر مصفوفة : فى قول البعض أى متقابلة ودليلهم على « **سرر متقابلين** » وعند البعض الآخر « **مصفوفة** » بمعنى موصول بعضها ببعض باستواء .

بحور عين : زوجات المؤمنين فى الجنة فى كمال الحسن المــادى والخلقى والروحى وقيل نســاء بيض نجل العيون حسانها .

وما ألتناهم : أى ما أنقصنا الآباء بهذا الالحاق .

يتنازعون : أى يتبادلون ويتعاورون (من الاعارة) ويتجاذبون .

كأسا : كناية عن الخمر والكأس الفارغ من الخمر لا يسمى كأسا .

لا لغو فيها ولا تأثيم : أى مبرأة عن شوائب خمر الدنيا ، وما يصحبها أثناء شربها من كلام ســاقط وهــذيان لا يليق بالعقلاء ، كما لا يعقب شربهم اثم .

ويطوف عليهم غلمــان لهم : أى بالمــآكل والمشــارب وكل ما تشـــتهيه انفسهم .

كأنهم لؤلؤ مكنون : أى كأن هؤلاء الغلمان فى الحسن كاللؤلؤ .

وكننت الشئ أى سترته وصنته ، كناية عن نفاسة الشئ .

صور الجنة : وكما هو نهج القرآن لا يكاد يرسم صور العذاب التى تنخلع لها القلوب حتى يبادر بالتحدث عن النعيم الذى سيلقاه المتقون وطالمــا قلنا اننــا نقف عند حد ألفاظ القرآن فى الجنة والنار ولا نحاول كما يفعل البعض فيصف الكيفية ولنا دائما التعبير الجامع المــانع فى وصف الجنة من ان فيها « **ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** » .

وان كل محروم فى هذه الدنيا من ملذاتها المــادية أو المعنوية فسوف ينال فى الجنة أضعاف أضعاف ما حــرم منه بمقدار ما يؤمل وفوق ما يؤمل .

— والذين آمنــوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ كل امرئ بمــا كسب رهين .

كمال السعادة :

قلنا أن المتقين فى الجنة تتحقق لهمكل رغباتهم المـــادية والمعنوية ، فان كانت الرغبة فى أنواع الطعام أو الشراب وجدتعلى الفور حاضرة بين أيديهم وقيل لهم : **« كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون »** .

وان كانت الرغبة فى النســـاء فهىمتحققة كذلك **« وزوجناهم بحور عين »** .

حب الأبنـــاء :

واذا كان أحد مظاهر سعادة الانسان المعنوية أن يتقاسمها أو بالأحرى يشرك معه فيها من يحب ، فقد وعد الله المؤمنين أنه حتى هذه الرغبة سوف يحققها لهم فى الجنة فيرى الرجل أبناءه معه فى الجنةفى نفس درجته حتى ولو كانت أعمالهم لا تؤهلهم الى هذه الدرجة وذلك بدون أنينقص الله من الآباء شيئا ، شريطة أن تكون ذرية الانســـان مؤمنة فالقـــاعدةالأساسية أن لا يدخل الجنة الا مؤمن ، أما أن يرفع الله البعض درجات فى الجنة ،فهذا فضله يسبغه على من يشاء وهو هنـــا يتفضل به مرضاة للمتقـــين الذينيســـعدهم أن يشاطرهم أهلهم وأبناؤهم ما هم فيه من نعيم .

كل امرىء بما كسبرهين :

أما لمـــاذا لا يستفيد من هذا الفضل من لم يكن مؤمنا كما لا ينقص الأباء من عملهم مقدار ذرة فذلك لأن عدالة الله عزوجل قد اقتضت أن يكون كل امرىء بما كسب رهين ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانســـان الا ما ســـعى . وأن سعيه سوف يرى . فمن يعمل مثقال ذرةخيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

هذه هى القاعدة والأساس فلا يدخلالجنة غير مؤمن لمجرد أن أباه كان مؤمنا . فالايمان شرط لدخول الجنة أما ما زادفهو من فضل الله .

ـــ واقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا انا كنا قبل فى اهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . اناكنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم .

مفـــــردات :

يتساءلون : أى يتذاكرون .

مشفقين : اى يخافون الله وقد قلنا من قبل أن رأس الحكمة مخافة الله .

وقانا : اى جنبنا وحمانا من عذاب .

السموم : الأصل فى السموم انهـــاالريح الشديدة الحارة ، وقيل وقد توصف بها الريح الباردة ولكنها هنا لا يمكن الا أنتكون كناية عن أهوال الجحيم وقيل بل هى أحد أسماء النار وطبقة من طباق جهنم .

انه هو البر : أى اللطيف وعن ابن عباس انها بمعنى الصادق فيما وعد .

وقد تكررت هذه الصورة للمؤمنين أكثر من مرة فيما مر بنا ، فالمؤمنون فى الدنيا فى الأغلب والأعم يعانون من شظف الحياة وقسوتها ، ولا يقويهم على احتمالها والصبر على مصاعبها ومحنها الا رجاؤهمفى مثوبة ربهم ورحمته ولطفه بهم وهذا هو ما يتذاكره المؤمنين يوم القيامة فى الجنةوهم يجدون ما وعدهم به ربهم حقا .

ـــ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فانى معكم منالمتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . أم يقـــولون تقوله بللا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين .

اتهامات وافتراضات :

فى هذه الآيات الكريمة حشد لتصورات المشركين فاسدة وتصـــوراتهم لسيدنا محمد بعد أن هبط عليه الوحى وراح يبلغها كلف تبليغه وقد احتار المشركون فيمـــا يقولون ، وكانوا لا يكادون يستقرون علىرأى ، حتى يقع من الأحداث وســـلوك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما يظهربطلان تصورهم وفرضهم ، فيبحثون لهم عن تصور جديد وفرض آخر ، وسرعانما ينهار تصورهم الجديد ويرتفع ســـيدنا محمد ويرتفع معه القرآن الكريم الى أعلىعليين ، وقد مر بنا وصف سيدنا محمد بأنه ساحر ، وبأنه مسحور ، وفى هـــذهالآيات التى نحن بصددها القول بأنه :

ـــ كاهن

ـــ مجنون

ـــ شاعر

ـــ القول بان القرآن من تأليفه : والجامع فى هذه الاتهامات هو محاولتهم تفسير ظاهرة الوحى المحقق أنه كان يهبطعلى سيدنا محمـــد فيصبح فى حالة غير عادية حتى ليتصبب جبينه بالعرق فى اليومشديد البرودة ، ثم ينفصم عنه الوحى ، فيتلو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلمما لقنه اياه الوحى قرآنا عربيا ، ما سمعوا مثله من قبل ، فراح المشركون يفسرونهذه الظاهرة فقالوا ان سيدنا محمدا قد أصبح كاهنا وكان لدى العرب طائفة منالكهان يوهمونهم أنهم على اتصال بآلهتهم الوثنية ، وبهـــذه الصفة يبتزون أموالهموسلطانهم ، ولكن أحوال سيدنا محمـــد

سرعان ما دحضت هذا التصور شكلاوموضوعا ، أما شكلا فلأن الكهان كانوا يحيطون أنفسهم بالغموض والحركات المشعوذة واذا تكلموا اصطنعوا أسلوبا معينا من الرطانة كان العرب يطلقون عليها(**زمزمة الكهان**) .

أما سيدنا محمد فكان يتكلم جهارا نهارا بلسان عربى مبين هذا من حيث الشكل ، أما من حيث الموضوع فقد كانت الكهانة حرفة يرتزق منها الكهان ولذلك فقد كانوا يتقاضون أجرا فى مقابل ما يقومون به من عمل وذلك على خلاف سيدنا محمد الذى لم يتقاض أى أجر ، بل على النقيض من ذلك عندما عرضوا على سيدنا محمد أن يجمعوا له مالا ليصبح أغنى العرب اذا كان ما يريده من دعوته المال ، أو يجعلوه ملكا عليهم ان كان ما يريده هو السلطان .فرفض ذلك كله سيدنا محمد ، فدل ذلك على أنه لا يمكن أن يكون واحدا من هؤلاء الكهان شكلا ولا موضوعا كما قدمنا .

وليس شاعرا :

وبعد أن سقطت تهمة الكهانة تصوروا سيدنا محمدا أحد فحول الشعراء الذين عرفتهم جزيرة العرب قبل سيدنا محمد وقد كانوا يتصورون أن لكل شاعر شيطانا يلهمه الشعر ، فليس ما يمنع أن يكون سيدنا محمدا واحدا من هؤلاء ولذلك فما عليهم الا أن يتربصوا بسيدنا محمد (**أى ينتظروا**) حتى تحل به « **ريب المنون** » أى نوائب الدهر وحوادثه ،وأهمها الموت نهاية كل حى فيموت كما مات كل من كان قبله من الشعراء ، وهنا تتجلى أحد معجزات القرآن ، فقد قدمنا أن هذه السورة مما نزل من أوائل السور،وفيها يقبل القرآن ، وهو كلام من بيده الحياة والموت ، التحدى ، فيقول :« **فتربصوا انى معكم من المتربصين** » وقد كان وهلك القائلون بهذا القول ، أو آمنوا واعتنقوا الاسلام وبقى سيدنا محمد حتى انتصرت رسالته وكملت .

وما علمناه الشعر وما ينبغى له :

على أن فرية اتهام سيدنا محمد بأنه شاعر كانت قد سقطت قبل ذلك ، فما كان سيدنا محمدا شاعرا ، ولم يقل بيتا واحدا من الشعر طوال عمره ونحن نعلم أنه بعث على رأس الأربعين ، ومن غير المعقول أن لا يقول انسان الشعر فى صباه وشبابه ومطلع رجولته ثم يتحول فجأة الى شاعر ، وللشعر موضوعات يطرقها الشعراء وأوزان يتقيدون بها ، وسرعان ما اكتشف العرب أن القرآن شىء يخالف كل المخالفة ما اعتادوه وألفوه من أشعار وقد كان الله عز وجل حريصا كل الحرص أن يبعد سيدنا محمدا عن الشعر ، فلم يقل بيتا واحدا من الشعر طول حياته ، مع أن من هم دونه بمراحل فى البلاغة والفصاحة كانوا يقرضون الشعر أما هو فقد أبعد عن الشعر وذلك مصداق قوله عز وجل : « **وما علمناه الشعر وما ينبغى**

له »(١) ، وذلك سدا للذريعة واغلاق هذاالباب الذى حاول المشركون أن ينفذوا منه .

ولا مجنون :

ولما ضاقت قريش بسيدنا محمد ، فلا هو ساحر ولا هو كاهن ولا هو شاعر، فلم يبق الا أن يقولوا مجنون وهى تهمةتدل على افلاسهم أن يوصف أعقل العقلاء بأنه مجنون ، وسرعان ما اعتبر قائلوهاهم المجانين بطبيعة الحال ، واللطيف أن هذه التهمة رغم سخافتها هى ما لم يجدبعض المستشرقين ما يقولونه الا اياها فوصفوا الوحى بأنه حالة صرع كانتتصيب سيدنا محمدا وأعجب لانسان يكون فى رأسه ذرة من عقل فضلا عن أن يدعىأنه متعلم يقارن حاله التى هى ضرب من ضروب الجنون يكون فيها المصروع فىحالة من الغيبوبة لزمن طويل بعد تشنجات عصبية عنيفة قد ينال فيهاالمصروع من نفسه فيقطع لسانه أو يفقأ عينه . مالم يتخذ من حوله الاحتياطاتللحيلولة دون ذلك ، قارن حالة الصرع هذه كما يقررها التشخيص ، الطبى بحالةسيدنا محمد بعد أن يفارقه الوحى حيث ينطق بالقرآن أعظم ما عرف البشر منكلام سواء فى مبناه أو معناه تدرك على الفور لماذا أراد الله سبحانه وتعالىلقريش أن تقف من رسول الله فى بادىء الأمر هذا الموقف وأن يسجل القرآنتخرصاتها (وبذاءتها) وذلك لكى يحصل المسلمين ضد هذه التخرصات الى أبدالأبدين فقد سبق فى علم الله أن سيوجد فى كل زمان ومكان كفرة ، وملاحدةيتسمون بمختلف الأسماء سوف يجحدون رسالة سيدنا محمد فجعل قريشا تسبقهمبسوق كل ما قد يدور فى الذهن المعاند من اعتراضات ، كى تمحص وتسقط ويعلوسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعلو معه القرآن ولا تزيده القرون تلو القرونالا علوا ومجدا .

الامتحان آية الصدق :

ومن هنا قلنا فى كتابنا « **الايمان والاسلام** » بعد أن ناقشنا هذه القضية بتوسع أن المحنة التى تعرض لها سيدنامحمد كانت ضرورية وهى جزء لا يتجزأ من النبوة اذ أن ثباته فى مواجهة كل ضروبالتمحيص ونجاحه فى النهاية هو الدليل القاطع على صدقه ، وهو ما عناه القرآنبالفعل وهو يروى عن المشركين كل ماقالوه من مطاعن .

— أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم همقوم طاغون :

ويتساءل القرآن فى عجب الى أبد الآبدين ما الذى يدفع الكفار والمشركين الى هذا الشطط ، أعقولهم تأمرهم بذلك ؟

---

(١) على أن هذا لا يمنع أن سيدنا محمدا يسمع الشعر ويستطيب الجيد منه بل ويجيزه .

ولما كان ما يدعونه غير صحيح فقد دل ذلك على أن ما يقولونه ليس حديث تعقل ، وانما هو ضرب من ضروب الطغيان وهو الانحراف وتجاوز الحدود فى الضلال .

ــ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين .

ونصل الى معجزة القرآن فى كل الدهور وهو فى عجز البشر عن محاكاته فضلا عن الاتيان بمثله .

فقد كان أبسط ما قاله المشركون لتكذيب سيدنا محمد أن هذا القرآن من مقولاته ، أى من تأليفه . فيرد عليهم القرآن ، أن يأتوا بحديث مؤلف مثله ويدل السياق على أن هذه الآية ، وبالتالى السورة التى تضمنتها ، من أوائل السور التى نزلت ، ذلك أن التحدى لقريش ، راح يشتد ويتصاعد ويضيق عليهم الخناق فهو هنا فى هذه الآية الكريمة يكتفى بأن يطالبهم بأن يأتوا بحديث مثله ، فلما لم يفعلوا زاد فى تحديهم بأن قطع بأنهم لن يستطيعوا لو حاولوا ولو احتشد لذلك الانس والجن .

ــ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . (سورة الاسراء ٨٨) .

وعجز البشر ليس فقط على أيام سيدنا محمد ، بل وفى كل العصور الى ابد الأبدين ومضى القرآن فى تصعيد تحديه ، فطالب العرب لا بالاتيان بمثل كل القرآن ، وانما بجزء صغير منه لا يزيد عن عشر سور من سور القرآن البالغ عددها ١١٤ سورة .

ــ « **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** » سورة هود ١٣

ولكن قريشا ومن ورائها كل العرب وفيهم أئمة البلاغة عجزوا ومضى القرآن فى تحديه ، فطالبهم بتأليف سورة واحدة ونحن نعلم أن فى القرآن سورا لا تزيد على بضع آيات متناهية فى القصر مثل سورة الاخلاص .

« **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** » البقرة ٢٣

ومع ذلك فقد عجزوا فدل ذلك على أن القرآن ليس من قول البشر والا لأنتجوا منه العديد ، فما من كتاب مذ عرفت البشرية الكتب الا وله أشباه ونظائر فيما خلا القرآن الذى انفرد بالوحدانية لأنه كلام الواحد الذى لم يكن له كفوا أحد .

ــ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون .

القرآن يستدل على وجود الخالق بالمنطق :

وصدق الله العظيم عندما يقول : « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » فسوف يصادف الباحث فى آيات القرآن بذرة كل علم، وحجــر الزاوية فى أى فرع من فروع المعرفة ، ففى هاتين الآيتين التدليل على وجود الخالق بما اعتبر علم المنطق ، وعلم المنطق من وضع فلاسفة الاغريق وعلى رأسهم أرسطو ، ولم يتردد علماء المسلمين فى العصر العباسى عندما شرعوا فى ترجمة الفلســفة اليونانية أن يتــذوقوها ، بل ويجيدوها وبخاصة منطق أرسطو حتى لقد أطلقوا عليه اســم المعــلم الأول وذلك لسببين سبب فى أرسطو نفسه . اذ أنه بالرغم من كونه كان يعيش فى عصر وثنى تتعــدد فيه الالهة فقد توصل عن طريق الفكر المحض الى وحدانية الله وقــدمه وتنزيهه ، أما السبب الثانى أو بالأحرى الأول فقد وجدوه فى القرآن نفسه من مثل هذه الآية التى بالرغم من ايجازها الشديد، ففيها كل ما توصل اليه الفكر البحث المجرد لاثبات وجود الله .

ماذا يقول العقل :

فالعقل البشرى فى كل زمان ومكان والى أبد الأبدين يقوم على جوهر واحد هو التساؤل عن كل سبب وراء حدوث أى حدث ، أو بالأحرى عن علة وراء أى معلول ، ذلك هو سبيل العقل ، وهــذا دســتوره والقول بغير ذلك فيه اهــدار للعقل من أساسه ، وقد لخص أرسطو هذه الحقيقة فى عبارته : « **لابد لكل متحرك من محرك** » .

وتفريعا من ذلك فلابد لكل مصنوع من صانع ، ولابد لكل حادث من محدث ، ولابد لكل مخلوق من خالق .

وهذا هو ما يجيب به القرآن الكريم الكافرين فيسألهم : « **أم خلقوا من غير شىء** » أى هل خلقوا من غير خالق ، أم هم الذين خلقوا أنفسهم ، ولو تصورنا على سبيل المكابرة أنهم خلقوا أنفسهم ، فهــل هم الذين خلقوا السموات والأرض ، وهنا لا يستطيع العقل الا أن يسلم أنه لم يخلق السماء والأرض وينتج عن ذلك على سبيل الجــبر العقلى والالزام أن نؤمن بخالق خلقنا وخلق السموات والأرض هذا هو تدليل القــرآن العقلى فى وجه الــكفرة والمشركين لاثبات وجود الله ، ومن هنــا كان فلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا فى المشرق وابن رشــد فى المغرب ، هم أساتذة علماء أوربا المحدثين .

دليل ديكارت على وجود الخالق ووحدانيته :

نسوق على ذلك شاهدا من ديكارت باعث الفلسفة الحديثة ، فقد كان الدليل الذى ساقه على وجود الله هو ذات الدليل الذى تقرره هذه الآيات من أن الانسان

لم يخلق نفســه ، وبالتــالى لم يخــلق السموات والأرض ، وانما هى من خلق اله واحد متصف بكل صفات القدرة والعلم والكمال .

أنا أفكر فأنا موجود :

يبدأ ديكارت دليله من الشك فى كل شيء ، ثم يستطرد فيقول : « **ولكنى لو شككت فى كل شيء فانى لن أستطيع أن** أشك فى أننى أفكر ، وما دمت أفكر فأنا شيء **موجود** » .

وهكذا يثبت ديكارت أنه شيء موجود ، وينتقل من حقيقة وجوده الى التسليم بانه لم يخلق نفسه ، أما لمــاذا لم يخلق نفســه « **لأننى لو كنت أنا خالق نفسى لجهزتها بكل الكمال الذى ينقصها** » .

ويخلص ديكارت الى أنه يلزم من ذلك أن يكون خالق الكون هو الله الواحد الأحد القادر الكامل .

لا شيء يأتى من عدم :

أما علم المــادة الحديث الذى يقوم على المحسوس والملموس والتجربة، فيقول لنا أن لا شيء يأتى من عدم .

وهكذا نرى القــديم والجديد وكل ما أنتجه الفكر البشرى لا يخرج عن هاتين الآيتين :

« **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون** » اى بالحق .

أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون . أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون . أم تسالهم أجــرا فهم من مغرم مثقــلون . أم عنــدهم الغيب فهم يكتبون . أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون .

على قدر عقول أغلب العرب :

ومن التجريد المطلق والمنطق البحت الذى يخاطب به الله العقل البشرى حينما وأينما وكيفما وجد الى حديث يوجهه الى قريش بخاصة والعرب بعــامة فيسائلهم ما الذى يحملهم على الكفر والعناد وعدم الخوف من الله « **أم عندهم خزائن ربك** » .

يتصورون أن قدرة الله وعلمه وسلطانه مودعة فى خـزائن وهم سـدنة هذه الخزائن وحفظتها « **أم هم المصيطرون** »أم هم المتسلطون أصحاب السلطة « **أم لهم سلم يسـتمعون فيه فليـأت مسـتمعهمبسلطان مبين** » .

ويمضى القـرآن فى تتبع أخيلتهم السقيمة ، فيقول : أيكون الذى يحملهم على العناد والكفر وتكذيب الوحى النـازل منالسماء أن عندهم ما هو أعظم من ذلك ، اذ أنهم هم الذين يرقون سلما يصـعدبهم الى السماء ، اذا كان هذا هو حالهم ، فلماذا لا يأتى هذا المستمع بسلطان مبين(أى بحجة ناصعة على ما يدعون) .

أم له البنات ولكم البنون :

ليس صعودهم الى السماء بسلم الا سخافـة وتراهات ، لا تختلف عن تصورهم الفاسد أن الملائكة هم بنات الله ،فحيث لم يكونوا يكرهون شيئا فى الدنيـا كرههم للبنات ، فهم يجعلونها لله ويختصون أنفسهم بالبنين ، وليس وراء ذلك ما يدل على سفه عقولهم .

أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون :

يذكر هنا القرآن بآية صدق سيدنامحمد ، فمـا من نشاط يبذله الانسـان الا وهو يتلمس من ورائه الأجر وحق لكل انسان أن يتردد فى دفع الأجر حتى يحصل على المقابل ، أتراك يا محمد تسأل هؤلاءالمشركين أجرا على دعوتهم الى الحق فهم من مغرم (أى غرامة) يخافون ويهابون ؟ولمـا كان الجواب على ذلك بالنفى ، فلم يعد هناك محل للخوف أو التردد فى اتباع الحـق .

أم عندهم الغيب فهم يكتبون :

ويتابع القرآن الكريم تضييق الخناق على المـكذبين والمتعنتين ، فيسائلهم هل اطلعوا على الغيب والقضاء والقـدر وكل ما سـوف يجرى ، ويسجلون ذلك فهم آمنون مطمئنون ، ويرى بعض المفسرين أن فى الكلام اشارة الى ما سبق من تربص المشركين بالنبى « **ريب المنون** » .

أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون :

ويخلص القرآن الكريم بأن حقيقة الأمر هو أن المشركين انما يحقدون على سيدنا محمد وقد حزموا أمرهم على الكيده والبطش به ولكنهم سـوف يروا أن كيـدهم مردود اليهم ، ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله ، وهكذا يواصل القرآن الكريم التحدى ، ونصر الله عبده ورسوله ،وهزم المشركين وسحقهم سـحقا فى كل

موقف أرادوا فيه أن يكيدوا لسيدنا محمدابتداء من تآمرهم عليه فى دار الندوة حتى دخل مكة فاتحا .

أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون .

وكأسلوب القرآن فى النظم أحد أسرار اعجازه وحلاوته ومن ذلك التقديم والتأخير فهو يعود ليستأنف مجابهةالمشركين لاظهار افلاسهم فيقول لهم : أيمكن أن يكون لكم اله خاص بكم غير اللهخالق السموات والأرض « **سبحان الله الله عما يشركون** » نزه الله نفسه عن أنيكون له شريك .

ـ وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم . فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون . يوملا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون .

الكسف : جمع كسفة وهى القطع اى أن المعاندين والمكابرين فى كل زمان ومكان لا يمكن أن يقتنعوا الا بما يريدونالاقتناع به حتى الحقيقة المادية نفسها لو جابهتهم فانهم يحيدون عنها ويتجاهلونها ، وقد كان مشركو قريش فى معرض تحديهم لرسول الله ، يقولون له فيما يقولون : لن نؤمن بك حتى « **تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا** » اى أنيهدم السماء فوق رؤوسهم . (ولعلهم كانوا يتصورون السماء سقفا من زجاج)وهنا يقول القرآن وهو كلام من يعلم بحالهم **وحتى لو أجبناكم الى طلبكم** (الفجالساذج) وهو هدم السماء فوق رؤوسكم فتهاوت عليكم كسفا أى قطعا ، كما تطلبونلما آمنتم ولقال قائلكم : « سحاب مركوم » أى سحاب متجمع بعضه فوقبعض ، استمرارا فى العناد والمكابرة ، ويستوقفنا فى هذه الآية الكريمة أن هذاالذى يقوله مشركو قريش هو بذاته الذى يقوله علماء المادة الكافرون منهم بالألوهيةاذ يتصورون أنهم ما داموا قد فسروا الظاهرة ، فقد أصبحوا فى غنى عنالايمان بالله فما دام هذا الشىء أو ذاك يمكن تفسيره فما حاجتنا للايمان باللهوينسون أن ما فسروه لا يزال بحاجة الى تفسير ، ولا تفسير له الا بأن هناك ارادةعلوية هى التى أرادت هذا الشىء أو ذاك على هذه الوتيرة ، ولأضرب لك مثلاالأوضح ما أعنيه ، وهو مثل الطائرات التى تنقل البشر الآن بالملايين ، ولقد أصبحالانتقال بين القارات بالطائرات وفى المسافات البعيدة هو أحسن وأيسر وآمنطريقة للانتقال يدل على ذلك صيرورة المسافرين بالطائرات يعدون بعشراتالملايين ، ومع ذلك فمن بين عشرات الألوف من رحلات الطائرات تختار الارادةالعلوية طائرة من هذه الطائرات لكى تنسف ويهلك كل من فيها ، حتى أصبحذلك هو القاعدة ، ومع ذلك فيحدث أحيانا أن ينجو البعض ، ومن الطبيعى أن يبحثعن سبب الكارثة ، وبعد معرفة السبب يحدث الانقسام بين المؤمنين والكافرين ،فأما الكافرون فيقفون عند حد تعليل ما حدث ويحسبون أن ذلك هو كل شىءفهذه الطائرة قد احترقت لأنه حدث كذا وكيت ولا يكلفون فى أنفسهم مؤونةالتساؤل ولماذا حدث هذا الكذا والكيت

وهذه المرة فقط ، وفى هذه اللحظة بالذاتوعلى هذه الطائرة بالذات وعلى هذا النفر بالذات ، اذا كان كل سبب يحدث مسببه ،فلماذا يقع السبب أحيانا ولا يحدث مسببه، أو لمـــاذا يقع المسبب أحيانا ، دون أنيقع سببه الذى اعتدناه والفناه ، هنا ويبدأ ايماننا بالله عز وجل مسبب الأســـبابوالذى تقتضى مشيئته لحكمة يختص بعلمها أن يوقف الأسباب فلا تحدث مسبباتها ،أو تقع المســـببات دون أن تقع أسبابها ونحن نعــلم أن هذه مسألة تثير أشــدالجدل ، والذى يهمنا هنا أن نقرره أن الكفار والمشركين والملاحدة يقفون عنــد المـــادة وأحوالهـــا ــ أما المؤمنـــــون فيتجاوزون المـــادة الى ما وراءهـــا ، أوبالأحرى خالق المـــادة . الصدفة .. الخ

ــ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون :

ونريد اكمالا للبحث وتعميما للفائدة أن نتحدث عن الصدفة وكيف أن هذا العالم قد وجد بالصدفة وهو ما كان بعضالمـــاديين الملاحدة يقولون به فى القـــرنين الثامن والتاسع عشر ، ولا يزال بعضالمتشدقين باسم العلم فى العالم الاسلامى يرددونه جهلا منهم بأن العلم فى القـــرنالعشرين قد تطور بحيث لم يعد فيه مجالا للصدفة بمعنى (خبط العشواء) فقد وجدما أصبح يسمى « قانون الاحتمالات » فلم يعـــد ما كان يسمى فى المـــاضى بالصدفةيخبط خبط عشواء وانما يبدو كما لو كان يعمل ضمن نطاق خاص ، وعلى هـــذاالأساس تقوم كل شركات التأمين بأعمالها وهى تربح باستمرار مع أن عملها يقـــومعلى التأمين ضد الحوادث المختلفة التى وان بدت فى ظاهرها أنهـــا تقع بطريقةعشوائية فهى فى حقيقتها لا تتعدى نطاقا مرسوما ، وهكذا سقط ما كان يعد انهصدفة لا ضابط لها وأصبح القول بأن هذا الكون قد خلق بالصدفة هو من نوع القولأن هذا الكون خلق من غير شىء .

فذرهم : أى فاترك الكفار وشأنهم حتى يقضى الله فى أمرهم ، بالموت فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يوم ينفخ فى الصورفيصعق كل من فى السماء والأرض وينال الكفار والمكذبين ما ينالهم من أهوال يومالقيـــامة .

ــ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون :

أى يوم لا يغنى الكفار والمشركين والمكذبين مكرهم أو حـــذقهم أو جاههـــم وسلطانهم وكل ما يمكن أن يتصفوا به منصفات يعتزون ويستطيلون بها فى الدنيا ، لأن الانسان عنـــدما يكيد فهو يكيد بكلذلك ، ولكن هيهات أن ينفعهم شىء من ذلك ، فهم فى هذا اليوم أذلة خاسرون« **ولا هم ينصرون** » .

فذرهم ، منسوخة بآية السيف :

ويبادر القائلون بالنسخ من المفسرين ومنهم شيخنا القرطبى فيقول « **فذرهم** » منسوخة بآية السيف ، وقد كررنا رأيناأكثر من مرة من أن كل آيات القرآن عامة متى توفرت ظروفها .

ـــ وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ٠ واصبر لحكم ربك فانك باعيننا وسبح بحمد ربك حينتقوم ٠ ومن الليل فسبحه وادبار النجوم ٠

وان للذين ظلموا (أى كفروا أو عاندوا أو جحدوا) عذابا دون ذلك (أى قبل ذلك) أى عذاب فى الدنيـــا قبل عذابالآخرة ، **ولكن اكثرهم لا يعلمون** ، أى أن أكثر هؤلاء الظـــالمين لا يعلمون انـما يعانونه فى الدنيا هو نقمة من الله ، وليس فقط الا ساعة النزع عندما يستعرضون فى لحظة ، جرائمهم وظلمهم وقانا الله شر هذه اللحظة وما بعدها .

واصبر لحكم ربك فانك باعيننا :

أى اصبر يا محمد لقضاء ربك فيما حملك من رسالته وما ترتب على ذلك من ابتلاء قومه ، ويمضى القرطبى فيقول : ثم نسخ بآية السيف كأن سيدنا محمدا لم يعد مأمورا بالصبر ، والرأى عندنا انهمهما كانت الآيات موجهة ساعة نزولهـــا لسيدنا محمد فانها تصبح بعد ذلك عامةللمؤمنين فى كل زمان ومكان مالم ينص القرآن أو واقع الحال على انها خصوصيةلسيدنا محمد .

فانك باعينـــا :

أى نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ، واذا كان الله سبحانه وتعالى يعد سيدنا محمدا بذلك فوعده منسحب علىكل من يؤمن به ويصبر لحكمه .

ـــ ((وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم)) :

اختلف فى تأويل قوله تعالى : حين تقوم . فأخذها البعض على اطلاقها ، أى كلما قام المؤمن من مجلسه ، أيا كانوكيفمـــا كان هـــــذا المجلس . والبعض يحددها للقيـــام للصلاة ، والبعض يعتبرالمقصـــود بها هو التسبيح فى الصـــلاة نفسها ، وجريا على منهاجنا وهو الأخذبالأحوط ، فيا حبذا لو استطاع الانسان أن يسبح كلما قام للصلاة أو لغيرها .

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول عندما يقوم من مجلسه :

سبحان الله وبحمده أو سبحانك اللهم وحمدك وتزيد بعض الروايات قوله : أشـــهد ألا اله الا أنت استغفرك وأتوبُ اليك ٠

وفى صحيح البخارى عن رسول اللهقوله : ((من تعار فى الليل (أى هب من نومه) فقال لا اله الا الله وحده لا شريكله له الملك وله الحمد وهو على كل شىء

قــدير والحمد لله وسبحان الله والله اكبرولا حول ولا قوة الا بالله ، ثم قال اللهم اغفر لى أو دعا ، استجيب له فان توضأوصلى قبلت صلاته .

ومن أراد الاستزادة من هذه الأحاديث حول هــذا المعنى فعليــه بابن كثير ولكننا اتماما للفائدة نورد حديثا آخر **وردفى البخارى عن سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فقد سأل سيدنا محمدا أن يعلمه دعاءيدعو به فى صلاته . فقال له سيدنا محمد صلى الله عليه وســلم : « قل اللهم انىظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لى مغفــرة من عنــدكوارحمنى انك أنت الغفور الرحيم » .**

ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم :

ادبار : جمع دبر وهو آخر كل شيء .

وقد جرى حول الأمر بالتسبيح بالليل نفس الخلاف الذى دار حول « حين تقوم » أهو مجرد أمر بمطلق التسبيح ،أم أن المقصود به صلاة محددة ، وعندنا حديث محدود ورد عن ابن عباس ورواهالترمذى قال ابن عباس : ادبار النجوم الركعتان قبل الفجر .

وادبار السجود الركعتان بعد المغرب :

وفى صحيح مسلم عن السيدة عائشةرضى الله عنها قولها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ركعتا الفجر خير منالدنيا وما فيها » .

وفى رأى أخينا الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى تفسيره لهاتين الآيتين أنهما تشيران للصلوات الخمس .

« **حين تقوم** » : اشارة لصلوات النهار الظهر والعصر .

« **ومن الليل** » : المغرب والعشاء « **وادبار النجوم** » صلاة الفجر أما ونحن فى مجال التأويل لاستخلاص الأحكام فنحننفهم من ظاهر القول أننا مأمورون بذكر الله وتسبيحه .

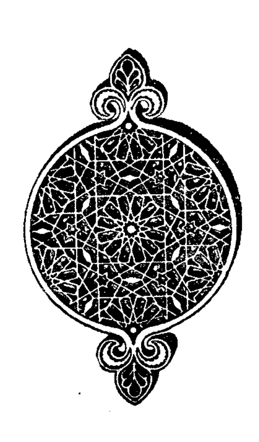
فى كل أحوالنا قياما وقعودا وعلى جنوبنا فى الليل والنهار فى الصلاة وغير الصلاة ، وفقنا الله الى ذلك والحمد للهرب العالمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)
وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦)
مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ
الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ
الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ
فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ
الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ

ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾
مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾
أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ
وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴿٦٢﴾ ۩



ســورة مكية .

محيه باتفــاق ويستثنى البعض آيةمنها أو آيتين ، فيقولون بأنها مدنية ولكنهم لا يذكرون سندهم فى هذا التخصيص ولناكما أصبحنا نقرر دائما المكتوب فى المصحف من انها مكية .

والسورة تتعرض عند كل المفسرين لمعجزة الاسراء والمعراج ويربطهما ســويا الأحاديث الصحيحة المتواترة من أن عروجرســول الله صلى الله عليه وســلم الى السماء كان ليلة الاسراء وقــد اعتــاد المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها أن يجمعوا دائما بين الاسراء والمعراج ، ومعذلك فان الدليــل الــكامل لا يأت القــرآن الكريم الــذى أصــدره المجلس الاعــلىللشئون الاسلامية يجعــل ســورة النجم من أوائل ما نزل من السور المكية ويجعل ترتيبها فى النزول بعد ســورة الاخلاص ، بينما يجعل ســورة الاسراء من أخــرياتالسور المكية وهــو ما يوافق المعــروف والمشهور من أن حادث الاسراء وقع قبلالهجرة النبوية بعامين او ثلاثة .

والســورة ترد على تخرصــــاتالمشركين من انحراف ســيدنا محمد عن جادة قريش وأنه لا يقول لهم ما يقول منتلقاء نفسه وانما يصدع بما أمر به من رب العالمين عن طريق الوحى الذى رآهرأى العين ، وما كان فؤاده يكذب ما رآه وما اطلعه الله عليه من البينات .

وفى السورة بعد ذلك مظاهر قدرةالله ، وتذكير بما حاق بالســـابقين من الــكفار .

الاسراء والمعراج :

على أن أشهر ما تثيره السورة هــوحديث الاسراء والمعراج . وقد اختلف فى هذه القضية كما اختلف فى غــيرها عديدمن الاتجاهات وقــد اعتــاد المفسرون أن يسهبوا فى بحث هذا الموضوع وهم بصددسورة الاسراء فى آيتها الاولى آية(**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرامإلى المسجد الاقصى الذى باركنا حــوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير**)حتى اذا وصلوا الى ســورة النجــم ، اكتفوا بالاحالة عليها ، وذلك لان جمهرةالمفسرين كانوا يبدأون دائما بسورة البقرة ثم يتدرجون الى ما بعدها أما نحن فقــدشاءت ارادة الله أن يبدأ تفسيرنا بقصــار السور اذ كان أول ما بدانا به هو سورةالعصر ثم تابعنا قصار السور حتى فرغنا من جزء عم ، وهكذا ، ومن هنا تعــرضلنا سورة النجم قبل سورة الاسراء ومن ثم فلا مناص من الحديث عن واقعة الاسراءتاركين التفصيل الموســع اذا أحيانا الله لحين بلوغها **ومجمــل القول فى حــديثالاسراء ، أن سيدنا محمــدا صــلى الله عليه وسلم أسرى به من مــكة الى بيتالمقدس وذلك ثابت بنص القرآن فى هذه ...ة التى نقلناها لك ، والاسراء من الفعلسرى وفى قواميس اللغة سرى بمعنــى**

(قطع الطريق سيرا بالليل) ومنه استعملت الكلمة على سبيل المجاز (سرى السم فى جسده) .

ولكن حادث الاسراء لا يعرف من القرآن وحده عن طريق التفسير اللغوى فحسب ، بل جاء به الحديث الصحيح ومن جمهرة الصحابة حتى اعتبر من المتواتر .

وقد تحدثت هذه الاحاديث عن أن سيدنا محمدا بعد ان وصل به جبريل الى بيت المقدس عرج به الى السموات ، ويرى اغلب المفسرين فى سورة النجم الحديث عن المعراج .

الخلاف بين أولى العلم :

وقد كان موضوع الاسراء والمعراج كما قدمناه محل خلاف ، ونرى أن ننقل لك عبارة القرطبى فى هذا الصدد :

المسألة الأولى : وهى هل كان اسراء بروحه أو جسده ، اختلف فى ذلك السلف والخلف فذهبت طائفة الى أنه اسراء بالروح ولم يفارق شخصه مضجعه وانها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق ، ورؤيا الانبياء حق ، ذهب الى هذا معاوية وعائشة وحكى عن الحسن وابن اسحق ، وقالت طائفة كان الاسراء بالجسد يقظة الى بيت المقدس والى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى **((سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى))** فجعل المسجد الاقصى غاية الاسراء قالوا ولو كان الاسراء بجسده الى زائد **(أى زيادة)** على المسجد الاقصى لذكره فانه كان يكون أبلغ فى المدح ، وذهب معظم السلف المسلمين الى أنه كان اسراء بالجسد وفى اليقظة وانه ركب البراق بمكة ووصل الى بيت المقدس وصلى فيه ثم أسرى بجسده **(أى الى السماء)** وعلى هذا تدل الاخبار التى أشرنا اليها **والآية .**

وليس فى الاسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة الى التأويل الا عند الاستحالة ولو كان مناما لقال بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله **ما زاغ البصر وما طغى**(١) يدل على ذلك ، ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما قالت له أم هانىء : لا تحدث الناس فيكذبوك ولا فضل أبوبكر بالتصديق ولما أمكن قريشا التشنيع والتكذيب ، وقد كذبته قريش فيما أخبر به حتى ارتد اقوام كانوا آمنوا ، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر وختم القرطبى بحثه بقوله :

وقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم معارج **فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا وعليه يحمل قوله عليه السلام فى الصحيح ((بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان — الحديث))** ويحتمل أن يرد من الاسراء الى نوم والله أعلم — انتهى كلام القرطبى .

(١) هذه الآية من سورة النجم .

هذا كلام قيل وكتب منذ بضعةقرون وأنا فى سنة ١٩٧٢ مع شديد رغبتى فى تبسيط الحديث وجعله بقدر الامكانمسايرا لروح العصر ليسهل على النشء الاستفادة منه لا أستطيع الا ان اقر هذاالذى قاله القرطبى شكلا وموضوعا أى من حيث الاسلوب والمحتوى ولقد سبقلى أن بينت رأيى فى موضوع الاسراء فىعدد خاص أصدرته منبر الاسلام ونفيت أنيكون الاسراء بالرؤيا فضلا عن ان يكون مناما ، لأنه لو كان رؤيا لنص القرآن علىذلك كما فعل فى اكثر من مناسبة ، واستبعدت كذلك أن يكون مناما والا لماثار هذه الزوبعة ، وأحمد الله أن سبقنى القرطبى بهذا القول ، فليس هناك ماهواحب الى قلب طالب العلم من أن يكون كرام اناس قد سبقوه الى ما قال لأن ذلكيؤنسه ويدله على انه لم يجاف الصواب.

ــ وما جعلنا الرؤيا التى اريناكالا فتنة للناس ..

هنا ويأتى ما استند اليه القائلونبأن الاسراء والمعراج كانا مجرد رؤيا ، حيث وردت هذه الآية الكريمة فى سورة الاسراءبالذات وهى تتحدث عن رؤيا رآها رسول الله ، وان ذكرها قد أحدث بلبلة (فتنة)، هنا ويجيء كلام القرطبى الذى نوافق عليه كذلك ، وهو أن نفرق بين موضوعى الأسراء والمعراج ، فأما الاسراء الى بيت المقدس ، فقد كان فى حالة اليقظة ، وأما العروج بعد ذلك الى السماء فهذا الجزء وحده هو الذى يحتمل أن يكون رؤياصادقة ، ومن المتفق عليه أن رؤيا الانبياء هى والواقع الحق سواء بسواء . بقىهذا الخلاف الشكلى وهو هل كان الاسراء والمعراج ، بالجسد أم بالروح أم بالاثنينمعا وعندنا كما قدمنا أن هذا خلاف شكلى فالامر معجز فى كل الاحوال والله قادر علىكل شيء واذا كانت عقول قريش قد اعتبرت ذهاب رسول الله الى بيت المقدسمن مكة وعودته منه فى ليلة واحدة أمرا مستحيلا ، فنحن لا نستطيع اليوم أننقول مثل قولهم والطائرات اليوم تذهب الى أبعد من ذلك وتعود فى خلال الليل ؛وما قدر عليه الانسان الفانى فان خالق الانسان عليه أقدر ومن يمارى فى ذلك فقدانسلخ من الايمان والعياذ بالله .

الله أم جبريل ؟

بقى ثمة مسألة يجب أن نجليها قبلأن نبدأ فى تفهم آيات السورة تفصيلا وهى أن بعض المفسرين قد ذهب الى أن الضمائر فىكلماتالسورة من مثل **(ثم دنا فتدلى)** وقوله **(ولقد رآه نزلة أخرى)** يقولون انهذه الضمائر تعود الى الله ، سبحانه عز وجل ، ويكون المعنى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رأى الله ، وأن الله سبحانه هو الذى **(دنا فتدلى)** ولكنجمهرة المفسرين الثقات على أن المقصود هو سيدنا جبريل عليه السلام ، وهوما نأخذ به .

رؤية الله :

وأما عن رؤية سيدنا محمد لربه فلنافى ذلك قول السيدة عائشة وهى من هى التى نفت ذلك ، وقول أبى ذر الذى روىعن رسول الله انه رأى نورا **ولا نقل لك عن البخارى نص القولين :**

روى البخارى بســنده عن مسروقعن السيدة عائشة رضى الله عنها قال : قلت لعائشة رضى الله عنها يا امتاه هلرأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ، فقالت لقد قف شعرى(١) مما قلت ، أين انت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب ، من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وســلمراى ربه فقد كذب ، ثم قرأت ((لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيفالخبير)) وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، ومن حدثك أنهيعلم ما فى غد فقد كذب ثم قرأت((وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا)) ومن حدثك انه كتم(أى أخفى شيئا من الوحى) فقد كذب ثم قرأت ((يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليكمن ربك)) الاية ولكنه رأى جبريل عليــه السلام فى صورته مرتين .

حديث أبى ذر :

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قال :

سألت رسول الله صلى الله عليهوسلم ((هل رأيت ربك)) قال : نور أنى أراه . المعنى غلبنى من النور وبهرنى منهما منعنى من رؤيته ، ودل على هذه الرواية الاخرى ((رأيت نورا)) .

بعد هذا التمهيد ننتقل الى الاياتبالتفصيل فنقول وبالله ومنه التوفيق .

تفســير ســورة النجم .

والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكموما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذومرة فاستوى . وهو بالافق الاعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى .فأوحى الى عبــده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى .

والنجم اذا هوى :

لم يدع المفسرون القــدامى شــيئاللخلف ، وما علينا الا أن نختار من اقوالهم السليمة ما تطمئن له قلوبنا وعقولنا خذ من ذلك على ســبيل المثال كلمة ((النجم)) فقد قالوا ابتداء أنها تعنى نجوم السماءحين تغرب ، فيقولون أقسم الله بالنجوم اذا غابت ، وليس ببعيد عن لغة العربوالتعبير بلفظ الواحد ليعنى الجمع ، مثل قول الشاعر عمر بن أبى ربيعة :

أحســن النجم فى الســماء الثريا   والثــريا فى الارض زين النســـاء

---

(١) كناية عن استقطاع السؤال .

وهناك من قال أنه أقسم بالفعل بنجم واحد وراحوا يسمون النجم المقصود أنه الثريا ، أو أنه الزهرة ، فقد كان بعض العرب يعبدونها ، ولقد طالعنا فى تفسير حديث ان النجم المقصود هو «النجم القطبى» وعندنا أن كل هذه اجتهادات ، واذا جاز لنا أن ندلى دلونا ، فنقول ان السورة الكريمة قد نصت بالفعل على اسم نجم له خطره وهو نجم « **الشعرى** » فلماذا لا يكون هو المقصود ؟

من اجل ذلك نفوض العلم الى الله عز وجل ، ونقف عند ظاهر الكلمة من انها نجم مطلق **نجم** .

معانى أخرى :

ولكن المفسرين لم يقفوا عند هذا المعنى وقال بعضهم أن المقصود بكلمة « **النجم** » النبات الذى لا ساق له .

ويرى القرطبى عن مجاهد قوله فى تفسير « **والنجم اذا هوى** » اى والقرآن اذا نزل. لانه كان ينزل نجوما **(أى متفرقا)**

ولكننا نختار دائما تفسير كلمة النجم بمعناها الاظهر والاشهر ، ونعنى به الجرم السماوى كائنا ما كان .

اذا هوى : قال الاصمعى : هوى بالفتح يهوى هويا أى سقط الى أسفل وهو هنا يعنى غروب النجم .

والقسم ببعض الكائنات والمخلوقات هو أسلوب قرآنى اتبع فيه عادة العرب فى استرعاء الاسماع والاذهان للمقسم عليه . وهو هنا الاية التالية :

ما ضل صاحبكم وما غوى :

هذا هو جواب القسم ، اى الامر الذى اراد أن يؤكده فى اذهان السامعين من قريش بأسلوبهم فى الخطاب **(ما ضل)** أى ما انحرف ولا حاد عن طريق الحق الذى اشتهر به بينكم أربعين سنة ، اذ أطلقتم عليه اسم الأمين وذلك لصدقه بحيث قال عنه أعدى أعدائه (أبو لهب) ، « **ما جربنا عليك كذبا قط** » .

وكل هذه المعانى مستفادة من كلمة « **صاحبكم** » اى هو محمد بن عبد الله الذى عرفتموه وعاشرتموه واحببتموه ، والانسان لا يتغير ولا يتبدل ، فهو كعهدكم به لا ينطق بغير الحق والرشاد .

وما غوى : الغى ضد الرشد ، أى ما صار غاويا .

وما ينطق عن الهوى.ان هو الا وحى يوحى .

فعندما يقول لكم محمد بن عبد اللهأنه رسول الله ، فهو لا يقول ذلك من تلقاء نفسه جريا وراء أطماع شخصية او اطاعةلنزوة أو شهوة نفسية ، وانما اطاعة لوحى تلقاه من رب العالمين ، وهذا هو تفسيرما يبدو لكم انه انقلاب من حياة محمد بن عبد الله .

الايمان بالوحى :

وعندنا أن الوحى حقيقة مؤكدة بنص القرآن واثبتته الوقائع والايام وفى « كتابنا الايمان والاسلام » تحدثنا بالتفصيل عن الوحى ، وفى « كتابنا نبى الانسانية » ، اثبتنا بالادلة العلمية والمنطقية ، انه لولاتأكيد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المستمر ، انه عبد الله ورسوله وانه بشرمثلنا **« يوحى اليه »** لولا ذلك ، لفتن به المسلمون ، كما فتن أصحاب الديانات الاخرى فاعتبروه الرب بذاته ، وذلك لان الاعمال التى قام بها ، والاثر الذى أحدثهوما زال يحدثه وسيظل يحدثه ، لا يتصور حدوثه من انسان ، ولكن سيدنا محمد الصادق الأمين ، عصم أتباعه من الوقوع فى هذه الضلالة ، حيث حدثنا القرآن الكريم فى هذه الاية وأمثالها ، ان السر فى هذا القرآن الخالد الذى أحدث فى الكونما أحدث ، انه وحى من رب العالمين .

علمه شديدالقوى .ذو مرة فاستوى.وهو بالافق الاعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الى عبدهما أوحى .

علمه شديد القوى :

أى جبريل عليه السلام فهو الذىكان ينزل بالوحى ويتلقى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وصف جبريل فى سورة التكوير بنفس الصفة والكلمة « ذى قوة عند ذى العرش مكين » .

أى أن جبريل يستمد قوته من الله عز وجل الذى أودعه هذه القوة .

ذو مرة فاستوى :

ذو مرة ، اى خلق حسن ، وقيلمنطق حسن ، وقيل صحة جسم وسلامة من الافات ، ومنه قول النبى صلى اللهعليه وسلم ، « **لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى** » .

وتقول العرب لكل جزل الراىحصيف العقل ذو مرة .

قال الشاعر :

قــد كنت قبــل لقــاكم ذا مرة　　　عنــدى لكــل مخاصــم ميزانه

فاســتوى :

ولكن الكلمة التى افترق حول معناهاالمفسرون اعظــــم افتراق ، هى كلمــة « **فاستوى** » ونستبعد بداءة ذى بدء علىما قدمنا قول من قال : أن الضمير يعود الى الله سبحانه وتعالى وعنده أن الله استوى على العرش .

أما الجمهرة ، ونحن معهم ، تقول أن المقصود هو جبريل ، وتكون استوى فى رأى بعضهم بمعنى ارتفع ، وآخــرون يرون أن استوى بمعنى أنه تجــلى على صورته التى خلقه الله عليها .

وهناك من قال : فاســتوى ، أى القرآن ، فى صدر سيدنا محمد او جبريل ، وهناك من قال أن معناها ((**اعتدل**)) أىسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،وليرجع الى القرطبى من أراد استقصــاء هــذه المعانى ، أما نحن فنختار قول من قـــال استوى بمعنى ارتفع،ورائدنا الاية التالية:((**وهو بالافق الاعلى**)) والقــول على أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ، طلبمن جبريل أن يتجلى بصورته الاصــلية ، فكان هذا الارتفــاع الى أعلى ليتســـع لهالافق الاعلى .

ثم دنا فتدلى :

ومرة اخرى يختلف المفسرون فى هذاالذى دنا فتدلى ، وذلك بعد أن يبينوا أن فى الكلام تقديم وتأخير والمعنى تدلى فدنى،يقول الطبرى : وذلك مثل قولك ، أحسن الى فزارنى ، أو زارنى فأحسن الى ، أوأساء الى فشتمنى ، أو شتمنى فأســاء الى ، وهكذا .. فالدنو يؤدى الى التدلى ،والتدلى يؤدى الى الدنو ، وعندنا أن ذلك ليس هو القضية ، وانما القضية هى فىتساؤل ، من هو الذى ((**دنا فتدلى**)) وقد اورد الطبرى قول من قال انه الله سبحانهوتعالى ، وقول من قال انه جبريل ، وهو نفسه (أى الطبرى شيخ المفسرين) منهذا الرأى الاخير ، اى أن المقصود هو جبريل وهو ما نأخذ به .

فكان قاب قوسين او ادنى :

أى قدر قوسين أو ذراعين أو أقربمن ذلك ، كناية عن شدة القرب والقوس هو سلاح كان يستعمل فى القديم ، وكانالعرب يستعملونه ، ويقولون أن ((**القاب**)) هو صدر القوس الذى يربط به ((**الجلد**))وقد قدر بذراع ، والمهم هو المعنى المستفاد من شدة القرب .

فأوحى الى عبده ما أوحى :

والمقصود أن جبريل أوحى الى عبد الله(سيدنا محمد) ما أوحى به اليه ، وثمـة تأويل آخر ، وهو أن الله عز وجل ، أوحىالى عبده جبريل ما أوحى الذى نقله بدوره الى عبد الله محمد .

ونحن باعتبـارنا مسـلمين مؤمنينلا نستكثر على سيدنا محمد أن يتجلى الله عليه ، ولكننا بازاء نصـوص نلتزمهـا ،فعندما تقول لنا آية تالية « لقد **رأى من آيات ربه الكبرى »** .

فنحن نقف عند النص لا نعدوه ،وأنهرأى آيات الله .

ولنا قبل ذلك ما ذكره البخارى نقلاعن السيدة عائشة وأبى ذر ، مما أثبتناه سابقا فضلا عن الاية التالية .

ما كذب الفؤاد ما رأى :

والذين يقولون أن سيدنا محمدا رأىالله ، يقولون أنه رآه بفؤاده ، أى بقلبه ، وان يستشعر قلب سـيدنا محمـد عليهالصلاة والسلام بربه ، فهذه مسألة دائمة ومستمرة صاحبته من المهد الى اللحد ،وعلى وجه التحقيق منـذ بعث ، وانمـا الرؤية البصرية بالعين لا تقع الا علىجسم،وتنزه الله عن أن يكون جسما محدودا أو غير محدود ، واذا كانت العـين لا ترىالا شيئا ، فتنزه الله عن أن يكون شـيئا **(ليس كمثله)** وروى عن ابن عباس أنه**قال : أتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لسيدنا محمد !**

ونحن كمسلمين نضـع نبينـا فوقالانبياء ، ومكانته عند الله تعلو كل مكانة ، ونحن نؤمن أنه لا يبعد عن قدرة الله أنيختص سيدنا محمدا بخاصية تجعله يرى ربه ، ولكن المسألة هى أننا نتمسك بعظمةالاسلام والتى تتجـلى أكثر ما تتجـلى فى التوحيد الخالص الصـافى المبـرأ من كلشوائب الشرك والوثنية،والا فكل مسيحى عاصر المسيح فقد رأى الله جسدا ، يمشىبين الناس ويأكل فى الاسواق ، أو بالاحرى هكذا يعتقد المسيحيون ويعتقد أصحاب ديانات أخرى يقدر معتنقوها بمئات الملايين كالبوذية والهندوكية ، وجاء الأسلام يصحح هذه المعتقدات ، **فالله لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، والله ليس كمثلهشىء ، والله لا تدركه الأبصار ، والله هو الأول وهو الآخر ،** وكل هذا يؤكد أن محورالتوحيد الاسلامى هو تصوير الله على أنه قوة غيبية لا نعرف شيئا من كنهها ، وانمانعرف ، بل ونرى ، مظاهر قدرتها ، فهى القوة الفاعلة الخالقة المدبرة المهيمنة الىآخر أسماء الله الحسنى ، ونؤثر أن نقف عند هذا القدر . ونعود مرة أخرى الىآية ــ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ، ونتساءل أكان ممكنا أن يكذب الفؤاد ما رأى اذا كانما رآه هو الله بالفعل ، ان العقل والقلب

يمكنهما أن يتشككا ويكذبا كل شيء دون الله عز وجل ، أما عندما يصل الامر الى حد رؤية الله ذاته ، فهل من المتصور أن يكون هناك علم يقيني أقوى من ذلك حتى يعتبر الامر ميزة لسيدنا محمد انه لم يكـذب ما يراه ، الحق أن الاكمل والاليق أن يكون ما رآه سيدنا محمد هو ما جاء فى آية تالية **((لقد رأى من آيات ربه الكبرى)) .**

وبعـد

فلا يتصورن متصور أننا ننعى فضلا عن أن ننكر على من اطمأن قلبه الى أن سيدنا محمدا رأى الله فقد قال بذلك علماء أجلاء وشيوخ أفاضل هم من مفاخر هذه الامة،كل الذى نريد أن نميل اليه أنه مادام قد وجد من كبار الصحابة ومن التابعين ومن أعاظم المفسرين من قال أن المعنى بالرؤيا هو سيدنا جبريل فهذا هو الرأى الـذى نختاره نحن .

افتمارونه على ما يرى :

أى اتجادلونه فيمـا يراه وقيـل تجحدونه والمعنى متقارب فقد جدل قريش جحودا .

ـــ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى .

نزلة أخرى :

اى مرة أخرى

سدرة المنتهى ، قيـل هى شـجرة وخصصوها بأنها شـجرة النبق بالـذات وخير من ذلك أن توصف بأنها منتهى كل شيء فلا يرقى بعدها أحد ابدا الا سيدنا محمدا الذى اختصه الله من دون الخلائق كلها بهذا التكريم والشرف .

ما زاغ البصر وما طغى :

قال أبو العباس : أى ما عدل يمينا ولا شمالا ولا تجاوز الحد الذى رأى وقيل ما جاوز ما امر به .

تفسير المنتخب :

وقد وعدنا أن نزيد الامر تفصيلا اذا امتد بنا العمر حتى نبلغ تفسير سـورة الاسراء ومن شاء المزيد من التفصـيلات فعليه بمطالعة الطبرى وابن كثير والقرطبى وللقشيرى رسـالة مطـولة فى الاسراء والمعراج بالذات ، **أما نحن الان فلا نرى ما نقوله الا أن ننقل ما قاله : اسـاتذتنا الاجلاء فى تفسير المنتخب الذى اصـدروه تحت اشراف المجلس الاعـلى للشـئون الاسلامية ، قالوا :**

« ولقد رأى محمد جبريل على صورته مرة أخرى ، فى مكان لا يعلم علمه الا الله سماه سدرة المنتهى وأنبأ أن عندها جنة المأوى ، اذ يغشاها ويعطيها من فضل الله ما لا يحيط به وصف ، ما مال بصر محمد عما رآه ، وما تجاوز ما أمر برؤيته ».

ـ لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الاخرى . ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذا قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

اللات والعزى ومناة :

اصنام كانت تعبدها العرب على تفصيل سيرد

قسمة ضيزى :

اى جائرة عن العدل خارجة عن الصواب ، مائلة عن الحق يقال ضاز فى الحكم أى جار .

ـ لقد رأى من آيات ربه الكبرى :

هذا هو النص الصريح على ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد راى آيات الله ، واذا كان الله عز وجل قد اختار هذا التعبير فمن رأينا (المتواضع) أن لا نعدل عنه الى غيره ، واذا كان جلت قدرته قد شاء أن يبهم ما هو فوق ذلك ، فيحسن من ناحيتنا أن نقف عند ما صرح به القرآن وما شاء ان يبقيه غامضا فيجب أن نبقيه على غموضه .

أفرأيتم اللات والعزى :

يقول الطبرى أن اللات مؤنث الله ويضيف غيره والعزى مؤنث العزيز وكانتا تعتبران بنات الله ، وتعبدان على هذا الاساس وقد أقيمت لهما أنصبة تعبر عنهما.
ومناة :

وكذلك الحال بالنسبة لمناة ، وقد قيل أنها سميت بهذا الاسم لكثرة ما يراق امامها من دم .

وكانت اللات صنما لثقيف بالطائف والعزى لقريش وبنى كنانة ببطن نخلة ، ومناة للأوس والخزرج وخزاعة بالمشلل فى الطريق بين المدينة ومكة .

وكان من أسماء العرب فى الجاهلية عبد مناة ، وزيد اللات ، وتيم اللات ، وقد أورد البخارى أن ثمة رجل فى ثقيف كان يلت السويق للحجاج ، فلما مات أقاموا نصبا على قبره وسموه اللات وعبدوه ، وعندما انتصر الاسلام عام الفتح وأسلمت ثقيف ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدم اللات ، وخالد ابن الوليد فهدم العزى ، وابو سفيان بن حرب فهدم مناة وذلك بعد أن هدم رسول الله بنفسه جميع الاوثان التى كانت تحيط بالكعبة فكان يشير اليها بعصا فى يده ويقول **((جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقا** . فينكفى الصنم ويقع على الارض وهكذا تهاوت عبادة الاوثان ، ولكن فى الوقت الذى نزلت فيه سورة النجم كانت اللات والعزى فى أوج سلطانها حتى أننا نرى أبا سفيان بن حرب يقول فى نشوة انتصاره فى غزوة أحد على سبيل الزهو والافتخار **((لنا العزى ولا عزى لكم))** .

ونعود الى سياق الاية فالقرآن الكريم يقول عن الرسول **((لقد رأى من آيات ربه الكبرى))** فهل رأيتم أنتم شيئا من قدرة هذه الاحجار التى لا تضر ولا تنفع ثم يسخر بالمشركين ويبصرهم بعمق حماقتهم وما هم فيه من تناقض مضحك فقد كانوا يعبدون هذه الاصنام باعتبارها بنات الله كما قدمنا وذلك فى الوقت الذى كانوا هم فيه لا يكرهون شيئا مثل كراهيتهم للبنات ، حتى لكانوا يدفنونهن أحياء مما فصلناه فى تفسيرنا لايتى **((واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت))** .

فى هذا الوقت الذى يفعلون فيه ذلك ، لا يستحون من الحديث عن بنات الله ، وهنا يأتى تعبير القرآن الساخر **((ألكم الذكر وله الأنثى . تلك اذا قسمة ضيزى))** .

أى أنها جائرة غير عادلة أن تختصوا أنفسكم بالذكورة وتدعوا الأنوثة التى لا تحبونها لله ، وقد قلنا أنه تعبير ساخر فيه تهكم على أسلوب العرب فى الكلام والحديث ليكون أبلغ فى التقريع والتبكيت ، وإلا فسبحان الله وتعالى عن الانوثة والذكورة معا .

(أن هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم)

ومن التخصيص الى التعميم كدأب القرآن ليكون صالحا لكل زمان ومكان الى أبد الابدين ، فليس اللات والعزى الا نماذج لما يمكن أن يوجد فى كل زمان ومكان ومن عبادة غير الله الواحد الديان وهؤلاء الارباب لا يكونون فقط من الأصنام الحجرية ، بل ومن الاشخاص وليس المهم أن يطلق عليهم اسم الارباب ، وانما يعاملوا على أنهم أرباب أى أنها مصدر النعم والهدف والغاية النهائية من الحياة كعبدة المال مثلا ، أو عبدة المادة فيصفونها بأنها الخالقة ، والمدبرة ، كل هذه نماذج أخرى من اللات والعزى وأن تسمت وتشكلت بأسماء واشكال وأفكار جديدة ، وصدق القرآن الكريم عندما يقول :

ـ ان هى الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ـ

أى أنها مجرد شقشقة وتراهات من صنع البشر لا من السماء ، ومما هو جدير بالملاحظة أن الوثنيين فى كل زمان ومكان ، فى الوقت الذى يستبعدون القداسة التى يضفيها المؤمنون بالله على معتقداتهم يحيطون هم أوثانهم وأفكارهم ومعتقداتهم بأشد ضروب القداسة ناسين أنهم بذلك ((**أن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس**)) أى يتبعون مجرد فروض واحتمالات لمجرد ارضاء شهواتهم ونزواتهم فالتحلل من الايمان باله واحد عادل ورحيم يحض على مكارم الأخلاق يهيىء للكفرة وللملحدين أن يتصرفوا على هواهم ووفق شهواتهم ونزواتهم .

ولقد جاءهم من ربهم الهدى :

وذلك فى الوقت الذى نزل فيه القرآن هدى ونوراً لبنى البشر يرشدهم الى الجادة والصراط المستقيم .

ـ أم للانسان ما تمنى . فلله الاخرة والأولى . وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ان الذين لا يؤمنون بالاخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى . وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا .

أم للانسان ما تمنى :

تقرر هذه الاية الحقيقة البارزة المؤكدة فى حياة البشر وتلك ان الحياة لا تسير وفق أمانيهم ومشتهياتهم فما يتمناه المشركون من أن تشفع لهم أوثانهم وأصنامهم ، ليس له أساس .

فلله الاخرة والأولى :

وانما الأمر كله لله بيده ملكوت كل شىء فى الدنيا (الأولى) والاخرة .

ـ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا :

طالما نبهنا الى أن كفار قريش لم يكونوا ينكرون وجود الله وانه خالق كل شىء ، وانما كانت قضيتهم انهم يشركون به ، فكانوا يعزون الى أصنامهم أنهم يتصرفون مع الله فاذا تقرب الانسان منهم شفعوا له عند الله (**ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى**) .

وفى هذه الآية التى نحن بصددها يذكر الله المشركين ان ملائكة السماء على عظم قدرهم لا ينفعون أحدا بالشفاعة له .

الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى :

أى أن الملائكة فى السماء كبقية خلق الله لا يتحركون حركة من تلقاء أنفسهم ، أى بمحض ارادتهم وانما كله لله فاذا شاء أن يشفع لأحد يرضى عنه ، اذن لبعض الملائكة أن تشفع فيهم فالمرجع لله أولا وأخيرا ، فليعبد الانسان كل انسان ربه وحده ولا يشرك فى عبادته أحدا ولا يجعل بينه وبين الله وسيطا من أى نوع كان ، فاذا أراد أن يتقرب فليتقرب من الله مباشرة **(واسجد واقترب)** واذا أراد أن يدعو فليدع الله مباشرة بغير حاجة الى وسيط(١) فالوساطة هى احدى نقائص البشر فلا يصح أن نخلعها على الله سبحانه وتعالى وهو القائل : **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان.**

— ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى .

أى كفار قريش كانوا كما قدمنا يعتبرون أصنامهم بنات الله اى ملائكة وكانت الملائكة عندهم من جنس الاناث .

— وما لهم به من علم أن يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ،

وغنى عن البيان أن الكفار وهم يقولون هذا القول السخيف لم يقولوه نتيجة علم تلقوه ، أو معرفة يقينية ، وانما هم يرجمون بالغيب ويظنون ظنا ، وهنا سبق القرآن كل ما قال به علماء العصر الحديث من أن العلم لا يؤخذ بالظن ، ولكن بالحق واليقين

— فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم أن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين اساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم أن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى .

— فأعرض عمن تولى عن ذكرنا . ولم يرد الا الحياة الدنيا .

هو القرآن ، أو الايمان بالله وبالتالى اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ويقول أصحاب نظرية النسخ ، ان هذه الاية قد نسخت بآية السيف ، وهم يعنون بذلك ، ان سيدنا محمدا فى صدر الدعوة قد أمر بالاعراض عن المشركين ، أى تركهم وشأنهم ، ثم أمر بعد ذلك بالتصدى للكفرة ومحاربتهم حتى يسلموا ، وتكون هذه الاية **(فأعرض عمن تولى عن ذكرنا)** قد بقيت فى المصحف على لفظها ولكن حكمها قد نسخ أى ألغى وقد ناقشنا هذه القضية ، بالتفصيل فى كتابنا الاسلام

---

(١) قرأنا بحثا جميلا ممتعا يفرق بين الوساطة والوسيلة فلزم التنويه .

ورسوله بلغة العصر وقلنا ان كل آيات المصحف عاملة عندما تتوفر ظروفها ، ولعل الاية التى نحن بصددها اظهر دليل على ذلك ، فالمسلم اليوم لا يستطيع ان يجبر غير المسلم على انتهاج طريق الاسلام ، بل ولا الدولة الاسلامية ولا العالم الاسلامى كله بقادر على أن يتصدى بالقـوة (**أى بالسيف**) على الدول الكبرى غير المؤمنة والملحدة ، ومن هنا فليس امامنا الا التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر الدعوة وهو الاكتفاء بالتذكير والتحـذير وابلاغ كلمة الحق والصبر على المكاره ويكون من واجب كل مؤمن النزول عندما تأمر به هذه الاية وهو الاعراض عما لا يمكن اصلاحه بالقوة) **أى بالسيف**) فلا يصح على سبيل المثال أن يخالط او يجارى المؤمن بالله (**غير المؤمن**) وان يجاريه فى اقواله ونظرياته ، تحت اى ظرف من الظروف وبأى شكل من الأشكال فنحن ازاء نص صريح ، لا لبس فيه ولا غموض وهو يأمر كل مسلم الى يوم الدين ان يعرض عن كل من لا يؤمن بالله ويجعل الدنيا كل همـه ومبتغاه (**فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا**) .

وفى أسباب التنزيل التاريخية لايات القرآن يقولون ان هذه الاية نزلت فى حق النضير من كفار قريش ، وقيل الوليـد ، ولكنها اليوم آية عامة فى المصحف موجهة لكل مسلم فى كل زمان ومكان .

ذلك مبلغهم من العلم : ذلك هو وصف كل من جحد الاخرة وحصر كل همه فى هذه الدنيا ، فعلمه ضئيل وان خيل له وللاغرار من حوله أنه أوتى من العلم الشىء الوفير ، وليس ادل على ذلك انك لو حدثت أعتى علماء المادة عمن خلق السموات والأرض لقال لك هذه مباحث ما وراء الطبيعـة ولا شأن لى بها اى انه جاهل يعطل عقله عن النظر والتأمل .

— ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجـزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

والمعنى واضح حيث يقرر أن الله وحده هو الذى يعلم الاخيار من الاشرار والمؤمنين من الكفار ، والمهتدين من الضالين وهو باعتباره خالق السموات والأرض وكل من فيهما ، وهو المدبر لكل شىء . فسوف يجازى كل انسان على عمله ان خيرا فخير وان شرا فشر ، ولكن الله الرحمن الرحيم بعباده ، شـاءت رحمته أن يفرق فى الجزاء على عمل السوء وعلى عمل الخير ، فقال ان فاعل السـوء سوف يحاسب ويجازى على (**عمله**) أما فاعل الخـير فقد وصف فعله بالاحسـان وان جزاءه سيكون بالأحسن (**بالحسنى**) .

— الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة .

أحد المبادىء الأساسية :

ونريد أن نقف طويلا أمام هذه الاية لتضمنها مبدأ أساسيا من مبادىء القرآن والتى تكرر ذكره فى أكثر من آية .

جاء فى القرآن الكريم :

ـ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (النساء ٣١) .

ـ والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش (الشورى ٣٧) .

وكل كلمة فى القرآن بل وكل حرف من حروفه يكفى لتأصيل مبدأ وقاعدة ، ولكن عندما يتكرر مبدأ فى أكثر من سورة فان ذلك يعنى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يغرسه فى نفوس المسلمين غرسا ليكون هو المحور وهو الميزان لكل تصرفاتهم .

الكبائر :

ويقوم هذا الاصل من أصول الاسلام فى الثواب والعقاب على الحقيقة التى شاءها الله وأرادها لحكمة يعرفها هو ، أن خلق الانسان ضعيفا ، وذلك بسبب نشأته من تراب الأرض وترصد الشيطان له ، واذ كان الله رحمن رحيم ، فقد قدر هذا الضعف وتجاوز للانسان عما وقع منه نتيجة هذا الضعف شريطة أن يتوب عما وقع منه ، أو يتوقف عن المضى فيما هم به من أعمال الشر ، أو يكون ما وقع منه لا يبلغ الاضرار بالنفس فضلا عن الغير .

ونحن نعلم أن فريقا من دعاة الخير والمرشدين ، لا يحبون أن يقفوا طويلا أمام هذا المعنى ، خوفا من أن يترخص الناس فيرتكبون صغائر المعاصى اعتمادا على مثل هذه الآية ، ونحن نخالف هذا النهج لسببين ، **الاول :** اننا بصدد آية من آيات القرآن نتفهم مدلولها على ضوء مثيلاتها التى تكررت بنفس ألفاظها تقريبا فى أكثر من موضع فأصبح لزاما علينا أن نتقصى المعنى ونحدد مراميه وأبعاده .

الثانى : أن الخوف من أن يؤدى الحديث عن رحمة الله ومغفرته الواسعة بالناس الى الترخيص فى ارتكاب الاثام والخطايا ، مسألة فيها نظر وقد يكون العكس هو الصحيح بمعنى أن التشدد والتغليظ قد يحمل من أخطأ وانحرف الى التمادى فيما هو فيه يأسا من مغفرة الله . ولذلك فيجب أن نقف دائما عند حدود ما اختاره القرآن ، ولا نسد بابا فتحه بدعوى سد الذرائع ، ولا نضيق مما أوسعه الله ، خاصة ونحن نرى ونشاهد أن التشديد والتغليظ لم يكف مسىء عن اساءته ، والايمان بواسع مغفرة الله ورحمته لم تحمل مؤمنا على الانحراف وبالتالى الزلل فكل ميسر لما خلق له ، وعلى ضوء ذلك نقول **وبالله التوفيق .**

الكبائر والفواحش واللمم :

الكبائر ضد الصغائر ، ويكون معنى ذلك ان الصغائر معفو عنها بشروط سنعرض لها ، وعلى رأس الكبائر بطبيعة الحال الشرك بالله أما الفواحش فعلى راسها الزنى لما يحدثه من آثار مدمرة في المجتمع اذ يقطع أوشاج الاسرة ، ويفكك الترابط بين أجزائها ، وقد كانت الاسرة وستبقى الى أبد الابدين هي الخلية الحية القوية في اى مجتمع سليم والزنا اذ يهدمها فهو يهدم المجتمع ومن هنا وردت الفاحشة في القرآن بمعنى الزنا ، غير أن الزنا في رأينا ليس هو الفاحشة الوحيدة ويجوز لنا أن نقيس عليه .

اللمم :

نصل الآن الى الكلمة التي تشعبت الاحاديث حولها . ولقد طالعنا الكثير في كتب التفسير حول ما قيل عن المقصود من اللمم وخرجنا منها بتلخيص لكل ما قرأناه ، ولكنا قبل ذلك نثبت معناها اللغوي وموقعها .

تقول العرب : **ما يأتينا الا لماما ، اى الحين بعد الحين ، وفي بعض قواميس اللغة : ألم الرجل بالقوم الماما اى أتاهم فنزل بهم ، واللمم أيضا طرف من جنون يلم بالانسان فهو ملموم به وبه لمم ، غير أن الكلمة بعد أن ذكرت في القرآن وفي هذا الموقع من هذه الآية فاصبح المعنى الغالب عليها كما جاء في الصحاح وغيره ، صغائر الذنوب .**

ونثبت الان ما وعدنا باثباته من ملخص ما طالعناه

الاول : اللمم هي الذنوب والمعاصي أيا كانت يقع فيها الانسان ثم يتوب عنها ودليل من قالوا بذلك قول القرآن الكريم ، « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم (الاية) .

ثم قال : « **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » ، وذلك كما قال عقب اللمم « ان ربك واسع المغفرة » .**

الثاني : اللمم هو صغار الذنوب التي لم يوضع لها حد في الدنيا يعاقب عليها ؛ ولم يخصص بعذاب في الاخرة ، وهذا الصنف تكفر عنه الصلوات الخمس .

الثالث : المعنى الثالث الذى قيل به في معنى اللمم ، هو المعصية تدور في خاطر الانسان وقد يهم بها ، ويقطع مراحل في سبيل تنفيذها ، ثم يتوقف عن المضي فيها .

ومثل ذلك ما توصلت اليه المجتمعات المتحضرة في عصرنا الحديث ، حيث تقول ، ان لا عقاب على النية ولا على الاعمال التحضيرية .

هذا هو مجمل ما قيل عن اللمم وعندنا ان الجامع بينها أيا كانت هو الاقبال على الله والتوبة اليه ، ومن هنا نقول ان التوبة الصادقة النصوح هى أمان كل عبد وان بابها مفتوح لتمحو آثار المعصية سواء كانت صغيرة أو كبيرة سواء كانت فى مرحلة التفكير أو وقعت بالفعل ، جعلنا الله من التوابين وما أصدق الشاعر اذ يقول :

ان تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

— ان ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الارض واذ أنتم أجنة فى بطون امهاتكم

يصرح هنا القرآن الكريم بالاسباب التى جعلت الله سبحانه وتعالى يتجاوز عن صغار الذنوب ويعفو عن كثير وان ذلك يرجع الى علم الله الذى خلق الانسان بضعفه اذ خلق (**آدم**) من التراب ، فأوقعه ضعفه البشرى فى الزلل الذى أخرجه من الجنة ، ثم تاب الله عليه بعد ذلك .

واذا كان آدم قد خلق من تراب الارض فان بقية البشر قد خرجوا الى الدنيا من أرحام أمهاتهم ، أطفالا ضعافا .

أما السبب الثانى لتجاوز الله عز وجل عن صغار الذنوب فهو واسع مغفرته ورحمته .

— فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى

فليحذر الانسان كل انسان من أن يداخله الغرور بنفسه ، فالاستقامة والهداية وكل خير يقوم به الانسان انما هو نفحة من الله عز وجل ، وهو وحده الذى يعلم من (اتقى) أى اخلص فى عمله وبعد به عن الرياء ولم يقصد به الا وجه الله .

— أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى .

أكدى : تقول اكدى الرجل ، أى قل خيره .

وأصل اكدى من الكدية ، يقال للرجل الذى يحفر بئرا ثم يبلغ حجرا يوقفه عن الحفر ، لقد أكدى .

ويكون معنى أعطى قليلا واكدى ، أى قطع القليل الذى كان يعطيه . وعلى ضوء هذا المعنى نستطيع أن نفهم الآيات على أنها اشارة لهذا الذى يشرع فى عمل طيب ثم يتوقف عن المضى فيه ، وقد ذكر الكثير من الاسماء والوقائع التى نزلت هذه الآيات بسببها ، فذكر الوليد بن المغيرة اذ تابع سيدنا محمدا لفترة فراح يثنى على القرآن ، ثم كف عن ذلك ونكص على عقبيه ، وذكر أبو جهل نفسه . نقل عنه انه قال: « انما يدعو محمد لمكارم الاخلاق » . ومع ذلك فقد ظل على كفره وتمادى فى عداوته

حتى قتل كافرا ، وذكرت أسـماء غـيرما تقدم .

واليوم تتحدث الآيات حديثا عاما فى النعى على كل من بدأ خيرا ثم لم يتمه .

أعنده علم الغيب فهو يرى :

ويتساءل القرآن على سبيل الانكار ،ما الذى جعل مثل هذا الرجل يتوقف عن المضى فى سبيل الخير ، هـل اطلع على الغيب ، فبان له ما يصح وما لا يصـح والذين يفسرون على ضوء حرفية أسباب النزول يقولون أن من صرف من شرعوا فى عمل الخير هم اناس تعهـدوا لهم أن يحملوا عنهم العذاب اذا كان ثمة عذاب ، وهنا يندد بهم القرآن ويسجل عليهم الجهل بالغيب .

ـ أم لم ينبأ بما فى صحـف موسى وابراهيم الذى وفى . الا تزر وازرة وزر اخرى . وان ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سـوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى . وان الى ربك المنتهى .

وحدة الدين ومبدأ الجزاء :

نصل الان الى مبـدأ أسـاسى من مبادىء الاسـلام ، بل مبـادىء الاديان كلها وهو النتيجة الحتمية للعدل الالهى ؛ وهى أن لا يتحمل أى انسان مسئوليـة عمل انسان آخر ، وبالتـالى لا يتحمـل جريرة خطأ آخر ، وكون هذا مبدأ أساسيا فى كل الأديان السماوية مستفادا من حديث القرآن ان هذا المبدأ قد ورد فى صحف ابراهيم ، أى كتاب ابراهيم وابراهيم هو ابو الأنبياء من بعده ، وقد وصف فى هـذه الاية بأنه ابراهيم الذى وفى ، أى أخلص لربه وتفانى فى الدعوة اليه ، حتى أصبح حبيبا الى الله ، كما ذكرت صحف موسى، باعتبارها هى بدورها الاساس ، الـذى قامت عليه ما جاء بعدها من رسالات على رأسها المسيحية ، وقد كانت دعوة الاسلام التى ما فتىء يؤكدها ، هى وحدة الاديان ، نتيجة واحدة ، مصدرها وهو الله عز وجل ، أما ما قد يرى فى هذه الاديان من خلافات ، فقد كان من صنع البشر ، لتحقيق غايات ومآرب شخصية ، ومن هنا جاءت سماحة الدين الاسلامى مع بقيـة الأديان السماوية الاخرى، فهو يعترف بها ويتعايش مع اتباعها ويدع للزمن والاقناع اكتشاف ارباب الديانات الاخـرى لما وقـع فيه أسلافهم من اخطاء وهنا يكمن سر الاسلام وقوته فى كل البلاد التى نفذ اليها ، أما هذا المبدأ الاساسى الذى قرر القرآن انه فى صحف ابراهيم وموسى فهو مبدأ .

ان لا تزر وازرة وزر أخرى :

الوزر : فى اللغة الثقل ، الاثم

لا تزر وازرة وزر أخرى اى لا تحمل عنها حملها ، جاء فى القرآن الكريم

حتى تضع الحرب أوزارها : اى حتى يضع اهل الحرب أثقالها ، فأسند الفعل للحرب مجازا ، **وقد اشتق من فعل وزر كلمة الوزير لانه ..** يحمل عن الملك أو الرئيس اثقال الحكم وتبعاته والذى يعنينا من كل ذلك هو الصياغة القرآنية لهذا المبدأ والمقصود به هو أن كل انسان مسئول عن عمله هو ولا يمكن أن يسأل عن عمل ارتكبه آخر ، وقد يتصور متصور أن هذه بديهية ، والواقع ان العمل قبل القرآن قد جرى على خلاف ذلك ، بل وحتى في المجتمعات غير الاسلامية الى وقت قريب جدا ، بل وكلما ابتعد أى مجتمع عن حكم القانون وساده حكم الفرد وبالتالى الطغيان سقط هذا المبدأ الاساسى من التطبيق فترى البعض يؤخذ بجريمة آخر لمجرد كونه قريبه فضلا عن أن يكون ابنه ولكن الاسلام سبق الديمقراطية الاوربية التى يعتبرونها ذروة الحضارة سبق هذه المدينة بأثنتى عشر قرنا ، والويل لنا اذا بعدنا عن جادة القرآن ونوره اذ نعود الى الظلمات التى انقذنا منها القرآن .

— وأن ليس للانسان الا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى .

واذا كان مبدأ أن لا يتحمل الانسان تبعات عمل انسان آخر هو احد وجهى (عملة) العدالة وهو الجانب السلبى ، فقد تحدثت الآيات التالية عن الوجه الثانى الايجابى ، وهو أن كل انسان له وحده ثمرة أعماله وحصيلة جده وكده .

ومرة اخرى يسبق القرآن ببضعة عشر قرنا هؤلاء الماديين الذين ملأوا الدنيا شقشقة وصياحا وضجيجا ، انهم هم الذين اعلوا من سلطان العمل ، وطالبوا لكل عامل ان يأخذ مقابل عمله بالكامل أقول ان هذا الذى احتاج الى ثورات ومحن وصبغ المجتمعات بالدم ، ثابت ومقرر بتشريع سماوى من رب العالمين .

— وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى .

والسعى : يعنى العمل

وجزى على وزن قضى اى أثاب

ويكون المعنى واضح ، وان الانسان كل انسان لا يحق له الا ثمرة عمله وكده واذا كان هذا سيتحقق بالكامل فى الاخرة ، فهو نبراس يهتدى به فى الحياة الدنيا .

ايضاح لابد منه :

وقال البعض ان الآية منسوخة وان عمل الابناء والاباء يفيد الانسان .

يقول القرطبى ، ولكن أكثر أهل التأويل على أنها محكمة ولا ينفع أحدا عمل أحد ، واجمعوا على أن لا يصلى أحدعن أحد ، ولم يجز (مالك) الصيام والحج أو الصدقة عن الميت الا أنه قال : ان أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه » .

وليس من خطتنا أن نخوض فى أحكام فقهية ولكنا فقط نريد أن نلفت النظر الى أن أى عمل صالح يمكن أن يفيد الانسان مع أنه من عمل غيره ، المرجع فيه فى الحقيقة هو عمل الانسان ذاته فثمة حديث مشهور « **اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » . فالاساس هنا هو بذرة العمل التى قام بها الانسان ، فهو الذى عمل الصدقة ، وهو الذى عمل العلم الذى ينتفع به ، وهو الذى أنجب الولد الصالح وأحسن تربيته ، ويكون ذاك على غرار من سن سنة حسنة فله اجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة .

فالمسألة هنا هى مسألة ماسنه الانسان من سنة حسنة ، فهى من عمله وصنعه ، اما كون الله يضاعف له فى الجزاء فهو يضاعف لمن يشاء بغير حدود .

بقى أنه قد روى عن رسول الله أنه أجاز من سأله ان يتصدق عن روح عزيز مات له ، وما كان نبى الرحمة ليمنع الصدقة لاى سبب من الاسباب وحسبنا هذا القدر فلسنا نريد كما قدمنا الخوض فى أمور فقهية خلافية فنرجح رأيا على رأى فان لكل رأى حججه واسانيده .

ولكننا فى حدود الاية التى نحن بصددها فهى تقطع بأن الانسان كل انسان مسئول عن عمله هو ان خيرا فخير والعكس بالعكس .

وان الى ربك المنتهى :

وان الله فى نهاية الأمر هو المرجع والمنتهى الذى تنتهى اليه الامور كلها فهو الذى يثيب وهو الذى يعاقب وهو الذى يجزل العطاء لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء كيف يشاء انى يشاء .

ـ وانه هو اضحك وابكى . وانه هو أمات وأحيا . وانه خلق الزوجين الذكر والانثى . من نطفة اذا تمنى . وان عليه النشاة الاخرى . وانه هو أغنى وأقنى . وانه هو رب الشعرى .

وحدة المتناقضات :

مادام ان الله هو الواحد فان كل شىء لا يمكن الا أن ينتهى الى الواحد ،

وعلى هذا فان كل ما قد يبدو فى الطبيعة من التناقض فهو ليس الا تناقضا ظاهريا شكليا ، ولكنه فى حقيقته مجرد تنظيم تنبثق منه الحياة كما أرادها الله ، ولقد تصور أقوام (اتباع زرادشت فى القديم) أن الحياة تنبثق من أصلين أساسيين (**الظلام والنور**) وهكذا قامت الديانة الفارسية القديمة على الازدواج ويمثلهم فى الوقت الحاضر الماديون الذين يتحدثون عن متناقضات يدور بينها الصراع ويرجعون كل شيء الى هذا الصراع .

وهذا هو نوع التفكير الخاطيء الذى جاءت هذه الايات لتدحضه ، فحقا يتضمن الكون ظواهر تبدو متعارضه ومتقابلة ، ولكنها ليست متعارضة ، وانما هى متكاملة ، والحياة لا تنشأ من صراعها كما يزعم ماديو العصر الحديث وانما تنشأ من تعاونها ، ومن هنا يذكرنا القرآن بأن الله هو رب هذا الذى يبدو لنا معارضا فى حقيقة واحدة وان اختلف مظهرها فالله هو الذى أودع فينا القدرة على الضحك والقدرة على البكاء ، والجهاز الذى خلقه الله ليضحكنا هو بذاته الجهاز الذى يبكينا وهو الجهاز العصبى ولذلك ففى بعض الاحيان يختلط الامران فاذا بنا نبكى فى مقام الفرح ونضحك فى مقام البكاء ، والله فى كل الاحوال هو الذى يضحكنا ويبكينا .

وامات واحيا :

وليست الاشارة الى الضحك والبكاء الا نموذجا لسائر أحوال الحياة من سكون وحركة وتوقف وسير وقيام وقعود ونوم ويقظة ، الى آخر مناشط الحياة ، فالله سبحانه وتعالى هو خالقها ، وقد جمع ذلك كله فى الظاهرة العظمى الحياة والموت فكل ما فى الحياة من مظاهر ابتداء من نشأتها حتى منتهاها من صنع الله ، ويحلو للماديين الملحدين أن يصوروا الوجود على أنه صراع بين الموت والحياة ، وهو عودة كما قدمنا الى آراء وأفكار وثنية قديمة من أن الوجود صراع بين (مزدا) اله الخير و (**اهريمن**) اله الشر ، هذا يحيى وهذا يميت والحمد لله أن جعلنا مؤمنين موحدين فالله وحده هو الذى يحيى ويميت وليس الموت الا ظاهرة من ظواهر الحياة .

وتبارك الله أحسن الخالقين عندما يأخذ بيدنا ليعلمنا ويرشدنا ، فهو يوجه عقولنا لفهم أن حقيقة ما يبدو لنا متناقضا هى حقيقة واحدة والله ربها فهو يوجه أبصارنا للذكورة والانوثة فهما فى الظاهر متقابلين ، ولكن أليس منشأهما واحد (**من نطفة اذا تمنى**) فهذا ماء الرجل يودعه رحم الانثى فينجب هذا ذكرا وفى مرة أخرى هو نفسه ينجب انثى ، ويقف الانسان الحديث بكل غروره وما يتصور انه بات لديه من العلم الذى أوصله للقمر ، يقف هذا الانسان عاجزا كأى انسان جاهل بدائى ، لا أقول عاجزا عن أن يتحكم فى النسل بجعله ذكرا أو انثى لا واستغفر الله ، بل عاجزا عن مجرد معرفة ما فى رحم الانثى وهل هو ذكر أو أنثى حتى بعد أن يكون الجنين قد استكمل نموه وتحددت أجهزته المختلفة ، ومع ذلك

يقف أعظم العلماء عاجزين عن معـرفة الجنين اهو ذكر أو أنثى حتى يخرج الى الوجود بالفعل وهذا ما يجعلنى دائمـا أقرر أن كل حديث عن أن الانسان يتقدم فى العلم انما هو حديث يضحك به على نفسه فان أقرب المسائل اليه والتى يبذل فى سبيلها كل مرتخص وغال لم يستطع فيها أن يزيد علمه قيد انملة ونعود بعد هذا الاستطراد الى ما نحـن بسـبيله فالذكورة والأنوثة كلاهمـا قد نشـأ من اصل واحد رغم اختلافهما الظاهرى وان الله رب الاثنين معا ، وفى هذا السياق عود لتسـفيه قريش على معتقداتهـا الفاسدة من تفضـيل الذكورة على الانوثة فكلاهما جوهر واحد شكله الله على هذه الصورة أسير الحياة وقد بقى للفائدة أن نقول للماديين الملحدين أن الحياة لا تقوم على الصراع بين الذكر والانثى ، ولكن على التكامل والتعاون والتنسيق بينهما .

وان عليه النشأة الاخرى :

وهكذا يجب أن نؤمن أن الله خالق كل شيء وما يبدو نقيضه ، فكذلك هـو خالق الحياة الثانية ، وكل ما نؤمن به من بعث ونشور . وحساب وثواب وعقاب ، وجنة ونار .

وانه هو اغنى واقنى :

اى اغنى من شاء وافقر من شـاء

وذلك مثل قوله عز وجل ((**يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر**)) .

وانه هو رب الشعرى :

تدمنا فى مستهل السـورة ان الله سبحانه وتعالى قد اقسم بالنجم مطـلق اى نجم وانه يحتمل أن يكون المقصود كل نجوم السماء ولكن بعض المفسرين قـد اقسم بالنجم مطلق اى نجم ، وانه يحتمل أن يكون اختاروا أن يكون نجما بعينـه وقالوا على سبيل الاجتهاد انه ربما يكون الزهرة أو يكون الثريا .

وقال أخ حبيب معاصر أنه قد يكون المقصود به « النجم القطبى » على أساس ان العرب كانوا يهتدون به فى سـيرهم كما أشار الى ذلك القرآن فى آية أخرى وتساءلنا نحن من ناحيتنا ولماذا لا يكون النجم المقصود هو الشعرى بالذات وقد صرح الله باسمه فى هذه الاية . وللشعرى كنجم متميز ارتباط وثيق بالحضارة المصرية القديمة فقد حددوا عن طريقه طول السنة الشمسية ولا نقل لك الان ما قاله العلماء فى تفسير المنتخب .

((الشـــعرى المراد هنا الشـــعرى اليمانية وهى ألمع نجم فى كوكبه القـــلب الاكبر وألمع ما يرى من نجـــوم الســـماء وتشاهد جنوب الاستواء السماوى بمقدار ١٨ درجة وتسمى بالنجم الكلبى وكانت تعرف بهذا الاسم منذ نحو ثلاثة آلاف سنة واشير اليها بكلب فى الاثار الفرعونية وقد اختصها الله بالذكر لان بعض العـــرب كانوا يعبـــدونها وكان قدمــــاء المصريين يعبدونها أيضا لأن ظهورها من جهة الشرق حوالى منتصـــف شهر يوليو قبـــل شروق الشمس يتفق مع زمن الفيضان فى مصر الوسطى أى مع أهم حادث فى العام وهذا الحادث قد يكون أدل تحديد لطول السنة فى العام كله لان ظهور الشعرى قبيل شروق الشمس لا يحدث الا مرة واحدة فى العام فهذا ابتداء عام جديد)) انتهى ما جـــاء فى المنتخب .

ــ وانه اهلك عادا الاولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكـــة اهـــوى . فغشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تتمارى . هذا نذير من النذر الأولى .

عاد وثمود :

وقد تحدثنـــا عن عاد وثمود أكثر من مرة كلما وردت الاشارة اليهما فى ســـور القرآن (انظر سورة القمر) وهما قبيلتان من قبائل العرب البائدة وتقع آثار عاد فى جنوب جزيرة العرب الشرقى بالقرب من حضرموت والربع الخالى ، بينما تقع آثار ثمود فى الشمال فى الطريق الى الشـــام فيما يعرف بمدائن صالح ، وطالما حـــذر القرآن مشركى قريش من أن يدمروا ، كما دمرت عاد وثمود من قبل ، وقد حدث خلاف فى الرأى حول وصف عاد بأنهـــا الاولى ، قال البعض انها تعنى انها كانت سابقة على ثمود ، وقال بعض آخر انه كانت هناك عاد ثانيـــة ، ولسنا فى صدد تحقيـــق تاريخى ، والمهم هـــو العبـــرة المستفادة من هلاك هؤلاء الاقوام بطـــرق غير عادية وجماعية فى نفس الوقت ، وذلك بسبب كفرهم .

ــ وقوم نوح من قبل . انهم كانوا هم اظلم وأطغى . وهذه اشارة صريحة الى ان قوم نوح كانوا قبل عاد وثمود ، وأنهم كانوا أظلم واطغى والطغيان هـــو تجاوز الحدود .

ــ والمؤتفكة أهوى :

قال بعض المفسرين ان المقصـــود (**بالمؤتفكة**) هم قوم لوط وذلك تأسيسا على أن الكلمة تعنى (**قلب الشىء رأســـا على عقب**) يقـــال فى اللغـــة ، **أفكته أى** قلبته ، **وأهوى** ، أى خسف بهم . وقد جاء فى القرآن الكريم عن قوم لوط : **فجعلنا عاليها سافلها** وامطرنا عليهـــا حجارة من سجيل ، والذين يقولون بهـــذا الرأى ، يرون أن آية

فغشاها ما غشى

هى الكناية عن هذا المطر السماوى الذى أصاب قوم لوط بينما قال آخـــرون ان الامر كله كناية عن الامم التى تكفـــربربها فتحيق بها الوان العذاب

فبأى آلاء ربك تتمارى :

الالاء : النعم أى فبأى من نعم اللهتشك ، والخطاب موجه للانسان المكذب.

هذا نذير من النذر الأولى :

اى ان هذه الاشارات والحديث عاجل بالامم السابقة هو انذار لكم وقـــال البعض أن النذير هو القرآن وأنه مثـــلما سبقه من الكتب **(صحـــف ابراهـــيم وموسى)** انذار وتحذير وكل هذه معانىلا تعارض بينها .

ــ أزفت الأزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون . وانتم سامدون .فاسجدوا لله واعبدوا .

أزفت : أى دنت واقتربت .

الازفة : احد أســـماء يوم القيامة ،والمعنى اقتربت الساعة .

وقيل وأنتم ســـامدون : أى وأنتملاهون معرضون .

وتنتهى السورة بما تبـــدأ به بعضالسور الاخرى وهو التذكير بيوم القيامة وأهواله ويوم القيامة هنا هو الازفة ،وهىأسماء صكها القرآن لاول مرة من اللغـــة العربية فأصبح ارسالها مطلقة تعنى علىالفور يوم القيامة .

والحديث هنا اشارة على دنو يومالقيامة ولكن ما هو مدى هذا القـــرب فالله وحده هو الذى أختص بهذا العلم**(ان الله عنده علم الساعة) والقـــرب** مسألة نسبية ، فقد تكون لحظـــات ، أوســـاعات والوف الســـنين والمؤمن الحق يجب أن يتوقع القيامة فى أى لحظة وانيعمل لاخرته على هذا الاساس .

ــ ليس لها من دون الله كاشفة :

أحسن المعانى التى نختارها لهذه **الآية** هو ما قال به المنتخب من أن الله هو وحده الذى يكشف عن موعد الســـاعةوهو ما يتفق مع ما تقدم .

معنى مستقل متداول للآية :

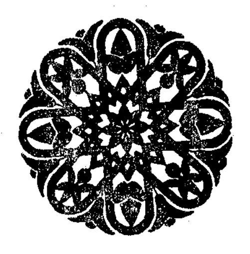
غير أن للآية فى معزل عما سبقها ،معنى شائع متداول ، وهذه هى عظمة القرآن وما أغنى به اللغة العربية منتراكيب وصيغ تستعمل على سبيل الاستقلال للتعبير عن معانى مختلفة فقداعتدنا على سبيل المثال كلما أحسسنابأزمة تمسك بخناقنا ((**ليس لها من دون الله كاشفة**)) .

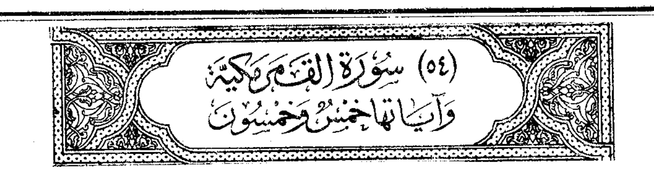
بمعنى تسليمنا الامر كله لله فهووحده القادر على أن يزيل ما نحن فيه من غمة ، ويكون الكشف هنا بمعنى الرفعوالازالة أما الكشف هنا والآية فى موضعها بالنسبة لبقية الايات . فالأرجح أنها تعنى الانكشاف أى العلم .

ـ أفمن هذا الحديث تعجبونوتضحكون ولا تبكون . وانتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا .

والحديث هنا توبيخ وتقريع للكفرةوالملحدين فى كل زمان ومكان وهم يكذبون القرآن ويتقولون عليه **(تعجبون)** وتسخرونوتستهزئون (**وتضحكون**) وذلك بدلا من ان تنزجروا وتخافوا مما فيه من انذارووعيد . بحيث (**تبكون**) وتؤثروا ان تظلوا فى لهوكم وغفلتكم ، أو كبريائكم المزعوم (**وأنتم سامدون**) .

كلا ثم كلا أيها الضالون المكذبونالمنحرفون خير من ذلك كله أن تسجدوا وتعبدوا الله الحق (**فاسجدوا للهواعبدوا**) .

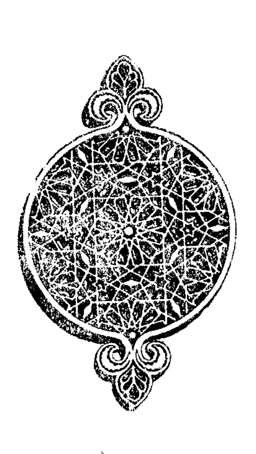




بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ
وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ
عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾
فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ
ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم
بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ
فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم

بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ
وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ
وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾



ســورة مكية :

الذى فى المصــحف انها مكية ولم يدراى خلاف حول مكيتها فهى مكية باتفــاق وهى تفتتح بالآيات حول انشقاق القمر هل سيكون يوم القيامة ، أم انه تصــوير لمــا وقع فعــلا حيث جاءت الأحاديث فى الصحيح ان القمر قد انشق فى أيام سيدنا محمد ، وقد تطور تصــور هذا الموضــوع من عصر الى عصر فقد وجد دائما من قال: ان انشــقاق القمر سيكون عند اقتراب الساعة ، ووجد فى نفس الوقت من قــال انه انشق معجزة لسيدنا محمد نزولا عندحكم الأحاديث الصحيحة والتزاما بمدلولها، وفى أيامنــا هــذه ناقش بعض المفسرين القضية واستبعدوا فكرة انشقاق القمــر على عهد رسول الله ، وســنعرض عليك القضية لتختار لنفسك ما ينشرح له صدرك وانت آمن فى كلتا الحــالتين ، انك مجتهد لك أجر الاجتهاد حتى فى حالة الخطأ .

أحاديث الرسل والجماعات :

والسورة بعد ذلك اســتعراض لكثير من أصحاب الرسالات ممن جاءوا لقومهم يرشدونهم الى الصراط المستقيم ، فتنكروا لهم وقاوموهم فــدارت عليهم الدائــرة ، وانتصر الحــق وانتصرت الفضــيلة وباء المجــرمون بالخسران وبأسلوب القــرآن المعجز تستعرض السورة فى عبارات وجيزة وكلمات قليلة قطاعا زمنيا ومكانيا طويلا عريضا ابتداء من سيدنا نوح ، حتى عــاد وثمود مرورا بسيدنا لوط « المعاصر لسيدنا ابراهيم » حتى سيدنا موسى (من خلال الحديث عن فرعون) .

الهدف المزدوج من قصص القرآن :

ويتجلى الهــــدف المزدوج من قصص القرآن فى هذه السورة ككل سورة أخرى، من حيث هو تسرية عن رســـول الله ومن آمنوا معه وبه أن شأن الهداة والمصلحين دائما ان يقاوموا ويضطهدوا ولكن الغلبة لهم فى نهاية الأمر وما عليهم الا أن يصبروا ويصابروا .

أما الهدف الثانى فهو انذار الكافرين وتوعدهم بســوء العــاقبة « **فكيف كان عذابى ونذر** » .

اقتربت الساعة . وانشق القمر . وان يروا آية يعرضــوا ويقولوا ســحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهــواءهم وكل أمر مستقر .

اقتربت الساعة :

ذكرت كلمة الساعة فى القرآن ٤٨ مرة وهى أحد أسماء يوم القيامة فى لغة القرآن، وقد تحدثت آيات القرآن عن كونها آتيــة لا ريب فيها .

ــ ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (طه ١٥) .

ــ ليعلموا ان وعــد الله حــق وان الساعة آتية لا ريب فيها (الكهف ٢١) .

هذا عن وقوع الساعة وانها واقعة لا محالة ، اما عن قرب وقوع الساعة فقد اشار القرآن لذلك أكثر من مرة عن طريق السؤال التقريرى :

ــ وما يدريك لعل الســاعة تكون قريبا (الاحزاب ٦٣) .

ــ وما يدريك لعل الساعة قريب (الشورى ١٧) .

فعندما يحدثنا القرآن فى هذه السورة باقتراب الساعة فهو يقرر ما كرره فى أكثر من سورة وآية .

وانشــق القمــر :

فى القرآن الكريم العديد من الآيات التى تتحدث عن انشقاق الأرض والسماء والكواكب عند قيام الساعة .

ــ ويوم تشــقق السماء بالغمــام (الفرقان ٢٥) .

ــ يوم تشــقق الأرض عنهم سراعا (ق ٤٤) .

ــ فاذا انشقت الســماء (الرحمن ٣٧) .

ــ وانشقت الســماء فهى يومئذ واهية (الحاقة ١٦) .

ــ اذا السماء انشقت (الانشقاق ١) .

وعلى ذلك فنحن على رأى من قال ان آية ((**وانشــق القمر**)) هى من هذا القبيل وعلى هذا الغرار خاصة وقد تضمن القرآن الكريم اشارات أخرى لمــا يصيب القمر يوم القيامة :

ــ فاذا برق البصر . وخسف القمر .

ــ وجمع الشمس والقمر . (القيامة ٩) .

يقول الانسان يومئذ أين المفــر (القيامة ١٠) .

وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر .

نصل الآن الى الآية التى يــرى من يقولون بأن القمر انشق فعــلا فى حيــاة سيدنا محمــد انها تحكى قولة قــريش عندما رأوا انشقاق القمر .

على ان القرآن الكريم قد تضمن العديد من مثل هذه الآية :

ــ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين (النمل ١٣) .

ــ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (الحجر ١٤ و ١٥) .

فأنت ترى أن القرآن الكريم طالما تحدث عن المشركين والكفرة بأنهم سيدعون دائما حتى بعد أن يروا الآيات بأنهم مسحورون وذلك ليظلوا على كفرهم وعنادهم والقرآن يشير بذلك الى أن الايمان والكفر لا يتوقفان على رؤية المعجزات .

القرطبى وابن كثير .

والآن فلا نقل لك على سبيل المثال كيف عالج القرطبى وابن كثير هذه القضية فكلا منهما يثبت أولا الأقوال التى تقرر أن شق القمر سيكون يوم القيامة لم يوردان الأحاديث التى تتحدث عن أنه انشق بالفعل .

القرطبى :

جاء فيما قاله القرطبى تفسيرا لهذه الآية : وقال قوم لم يقع انشقاق القمر بعد وهو منتظر ، أى اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر وان الساعة اذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره وكذا قال القشيرى وذكر الماوردى ان هذا قول الجمهور وقال لأنه اذا انشق ما بقى أحد الا رآه لأنه آية والناس فى الآيات سواء ، وقال الحسن : اقتربت الساعة فاذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية ، وقيل وانشق القمر . أى وضح الأمر وظهر .

ثم يمضى القرطبى ليقول رأيه ولكنه يحرص على أن يقرر ان الأحاديث التى أشارت الى انشقاق القمر بالفعل أيام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هى أحاديث ((**احاد**)) .

ابن كثير :

أما ابن كثير فيستهل تفسير السورة بقوله :

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضاؤها كما قال تعالى :

((أتى أمر الله فلا تستعجلوه)) وقال **((اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون))** .

ومضى ابن كثير فى حديثه ، ثم أفرد بابا خاصا للأحاديث الواردة فى انشقاق القمر .

الأحاديث الواردة فى ذلك :

وأحسبك الآن أيها القارىء الكريم قد أصبحت فى شوق لمعرفة هذه الأحاديث ونريدك أن تعرف أن كلها أحاديث صحيحة أعترف بصحتها أئمة المشتغلين بالحديث، وقد رواها الامام أحمد بن حنبل فى مسنده عن أنس بن مالك ، ورواها البخارى فى صحيحه ، وكذلك رواها مسلم كما رويت الرواية عن جبير بن مطعم بنفس الصيغة قال :

انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا : سحرنا محمد فقالوا ان كان سحرنا فانه لا يستطع أن يسحر الناس كلهم ، وتضيف صيغ الأحاديث المماثلة : ان كفار قريش قالوا انتظروا حتى يأتيكم السفار (أى المسافرين) فان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق . وان كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به ، قال فسئل السفار وكانوا قد قدموا من كل وجهة فقالوا : رأينا ، ورواه ابن جرير من حديث المغيرة وزاد : فانزل الله عز وجل ؟ اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وليرجع من يريد الاستزادة الى ابن كثير فقد استوفى البحث والتقصى عن الأحاديث المختلفة واسنادها .

تفسير المنتخب :

وجاء فى عمدة التفاسير الحديثة وهو المنتخب الذى قام به جلة علمائنا المعاصرين:
ـ دنت القيامة وسينشق القمر لا محالة .

ويدل استعمالهم لصيغة الاستقبال فى انشقاق القمر الى أنهم أخذوا بالتفسير الأول .

وهناك تفاسير أخرى معاصرة رفضت صراحة الأخذ بخبر انشقاق القمر على عهد الرسول .

رأينا فى الموضوع :

وفى كتابنا نبى الانسانية ، عرضنا لهذا الموضوع بمناسبة ما قيل عن شق صدر النبى واستناد البعض لاية « **الم نشرح لك صدرك** » ولقد نقلنا كثيرا من اقوال من تعرضوا لهذا الموضوع بالمناقشة ثم علقنا على ذلك بقولنا :

قد يحس القارىء الكريم اننا وقفنا أكثر مما ينبغى حول هذه القصة (قصة شق الصدر) واكثرنا من النقول بين مؤيد ومعارض قديم وحديث ، والرد على ذلك هو أننا حرصنا على أن نأخذ من هذا الموضوع نموذجا لما سيعرض لنا خلال

السيرة النبوية من أحداث مماثلة . أى خوارق جرت على يد الرسول أو بسببه وسيقف منها الباحثون ما بين مؤيد ومنكر، وفى كتابنا أخذنا على انفسنا أن يكون كتاب علم ، لا نستطيع الا أن نعرض ما جاء فى الأصول والمصادر الاولى وما قيل فى عهد النهضة والتجديد . تاركين للقارىء أن يختار ما يطمئن له ضميره ووجدانه وعقله، فمن يرتح وجدانه الى انباء الخوارق والمعجزات التى صاحبت ميلاد الرسول صلوات الله عليه وظلت تصاحبه فذلك له ليس من حق أحد أن يناقشه فيه فضلا عن ان ينكره عليه (أو يشككه فيه) فالقرآن الذى نؤمن به جميعا يحدثنا عن خوارق ومعجزات تتصل بحياة الانبياء والرسل غير سيدنا محمد واذ كان سيدنا محمد هو سيد الرسل وخاتم النبيين ، فليس هناك ما يمنع أن تكون حياته قد حفلت بمثل ما حفلت به حياة غيره من الرسل ، ومن لا يستقم ايمانه ولا يرتح وجدانه الا باستبعاد مثل هذه الخوارق والأحداث التى تخرج عن مألوف البشر (فى عصرنا الحديث فقط) فلن يضير ذلك عقيدته الاسلامية فى شىء . على أساس أن معجزة الرسول الكبرى **(والخالدة على مر الزمن) هى القرآن ، وهو معجزة عقلية . ولا لوم على المسلم فى هذا أو تثريب** فقد سبقه (الى أى رأى يختار) علماء أعلام ممن لايشك الانسان فى ايمانهم بالاسلام ونبوة سيدنا محمد وقد أتمنا الدليل فى الفصل الثانى على أن دور سيدنا محمد فى تاريخ الانسانية وخصائص القرآن الكريم هما معجزة المعجزات فى تاريخ البشر مما يغنى عن أى اضافة أخرى .

ذلك ما قلناه عن قصة شق الصدر وهو ما نكرره هنا بمناسبة انشقاق القمر، فمن اطمأن قلبه الى أن ذلك سيكون يوم القيامة فذلك هو المستفاد من آيات القرآن وله أجر اجتهاده ، ومن انشرح صدره لكون القمر قد انشق بالفعل فله أجر اجتهاده ، والله تعالى أعلم .

وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل امر مستقر .

هذه سمة الكافرين والملحدين والجاحدين فهم يكذبون بغير دليل ، واذا عجزوا عن مواجهة الحقائق والايات البينات لاذوا بكلمات جوفاء كالسحر وانهم سحروا (واتبعوا أهواءهم) أى ضلالاتهم وما تشتهيه أنفسهم، واتباع الهوى بمعنى رغبات النفس هو آفة الانسانية وسر كل المتاعب التى يعانيها البشر .

((وكل أمر مستقر)) .

هذا الجزء من الآية متصل باقتربت الساعة حيث تصل الامور الى نهايتها ومستقرها فأهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار .

((ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغن النذر . فتول عنهم يوم يدع الداع الى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر .

مزدجر : رادع عما هم فيه من الكفروالضلال .

حكمة بالغة : قيل القرآن الكريم .

شيء نكر : أهوال يوم القيامة ، وهيعذاب والم للكافرين والجاحدين الذين هم الجمهرة الغالبة .

الاجداث : القبور .

مهطعين : أي مسرعين مادى أعناقهم .

وهذا السياق يعزز القول بأن انشقاق القمر هو من ظواهر يوم القيامة فالقرآن هنا يذكر المشركين بالقرآن الكريم الذيجاءهم بحكمة الدهور كلها ، كما يقرعهم على عدم استخلاص العبرة والموعظة من أنباء من سبق ممن حدثهم عنهم القرآن ، وما انتهى اليه مصيرهم ، وقد كان ذلكقمينا أن يفتح أعينهم وبصائرهم ، وأن يكون فيه ما يردعهم عن كفرهم وضلالهم ، ولكنهيهات أن (تغنى النذر) أي أن تفيد الانذارات من حقت عليه الشقاوة وطمسالله على عيونهم وقلوبهم . **(فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر)** أي فدعهموشأنهم يا محمد يوم القيامة ، ونحن نؤثر أن يكون الخطاب موجها لكل عاقل أن ينأيبنفسه عن زمرة الكافرين ، حتىلايشاركهم ما سوف يعانونه من أهوال يوم القيامة وأولها عندما يسمعون الصيحة صيحة البعث فينتابهم الفزع اذ **(يخرجون منالأجداث)** أي يخرجون من القبور بعد أن يبعثوا وكأنهم الجراد المنتشر ، والجرادهو هذه الحشرة الطائرة التى تأتى على الأخضر واليابس ، ووجه الشبه هنا منحيث كثافة الجراد فى انطلاقه اذ يصل الامر به الى حد أن يحجب وجه الشمس فتظلم الدنيا فىرابعة النهار،وهذا هو شأنملايين الملايين من البشر عندما يبعثون يوم القيامةحيث تراهم **(مهطعين الى الداع)** وقد قدمنا أن مهطعين بمعنى مسرعين ، وقدقيل أن الداعى هو اسرافيل ولكننا نفوض العلم لله .

يقول الكافرون هذا يوم عسر .

هنا خصص القرآن أن شدائد يوم القيامة وأهواله خاصة بالكافرين الذين يحسون على الفور بأن مصاعبهم وويلاتهمقد بدأت **(هذا يوم عسر)** .

ــ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدناوقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه انى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماءمنهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواحودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

المفردات :

وازدجر : أي زجر عن تبليغ الرسالة .

أمر قد قدر : أى مقدر منذ الأزل أن يغرق الطوفان الأرض .

دسر : أى المسامير أو أى نوع آخر يربط بين الألواح .

تجرى بأعيننا : أى بأمرنا ورعايتنا وحفظنا .

مدكر : أى متعظ ومعتبر .

قصة سيدنا نوح :

وقد بدأت السورة الكريمة تشير اشارات موجزة مركزة لقصة سيدنا نوح ، وهى على ايجازها الشديد تتضمن كل عناصر القصة ، كما فصلها القرآن بعد ذلك أو قبل ذلك فى سورة أخرى كسورة الاعراف وهود وسورة نوح ، وقد أثبتنا فى سورة نوح آيات القرآن الكريم التى فصلت بعض مشاهد القصة ولذلك نكتفى هنا بذكر مجمل القصة كما وردت فى مختلف السور نبين على ضوئها كيف أحاطت هذه الايات التى نحن بصددها رغم ايجازها الشـــديد بكل عناصر القصة من اولها لاخرها مع تصوير الجو والمناخ اللذين أحاطا بحوادث القصة.

نوح بعـــد آدم :

اذا كان آدم هو أبو البشر ، فان نوحا عليه السلام هو مجدد الحياة الانسانية على ظهر الأرض .

فقد أرسله الله الى قومه الذين كان العهد قد طال عليهم فقست قلوبهم وضلوا وانحرفوا وغفلوا عن ذكر الله ، فبعث الله سيدنا نوحا ليرشد قومه يحذرهم وينذرهم ويعيدهم الى الطريق ولكن قومه صـــدوه وقاوموه وانكروا عليه دعوته ، فلم يتبعه الا نفر يعد على الاصابع مما جعل سيدنا نوح يضيق ذرعا بقومه ويغضب عليهم ، فيأمره الله عز وجل أ نيبنى سفينة ، فشرع فى بنائها ، وكان قومه يسخرون منه ومما يصنع ، فلما كمل بناء السفينة ، طلب منه الله عز وجل أن يدخل اليها من آمن معه ثم هطلت الامطار وفاضت مياه الأرض حتى تغطى وجه الأرض بالمـــاء ولم يبق على ظهر الأرض من الاحياء الا سيدنا نوحا ومن آمن معه على ظهر السفينة ومن أطرف ما طالعنا أن سفينة سيدنا نوح كانت أول سفينة عرفتها الدنيا وما السفن الا بنت ما أوحى به الله لسيدنا نوح لصنع السفينة هذا هو ملخص قصة سيدنا نوح ، والان تعال نتابع القصة مع هذه الآيات الموجزة.

بعثة سيدنا نوح ، وتكذيبهم وتسفيههم له وسبه وشتمه : كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر .

ضيق سيدنا نوح بقومه ودعائه عليهم :

فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، أى فانتصر لى يارب بأن تبطش بهم « **رب لا تذر على الأرض من الـــكافرين ديارا** »(سورة نوح) .

صنع السفينة : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » .

الطوفان الذى أغرق الأرض :

ففتحنا أبواب السماء بماء منهمروفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . **« ولقد تركناها آية فهل من مدكر » .**

يقول بعض المفسرين أن سفينة نوح قد بقيت حتى رأها أوائل هذه الأمـــة . أى الأمة الاسلامية ولكن ابن كثير يرحمه الله يقول ونقول بقوله : والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى : **« وآية لهم انا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون »** وقال تعالى :**« انا لمـــا طغا الماء حملناكم فى الجـــارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .**

وبذلك قال ها هنا فهل من مدكر ، أى فهل من يتذكر ويتعظ .

فكيف كان عذابى ونذر : هذا هو أحد الهدفين من ذكر قصة نوح ، وهو تحذير المشركين والكفار وانذارهم بما سيتعرضون له أن هم أصروا على عنادهم وكفرهم .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

أى سهلنا لفظه ويسرنا معنـــاه لمن ابتغى فهمه قال تعالى :

« فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » .

فهل من مدكر :

فهل من متذكر لهذا القرآن الذى يسر الله لفظه ومعناه وقيل : فهل من طالب علم فيعان عليه .

ـــ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . أنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الاشر . انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر . انا أرسلنا عليهم صـــيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

رسالة هود الى عـــاد .

عاد وثمود قبيلتان من قبائل العرب الكبرى البائدة ، وقد انفرد القرآن بذكرهما

باعتبارهما كانتا فى جزيرة العرب . وكانت سيرتهما مما يتردد على ألسنة العرب وقد خلفت ثمود آثارا بعدها لا تزال قائمة فى شمال جزيرة العرب وتقع على الطريق من شبه الجزيرة الى الشام وتعرف بمدائن صالح ، أما عاد التى كانت تعيش فى الجنوب بالقرب من حضرموت . فى منطقة الاحقاف وهى تقع فى جنوب ما يسمى بالربع الخالى، والقرآن الكريم هو المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن عاد وثمود وانعم به وأكرم من مصدر وقد ورد ذكر عاد وما حاق بهم نتيجة كفرهم فى طوال السور وأواسطها وقصارها ، فورد فى سورة الاعراف وسورة هود رسول الله الى عاد كما ورد فى سورة « المؤمنون والشعراء ، وفصلت والاحقاف ، (اسم موطن عاد) وفى سورة الذاريات والقمر والحاقة والفجر . ولننقل لك هنا ما جاء فى سورة الاعراف حيث وردت الاشارة لعاد بشىء من التفصيل .

ـــ والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وأنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أباؤنا فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين آمنوا معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين .

وقد تكرر عرض هذا المشهد بين هود وقومه (عاد) فى السور التى سبقت الاشارة اليها ، وهذا هو ما أجملته سورة القمر فى هذا الايجاز المعجز .

ـــ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . أنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر .

والريح الصرصر : شديدة الصوت أو الصقيع او السموم وربما كانت ما يطلقون عليه اليوم الاعاصير والتى تدمر كل شىء فى طريقها .

تنزع الناس : أى تقتلعهم من أماكنهم .

اعجاز نخل : اى أصول النخل المجذورة) بدون رؤوس

منقعر : منقلع عن مغرسه .

قصة ثمود :

ولا تكاد تذكر عاد فى القرآن الا وتذكر ثمود ونبيهم صالح ولذلك فقد تحدثت عنهم سورة الأعراف وهود والشعراء وفصلت والحجر والذاريات والحاقة والقمر والشمس .

ولننقل لك ما جاء فى سورة هود :

« والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هـو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه أن ربى قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواقبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب . قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها الا أن ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود . وصدق الله العظيم ، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فها هى ذى قصة ثمود تذكر فى سور أخرى كما قدمنا والله وحده هو الذى يعلم كم من السنين مرت بين هذه السورة وتلك ، ويختلف النظم والأسلوب فى سورة الواقعة ، ومع ذلك فتظل وقائعها وجوهرها ثابتة ، وتعالوا نقرأ آيات القمر وهى تحدثنا بنظمها الخاص عن قصة ثمود .

ـ كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر . انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

وحدة الجنس البشرى :

وتظهرنا هذه الصورة وما سبقتها من صورة عاد أن النفس البشرية واحدة فى كل زمان لا يطرأ عليها تغيير فكلما جاء رسول الى قومه يدعوهم الى الحق ويهديهم سبل الرشاد انصرفوا عن جوهر الدعوة وتعلقوا بقضايا جانبية بدافع الحقد والحسد . لماذا نزل الوحى على هذا الشخص بالذات فيروحون يكذبونه (الكذاب الأشر) الكذاب الذى يريد التجبر والاستعلاء أو متجاوز الحد فى الكذب .

وقد كان هذا هو ذات الموقف الذى جابهت به قريش رسول الله ، فأعظم اعتراضاتهم كانت : لماذا كان رسول الله دون غيره هو الذى أنزل عليه الوحى **« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »** .

قصة سيدنا صالح :

من آيات القرآن الكريم أن قوم صالح (ثمود) طلبوا منه أن يأتيهم بآية من الله ليصدقوه . فكانت هذه الناقة . وندع الان الى فرصة أخرى استعراض ما قاله

المفسرون القدامى بخصوص هذه الناقة ،والتى دار نقاش حامى الوطيس منذ قرابة خمسين سنة بين المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار وجمهرة علماء الأزهر فى ذلك الوقت بمناسبة كتابه النفيس (قصص الأنبياء) وكان موضوع الناقة مما ثار حوله الجدل وما لا نحب أن نقع فيه ولذلك نقف عند حد نصوص القرآن .

ومن المحقق أن الناقة كانت آية سيدنا صالح ، ويقرر القرآن أن الله قد قسم الماء بين قوم صالح وبين الناقة **(ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر)** والشرب هو النصيب من الماء ، أى الحظ من الماء ، ومحتضر أى يحضره (من هو له ، أى من هو من نصيبه) .

جاء فى القرآن الكريم عن ناقة صالح **((هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم))** .

وقد حذر سيدنا صالح قومه من أن يتعرضوا للناقة بسوء ، ولكنهم بدلا من ان يؤمنوا بهذه المعجزة الحية ،فيوحدوا الله الذى خلقها لجوا فى كفرهم وعنادهم فاقدموا على ذبح الناقة فاستحقوا أن ينزل بهم العذاب **(انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر)** .

هشيم المحتظر : الشجر اليابس .

يجمعه من يرغب فى اقامة حظيرة كناية عن انهم أصبحوا رمما بالية من مثل قوله تعالى **((فجعلهم كعصف مأكول))** .

أما الصيحة التى أهلكهم الله بها فالله أعلم بكيفيتها فلا نقول بقول من قال أنها صيحة جبريل ، كما لا نأخذ بقول العالم الفاضل الشيخ المرحوم عبد الوهاب النجار الذى جزم بأنها الصاعقة وراح يشرح الصواعق وكيف تنشأ . ونقف عند تعبير القرآن من أنها كانت « صيحة »وعندما يريد الله أن يهلك قوما فحسبه أن يريد فتكون ارادته .

ــ كذبت قوم لوط بالنذر . انا أرسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر .ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر .

مفردات :

حاصبا : الريح الشديدة تحمل الحصباء (أى الحصى) .

سحر : السحر هو الفترة بين النهاية الليل وطلوع الفجر .

فتماروا بالنذر : أى شكوا فيما أنذرهم به الرسول (لوط) .

راودوه عن ضيفه : أى طلبــوا منلوط أن يمكنهم من ضيوفه .

بكرة : أى فى الصباح الباكر .

فطمسنا أعينهم : أى أعماهم الله .

قصة سيدنا لوط :

وسترد علينا قصة لوط بالتفصيل فى كثير من السور ، وملخصها أن سيدنا لوط هو من ذوى قربى سيدنا ابراهيم ،وقد أرسل على ما تقول التوراة ، ونحن لا نطمئن لأى شيء يرويه كتاب اليهود فىوقتنا الحاضر (تقول انه أرسل لسكان مدينتى سدوم وعمورة على ضفاف البحرالميت ، كانوا فضلا عن عبادتهم للاصنام يرتكبون كل صنوف الموبقات وعلى رأسهاجريمة ((**اللواطة**)) وهى الجريمـــة التى اشتقت من اسمهم « قوم لوط » ونعنى بها اتيان الذكور بدلا من الاناث وكان طبيعيا أن يكون أول ما يدعو لوط اليه قومه بعد((**التوحيد**)) أن يكفوا عن هـــذا المنكر ، فضاق به قومه ، واضطهدوه وعذبوه ،وأصروا على مزاولة عمليتهم الشنعاء ، الى الحد الذى جعلهم وقد تصوروا الملائكةالذين بعث بهم الله فى صـــورة رجال من البشر ، **لكى ينفذوا** مشيئة الله باهلاكقوملوط ، **أقول انهم تصوروا هذا الحشد من** ضيوف لوط (فقد نزل الملائكة أول ما نزلواعلى بيت سيدنا لوط ، ليحذروه ويطلبوا منه أن ينجو بنفسه من المصير الذى سينزللقومه) فاقتحم قوم لوط بيته ليصلوا الى ضيوفه ويعتدوا عليهم ، هكذا شاءت ارادةالله أن ينزل عقابه بهم وهم متلبسون بجرمهم كما نقل بلغتنا المعاصرة ولأنقل لك الآن ما جاء فى سورة الشعراء مما يفهم منه ما تقـــدم :

ــ كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم أخوهم لوط الا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أســألكم عليه من أجــر ان أجرى الا علــى رب العالمين . أتأتــون الذكران من العــالمين وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوطلتكونن من المخرجين . قال انى لعملكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون .فنجيناه وأهله أجمعين . الا عجــوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الاخرين .

قصة الملائكة :

أما قصة الملائكة الذين جاءوا فى صورة بشر ليدمروا قوم لوط فهم هؤلاء الأخيرون بالاعتداء تصوروا منهم أنهم بعض ذكور البشر ، فأنقلها لك من سورة هود .

ـــ ولما جاءت رسلنا لوطا سيىء بهموضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوايعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم .

ـــ فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريدقال لو ان لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد . قالوا يا لوط انا رسل ربك لنيصلوا اليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا أمرأتك انه مصيبهاما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جـــاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عنـــد ربك وما هى من الظالمين ببعيد .

وعلى ضوء ما تقدم أصبح باستطاعتك الآن أيها القارىء الـــكريم أن تفهم ما نحن بصدده من آيات ، وسترى أنها قد ألمت بكل عناصر القصة .

كذبت قوم لوط بالنذر . انا أرسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر .ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقواعذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرناالقرآن للذكر فهل من مدكر .

لماذا كانت اللواطة فاحشة منكرة :

وفى عصرنا الحديث الذى شاعت فيه الفاحشة وعم فيه الاستهتار ، يحـــلو للبعض أن يتساءل ولـــماذا كانت اللواطةفاحشة منكرة فاعلم يا رعاك الله ان مقياس أى عمل لمعرفة مقدار خيره أو شره فهوبمقياس ما يكون مسايرا لنواميس الطبيعة أو مضاد لها ، وقد قامت الحياة على الذكروالأنثى ، ومن اتحادهما تنشأ الحيـــاة ، وبالتالى استمرارها ، ومن هنا كان تنظيم اتصال الذكر بالانثى من أهم ما احتفلت به مختلف الشرائع مستلهمة الدين ، ولماكان الزواج بين الذكر والانثى هو ناموس الحياة ، وعلى هذا الأساس يتضح لك على الفور أن اتصال الذكور بالذكور جنسيا ، أو اتصال الاناث بالاناث هو عمل مضـــادلناموس الطبيعة ، ولذلك فهو لا يمكن ان يكون الا شرا ولما كانت الشرائع السماويةقد أنزلت بخير الانسان بارشاده الى ما فيه خيره ونهيه عما فيه ضرره. فقد حرمت عليه« اللواطة » واستحق قوم لوط ان يبادوا من فوق ظهر الأرض وان تتطهر منهم لأنهمخرجوا على الناموس الكونى .

التذكير بما حاق بفرعون :

وانتهى استعراض أحاديث من سلفمن المؤمنين والكافرين بالاشارة الى اقرب هذه الحوادث من عهد المخاطبين وهو ماحاق بفرعون مصر عندما كفر برب العالمين.

ـ ولقد جاء آل فرعون النذر • كذبوا بأياتنا كلهـا فأخذناهم أخـذ عزيز مقتـدر •

فرعون مصر :

ولقد فصلنا من قبل قصة فرعون وموسى وسنعود اليها مرة أخـرى أما الان فحسبنا أن نشير الى أن الصراع الذى جرى بين موسى وملك مصر كان مشهورا فى جزيرة العرب بحيث كانت تكفى مجردالاشارة اليه لاستخلاص العبرة منه وهو انتصار الحق على الباطل ، وتوحيد اللهعلى الشرك به ، والخير على الشر .

ـ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر • أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر • بل الساعةموعدهم والساعة أدهى وأمر •

الزبر : الكتب السماوية .

ويولون الدبر : أى سيفرون .

موضع العبرة فيما ذكر من قصص •

كان الجامع فيما ذكر من حديث نوح وهود وصالح ولوط وموسى (من خلال ذكر فرعون) أن الله سبحانه وتعـالى قدمحق الكافرينوأنجى النبى ومنآمنوا معه، وبعد هذا الاستعراض الذى كشـف عنحقيقة مؤكدة وهى انتصار الحق أبدا ، راح القرآن يسائل كفار قريش أو بالأحرىيتحداهم ، أيظنون أنفسهم فى منجاة من العقوبة التى نزلت بكل من وقف موقفهم ،أيتصورون ان الله عز وجل قد أخرجهم من حكم النواميس وأنزل لهم براءة فى كتبه ،أم أنهم يتصورون أنهم (جميع منتصر) أى انهم سيغلبون بباطلهم الحق الأبلج ، كلا ثم كلا ، أنهم واهمون فسـوف يغلبون وسوف يقهرون ويفرون فى الدنيا ، اما فى الاخرة فسيكونعذابهم أقسىوأمر **(الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) •**

معجزة محمدية :

ومرة أخرى نقف أمام معجزة محمدية جرى بها القرآن على لسانه ، حيث تنبأ بمصـير طغاة قريش فى وقت كانـوا همالأعلون وهم المسيطرون وكان المسلمون فى أول عهدهم فى مكة لا يجدون لهم بصيصامن النور الا من داخل أنفسـهم ، فنزل القرآن ينبىء بما سوف يكون بعد بضـعسنوات الله وحده يعلم كم عـددها وهى المدة ما بين نزول هذه الاية وبين موتعةبدر التى انتصر فيها المسلمون وولى فيها المشركون الادبار .

والعلاقة جد وثيقة بين هذه الاية وغزوة بدر ، حيث سمع الرسول يجهر بها فى اللحظة الحرجة فكان ان هزم المشركون .

روى البخارى عن ابن عباس انه قال :

قال النبى صلى الله عليه وسلم وهوفى قبة له يوم بدر ((**اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبدا**)) .

فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله الححت على ربك فخرج (اى رسول الله) وهو يخب فى الدرع وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، ((بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)) .

وفى حديث آخر عن عكرمة قال : **لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر ، قال عمر (ابن الخطاب) أى جمع يهزم ، أى جمع يغلب ، قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخب فى الدرع وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فعرفت تأويلها يومئذ .**

وهكذا ترى الصلة الوثيقة بين آية سيهزم الجمع ويولون الدبر ، التى نزلت فى مكة فى صدر الدعوة ، وبين غزوة بدر التى وقعت بعد عدة سنوات بعد انتقال الرسول الى المدينة .

انسانية سيدنا محمد :

ولسنا نريد أن ننتقل من هنا قبل أن نقف قليلا أمام هذا الحديث الذى نقلناه عن البخارى والذى يصور لنا حالة رسول الله يوم بدر ، وكيف بلغ به التوتر مداه والحق أن انسانية الرسول أو بالاحرى بشريته التى ما فتىء القرآن يكررها ويؤكدها : ((**قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى**)) . أى أن سيدنا محمدا ككل البشر ، **لا بالوحى الذى ينزل عليه** (وليس هذا بالفارق القليل) والمهم أنه فى بعض اللحظات يكون انسانا بكل خصائص الانسان ، فها هو الحديث يصور لنا شدة قلقه ابان احتدام المعركة وجهله بمصيرها ، وخوفه من العواقب الوخيمة التى تترتب على هزيمة المسلمين فى هذه المعركة وكيف راح يناشد ربه النصر الذى وعده ، حتى أشفق عليه صفيه وحبيبه أبو بكر فراح يهدئه ، أو بالاحرى يهدىء الانسان ، وليس الا عندما استذكر رسول الله مقولة الوحى ((**سيهزم الجمع ويولون الدبر**)) أن سكن رسول الله واطمأن لان وعد الله حق ، وقد كان وانتصر المسلمون . وقتل فى معركة بدر أساطين المشركين وقتل معهم الباطل مما سنفيض فيه اذا مد الله فى عمرنا حتى نصل الى سورة الانفال التى سجلت أحداث غزوة بدر .

والمهم عندنا الآن أن تعرف أيها القارىء الكريم أن آية ((**سيهزم الجمع ويولون الدبر**)) من أعلام النبوة .

بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .

وهذا هو الشق الثانى لمـا سوف يلقاه الكفار : وهو ما سوف يعانونه من اهوال يوم القيامة التى هى أشد هولا ومرارة من خزى الحياة الدنيا .

— ان المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . انا كل شئ خلقناه بقدر . ومأأمرنا الا واحدة كلمح بالبصر .

سعر : أى جنون أو بعد عن الحق .

سقر : أحد أسماء جهنم .

واحدة : أى لا يستغرق الا بمقدار كلمة واحدة ((**كن**)) .

وسياق الايات مفهوم وهو أن مصيركل الكافرين والفاسقين والجاحدين مصيرهم النار وقد انطوى كل هؤلاء تحت اسم المجرمين (**يوم يسحبون فى النار على وجوههم**) لون من ألوان العذاب الذى يلقاه المجرمون فى جهنم ثم يقال لهم على سبيل التقريع ((**ذوقوا مس سقر**)) ((**انا كل شئ خلقناه بقدر**)) .

المفسرون القدامى فسروا هذه الآية على أن المقصـود بها هو القـدر أى ((القضاء والقدر)) وان كل شئ مقـدر منذ الأزل ، والمعنى بطبيعة الحال يتسـع لذلك والايمان بالقضاء والقدر خيره وشره جزء من الايمان بالله ولا ايمان لمن لم يؤمن بالقضاء والقدر .

العلوم الكونية الحديثة :

على اننا جريا على منهجنا نريد ان نضيف على ما تقدم ما تشـعه الالفاظ فى ضوء ما أصـبح يزحم الدنيـا من علوم كونيـة .

وهذا المفهوم الاضافى نستمده من استعمال القرآن لكلمة ((**قدر**)) .

— وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم (الحجر ٢١) .

— وانزلنا من السـماء ماء بقـدر فأسكناه فى الأرض (المؤمنون ١٨) .

— ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير (الشورى ٢٧) .

— فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم (المرسلات ٢١ — ٢٢) .

واليوم يحدثوننا عن العقول الاليكترونية التى تحسب كل شئ وتستخلص نتائج يعجز عن مثلها البشر وذلك تأسيسا على أن هذا الكون ابتداء من الأفلاك حتى آخر ذرة يقوم على حسابات دقيقة وسنن لاتتغير ولا تتبدل .

فعندما يقول لنـــا القـــرآن العظيم ((**انا كل شيء خلقناه بقدر**)) فنحـــن نفهم منها كلا المعنيين ، ونقول : صدق الله العظيم .

وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر :

واذا كان القرآن الكريم يتحدث عن ((**لمح البصر**)) باعتباره أقصر مدة زمنية يتصورها العرب الذين كانوا أول من خوطب بالقرآن فذلك لان البشر لا يدركون بحواسهم ما هو أسرع من لمح البصر ، والبصر يلمح الضوء الذى يقطع ٣٠٠ الف كيلو فى الثانية وقد زعم اينشتين أن سرعة الضوء هى أقصى سرعة توجـــد فى الكون ولكن هذه النظرية بدأت اليـــوم تناقش ، ونحن من أنصار القول أن ما يقوله اينشتين من أن سرعة الضوء هى أقصى سرعة فى الكون يجب أن نضيف عليها ((ان هذا هو منتهى علمنا فى الوقت الحاضر ، ولسنا نعلم ماذا يكشف عنه المستقبل)) .

والمهم عندنا الان أن أمر الله عز وجل نافذ كلمح البصر وما هو دون اللمحة وقد اعتدنا أن نقول أن أمره بين الكاف والنون أى كن فيكون وحـــذار أن ينزلق منـــزلق فيتصور أن الله سبحانه وتعـــالى ينطق بكلمة ((**كن**)) وانما هو تقريب لأذهاننا فى أن الله ينفذ فى الكون مشيئته متى شـــاء فى أقصر مدة يمكن أن نتصورها وهى ((لمح البصر)) ولكن علينا أن نؤمن انها تنفيذ فيما يعلمه هو وبالنسبة لله وكل ما يصل به لا يحده زمان أو مكان ، وعلينا أن نستحضر دائما أنه يخاطبنا على قدر عقولنا .

— ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر . وكل شيء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر . ان المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

أهلكنا أشياعكم : قيل اتباعكم واعوانـــكم ، ولكن الأرجح أن معناها أمثـــالكم وأشباهكم من الكفر فى العصور الخوالى مما ذكرنا لكم حديثه .

فهل من مدكر : أى فهل من متعظ أو متذكر .

وكل شيء فعلوه فى الزبر :

وقيل أن الزبر هنا هى اللوح المحفوظ : وقيل فى كتب الحفظ والمعنى الأول هو الأرجح ، وهو ما يؤيد قول من قـــال أن ((**خلقناه بقدر**)) تعنى القضاء والقدر ، وهو ما قدمنا أنه صميم ايماننا .

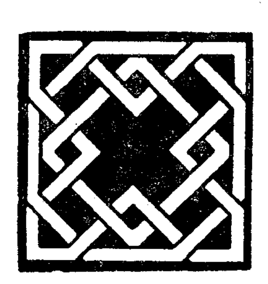
وكل صغير وكبير مستطر :

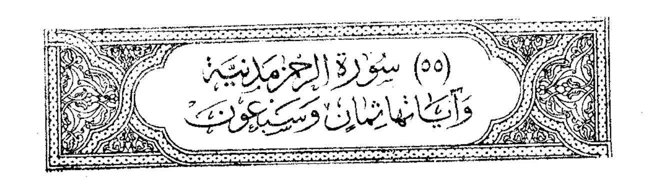
مستطر أى مسطور ، جاء فى القرآن ((**ن . والقلم وما يسطرون**)) والمعنى ان كل ما يفعله البشر من أعمال مكتوب ومسجل عليهم ((**احصاه الله ونسوه**)) وطالمـــا كررنا(١) كلما ورد هذا المعنى فى سورة القرآن التى عرضنا لها حتى الآن ، ان كفار

---

(١) نحن مضطرون لهذا التكرار لمن فاتهم مطالعة أقوالنا السابقة .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١)
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ
فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي
شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)
يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ
فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣)
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ

قريش كانوا لا يفهمون ولا يمكن أن يتصوروا كيف تحصى عليهم أقوالهم التى تلفظوا بها مذ كانوا فضلا عن أعمالهم وأدق خواطرهم أما نحن فى العصر الحديث فقد بدأنا نلمس ذلك باليد ، وانتشرت بيننا أجهزة التسجيل التى تسجل كل شىء ، وقد بقى أن تعرف ان كل ما تقوله مسجل على صفحة الكون قبل وبعد أن يلتقطه جهاز التسجيل .

ــ ان المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

نهر : قيل انها تعنى الانهار ((**جنات تجرى من تحتها الأنهار**)) وقيل بل تعنى النهار أى فى الضوء والنور .

والذى نلفت النظر اليه أن القرآن الكريم بعد أن هدد وتوعد وصور مصير المجرمين ، ختم السورة طبقا لمنهاجه فى ذكر ما أعد من النعيم للمتقين المؤمنين الاخيار بأن جعل مثواهم الجنة ونعم المصير .

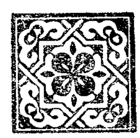
فى مقعد صدق عند مليك مقتدر :

والمليك المقتدر هو الله عز وجل .

ومقعد صدق : اى مكانة رفيعة عالية ، ونضرب صفحا عن قول من حاول أن يصف هذه المقاعد والله تعالى أعلم .

كلمة اخــيرة :

ولسنا نريد أن نفرغ من سورة القمر قبل أن نقف قليلا امام قول من حاول أن يختص سورة الرحمن بنظم خاص ، فها هى سورة القمر يتمثل فى نظمها كل خصائص نظم سورة الرحمن . حتى لقد صرح أحد أخوانى من كبار الشعراء أنها شعر الهى على خلاف شعر البشر . ولكنا نقف عند حد ما قلناه فى سورة الواقعة من أن الكلام فى اللغة العــربية كان ينقسم قبل نزول القرآن الى نثر وشعر أما بعد نزول القرآن فقد أصبح الكلام ينقسم الى قرآن وشعر ونثر والله ولى التوفيق .



ســـورة مدنيـــة :

الذى فى المصحف الموجود بين أيدينا وعليه المعول كما نقول دائما ، ولولا ان مكية السورة أو مدنيتها ، ليس من المسائل التوقيفية ، لمـــا سمحنا لانفســـنا ان نعرض لمـــا يدور حول هذه النقطة من اجتهادات بين المفسرين ، ذلك ان الجمهرة العظمى وعلى راسهم ابن جرير وابن كثير والرازى والقرطبى وغيرهم وغيرهم يقولون بمكية السورة ، بل ان الفيروز ابادى فى بصائر ذوى التمييز يقول بصريح اللفظ ((**مكية باتفاق**)) وهو نموذج لمـــا قد يقع فيه العلماء أنفســـهم من أخطـــاء صارخة ، فضلا عن أن هذا الاتفاق لا وجود له فالمصحف ينص كما قدمنـــا على مدنية الســـورة ، والذين يقولون بمكية السورة يستندون الى عدة أحاديث اطمأنوا اليها وأورد بعضها القرطبى وابن كثير وابن جرير ، ومن هذه الأحاديث ما روى عن عروة بن الزبير انه قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، ابن مسعود ، ذلك ان الصحابة قالوا : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فهل من رجل يسمعوه ؟ فقال ابن مسعود : أنا ، فقالوا انا نخشى عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه (أى يدافعـــون عنه) فأبى ، ثم قام عند المقام فقال : **بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن . علم القرآن .**

ثم تمادى فرفع بها صوته وقريش فى أنديتها ، فقالوا ما يقول ابن أم عبد ؟ قالوا هو يقول الذى يزعم محمد انه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه ، يقول القرطبى : وصح أن النبى صلى الله عليه وسلم قام يصلى الصبح بنخـــلة ، فقرأ سورة الرحمن ، فمر عليه نفر من الجن فآمنوا به ،وفى الترمذى عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ عليم سورة الرحمن من أولها الى آخرها ، فسكتوا ، فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردود منكم ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى ((**فبأى آلاء ربكما تكذبان**)) قالوا لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمـــد .

قال (أى الترمذى) حديث غريب .

يقول القرطبى : وفى هذا دليل على مكية السورة والله أعلم .

وقد أورد ابن كثير هذه الأحاديث من وجوه أخرى . ويمضى القرطبى فيروى ما جاء فى كتب السيرة النبوية المعتمدة ، من أن قيس بن عاصم ، قال للنبى صلوات الله عليه ، اتل على مما انزل عليك ، فقرأ عليه سورة الرحمن ، فقال : أعدها فأعادها ثلاثا ، فقال (أى عاصم بن قيس) والله ان له لطلاوة ، وان عليه لحلاوة ، وأسفله مغدق ، وأعلاه مثمر ، وما يقول هذا بشر ، وانا أشهد ان لا اله الا الله وانك رســـول الله .

وجهـة نظـر

ونحن طالما كررنا وجهة نظر نراها لكثرة ما أمعنـا فى نصـوص القـرآن ودرسناها من أن السور المدنية ، غالبا ما تشير الى اليهود ومكائدهم وانحرافاتهم ، أو **الى المنافقين : أو الى انباء القتال والجهاد وما يتصـل** بذلك من وقائع وأحداث ، أو تتضمن شـيئا من التشريع وهى اذا وجهت الحديث وجهته الى الذين آمنوا بخلاف السور المكية حيث يجرى الخطاب « أيها الناس » ●

وطبقا لهذا النظر فقد خلت سورة الرحمن من العناصر السابقة ، ودار القول فيها حول التوحيد والخلق والبعث والجنة والنار . ونداء « **الانس والجن** » وكل ذلك أشـبه بالسور المكية منه بالمدنية .

سـورة مدنيـة :

ومع ذلك فما دام المصحف قد نص على أنهـا مدنية ، وحذار أن يتصور انسـان كائنا من كان لمجرد أنه ردد هذا الشىء أو ذلك بما اقنعه هو شـخصيا ان المسألة قد حسمت ، وفى موضوع العـلم ، يجب أن نضع دائما نصب أعيننا ، القاعدتين الخالدتين :

١ — وما اوتيتم من العلم الا قليلا .

٢ — وفوق كل ذى علم عليم .

ومن هنا كانت سمة طالب العلم الصادق اذا قال شيئا هذا منتهى علمى ، وفى مفهومى أو تصورى ، اما اذا سمعت انسـانا يجزم ويقطع ، ويذكر أن يكون الرأى الا ما يراه هو ، فلا تتردد فى أن تصف هذا الشخص كائنا من كان بالجهل . ذلك انه لا يعلم العلم المطلق الا الله سبحانه وتعالى أما نحن البشر فعلمنا يتصل بالمتغير ، ومن حين لآخر يفتح الله علينا بومضة من علمه وعلى سبيل المثال ففى هذه القضية التى نحن بصددها من حيث مكية السورة أو مدنيتها ، فقد كان ابن مسعود هو نفسه من قال بمدنية السورة ، مع أن القائلين بمكية السـورة قد استندوا الى واقعة جعلوا ابن مسعود هو بطلها .

ولذلك فننتهى من هـذا العرض الى التمسـك بما اثبت فى المصحف من أن السورة مدنية .

وهنا قد يعترض على معترض فيقول وما دام الأمر كذلك ففيم هذا الحديث المستفيض حول مكية السورة . فأرد على هذا الاعتراض وبالله التوفيق .

١ — اننى ملتزم بأن اعرض عليك ما جاء فى كتب التفسير الكبرى مما لا أرى فى عرضه أى مساس بالعقيدة وقدسية القرآن ، وقـد كان مكية السورة أو مدنيتها كان منذ اليـوم الأول ميـدانا لاجتهـاد المجتهدين وتحقيق المحققين .

٢ — انني أريد أن أغرس فى نفوس الجيل الجديد والأجيال القادمة ان لا حرج على الاطلاق فى أعمال الفكر والتدبر والتأمل ، فتلك هى دعوة القرآن نفســه وقد كان هذا هو سبيل المؤمنين الأوائل شريطة أن تكون قلوبنا عامرة بالايمان فننزل فى نهــاية الأمر على التسليم بأننا ما أوتينا من العلم الا قليلا .وان فوق كل ذى علم عليم،فليعمل العقل ما شــاء له أن يعمل ، وليناقش وليحاجج وليبحث وليدرس ما شــاء الله له أن يبحث ويدرس ، شريطة أن يلوذ بالدين فى خاتمة المطاف ، وأن لا يتزعزع يقينه فى أصــغر الأمور المتصلة بالدين وعلى رأس قواعد الدين ثبات المصحف الموجود فى أيدى المسلمين بشكله ونصه ورسمه وكل ما يتصــل به .

عروس القــرآن :

نصل الآن الى بعض ما قيل فى وصف سورة الرحمن من أنها عروس القرآن ونحن لا ينشرح صدرنا لتفضيل بعض آيات القرآن أو اختصاصها بميزة ، فالكل كلام الله ، وكل آية وكل كلمة ، بل وكل حرف يؤدى دوره كما أراده الله أن يؤديه ، وعندما ترد المناسبة لأى آية من القرآن ، اذ بها تتضوع وتتألق وتشرق ، ويصبح لهــا نغم ، حتى ليتصور حافظ القرآن نفســه ، كما لو كان يسمعها للمرة الأولى ، وما ذلك الا لأن كل آية تؤدى دورها فى مكانها الذى أعده الله من أجله ، ولذلكفالذين تشجيهم سورة الرحمن والذين يرون فيها موسيقى خاصة ، فهذا حقهم ، أما نحن فنراها من نسق الكثير من السور ، ولهــا من الجرس والنظم والوقع فى النفس ما لكثير غيرها ، بل لكل آيات القرآن وسوره ،واذا كان بعضالدارسين قد استوقفهمتكرر آية فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فياطالما تردد فى القرآن ويل يومئذ للمكذبين ، وفى سورة القمر السابقة عليها تكررت آية ((**فكيف كان عذابى ونذر**)) فليس فى سورة الرحمن نسق يغاير النسق القرآنى ، ونعود الى قصــة عروس القرآن فابن كثير وهو المحدث الثبت لم يشر اليها عن قرب أو بعــد حتى ولو بعد ما اعتاد أن يسوقه عن الأحاديث الضعيفة ، ووصل الأمر بالفيروز أبادى صاحب كتاب بصائر ذوى التمييزان يقول : فيــه أحاديث منكرة منهــا حديث أبى :

لكل شىء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جل ذكره وقال من قرأ سورة الرحمن رحم الله ضعفه وأدى شكر ما أنعم الله عليــه .

وقال : يا على من قرأها فكأنما اعتق بكل آية فى القرآن رقبة .

وقد أورد القرطبى الحديث منسوبا الى سيدنا على كرم الله وجهه ، ولكنه مقصور على الفقرة الأولى فقط ، كما ذكر الحديث فى دلائل الايمان للبيهقى ، ولذلك أوردنــاه ولكل قارىء أن يتلمس ما فيه رضاء نفسه وطمأنينتها .

— الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . الا تطغوا فى

الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للانام . فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان

الرحمـــن : اسم من أسماء الله الحسنى التى وصف بها نفسه ، وهو مشتق من الرحمة وكثرة الرحمة ، وقـــد أفضنا فى الحديث عند تفسيرنا لبسم الله الرحمن الرحيم التى شـــاءت ارادة الله عز وجل أن يفتتح بهـــا كل سور القرآن (ما عدا التوبة) لتكون الرحمة بالخلائق هى أولى صفاته بالتذكير والتقرير .

علم القرآن . خلق الانســـان . علمه البيـــان :

ومن الطف ما طالعنا من النظرات فى القرآن ، ما لاحظه البعض من أن مفتتح بعض السور اذا جمع الى بعضه كان هو الاسم العظيم وهذه الفواتح هى ((**آلر**)) . ((**حم**)) و ((**ن**)) فهى اذا جمعت كانت ((**الرحمن**)) :

لم تكن قريش تعرف فيما تعرف وهى غارقة فى جهلها ووثنيتها ، اسم الرحمن ، فلما نطق سيدنا محمد أول مرة بالقرآن هاتفا بسم الله الرحمن الرحيم ، سارعوا يتساءلون فى انكار « وما الرحمن » فنزلت الآيات الكريمة تعرفهم من هو الرحمن ، فهـــو الله الذى خلق الانســـان ، وخلق كل شىء ، السماء والأرض والأنس والجن ، والشجر والدواب وكل ما نعرف وما لا نعرف من كائنات .

علم القرآن . خلق الانســـان . علمه البيـــا ن.

اذا صح ما قيل من أن هذه الآيات نزلت ردا على تساؤلات قريش من هو الرحمن فيكون السياق واضحا ، فالرحمن هو الذى علم سيدنا محمدا هذا القرآن الذى شرع ينطق به ويبلغه للناس ، والرحمن هو خالق الانسان كل انســـان ، وهو الذى علم الانســـان كل انسان أن يفصح عما فى نفسه وهذا هو البيان الذى اختص به الله الانسان ، وقال بعض المفسرين علمه البيان أى أســـماء كل شىء (وعلم آدم الاسماء كلها) وقالوا علمه اللغات وقالوا الخير والشر ، وقال بعض آخر ما يضره وينفعه ، وقيل الحلال من الحرام ،والهدى من الضلال . وكل ذلك لا تعارض فيه وهو داخل فى المعنى ويتفرع كله من انســـانية الانسان وأن الله زوده بالعقل وهو السبيل الى المعرفة وزوده بالقـــدرة على تبيان ذلك كله .

القرآن والعلم والتعليم :

وهكذا يلح القرآن على العـــلم والتعليم فيكون أول ما أنزل منـــه فى سورة ((**اقـــرأ**)) **الذى علم بالقلم . علم الانســـان ما لم يعلم .**
ثم يقسم : **ن والقلم وما يسطرون .**

وها هو هنا يجعل تعليم البيان أعظم نعمة على عبيده .

الشمس والقمر بحسبان :

ونصل الى آية على رأس الآيات التى جعلت من المسلمين أعظم علماء الفلك فالقرآن يعلمهم هنا ان الشمس والقمر انما يسيران ويدوران طبقا لحسابات دقيقة ، وقد اعتبر بعض علماء المسلمين أن معرفة هذه الحسابات من فروض الكفايات ، فكان هذا الاستغراق فى حذق علم الفلك وتقسيم السماء الى بروج ومنازل يتنقل فيهما كل من الشمس والقمر وقد صادفنى فى حياتى شيخ من أكبر مشايخ علم الحديث وكان يدرسه فى الحرم المكى وكان لا يتنفس الا دينا وحديثا ، وكان ينعى فيما ينعى على المسلمين انغماسهم فى مظاهر الحياة الأوروبية ،ولذلك فقد فوجئت عندما ذهبت لأزوره فى خلوته فى الحرم المكى أن أجد عنده آلات رصد فلكية على أحدث طراز وبالاستفسار منه ، علمت أنه مشتغل بعلم الفلك ويعتبره من فروض الكفايات ، فتحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج لا يتم الا من خلال مواقيت محددة تتوقف على رصد الشمس والقمر ، والقاعدة الشرعية أن ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب . هذه الصورة تكشف لك عن مدى تعلق المسلمين بعلم الفلك ، وما حققوه فيه من فتوحات .

وقد تعلق الانسان منذ كان انسانا بظاهرتى الشمس والقمر حتى لقد وصل الأمر به الى تأليههما حتى مختلف الاسماء والتصورات ، وليس سوى الاسلام الحنيف ، من وضع الشمس والقمر فى حجمهما الصحيح ، وانهما بعض خلق الله الواحد الاحد ، وصاغهما بهذا التركيب ، وبهذه الحسابات الدقيقة لمحض منفعة الانسان .

والنجم والشجر يسجدان :

يسجدان بمعنى يستسلمان ويقران بالعبودية ويشهدان ببديع صنع الخالق ولا يمنع هذا من أن يسجدا السجود الظاهرى كسجود الانسان فقال البعض يسجدان بظلالهما ونقول نحن سجودا يتفق مع طبيعتيهما ويدركه الله عز وجل وذلك على غرار ((**وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**)) .

ما هو المقصود بكلمة ((النجم)) :

وقد دار الخلاف منذ القدم حول المقصود بكلمة ((**النجم**)) فقال بعض المفسرين : ان ((**النجم**)) هو هذا الجرم المعروف ، بينما قال آخرون أن النجم ما لا ساق له والشجر ما له ساق ولأمر ما اختار كل المفسرين العصريين هذا الرأى الأخير واطمأنوا اليه وجزموا به على سبيل القطع ، دون أن يقتدوا بقدماء المفسرين ، حيث يسوقون الرأيين ، ولا شك عندنا أنهم استحبوا هذا الرأى بمقولة أن النجم والشجر كلاهما على الأرض فى مقابلة الشمس والقمر وكلاهما فى السماء .

ومذهبنا فى مثل هذا الخلاف ، ان نحتكم للقرآن نستوحيه ونستلهمه ونستقرئه كيف استعمل كلمة النجم خلال القرآن كله .

النجم فى القرآن :

ذكرت كلمة النجم بالصيغة المفردة أربع مرات فى القرآن .

ـ وعلامات وبالنجم هم يهتدون (النحل ١٦) .

ـ والنجم اذا هـوى . ما ضـل صاحبكم وما غوى (النجم ١ ـ ٢) .

ـ والنجـم والشـجر يسجدان (الرحمن ٦) .

ـ وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب (الطارق ٢ ـ ٣) .

هذا هو كل ما جاء فى القرآن الكريم عن كلمة النجم وثلاثة منها لا خلاف حول أن كلمة النجم تعنى الجرم السماوى فلست أعرف لماذا يعدل عن المعنى الذى عناه القرآن فى كل مرة الى معنى آخر اذا كانت كلمة الشجر هى التى أوحت بذلك فلماذا لا يتصور ان الآية الكريمة تشير الى أعظم الظواهر الكونية وهو مطلق النجم وانه ابتداء من النجم فى السماء حتى النباتات فى الأرض كلها تسجد لله ويكون وجه الجمع بين النجم والشـجر هو التضاد فى المكان وفى الحجم ، وذلك من أسـاليب اللغة المعترف بهـا .

على أن ابن كثير رحمه الله أغنانا عن هذا الاجتهاد ، واعتبر أن كون النجم هو الجرم السماوى هو القول الاظهر أى الارجح واستشهد بقول القرآن **((ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس))** وهـذا نص صريح فى أن النجوم والشمس والقمر كذلك الشجر كلها تسجد لله ولذلك أرجـو أن يسمح لى أساتذتنا الاجلاء من المفسرين العصريين الذين كادوا أن يجمعوا على أن النجم هو مالا ساق له من النبات ، أن نخالفهم فى الرأى وننضـم الى ابن كثير وغيره من قدامى المفسرين ممن قالوا ان النجم هو الجرم السـماوى المعروف ، والله تعالى أعلم .

والسماء رفعها ووضع الميزان . الا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان .

يرى بعض المفسرين أن الميزان هنا هو الالة المعروفة ويرى البعض الآخر ان المقصود هو العدل ، وقـد أشرنا لذلك من قبل ، والمقابلة هنـا بين رفع السماء وتقرير العدل مما يعلى من شـأن العدل ويجعله ضرورة انسـانية لا يقوم الاجتماع فضلا عن العمران الا به ، وقد جعل الله العدل فى الأرض من أوجب الواجبات وهو ان كان قد أشار اليه فى هذه الآيات على سبيل الرمز وقوله الحق **(واقيمو الوزن بالقسط)**

فقد جعل الأمر به صريحا فى آيات أخرى **(ان الله يأمر بالعـدل) .**

الميزان .. التوازن :

وتشع كلمة الميزان ما كشف عنه العلم الحديث من قوانين الجاذبية التى تحفظ على الاجرام السماوية توازنها ، فتعمل كلها ، وتدور حول بعضها وتسبح فى الفضاء طبقا لتوازن دقيق لا يختل قيد شعرة ، واقرأوا ان شئتم .

ـ وكل شيء عنده بمقدار :

وهكذا يكون اقتران رفع السماء بوضع الميزان اشارة الى القوانين الدقيقة التى تحفظ على هذا الكون توازنه .

ألا تطغوا فى الميزان :

الطغيان تجاوز الحد ، فالله سبحانه وتعالى يأمر هنا بعدم تجاوز الحدود والوقوف دائما عند حد أوامر الشريعة ونواهيها ونعود الى أقوال المفسرين ، فالذين يقولون ان الميزان يعنى العدل فالآية عندهم تعنى الأمر بعدم الجور أى الظلم والذين يقولون ان الميزان هو الالة المعروفة فالآية تحض على عدم البخس فى الميزان .

واقيموا الوزن بالقسط :

اى افعلوه (عملية الوزن) مستقيما بالعدل .

ولا تخسروا الميزان :

أى لا تنقصوا الميزان وهذا كقوله تعالى : ((**ولا تنقصوا المكيال والميزان**)) وقيل لا تخسروا ميزانكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم .

والأرض وضعها للانام :

قيل ان الانام هم البشر ، وقيل الأنس والجن ، وقيل هم كل خلق الله ، ولكن اهم واظهر من هم على ظهر البسيطة هم بنو الانسان ، ولذلك فنحن نختار قول من قال : ان الانام هم البشر ، ويكون المعنى أن أحد نعم الله على الانسان ان هيأ الأرض بسكناه ، وجعلها مناسبة لتكوينه .

فيها فاكهة :

ومن أجمل ما خلق الله للانسان على ظهر الأرض الفاكهة ، وقد يخيل للسذج والبسطاء ان الدنيا تغيرت ونزلت الفاكهة عن عرشها ، فلم تعد زينة الدنيا وطالما لمست بنفسى زيف هذا التصور كلما حللت بمدينة لندن عندما كانت عاصمة الدنيا ،

فقد أشاد الانجليز امبراطورية لا تغيب عنها الشمس وخضبوا أرض الدنيا بالدماء ، وتحولوا الى أكبر قوة صناعية فى العالم حتى وقت قريب ، واستعمروا واستغلوا واستبدوا وكل ذلك ليكون فى قدرة الانجليزى ان يحصل على طعـام ممتـاز على رأسه بطبيعة الحال الفواكه ، وكان مظهر عظمة انجلترا وما وصلت اليه من غنى ان ترى أشهى أنواع الفواكه وهى تباع فى الطرقات من الموز والكمثرى ، والبلح وكل ما تعرف الدنيا من فواكه ، وطالما حدثت نفسى ، أى سر هذه الحياة فهـاهم أناس يحاربون ويشقون ويظلمون وينتجون لكى يحصلوا فى خاتمة المطـاف على الموز ، حيث يوجد الموز فى أواسط افريقيا بدرجـة من الكثرة حتى ليتلف ولا يجـد من يأكله على أن الذى أريد أن أنبه اليه هنا هو ان ألفت النظر الى أن الدنيـا هى الدنيا كما خلقها الله ولا تزال الفاكهة وسـتبقى من كبـريات نعـم الله على الانسـان .

والنخل ذات الأكمام :

بعد أن تحدث القرآن الكريم عن الفاكهة بعامة ، خصص النخيـل وهـو الشجرة التى تكاد تختص بها البلاد العربية لطبيعتها الصحراوية ، أقول اختص شجر النخيل بالذكر ، باعتبار أن ثمره وهو البلح ، من أعظم ما تعرف الدنيـا من فاكهة وغذاء فى نفس الوقت ، وقبل أن ننقل لك ما قال الخبراء فى البلح دعنا أولا ننقل لك ما قيل فى « **ذات الاكمام** » الاكمام جمع كم بالكسر ، والكم هو وعاء الطلع (أى الثمر) وغطاء النور (أى الزهور التى تسبق الثمر) .

قال الحسن : ذات الاكمام أى ذات الليف .

وقال عكرمة : **ذات الاكمام** : أى ذات الاحمال (أى مجاميع البلح) .

الخبراء والبـلح :

والآن فلا نقل لك ما قاله خبراء المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، على ما جاء فى تفسير المنتخب عن « **البلح** » .

قالوا : بتحليل التمر كيماويا ، وجد أنه يحتوى على نسبة مرتفعـة من السكريات (٧٥ فى المـائة تقريبا) ومعظمها من سكر القصب وكذلك السـكر المحول (سكر الفاكهة وسكر العنب — الفركتوز والجاليكوز) وهو سهل الاحتراق ويستفيد الجسم منه فى انتاج طاقة عالية وسعر حرارى كبير .

هذا فضلا عن أن التمر يحوى أيضا نسبة عالية من الكالسـيوم والحـديد والفوسفور التى يحتاج اليهـا الجسـمومقدارا مناسـبا من حمض النيوكوتنيك والفيتـامين الواقى من مرض البلاجـرا وفيتامينى أ — ب ويحتوى أيضا على نسبة من البروتينات والدهنيات ، وكل هـذهالمكونات تجعل من البلح غذاء كاملا) .

والحب ذو العصف والريحـــان :

الحب هو الحنطة (القمح) والشعير والأرز وكل هذه الفصيلة وأفرعها ، العصف هو قشر هذه الحبوب بعد أن تفصل عنها (التبن) وقيل العصف هو ورق الشجر والزرع ، وقيل غير ذلك ولكن الأول هو الأظهر .

الريحان : قيل هو الرزق ، وقيل كل بقلة طيبة الريح سميت ريحـــانا ، وقال البعض أن أصلها روحانى .

وفى الصحاح : والريحان نبت معروف . والريحان الرزق تقول : خرجت ابتغى ريحان الله . انتهى .

وفى الحـــديث الشريف (الولـــد من ريحان الله) .

فبـــأى آلاء ربكما تكذبان :

نصل الآن الى الآية التى تكررت فى السورة ٣١ مرة بحيث تمثل جمال الايقاع الصوتى والمعنوى ، فموسيقى القرآن بالجرس والمعنى معا ، فاذا انتشت الأذن ، لوقع تكرار الايقاع الموسيقى ، فان النفس المؤمنـــة ، تنتشى بهـــذا التقريع المتكرر والذى يذكر عقب كل نعمة أنعم الله بها على الانســـان فتنتفض النفس المؤمنـــة وتتبرأ من أن تكون من الجاحدين .

من همـــا المخاطبـــان :

وقد دار التساؤل ، من هم المخاطبون بهذه الآية ، ولمـــاذا كانت صـــيغة الخطاب بالمثنى .

وقد ذهب المفسرون مذهبين ، فقال البعض ان هـــذا أحد أساليب اللغـــة العربيـــة .

قفـــا نبـــك ..

خليلى مرابى ..

وقد جاء فى القرآن هذا النسق ((**القيا فى جهنم**))

وهناك رأى ثان وهو ما نميل اليه ، وهو أن الآيات التالية توضـــحها ، اذ تحدثت عن خلق الانس والجن ، فالحديث موجه لهما ، (**سنفرغ لكم أيهـــا الثقـــلان**) .

ويكون فى الكلام تقدم وتأخير ، وهو نسق قرآنى متبع . وقدمنا اننا نختـــار هذا الرأى ، فسوف نرى فى الآيات القادمة ، الاشارة المتكررة للانس والجن .

ـ **خلق الانسان من صلصال كالفخار • وخلق الجـان من مارج من نار • فبأى آلاء ربكما تكذبان •رب المشرقين ورب المغربين • فبـأى آلاء ربكما تكذبان • مرج البحرين يلتقيان • بينهما برزخ لا يبغيان • فبأى آلاء ربكما تكذبان • يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان • فبأى آلاء ربكما تكذبان • وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام • فبأى آلاء ربكما تكذبان •**

خلق الانسان من صلصال كالفخـار :

الصلصال : هو الطين اليابس **والفخار** معروف ومشهور والطين بطبيعـة الحال هو التراب المخلوط بالمـاء **(أنا خلقناهم من طين لازب) (كمثل آدم خلقـه من تراب) •**

وهكذا كرر القرآن فى أكثر من آية خلق الانسان من تراب ممزوج بالمـاء وهو الطين ، وأكد فى آية عامة شاملة « **وجعلنا من المـاء كل شىء حى** » وما على أى انسان يريد أن يتأكد بطريقة قاطعة ان القرآن الكريم ما هو الا وحى يوحى ، الا أن يقف أمام هذه الحقيقة وحدها ، حقيقة خلق الانسان من طين أى تراب وماء فعلماء المـادة المعاصرون الذين انسلخوا من كل دين ، وايمان بالله واالذين لا يتحـدثون الا عن المـادة ، انتهوا الى القول بأن الحياة لا يمكن أن تكون قد نشأت ابتـداء الا من الطين وفى كتابنا « **الطاقة الانسانية** » استعرضنا هذه الأقوال التى قال بهـا علماء الروس والأمريكان فى مؤتمرات دولية ، من أن الحياة بدأت أول ما بدأت من طين أى ماء وتراب .

وما كان لسيدنا محمد العائش فى صحراء العرب من أربعة عشر قرنا ، أن يقول ما انتهى اليه العلم الحديث ، ولكنه وحى من رب العالمين انزله على قلب سيد المرسلين ونطق به لسانه ليعلم الدنيا الى أبد الأبدين .

وخلق الجان من مارج من نار : الجان واحد الجن ، والمارج اللهب

عن ابن عباس : خلق الله الجان من خالص النار وعنه أيضا : من لسانها الذى يكون فى طرفها اذا التهبت .

كائنـات غير انسـانية :

قرن الله فى هذه السورة خلق الانسان الى جوار خلق الجان فاذا كان الانسان قد خلق من الطين ، فالجان قد خلقوا من النار ، ونحن نعلم الآن أن الاجرام السماوية تنقسم الى قسمين : كواكب على غرار كوكبنا الأرضى أى معتمة جامدة ، وثمـة نجوم مشتعلة أى أنها نار موقدة .

ومن قدر على أن يخلق من الطين كائنات حية ، فلا يمكن أن تعجز قدرته على أن يخلق من النار كائنات من نوع آخر تغاير الطبيعة الانسانية ولا نستطيع نحن فهمها بطبيعة الحال أكثر من أنها موجودة .

ونريدك أيها القارىء الكريم بداءة ذى بدء أن تعتبر كل من تحذلق باسم العقل والعلم أن ينكر وجود كائنات أخرى فى هذا الكون غير الانسان فاتهمه على الفور بالجهل فلا العقل المجرد ولا العلم المادى الحديث بالذى يستطيع أن ينكر وجود كائنات أخرى غير الانسان ومن طبيعة مغايرة وأكثر المجتمعات الحديثة اغراقا فى العلم هم الذين يتحدثون الآن عن كائنات تغاير الانسان تعيش فى كواكب أخرى وعوالم أخرى . أما نحن المؤمنين فعندما يحدثنا القرآن عن خلق الجان من مارج من نار ، نقول آمنا وصدقنا وليس منا من ينكر الجن ولا نتردد فى وصفه بالكفر .

فبأى آلاء ربكما تكذبان :

فبأى من نعم الله تجحدان ، وهكذا يبدأ الايقاع الموسيقى الحسى والمعنوى الذى تتميز به سورة الرحمن .

رب المشرقين ورب المغربين :

رأى بعض قدامى المفسرين أن المقصود هنا ان لكل من الشمس والقمر مشرق فى الصيف وآخر فى الشتاء ، ويرى آخرون أن المشرقين هما شروق الشمس والقمر ، وان المغربين هما غروب كل منهما . أما نحن فقد أفضنا فى الحديث فيما مضى واضعين ثلاث آيات من القرآن معا .

— رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا

— رب المشرقين ورب المغربين

— رب المشارق والمغارب

فعندما يحدثوننا عن كروية الارض وانه حيث تشرق الشمس فى نصفها الشرقى فانها تغرب فى نصفها الغربى ، وعندما يحدثوننا ان مطلع الشمس يختلف فى الزمان والمكان فى كل بلد عن الآخر فنحن نقول صدق الله العظيم (**فبأى آلاء ربكما تكذبان**) فبأى من هذه الآيات البينات تنكرون وتجحدون .

مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان .

مرج : أى خلط .

بعض المفسرين على أن المقصود هو بحر السماء والأرض ، وابن كثير يرى ان كلمة « **برزخ** » فى الآية التالية بمعنى حاجز ، يحول دون هذا المعنى .

بينما يرى مفسرون آخرون ان البحار على ظهر الارض كلهـا تتلاقى وتتصـل دون أن يبغى (أى يطغى) أحدهما على الاخر . أما نحـن فعـلى رأى من قـال : أن هذه الاية يجب أن تفسر على ضوء الاية التالية .

— **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ● وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ●** (سورة الفرقان)

فيضان النيل :

وقد اتيح لنا نحن المعمرين ان نشهد هذه الاية الربانية وأن نلمسها باليد أو بالاحرى لنذوقها بالفم ، فعندما كان فيضان النيل يتدفق الى البحر الابيض فقد كانت المياه العذبة تندفع الى البحر المالح وتأخذ شكل لسان عذب وسـط الامواج المالحة الصاخبة لعدة كيلو مترات وكانت قدرة الله وحدها هى التى تبقى الماء العذب عذبا وهى وحدها التى تحول دون ان يطغى البحر عليها بكل جبروته فيظل الامر هكذا ماشاء الله له ان يكون « **هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج** » .

وقدرة الله وحدها هى التى تقيم بين الاثنين « **برزخا وحجرا محجورا** » وذلك كله مع ان الماء العذب والمالح قد اختلط ببعضهما مصداق قوله تعالى : « **وهو الذى مرج البحرين** » .

وعلى هذا يصبح من السهل فهم المقصود من « **مرج البحرين يلتقيان** » ●

بينهما برزخ لايبغيان ● فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان .

واللؤلؤ هو هذه الجواهر الثمينة التى تستخرج من صدف فى البحر ، وقيل هو — الخرز الاحمر وهو ما نرجحه .

وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام :

الجوار : السفن

كالاعلام : أى الجبال

القرآن والبحر :

عزيز على أن أتوقف من حين لاخر لالفت النظر الى ان القرآن وحى من رب العالمين ، فتلك قضية قد خلت منها كل كتب التفسير باعتبـارها من المسـلمات التى لا يمارى فيها أى مسلم ولكن عزائى أننى فى ذلك لا أخرج عن منهاج القرآن نفسه ، فهو قد ناقش هذه المقولة أكثر من مرة وردد أقوال المشركين فى هذه الناحية

وفى عصرنا الحديث تحت تأثير الدعوات المادية والالحادية ، عادت كل تخرصات مشركى قريش للظهور ، فأصبح لزاما التصدى لها .

الجهل بالقرآن

ونريد بداءة ذى بدء أن نلفت النظر الى أن أى تقول على القرآن بغير حق انما ينبع من الجهل به والافنان أى مطالعة له لا يمكن الا أن تستوقف أعتى عتاة الماديين والكافرين متى كان عندهم ذرة من الروح العلمية التى لاترمى الكلام على عواهنه .

ومن ذلك هذه الاية التى نحن بصددها . فهى تتحدث كما رأينا على ضوء آية الفرقان عن الماء العذب الذى ينساب وسط الماء المالح ومع ذلك فتبقيهمـــا قدرة الله منفصلتين ، هذه الظاهرة التى أشرنا الى انها كانت تحدث فى فيضان النيل .

وقد بقى أن تعرف انشـــبه جزيرة العرب من مشرقها لمغربها ومن شمالها لجنوبها لا يوجد بها نهر أو شبه نهر ، بل ان بلاد الشام نفسها التى قد يقال ان سيدنا محمدا ذهب اليها فى شبابه،لايوجد بها نهرعذب يصب فىبحر ملح ، والعرب المخاطبون بهذا القرآن لم تر الاغلبية الســـاحقة جدا منهم بحرا ، فاذا كان القليل منهم ممن يعيشون على الساحل قد رأوا بحرا فهم لم يرو على وجه التحقيق نهرا ، ومع ذلك فها نحن نرى فىالقرآن صورة دقيقة لحقيقة واقعة ، فيستحيل عقـــلا أن يكون ذلك من كلام سيدنا محمد ،فالانسان لا يتكلم الا على ما شاهد وعاين أو علم ، وقد رأينا كيف أن سيدنا محمدا وكل قومه لم يشهدوا ولم يعاينوا ولم يعلموا ، فقد كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، ولم يكن عندهم كتاب واحد من أى نوع كان كما يحاججهم بذلك القرآن .

الحديث المستفيض عن البحر :

وليس هذا الذى قدمناه الا اشارة واحدة من أحوال كثيرة تضمنها القرآن الكريم ، والتى تصف أحوال البحر ، فتحدثنا الاية عن السفن الضخمة التى تشق البحار وعن الامواج الصاخبة التى تعلو علو الجبال ، وعن الظلمات التى تغشى البحار فتحيل نهارها الى ظلام وتصور حالة البحارة عندما تكتنفهم العواصف والاعاصير ويستولى عليهم القنوط ، وبالجملة كل أحوال البحار وما يتصل بهـــا مما لا عهـــد للعرب به .

سيدنا عمر بن الخطاب والبحر :

ولن أذهب بك بعيدا فى تصوير جهل العرب بالبحر وكل ما يتصل به فهذا هو سيدنا عمر أعظم من أخرجته جزيرة العرب بعد سيدنا محمد وأبو بكر وقد طال حكمه

وقهر امبراطوريتين حتى أصبح سيد الدنيا كلها بغير منازع ، وهو عبقرى لم يجد الزمان بمثله ، ومع ذلك كله فقد كان يجهل كل شىء عن البحر ، وكان يطلب من قواده أن لا يجعلوا بينه وبينهم أى حاجز مائى ، وقد ظل يرفض وباصرار أن يغامر بأرواح المسلمين فى البحر ، وليس ذلك كله الا تصويرا لحالة العرب الذين عاشوا فى معزل عن الدنيا فى صحرائهم فاذا رأينا القرآن قبل ذلك ، يحدثنا عن كل أحوال البحار ، استطعنا أن نجزم بطريقة علمية بحتة ان هذا القرآن الكريم ليس الا تنزيلا من رب العالمين الذى يعلم وحده الأرض والبحار والسماء والكائنات .

— كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

فناء كل الكائنات :

ويحدثنا القرآن الكريم عن فناء كل من عليها ، ويكون السؤال « **على ماذا يعود الضمير فى كلمة عليها** » والجواب عند أكثر المفسرين ، ان الضمير يعود الى «**الأرض**» و « **الأرض** » « **والأرض وضعها للانام** »ويكون المعنىأن كل من وما على ظهرالأرض سيفنى وقد قدمنا ان فناء كل الكائنات على ظهر الأرض قد دخل فى دائرة الممكن المتوقع بفعل الانسان نفسه فقد أصبح مخزون القنابل الذرية يكفى لافناء ما هو كائن على سطح الأرض أكثر من مرة .

وهكذا عندما تشاء ارادة الله فحسبه أن يقول كن فيكون بأى سبب من الأسباب .

على أن آية كل من عليها فان ، يجب أن تفهم على ضوء غيرها من الآيات وبخاصة قول القرآن الكريم : « **كل شىء هالك الا وجهه** » وهذا تعميم أن الأرض نفسها سوف تفنى ويكون من الأرجح أن الضمير فى عليها يعود الى الدنيا كلها بكل عوالمها وأكوانها .

ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام :

ذو الجلال : الجلال العظمة : جل الشىء أى عظم .

والاكرام : أى هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك .

بقيت كلمة وجه الله والتى ذكرت فى القرآن أكثر من مرة ووجه الله هو الله بذاته ووجوده ، قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه .

يقال فى اللغة : هذا وجه الأمر ، ووجه الصواب أو عين الصواب ، ونقــول نحن فى مصر : الوجه البحرى والوجه القبلى ، فوجه الله هو ذاته فلا ينزلق أحــد الى قول من قال ان الله وجه بغير تشبيه ولا تجسيد ولا تعطيل فالله ليس كمثله شىء وما دام القرآن قد نزل بالعربية ، وما دامت اللغة العربية تعبر عن ذات الشىء بوجهه فيجب أن نقف عند هذا الحد وجه الله أى ذات الله . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

يسأله من فى السموات والأرض . كل يوم هو فى شأن .

نصل الآن الى آية هى سر ايمان المؤمنين ، وهى الفارق بين الايمان والالحاد، فقد وجد فى كل عصر وزمان من لم ينكر وجود الخالق ولكنه زعم ان الله بعد أن خلق الدنيا وأودع فيها نواميسها وقوانينها ،فقد نفض يده منها ، وتركها تسير تلقائيــا دون تداخل منه . وهذه الآية تدحض هذا القول وتعلمنا أن الله حى قيوم مريد فعال فى كل لحظة وآن وما هو دون اللحظة والآن ، وقد فسرنا من قبل اليوم أنه قد يطول ليشمل ما نعده نحن بملايين السنين ، ويتقاصر اليوم هنا الى ما شاء الله ، فعندما يقول كل يوم هو فى شأن فمعنى ذلك ان ارادته مطلقة يطلقها حيث يريد ، انى يريد ، كيف يريد ، يقول مجاهد : كل يوم هو يجيبداعيا ، ويكشــف كربا ويجيب مضطرا ، ويغفر ذنبــا .

وروى ابن جرير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلا هــذه الآية « كل يوم هو فى شأن » فقلنا يا رسول الله : وما ذاك الشأن ؟ **فقال : أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين .**

الدعــاء :

وعندنا ان مفتاح ذلك كله هو الآية السابقة : يسأله من فى السموات والأرض. أى أن البشر ، وسائر ما فى الكون من كائنات ، نعرفها ، ولا نعرفها يتوجه لله بالدعاء ، والله موجود دائما حاضر دائما ليجيب دعوة الداعى اذا دعى حسبما يشاء انى يشاء ، فلا يكف المنون عن دعاء ربهم ، فالدعاء مخ العبادة ، لأنه جوهر الايمان بالله مطلق التصرف فى هذا الكون لا يحد ارادته الا ارادته .

سنفرغ لكم أيهــا الثقــلان :

الثقلان : الجن والانس وسميا بالثقلان لأنهما مثقلان بالذنوب فى بعض الاراء ، ولعظم شأنهما فى بعض الاراء ، ولثقل كل منهمــا (فى الوزن) على الأرض أحيــاء وأمواتا .

جاء فى القــرآن الكريم « **وأخرجت الأرض أثقالها** » .

سنفرغ لكم أيها الثقلان : كلمة وعيد وانذار أنه ينبه الجن والانس الى أنهما محاسبان على كل شىء .

فبأى آلاء ربكما تكذبان : وتأخذ هذه الآية كل مرة تقال فيها المعنى المناسب لمقتضى الحال ، فعندما يحذر الله الانس والجن فانها تصبح وكأنها أمر أن يحذر الانس والجن من جحود نعم الله أو التكذيب بآياته .

ـ يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

الصعود الى القمر :

كان بعض قدامى المفسرين يقولون أن هذه الآية وردت على سبيل التعجيز بمعنى أن الجن والانس لن يستطيعا النفوذ أبدا الى السماء ، ولكن البعض الاخر من المفسرين لم يستبعد امكان حدوث ذلك وانه يوم ان يتم فسيكون باذن من الله وارادته وذلك معنى قوله تعالى **((لا تنفذون الا بسلطان))** .

يقول ابن كثير : الا بسلطان ، أى بارادة الله .

بينما نقل القرطبى عن البعض بسلطان أى لا تستطيعون الفرار من سلطانى المحيط بكم فى كل مكان كما جرى التساؤل عن هذه المحاولة أهى فى الدنيا ، أم فى الآخرة .

أما نحن المعاصرين فالسؤال الذى يتردد فى نفوس الكثيرين ، أين موقع صعود الانسان فى عصرنا الى القمر من هذه الآيات ، وعندنا ان كلا المعنيين مفهوم .

امكان النفوذ الى أقطار السموات باذن الله :

فمن ناحية تتسع الآيات لقبول فكرة صعود الانسان الى القمر وبقية الكواكب الأخرى فهى تقول ان استطعتم أن تنفذوا .. فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان وقد رأينا أن بعض المفسرين يرون أن السلطان هو ارادة الله واذنه ونحن نرتاح لهذا الرأى ونأخذ به ، فاذا كان الانسان المعاصر قد وضع أقدامه على القمر فقد تم هذا بارادة الله وسلطانه ، ولحكمة يعرفها هو ، واذا جاز لنا بعقولنا أن نستجلى هذه الحكمة فانى أتصور أن الله عز وجل قد فتح هذا الباب الجديد للانسان لكى يحطم غروره ، ويعيده الى الاقرار بعجزه ، وهو الطريق المؤدى الى الايمان بالله .

تصور البشر أنهم ملكوا أسباب القوة :

أما كيف يحطم الصعود الى القمر غرور الانسان ويشعره بعجزه ، فمسألة تحتاج الى ايضاح حيث يتصور الكثيرون أن ذلك قمين أن يزيد فى غروره .

فقد تصور بعض البشر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، انهم ملكوا كل أسباب القوة وأحاطوا بالعلم كله ، وانهم أصبحوا سادة العالمين ، فجاءت هــذه النقلة الجديدة الى القمر والتى اعتبروهاذروة ما وصلوا اليه من علم ، لتظهرهم من جديد على أنهم هم وعلمهم وأرضهم وقمرهم . بل وكل كواكبهم ومجموعتهم الشمسية . ليسوا الا ذرات فى هذا الكون الفسيح الذى يقولون هم أن أبعــاده تقاس بملايين السنين الضوئية . وهكذا يعود الانسان للاحساس بعجزه ازاء هذا الكون الرهيب ، وبالتالى يعود للتسليم بالله رب العالمين .

لا تزال السماء بعيدة المنــال :

بوسعك أن تأخذ بهذا الرأى اذا كان صدرك ينشرح له ، وبوســعك أن تقول ان الصعود الى القمر وبقية الكواكب حتى اذا تم ، فلا يزيد ذلك عن خطــوة أنمـــلة .

ووراء مجموعتنا الشمسية مجرات وسدم ، لا يعلم أمرها الا الله ، فلا تزال اقطار السموات فى منأى عن أن ينفذ منها الجن والانس معا .

فبأى آلاء ربكما تكذبان :

أى فاصدعا بعظمة الخالق ، واياكما أن تجحدا عظمته وجبروته .

يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران

شواظ : اللهب الخالص الذى لا دخان فيه .

نحاس : الدخان بلا لهب .

تشير هذه الآية الى الحالة التى لا يأذن فيها الله سبحانه وتعالى للانسان أو الجان من النفوذ الى أقطار السموات ، حيث يسلط على المحاول نارا ، ودخانا ، فيحول دون وصوله الى هدفه ، وهو ما رأينــاه رأى العــين ، فنجحت بعــض المحاولات وفشلت محاولة بعدها مع تهيؤ فرص النجاح ، وما ذلك الا لأن الأمر كله منوط بارادة الله يأذن لمن يشاء . ويحجب الاذن عمن يشاء ، هذا اذا أردت أن تأخذ بهذا التفسير ، وفى الرأى الثانى فلك أن تقول ان وراء المجموعة الشمسية مهالك تحول دون نفوذ الانسان الى اقطار السموات والأرض .

نحـــاس :

ونريد قبل أن نترك هذه الآية أن نلفت النظــر لضرورة الاطــلاع على كتب التفسير قبل أن يكون قارىء القرآن لنفسه أى فكرة فأحسب أن ٩٩ فى المــائة

ممن يطالعون القرآن سيفهمون على الفور من كلمة نحاس ، المعدن المعروف . وربما حدثتهم أنفسهم ، وخاصة فى أيامنا هذه ، لماذا كان النحاس بالذات ، أما بعد أن تطلع على كتب التفسير فسترى جمهرة المفسرين على أن النحاس هنا هو الدخان والدخان هو الغازات المبثوثة فى الفضاء وهو ما يتفق حرفيا مع مخاطر الفضاء التى يواجهها رواد الفضاء حيث تهددهم الشهب (نار) والغازات الخنقة **(الدخان)** .

أما اذا كان صدرك ينشرح بعد أن تعلم أن جمهرة المفسرين على أن النحاس هو الدخان ، أقول اذا كان صدرك ينشرح الى أن النحاس هو هذا المعدن المعروف. فلك ذلك فان بعض المفسرين القدامى قد أخذوا به ، كما أخذ به شيوخنا الاجلاء أصحاب تفسير المنتخب .

فبأى آلاء ربكما تكذبان :

ويمضى الايقاع الصوتى والمعنوى ، ليذكر الجن والانس ويحذرهما ، يذكرهما بعظيم نعم الله وأفضاله على عبيده ويحذر من مغبة جحود النعم والتكذيب بآيات الله .

ـ فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان فبأىآلاء ربكما تكذبان . يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

انشقت السماء : تكرر ذكر انشقاق السماء يوم القيامة فى القرآن .

اذا السماء انشقت ، واذا السماء انفطرت ، ومعنى انشقاقها اختلال نظمها، وانفراط عقدها وانقلاب تكوينها .

فكانت وردة : أى تحولت كلون الوردة ، وعندما تطلق كلمة الوردة يكون الاغلب عليها اللون الاحمر .

كالدهان : أى تتحول الى سائل ومن حقائق العلوم الكونية أن الغازات تتحول الى سوائل .

بسيماهم : أى بمظهرهم ، وفى القرآن الكريم وصف للمجرمين بسواد الوجوه **(الطارىء طبعا)** وأحيانا اللون الأزرق .

فيؤخذ بالنواصى : أى بمقدم الراس .

حميم آن : أى ماء حار متناه فى الحرارة .

يوم القيـــامة :

تتحدث هذه الآيات عن يوم القيامة وكيف تتصدع السماء وتتغير ألوانهـــا وما ينتظر الكافرين والمجرمين من عذاب وأهوال حيث يطبع الله على وجوههم ، بعد أن يقضى الله قضاءه فيهم ، بحيث لا تكون الملائكة فى حاجة لسؤالهم اذ يدل مظهرهم على مخبرهم فيجذبونهم من شعورهم أى مقدم رؤوسهم وأرجلهم ويقذفون بهم الى النار التى كانوا يكذبون بها وقد تحولت الى حقيقة يتجرعونها ، وتشير الآيات الى الصورة التى طالما تكررت من أن المجرمين هم لا يتعذبون فى نار جهنم، يتراءى لهم ماء فيتصورون أنه قد يخفف بعض ما يعانون ، فاذا به أشـــد لعنة من النار نفســـها .

فبأى آلاء ربـــكما تكذبان :

ويجب أن يفهم ترديد آيه فبأى آلاء ربكما تكذبان ، وسط مظاهر تعـــذيب المجرمين انه وعيد للكافرين ، وأن ما يعانونه هو جزاء تكذيبهم لآيات الله وجحودهم بنعمتـــه .

ـــ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . هل جزاء الاحسان الا الاحسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ومن دونهمـــا جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما فاكهة ونخل ورمان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن انس قبلهم ولا جـــان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام .

المفـــردات :

ذواتا أفنـــان : الافنان : الأغصان وقيل أنواع من الثمار .

عينان : أى ينبوعان من الماء .

ورد فى القرآن : عينا فيها تسـمى سلسبيلا » كما ورد فيه أيضا : ومزاجهم من تسنيم « ومن هنا اختار بعض المفسرين أن يقولوا : ان العينين هما « **السلسبيل وتسنيم** » والله تعالى أعلم .

من كل فاكهة زوجان : أى صنفان من كل فاكهة مما نعرف ، وما لا نعرف .
متكئين : اى جالسـين .

على فرش بطائنها : والبطانة معروفة وهى الكسوة الداخلية والتى لا تظهر .

من استبرق : الاستبرق : ما غلظ من الديباج **الحرير الموشى بالذهب والملاحظة هى انه اذا كانت هذه هى البطانة فكيف بالظهارة .**

وجنى الجنتين دان :

أى ثمرهما قريب اليهم متى شاءوا يتناولون على أى صفة كانوا عليها قال تعالى « **قطوفها دانيـة** » .

فيهن قاصرات الطـرف :

أى من لا ينظرن لغير ازواجهن .

لم يطمثهن : أى لم يمسسهن ، فبقين كما جـاء فى سـورة الواقعة « **عربا أترابا** » .

ومن دونهما جنتان : جرى التساؤل أعلى أو أدنى من السابقين فى الدرجـة المكانية أو فى الأفضلية وقارن بعض المفسرين بين الجنان الأربع وخرجوا من المقارنة بأفضلية الأوليين .

مدهآمتان : الدهمة شدة السواد ، قال ابن عباس : **قد اسودتا من الخضرة (أى ان شدة الاخضرار)** جعلتهما كما لو كانتا سوداوين .

عينان نضاختان : أى فوارتان بالمـاء لا ينقطعان ، والذين عقدوا المقارنة فضلوا « **عينان تجريان** » على « **عينان نضاختان** » .

فيهن خيرات حسان : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

حور : هو الاسم الذى يطلقه القرآن على نساء الجنة وقد جمعن كل حسـن متصـور .

مقصورات فى الخيـام : أى ملتزمات لجـدور مسـاكنهن التى قيـل أنهـا من اللؤلؤ .

رفرف : الوسائد ، أو الفرش المرتفعة .

عبقرى : البسط : السجاجيد : الطنافس ، الزرابى ، وقيل كل ثـوب موشى فهو عبقرى .

تبارك : أى تعالى : كثر خيره واحسانه

ذى الجلال : العظمة والكبرياء .

الاكرام : الحقيق بأن يعبد ويحمد ويشكر .

أوصـــاف الجنـــة :

نبهنا أكثر من مرة اننا فى موضوع الجنة نقف عند قول القرآن الكريم .

— وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون (الأنبياء ١٠٢) .

— ولكم فيها ما تشتهى أنفســكم ولكم فيها ما تدعون (فصلت ٣١) .

— وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين (الزخرف ٧١) .

وعلى ضوء هده الآيات المطلقة فنحن نفهم كل ما ورد فى القرآن من احاديث عن الجنة ، حيث لكل موعود (**جعلنا الله واياكم منها**) ما يشتهيه وما قد يكون حرم منه فى الدنيا ، وهى مسائل تختلف وتتعدد مـن مؤمن الى مؤمن والمهـم ان كـلا سينال ما يريد وفوق ما يريد على أننا قبل أن نخلص من هذه السورة الكريمة نريد أن نقف قليلا أمام معنيين : الخوف من الله والتوبة .

ولمن خاف مقام ربه جنتان .

وعد الله الذين يخافونه لا بجنة واحدة وانما باضعاف ذلك ، والخـوف من الله تكرر فى القرآن اما بهذا اللفظ واما باللفظ المرادف له « **خشية الله** » ذلك أن الخوف من الله والخشية منه هو مظهر عمق الأيمان بوجود الله وقدرته وعبودية الانسان له فأنت لا تخاف من شىء غير موجود وأنت لا تخاف من شىء تدرك عجزه وانت لا تخاف من شىء تدرك انك لست فى سلطانه .

فاذا أردت أن تطمئن الى حقيقة ايمانك فما عليك الا أن تستشعر من نفســك مدى خوفك منه بالليل والنهار بل فى كل لحظة وآن ، والويل لك كل الويل اذا تصورت أن أى عمل من أعمالك مهما دق وصغر بل أى خاطر من خواطر نفسك يغيب عن علم الله وطوبى لك ثم طوبى اذا أوصلك ايمانك بالله الى تمثـله حاضرا معك ابدا فراقبته فى كل ما تقول وما تفعل وحرصت على الا تغضبه .

رأس الحكمة مخافة الله :

وقد كان من أكثر ما ادخل السعادة على نفسى فى يوم من الأيام ، ان وجدت مكتوبا على باب بطريركية الأقباط **((رأس الحكمة مخافة الله))** أما سبب سعادتى فهو انى وجدت التأييد لمـــا ذهب اليه القرآن الكريم من ان جوهر التدين واحـــد وهو الخوف من الله ، وطالما قلت انه من الاسلم دائما أن نتعامل مع صاحب أى دين ، من أن نتعامل مع من لا دين له لأن صاحب الدين الورع ، أى دين ســيخاف الله فيحسن معاملتك اما من لا دين له ومن لا اله له فلو استطاع أن يغتالك فضـــلا عن أن يغتال حقوقك لمـــا تردد .

القضـــية اليـــوم :

والقضية اليوم ليست هى قضية الخلاف بين دين وآخر وانما قضية العصر هى قضية دين أولادين وقضية ايمان بالله أو عدم الايمان به .

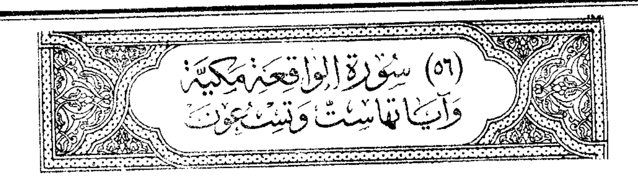
التـــوبة :

ثمـــة وقفة أخرى أمام حديث جميل ورد بمناسبة هذه الآية الكريمة .

ولمن خاف مقام ربه جنتان ((فقد روى ان رسول الله صلى الله عليه وســـلم تلا هذه الآية ، فقال أبو الدرداء (أحداعلام الصـــحابة) **وان زنى وسرق يا رســـول الله ؟ فقال : ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت : وان زنى وان سرق ؟ فقـــال : ولمن خاف مقام ربه جنتان . فقلت ، وان زنى وان سرق يا رسول الله ؟ فقـــال ((وان رغم انف أبى الدرداء))** رواه النسائى من أكثر من طريق كما رواه ابن جرير فى تفسيره .

وقد روى عن أبى الدرداء انه قال (مراجعا نفسه فيما يبدو) ان من يخاف مقام ربه لا يسرق ولايزنى وذلك حق بطبيعة الحال . ولكن الانسان قد يذنب ويخطىء وهو فى غفلة من أمر ربه ثم يخاف الله فيتوب ، وهنا يقبل الله توبته اذا كانت صادقة ويحشره الله مع السعداء فالتائبمن الذنب كمن لا ذنب له .

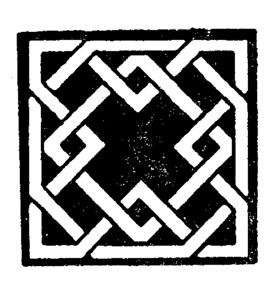
وصدق الله العظيم



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨)
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦)
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩)
وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣)
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ
مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١)
وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ
أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَٰبُ
ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦) نَحْنُ
خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ
ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨)

ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم
مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾



ســــورة مكية :

الذى عليه الاجماع أنها سورة مكية وهو المقرر فى المصحف وعليه المعول ، واحسب أن الذين سايرونا حتى الآن فى استعراضنا لسور القرآن الكريم قد أصبحوا قادرين على التمييز بين الســـور المكية والمدنية ، **فحيث تخلو السورة من التشريع والحديث عن اليهود وعنـــادهم الذى يجعلهم يؤثرون الكفر على العيش فى سلام مع المؤمنين ، وحيث تخلو السورة من الحديث عن النفاق والمنافقين ، وعن الحرب والقتـــال ، وتوجه الخطاب الى الذين آمنوا ، فالسورة مكية تواجه مجتمعا يشرك بالله ولا يؤمن باليوم الآخر وينكر البعث والحساب والجزاء فاما الى الجنة أو الى النار كما أصبح هو الشأن فى بعض المجتمعات الحديثة ومن هنا فان النـــداء القرآنى شانه فى كل زمان ومكان يدوى بكل قوة لينبه الغافلين ، ويبهت الكافرين .**

النظم القرآنى :

ومذ قام علم للغة العربية فقد قسموا الكلام الى شعر ونثر ولكن الذين درسوا الاعجاز القرآنى قسموا الكلام الى شعر ونثر وقرآن وهو قول صادفه التوفيق ، فأنت بنص القرآن لا تستطيع أن تصفه بأنه لون من ألوان الشعر ، ولا تستطيع أن تصفه بأنه نثر ، وانما هو قرآن له نظمه القرآنى والذى يتجلى فى مثل سورة الواقعة ، وصنوتها الرحمن ، حيث ترى نفسك أمام النظم القرآنى لا يمكنك وصفه بالشعر ، ولا بالنثر انه **قرآن فحسب تنزيل من لدن سميع عليم . وليس أدل على أن القرآن لا يمكن وصفه بالشعر أو النثر أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم الذى أوحى اليه القرآن كان يســـوق الأحاديث التى تردد وتفسر آيات القرآن ، وشتان بين كلام سيدنا محمد الشخصى من حيث النظم وبين آيات القرآن الكريم الموحى بها اليه من لدن رب العالمين .**

حديث لابن مسعود :

قال الحافظ بن عساكر فى ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده الى عمر بن الربيع بن طارق المصرى **حدثنا السرى بن يحيى الشيبانى عن أبى شجاع عن أبى ظبية قال : مرض عبد الله مرضه الذى توفى فيه فعاده (زاره) سيدنا عثمان بن عفان فقال : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى ، قال : فما تشتهى . قال : رحمة ربى ، قال : الا آمر لك بطبيب ، قال : الطبيب أمرضنى ، قال : ألا آمر لك بعطاء ، قال : لا حاجة لى فيه . قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : (لا) تخشى على بناتى الفقر أنى أمرت بناتى يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ ســـورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا(١) .**

---

(١) لسورة الواقعة واقعة شخصية حين كنت فى السجن أنا والاستاذ فتحى رضوان والاستاذ حافظ محمود اذ أنها فرجت عنا العناء حين كان يتلوها الاستاذ حافظ محمود .

وروى الترمذى بسنده حديثا آخر وصفه بأنه حسن غريب قال قال أبو بكر الصديق لسيدنا محمد : **يا رسول اللهقد شبت . قال : سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت**

ــ اذا وقعت الواقعة.ليس لوقعتهاكاذبة . خافضـــة رافعـــة . اذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا .

اذا وقعت الواقعة :

الواقعة : أحد أسماء يوم القيامة وقد مر بنا حتى الآن العديد من أسمائها التى تشير الى بعض خصائصها وصفاتها ،فهى القارعة التى تنبه الغافلين ، وهى الغاشـــية التى تمحق الكافرين . وهى الحاقة التى تعطى كل ذى حق حقه ، وهى فى كل الأحوال الآزفة ، أى التى تدهم البشر عند مجيئها .

وهى هنا آتية لا ريب فيها ، وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة ، أى لا شك فى وقوعها وعندما تقع لا يمكن لأكثر الناس جحودا ونكرانا أن يكذب بأمرها لأنها تصبح واقعا ماديا محسوسا .

خافضة رافعة :

جمهرة المفسرين على أن يوم القيامة يرفع أناسا وهم المؤمنون الصالحون أيا كان شأنهم فى الدنيا صغيرا متواضعاومن الناحية المقابلة تهبط بمكانة آخرين من الكفرة والطغـــاة والمتجبرين أيا كانشـــأنهم فى الدنيـــا من العلو والارتفـــاع ولا شك أن هذا هو ما يحدث يوم القيامةبالنســـبة للبشر ، **ولكن أحد خصـــائص القرآن المعجزة أن آياته جاءت مطلقة فى المسائل الكونية ولذلك فنستحب أن نبقيها على اطلاقها لتتسع للمعنى السابق ، وأى معنى آخر يمكن أن تتسع له** ، فهى خافضة أى تخفض كل شىء من انســـان وحيوان وجماد وما نعرف ومالا نعرف من مخلوقات وكائنات مما يشاء الله أن يخفضه وترفع كل ما شاء الله أن يرفعه .

ــ اذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا .

الرج : هو التحريك الشديد .

بست الجبال : أى فتتت كالسويق الملتوت والبسيسة السويق أو الدقيق يلت بالسمن أو بالزيت .

هباء منبثا :

الهباء : هو الذرات التى ترى فى ضوء الشمس النـــافذ من خلال أى كوة ، (ومنبثا) أى منتشرا .

أحوال يوم القيامة :

والآيات الكريمة تصوير يقرب الذهن بعض ما يقع فى يوم القيامة مما شرحناه أكثر من مرة .

بمناسبة سورة الحاقة والقيـــامة والقارعة ، وخلاصة ما يجب أن نستحضره من وقائع هذا اليوم أن هذا النظام الدقيق المعجز الذى يحفظ الكون فى اطاره المرسوم ينفرط عقده ويختل نظمه فتقع الـــكارثة المرتقبة ، **فلقد شرحنا أكثر من مرة كيف أن العلم الحديث قـــد أدخل هذه النهاية فى احتمـــالاته فحسب قانون الجاذبية ان يختل لمقدار ثانية واحدة أو ما هو دون الثانية ، لكى يحدث على الفور ما أشار له القرآن الـــكريم من ظاهرة الانشـــقاق والانفطار والزلازل وطغيان المياه . وانتهاء ذلك كله الى التلاشى حيث لا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام مما سنعود اليه عند استعراض ما قيل فى سورة الرحمن .**

ـ اذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا .

وقد قدمنا أن رجت الأرض بمعنى هزت هزا شديدا ويمكن تصوره فى ضوء الآيات الأخرى .

ـ اذا زلزلت الأرض زلزالها .

وبست الجبال :

وقد استند جمهرة المفسرين الى المفهوم اللغوى لكلمة (بس) وانهـــا من البسيسة (الطعام المعروف) قال مجاهد على ما جاء فى تفسير القرطبى .

« بست كما يبس الدقيق أى يلت »

ونحن لا نستطيع أن ننفى هذا التصور أو نثبته ، فعلم ذلك عند الله ، وقد يطغى المـــاء بعد أن تتفتت الجبال فيجعلها فى أحد المراحل كالعجينة ولنا الآية التالية « **فكانت هباء منبثا** » أى أنها تتفجر وتتناثر وتصبح غبارا هائما وهو تكرار لمـــا جاء فى القرآن عن مصير الجبال من مثل :

— **ويسئلونك عن الجبـــال فقل ينسفها ربى نسفا** (سورة طه) .

— **يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن** (المعارج) .

— **وكانت الجبال كثيبا مهيلا .**

ومن هنا فنحن نرجح قول من قال :

وبست الجبال بسا : أى فتتت الجبال فالتفتت هو أول مراحل النسف . والله تعالى أعلم .

ـ وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنــة . وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة . والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنــات النعــيم . ثلة من الأولين . وقليــل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقــابلين . يطوف عليهــم ولدان مخــلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخــيرون . ولحم طير ممــا يشتهون . وحور عين . كأمثـــال اللؤلؤ المكنون . جزاء بمــا كانوا يعمــلون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . الا قيلا سلاما سلاما .

المفــردات :

الثلة : هم الجماعة الكثيرة .

موضونة : اى منسوجة بدقة وأحكام من الذهب .

لا يصدعون : اى لا يصيبهم صداع .

لا ينزفون : اى لا تذهب عقولهم .

اللغو : الكلام الذى لا خير فيه .

وكنتم أزواجا ثلاثة :

يبادر المفسرون فيقولون أزواجا ثلاثة ، **اى أصنافا ثلاثة** ، وليس الا القرطبى من قال : **أصنافا ثلاثة** يشاكل كل صنف ما هو منه كما يشاكل الزوج زوجته .

أما ابن كثير فينقل لنا كعادته أقوال السلف فيقول يزيد الرقاشى سألت ابن عباس عن قوله تعــالى : « **وكنتم أزواجا ثلاثة** » قال : **أصنافا ثلاثة** وقال مجاهد : **يعنى فرقا ثلاثة . وقال ميمون بن مهران : أفواجا ثلاثة** وقال آخر : « **أزواجا ثلاثة** » أى اثنان فى الجنة وواحد فى النار ، وكل ذلك يدخل فى مدلول الآية ، ونحن نتساءل الا تكون كلمة « **أزواجا** » **مقصودة بالذات لتشير الى أن الأصناف أو الأفواج أو الفرق الثلاث تتــألف من الرجال والنساء معا ولذلك فقد عبر عنهــا بصيغة الازدواج « أزواجا » أن هذا يتفق مع أسلوب القرآن وهو يتحدث دائما عن المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات .. الى آخر ما مر بنا من هذه الصيغة التى خاطبت النساء مثل خطابها للرجال .**

وعلى ضوء ذلك فنحن نفهم من قوله تعــالى : « **وكنتم ازواجا ثلاثة** » أى أصنافا ثلاثة من الجنسين الذكور والاناث معا ، وذلك سيتضح بالأكثر عندما نعرض لوصف هذه الأصناف الثلاثة اذ تقفز أمامنا بعض أسماء النساء جنبا الى جنب أسماء الرجال ، **وقد شرح الله صدرنا لهذا المعنى بعد أن رأينا القرآن الكريم قد استعمل**

بالفعل كلمة ((أزواج)) للدلالة على الذكورة والأنوثة معا وذلك فى سورة الأنعام (١٤٣) ((ثمـانية أزواج)) الى آخر ما تضمنته الآيات التـالية من الحديث عن الذكورة والأنوثة التى يتألف منها ((الزوج)) .

فأصحاب الميمنـة . ما أصحاب الميمنـة وأصحاب المشـئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون .

التقسيم الثلاثى للبشر :

وهذا التقسيم الثلاثى للبشر ، هو أحد سنن الله فى خلقه فى كل زمان ومكان فالناس كل الناس ما بين رجلين سـعيدوشقى وهناك الى جوار هؤلاء أو بالأحرى قبل هؤلاء قوم اختصهم الله بالفضل فهم أولياؤه وأصبحوا ((**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**)) والبشر فى حياتهم العادية يتبعون هذا التقسيم ، ففى أى سباق يفوز من يفوز ويخسر من يخسر ويبقى هناك فريق لا يشترك فى هذا السـباق لأنهم فوقه بمراحل وهو دون كفاءتهم وقدرهم .

وهو التصنيف الثلاثى الذى أرسى القـرآن قواعده فى هذه الآية الـكريمة : **فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة .**

التكرار هنا هو نسق قرآنى رأيناه فى أكثر من سورة ((**الحـاقة ما الحـاقة**)) ((**القارعة ما القارعة**)) وقد قيل ان هذا التكرار هو **بمثابة السؤال** : أى شىء هم ، وقيل ان هذا الأسلوب يفيد **التأكيد وأحيانا التفخيم والتعظيم أو التعجب ، وكل ذلك يشع من نظم الكلمات باختلاف معانيها ، فما تشعه أصحاب الميمنة عندما تكرر غير ما تشعه أصحاب المشئمة عنـدما تكرر فالأولى تشـع بالخـير والرجاء واليمن والاقبال والثانية تفوح بالانذار والوعيد ، ولذلك فنحن نقف عند القول بأنه النسق القرآنى الذى هو أحد معجزاته البيانية .**

اليمين والشمال :

اليمين من اليمن : والشمال من الشؤم والعرب الذين نزل القرآن يخاطبهم بلسانهم وبالتالى بمفاهيمهم ، كانوا يقولون على ما روى القرطبى فى تفسيره ، لليد الشمال ((**الشـؤمى**)) وللجانب الشمال ((**الأشأم**)) وكذلك يقولون على ما جاء عن اليمين ((**اليمن**)) ومن هنا استعمل القرآن **الكريم لغة القوم فجعل السعيد من أوتى كتابه بيمينه والشـقى من أوتى كتـابه بشماله** ، فحول هذا المعنى دارت أقوال المفسرين ، قال ابن عباس والسدى : **أصحاب الميمنة هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه فقال لهم هؤلاء فى الجنة ولا أبالى .**

وقال زيد بن أسلم : **أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أخذوا من شق آدم الأيسر ، وقال عطاء ومحمد بن كعب :**

أصحاب الميمنة من أوتى كتابه بيمينه ،وأصحاب المشأمة من أوتى كتابه بشماله، وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات ، وفى صحيح مسلم من حديث الاسراء عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، قال : فاذا نظر قبل يمينه ضحك، واذا نظر قبل شماله بكى ، قال فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح ،قال قلت يا جبريل من هذا : قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسودة (أى ما يبدو وكأنه سواد) التى عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة ،والأسودة التى عن شماله أهل النار ، وذكر الحديث .

اطلنا الاقتباس من الكتب القديمة طبقا لمنهاجنا وهو الأصل ، وهو البحر المحيط الذى يستخرج منه كل دارس ما يشاء وعندنا أن الآيات التالية قد بينت بما لا زيادة بعده لمستزيد ، من هم أهل الميمنة ، وهم المؤمنون الصالحون الأخيار ومستقرهم الجنة ونعم المصير ، وأهل المشأمة هم الكفرة والفاسقون والأشرار ومأواهم جهنم وساءت مصيرا .

والسابقون السابقون :

وانما جرى الافتراق فى الراى حول من هم السابقون ، ومما زاد فى تشعب الراى ما قيل بعد ذلك فى أن السابقين :« **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، فقال قوم ان السابقين هم الأنبياء ، وحصرهم أقوام آخرون فى بضع نفر حددهم بأسمائهم يوشع بن نون سبق الى موسى ، ومؤمن آل يسن سبق الى عيسى ، وعلى بن أبى طالب سبق الى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .**

وقال آخرون هم الذين صلوا الى القبلتين وقيل غير ذلك .

أما نحن فمن رأى الذين يرون الآية عامة ، وتخصيصها بأشخاص معينين هو تخصيص بغير مخصص ، وما بقيت الدنيا والسماء سماء ، فسيبقى دائما أشخاص يبلغون الدرجة العلا عند الله بواسع فضله وكرمه ، وهذا هو ما تشير له آية : « **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** » أى أنه مهما طال الأجل بالبشر فسيبقى فيهم الصالحون ، (وان قل عددهم) ومن هنا فنحن نريد أن نستبعد (وبدون تحفظ) قول من تصور أن السابقين هم الذين سبقوا فى الزمان ، أى فى الماضى ، فما زال نداء القرآن يدوى فى آذان البشر :

ـ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ـ فالسباق مفتوح الى أبد الآبدين .

قال الامام أحمد عن السيدة عائشة : « **أتدرون من السابقون الى ظل الله**

يوم القيامة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ،قال الذين اذا أعطوا الحق قبلوه ، واذا سـئلوه بذلوه وحكموا للنـاس كحكمهم لأنفسهم » .

وهذه الصفات على ندرتها لا يمكن أن يخلو منها عصر من العصور .

أبو بكر وعمر بن الخطاب وصلاح الدين :

نذكر على سبيل المثال أن الذين يحبون قصر « **السابقون** » على أسماء معينة يذكرون اسمى أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب كنموذج للسابقين ، وحقا هما من أعظم من عرفت البشرية من عظماء وقد بشرهما سيدنا محمد بالجنة ، ومع ذلك فالتاريخ الاسلامى المتأخر يحفظ لنا اسمى عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبى وسيرة عمر بن عبد العزيز معروفة أما بالنسبة لصلاح الدين ليس فقط لأنه استعاد للمسلمين بيت المقدس ، بعد أن كان الظلم والطغيان والغرور والمنازعات ، قد أوقعتها فى يد أعداء الاسلام ، ومع أن هذا ليس بالشىء القليل ، **فهو لا يقاس بما عرف من سيرته بأنه لم يظلم أحدا ، ولم يعتد على حق أحد ، والعقل الحديث ، لا يمكن أن يتصور ، أنه بعد أن تكاملت انتصاراته فكر فى حج بيت الله الحرام ، فأرجأ المشروع الى العام التالى (لضيق ذات اليد) ولكن الله اختاره لجواره قبل أن يحول الحول .**

فانظر يا رعاك الله هذا الورع وهذه التقوى ، فهذا أعظم ملوك الدنيا فى وقته وباشارة منه تجبى له الملايين ، ولكنه امتلأ بالورع والتقوى والايمـان بأن الله طيب لا يقبل الا الطيب ، فرأى أن يرجىء أمنية حياته بعد انقاذ بيت المقدس الى سـنة يسود فيها السلام ليدبر بدون أن يعنت أحدا ويرهقه ، فضلا عن أن يظلمه والأموال اللازمة لحج صلاح الدين ومن معه ، وقفت عند هذا الحد خوفا من أن يطول بنـا الاستطراد . وموضع الشاهد أنه ولو أن صلاح الدين من المتأخرين ، فهو لا يمكن بفضـل من الله ونعمه الا أن يكون من السابقين .

على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين . يطـوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق . وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . الا قيلا سلاما سلاما .

وصف الجنة :

أحسب أن الذين يصاحبوننا مذ بدأنا رحلتنا مع المباحث القرآنية ، اننا نعتبر موضوع الجنة والنار من الغيبيات التى نؤثر فيهـا الوقوف حيث وقف القـرآن ومجمل ما نؤمن به ونعتقده أن الجنة دار الجـزاء الحسن والنعيم والخلد لكل من عمل صالحا ، وأن من حـرم فى الدنيـا فسيحصل على أضعاف أضعاف ما حرم

منه ، وأن فيهـــا كل ما يمكن أن تشتهيه النفس البشرية من ملذات الدنيا ومباهجها سواء من المـــأكولات أو المشروبات أو من الملبوسات من الناحية المـــادية ، وما هو فوق ذلك من الملذات والمبـــاهج المعنوية النفسية والروحية . انظر الى ما ختمت به الآيات وهى تصل الى الذروة فى تعداد نعم الله على عباده المقربين حيث تقرر أنهم لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيـــلا سلاما سلاما ، وفى موضـــع آخر يقول القرآن الكريم : ((**لا يســـمعون فيها لغوا ولا كذابا**)) .

وقد لا يعرف الـــكثيرون أن بعض النفوس المؤمنة المرهفة الحس لا يؤذيها شىء فى الدنيا ، أكثر من أن تســـمع اللغو والهراء والسفسطة والادعاء والتفـــاصح بما يتصورونه علما والعلم منه براء فضلا عن سماع المنكرات وأخبار الجرائم والآثام، لهذا الصنف من المؤمنين يعدهم الله وعده الحق ، ان عذابهم النفسى ســـينتهى ككل أنواع المتاعب الأخرى فى الجنة ، حيث لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . الا قيلا سلاما سلاما .

خمر الجنة :

على أن ما نريد أن نقف أمامه لنلفت النظر اليه هو ما يستفاد من وجود خمرة من نوع خاص فى الجنة ، ففى ذلك الدليل كل الدليل ، على أن ما حرمه القـــرآن ، **انما حرمه لعلة ، ولعل هذه العلة اظهر ما تكون فى تحريم الخمر ، فمذ عـــرف الانسان الخمر وهى تحدث له أربع خصال ضارة ، يقول ابن عباس : فى الخمر أربع خصال ، السكر ، والصداع والقىء والبول ، والجميل ان هذه الآثار الأربعة التى نبـــه اليها ابن عباس منذ قرابة أربعة عشر قرنا ، هى بذاتها أعراض الســـكر حتى الآن بالرغم من كل ما يتشدق به البشر من أنهم وصلوا فى العلم الى ما لم يصل اليه الاوائل ، وها هم فى أقرب الامور تأثيرا فى حياتهم يعجزون عن التقدم خطوة واحدة ولو قيد أنملة فالخمر هى الخمر فى القرن العشرين كما كانت مذ عرفهـــا أول من عرفها ، تحدث السكر أى الذهاب بالعقل ، والانسان لم يكن انســـانا الا بعقـــله ، فأعجب لانسان يريد أن ينزل على انسانيته ولو للحظة واحدة .**

فالقرآن الكريم عندما يحـــرم الخمر فهو يحرمها رغبـــة منه فى صـــيانة كرامة الانسان وحتى لا يحس أى مؤمن بالحرمان فقد وعـــده بخمر فى الجنة ولكنها مبرأة ومطهرة من شـــوائب خمـــر الدنيـــا (**لا يصدعون عنها ولا ينزفون**)

الفقهاء وتعريف الخمر :

وقد نعود اذا مد الله فى أجلنا الى موضوع الخمر بالتفصيل عندما نصل الى آيات تحـــريم الخمر ، ومع ذلك فلا بأس من اشارة سريعة للموضوع ، فقد عـــرف الفقهـــاء الخمـــر من ناحية ، ووضعوا المقياس لتحريمها من ناحية ثانية ، فالخمر هى كل ما خامر العقل أى أثر عليه وحتى لا ينزلق أحد فيقـــول : ما على أن أشرب قليـــلا من الخمـــر لا تذهب بعقلى ، كانت القاعدة الذهبية ((**ان ما أسكر كثيره فقليله**

حرام » فالذين يدعون أن نسبة الكحول فى هـذا الشراب أو ذاك قليلة وبالتـالى ترخصون فى شربها ، **يجب أن يضعوا هذه القاعدة** نصب أعينهم **« أن ما أسكر كثيره فقليله حرام »** .

دفع وهم شائع :

وما دمنا فى معـرض التحـذير من الخمر ، ومادمنا اصبحنا نعيش فى مجتمع دولى متداخل فمن الخير **أن نلفت النظر الى وهم شائع وهو أن المسيحية تبيح الخمر ، ويصلون الى حد ترديد عبارة « قليل منه يصلح المعدة » ونريد أن نلفت النظر الى أن السكر حرام فى المسـيحية حرمته فى الاسـلام ، وبابا رومـا كثيرا ما وجـه التحذيرات والانذارات بهذا المعنى وهنـا تتجلى عظمـة الاسـلام فحيث فشـلت المجتمعات قديمها وحديثها ، فى محـاربة الخمر ، فقد نجـح الاسـلام فى ذلك ، والأغلبية الساحقة من المسلمين لا يشربون الخمر** .

المجتمع الامريكى والخمر :

ولكى ندرك معجزة الاسلام فى تحريم الخمر ، فما علينا الا أن نذكر محـاولة أمريكا فى مطلع القرن العشرين لتحريمه بعد أن ثبت بما لا يدع مجـالا للشك فى مضار الخمر الكبيرة صحيا واجتماعيا ، فعجزت أمريكا عن التحريم ، واستسلمت للاباحة فأصبحت هى كبرى مجتمعـات الجرائم فى الدنيا ، وأكثر المجتمعات تعرضا لمرض السرطان وغـيره من الامراض التى تؤلف الخمر اقوى مسبباتها .

الحمـد لله :

فلنحمد الله على نعمة الاسلام الذى جنبنا ، فيما جنبنا بلية شرب الخمر ووعدنا بخمر فى الجنة ، خالية من شوائبها يطوف بها ولدان مخلدون اى فى شباب دائـم **(باكواب وأباريق وكأس من معين)** والكوب هو ما ننطق به فى لغتنا الدارجة **(كوباية)** وهى ما لم يكن له عروة (يد) ليمسك منها، والابريق هو هـذا الاناء المعـروف وله خرطوم وعروة ، والكأس معروفـة وهى خاصة بشرب الخمر .

(المعين) من المعـن اى الكثيرة ، وهى هنا تعنى ان خمر الجنة ليست كخمر الدنيا يؤتى بها من (الدنان) وتكون ثمرة العصر أو التخمر ، ولكن يؤتى بهـا من انهار جارية .

ـ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود . وطلح منضـود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعـة ولا ممنوعـة . وفـرش مرفوعة . انا أنشاناهن انشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لاصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين .

مفـــردات :

سدر : يقول عنه المفسرون أنه شجرالنبق ، والله تعالم اعلم .

مخضود : أى منزوع شوكه .

طلح : يقول عنـــه بعض المفسرين شجر الموز أو ما يقاربه .

منضود : مرصوص .

عربا : أى متحببات الى أزواجهن .

اترابا : أى متماثلات فى السن .

وصف الجنة :

فى هذه الايات وأمثالها وصف للجنةالتى هى من نصيب السعداء (أصحاب اليمين) **ويخطىء من يحاول أن ياخذ هذهالصورة بحرفيتها ، كما فعل اعرابى اذ جاء سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم (على ما جاء فى القرطبى وغيرها من كتب التفسير) فقال : يا رسول الله لقد ذكرالله شجرة مؤذية فى القرآن ، وما كنت ارى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها قالرســـول الله صلى الله عليه وســـــلم ((وما هى)) قال : السدر ، فأن فيهـــاشوكا مؤنيا ، فقال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ((او ليس يقول : فى سدرمخضود خضــد الله شـــوكه)) أى نزع شوكه .**

والذى نفهمه أن كل ما يذكره القرآنمن اشارات لاشياء لها مثيل فى الدنيـــا ، فليس ذلك الا على سبيل التقريب لاذهانالمخاطبين .

ولذلك فأنه يعجبنا جـــدا العبـــارة الجامعة المانعة التى صـــاغها الســـلف الصالح من أن الجنة فيها مالا عين رأت ،ولا أذن سمعت ولا خطـــر على قلب بشر ولذلك فنحن نمسك كما كررنا من قبـــل ، عن ذكر التفاصيل المسهبة التى تقف عند حد الفاظ القرآن الكريم .

وطلح منضود :

قدمنا أن كتب التفسير تنص على أنالطلح هو الموز أو ما يشبهه ، ومنضـــود بمعنى مرصوص ، ولكنا نريد أن نقف هنالنذكر نعمة الله علينا فى هذا التفســـير ، فمنذ اللحظة الأولى التى بدأنا فيها ، لم نسمح لأنفسنا ، حتى فى معرض النقـــل من أمهات التفاسير ، أن نذكر بعض الكلمات التى جرى حولها خلاف فقال البعض بكلمات خلاف ما هو موجود فى المصحف الذى هوبين أيدينا وذلك منعا لبلبلة الافكار ، **ونحمد**

الله أن وجدنا بمناسبة هذه الآية ، مايثبتأن هذا المنهج كان بتوفيق من الله فقد روى فى كل التفاسير أن سيدنا عليا كـرم الله وجهـه ، كان يـرى أن كلمـة « طلع » هى المقصودة ، لا « **طلح** » فانظر يا رعاك الله كيف تصرف ، سـيدنا على وهو من هو ، ولانقل لك القصة كما وردت فى كتبالتفاسير : قرىء عن على « **وطلح منضود**» فقال على رضى الله عنه : ما بال الطلح ؟ او ما تقرأ « **وطلع** » ثم قال « **لهـا طلع** نضيد » فقيل له : « **يا أمير المؤمنينانحكها من المصحف ؟ « أى يصححوها » فقال : « لا يهاج لقرآن اليوم » (أى لا يغير ما فى المصحف ولا يبدل)** قال أبو بكر الانبارى (راوى القصة بسنده ، وقد رواها أيضا القشيرى) قال ومعنى هذا أنه رجع الى ما فى المصحف وعلم انه الصواب ، وابطلالذى كان قد فرط منه .

والآن يجب ان نلاحظ :

١ ــ أن ذلك قد حدث قبل عام ٤٠ فقط من الهجرة اى أنه قريب العهـد من نزول القرآن الكريم) .

٢ ــ انه الحدث فى حضرة امير المؤمنينعلى بن ابى طالب رابع الخلفاء الراشدين.

٣ ــ ان سيدنا عليا هو سيدنا علىابن عم رسول الله والمتربى فىكنفه وكانكأبى بكر اول من آمن برسول الله .

٤ ــ انه كان مسلحا بآية **مماثلة « لها طلع نضيد »** .

وبالرغم من كل هذه الظروف مجتمعةفقد نزل على عن رأيه « حتى لا يهـاج القرآن » أى لا يغير حرف منه أو يبدل بعد أن رسم فى المصحف على الصورة التى رسم عليها .

فاذا كان هذا كذلك فليس من الجائزاو المقبول أن يأتى احد فى عصر متـأخر ليروى روايات عن كلمة يستبدلها البعض مكان كلمة .

ونحمد الله ان جنبنا هذا الطريق ، فالمصحف عندنا كما هو ليس فقط بألفاظه وعدد آياته وتشكيله ورسمه .

ثلة من الاولين وثلة من الاخرين .

قلنا ان الثلة هى الجماعة ، وهنا تتجلى رحمة الله بعباده ، وفضله، فاذا كان السابقون « قليل من الآخرين » فليس كذلك أصحاب اليمين فى كل عصر وزمان ، فأبواب الجنـة مفتوحة على مصـارعها لكل من آمن بالله وعمل صالحا .

ــ واصحاب الشـمال ما اصحابالشمال . فى سموم وحميم . وظـل من يحموم . لا بارد ولا كريم . انهم كانوا قبلذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث

العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أوآباؤنا الأولون. قل ان الأولين والآخرين . لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ثم انكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين .

المفردات :

سموم : الريح الشديدة التى تنفذالى مسام الجسم .

حميم : الماء الشديد الحرارة .

يحموم : دخان شديد السواد أو نار.

مترفين : المعنى اللغوى اى منعمين وهى هنا بمعنى من يتبعون أهواء أنفسهم. ويعرضون عن الحق .

الحنث : بمعنىالذنب العظيم،والمقصودهنا هو الشرك بالله .

زقوم : شجر غير طيب فى النار .

شرب الهيم : شرب الابل العطاش .

هذا نزلهم : اى مسكنهم وما أعد لهممن العذاب (وفيه تهكم) .

يوم الدين : أى يوم الدينونة يومالجزاء والحساب .

الوان العذاب :

وكما عرضت الآيات السابقات ، للاشارة لالوان النعيم التى اعدت للمتقين (أصحاب اليمين) فتشير هذه الآيات لصنوف من العذاب التى أعدت لاصحاب الشمال فى الجحيم ، ثم يحدد القرآن الكريم بعض صفات أصحاب الشمال وأنهم كانوا فى الدنيا من المترفين ، أى من المسرفين فى النعيم بملذات الدنيا ، وبدلا من شكر النعمة لله (**وكانوا يصرون على الحنثالعظيم**) اى يتشبثون بكفرهم وذنوبهم ومعاصيهم بل ويذهبون الى حد القسم ان من مات لن يبعث ابدا ((**وأقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت**)) .

ويتساءلون على سبيل الانكار ((**أئذامتنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون .**

وهكذا كان المشركون لجهلهم ، يستبعدون فكرة البعث ، ولا تظن ان مشركى قريش هم فقط الجهلاء ، **بل ان منكرى البعث يعيشون بين ظهرانينا فى القرن العشرين ، فلا نتردد فى وصفهمبالجهل ولو بلغوا عنان السماء ، ولو**

صعدوا الى الكواكب . فالذى ينكر البعث ليس فقط جاهلا ، بل انه أعمى بصر وبصيرة ، فكل ما فى الكون يتلاشى ظاهريا ليولد من جديد ، وطالما نبه القرآن الى ظاهرة النبات ، ومن أتيح له أن يشهد فى البلاد التى يعطيها الثلج كيف تموت الاشجار والنباتات ويصبح منظرها كريها موحشا ، يبعث على الحزن والاسى ، حتى اذا جاء الربيع بعثت الاشجار الى الحياة فاخضرت فروعها وازهرت أوراقها ، ثم تحولت الزهور الى ثمر شهى ، واذا كان القرآن الكريم ، قد لفت النظر لما يجرى فى عالم النبات فليس ذلك الا لأنه يرى بالعين المجردة ، وفى مقدور كل انسان أن يشهد هذه الظاهرة ، وفى عصرنا الحديث ، اصبحنا نعرف أن كل ما فى الكون من ظواهر انما يدور دورة فيتلاشى لكى ينشأ من جديد ، ولست أريد أن أثقل على القارىء بمعلومات ترهقه ، وحسبى أن أشير الى دورة فيضان النيل ، والذى بلغ من الانتظام والدقة ، الى الحد الذى جعل قدماء المصريين يفطنون الى طول السنة منذ ألوف السنين ، ويقسمون السنة الى ٣٦٥ يوما ، ولعل النيل بالذات وفيضانه هو الذى جعل المصريين يكونون من اعظم شعوب العالم ايمانا بالبعث ، فحيث أن كل شىء يبدو ميتا فى فصل الجفاف ، فقد يبدو كل شىء حيا بعد موسم الفيضان ، والجغرافيون يفسرون لنا دورة الفيضان ، أما نحن فنرى فيها سر الكون الأعظم ، وهو أن كل شىء يولد وينمو حتى يصل الى ذروته ثم يضعف ويتلاشى حتى يجىء موعد ميلاده من جديد ، ولما كان الانسان بعض ظواهر هذا الكون فلست أعرف لماذا يتصور متصور خروج الانسان على هذه القاعدة ، ذلك ما يقول به التفكير المادى المجرد ، أما نحن المؤمنين (بنعمة الله) فلسنا فى حاجة لهذه التأملات . فعندما يقول لنا القرآن الكريم ((قل ان الأولين والآخرين . لمجموعون الى ميقات يوم معلوم)) .

ونقول آمنا وصدقنا فاكتبنا من الشاهدين ، ولا تجعلنا ممن وجهت اليهم الوعد ((**ثم انكم ايها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين .**

الجحيم :

ولقد أشرنا من قبل الى معانى الكلمات كما ذكرها المفسرون ، ونحن نراها اشارات لألوان العذاب الرهيب الذى يلقاه المكذبون فى النار حيث يصبح شأنهم **(كالمستجير من الرمضاء بالنار)** .

فحيث يرى أهل الجحيم مايتصورونه ظلا فيهرعون اليه ، فاذا هو على خلاف ما تصوروا ((**لا بارد ولا كريم**)) أو كما قال فى آية أخر ((**لا ظليل ولا يغنى من اللهب**)) .

وحيث تتقطع احشاؤهم فيهرعون الى ما يتصورونه ماء يطفىء ظمأهم فيعبون منها عبا ، اذا بهذا الماء نفسه ليس الا حميما ، وغساقا اى أشد هولا من النار ، وقانا الله واياكم عذاب جهنم .

ـــ نحن خلقناكم فلولا تصــدقون .أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين . علىأن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الاولىفلولا تذكرون أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشـــاءلجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون بل نحن محرومون.أفــرأيتم المــاء الذىتشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلــولاتشكرون . أفرأيتم النار التى تورون أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحنجعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبحباسم ربك العظيم .

المفردات :

ما تمنون : اى ماء الرجــل الذىيقذفه فى رحم الانثى .

بمسبوقين : أى عاجزين مغلوبين

ما تحرثون : اى ما تبذلونه من عمل فى تهيئـــة الأرض للزراعة والانبات ، من قلب للتربة ، ووضـــع للبــذرة وتعهدهابالرى .

حطاما : هشا متكسرا لا ينتفع به .

تفكهون : اى تتفجعون من ســوء حاله ومصيره .

انا لمغرمون : اى معرضــون للهلاكوالتلف .

المزن : السحاب المحمل بالماء وهو على الأغلب الأبيض .

أجاجا : اى ملحا زعافا او مــرا لايمكن شربه .

النار التى تورون : اى النــار التىتشعلونها .

متاعا للمقوين : القدامى من المفسرينعلى انها منفعة للمسافرين .

القواء : القفــر .

أما نحن فنرجح قول من قال : انهــابمعنى أعم وهى نفعا للمحتاج اليها فى أى غرض مما يستخدم فيه النار .

مخاطبة القــرآن للعقــل هى سرما وصل اليه المسلمون من حضـــارة فى العصور الوسطى .

نصل الآن الى بضع آيات كانت هىوأمثالها فى القرآن ، من دفعت المسلمين دفعا الى التحضر والرقى ، وتحقيق هذاالذى تحقق من الحضارة الاسلامية ،التى انتهى اليوم الباحثون فى الغرب الى أنهاكانت هى الحضـــــــارة الام التى بعثت النهضة فى أوربا .

فقد أشرق فجر الاسـلام على العالموأوربا غارقة فى دياجير الظلام،ممايسمونه فى كتب التاريخ بعصور أوربا المظلمة ، أمافى جزيرة العرب حيث تفجر الاسـلام فلم تكن الحالة تصل الى حد أن توصف بالظلاموانما كانت الحياة جحيما ، كان العمـل الرئيسى للقبائل أن يقتل بعضهم بعضا ، ووصل التوحش الذى لم نسمع أبدا بمثله الى حد أن كان الرجل يقتل ابنته أبشع قتلة بان يدفنهـا حيـة ((وأذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت)) .

وكان العرب فى الحجاز ونجد أميين لا يقرأون أو يكتبون ، وكانوا ينسبون الى الآباء والاجداد كل ما هم عليه من شركووثنية وجهل ووحشية ، ثم جاء القرآن، فكان هذا الذى كان حيث أصـبح العربتحت راية القرآن خير أمة أخرجت للناس، ولست أريد اليوم أن أقف أمام الفتوحات شرقا وغربا ، ولكنى أريد أن أتحدث عن هذه النهضة العلمية الكبرى التى جعلترجلا مثل ابن سينا يؤلف كتاب القـانون الذى كان هو الأسـاس الذى انبثـقمنه علم الطب الحديث .

أريد أن ألفت النظر أن مثل هـذهالآيات التى نحن بصددها هى السر فى هذا التطور العلمى المعجز ، فهى توجه العقل **الى أن يتفكر ويتدبر ، وما العلم الا النظر ،** فالملاحظة ، فالمتابعة ثم استخلاص النتائج ، ولقد كان العرب يعيشون بغير عقول ، فجاء القـرآن يهزهم هزا ويحملهـم علىالتفكير فى كل شىء ، ابتداء من السموات والارض والشمس والقمر حتى أصـغرحشرة كالنملة أو الذبابة .

((أفلاينظرون الى الابل كيف خلقت ،والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت . والى الارض كيف سطحت)).

وغير ذلك كثير وكثير مما عرضنا لهوسنعرض له فى حينـه ومن ذلك هـذه الآيات التى نحن بصددها .

فهو يستوقف كل من له اذنان للسمعويسائله الم يفكر مرة **عن هذه القوة التى تحول هذه الافرازات البيضاء التى يفرزهاالرجل فى بعض الاحوال والتى تبدو للعين المجردة انها مجرد سائل ، فاذا بهـاتصبح بشرا سويا ، أو لم يسائل نفسه عن هذه القوة التىتكمن خلف الانبات وكلما يخرج من الارض ، وما أكثر الحـالات التى لا ينمو فيها الزرع رغم ما بذل فيهمن جهد ومشقة وقد ينمو ولكنه لا يثمر ، وقد ينمو ويثمر ثم تجتاحه جائحة فتدمره،أو لم يسائل الانسان نفسه مرة ، ما سر هذه النار التى كانت وستبقى أحد أسرارالكون الرهيبة ، أو لم يتأمل الانسان مرة هذا الماء الهابط عليه من السماء وبدونه ، وبدون أن يكون على ما هو عليه عذبا فراتا ، لما استطاع الحياة ، والقـرآنالكريم بهذه الدعوة الى النظر والتـأمل والتعجب فقد فتح باب العلم على مصارعهلكل قارىء للقرآن ، فليس سوى النظـر بوعى ما يؤدى الى التـأمل ، وسرعـانما يكشف التأمل عن نواميس الطبيعة ، فقد شاءت ارادة الله أن يجرى كل ما فىالكـون وفق قوانين ونواميس ثابتـة**

مضطردة ، أسماها القرآن بالسنن (وأعلمنا أن هذه السنن لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهكذا أصبح المسلمون هم العلماءفى وقت ساد فيه الجهل ، وهم مصابيح الضياء فى وقتساد فيه الظلام والهمجية،وفى كتابنا ((**الايمان والاسلام**)) صفحات كاملة مما قاله علماء الغرب فى عظمة الحضارة الاسلامية ودينها الكبير على النهضة الاوروبية والامريكية الحديثة ،وبعد هذه الالمامة العامة لاثر القرآن فى ازدهار العلوم ننتقل الى استعراض الآيات عن قرب .

نحن خلقناكم فلولا تصدقون. أفرأيتمما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون

الايمان بالخالق :

يجب أن لا يغيب عن الأذهان ، أنالعرب كغيرهم من بنى البشر على مر العصور لا يتشككون فى أن لهذا الكونخالقا ، وكل المشكلة كانت فى انهم يعبدون أوثانا وأصناما يجعلونها شركاء الله ومن هنا سماهم القرآن بالمشركين ، والتصديق بوجود الخالق . واشراك غيره معه فىالعبادة هو آفة البشر ينزلقون اليها من حين لاخر . ففى أيامنا على سبيل المثالأقوام يدعون أنهم يؤمنون بالله ومع ذلك فهم يختصون الدرهم والدينار (الدولاربلغة العصر) بالعبادة ، اى يصبحون عبيدا للمال .

فقريش على زمن نزول القرآن لمتكن تنكر الله ،وانما تنكر وحدانيته ووجوب أفراده بالعبادة ، وتنكر بالاكثر أن يكونسيدنا محمدا عبده ورسوله قد جاء يعلمهم ويهديهم الى الأمور الغيبية ، كالبعثوالحساب والجنة والنار ، وهو فى هذه الآية ينكر على المشركين كيف يستبعدون فكرة البعث ، مع أن من قدر على الخلق الاول يكون على البعث أقدر (**نحن خلقناكم فلولا تصدقون**) أى تصدقون بالبعث والنشور .

ـ أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونهأم نحن الخالقون .

ونريد أن نقف أمام هذه الآيةبمناسبة ما يقال ويشاع من أن المشتغلين بعلوم الحياة فى أوربا وامريكا يحاولون عمل أرحام صناعية ، يربون فيها الاجنة ويمسك بعض السذج من المؤمنين بقلوبهم خوفامن أن يتحقق ذلك فيتزعزع ايمان بعض الناس .

وهذه الآية التى نحن بصددها هىالرد على هذه التخرصات فالقدرة الالهية المعجزة هى فى وضعه سر الحياة فى ماءالرجل،وما قد يحدث بعد ذلك فهو تسلسل فى الاسباب والمسببات يمكن التوصل اليه((عندما يشاء الله)) .

أما بذرة الحياة نفسها ، فهذه هىخصوصية الله الخالق التى تستحيل على الانسان فهو خالق الحياة ، وهو وحدهالذى ينهيها عندما يشاء . (**نحن قدرنا بينكم الموت**) .

ولقد أشرنا أكثر من مرة ، ان سنة الموت وحدها كفيلة بأن تجعل اى انسان له قلب يؤمن بخالقه مصداقا للقول المأثور « **كفى بالموت واعظا** » .

— وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون .

وما دام أى انسان عاقل يلاحظ قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والايجاد والاماتة والافناء ، فكيف يتشكك فى قدرته على افناء من يشاء من البشر ، حيث يشاء ، أنى يشاء وخلقهم من جديد (فيما لا تعلمون أى فيما لا تعلمونه من حيث الكيفية والزمان والمكان .

ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون.

ويعود القرآن ليذكرهم بالنشأة الاولى : « **خلق الانسان من علق** » أى مما « **تمنون** » ويصبح على كل من له عقل أن يتذكر ذلك جيدا ولا يتشكك فى قدرة الله (**أفلا تتذكرون**) .

— أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه . أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون بل نحن محرومون .

ونضيف الى ما ذكرناه سابقا بصدد هذه الايات ان الله سبحانه وتعالى قد نسب العمل فى الارض بالحراثة ووضع البذور فى الارض الى الانسان أما الزراعة بمعنى الانبات فقد أضافها الى نفسه مباشرة « **نحن الزارعون** » ومن الادب النبوى ما رواه القرطبى منسوبا الى أبى هريرة من انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لا يقولن أحدكم زرعت ، وليقل حرثت فان الزارع هو الله** »

وقد اخترنا أن نسمى هذا القول أدبا نبويا لمن شاء التحلى بالادب الرفيع والا فالله خالق كل شىء ، ومع ذلك فقد سمح لنا أن نقول ، فعلت كذا وكذا **والعبرة دائما بالنية وهو أن يؤمن الانسان ، بأن الزرع عندما يثمر فذلك بنعمة من الله وفضل ، وقد ذكر من قبل أن بعض المجتمعات المادية الملحدة تصورت أن الزراعة كأى شىء آخر يمكنهم التحكم فيه بالوسائل التى يسمونها علمية ، فخاب فألهم ، وفشلت كل الجهود للسيطرة على الزراعة ، وحيث يحدثونك عن الصلب الذى زاد انتاجه عشرة أضعاف وعن هذا الشىء أو ذاك الذى تضاعف كذا مرة ، فهم لا يستطيعون بكل حولهم وطولهم ، وعلومهم وآلاتهم عن زيادة الزراعة الا بـ ٥ أو ٧ فى المائة نتيجة زراعة أراض جديدة لم تكن تزرع وذلك فى حالة ايذان الله سبحانه وتعالى بنجاح . المحصول ، والا ففى بعض السنوات أصيبوا بالقحط ، حتى استغاثوا باعدائهم وصدق الله العظيم اذ يقول :**

— لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون بل نحن محرومون.

فانظر يا رعاك الله كيف أن القرآن خالد لا تنال منه الايام لانه كلام الله ، فهذا حكم الله على الزراعة منذ الف وربعمائة سنة تقريبا ، تبدلت فيها الارض غير الارض ، وأوشك الانسان بعلومه أن يسكن الكواكب الاخرى ، وأصبح يتحدث فتسمعه الدنيا كلها ، ويطوى الارض من مشرقها المغربها فى بضع ساعات ، وتصور بعض الجهال ان الانسان أصبح قادرا على كل شيء ، **ولكن حيث يقرر القرآن أن الله هو الزارع ولو شاء لجعل الزرع هشيما الكا ولراح أصحاب الزرع يتفجعون ويندبون حظهم ، هذا ويتساوى البدوى الجاهل فى صحراء العرب ، وأغنى شعوب الارض علما وحضارة كما يزعمون** ،ومرة اخرى ولولا أن يصاب الانسان بالجذبة لظللت اردد مع أنفاسى صدق الله العظيم .

— أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون . افرأيتم النار التى تورون . أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم .

المـاء والنار :

بعد أن لفت القرآن العقول الى الزراعة ، لفت الانظار الى مادة الحياة الاولى فى هذا الكون وهى **الماء (وجعلنا من الماء كل شيء حى) وكيف أنه على الرغم من الحقيقة التى أصبحنا نعرفها ولم يكن العالم القديم كله يعرفها ونعنى بها أن ثلثى الكرة الارضية مغطى بالماء ،ومع ذلك فان هذه المياه كلها لا تصلح لشرب الانسان لشدة ملوحتها وليس الا عندما تسقط من السحب على شكل مطر ان تكون عذبة صالحة للشرب ، هكذا شاءت ارادة الله ، ولو اراد أى انسان أن يتأمل بديع صنع الله فما عليه الا ان يتأمل هذه الحقيقة فهو لكى يحافظ على حياته محتاج باستمرار الى الملح فى صوره المتعددة ، وهو فى حاجة الى الماء دائما أبدا شريطة أن يكون عذبا ، ولكنه اذا شرب الماء المالح لا يروى له ظمأ ولا يسد له جوعا ولكنه ينتهى باهلاكه ، ذلك أن الله وحده هو الذى حدد لكل شيء كيفه ومقداره لاستمرار الحياة والكون .**

النـار :

وبعد لفت النظر الى نعمة الماء العذب قوام الحياة ، كان الانتقال الى كبرى الظواهر الكونية بعد ظاهرة الحياة ،وقد لا يعرف الكثيرون أن الشمس والنجوم التى تزحم السماء ليست الا نارا ، وان هذه النار التى نشعلها ، انما هى قبس أو هى لمحة مما فى الكون من نار تبلغ الذروة فى نار جهنم والعياذ بالله .

وقد أوردت كتب الاحاديث كلها بطرق مختلفة عن رسول الله قوله على ما جاء فى البخارى **((نار بنى آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم))** فقالوا يا رسول الله ان كانت لكافية ، فقال **((لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا))**

ومعنى فضـــلت هنـــا أى ان اللهسبحانه وتعالى قد شاء لها أن تكون عند هذا القدر من الحرارة ليكون بقدرةالانسان استعمالها والانتفاع بها فى شتى الاغراض ولتكون من الناحية الاخرى بمثابة تذكرةلنار جهنم .

((نحـــن جعلنـــاها تذكرة ومتـــاعاللمقوين)) .

وقد شاء بعض المفسرين أن يعرفواالمقوين بأنهم المسافرون فى القفر عنـــدما يوقدون النار ، ولكن البعض الاخر يجعلهاعامة ونحن من هذا الرأى .

نار الدنيا ونار جهنم :

وقد أشرنا الى حديث رسول الله من أن نار جهنم أشد سبعين مرة .

ويجب أن تستحضر فى ذهنك عنـــدقراءة رقم ٧٠ **أنه** كان من عادة العرب اذا أرادوا أن يعبـــروا عن الضخـــامة اوالكثرة قالوا سبعين مرة ، جاء فى القرآن الكريم ((**ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**)) (سورة التوبة) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه لو كنت أعرف انى لو زدت عن السبعين مرة لاستغفرت لهم .

ولكنه صلى الله عليه وسلم فهم من كلمة سبعين أنه مهما استغفر فلن يغفر الله لهم (اى للمنافقين) .

وهذا هو ما يجب أن يفهمه من أن نار جهنم تفوق نار الأرض بسبعين ضعف أى بقدر لا يعلمه الا الله وصدق رسول الله فهم يحدثوننا اليوم عن نار الشمس التى تفوق نار الأرض بملايين المرات ، فكيف بنـــار جهنم .

شجرة النار :

أما عن شجرة النار وأن اللهسبحانه وتعالى هو الذى انشأها ، فكل الاشجار عندما تجف تحترق ، والاخشاب فى الدنيا كلها هى الاشجار وكل شىء يحترق مرده المواد التى تتألف منها الاشجار والنباتات، حتى الورق هو أحد منتجـــات الاشـــجار فيجب أن تفسر كلمة شجرة النار بمعناها العام وليس بما كان عند العرب من شجر معين كانوا يولدون منه النار اذا حكوا أحد فرعيه بآخر .

فسبح باسم ربك العظيم

سنعود اليها عند ختام الســـورة ، حيث تختم مرة أخرى بهذه الآية الكريمة .

ـــ فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . افبهذا الحـــديث

انتم مدهنون • وتجعلون رزقكم انكمتكذبون • فلولا اذا بلغت الحلقوم •وأنتم حينئذ تنظرون • ونحن أقرب اليه منكمولكن لا تبصرون • فلولا ان كنتم غير مدينين • ترجعونها أن كنتم صادقين •

المفردات :

مدهنون : مكذبون •

تجعلون رزقكم : شكركم على نعمةالقرآن .

الحلقوم : الحلق وهو بمفهومنا الحديث القصبة الهوائية والبلعوم معا .

غير مدينين : غير متهورين : أى غيرمربوبين .

فلا اقسم بمواقع النجوم :

افترق المفسرون حول كلمة « لا » مما أفضنا فى الكلام عنه فى سورة لا اقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالخنس الجوار الكنس ، فمن قائل أن « لا » هنا زائدة ، أى أن الكلام بمعنى أقسم ، ومن قائل انهانافية بالفعل وهى تنفى كلاما محذوفا يقدرونه بمعنى **(ان الامر ليس كما تظنون أن لا يكون بعث ولا حساب)** ثم يبدأ القسم بعد هذا النفى ، وقد اخترنا نحن الرأى الذى يقول (لا أقسم بمعنى أقسم) وهو نسق قرآنى المقصود به « أثارة الاهتمام بالمقسم عليه ، وتعظيم السر الالهى المستكن فيه » ومما لا شك فيه أنه قسم وذلك بنص القرآن نفسه فى الآية التالية « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » .

مواقع النجوم :

والذى يقسم عليه القرآن هنا للفت النظر لاهميته هو **« مواقع النجوم »** وقد ذهب قوم الى أن المقصود بمواقع النجوم هو آيات القرآن مستندين الى حديث معناه أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم هبط به جبريل على سيدنا محمد منجمافى بضع وعشرين عاما ، ولكن الذى عليه جمهور المفسرين ، وهو ما نأخذ به نحن ، أن النجوم هى هذه النجوم التى نعرف أى الاجرام السماوية .

وما أكثر ما أشار القرآن الى نجوم السماء وكواكبها : مما جعل المسلمين يتبحرون فى علم الفلك بصفة خاصة ،ولا تزال الاسماء التى أطلقوها على بعض الاجرام السماوية ، هى المستعملة حتى الآن فى كافة المجالات العلمية وما أروع أن يزودنا العلم المعاصر بما يتناسب وجلال هذا القسم القرآنى بمواقع النجوم حيث يقولون لنا (والعهدة على الراوى) أن بعض هذه النجوم التى نراها يقع على بعد (كذا) ألف سنة ضوئية ، ثم يتدرجون فى الابعاد حتى ليتحدثون عن ملايين السنين

الضوئية ، مما يجعل الفكر يصاب بالدوار.والذى يعنينا هو أن نقول : انه عندما يقول لنا القرآن :

((فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم)) .

فنقول صدق الله العظيم .

والذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يقرره لنا : أن ما احتواه القرآن هو كلامه — **انه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون**))أى أى اللوح المحفوظ .

لا يمسه الا المطهرون :

افترق المفسرون حول هذه الاية فمن قائل أن معناها ((أن الملائكة وحدهم » هم الذين يمسون القرآن الكريم فى كتابه المكنون ، أى العلوى ، ويستندون فى رأيهم على الايات الكريمة من سورة عبس ((**فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة !**

أما فريق آخر فيرى ان الآية الكريمة وان **سبقت** بصيغة الخبر ، فهى فى **حقيقتها امر للمكلفين أن لا يمسوا القرآن الا على طهارة . ويستندون فى رأيهم على أحاديث صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أن لا يمس القرآن الا طاهر)) وجريا على منهاجنا وهو الاخذ بالاحوط ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، فنحن نعمل بهذا الرأى ، وقد تضمنت كتب الفقه بحث هذا الامر من جميع جوانبه .**

تنزيل من رب العالمين :

وكتب التفسير القديمة ، لا تقف أمام كلمة التنزيل هذه ، فلم يكن مسلم واحد يداخله ذرة شك ، فى أن هذا القرآن أنزله الله على سيدنا محمد انزالا بواسطة الوحى الذى هو جبريل عليه السلام .

ولكننا نكتب فى هذا الوقت حيث الكفر والالحاد والتشدق بالمادية والنظريات الطبيعية هو ما يهدد عقيدة الشباب ، ولذلك بات من واجبنا أن نقف أمام بعض المعانى لكى نثبتها ونجلوها فعندما يقول القرآن الكريم **انه تنزيل من رب العالمين** فيجب أن نأخذها بمعناها الحرفى على ضوء ما تكرر فى القرآن بتأكيدها .

الامين :

ومفتاح هذه القضية يتجلى فى صفة سيدنا محمد الاساسية التى اشتهر بها فى قومه حتى بلغ سنه مبلغ الرجولة الكاملة (٤٠ سنة) لقد اختصوه بصفة الامين وقال له أعدى أعدائه ((عمه أبو لهب)) ما جربنا عليك كذبا قط .

هــذه هى صفة ســيدنا محمــدالاســاسية ، ومادام الامر كذلك فقــد اصبح من المستحيل عقلا أن ينقلب فجــأةالى كذاب (حاشاه) وأن يتحول الرجــل من منتهى الامانة الى منتهى الادعاء وأنيتقول أول ما يتقول على الله وهو الذى قامت رسالته كلها على تقوى الله والخوفمنه : فكيف يجوز فى عقل عاقل أن رجــلا جعل كل مهمته أن يحذر من غضب الله،يكون هو من مغضبى الله ، فيقول على الله ويدعى كذبا أن الله قــد انزل عليهالوحى .

ولم يفت القرآن بطبيعة الحال هذا المعنى فحاج به المشركين فى اكثر من آية، تدل فى حد ذاتها أن سيدنا محمدا كان يؤمنأن التقول على الله يؤدى به الى الهلاك والبوار ، واقرأوا ان شئتم :

« ومن اظــلم ممن افترى على اللهكذبا او قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء».

ويسجل القرآن الكريم ما هو اوضحمن ذلك فى تبيان هول ما كان يحل بسيدنا محمد لو انه تقول على الله،جاء فى سورةالحاقة :

« ولو تقول علينــا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

فعندما يقول لنا القرآن أنه تنزيل منرب العالمين ، فهذا هو عين الحق ، فمــا كان لكتاب ينزل من عند الله يحدث هذاالذى حدث ، ثم انــه اخــرج البشر من الظلمات الى النور .

افبهذا الحــديث انتم مدهنــون .وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فلولا اذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئــذ تنظرون .ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها انكنتم صادقين .

ويسائل القــرآن مشركى قريش :افبهذا الحديث الذى نتلوه عليكم من آيات الله البينات « **أنتم مدهنون** » أى فى شكمن أمره ، أو لا تصدقوه .

وتجعــلون رزقكم انكم تكــذبون ،وجمهرة المفسرين على أن معناها : انه بدلا من أن تشكروا الله على ما رزقكم اياه ،تكذبون ويثبتون حديثا رواه الامام مالك فى الموطأ كما جاء فى الصحيحين ، عن زيد بنخالد الجهنى انه قال صلى بنا رســول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبحفى الحديبية فى أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف اقبل على الناس فقال : هلتــدرون ، ماذا قــال ربكم ، قالــوا الله ورسوله أعلم .

قال : أصبح من عبــادى مؤمن بىوكافر فأما من قال « مطرنا بفضــل الله ورحمته » فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ،وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، كافر بى ومؤمن بالكوكب .

وهكذا بدلا من أن يشكر بعض الناس النعمة ، تراهم يكفرون ، **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون .**

بقى أن آيات القرآن تشع الكثير من المعانى فطالما فهمت من هذه الاية قبل أن أقف على التفسير المتقدم ، أن الاية تندد بهؤلاء الذين جعلوا من التكذيب والجحود رزقهم الذى يعيشون عليه ، كما نقول بأسلوبنا جعل من كذا وكذا خبزه اليومى ، هذا ما كنت أفهمه من الاية وهو أن الكفار يجعلون رزقهم أى معاشهم فى التكذيب والكفر ، ولكن متى اتفقت جمهرة المفسرين على رأى فنحن نأخذ برأيهم ويكون معنى وتجعلون رزقكم انكم تكذبون :

ولا نقل نص عبارة ابن كثير الذى يردد بدوره آراء شيوخ التفسير يقول : تجعلون رزقكم بمعنى شكركم انكم تكذبون بدل الشكر .

— فلولا اذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين .

قدمنا أن الحلقوم يعنى بلغتنا المعاصرة « المرئ والقصبة الهوائية معا فى الجزء الذى يضمهما فى نهاية الفم وكان الاقدمون يسمونه الحلق ، والايات ترسم لوحة لبعض أحوال الموت العادية حيث يرقد الانسان وسط محبيه (والروح تنسل من جسده بالتدرج) فيموت كل الجسم واللسان ما فتئ يتكلم ، حتى اذا شاءت ارادة الله خرج السر الالهى ، مات الانسان ، ولم تنفع كل أطباء الدنيا وعلومها التى يتشدقون بها فى اطالة عمر أى انسان ولو لحظة واحدة ، وفى هذه الايات التى نزلت منذ أربعة عشر قرنا يتحدى القرآن البشر ، أن يعيدوا الروح الى جسد ميت ، فحيث تتجلى قدرة الله على آخرها فى ساعة الموت **(ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون)** أى أقرب اليه منكم بالقدرة والعلم .

فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين .

وقد قيل الكثير فى معنى مدينين ، فقيل غير مؤمنين بالبعث والحساب ويوم الدينونة ، والمهم عندنا انها تحدى فى كل زمان ومكان للانسان انه ضعيف عاجز أمام الموت يستوى فى ذلك كما قلنا اكثر من مرة أى بدوى جاهل فى أعماق الصحراء ، وأعلم العلماء فى نيويورك أو موسكو أو لندن وهو فى أعظم المستشفيات تحيط به آخر مبتكرات العلم من أجهزة وأدوية ومساعدين .

فأما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما ان كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم . ان هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم

التقسيم الثلاثى :

وتختتم السورة بالتقسيم الثلاثى للبشر منذ كانوا بشرا : فجماعة الخير ،

وجماعة الشر ، وهذا الفريق الممتاز الذىيكاد يعلو على البشرية ، لولا انه من صميمها ، ولكنه سما بايمانه ، بأخلاقه ،بعلمه وهم (السابقون) ويصفهم هنا برتبتهم وأنهم عند الله (من المقربين) .

ويتجلى هذا التقسيم الثلاثى بصفةخاصة ساعة الاحتضار حيث يعرف كل محتضر مكانه .

موسيقى المعانى والأصوات :

وكل الذى أرجوه أن يفتح الله عليك أيها القارىء الكريم ، وان تسمع الموسيقى الالهية التى بثها الله فى هذه الايات ، انظر الى وقع « **روح وريحان** » فى النفس والنور الذى تشرق به تجدها شىء يجل عن الوصف .

يقول المفسرون أن **الروح** : تعنى الراحة والرحمة ، وان الريحان يعنى « **الاستراحة** » .

ويقول بعضهم انها تعنى النبات المشهور ولكن الاغلبية على انها **تعنى الرزق الحسن** ، وقد نقلنا لك كل ما قيل ولكنا نرى ذلك كله دون ما تشعه كلمتى الروح والريحان وتعاقبهما حيث تنتشى النفس بسماعهما ، ولذلك نحن نؤثر ابقائهما مجهلتين ، مع التيقن بأنهما من أعلى مراتب النعيم .

فسلام لك من أصحاب اليمين :

ومرة أخرى يصل النظم القرآنى الى أعلى خصائصه حيث تتكلم الاية الواحدة بل الكلمة الواحدة عن الكثيرة والكثير جدا ، فقد تحدثت السورة من قبل عن ألوان النعيم التى أعدت لأصحاب اليمين ، فأصبح مجرد الاشارة هنا بمعنى التعبير الذى يفوح منه عطر السلام والأمن والطمأنينة يغنى عن كل شىء ، ولذلك فلسنا من رأى من قال أنها تعنى أن الملائكة يسلمون على المحتضر ، وعند نزول القبر ويوم القيامة ، ونرى أن ذلك كله خوض فى الغيبيات التى اختص الله بعلمها ، ونكتفى بما تحدثه فى نفوسنا « **فسلام لك من أصحاب اليمين** » من نشوة وشوق الى حياة الجنة نسأل الله أن يجعلنا وأياكم من أصحابها » .

وأما ان كان من المكذبين الضالين :

ولا يلبث سياق الايات ، ان يجعل فرائصنا ترتعد ، وأسناننا تصطك من الرعب عندما تدمدم الايات بالانذار والوعيد للمكذبين والضالين (أهل الشمال) حيث يعدهم (بنزل) والنزل هو مكان الضيافة ولكنها هنا أى ضيافة ؟! انه نزل من حميم ،

والحميم هو الماء الشديد الحرارة جدا ،وتصلية جحيم : أى معاناة ومقاساة لحر الجحيم ولهبها ، ومرة أخرى نرى أنتتالى الايات بالوعيد ، يغنى عن كل شىء .

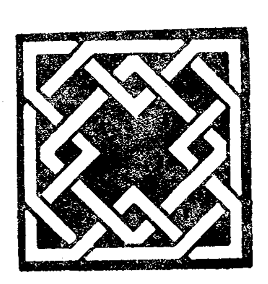
ان هذا لهو حق اليقين :

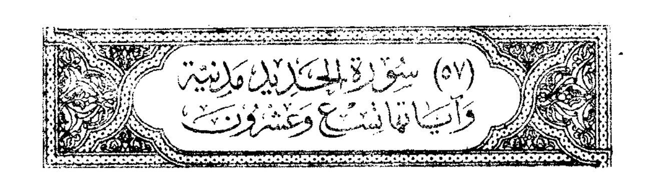
واليقين هو الحق وقد اقتنع بهالانسان بما لا يدع مجالا لذرة من الشك .

فسبح باسم ربك العظيم :

أجمع رجال الحديث ، على أن هذهالاية عندما نزلت قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : اجعلوها فى ركوعكم ،وعندما نزلت الاية الاخرى ((**سبح اسم ربك الاعلى**)) قال عليه الصلاة والسلاماجعلوها فى سجودكم .

والتسبيح هو التنزيه والتعظيم ،والتقديس .





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا
يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)
آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ
عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ
دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ
يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا
بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)

فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ
فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ
قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ
وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ
وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ
وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ
إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ
ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا
فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ
ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا
ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ
وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن
رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ
عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

سورة الحديد : سورة مدنية

الذى فى المصحف أنها مدنية وعليه المعول ، **وجمهرة المفسرين على أنها مدنية**، ولكن بعض كبار المفسرين (الرازى على سبيل المثال) يقولون ، ونحن ندهش لما يقولون أنها مكية ولا شك أنهم يفسرون المكى تفسيرا خاصا(1) ، والا فآيات السورة ناطقة بأنها نزلت بعد الهجرة فهى توجه الحديث للذين آمنوا ، وهى تتحدث عن النفاق والمنافقين ، وهى تتحدث عن أهل الكتاب وكيف أن اكثرهم من المنحرفين الفاسقين ، وهى تتحدث عن القتال وعن الفتح ، وذلك كله يقطع بمدنية السورة ، وقد سميت باسم الحديد لاحتوائها على اشارة الى عنصر الحديد ، وفى حضارة العصر الحديث حيث يصفونها بأنها تقوم على الحديد **(الصلب والفولاذ)** يأخذ اسم السورة لمعانا وبريقا .

وفى السورة حث على الانفاق ، وسوف نرى أنه لب الاقتصاد وجوهره ، ثم هى قبل ذلك أو بعد ذلك تكشف لنا عن حقيقة الدنيا وانها وهم وسراب ولا قيمة لها الا من حيث كونها جسرا للحياة الباقية الخالدة فعلى الانسان ــ كل انسان ــ أن يتزود لهذه الحياة الاخرى بالتقوى والعمل الصالح .

ما قيل فى السورة :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال ، أن فيهن آية أفضل من الف آية .

ويرجح ابن كثير أن هذه الاية المعنية هى **«هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم»** التى سنعرض لها فى هذه السورة .

ــ سبح لله ما فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم • له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير • هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم •

سبح لله : أى نزه الله عن جميع النقائص وأقر له بالعبودية .

العزيز : الغالب الذى لا يغلب والقادر على كل شىء .

الأول : أى لا شىء قبله فهو سابق بذاته القديمة على سائر الكائنات .

الاخر : أى الباقى أبدا بعد فناء كل الموجودات .

---

(1) يرى البعض أن ما يحكم المكى والمدنى هو مكان النزول .

الظاهر : بقـــدرته فى خلقنـــا وكل‌ما حولنا .

الباطن : أى الـــذى احتجب بذاته وكنهه عن العقول والأبصار .

المســبحات :

وتحدثنا عند عرض سورة التغابن عن المسبحات أى مجموع السور التى تبدأ بسبح أو يســـبح وهى الحـــديد والحشر والتغابن والصف والجمعة .

وقلنا أن سبح بصيغة الماضى ويسبح بلغة الحاضر تعنى الحقيقة القائمة أبـــدا بأن كل شىء وكل من وما فى الســـموات والارض يسبح أى ينزه ويمجـــد ويقـــر بالعبودية لله وخالفنـــا قول من حاول أن يفرق فى ماهية التســـبيح بين العقـــلاء والجمادات من حيث أن العقلاء يسبحون بالقول ، أما الجمادات فتسبيحها تسبيح (دلالة) اى أن مجرد وجودها هو دلالة على وجود الخالق وتعظيمه وتمجيده ، قال بذلك بعض قـــدامى المفسرين (من المتكلمين) وبعض المحدثين ، وقالوا كلاما فى تعليل ذلك نعترف بأننا لم نستطع فهمه، ولذلك فمن رأينا وبالله التوفيـــق ان كل شىء سواء كان انســـانا أو حيـــوانا أوما نسميه جمادا ، وبقية ما خلق الله من كائنات ، كلها تسبح بمعنى واحد ، فليس كل انسان على سبيل المثال يسبح هـــذا التسبيح الذى نعرف من النطـــق (بلفظ سبحان الله باللغة العربية) ومع ذلك فهو يدخل فى عموم الآيـــة من أن كل ما فى السموات والارض يسبح لله ، فدل ذلك على ان الحكم واحد وان مجـــرد قيـــام الكائنات هو آية شاهدة ناطقـــة **معظمة** وممجدة لذات الله ولا محـــل للتفريق بين حالة الانسان وغيره من الكائنات ، ويدعم قولنا قوله تعالى : **(وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)** ، فالذين يقولون أن تسبيح الحيوانات والجمـــادات هو تسبيح دلالة يتعارضون مع هذه الاية التى تقرر اننا لا نفقه تسبيحهم ، فالقـــول بأنه تسبيح دلالة يعنى أننا فقهنـــا هـــذا التسبيح وهو ما يتعارض مع نص الآية التى تجزم بأننا لا نفقه تسبيحهم وثمـــة آية أخرى يفهم منهـــا أن ما يســـمونه الجمادات تسبح وتتعبد تسبيحا وعبـــادة خاصة بها وهذه الاية هى : **(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن)** .

يقول القرطبى ونحن معه : فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ولقد اضفنا الى ما تقدم عند عرضنا لســـورة التغابن أن العلم الحديث قد حسم القضية عندما كشف أن كل ما فى الوجود يتألف من لبنة واحدة وهى الذرة والذرة لا تعدو أن تكون موجات كهربائية تتذبذب، اى تتحرك، ومعنى تذبذبها أن يكون لها صـــوت أن عجزنا نحن عن سماعه فلا يعجز عنـــه خالقها رب السموات والارض ، وصـــدق الله العظيم عندما يقول : ((**وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**)) .

له ملك الســـموات والارض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير .

هذا هو الله الواحد الاحد الفـرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، كل ما تقع عليه أبصارنا من عوالم لا نهاية لها نعرفها ، كل هذا الكون بما فيه من نجـوم وكواكب ومجـرات وشموس واراض كارضنا هى من خلقـه وصنعه وبالتالى فهى ملك يمينه ورهـن اشارته هو مالكها وملكهـا وسـيدها ، والقادر على كل شيء فيهـا ابتـداء من اصغر ذرة حتى أكبر مجرة ، يحيط بهـا بعلمه ويبقيها بارادته الى ما شاء كيف يشاء ، واذا عجز اى عقل عن استيعاب ذلك فما عليه الا أن يذكر الحياة والموت وانه هو الذى يحيى ويميت ، هو وحـده لا شريك له ، فلو قدر لانسان حياة فلو اجتمعت الانس والجن على موت انسان يريد الله له الحياة فلن ينالوا منه شـيئا ولو حرقوه بالنار أو غرقوه بالماء ولطالما أشرت فى مثل هذا الموطن الى بعض الأمثلة الجاريـة ، وذلك نزولا عنـد الأمر « **وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين** » .

ويتكلم المفسرون كلاما محـدودا عن الحياة والموت فيقولون يحيى عند البعث ويقول آخرون بل المقصود انه يحيى النطفة، ونقول نحن ان ذلك كله بعض قدرته على الحياة والمـوت بغير حـدود أو قيود أو سدود ، فهو الذى يحيى ويميت لا الانسان فقط بل وكذلك الحيوان والنبات ومانعرف وما لا نعرف من كائنات ، وآخر معطيات العلم أنه حتى الذرة نفسها ، لا نستطيع أن نقطع ونجزم ان كانت سـتبقى أو لا تبقى بحيث اصبحت نظريات العلم أقرب الى الاحتمالات منهـا الى القطع واليقين مما قد نفصله فى مناسبة اخرى .

« **هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** » .

نصل الان الى الاية التى اعتبرها ابن كثير هى المقصودة فى قول الرسول صلوات الله عليـه « ان فيهن (أى المسبحات) آية تفضـل الف آية » وبصرف النظر عن التفضيل ومقداره ، فان هذه الاية بالنسبة لى شخصيا كانت دائما هى حجر الزواية فى ايمانى الراسخ بالله كما تصوره هذه الاية الكريمة ، وقبل أن اسمح لنفسى فى عرض تأملاتى ليكون الكلام أقرب الى لغة العصر ولا خاطب به العقول الناشئة التى تحاصرها الأفكار المادية والالحادية من كل جانب ، فلنثبت أولا أحسـن ما جـاء فى التفاسير المعتمدة بالنسـبة لهـذه الآية الكريمة .

روى عن رسـول الله باكثـر من طريق ، انه كان يدعو عند النوم ، اللهم رب السماوات السـبع ورب العـرش العظيم ، ربنـا ورب كل شيء منزل التوراة والانجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته .

اللهـم أنت الاول فليس قبلك شيء وأنت الاخر فليس بعـدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، أقض عنا الدين واغننا من الفقر(١) .

---

(١) ندعو كل مسلم الى حفظ هذا الدعاء وترديده .

التوحيد الصافى :

ولعل توحيد الاسلام لله لا يتجلى بصورة مطلقة صافية من كل رواسب الوثنية ، قدر تجليه فى هذه الاية الكريمة ، ولعلها وامثالها فى القرآن هى التى حفظت فلاسفة المسلمين ومفكريهم من الانزلاق الى ما انزلق اليه فلاسفة ومفكرو الاديان الاخرى حيث انسلخوا من الايمان بالله جملة .

القوة المبدعة الخالقة :

ان كافة الملاحدة ومفكرى الالوهية لا يستطيعون الفكاك من التسليم بوجود قوة خالقة مبدعة مهيمنة هى التى جعلت الكون على ما هو عليه ، ولكى يفرون من الايمان بالله ، فهم يطلقون على هذه القوة اسم الطبيعة ، ثم اصبحت كلمة (الطبيعة) مودة قديمة ، فأصبحوا يحدثوننا عن المادة ، وتحذلق بعضهم فسموها (المادة الجدلية) وبصرف النظر عن الاسماء ، فهم يسلمون بأن هذه القوة هى الخالقة والمبدعة لكل ما نرى وانها قديمة لا شىء قبلها **(هو الاول)** .

وهم يسلمون ويقرون بأن كل شىء سيزول ويفنى أو بالاحرى يرجع الى هذه القوة الازلية **(والاخر)** .

والطبيعة عندهم أو المادة أو المادة الجدلية هى هذا المحسوس والملموس والمنظور فى انفسنا وفيما حولنا **(والظاهر)**.

فاذا سألتهم وما كنه هذه الطبيعة أو المادة ، وماهيتها ، ولماذا كانت هكذا وتتصرف على هذا النحو ، قالوا لك هذا ما تعيا عقولنا عن فهمه وادراكه **(والباطن)**.

وهكذا نرى أن المفكرين والجاحدين فى العصر الحديث ، لا يستطيعون الفكاك كما قدمنا من التسليم بأن القوة المهيمنة على الكون هى (الاول والاخر والظاهر والباطن) .

ثم يبدأ الخلاف بيننا معاشر المؤمنين وبين هؤلاء الجاحدين والمنكرين ، فهم يريدون أن يصوروا هذه القوة الخالقة الفاعلة بأنها قوة عمياء لا هدف لها ولا غاية ، وليس لهم على قولهم اى دليل أو سند ، بل هم يقولون ما لا يقبله العقل ويرفضه لان العقل لا يستطيع أن يتصور أى حركة بغير هدف أو غاية فمنكرو الالوهية هم الذين يريدون أن يحملوا العقل ما لا يطيق ، وهو ان يتصور الكون يسير لغير غاية أو هدف حيث تصرخ كل ذرة فيه بأنها تعمل لهدف .

وهو بكل شىء عليم :

ومن هنا تنتهى الآية الكريمة بعد التجريد المطلق لهذه القوة الخالقة بأنها على خلاف رغم الملاحدة والماديين قوة واعية بكل شىء عليمة بكل شىء لها هدف وغاية وهو ما جاءت به الكتب ونطقت به الرسل **(ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)** .

الله الحى القيوم .

وثمة معنى آخر تشعه الاية وتنطق به وهو علا الله عن كل ما نعرف أو نتصور أو نتخيل فهو ذات لا نستطيع أن ندركه بمقاييسنا أو نحيط بكينونته بعقولنا فالشىء اما أن يكون أولا واما أن يكون آخرا والشىء اما أن يكون ظاهرا ، واما أن يكون باطنا ، اما الله عز وجل فهو أول وهو آخروهو ظاهر وهو باطن ، ذلك أن التقدم والتأخر والظهور والكمون كل هذه أشياءبالنسبة للانسان فهو الذى جعل له ماض وحاضر ومستقبل وهو الذى جعل قبليةوبعدية وفوقية وتحتية اما الله سبحانه وتعالى فلا وجود لذلك كله بالنسبة اليهلا زمان يحده ولا مكان يحده انه كل شىء .

وهذا هو ما تنطق به الآية فى مجموعها من أنه **(هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) .**

انه الدائم بغير بداية الدائم بغيرنهاية أنه هو دائما ابدا حى قيوم متعال.

ـ هو الذى خلق السموات والارضفى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزلمن السماء وما يعرج فيها وهو معكم اين ما كنتم والله بما تعملون بصير . لهملك السموات والارض والى الله ترجع الامور . يولج الليل فى النهار ويولج النهارفى الليل وهو عليم بذات الصدور .

القرآن يهيمن على ما سبقه من الكتب :

تظهر هذه الايات كيف جاء القرآن مهيمنا ومسيطرا على ما سبقه من الكتب المنزلة ومصححا لما طرأ عليها من تحريفاتومسخ فى بعض العبارات والفقرات ففى كتاب اليهود الذى بين ايدينا والذى يسميهالمسيحيون (بالعهد القديم) الحديث عن خلق الدنيا فى ستة أيام ثم تضيف القصة(ان الله استراح فى اليوم السابع) وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا فكلمةاستراح تعنى أنه تعب وتنزه الله عن التعب والراحة ، فانظر يا رعاك الله كيفيصحح القرآن ويقوم ويهذب ولا يتحدث من ذات الله الا بما يتفق وجلاله فهو بعدأن فرغ من خلق الدنيا استوى على عرشه كما هو شأنه دائما واخذ يدبر ملكوته الذىلا يقوم الا به .

فما من حركة ولا نأمة فى هذا الكون العريض تتم الا بعلمه نتيجة كونها لا تحدث الا بارادته وهكذا تكون كل قطرة ماء منمطر او غيره تستقر فى الارض ، بل كل بذرة وكل حبة وباختصار كل ما يمكن أنيغيض فى الارض انما يتم بعلم الله ومشيئته فالفلاح أى فلاح يضع بذوره فى الارض والله وحده هو الذى يعلم اى هذه البذور هى التى تدر لها النماء وقد حاولجماعة الماديين ان يتحدوا ذلك فخابوا وخابت مساعيهم وظلت الزراعة فى منأىمن تحكماتهم وعجزوا بكل علومهم التى

صعدوا بها الى القمر ان يسيطروا على الزراعة وظل حالهم سواء اعترفوا أو انكروا هو حال من وصفهم عمرو بن العاص « **يبذرون الحب البذور فى الارض وينتظرون النماء من الرب** » . ذلك بعض ما يمكن أن يقال فى قوله تعالى : « **يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها** » .

الايام الستة :

وتعال نقف قليلا امام عبارة « **الايام الستة** » فالمطالع لكتاب العهد القديم الذى فى أيدينا يرى نفسه أمام أيام ستة من هذه الايام التى نعرف حيث تختم كل فقرة بعبارة « **وكان صباح وكان مساء** » ولكن القرآن الكريم علا على هذا القول واعلمنا ان اليوم عند الله شئ يخالف هذا الذى نعرف .

وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون .

ولا يجب أن تفهم من كلمة الف معناها الحرفى وانما المقصود ان يفهم العرب الذى نزل القرآن بلسانهم ان اليوم عند الله لا يجب ان يقاس بيوم من أيام الدنيا .

وفى آية أخرى يشير القرآن الى أن اليوم قد يكون خمسين الف سنة « **تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة** » (٤ المعارج) ويصل القرآن الى تجهيل طول اليوم عندما يسأل الله البشر يوم القيامة عن مقدار مكثهم على ظهر الارض فيجيبونه : يوما أو بعض يوم فيقول الله عز وجل « ان لبثتم الا قليلا » .

ويكون من المستطاع ان نفهم من ستة أيام انها ستة مراحل اى اطوار **(وخلقناكم اطوارا)** وقد كان فى قدرة السميع العليم ان يقول للكون كن فيكون ، ولكن اقتضت مشيئته لحكمة يعرفها هو ان يكون خلق الكون بالتدريج مرحلة بعد أخرى وما أروع أن تكون هذه الحقيقة ونعنى بها خلق الكون بالتدريج هو ما أصبح العلم يتنادى ويقوم على أساسه .

ثم استوى على العرش :

كان السلف الصالح يسمع هذه الاية فيستشعر بعظمة الله وجلاله وهو لب المقصود من العبادة وقد أشرنا من قبل الى أنها قيلت (والله أعلم) لتفيد تصحيح ما زعمه اليهود من أن الله بنى الدنيا فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع فجاء القرآن الكريم ينزه الله عن الاستراحة فحاشاه أن يتعب ، ولكن الله عز وجل بعد أن خلق الخلق راح يدبره .

الخلاف بين الفرق الاسلامية :

ومسلمو العصر الحديث لا يتصورون الخلافات والفتن التى قامت بين جماعات من المسلمين حول كلمات من مثل استوى على العرش فلم يقتدوا بالسلف الصالح بل وقفوا طويلا وأبوا الا أن يبحثوا فى العرش وما هيته وكيفية استواء الله عليه ، وقد بادر أقوام فقالوا أن استواء الله على العرش هو مجرد كناية عن سلطان الله وتمثلوا ببيت مشهور من الشعر .

ثم استوى بشر على العراق   من غير ما سيف ولا دم مهراق

وفى الناحية المقابلة راح اناس يصفون العرش وابعاده وهل هو شىء غير الكرسى وايهما يعلو الآخر ويكبره والحمد لله الذى انجانا من هذه المباحث فنقف عندما وقف عنده السلف الصالح اى نستشعر الحكمة من آيات الله ونحس بالخشوع أمام كلمات الله ولا نحاول الغاء معناها كما لا نحاول تجسيدها أو تشبيهها بشىء مما نعرف ذلك أن الله عز وجل وكل ما يتصل به (**ليس كمثله شىء وهو السميع البصير**) وما ابدع ماقاله السلفى العظيم عندما سئل عن استواء الله فأجاب هذه الاجابة المدوية ، « **الاستواء معروف والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة** » .

وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم اين ما كنتم :

وتمضى الايات فى ذكر بعض مظاهر قدرة الله ، فكما يحيط علمه بكل ما يلج فى الارض ويخرج منها ، فكذلك يعرف كل ما ينزل من السماء من مختلف الظواهر سواء كانت مطرا أو بردا أو ثلجا أو صواعق وعواصف وغير ذلك مما نعرف وما لانعرف .

وهو معكم أينما كنتم :

اى معكم بقدرته وسلطانه وعنايته بمن آمن به واتقاه وهذا هو المعين الذى لا ينفد من القوة للمؤمنين يغترفون منه ويتفوقون به على سائر العالمين عندما يمتلئون بأن الله عز وجل بكل ما يمثله من معانى القدرة والخير والحق يقف الى جوارهم ويساندهم .

يعرج فيها :

ونقف كما عودنا قراءنا أمام بعض الكلمات التى كشفت التجربة والعلم عما يلقى ضوءا أو بالاحرى مزيدا من الضوء على معناها .

جاء فى القرآن الكريم :

— تعرج الملائكة والروح اليه (المعارج) .

— ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون « السجدة » ؟

— ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون « الحجر » ؟

وهكذا كلما أشار القرآن الى ولوج السماء تحدث عن ذلك مستخدما كلمة العروج ، وقد بقى أن تعرف أن العروج هو المنعطف أى أنه السير فى غير الطريق المستقيم وانما عن طريق الانحناء والانثناء ونحن نعلم اليوم أن الصعود الى القمر والكواكب الأخرى يتم فى طريق متعرج أى منحنيات ودوائر . فأنظر يارعاك الله كيف يكشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة التى لم يرفع عنها الستار الا بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن وصدق الله العظيم ((**ان هو الا وحى يوحى**)) .

الليل والنهار

وتشير الآية الكريمة وهى فى معرض تصوير ملك الله وسلطانه على الكون بكل ما فيه واحاطة العلم الالهى بكل ما يجرى ويقع وان الأمور كلها عائدة وصائرة الى الله (**والى الله ترجع الأمور**) .

تنتهى بالحديث عن ظاهرة الليل والنهار حيث يتداخل الليل فى النهار ويتعاقبان على مدار الدهور فيقصر هذا ويطول ذلك ثم تعكس الآية على هذا النسق البديع المشاهد .

يولج : يدخل

(وهو عليم بذات الصدور)

ولا يكف القرآن عن التذكير بعلم الله على السرائر والضمائر ذلك أن ايمان الانسان بهذه الحقيقة هو الذى يجنبه العثرات ويهديه سواء السبيل .

— آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وأن الله بكم لرءوف رحيم . وما لكم الا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير .

الحث على الانفاق

نصل الآن الى أحد عناصر الاسلام من حيث هو دين يؤدى الى عمار الكون والارتفاع درجات ودرجات بالمجتمع ، وقد انفرد الاسلام من بين سائر الاديان أن جعل ركنا من أركانه لا يقوم الاسلام الا به فريضة الزكاة وهى تخصيص قدر معلوم من أموال القادرين للانفاق على غير القادرين ، واذا كان بعض من وهموا قد حاولوا أن يصوروا الحياة الانسانية لا تقوم على شىء الا الحياة الاقتصادية وذلك تصورا منهم أن الحياة تقوم على المادة فقط ، حيث تقوم الحياة البشرية على

المادة والروح معا ، وهو ما أخذ به الاسلام ونظمه فأبدع التنظيم شأنه فى كل ما تناوله بالتنظيم ، ومن ذلك موضوع الاقتصـادفهو لم يقل كما قال الواهمون أن الاقتصاد هو كل شىء ومن الناحية الاخرى لم يهدرالاقتصاد ويحرض على كراهيـة المـال وبالتالى لا يضع النظم الخاصة بانفاقه ، وانما اعتبر الاسلام المـال (الاقتصاد) عنصرا هاما ورئيسيا لا تنتظم الحياة الا بهولذلك فقد راح ينظمه ويضع له القواعد وعلى رأس هذه القواعد أن لا يحبس عن التداول ، وانما ينفق فى سبيل الله ، وقـد حاول بعض المفسرين أن يحددوا الانفاق فىسبيل الله بأن المقصود به هـو الزكاة المفروضة وقال آخرون انما هو النفقـةعلى العيال ، ونحن من رأى من قال انها مطلقة فكل انفاق فى سبيل الحق والخير والنفع المحقق فهو انفاق فى سـبيل الله يؤيدنا فى ذلك أن الانفاق أعظم الانفاق فىعهد رسول الله كان على تثبيت الدعـوة ونشرها والدفاع عنهـا ، أى على تجهيزالجيوش المجاهدة بعد أن أصبح للمؤمنين جيوش فاذا علمنا أن الدفاع الحربى قـدتطور فى عصرنا الحديث بحيث أصـبح فى حاجة لانشاء الوف المصـانع لا مصانعالاسلحة والذخيرة فحسب ، بل كل صنوف المصانع ، استطعنا أن ندرك كل نفقـةلانشاء مصنع يوجد العمل فى وقت السلم لعديد من الناس ويسد حاجة وقت الحربهو انفاق فى سبيل الله ، وكذلك الحـال بالنسبة لانشاء أى مدرسة أو معهدأبحاثيزيد المسلمين علما وبالتالى قوة فهو انفاق فى سبيل الله ويأتى قبل ذلك كله النفقـةعلى الاسرة فهى لبنة المجتمع الاولى التى لا يقوم الا عليها وبها ثم تأتى نفقة الزكاة للقادرين عليهـا باعتبارها أن الزكاة لازمة لسلام المجتمع وأمنه وتضامنه ، ثم تأتىالنفقة بمعناها الواسع الذى بيناه وهو ما فتىء القرآن يحث عليه ويحذر من مغبة اكتناز الذهب والفضة وينـذر المكتنزين **(أى الذين يحبسون أموالهم عن التداول)**ينذرهم بنار جهنم ، يوم تكوى جباهم بما كنزوا من الذهب والفضة ، وهكذا يبشرالاسلام من ناحية بالانفاق ، ويحـذر من الاكتناز من ناحية اخرى وقد بقى أن تعرفأيها القارىء الكريم أن آخر ما انتهى اليه علم الاقتصاد وفنه كما يقولون يدور حولهذا المحور وهو الانفـاق والحيلولة دون حبس المال عن التداول ، وقـد نشـأت الأزمات المالية التى أصـيب بها العالم نتيجة الامساك عن الانفاق ، وانقشعت الأزمات عنـدما عاد الانفـاق الى سابق طبيعته ، وقد أعتبر الغربيون ابن خلدونهو أول اقتصادى فى العالم والحق ان ابن خلدون كان يغترف من القرآن ويدون ملاحظاتـه على هديـه فـكان أن أعتبـر أبو الاجتماع وأبو الاقتصاد .

وهكذا يضىء القرآن الطريق أمـامالبشرية فى سائر الاتجـاهات ويزودهـا بمفتاح التوازن فى كل ميدان ، ومن ذلكالانفاق فى سبيل الله أى فى سبيل **الحق والخير والنفع** باعتبار أن ذلك يؤدى الىسلام المجتمع وازدهاره .

ـــ آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مماجعلكم مستخلفين فيه :

الانفاق مظهر الايمان :

دعت الاية الكريمة الى الايمان باللهورسوله ، حتى اذا امتلا القلب بالايمان فاض الايمان فعبر عن نفســه بالانفاق فى سبيل الله .

مما جعلكم مستخلفين فيه :

لكى نفهم معنى مستخلفين فيه يجب ان نرجع لقصة الخلق حيث شاءت ارادة الله أن يجعل الانسان خليفته على الأرض .

ــ واذ قال ربك للملائكة انى جاعلفى الأرض خليفة .

أى ان الله ســبحانه وتعالى قــداستناب الانسان فى الكون وندبه للعمــل لفترة من الزمن كنوع من الابتلاء ، وهــو هنا يأمره بالنفقة مما أفاء به الله عليه ؛ ويذكره أن الملك ملك الله ، والمال ماله،وأن يده عليه يد عارضة فهو ليس الا وكيل والمالك الحقيقى يأمره بالنفقة من المــال الذى وكله الله لانفاقه فى سبيل الحــق والخير والنفع ، ذلك ما قال به بعــض المفسرين ونرتاح اليه وبالتالى نأخذ به فى فهم » .

« مما جعلكم مستخلفين فيه »

ولكن بعضــا آخــر فهم من معنىمستخلفين فيه أنه آل الى من آل اليه عن طريق الميراث وسوف ينتقل من يد الانسانالى من بعده عن طريق الميراث ، ولكنا نؤثر المعنى الأول فالمــال قد يكون من كسب الانسان ولم يصل اليه عن طريق الميراث .

ويروى عن رسول الله حديث رائعككل أحاديثه .

« يقول ابن آدم مالى مالى ، وهــلك مــن مــال الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصــدقت فأمضــيت ،وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .

وصدق رســول الله فالمال ليس الاوسيلة لعمل الطيبات فاذا لم ينفق فى هذا السبيل فقد قيمته .

ــ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير .

وهذا هو وعد الله ومكافأته للذينيؤمنون وينفقون فى سبيله .

ــ ومالكم لا تؤمنون بالله والرسوليدعوكم لتؤمنوا بربكم .

وهذا الخطاب للمؤمنين المحيطين بالرسول ، وما يقطع بمدنية السورة حيث يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم اذ جعل الرسول بين ظهرانيهم وعلى رأسهم .

جاء فى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه : أى المؤمنين أعجب اليكم ايمانا ، قالوا ، الملائكة قال : ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم قالوا : الانبياء ، قال : ومالهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن ، قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم :ولكن أعجب المؤمنين ايمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بها .

وصدق رسول الله فنحن اليوم على سبيل المثال قد يوجد فينا من يكون فيه المتمسك بدينه كالقابض على الجمر .

— وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين .

وقد ذهب كبار المفسرين فى المعنى المقصود بكلمة الميثاق هنا الى مذهبين فابن جرير ومن لف لفه قال ان المقصود بالميثاق هو ما أخذه الله على البشر وهم فى صلب آدم أن يؤمنوا به وهو مذهب مجاهد وقيل اخذ ميثاقكم أى ركب فيكم العقول . أما ابن كثير وفريق آخر من المفسرين وهو ما نأخذ به نحن فيقولون ان المقصود بالميثاق هنا هو مبايعة المؤمنين لرسول الله أكثر من مرة وآخرها هو بيعتهم له يوم الحديبية (**لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة**) .

أما لماذا نرجح أن يكون هذا هو المقصود بمعنى الميثاق هنا ، فذلك لان الميثاق الاخر (والبشر فى ظهر آدم) هو خاص بالناس كافة وقد تمرد عليه من تمرد فيكون المقصود هنا هو هذا الميثاق الخاص الذى اخذه رسول الله على أصحابه والله تعالى أعلم .

— هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لرؤوف رحيم .

أى أن المؤمنين يشهدون كيف ينزل الله على الرسول الحجج الواضحة والدلائل الباهرة والبراهين القاطعة ليخرج المؤمنين من ظلام الكفر الى نور الايمان واليقين وذلك بنعمة من الله لرأفته ورحمته .

— وما لكم أن لا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والارض »
يعود القرآن الكريم فيحث المؤمنين على الانفاق مذكرا اياهم بأنهم ذاهبون عن أموالهم مخلفين كل شيىء الى الله عز وجل المالك الاصيل لكل شيىء والذى سيرجع اليه كل شيىء .

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعــد الله الحسنى والله بما تعملون خبير » .

هنا يؤصل القرآن الكريم القــاعدة العادلة وهى وجوب التفريق بين من جاهد وانفق فى مستهل الدعوة وهى لا تزال بعد فى مهب الرياح والعواصف وتحمل الاذى والمشاق وخاطر بحياته حتى قدر الانتصار للحركة واصبحت هى الغالبة وكلمتها هى العليا ، ومع ذلك فكل من احسن وعمــل صالحا بنية صادقة فلن يضيع أجره .

(**وكلا وعد الله الحســنى**) أى بالنسبة لمن أنفق وقاتل بعد الفتح وقــد جرى الخلاف حول الفتح وهل المقصود به هو صلح الحديبية أم فتح مكة وقد وصــف القرآن الكريم الحادثتين بأنهما « فتــح »فنزلت ســورة الفتح بعد الحديبية ونزلت سورة **« اذا جاء نصر الله والفتح »** بعــد فتح مكة .

وفى رأينا ، والله أعلم ، أن المقصود هو فتح مكة فهو الذى كان الفاصــل بين عهد وعهد ومرحلة وأخــرى ، بحيث ان رسول الله صلى الله عليه وســلم عندما ذهب لغزوة حنين كان فى معيتــه عشرة آلاف جندى كان بعضــهم لم يؤمن بعــد والبعض ضعيف الايمان .

وهذا هو شأن الدعوات عندما تنتصر يتكالب عليها الجميع وربما يصبح بعض الجدد أعلى صوتا من أصدق المجاهدين ، ومن هنا وضع القرآن هذا الميزان لوضع كل مؤمن فى مكانه الصحيح وان الله عليم خبير بكل شىء ، ويرى بعض المفسرين أن المقصود بالاية هو تفضيل سيدنا أبى بكر الصديق ، وفضل سيدنا أبى بكر مسألة مقــررة ولكن الآية يجب ان تؤخــذ على عمومها .

ــ من ذا الذى يقرض الله قرضــا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هــو الفوز العظيم .

القرض الحسن ما هو :

ووصل القرآن الكريم فى حضه على الانفاق فى سبيل الله أن جعله بمثــابة القرض لله سبحانه وتعــالى وليس وراء ذلك كرم من الله وفضل ــ فبعد ان بين الله عز وجل ان المال مال الله ، ومع ذلك فقد جعل انفاق المال فى سبيل الخير كمــا لو كان أقرض لله وكما ينتظر كل مقــرض البدل والعوض فان الله يعد بأن يرجــع الى المنفق ماله أضعافا مضاعفة ، ما بين السبع الى السبعمائة الى ما يشاء بغــير حساب وقد وضعت عدة شرائط ليســتحق الانفاق ان يسمى بالقرض الحسن وقــد تضمن القرآن الكريم هذه الشرائط فى آيات متفرقة .

أولها : ان يكون المتصدق صــادق النية طيب النفس يبتغى وجه الله لا الرياء والسمعة .

ثانيها : أن يكون من الحلال .

ثالثها : أن لا يقصد الردىء فيخرجه ليتخلص منه .

قال تعالى : ((**ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**)) .

الرابع : أن يخفى صدقته ما أمكن لقوله تعالى : ((**وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**))(١)

الخامس : ان لا يتبعها من او اذى قال تعالى : ((**لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى**)) .

السادس : أن يستحقر ما يعطى ولا يستعظمه فالدنيا كلها لا تساوى شيئا .

السابع : ان يكون الاعطاء والانفاق مما يحب الانسان لقوله تعالى : ((**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**)) .

الثامن : ان الانفاق والتصدق والانسان يؤمل فى الحياة فقد سئل رسول الله عن افضل الصدقة فقال ، ان تعطى وانت صحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى اذا بلغت التراق قلت لفلان كذا ولفلان كذا .

التاسع : أن يتوخى المتصدق اكثر الناس استحقاقا للصدقة .

ويضيف البعض شرطا عاشرا لم نعرف ما هو ، ونحن اذا كنا قد أثبتنا هذه الشروط فليس ذلك الا رغبة منا فى أن نعرض تحت أنظار القارىء المسلم اقصى درجات الادب الاسلامى الرفيع لمن شاء التماس المثل الاسنى والاعلى والا فليتصدق الناس فى اى وقت وتحت أى سورة ، وحسبهم النية الطيبة فالله لا يضيع مثقال ذرة من الخير .

ـــ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم .

الحديث عن يوم القيامة يوم الجزاء والمكافأة لمن عمل صالحا والقصاص والعقاب لمن تمرد وجحد وعصى وأساء .

النور الذى يضىء :

وقد اختلف المفسرون فى المقصود من النور الذى يسعى بين يدى المؤمنين والمؤمنات أهو نور حقيقى (**ضوء**) أم أنه رمز وكناية عن الايمان والهدى فقال الضحاك : نورهم أى هداهم وبايمانهم كتبهم وقد اختار الطبرى هذا الراى ويكون المعنى : يسعى ايمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى ايمانهم كتب أعمالهم (فأما من أوتى كتابه بيمنه) بينما يرى قوم آخرون ونحن من هذا الرأى أن النور هنا هو النور فالسياق كله يشير الى ذلك وقد روى عن ابن مسعود وقتادة أحاديث عن النبى صلوات الله عليه وسلامه أنه قال :

---

(١) المعول هنا على النية واذا كان الاظهار لتشجيع الآخرين على الصدقة فلا بأس لقوله تعالى : « ان تبدوا الصدقات فنعما هى » .

ان من المؤمنين من يضيء نوره كمـــابين المدينة وعدن او بين المدينـــة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره الا موضع قدميه «قال الحسن: ليستضيئوا به على الصراط » .

بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهـــا ذلك هو الفـــوز العظيم .

والله أعلم من الذى يبشر المؤمنين بالجنة : أهم الملائكة ، أم لسان الحال أو هو الله عز وجل يتفضل على عباده المؤمنين بالبشارة والله اعلم أى ذلك يكون والمهم هو النتيجة حيث يفـــوز المؤمنـــون ذلك الفوز العظيم بجنات عدن تجرى من تحتها الانهار لا يعرفون فيهـــا الموت وانما هى حياة دائمة ونعيم مقيم .

ـــ يوم يقول المنافقون والمنافقـــات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعـــوا وراءكم فالتمســـوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمـــة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قـــالوا بلى ولـــكنكم فتنتم أنفســـكم وتربصتم وأرتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير .

المفردات :

انظرونا : أى انتظرونا

نقتبس : أى نأخذ (منكم)

فتنتم أنفسكم : أى أهلكتم انفسكم

تربصتم : انتظرتم وترقبتم أن تدور الدائرة على المؤمنين .

غرتكم الامانى : أى خدعتكم الاباطيل .

هى مولاكم : أى أن النـــار هـــى سيدتكم وناصرتكم وهى أولى بكم هـــذه الاية التى جعلتنا نرجح قول من قال ان النور المذكور فى هذه الآيات هو على سبيل الحقيقة لا المجاز فالمنافقون هنا يستغيثون بالمؤمنين ويطلبون منهم الانتظار والتريث ليستعينوا بنور المؤمنين على تبديد الظلمات التى أصبحت تغشاهم فيقول لهم المؤمنون ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، قـــال البعض أى أرجعوا للدنيا واعملوا صالحا حتى يكون لكم نور مثل نورنا ، وفى كل الاحوال سواء كان الرجـــوع الى الوراء بمعناها الظاهر أو بمعنى العودة الى الدنيا ،فقد فات أوان ذلك وأصبح ذلك مستحيلا فقد حلت ساعة الحساب ، ولذلك فـــان الله عز وجل يجرى مشيئته فيفصـــل بين أهل الجنة وبين أهل النار فيقيم بينهمـــا سورا يحجز ما بين الفريقين فتصبح الرحمة فى أحد جانبى السور والعذاب فى الناحية المقابلة ، وهنا يمد الله ليعذب المنافقين

فيجعلهم يجارون بالاحتجاج ، فيستشهدون بالمؤمنين على أنهم كانوا منهم ، فكانوا يسألونهم ألم يكونوا معهم يقيمون الصلوات ويحضرون الجماعة طوال النهار وأيام الجمع والاعياد فيرد عليهم المؤمنون بأن هذا صحيح فقد عملوا كل ذلك فى الظاهر ولكن قلوبهم كانت خاوية من الايمان مملوءة بالشر والأذى فكانوا يتشككون فى نبوة رسول الله ورسالته وأن القرآن من وحى رب العالمين وراحوا يتربصون برسول الله ومن آمنوا معه أن تدور بهم الدوائر وهكذا غرروا بأنفسهم وتعلقوا بالامانى الشريرة وبالتالى عرضوا أنفسهم للمهالك والمعاطب ، وتنتهى هذه المواجهة بين المؤمنين والمنافقين بامضاء حكم الله فيهم وهو أن يصبح مصيرهم كمصير الكفار حيث لا يستطيع أى منهم أن يفتدى نفسه ولو بملء الأرض ذهبا ، وانما يلقى فى جهنم وبئس المصير .

ــ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيى الارض بعد موتها قد بينا لكم الايات لعلكم تعقلون ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم

المفردات :

ألم يأن : أى ألم يحن أو لم يجىء وقت .

أن تخشع : أى ترق وتلين

الامد : الزمن

سر القرآن :

نزل القرآن الكريم منجما (أى مجزأ) على طوال ثلاث وعشرين سنة وكان ينزل بحسب المناسبات ، وكان ينزل بطبيعة الحال معبرا عن الحالة التى كان يعالجها ، ويكمن سر القرآن فى أن علاجه للحالة الطارئة يصبح وهو تعليم أبدى خالد يصلح لكل زمان ومكان . ومن هذا القبيل هذه الاية التى نحن بصددها فكتب التفسير حافلة بالاحاديث التى تشير للمناسبة التى نزلت بصددها هذه الاية ، ولكن المطالع لها بعد قرابة أربعة عشر قرنا يحس وكأنها توجه له العتاب شخصيا ، وتحذره من قسوة القلب (**أى غلظه**) وتأمره بالخشوع أمام ذكر الله .

يقول ابن عباس على ما جاء فى القرطبى أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن .

وقيل نزلت فى المنافقين بعد الهجرةبسنة وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال : ما كان بين اسلامنا وبين ان عاتبنا الله بهذه الآية **« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » الا أربع** سنين . ويجب أن نفهم أن هذه السنوات فى المدينة ، والمسلمون الاوائل فى مكة لم يكونوا فقط يخشعون لذكر الله ، بل كانوا يستعذبون العذاب فى سبيل حب الله وذكره ، وانما تشير هذه الاية الى بعض المؤمنين فى مجتمع المدينة بعد أن أصبح الايمان بالله ورسوله هو أساس الحياة .

يقول القرطبى وغيره فى تفسيره .أنه قد روى أن المزاح والضحك كثر فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما ترفهوا فى المدينة فنزلت هذه الاية ، وقيل غير ذلك وأن المنافقين هم المقصودون بهذه الاية ، وأيا كانت المناسبة التى نزلت بسببها هذه الاية فالحديث موجه الينا باعتبارنا من المؤمنين ويطالبنا بأن تخشع قلوبنا لذكر الله ويحذرنا من ان ننحدر الى ما انحدر اليه أهل الكتاب من قبلنا وهم اليهود والنصارى ، فحيث تقوم المسيحية على منتهى الرحمة والحنان والحب حتى قال السيد المسيح « الله محبة » فلست أحسب أن الانسانية شقيت وتعذبت كما تعذبت على أيدى المسيحيين باسم المسيحية ، ولا تزال دولة تصف نفسها بالمسيحية وتزعم انها تدافع عن الحضارة المسيحية ومع ذلك فهى تشن اقذر حرب عرفها التاريخ على شعب صغير ضعيف (من الناحية المادية) أما اليهود فأحسب أن مجرد الاشارة الى ما فعلوه فى فلسطين ويفعلونه تغنى عن كل حديث والمهم انهم يفعلون ذلك باسم الدين والتوراة ، وما ذلك الا لطول عهدهم بكتبهم فألفوها ولم تعد تثير فى نفوسهم أى أثر فغلظت قلوبهم وقست وتجردت من كل رحمة ، ومن هنا يحذر الله المسلمين أن يكون شأنهم شأن من سبقهم من أهل الكتاب الذى أصبح الكثيرون منهم فاسقين وضالين ومنحرفين وأن تظل نفوسهم حية، ممتلئة بالخشوع لذكر الله الرحمن الرحيم. **« اعلموا أن الله يحيى الارض بعد موتها »**.

وما أجمل أن يذكر القرآن هنا باحياء الأرض الجدباء بعد موتها فكذلك يلين القلوب بعد قسوتها وذلك بالاضافة الى المعنى التام الذى طالما قصد اليه القرآن الكريم من الاشارة الى أحياء الارض (بالنبات) بعد موتها هو اشارة لقدرة الله عز وجل على البعث بعد الموت وهكذا.

ـ قد بينا لكم الايات لعلكم تعقلون . ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم .

تحدث القرآن فى صدر السورة عن الانفاق فى سبيل الله وعن التصديق وان ذلك بمثابة اقراض الله عز وجل ، وهو هنا يعود لذات الحديث باعتباره هو الدواء الشافى من قسوة القلوب وتبلدها ويؤكد ما أكده من قبل من مضاعفة الاجر والثواب .

المصدقين والمصدقات :

وارجو أن يكون القارىء قد لاحظمذ بدأت السورة الكريمة أن الخطاب فيها قد توجه للمؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات والمتصدقين والمتصدقات وهو أسلوب حرص عليه القرآن ليظهر مسئولية المرأة الكاملة عن كل أعمالها ان خيرا فخير وان شرا فشر ، بحيث لا يجوز لها التنصل من مسئوليتها بحال من الأحوال(١) .

ومتى كانت المرأة محل مساءلة كاملة فحقوقها لا يمكن الا أن تكون كاملة كذلك ولذلك فالذين آمنوا بالله ورسله (من الجنسين) له أجره بالكامل لا يظلم منه مقدار ذرة .

وقد وصف المؤمنون هنا بأنهم **أصديقون وشهداء .**

والصديق هو شديد التصديق ، وشهداء هنا بمعنى أنهم يشهدون بوحدانية الله ورسالة سيدنا **محمد (لهمأجرهم ونورهم)** هذه الاية هى التى تجعلنا نرجح أن النور فى هذه السورة هو النورعلى الحقيقة (الضوء) وليس على سبيل المجاز كما قال البعض فالله سبحانهوتعالى يعد المؤمن يوم القيامة بالاجر ثم اختص النور بالذكر فدل ذلك على انه مقصود واذا كان الله سبحانه وتعالى يجزل العطاء لمن آمن وعمل صالحا فقد أقتضى عدله أن يكون **(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) .**

ـ اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الاخرة عذاب شديد ومغفرة من اللهورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور .

سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

المفـردات :

التكاثر : اى الرغبة الدائمة الى الاستزادة ، وقيل المباهاة والتطاول بكثرة عروض الدنيا من مال وجاه .

الكفار : الزراع ويجوز أن تكون بمعناها المألوف اى الكفرة .

يهيج : اى يبلغ نهاية نموه .

---

(١) الا الأموال العامة بطبيعة الحال كالاكراه مثلا .

حطاما : أى هشا متكسرا بعد يبسه.

الحياة الدنيا :

أعلم أن للانسان حياتين حياة فانيةفىهذه الدنيا وقد سميت بالدنيـــا من الدنو أى القرب فهذه الحياة الدنيـــا هى تلكالتى نحياها ونحسها بحواسنا لقربها منا والتصاقنا بها ، ولكن للانسان حياة ثانيةهى الاصل والاساس وهى الباقية الخالدة، وهى الهدف والغاية من وجـــودنا فى هذهالحياة الدنيا ، فهى مزرعة الاخـــرة ومن زرع حصـــد .

وما فتىء القرآن يفتح عيون البشرعلى هذه الحقيقة فالســـعيد هو من آمن وعمل بها والشقى من اعرض عنهــــاوتجاهلها .

وفى هذه الاية الكريمة التى نحـــنبصددها يكشف لنا القـــرآن الكريم عـــن حقيقة الحياة الدنيا ، فهى دار لهو واللهوهو كل ما يلهى عن الاعمـــال الصالحـــة واللعب هو الجهد غير المنتج وغير المفيد ،وقد يصل الى حد الاضرار بالنفس أو الغير اذا تجاوز القدر المعقول .

وهى عند البعض مجرد رغبة للتكاثرأى للاستزادة من المال مثلا لمجرد الاستكثار منه والتباهى به ، وهى عند البعض سبيلللتفاخر الزائف والاستطالة على الناس ، وهى فى كل هذه الاحوال وأمثالها تصـــبحوبالا على الانسان اذ يتملكه الغرور وينسى حقيقة نفسه ومآله فى النهاية الى الموتفحفنة من التراب ، وكشأن القرآن دائما عندما يقرب المعنى للانسان ، يشبه حـــالمن يغتر بمظهر الدنيا بالنبـــات أى الزرع يجب أن يتعهددائما بالعمل الدائب النافع،والا فان شأنه أن ينمو ويظل ينمـــو حتى يهيج فتراه مصفرا ثم لا يلبث أن يجف ويذبل ويتحـــول الى هشـــيم يتكسر وتذروه الريـــاح .

ولا تنس نصيبك من الدنيا :

والقرآن وان كان يحذر من الدنيا وانيقع الانسان فى حبالهـــا ويعتبـــرها متاع الغرور وبالتالى يزهد فيها ، فهو من ناحيةأخرى لم يطلب من المؤمن تجاهلها فضـــلا عن بغضها وكراهتها ، وانمـــا هو علىخلاف بعض الاديان السابقة قد دعا المؤمن الى ان يأخذ نصيبه منها (باعتدال) فقالوقوله الحق ((**ولا تنس نصيبك من الدنيا**)) **وجعل من سمات** المؤمنين دعواهم لله عزوجل ؟ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة**)) بل ان القرآن حث على تذوقنعم الحيـــاة المشـــروعة ؟ **كلوا من طيبـــات مارزقناكم**)) .

« خذوا زينتكم عند كل مسجد » .

والميزان الوحيد الذى وضعه القرآن للتمتع بنعم الحياة المشروعة هو الاعتدال **« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين »** .

ـ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا .

وهكذا بعد أن يبين الله حقيقة الدنيا لكى يضعها المؤمنون فى حجمها الصحيح يأمر بالعمل الحق الواجب وهو المسارعة لنيل رضوان الله وهو الجنة حيث الحياة الحقيقية الخالدة ، بعد أن ينبه الى أن مفتاح الجنة هو الفوز أولا بمغفرة الله . ويتساءل بعض المفسرين لماذا وصف الله عرض الجنة ، فقالوا أن ماله عرض فان له طول حتما ، ولابد أن يكون الطول أطول من العرض ، وهذه هى طرائف المفسرين القدامى حيث يتساءلون عن كل شىء ولايرضون الا بعد أن يجيبوا على كل تساؤل، أما نحن فكل ما نطمع فيه ونقتنع به فهو ان يجعلنا اهلا لمغفرته وبالتالى من أهل الجنة .

ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم :

تبين هذه الاية أحد عناصر الايمان الذى يجب أن يؤمن بها المؤمن وهى ان مغفرة الله ورضوانه ليست الا تفضلا من الله عز وجل وهو يمنح فضله لمن يشاء أنى يشاء ، وكيف يشاء .

ـ ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير . لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد .

المفــردات :

نبرأها : نخلقها ، البارىء أحد أسماء الله الحسنى .

لا تأسوا : الاسى الحزن الشديد .

المصائب فى حياة الانسان :

بحثنا موضوع المصائب التى تصيب الانسان فى عرضنا لسورة التغابن وكيف أن الاسلام لم يحاول أن يصادر الحياة البشرية فينكر ما قد يصاب به الانسان من كوارث يتألم منها الطبع الانسانى .

والقرآن الكريم فى هذه الاية التى نحن بصددها يحصن المؤمن ضد الكوارث والمصائب ويرسم له ما يجب أن يتحلى به فى مواجهة المصائب ليكون أقدر من غير المؤمن على تحملها وأول ما يجب أن يستحضره المؤمن هو ما قرره القرآن الكريم من ان هذه المصائب والكوارث مقدرة على الانسان منذ الازل وانها قد خطت فى اللوح المحفوظ ، أى أنه لا مفر منها ولا فكاك فلا يجب أن يقطع الانسان نفسه حسرات بأنه لو فعل هذا الشىء أو ذاك لما وقعت المصيبة فكل ذلك وهم فما قدر منذ الازل لابد كائن .

الثانى : وهو نتيجة هذا الايمان « **لكى لا تأسوا على ما فاتكم** » وقد شرحناه ضمنا فيما تقدم .

الثالث : « **ولا تفرحوا بما آتاكم** » وهذا هو ما يخفى على الكثير من الناس فيجب على المؤمن دائما أن لا تغره الدنيا عندما تقبل عليه ، أو كما يقولون عندما (**تبسم له**) فالدنيا غادرة ماكرة ، وهى لم تدم لأى انسان وطبيعتها المد والجزر فينبغى على العاقل أن لا يستخفه الطرب وأن يكون دائما على حذر ولا يتملكه الغرور كما يتملك بعض الناس عند النجاح ويتصوروا أنفسهم أن ما حصلوا عليه هو نتيجة قدرتهم الفائقة وعلوهم فوق البشر فيمتلئوا كبرا وخيلاء وغرورا وحذرهم القرآن (**ان الله لا يحب كل مختال فخور**).

– الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد .

وآية هؤلاء المغرورين المخدوعين الذين يتصورون أنفسهم عندما تقبل عليهم الدنيا انهم أوتوا ما أوتوا عن علم خاص بهم يمتلئون غرورا وكبرياء آية هذا النفر أنهم (**يبخلون ويأمرون الناس بالبخل**) فتراهم يحذرون من الانفاق ويتخيلون الدنيا كلها تتآمر لسلبهم أموالهم فتذهب حياتهم حسرات على كل قرش يخرج من أيديهم ويتصورونه قطرة من دمائهم واللطيف أن البخيل سرعان ما يتصور نفسه أحكم الحكماء فينصح الناس بالبخل ويأمرهم بذلك أمرا باعتباره يهديهم سواء السبيل أعاذنا الله واياكم من البخل .

– « ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد »

دعا الله عز وجل الى النفقة فى سبيله ووصف هذا الانفاق بأنه بمثابة اقراض الله ، وحذر من البخل واكتناز المال ، وكل ذلك قد أمر به الله عز وجل لخير البشر ونفعهم فلا يخطئن أحد ويتصور غير ذلك فالله غنى عن كل من فى الأرض ، ان أحسنوا لأنفسهم وان أساءوا فعليها أما هو فانه (**هو الغنى الحميد**) .

– لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز . ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون .

من نعم الله التى لا تعد ولا تحصى :

تعدد الاية الكريمة بعض ما انعم به الله على بنى الانسان ولا شك انه على رأس هذه النعم بعثة الرسل لهداية الانسان وتصفية عقيدته من الشوائب وذلك عن طريق الكتب المنزلة وما زودبه كل نبى من آيات وحجج وبراهين .

عمار الكون وأمن الجماعة .

على أن بعثة الرسل لا تقتصر على تصحيح العقيدة ، بل انهم باعتبارهم هداة البشرية فقد حملوا اليها من الله عز وجل جوهر العمران البشرى الذى لا يقوم المجتمع الا على اساسه فضلا عن ازدهاره واعنى به ((**العدل**)) وقديما قبلت حكمة الدهور كلها من أن العدل أساس الملك فما تفشى الظلم فى جماعة الا وتدهورت واضمحلت وخابت ، وقد تفشى فى العصر الحديث ما أسموه (**زورا وبهتانا**) مصلحة الجماعة وباسم هذه المصلحة يظلمون فريقا من الناس ، مع أن مصلحة الجماعة هو أن لا يظلم أحد على الاطلاق ، لانه لو سمح بالظلم ولو فى حالة واحدة فانه لا يلبث أن يستشرى ويصبح هو القاعدة وينتفى العدل ، ومتى انتفى العدل فهو الخراب والدمار .

الميزان :

وقد عبر القرآن الكريم عن العدل الذى جاء الرسل ليبشروا به ويغرسوه فى افئدة المؤمنين بكلمة الميزان وهو الرمز الذى رمزت به البشرية منذ اقدم العصور على العدل ، ذلك أن الميزان هو الاداة التى ارتضاها البشر لاعطاء كل ذى حق حقه ، وقد قال بعض المفسرين أن المقصود بكلمة الميزان هو معناها الحرفى ، اى هذه الاداة المعروفة ، بينما قال آخرون أن الميزان هنا كناية عن ((**العدل**)) وهو ما نأخذ به ، فسيدنا محمد وهو من الرسل لم يأت حاملا ميزانا وانما جاء يحمل نورا وقرآنا يؤصل بهما العدل فى نفوس الناس، وهو ما أفصحت عنه الجملة التالية على الفور ((**ليقوم الناس بالقسط**)) اى العدل.

العمران المادى بعد العمران المعنوى :

وبعد أن تحدث القرآن الكريم عن سر العمران وانه يتلخص فى العدل ، أشار الى عنصر من اكبر وأهم العناصر التى يقوم عليها العمران المادى ونعنى به ((**الحديد**)) وكمظهر من مظاهر البيان القرآنى يقول فى كلمات معدودة ما يلخص المجلدات الكبار فوصف الحديد بأخص صفاته التى ساد بها واستحق منذ عرفه الانسان أن يكون هو صانع الحضارة المادية حيث تصنع منه الالات صانعة كل شىء فى عصرنا الحديث ، بل وتصنع منه قبل ذلك أسلحة القتال اللازمة لسلامة الانسان وقد أختير الحديد لصنع الاسلحة والالات وكل ما فيه نفع للناس لصلابته وهو ما عبر عنه القرآن بقوله : ((**فيه بأس شديد ومنافع للناس**)) .

وأنزل (الحديد) هنا بمعنى خلق مثل قوله تعالى : **((وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج))** .

ولكن بعض قدامى المفسرين يقولون: ((نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين السندان والكلبتان والميقعة والابرة)) .

وغنى عن البيان ان هذه آلات التعب والعمل والجنة ليست دار عمل وكد وتعب وقد وصفت الجنة بأن فيها **((مالاعين رأت ولا أذن سمعت))** .

ولذلك فيجب التعويل على ما قلناه فيما سبق بأن أنزل الحديد بمعنى خلق الحديد والهم الانسان وأرشده لاستخدامه واستعماله فى شتى الاغراض .

وفى تفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية نبذة طريفة كتبها خبراء المجلس من أهل العلم عن مادة الحديد ومدى أهميتها وخطورتها فى حياة الانسان نرى ان نثبتها هنا تعميما للفائدة قال الخبراء :

الحديد أكثر الفلزات انتشارا فى الطبيعة فيوجد أساسا فى الحالة المركبة على هيئة اكاسيد وكبريتيد وكربونات وسيلكات وتوجد كذلك مقادير صغيرة من الحديد الخالص فى الشهب والنيازك الحديدية(١) .

اشارت الاية الى أن الحديد ذو بأس شديد ومنافع للناس وليس ادل على ذلك من أمتياز الحديد وسبائكه المتنوعة بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات فى مقاومة الحرارة والشد والصدأ والبلى وفى مرونته وتقبل المغناطيسية وغيرها ولذلك كان هو انسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها وأساسا لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة ودعامة للحضارات .

وللحديد منافع جمة للكائنات الحية اذ تدخل مركبات الحديد فى عملية تكوين الكلوروفيل وهو المادة الأساسية فى عملية التمثيل الضوئى التى ينشأ عنها تنفس النبات وتكوين البروتوبلازم الحى وعن طريقه يدخل الحديد الى جسم الانسان والحيوان ويدخل الحديد فى تركيب بروتينات النواة (**المادة الكروماتينية**) فى الخلية الحية كما أنه يوجد فى سوائل الجسم مع غيره من العناصر . وهو أحد مكونات الهيموجلوبين) المادة الاساسية فى كرات الدم الحمراء) ويقوم بدور هام فى عملية الاحتراق الداخلى للانسجة والتمثيل الحيوى بها .

والحديد يوجد كذلك فى الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الاحمر ، ويحتاج الجسم الى كمية مناسبة من الحديد يجب أن يزود بها من مصادره المختلفة فاذا نقصت تعرض الانسان لعدة أمراض اهمها فقر الدم) .

---

(١) وهى الأحجار الساقطة من الفضاء الخارجى على الأرض .

انتهى كلام الخبـــراء وصـــدق اللهالعظيم اذ يلفت نظر المؤمنين منذ أربعـــة عشر قرنا الى اهميـــة الحديد وخطـــورتهفيقول وقوله الحق : ((**وأنزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس**)) .

وتشير الاية الى استخدام الاسلحةفى نصرة الحق والخـــير والفضـــيلة وكل ما جاء الرسل لتقريره ((**وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب**)) أى بالاخلاص قال ابن عباس ينصرونهم لا يكذبونهم . ويؤمنون بهم ((**بالغيب**)) أىوهم لايرونهموماأجمل واروع ان تختم الاية وهـــى فى معـــرض الحديث عن قوة الحديد أن لا ينس المؤمن ان القوة كلهـــا من الله **فهو (قوى) وهو (عزيز)** أى غالب قاهر

ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنافى ذريتهما النبوة والكتاب .

التفصيل بعد التعميم ، فقـــد ذكرالقرآن فى أول الاية انه ارسل الرســـل بالكتب وهو هنا يسمى الاصـــلين اللذين تناسل منهم الأنبياء وهما نوح عليه السلام الذى بدأ تعمير الكون مرة أخـــرى بعـــدالطوفان واعتبر ابراهيم أصل ثان للانبياء مع انه هو نفسه من نســـل نوح وذلكلقرب عهده ولانه جد العرب ، وسلسلة الانبياء نسل ســـيدنا ابراهيم حتى انتهتبسيدنا محمد معروفة ومشهورة .

((**فمنهم مهتـــد** ! أى من ذرية نوحوابراهيم ((**وكثير منهـــم فاســـقون**)) أى كافرون خارجون عن الطـــاعة ، بل عنالانسانية كلها كما هو شـــأن اليهود فى أيامنا هذه فهم من نسل ابراهيم كمـــــايزعمون ولكن ما أشد فسقهم وصدق الله العظيم .

ـ ثم قفينا على آثارهـــم برســـلناوقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيـــل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمةورهبانية ابتدعوهـــا ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتهافآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون .

قفينا : أى اتبعنا .

عيسى ابن مريم :

بعد أن خص القرآن ســـيدنا نوحاوابراهيم بالذكر أشار الى صـــاحب اكبر رسالة قبل سيدنا محمد وكانت تظل حوضالبحر الابيض المتوسط بخاصة عندما بعث سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وهىرسالة المسيح عليه السلام ، والقرآنالكريم يطلق دائما على المسيح ((**عيسى ابن مريم**)) وذلك ليدحض منناحية دعوىالمسيحيين منانه ابن الله ، وليكرم السيدة مريم منناحية أخرى لظهرها مما قذفها به اليهود على ما بينا ذلك من قبل وسنعود اليه .

اعجاز القرن :

وفى هذه الاية اشارة لما يتسم به المسيحى الحق من رحمة ورأفة ، لان ذلك هو روح المسيحية وما دعا اليه المسيح .

ورهبانية ابتدعوها .

غير أن ما نريد أن ننبه اليه من اعجاز القرآن الذى هو تنزيل من رب العالمين فهى عبارة ((**ورهبانية ابتدعوها**)) فكون الرهبانية ليست من أسس أو تعاليم المسيحية، حقيقة يجهلها لاأقول المسلمين بل المسيحيين قديما وحديثا الا من تثقف ودرس تاريخ المسيحية وتطورها فى مصر بالذات ، فالمسيحيون الاوائل لا يعرفون شيئا عن الرهبنة والاديرة ، التى نشأت فى مصر بالذات وعنها نقلت الى سائر بقاع الدنيا ، ويقترن اسم الرهبنة فى مصر خلال القرنين الثالث والرابع الميلادى وقد جاء ذكر ذلك بالتفصيل فى كتابنا موسوعة تاريخ مصر والذى سجلنا فيه ما كشف عنه تاريخ الكنيسة المسيحية من أن حياة الرهبنة والأديرة قد نشأت فى مصر ، وأعود فأكرر أن هذه الحقيقة تخفى الا على الدارسين الباحثين فالمسيحية فى ذهن البشرية كافة تقترن بثوب الراهب .

فانظر يارعاك الله كيف يكشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة التى قد لا يعلمها الرهبان أنفسهم فيقرر أن الرهبانية بدعة ابتدعت وليست من فروض المسيحية .

جاء فى القرطبى نقلا عن بعض رجال العلم الذى نقل عنهم « والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم اياها (**اى الرهبانية**) فغيروا وابتدعوا فيها » .

ولعل هذا يدلك على أن بعض علماء المسلمين بالرغم من علمهم الواسع لم يتصوروا أن يكون المسيحيون قد ابتدعوا الرهبانية ابتداعا اى انشأوا فكرتها ونظمها فحاولوا أن يفسروا الابتداع بالتغيير ، ولولا أن القرآن الكريم كان حاسما وواضحا فى الاية الكريمة التالية ((**ما كتبناها عليهم**)) اقول لولا هذا النص لانساق جمهرة المفسرين حول تأويل الابتداع الى معنى التغيير أشهد أن القرآن تنزيل من رب العالمين بالدليل والبرهان فما كان لسيدنا محمد العربى الامين العائش فى صحراء العرب الوثنية فى أيامه أن يعلم أن الرهبانية ليست من أصول المسيحية حيث تدل سيرته على انه فى صباه وفى شبابه لم يسمع عن المسيحية الا من بحيرا الراهب ونسطور الراهب وأحسب أن هذين الراهبين الجليلين لم يقولا لهذا الفتى القرشى أن ما هما عليه ليس من المسيحية ، فلتخرص الالسنة الملحدة فها هى الايات تترى على انه يستحيل على أى انسان مهما كان شأنه أن ينطق بالحقائق الكونية ، سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو تاريخية وهوما نحاول دائما أن نسلح به الشباب ليقاوموا ريح الالحاد التى أصبحت تناوشهم ، وليس يغذى هذه الريح ويقويها سوى الجهل ورمى الكلام على عواهنه بغير حجة أو برهان شأن مشركى قريش من أقدم العصور .

لا رهبانية فى الاسلام :

والرهبانية بمعنى اعتزال المجتمع وفرض ضروب قاسية على النفس من الحرمان والمشاق ليس من الاسلام فى شيء ذلك أن الأديان فى جوهرها انما جاءت لاصلاح البشر لا اعتزالهم ، أى ان الدين للحياة .

جاء فى مسند أحمد بن حنبل من حديث ابى امامة الباهلى رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية من سراياه فقال : مر رجل بغار فيه ماء فحدث نفسه أن يقيم فى هذا الغار : (وذهب يستشير النبى صلى الله عليه وسلم) فقال له النبى ، انى لم أبعث باليهودية أو النصرانية ، وانما بعثت بالحنيفية السمحاء والذى نفس محمد بيده لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ومقام احدكم فى الصف الاول خير من صلاته ستين سنة(١) .

وسنعود لهذا الموضوع بتفصيل أوسع فى مناسبات قادمة .

ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون . ونعود الى حديث الرهبانية عند المسيحيين حيث يسجل القرآن لمن ابتدعوها هذا النظام القصد الطيب والنية الحسنة فهم قد فعلوا مافعلوا (**ابتغاء رضوان الله**) أى ارضاء الله عز وجل والتقرب منه ، ولكن الذى حدث بالفعل أن القلة من هؤلاء الرهبان هم الذين وفوا لله ما عاهدوه عليه حيث انحرفت الأغلبية وكادوا يمرقون من الدين جملة ومرة أخرى يجب أن تطالع مئات الكتب وعشرات الالوف من الصفحات عما شاب الأديرة والرهبنة فى أوروبا فى العصور الوسطى لتخرج بهذه النتيجة التى يسجلها القرآن فى اضاعة الحق ((**فما رعوها حق رعايتها**)) . وينفذ الله وعده فى أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره .

ـ ((**فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**)) أما الذين **انحرفوا فينزل عليهم حكمه بأن ((وكثير منهم فاسقون))** .

ـ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب الا يقدرون على شيء من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

كفلين : أى مثلين أو نصيبين .

لئلا يعلم : اى لكى يعلم : أى ليعلم

---

(١) نقلا عن القرطبى .

وقد اتفقت جمهرة المفسرين على أن « لا » هنا زائدة ، وسياق الآية قد يدل على أن المخاطب بيا أيها الذين آمنوا هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، أى يا من آمنتم بموسى وعيسى آمنوا بسيدنا محمد يؤتكم الله (كفلين) أى نصيبين من الاجر لايمانكم برسولكم (**موسى أو عيسى**) وايمانكم بسيدنا محمد .

ولكن القاعدة العامة أنه متى ذكر « الذين آمنوا » على اطلاقها انصرفت الى المسلمين ، ويفسر البعض « **كفلين** » من رحمته بأنه أجر الدنيا والآخرة ، وقيل ان كفلين أى ضعفين بلسان الحبشة .

(ويجعل لكم نورا تمشون به)

مرة أخرى يشير القرآن الى النور المحسوس الذى يمشى المؤمنون على هديه يوم القيامة ، ومع ذلك فقد قيل : أى بيانا وهدى ، عن مجاهد وقال ابن عباس : هو القرآن ، ونحن عند رأينا (والله أعلم) أن المقصود بكلمة النور التى ترددت كثيرا فى هذه السورة هو الضوء الذى يبدد الظلمات يوم القيامة .

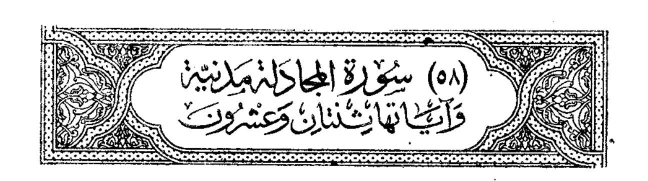
ويغفر لكم والله غفور رحيم :

ودائما ينبه القرآن الى أن مغفرة الله من نعم الله التى يمنحها للمؤمنين « **لئلا يعلم أهل الكتاب الا يقدرون على شىء من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** .

حسد اليهود للنبى :

أشرنا من قبل أكثر من مرة الى أن اليهود كانوا يبشرون قبيل بعثة النبى صلوات الله عليه ، بأنه قد آن الأوان لظهور نبى ، واليهود شأنهم فى كل زمان يأبون الا أن يحتكروا كل شىء لأنفسهم فلما أن ظهر سيدنا محمد من العرب (أولاد اسماعيل) جحدوا وكفروا بسيدنا محمد ، وهذه الآيات تنبه اليهود أنهم لا يقدرون على كل شىء وأن الله عز وجل ليس وقفا كما يزعم على خدمتهم ، فاذا كان قد أختار سيدنا محمد من دون البشر أجمعين فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم .

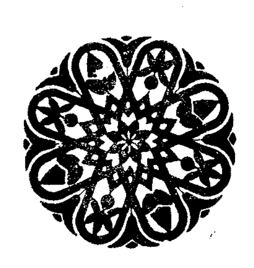




بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾
ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا
مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ
ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ
وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ
ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ
وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ
لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ

فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾
إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ
ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ
مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا
فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾



ســـورة مدنية :

الذى فى المصحف انها مدنية وعليه المعول وعندنا انها سورة مدنية ، بكل خصائص السور المدنية ففيها التشريع الذىنزل بمناسبة حادثة ، معينة حفظ لنا التاريخ اسماء اطرافها على وجه يطمئن اليه كلالاطئنـــان ، والتشريع هو ابطال وانكار ما سار عليه العرب حتى نزول السورة ،وهو ان يقسم الزوج على زوجته : انها أصبحت بالنسبة له كظهر أمه (أى بمثابة**أمه**) .

وفيها حديث عن المجتمع وما فيه منيهود **ومنافقين** ، وعن مكايدهم ودسائسهم، وأخيرا فيها حديث عن الناسخ والمنسوخ ، وهو ما تختص به السور المدنية .

وقد سميت بسورة المجادلة لانها كما سنرى ستدور فى مطلعهـــا حول امراة راحت تجادل الرسول وســـوف نرى انالقرآن الكريم قد انحاز لوجهة نظرها ونزل بانصافها .

قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير .

الجدل : هو الخصام الشديد فى الراىولكنه هنا يجب ان يفسر بما فسرته به نفس الاية من أنه « الحوار » الذى كانت المراةفيه تراجع رسول الله .

من هى المجادلة وما هو موضوع الجدل ؟

يستخلص من جملة الأحاديث التى وردت عن سبب نزول هذه الاية وعلـــى رأسها حديث البخـــارى الذى وان كانمختصرا الا انه لا يختلف مع أكثرها تفصيلا:

نزلت الآية **فى (خولة بنت ثعلبة)**كانت تحت أوس بن الصامت **(أى زوجته)** وكانت حسنة الجسم وكان به لم ، فأرادهافأبت فقال لها أنت على كظهر أمى ، ثم ندم على ما قال ، وكان الظهار والايلاءمن طلاق أهل الجاهلية فقال لها ما اظنك الا قد حرمت على ، فقالت والله ما ذاك طلاق ، وأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة رضى الله عنها تغســـلشق رأسه فقالت : يا رسول الله ان زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة غنيةذات مال وأهل حتى اذا أكل مالى وأفنى شبابى وتفرق أهلى وكبر سنى ظاهرنىوقد ندم فهل من شىء يجمعنى واياه تنعشنى به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(حرمت عليه) فقالت يا رســـول الله : والذى أنزل عليك الكتاب ، ما ذكر طلاقاوأنه أبو ولدى وأحب الناس الى ، فقـــال رسول الله (حرمت عليه) فقالت أشـــكوالى الله فاقتى ووحدتى ، قد طالت صحبتى ونفضت له بطنى فقال رسول الله : **(ماأراك الا قد حرمت عليـــه ، ولم أومر فى شانك بشىء)** فجعلت تراجع رسول اللهصلى الله عليه وسلم وكلما قال لها رسول

الله (حرمت عليه) هتفت ، أشكو الى اللهفاقتى وشدة حالى ، وأن لى صبية صغارا أن ضممتهم اليه ضاعوا ، وان ضممتهمالى جاعوا ، وجعلت ترفع راســها الى السماء وتقول : اللهم انى اشكو اليك ،اللهم أنزل على لسان نبيك فرجى ، وكان هذا أول ظهار فى الاسلام ، وقامت السيدةعائشة تغسل شق راسه الاخر ، فقالت : انظر فى أمرى جعلنى الله فداك يا نبىالله ، فقالت عائشة : اقصرى حديثـك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله قدتغير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى اخذه مثـلالسبات ، فلما قضى الوحى قال لها : ادع زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله **(قدسمع الله قول التى تجادلك ... الايات)**

قالت عائشة : تبارك الذى وســعسمعه الأصوات كلها ، ان المراة لتحاور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فىناحية البيت أسمع بعض كلامها ، ويخفى على بعضه ، اذ أنزل الله **(قد سمع ...**الايات) .

ملاحظات :

والحديث كما ترى واضح لا يحتاجالى توضيح ، ولكننا لا نستطيع الا أن نقف أمامه طويلا وطويلا جدا لنستفيد بما فيهمن عبر وعظات ، كلها تنطق بقدسـية القرآن وبأنه تنزيل من رب العالمين ، وانسيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، هو سيد المرسلين ، فها هى امراة يبين منقصتها انها واحدة من عامة الناس وفى زمن كانت العرب فيه لا تكاد تعد المراة فىعداد الأدميين الا بصعوبة ، وفى زمن أصبح فيه رســول الله مشتبكا فى حــرب معالمشركين ، أى انه كان فى حاجة لسواعد الرجال ، فى هذا الوقت بالذات يحفــلالقرآن هذا الاحتفال بهذه المراة العادية حتى ليسجل واقعتها مع رســول الله ،ويستجيب لشكاتها بما ينصفها ، ويزيل أسباب شكواها وليس وراء ذلك تكريماللمراة واحتفالا بشأنها كأروع ما شـــهدت المجتمعات فى القديم .

تنزيل من رب العالمين :

وفى هذا الحديث تسجيل للفارق الواضح بين سيدنا محمد الحاكم والقاضى الذى يحكم بالعرف والتقاليد عندما لا يكون أمامهنص ، ثم سيدنا محمد الرسول عندما يهبط عليه الوحى بما يخالف حكمه ، فلا يستطيعوهو الصادق الامين الا ان يشجب رايه الخاص ، ويحكم بما أنزل الله فلم يترددسيدنا محمد فى أن يقول للمراة بعد أن عرضت قضيتها (**لقد حرمت عليه**) ذلكان عرف الجماعة وما سارت عليه حتى هذه اللحظة ، هو أن تصبح المراة طالقا بمجردأن يقول لها زوجها : أنت على كظهر أمى ، وسيدنا محمد الذى لم يكن يشرع من تلقاءنفسه **(كما يزعم المتخرصون)** توقف عن أن يقضى بغير ما جرى عليه العرف فلم يكنلديه نص من رب العالمين ، ولذلك فمـا فتىء يكرر قوله للمراة **((ما أراك الا حرمتعليه ، ولم أومر فى شأنك بشىء))** .

أرأيت الامانة والدقة ؟ وينزل الوحى مخالفا لراى سيدنا محمد ومنددا بالتصرف ومغلظا القول على من اقدم عليه ، ومرة أخـرى تتجلى أمانة سـيدنا محمد على الوحى ، فينطق بما نزل عليه مهما تعارض مع قوله وما جرى عليه العرف والتقليد اشهد ان القرآن حق من حق وأنه تنزيل من رب العالمين .

سيدنا عمر بن الخطاب يدلنا على المرأة :

وما أروع أن تظل هذه المرأة التى نزل فيها القرآن يسجل جدلها مع رسول الله ، أى مراجعتها اياه وحوارها معه وان الله استجاب لشكاتها ، أقول ما أروع أن تظل هذه المرأة على قيد الحياة حتى زمن سيدنا عمر بن الخطاب بعد أن أصبح أميرا للمؤمنين وسيدا لدنيا هذا الزمان فيحفظ لها حقها ومقامها ، واليك حديث ذلك كما ورد فى كتب التفسير : لقيت امرأة عمر يقال لها خولة بنت ثعلبة وهو يسير مـع الناس فاستوقفته فوقف لها ودنا منهـا وأصغى اليها ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها (أى انهت) وانصرفت ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنـين حبست رجالات قريش على هذه العجوز ، قال ويحك ، أفتدرى من هذه « قال ، لا ، قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عنى الى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضى حاجتها ، الا أن تحضر صلاة فاصليها ثم أرجع اليها حتى تقضى حاجتها » .

(والله سميع بصير) صفتان من صفات الله الأزلية التى تليق بقدرته وعلمـه وأحاطته بكل ما دق وخفى ، يعلم السر وأخفى ، عليم بذات الصدور .

الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم أن أمهاتهم الا اللائى ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا وان الله لعفو غفور .

يظاهرون : من الظهـار وهو أن يقول الرجل لامرأته انت على كظهر أمى فتصبح محرمة عليه لا يجوز له الاقتراب منهـا ، وهو ضرب من ضروب الطلاق فى الجاهلية ، وقد ألغاه الاسـلام ، بل وأنكره فى هذه الآية التى نحن بصددها **(منكرا من القول وزورا)** أى فظيعا من القول فى الشرع وفى العقل ، وكذبا باطلا يخـالف الواقع **(أن أمهـاتهم الا اللائى ولدنهم)** فالام هى الام التى حملت الانسان فى بطنهـا ثم ولدته وارضعته وربته وكبرته ، اما الزوجة فهى الزوجة شريكة الانسان ، وما كان لـكلمة هوجاء رعناء أن تغير الطبيعة البشريـة ، وان تحول الزوجـة الى أم وقد وصـف القرآن هذه المقولة بأنها منكر من القـول وزور ، وعلى ذلك لا نرى داعيـا لنقل بعض ما جاء فى كتب التفسـير القديمة عن أحكام الظهار الفقهية .

وان الله لعفو غفور :

وما أروع وأجل القرآن الكريم ، وهو يعلن هنا العفو والغفران بعد أن وصف فعلة الظهار بأنها زور وباطل وكذب وبهتان ، ذلك ان القرآن جاء يؤصل للبشرية حجر

الزاوية فى أمن الجماعة واستقرارهاوالسبيل الى خيرها وازدهارها وهم ما لم تعرفه المجتمعات الحديثة المتحضرة جدا ،الا منذ قرنين من الزمان فقط ، الا وهى قاعدة لا جريمة ولا عقوبة الا بنص ، ولاعقاب الا على الأعمال اللاحقة لصدور القانون .

فأى ظلم أن يمارس الناس ما اعتادوا أن يمارسوه باعتباره عملا مباحا أو حقا من حقوقهم ، أو تقليدا من تقاليدهم ، ثميفاجأون ذات صباح بأنهم ارتكبوا أمرا أذى وجريمة يعاقبون عليها ، هذا هو الظلم اشنع الظلم وما تفشى فى جماعة تحت أى اسم من الأسماء الا وترديت فى الهاويةولذلك حرصت كل الدساتير والنظم الحديثة على الاستمساك بهذه القاعدةالذهبية لا جريمة ولا عقوبة الا بنص ، ولا عقاب الا على الأفعال اللاحقة على صدور القانون ، انظر الى هذه القاعدة كيف يؤصلها القرآن منذ أربعة عشر قرنا ، وهويعلن بعد أن أنكر عملا من الأعمال واعتبره زورا ، ثم يشفع ذلك على الفور بأن الله عفو غفور ، بالنسبة لما ارتكب قبل نزول هذا التشريع فلا عقاب عليه .

والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب اليم .

قيمة الكلمة :

حرص القرآن الكريم على أن يعطى أى كلمة تخرج من فم الانسان كل قيمتها وقوتها ، وقد رأيناه فى سورة الصف يطالب المؤمنين أن تكون أعمالهم مطابقة لأقوالهم .

«كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» .

والقرآن هنا فى هذه الآية التى نحن بصددها يعطينا درسا فى قوة الكلمة فانها تحدث أثرا فى جميع الاحوال ، فالقرآن قد أبطل الظهار وأنكره ، واعتبر النطق به كذبا وزورا ، وأعلن العفو عمن ارتكب هذه الخطيئة قبل نزول هذا التحريم ، ومع ذلك فالكلمة تزال قائمة ، كلمة الرجل لزوجته **(انت على كظهر أمى)** .

القرآن بعد أن يصف هذه الكلمة بأنها منكر وزور ، ولكنها لا تزال قائمة ، ومن يحتم التكفير حتى يبطل مفعولها ، وقد قلنا من قبل ان التكفير يجعل الشىء كأن لم يكن وقد جعل التكفير فى حلة الظهار عتق رقبة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، وهذه الكفارة يجب أن تتم بهذا الترتيب ولاتنتقل من حالة الى حالة الا عند تعذر الحالة الأولى وذلك بصريح النص **(فمن لم يجد) (فمن لم يستطع)** .

ثم يعودون لما قالوا

سياق الآية وتدفق معانى الكلمات تنطق بأن الكفارة واجبة على هذا الذى نطق بعبارة (الظهار) وقد أصبح محتما عليه بنص القرآن أن يعدل عن هذا القول الزور ولكن القرآن فرض عليه قبل أن يعود لمعاشرة زوجته معاشرة الأزواج **(من قبل ان يتماسا)** أن يكفر عن قوله بتحرير رقبة فمن لم يجد فصيام شهرين ، فمن لم يستطع ، فاطعام ستين مسكينا ، هذا هو منطق الآيات والمتبادر للذهن عند قراءتها ، ولكن جماعة ممن سموهم أهل الظاهر ، قالوا ان معنى **((ثم يعودون لما قالوا))** أى يعودون لتكرار النطق بالظهار ، فهؤلاء العائدون ، هم الذين تجب عليهم الكفارة ، ولكن هذا القول ساقط باجماع أئمة الفقه الأربعة وغيرهم وقد تعرض الفقهاء كما هو شأنهم وهو عملهم الى كل أحكام الظهار كما قدمنا وتعرضوا بالشرح لانواع الكفارات ، وحدود وضوابط تحرير الرقبة ثم الصوم واطعام المساكين مما حفل به تفسير القرطبى وابن كثير .

من قبل ان يتماسا :

وقد جرى بحث طويل فى معنى المقصود من عبارة **(من قبل أن يتماسا)** ونحن نؤثر دائما ان لا نخوض فى المباحث الفقهية ، ولذلك نقف عند حدود ما قدمناه انفا من ان الكفارة واجبة : فى مقابل مجرد النطق بالظهار ، وعلى الناطق أن يكفر ، قبل أن يستأنف حياته العادية مع زوجته .

النص ثم السكوت عنه :

بقى ان المطالع للآية يلاحظ انها ذكرت **(من قبل أن يتماسا)** فى حالة تحرير الرقبة ، ثم فى حالة الصوم ثم سكتت عن ذكر العبارة فى حالة اطعام المساكين ، ومن هنا جرى التساؤل هل الحكم مختلف ، ولكن الراى على أن لا خلاف فى الحكم فالكفارات الثلاثة واجبة **(من قبل أن يتماسا)** وذلك مفهوم من أن حذف المعلوم جائز ، فبعد أن ذكرت القاعدة وتكرر ذكرها ، أصبحت مؤكدة وثانيا لانه بلغتنا القانونية المعاصرة (من با بأولى) فاذا كان شرط (حظر المساس) واجب فى حالة الكفارة الأسهل فانه واجب ولا خلاف فى أن اطعام المساكين هو الأسهل حيث ذكره القرآن كبديل لعتق الرقبة ثم صيام شهرين متتابعين .

ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير

وكما هو الشأن الى كل ما يأمر به القرآن او ينهى عنه ، فانما هو (عظة) من الله تعود على الانسان بالخير فى حالة اتباعها والله سبحانه وتعالى عالم بكل ما نفعل .

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم .

وليس كل تشريع جديد ينزل من السماء (كالظهار وكفارته) الا امتحانا جديدا لمعرفة المؤمنين بالله ورسوله ومن هم الذين يتبعون حدود الله ومن هم الكافرون الذين أعد الله لهم العذاب الاليم في الآخرة على وجه التحقيق .

ان الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد الم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم .

كبتوا : اى اذلوا أو لعنوا . أو هلكوا .

يحادون الله : من المحادة اى المخالفة في الحدود او المعاداة والمعنى بعد ذلك واضح ومبين فالذين لا يطيعون أوامر الله ويجتنبون نواهيه عن قصد بعد أن بينت لهم وحددت معالمها فكأنهم يعاندون الله ويتحدونه ولذلك فلن يلبث الله ان يأخذهم بأعمالهم أخذ عزيز مقتدر بأن يعذبهم في الدنيا والأخرة فاذا أمهلهم في الدنيا لحكمة يعرفها هو فهو يعذبهم في الآخرة على كل حال .

يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، احصاه الله ونسوه .

ولقد تحدثنا كثيرا عن البعث وسنعود للتحدث عنه ، ونريد أن نقف قليلا أمام **(أحصاه الله ونسوه)** بمعنى أن كل أعمال الانسان (كل انسان) مذ يولد الى أن يموت مسجلة ، وبالتالى محصاة عليه ليحاسب عليها الانسان حيث يظن انها فنيت وانتهت ونسيت ، فاذا هي محفوظة مسجلة ومحصاة وذلك معنى أصبح يجسده في نفسي كلما رأيت فيلما من أفلام السينما ، مات أبطاله وشبعوا موتا ثم تراهم أمامك في الفيلم يتحركون وينطقون وقد سجل الفيلم أدق خلجاتهم .

ويجب أن نكون دائما على ثقة ان ما قدر عليه الانسان بطاقته المحدودة فخالق الانسان عليه أقدر ، وهو يسمح لنا من حين لآخر بشعاع من قدرته وعلمه ليقربنا ذلك بعض الشيء من تصور علمه اللامتناهي وقدرته المطلقة وعلى ذلك صدق قوله **(والله على كل شيء شهيد) .**

الم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم .

علم الله :

علم الله الذى تتحدث عنه هذه الآية وتنبه الغافلين لبعض مظاهره هو مسألة بديهية بحته وهو أحد مظاهر قدرته فمادام الله هو خالق كل شيء بل ان بقاء أى شيء

كبر أو صغر مادى أو معنوى منوط بارادته فى كل لحظة وما هو دون اللحظة فأصبح لزاما أن يكون محيطا بكل شىء عالما به‌ليجرى فيه قضاؤه متى يريد وكيف يريد .

النجوى ، هى المسارة من السر ويقال‌ان اصلها اللغوى من النجواة أى المرتفع من الأرض ويكون‌المعنى ان‌المتناجين يخلوان‌بسرهما كخلو المرتفع من‌الأرض عما يتصل به من حوله .

احد مظاهر العلم :

واذا كان علم الله بكل شىء مسألةاولية بديهية محققة ، فأعجب لهذا الذى يتصورانه اذا همس القول لصاحبه أوجلسائه أيا كان عددهم ، فان الله لايعلمه، ومن حرص القرآن على تبسيط القضيةحتى يفهمها ابسط البسطاء ومادام القرآن قد نزل عربيا فقد دل ذلك على مخاطبةالناس بما يفهمون ، فقال انه ما اجتمع ثلاثة او اربعة او خمسة او ادنى من ذلك‌او قل من ذلك (اثنين او واحد) الا وكان الله موجود كشخص ثان أوخامس أوسادس‌ومعنى وجوده هنا هو وجود علمه وقدرته ومتى امتلأ الانسان باليقين من هذه‌الحقيقة‌من أن الله معه فى كل مكان **(هو معهم أين ما كانوا)** فان ذلك من شأنه ان يقويه‌فى الشدة والأزمات ويجنبه التردى فى المعاصى والمهلكات روى أن رجلا راودامرأةجميلة عن نفسها فقالت له ان لا مانع عندها شريطة أن يهيىء لها مكانا لا يراهمافيه احد فتصور الرجل ان الأمر قد هان فدبر لها خلوة بعيدة عن الأعين ، ثم قال‌لها : ها نحن قد صرنا وحدنا فقالت له : ولكن الله لا يزال معنا ، فخجل الرجل وعاد الى صوابه ، واعلى درجات العبادة ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه‌يراك .

ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة :

ودائما التذكير بيوم‌القيامة فهو خاتمة‌المطاف وهو غاية كل انسان حيث ينبأ بما عمل ويحاسبه الله على ما قدمت يداه ان‌خيرا فخير وان شرا فشر .

(ان الله بكل شىء عليم) هذا هو ما يجب أن لاينفك الانسان عن تمثله فى كل لحظة وآن .

ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم‌يصلونها فبئس المصير ياأيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان‌ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى اليه تحشرون انما‌النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا الا باذن الله وعلى‌الله فليتوكل المؤمنون .

قيل نزلت الآية الأولى فى اليهـــود ، اذ كان بينهم وبين رسول الله موادعة فكانوا اذا مر بهم الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم راحوا يتهامسون (يتنـــاجون) بينهم حتى يظن المؤمن انهم يتناجون بقتله أو بايذائه على أى وجه من الوجوه ، فكان المؤمن اذا رأى ذلك منهم خشيهم ، فتحاشاهم وربما ترك الطريق ليتجنبهم ، فنهاهم النبى صلوات الله عليه (أى **نهى اليهود** ، وقيل المنافقين عن النجوى **فلم ينتهوا**) واستمروا فى عمليتهم المريبة ، فأنزل الله هذه الآية **(الم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه)** وقيل انها نزلت فى جماعة من المســلمين كانوا يتحدثون فى شأن المسيح الدجال فنهـــاهم الرسول عن ذلك ولكن القـــول الأول هو الأرجح وهو الذى يتفق مع سياق الآيات التى تتحدث عن الاثم والعدوان وعصيان الرسول وهو ما لا يتصور وقوعه الا من اليهود أو المنافقين .

(واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) وهنا يتفق جميع المفسرين على أن المقصود هم اليهود فقد تضـــافرت عدة أحاديث على ان اليهود كانوا يسلمون على سيدنا محمد بكلمات يلوون بها ألسنتهم لتبدو فى ظاهرها أنها السلام المتعارف عليه وهم يبطنون الدعاء على رسول الله فقد روى عن السيدة عائشة قالت : دخل على رسول الله يهود ، فقالوا (السـسام عليك يا أبا القاسم) ، فقالت عائشة وعليكم السام (وفى رواية الصحيح انها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة) .

فقال رسول الله : يا عائشة ان الله لا يحب الفحش والتفحش قالت الا تسمعهم يقولون « السام عليك ، فقال رسول الله : أو سمعت أقول وعليكم فأنزل الله تعالى **« واذا جاءوك حيوك** .. الآية ويقولون فى أنفسهم **(أى اليهود)** لولا يعذبنا الله بمـــا نقول (كان اليهود يقولون فى أنفسهم وهم يعـــاملون سيدنا محمد بهذا الأسلوب ، أنه لو كان نبينا حقا لعذبنا الله على قولنا فى الحال ، ولكن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يكون العقاب فيما بعد **(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير)** .

أدب المجالس :

وشأن القرآن كما هو شـــأنه دائما ان يتخذ من أى حادثة سبيلا لتعليم المـــؤمنين وارشادهم وتأديبهم ، فما دام الحـــديث يدور حول النجوى اى المسارة فى الحديث بين عدة أشخاص فطلب منهم ان يتناجوا فيما بينهم بشىء لا يرضى عنه الله من الاثام والمعاصى وانما يتناجون بالبر والتقوى وكل ما يعود عليهم وعلى ذويهم ومجتمعهم بالخير والنفع **(واتقوا الله الذى اليه تحشرون)** أى تبعثون وتكون هذه المجالس التى لا يدور فيها الحديث الا بالفحش والغيبة والنميمة فضلا عن ارتكاب المنكر فهى منهى عنها بل محظورة . **(انما النجوى من الشـــيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شـــيئا الا باذن الله)** .

يتابع المفسرون تفسيرهم لهذه الآيات على ضوء سبب التنزيل فيذكرون ان المؤمنين كانوا كما قدمنا يوجسون خيفة من تناجى اليهود كلما رأوهم او بعد أن يصف القرآن

النجـوى بالاثم والعـدوان أنها من عمل الشـيطان ، فهو يطمئن المـؤمنين ان لن يصيبهم أى ضرر الا الذى كتبه الله عليهم، فليتوكلوا على الله ولا يخشوا أحـدا من العبـاد .

الأدب الرفيع جدا :

ونحن نضيف الى ماتقدم أن الآيات عامة والارشاد والأدب الالهى هو لنبى الانسانية قاطبة فى كل زمان ومكان ، وقد خلف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الضابط لادب النجوى فضلا عما اشترطه القـرآن أن لا تكون الا فى البر والتقوى ، فقد بين لنا رسول الله كيف تستكمل ذلك وهى ان لا يساء أحد نفسيا بسببها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **اذا كنتم ثلاثة فلايتنـاجى اثنان دون صـاحبهما فان ذلك يحزنه** » وفى رواية مسلم « الا بأذنه فان ذلك يحزن » وعندنا أن هـذا هو الأدب العـالى الرفيع الذى يوم أن يتحـلى به المسلمون يصدق عليهم قول القرآن « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

انشزوا : أى انهضوا للتوسعة أو تلبية لأى خير ونقل الينا أن سـبب نزول هذه الآية على ما رواه قتادة : انهم (أى الجالسون حول رسول الله) اذ رأوا أحدا مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض وقال مقاتل ابن حيان ، انزلت هذه الآية يوم الجمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ فى الصفة وفى المكان ضيق ما وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء أناس من أهل بدر ، وقد سبقهم غيرهم الى مجلس رسول الله فسلموا على رسول الله ورد عليهم السلام ، وظلوا وقوفا فى انتظار أن يفسح القوم لهم ليجلسوا فلم يفسـح لهم أحد ، فشق ذلك على النبى صـلى الله عليه وسلم ، فقال لمن حوله (من غير أهل بدر) قم أنت يا فلان وانت يا فلان » فلم يزل يقيم رجالا بعـدد النفر الوقـوف من البدريين ، فشـق ذلك على من أقيم ،وانتهز المنافقون هذه الفرصة للتقول فقالوا الستم تزعمون أن صاحبكم عادل ، والله ما رأيناه قد عدل فى هذه القضية ، فهؤلاء قوم قد أخذوا مجالسهم بالقـرب من نبيهم حبا فى هذا القرب ، فأقامهم واجلس من أبطأ عنه ، فبلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله رجلا يفسـح لأخيه » فجعل الناس بعد ذلك يقـومون سراعا ليفسحوا لأخوانهم ونزلت هذه الآية وقد جاء فى الصحيحين « لا يقم الرجل لرجل من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا أو توسعوا » هذا هو ما نزل به القرآن وتنطق به نص الآية فمن حـق من سـبق الى مجلس ان يستقر فيه ، ولكن اذا دعـا الداعى للافساح الى وافد جـديد فتعين الافساح لا غضاضة ، بل حتى اذا لزم الأمر للنهوض تلبية لداع من دواع الخير ، فلا

مجال للتردد وفى مثل الحادثة التى نحن بصددها رأى النبى أن يكرم من أكرمه الله **(وهم أهــل بدر)** وندب أقواما بعينهــمليشاركوه هذا التكريم وهو منأعمالالخير والبر فتلبيته واجب وفرض خــاص وانالداعى اليه هو رسول الله .

القيـــام للتعظيم :

والقيام للوافد على سبيل الاحترام والتكريم ، مسألة على ما يقول ابن كثير قد جرى فيها الخلاف بين الفقهاء ، فمن قائللا يجوز الوقوف محتجــا بحديث : ((من أحب أن يتمثل لهالرجال قياما فليتبوأ مقعدهمن النار بينما استند أقوام آخرون الىحديث **((قوموا لسيدكم))** وهو أمر ســـيدنا محمدللمسلمين أن يقفوا لسعد بن معاذ فى بعض المناسبات وعندنا ان لا تعارض بينالحديثينفأحدهما يشير الى رغبة ســـيدنا محمد فى تكريم من يستحق التكريم وهذا من أخصخصائصه والحديث الثانى يتحدث عننفسية الشخص وما قد يستولى عليه من الغرورفيتصور ان من حقه على الناس ان يقفوا له ويزيد الطين بلة أن يحمل الناس علىذلك حملا بقوة بطشه أو سلطانه ، فمثل هذا الشخص مأواه جهنم وساءت مصيراأما أن يقوم شخص لآخر من تلقاء نفسه وبدافع المحبة والاحترام فهذا هو المندوب اليه بنص هذه الآية **((واذا قيل انشـــزوا فانشزوا))** .

مجالس الحرب :

بقى لكى نثبت كل ما قيل من أقوال انهقد روى عن ابن عباس والحسن البصرى وغيرهما أنهم قالوا عن آية **((اذا قيل لكمتفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم))** يعنى فى مجالس الحرب ، ومعنى اذاقيل لكم **((انشزوا فانشزوا))** اى انهضوا للقتال .

يرفع الله الذين آمنـــوا منكم والذينأوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير.

التفاضل بين البشر :

نريد أن نقف طويلا امام هذه الآيةالتى تمس الموضوع الذى يشغل الانسان المعاصر موضوع المساواة والتفاضل بين البشر .

المســـــاواة :

فأما عن المساواة بين البشر فهى حقيقةمؤكدة فكلهم يولدون وكلهم يموتون ، أى أن البداية والنهاية متطابقتـــان ، ومعنىذلك هو التساوى بالنسبة للحياة .

وقد أكدت الشريعة هذه المساواة ،عندما جعلت البشر جميعا مكلفين ، ووعدتهم بدون استثناء بالجزاء والمكافأة والعقاب والثواب . والشعائر الدينية حريصة على اظهار هذه المساواة التامة في صلاة الجماعة وفي منسك الحج بما لا يدع زيادة لمستزيد وهذا ما أصبحت النظم الوضعية تسميه بالمساواة أمام القانون في الحقوق والواجبات ما قرره الدين الاسلامي منذ أربعة عشر قرنا وشاد كل احكامه على هذا المبدأ الراسخ « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ».

التفاضل بين البشر :

ولكن كون البشر متساوين أمام القانون ومن حيث كونهم بشرا فان ذلك لا يعني بحال التساوي من حيث النفع والأفضلية وبالتالي تصنفهم وتقسمهم الى درجات ومراتب وقد وهم بعض الماديين ، فعزوا هذه التفرقة الى النظم الاجتماعية وسوء استغلال الانسان لاخيه الانسان ، وحقا قد يحدث ذلك خللا مؤقتا ولكنه لا يمكن أن يدوم ، أما حقيقة تصنيف البشر ، وارتفاع بعضهم على بعض في الدرجات فهذه مسألة شاءتها حكمة الله لاستمرار الحياة ، فالانسانية في مجموعها تشبه أن تكون جسدا واحدا وهذا الجسد يتألف من ملايين الملايين من الخلايا ، وكلها خلايا حية تولد مع ولادة الانسان وتموت بموته ، ولكن هذه الخلايا تتنوع وتتشكل ما بين خلايا تؤلف العظام وأخرى تؤلف الدم ، ومن خلايا تؤلف المخ وخلايا يتخلص منها الانسان أولا بأول أو من حين لآخر .

وعلى هذا التنوع والتغاير تقوم الحياة البشرية ، وعندما يهضم الطعام في معدة الانسان ويتحول الى دم يسري في أنحاء الجسم لتغذيته فان كل عضو وكل جهاز في الجسم ، بل كل خلية تأخذ نصيبها من الدم حسب أهميتها وفاعليتها والدور الذي تؤديه لحفظ كيان الجسم كله .

وذلك هو شأن المجتمع البشري ، فليس يعني بحال تساوي البشر أمام القانون وأمام الحياة من ناحية كونهم أحياء من الناحية المادية البحتة ، ليس يعني تساويهم من هذه الناحية أنهم متساوون في الفضل والنفع للمجتمع البشري وذلك راجع للتفاوت الخلقي فانسان يولد أبله وانسان يولد ضعيفا وانسان ذكيا وآخر غبيا ، وهكذا وليس هناك من صيحة أكذب من أن النظم الاجتماعية تعطل نمو الفرد ، ففي مختلف العصور والأنظمة وصل الانسان كل انسان الى منتهى ما توصل اليه قدراته وكفاءاته لانه من أجل ذلك خلق ، وحسبك ان تنظر الى العلماء في كل زمان تجد أن كثرتهم الغالبة هي من الفقراء والطبقات التي يسمونها (مطحونة) وكل يوم تطالعنا الصحف ان الذي فاز بالاولوية في هذه الشهادة أو تلك أو الذين حصلوا على أعلى الدرجات ممن كانوا يستذكرون دروسهم (على لمبة جاز) أو على ضوء مصباح الشارع ، أو أن لهم جيشا من الأخوة والاخوات يعيشون في حجرة واحدة . ولا يتصور منصف أن ذلك جديد فقد كان الأمر هكذا دائما ، وكل زعماء مصر وقادتها في

القرن العشرين ، كانوا من أبناء الفلاحين وبسطاء الناس لا يشذ عن ذلك أقوى حاكم أخرجته هذه البلاد فى العصور الأخيرة .

غير صحيح اذن أن النظم الاجتماعية تعوق أى انسان عن الوصول الى آخر ما تمكنه منه قدراته . ومتى كانت القدرات متفاوتة ، فقد لزم عن ذلك أن تتفاوت مكانات البشر ومراتبهم فالمتعلم غير الجاهل ، والذكى غير الغبى ، والقوى غير الضعيف والرزين غير الأحمق .

صناعة التجربة :

وقد تصورت بعض المجتمعات أنه يمكن تغيير هذه الصورة فأصبحت العناية الصحية متوفرة لكل طفل مذ يولد ، وأصبح يفرض التعليم فرضا على كل مواطن ومع ذلك فقد ظل المجتمع على صورته فيه الطبيب او المهندس وفيه الفلاح والعامل وسائق التاكسى وجامع القمامة (الكناس) وهكذا يصل كل انسان الى منتهى ما توصله اليه قدراته التى خلق من اجلها ، فهذا عالم يعمل للوصول الى القمر ، وثان يفلح الارض أو يستخرج الفحم من باطن الأرض .

العلم أعظم ما يرفع الانسان :

فاذا كان التفاوت بين أفراد البشر مسألة لا فكاك منها فهى خلقية جبلية ، فلا جدال أن الايمان الصادق والعلم من شأنهما أن يرتفعا بمن يتحلى بواحد منهما أو كليهما الى أعلى عليين ، والحق ان كلا منهما يؤدى حتما الى الآخر فلن تجد مؤمنا الا ويقوده ايمانه الى أقصى درجات العلم المتاح بموضوع ايمانه ولن تجد عالما الا وينتهى به علمه الى الايمان . وقد حق للانسان بايمانه وعلمه أن يزداد فضله وأن يعرف الناس له قدره وهو ما يتم بطريقة تلقائية فيعظم الناس العلماء طواعية واختيارا ، فعند ما جهله بعض من أحاطوا بسيدنا محمد على ما مر بنا فى الحديث السابق نزلت الآية تؤكد سنة الله فى خلقه (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

السر كل السر فى الدرجات :

فمادام التفاوت فى حظوظ البشر ومكانتهم حقيقة أرادها الله ، فمتى نعرف سلامة المجتمع من انحرافه سؤال طالما أجبت عليه بأن كلمة (الدرجات) هى مفتاح الموقف فيجب ان يكون كل فى المجتمع على درجة وأن لا توجد بين الدرجات فجوة ، فعندما نرى مجتمعا يتيح الفرص لانسان ان يحصل على الدكتوراه بينما لا يجد انسان مقعده فى المدرسة الابتدائية فهذا هو انعدام الدرجات وبالتالى الخلل وقد استعمل القرآن كلمة درجات فى أكثر من آية مما سنعود اليه وفى كتابنا « العلم والمال فى الاسلام » بينا

بالتفصيل مدى احتفال القرآن بالعلماء والاعلاء من شأنهم كما هو الحال فى هذه الآية .

(**والله بما تعملون خبير**) أى خبير بمن يستحق ذلك ومن لا يستحقه (**من الفضل والكرامة**) .

يأيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم . أأشفقتم ان تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون .

جاء فى تفسير ابن كثير : **يقول الله تعالى آمرا** عباده المؤمنين اذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يساره فيما بينه وبينه أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكية وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ولهذا قال تعالى (**ذلك خير لكم وأطهر**) ثم قال تعالى (**فان لم تجدوا**) أى الا من عجز عن ذلك لفقره (**فان الله غفور رحيم**) فما أمر بها الا من قدر عليها . ثم قال تعالى (**أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** (**أى اخفتم استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة واتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون**) فنسخ وجوب ذلك عليهم وقد قيل أنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها الا سيدنا على بن ابى طالب قدم دينارا تصدق به ثم ناجى النبى صلى الله عليه وسلم وسأله عن عشر خصال ثم نزلت الرخصة ، وعن سيدنا على أنه قال « آية فى كتاب الله لم يعمل بها أحد من قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى كان عندى دينار فصرفته بعشرة دراهم فكنت اذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى » .

وبهذا المعنى مع اختلاف فى الالفاظ يتفق جميع المفسرين وقد ناقشنا موضوع هذه الآية من ناحية الناسخ والمنسوخ فى كتابنا « الاسلام ورسوله » وأن الايتين قائمتان تعملان واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لحق بالرفيق الأعلى فان المتفق عليه أن ما كان يليق به فى حياته فهو كذلك بعد وفاته . ولذلك فانه من أعظم القربات أن يتصدق زائر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، فمن لم يجد ما يتصدق به (فان الله غفور رحيم) .

الم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا انهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين . لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شىء الا انهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون .

استحوذ : استولى وغلب .

جنة : وقاية .

قوما غضب الله عليهم : واقع الحال هنا يدل على ان المقصود بهم هم اليهود وكان المنافقون يوالونهم على ما بينا ذلك بالتفصيل فى سورتى الحشر والمنافقون وهنا يحكم القرآن أسوأ الحكم على المنافقين ولا يعدهم حتى بين من غضب الله عليهم (اليهود) فالمنافق أشد خطرا من العدو، ومن هنا قال القرآن الكريم (**ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار**) ويصورهم فى هذه الآية التى نحن بصددها وكيف ان سمتهم البارزة هى ان يحلفوا بالله كذبا (**وهم يعلمون**) فما كان لمؤمن صادق الايمان أن يكذب ويزيد على ذلك أن يعزز كذبه بالقسم بالله ، فلا عجب اذا (**أعد الله لهم عذابا شديدا انهم ساء ما كانوا يعملون**) (**اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله**) أى احتموا وراء ايمانهم **الكاذبة قصدوا بذلك بعض من أغتر بهم** عن سبيل الله (**فلهم عذاب مهين**) .

والمنافقون فى كل زمان ومكان لا يكونون من بسطاء الناس ولا فقرائهم أو ضعفائهم وانما يكونون فى الأغلب والأعم ممن يتكالبون على السلطة ويتكاثرون بالمال والبنين ، فهؤلاء يقول الله سبحانه وتعالى (**لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا**) .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

أى أهل النفاق مخلدون فى العذاب.

(يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شىء الا انهم هم الكاذبون) . وهذا لون من ألوان العذاب النفسى اختص به الله عز وجل المنافقين يوم القيامة فيتركهم يمارسون جريمتهم التى اعتادوا ممارستها فى الحياة الدنيا ، بل وامعانا فى تعذيبهم ، يسمح الله لهم أن يتصوروا أنهم نجحوا فى كذبهم (ويحسبون أنهم على شىء) ليكون الصدق عليهم أشد عندما تتضح حقيقتهم فى الكذب والنفاق وهم متلبسون بها .

(استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان الا أن حزب الشيطان هم الخاسرون) .

وما حقيقة المنافقين الا انهم اتباع للشيطان وجند له استولى على عقولهم وأفئدتهم فحولهم عن طريق الله بشتى الطرق وانساهم ذكر الله فاصبحوا بذلك ((**هم الخاسرون**)) .

ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله

ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أوعشيرتهم اولئك كتب فى قلوبهم الايمـــان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى منتحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حـــزبالله هم المفلحون .

يحادون : يشاقون ، ويخالفون .

انتصار الحق دائما :

بعد أن أنذر الله وتوعد من يخرجونعن طاعته وبالتالى طاعة رسوله ، وأنهم سينتهون حتما الى الخسران والبوار أحيانافى الدنيا وفى الآخرة فى جميع الأحوال وهم صائرون الى الذل حتما ، حيث تكونالعزة**دائما** للمؤمنين **أقول بعد أن حـــذر الله** وانذر أعلن ان أحد ســـننه المؤكدة فى هذهالدنيا هو ان ينتصر الحـــق والخـــير على الباطل والشر وهذا هو معنى .

((كتب الله لاغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز)) .

فالله سبحانه وتعالى هو الحق بل لا حق فى الوجود الا هو وقد أرسل رسله بالهدى ودين الحق ، ومن هنا كان لا يمكن الا أن ينتصر الحق والخير والعدل فتلك هى بعض صفات الله عز وجل وقد استخدم القرآن أقوى صيغةللتعبير عنهذهالحقيقة ، وهى انه كتب على نفسه ، فكما **((كتب علىنفسه الرحمة))** فشاءت ارادته أن يكون رحمن رحيم ، **فكذلك** شاءت ارادته أنينصر الحق كما جاء على السنة رسله وآخرهم بطبيعةالحالهو سيدنا محمد وبهذا الايمانمن **ان الله لابد ناصر الحق كما يمثله اتباع** سيد المرسلين فاقت معجزة الدهور كلها ،**وهو ان يتغلب حفنة من العرب لم يكونوا** قبل الاسلام فى العير أو النفير ، وكان كلهمهم **ان يقتل بعضهم بعضا** ، حتى وصـــل **الأمر الى أن أصبحت لهم أشهر حرم وأمكنة**حرم وذلك من رحمة الله بهم ، والا لافنى بعضهم بعضا ، فلما ان استضاءت قلوبهمبنور **الاســـلام كانت معجزة الدهـــور كلها** فانتصروا على أعظم قوتين كانتا تتقاسمان**العالم شرقا وغربا أشبه بما نشهده هذه الأيام** ، **بل وما هو أروع من ذلك كله وهو**أن يتحولوا فى قرنواحد منالزمان منشعب أمى لا يعرف القراءة والكتابة الى أن يكونوا**هم حملة الحضارة فى الدنيا ومشاعلهاوذلك** بفضل القرآن وايمانهم بكل حرف جاء فيهمن مثل **((وكان حقا علينا نصر المؤمنين)) ((ان ينصركم الله فلا غالب لـــكم))** وليسذلك كله الا ترديدا لمـــا جاء فى هذه الآية **((كتب الله لاغلبن انا ورسلى))** فعباد اللهالمؤمنين هم جند الله وحزبـــه الذى يغلب بهم **ومن خلالهم** ، فاذا رأيت أيها المسلمهذه الصـــورة مهـــــزوزة فى أى وقت من الأوقات فحذار أن تتشكك فى عهد الله وما كتبه على نفسه ، ولكن فليكن شكك فى المسلمين أنفسهم وصدق الله العظيم .

((أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيرواما بانفسهم)) .

وما أروع ما يعلمنا الله البيـــانوالفصـــاحة وبلاغة التعبير ، وموسيقى الألفـــاظ ، فحيث يحدثنـــا عن ذل حزب**الشيطان** وعن غلبة الحق يختم الآية بذكر أوصاف الله التى تناسب مجال القول فهو**((القوى العزيز))** .

لا تجد قوما يؤمنون بالله واليـــوم الآخر يوادون من حاد الله ورســـوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخـــوانهم أوعشيرتهم .

تصور هذه الآية الايام العصيبة التيعاشها المؤمنون بعد أن هاجروا الى المدينة واشتد العداء بينمشركيقريش والمسلمينوخاصة بعد موقعة بدر وقتل من قتل فيها من زعماء قريش واقطابها اذ لم يصبح لقريش من عمل بالليل والنهار الا اطفاء هذا النور الجديد بالقضاء على سيدنا محمـــدوصحبه مما وصـــل الى ذروته فى غـــزوة الأحزاب حيث احتشد جيش يقـــدر بعشرةآلاف وهو ما لم تشهده جزيرة العـــرب من قبل فى كل تاريخها ، ولقد مر بنا عرضهذاالموضوع من قبل بمناسبة سورة الممتحنة.

وقد قال سعد بن عزيز وغيره على ما جاء فى آخرها كثير ، ان هذه الآية **(لاتجد قوما .. الى آخرها)** قد نزلت بمناسبة قتل أبى عبيدة بن الجراح لابيه يوم بدر **(ولو كانوا آباءهم)** وأبو بـــكر الصـــديقحين هم بقتل ابنه عبد الرحمن **(أو أبناءهم)** ومصعب بن عمير حين قتل أخاه عبيد بنعمير **(أو اخـــوانهم)** وفى حمـــزة وعلى وعبيدة بن الحارث حين قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة (أو عشـــيرتهم) وهو تصنيف لطيف ، ولكن الآية كشأن كل آيات القرآن وان نزلت بمناسبة فهى تجىء عامة شاملة جاء فى القرآن الكريم :

— قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كســـادها ، ومســـــاكنترضونها أحب اليكم من الله ورسولهوجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره **والله لا يهدى القوم الفاسقين ، صدقالله العظيم .**

نذلك ما نلمسه باليد .

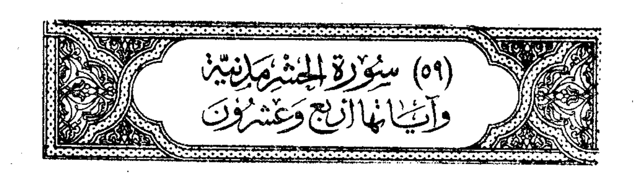
أولئك كتب فى قلوبهم الايمـــان وايدهمبروح منه . نتأييد الله والامداد بروح منه تؤدى الى النصر حتما مشروط بأن يكون حب الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله سبيل الحق والخير والعدل مقـــدم على أى شىءآخر فى الدنيـــا .

ويدخلهم جنات تجـــرى من تحتهـــاالأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله همالمفلحـــون . أى انه علاوة على النصر فى الدنيا ، فان الله يسبغ نعمه على المؤمنينفى الآخرة فيدخلهم فســـيح جناته ويجعل طابع حياتهم الرضا وعلى ذلك فمن يريد أنيتنسم ريح الجنة فعليه بالرضا وهى نعمة نقدها البشر فى العصر المادى الحـــديث ،فأمتلأوا بالقلق الدائم والســـخط ، فلا هم اشبعوا حاجاتهم المادية ولا هم احتفظوابنعمة الرضا .

والمسلمون الصادقون **(أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون)**

وذلك فى مقابلة حزب الشيطان **(الا أن حزب الشيطان هم الخاسرون) .**

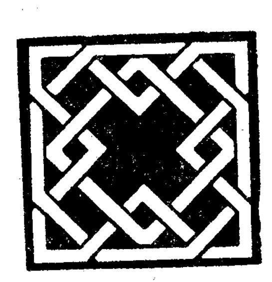
وهذا تقـــرير من الله عز وجـــل ان البشر فى كل زمان ومكان ينقسمون الى قسمين جماعة الشر وهؤلاء هم حـــزب الشـــيطان وجماعة الخـــير وهؤلاء هم حزب الله جعلنا الله واياكم منهم. تم بعون الله وتوفيقه تفســـير ســـورة المجـــادلة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾
وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ
ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن
دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو
مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً
فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ
جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ
النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا
مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)



جزء قد سمع :

بشروعنا فى تفسير سورة ((**الحشر**)) نكون قد دخلنا فى تفسير الجزء الثامن والعشرين **من القرآن والذى يبدأ بسورة المجادلة والذى اشتهر باسم جزء (قد سمع)** واسم **الجزء هو عبارة عن أول جملة يبدأ بها الجزء ، ولما كانت** سورة المجادلة التى يبدأ بها هذا الجزء تبدأ بجملة « قد سمع الله » .. (الآية) فقد أطلق على هذا القسم من القرآن جزء **(قد سمع)** .

ولقد ذكرت فى العدد الماضى بمناسبة تفسير سورة تبارك ، ان طلاب المدارس الابتدائية **فى جيلنا** ، كان **عليهم أن يحفظوا عن ظهر قلب هـذه الثلاثة الأجزاء** من القرآن **(جزء عم ، وجزء تبارك ، وجزء قد سمع)** .

وليس سوى الآن فقط ما فهمت لماذا اجتزىء بهذه **الأجزاء الثلاثة** عن القرآن كله (ثلاثين جزءا) **ذلك** ان القاعدة (**مالا يدرك كله لا يترك جله**) **فما دام أن التعليم** الحديث ، قد أصبح يحتم على الطالب الابتدائى ، **أن يتعلم اللغات والرياضة ومبادىء** العلوم ولما كان ذلك **لا يتيح له** فرصة حفظ القرآن كله ، **كما هو شأن الجيل الذى** سبقنا ، فقد رؤى أن **يحفظ الطالب الابتدائى هذه الثلاثة الأجزاء على الأقل ، وان يتفهمها ، كى يكون بقدرته** بعد ذلك فهم القرآن كله ، **والتلقى عنه** .

ففى الجزءين السابقين ، **(عم ، وتبارك)** كانت السور كما رأينا تدور حول أغراض التوحيد ، **والانذار بيوم القيامة والبعث والنشور والحساب وما يتبعه من** ثواب (الجنة) وعقاب (النار) .

وذلك بالاضافة الى الرد على بعض (مماحكات) المشركين وذكر من سبق من الامم الخوالى وما حل بهم جزاء كفرهم وعنادهم ، وذلك على سبيل الوعظ والتحذير وذلك كله بالاضافة الى الدعوة للتحلى بمكارم الأخلاق ، مما مر بنا خلال السنوات الماضية ونحن نفسر قصار السور المكية التى تضمنت هذه الأغراض ، أما بالنسبة لجزء **(قد سمع)** فان سـوره مدنية ، **(الحشر ، الصف ، المنافقون ، التحريم ، الطلاق وغيرها)** .

والسـورة المدنية تتضمن **الأغراض** السابقة كلها وتزيد عليها **مقتضيات المرحلة الجديدة بعد أن أصبح المسلمون يؤلفون دولة اسلامية وما ينبغى أن تقوم عليه الدولة** من تشريعات **وقوانين وأجهزة للدفاع عن النفس (الجيش) وما أصبح المجتمع الجديد يحتوى عليه من منافقين ، بعد أن أصبحت سلطة الحكم فى يد المسلمين وهذه** الأغراض القرآنية الجديدة سنراها متمثلةأصدق تمثيل فيما سنعرض له من سور هذا الجزء .

وقد اخترنا أن نبدأ بسورة الحشر لانها تنقلنا على الفور الى المجتمع الاسلامى الجديد . مجتمعالمدينة ، بما فيه من صراعمـع اليهود والمنافقين وحرب وقتـال وما يتصل **به من تشريع** .

ســورة مدنية :

وسورة الحشر ، سورة مدنية باتفاق فهى تحدثنا عن غزوة بنى النضير اليهود والتى وقعت على أرجح الأقوال فى العام الرابع للهجـرة ، وهى تصـور بالاجمال ما فصلته كتب السيرة النبوية من أحداث غزوة بنى النضير اليهود عندما اجلاهم رسول الله عن مشارف المدينة كما تتضمن قواعد تقسيم الفىء (الغنائم) مما افاء الله على رسـوله ، ولم يكن ذلك بجهد المسلمين ، وتختم السـورة بما يشبه أن يكون نشيدا ترتل فيه بعض أسـماء الله الحسنى ونرى أن نقدم لتفسير السـورة بنبذة عن علاقة اليهود بسيدنا محمد وكيف تطورت هذه العلاقة .

اليهود يبشرون بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

كانت جزيرة العرب احدى البقاع التى فر اليها اليهـود عقب تخريب هيكلهم . فاستوطنوا بعض أطراف الجزيرة من شمالها وجنوبها ، فكانت يثرب (المدينة المنورة) أحد الأماكن التى استوطنوا فيها وما حولها فأقاموا لأنفسهم المبـانى والحصـون المناسبة للبيئة ، والتى تمكنهم من العيش فى أمان وطمأنينة .

وقد كان اليهود يستطيلون على العرب من حيث كونهم أصحاب كتاب ، وأصحاب صـنائع ، ثم زادوا على ذلك قبيل بعثة النبى ، بأن الله سبحانه وتعالى يوشك أن يبعث نبيا ، يكون اليهود سندا له ويتفوقون تحت ظله على العرب (ولعل هذا يفسر سبق أهل المدينة من العرب فى الايمان بسيدنا محمد لكثرة ما سمعوا من اليهود عن ترب مبعثه) .

وبالرغم من ذلك لم يكد سيدنا محمديبعث بالفعل حتى نكس اليهود على رؤوسهم وجحدوا رسالة سيدنا محمد وذلك على سـبيل الحسـد والخوف على ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وتفوق .

عهد رسول الله :

على أن سيدنا محمدا من جانبه نزولا عند توجيهات القرآن ، فقد أكرم اليهود فى مطلع الدعوة وعندما هاجر الى المدينة عقد معهم حلفا سـوى فيه بينهم وبين المسلمين ، وعاش سيدنا محمد يحسن جوار اليهود ولكن طبيعة اليهود التى اختصوا بها ، وهى كونهم لا يستطيعون الحياة الا من خـلال الفتن والدسـائس ، جعلتهم يحقدون على سيدنا محمد ، لاستطاعته أنيؤلف بين قلوب الاوس والخزرج (الأنصار) وقـد عاش اليهود ما عاشـوا فى المدينة يستثمرون هذه الخلافات والمنازعات ، وكان كل نصر يحققه سيدنا محمد يزيد فى حنقهم وان تظاهروا بغير ذلك كما هو دأبهم ، فاذا أصيب سيدنا محمد بمحنة ، كما حدث فى غزوة أحد ، لم يستطيعوا أن

يكتموا شماتتهم ، وأخيرا جاءت المناسبة التى شرعوا فيها فى الغدر بسيدنا محمد ، بأن يفكروا فى اغتياله ، وكان من المحقق أن ينجح تدبيرهم ، لولا أن حماه الله ، ولندع الآن كتب السيرة المعتمدة أو بالاحرى ابن اسحق ، يقص علينا باقى القصة :

« ثم خرج رسول الله صلى عليه وسلم الى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلهماعمرو بن أمية الضمرى للجوار الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد بهما (وسوف نشرح هذه الواقعة المشهورة فى مناسبة قادمة) .

كما حدثنى يزيد بن رومان وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف ، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم فى دية ذينك القتيلين ، قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا انكم لن تجدوا الرجل (أى سيدنا محمد) على مثل حاله هذه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد الى جنب جدار من بيوتهم ، فهلا من رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جماش بن كعب (وهو أحد يهود بنى النضير) فقال : أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا الى المدينة ، فلما استلبث النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه ، فقال : رأيته (أى سيدنا محمد) داخلا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله حتى انتهوا اليه فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله بالتهيؤ لحرب (اليهود) والسير اليهم .

قال ابن هشام واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، قال ابن اسحاق ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، قال ابن هشام وذلك فى شهر ربيع الأول ، فحاصرهم فيها ست ليال ونزل تحريم الخمر ، قال ابن اسحق فتحصنوا منه فى الحصنون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيه ، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بالك تقطع النخيل وتحرقه ، وقد كان رهط من بنى عوف ابن الخزرج منهم عدو الله عبد الله بن أبى بن سلول ووديعة ومالك بن أبى قوقل وسويد وداعس — قد بعثوا الى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم ، ان قوتلتم قاتلنا معكم ، وان اخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة (أى السلاح) ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على

ظهر بعيره ، فينطلق به ، فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام فكان أشرافهم من سار منهم الى خيبر ، سلام بن أبى‌الحقيق وكنانة بن الربيع ابن أبى حقيق وحيى بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها .

قال ابن اسحق فحدثنى عبد الله بن أبى بكر أنه حدث انهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم وان فيهم لأم عمرو صاحبة عروة بن الورد العبسى وكانت احدى نساء بنى غفار بزهاء (أى بزهو) وفخر ما رؤى مثله من أحد من الناس فى زمانهم ، وخلوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأولين دون الأنصار الا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك ابن خرشة ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يسلم من بنى النضير الا رجلان : يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها ، قال ابن اسحق وقد حدثنى بعض آل يامين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليامين : الم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما هم به من شأنى (أى الغدر برسول الله واغتياله على ما قدمنا) فجعل يامين بن عمير جعلا (أى أجرا) على أن يقتل له عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون .

ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم .

انتهى ماجاء فى سيرة ابن هشام التى هى فى الحقيقة سيرة بن اسحاق ، وقد تواتر ذكر هذه الحوادث التى أدت الى اجلاء بنى النضير ، فوردت بنصها فى كل ماروى عن رسول الله ، مع زيادة كلمة أو عبارة هنا أو هناك ، وبقى جوهر الحادثة التاريخية ثابتا ، ولا عجب فى ذلك فقد سجلها القرآن الكريم وقد سبق أجلاء بنى النضير اجلاء بنى قينقاع ، ثم توالت على يهود بنى قريظة ، ويهود خيبر ، الى أن انتهى الأمر بتطهير جزيرة العرب منهم نهائيا فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب اعمالا لامر رسول الله أن لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان ، والآن نبدأ فى شرح آيات السورة والله المستعان .

سبح لله ما فى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم • هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار • ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار • ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب •

لأول الحشر : الحشر لغة « الجمع » ولأول الحشر هنا لا يمكن الا أن نفسرها على ضوء ما حدث ، وان عملية جلاء بنى النضير كانت بداية الصراع الحاد بين سيدنا محمد وبين اليهود .

وتفتتح السورة بما أكاد أسمع فيه أصداء التهليل والتكبير بما فتح الله به على سيدنا محمد ، من عزة ونصر . وتعالوا نتلوا سويا مفتتح السورة :

سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم .

وسبح بمعنى نزه أى أن كل من ما فى السموات والأرض يمجد الله ويعظمه ويحمده على هذا النصر المبين الذى راحت تفصله الآيات التالية :

هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم .

وهكذا بدا الحديث عن القصة التى نقلناها عن كتب السيرة وهى اجلاء بنى النضير .

الذين كفروا من أهل الكتاب .

والاسلام لا يعادى أهل الكتاب ، بل هو على العكس من ذلك يتعاطف معهم ويوصى بهم خيرا ، ولقد رأينا فيما عرضناه من وقائع سبقت اجلاء بنى النضير ، كيف تعاهد معهم رسول الله وسوى بينهم وبين المسلمين فأبوا الا أن يغدروا بسيدنا محمد ، وان يؤلبوا القبائل على حربه ، ويهود المدينة لم يجلوا عنها باعتبارهم أهل كتاب ، بل لانهم كفروا أولا ، وتصدوا لحرب سيدنا محمد للتخلص منه ومن دعوته ثانيا .

فأما كونهم كفروا فذلك ثابت من تحالفهم مع كفار قريش عبدة الأوثان والأصنام واقرارهم لمشركى قريش ان آلهتهم ، (أى آلهة قريش) هبل واللات والعزى ... الخ أفضل من اله سيدنا محمد ، مع صريح القرآن الذى كان يتلى ويتردد ويدعو اليه ، ان الهه الواحد الأحد هو رب موسى وهارون وابراهيم من قبلهما ، فما جاء به سيدنا محمد هو مصداق لما بين يدى اليهود فجحودهم به وانحيازهم الى أعداء سيدنا محمد من عبدة الأوثان هو كفر صريح ، فاذا ما زادوا على ذلك ، ان تحولوا الى خطر داهم يهدد سيدنا محمدا ورسالته بالقضاء عليهما ، فقد بات لا مناص من حماية الدعوة من خطرهم ، وهذا هو ماتم بعون الله وبفضله .

ومن هنا حرص القرآن الكريم على أن يخصصهم فوصفهم بأنهم « **الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله** » .

تظهر لنا هذه الآية مدى ما كان عليه اليهود من قوة ومنعة بحيث أنه ما كان يدور بخيال العرب أنه من الممكن التغلب عليهم ، فضلا عن اجلائهم عن بيوتهم

وارضهم ، فاليهود شأنهم فى كل زمان ومكان يتخذون آخر مبتكرات السلاح ووسائل الدفاع ، وتحدثنا كتب السيرة عن صنوف الأسلحة التى خلفوها وراءهم والتى كانت من نصيب رسول الله ، فالآية صريحة ، فى ان اصحاب رسول الله ، لم يتصوروا انه بالامكان التغلب عليهم مع انهم هم (اى أصحاب رسول الله) الذين انتصروا على أبطال قريش فى (بدر) .

وظنوا انهم مانعتهم حصونهم :

واذا كان العرب لم يتصوروا امكان التغلب عليهم فعلينا أن نتصور ظن اليهود بأنفسهم ، وأن أحدا لا يجرؤ على المساس بهم ، وعندما يحدثنا القرآن عن **((حصونهم))** فعلينا أن نستحضر صورة ما كان عليه اليهود من منعة ، فحيث يقيم الاعراب فى بيوت من الشعر وأمثاله (الخيام) ، وحيث يقيم أهل الحضر فى بيوت من اللبن (الطوب النى) فقد اقام هؤلاء حصونا ، ومن شاهد منطقة المدينة يعرف أنها منطقة بركانية حيث تتوفر أحجار الجرانيت السوداء ، فلابد أن يكون اليهود قد شادوا حصونهم من هذه الأحجار الفولاذية ، وفى وقت كانت فيه الأسلحة لا تعدو أن تكون السيف والرمح ، فعلينا أن نتصور ما الذى كان يستطيع السيف أن يفعله فى جدران هذه الحصون الا أن تتكسر ، فلم يبق الا التصور بمحاصرتهم ، فاذا علمنا أن هذه الحصون كانت مزودة بالآبار والعيون ، وهى كل ما يحتاجه الناس للحياة فى تلك الأيام فضلا عن أن الأقوات والأرزاق متوفرة ومخزونة كما هو المتبع استطعنا أن نتصور أنه كان فى قدرة بنى النضير أن يصبروا على الحصار سنوات اذا لزم الأمر ، ولم يكونوا فى حاجة لهذا الصبر الطويل .

فقد كان اخوانهم اليهود (بنو قريظة وخيبر) سيهبون لنجدتهم ، بل ان عرب المدينة من المنافقين وعدوهم بالوقوف الى جوارهم ، كما سوف نرى ، بل ان كل كفار الجزيرة كانوا سيهبون لنجدتهم ، ولكن مشيئة الله أبت الا نصر نبيه على كل هذه المخاطر .

فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب :

وهذا هو موطن الاعجاز وآية صدق سيدنا محمد ، وان الله سبحانه وتعالى كان يؤيده وينصره فحيث كان العرب جميعا يرهبون اليهود ويسمونهم (أهل الحلقة) اى أهل السلاح ، بل وقد بلغ الغرور باليهود انهم سخروا من انتصارات سيدنا محمد حتى ذلك الوقت بفكرة أنه لم يواجه مقاتلين حقيقيين وانهم هم أساتذة القتال وأساطينه، فكانت نقطة العجب التى رجت الجزيرة العربية رجا ، انه فى أول مواجهة عسكرية بين سيدنا محمد واليهود فاذا بهم يتخاذلون ، وتنهار قواهم فيستسلمون فى ذل ومهانة ويرضوا بالخروج من حصونهم ، وتسليم أسلحتهم والجلاء عن بيوتهم وأراضيهم ، وذلك كله فى مقابل حقن دمائهم ، وما كان سيدنا محمدا بالذى يرغب فى أكثر من أن يأمن غدرهم ، فأجابهم لما طلبوا وهكذا تحققت المعجزة .

ولا يعجبنا من المفسرين القدامى محاولتهم معرفة السبب الذى أدى الى انهيار معنوية اليهود ، فيقولون هو مقتل كعب بن الأشرف أحد زعمائهم قبيل هذه المواجهة ، ويقولون بل هو قطع نخيلهم ، مع أن ذلك من شأنه أن يحنقهم أكثر وأكثر ويزيدهم عنادا وتشبثا والقرآن يصف اليهود بالعناد أو بلغة التوراة (شــعب صلب الرقبة) فمصرع كعب بن الأشرف ، وتقطيع نخيلهم ، كان قمينا أن يزيد فى عنادهم .

ولذلك فنحن نقف عند حد نص القرآن ، بأن ما حدث كان معجــزة الهية ، والمعجزات لا تفسر . ((**فأتاهم الله من حيث لم يحتســبوا وقذف فى قلوبهــم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار**)) .

وختام الآية من دعوة أولى الأبصار ، أى العقلاء الى الاعتبار والعظة مما حدث ، هو تدعيم وجهة نظرنا الى عدم جدوى تعليل ما أصاب يهود بنى النضير من خذلان وانه هذا الشيء أو ذاك وانما هو قضاء الهى ، قضى على اليهود بما قضى ، حتى لقد كانوا الذين راحوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، ويرد على الخاطر انهم فعلوا ذلك من فرط غيظهم وحنقهم ، أن ينتفع المؤمنون بهذه البيوت بعد جلائهم عنها .

أما تخريب المؤمنين فذلك هو التتمة التى لابد منها لاتقاء أذى هــذه البيوت المخربة ، وهو ما يفعله جنود المطافى ورجال الانقاذ عندما يخفون لنجدة بيت متداع وشيك الانهيار اذ يصبح لزاما عليهم ، أن يهدموا الأجزاء الواهية والمتداعية ، اتقاء لشر انهيارها المفاجيء ، وهكذا بدأ اليهود ، وأكمل المؤمنون من بعدهم ما وجب أن يزال على سبيل الاحتياط .

ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار .
ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب .

شاقوا الله : أى خالفوه وعاندوه .

وهكذا لقى اليهود جزاء معاندتهم لرسول الله وقد كان من حسن حظ يهود بنى النضير أن الله سبحانه وتعالى قد اكتفى منهم بالجلاء ليكونوا بمثابة انذار لمن بقى من اليهود ، والا فلو لم يجلوا ، لتورطوا فيه من بقى بعدهم ، ولحاقت بهم ضروب أخرى من العذاب الدنيوى ، أما العذاب فى الحياة الثانية فهذا هو ما ينتظرهم على كل حال جزاء وفاقا لحربهم رسول الله ، ومخالفة أوامر الله ونواهيه .

ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين .

اللينة : هى النخيل ، ما قطعتم من لينة ، اى ما قطعتم من نخيل ، ويحــاول البعض أن يستثنى من النخيل المعبر عنه (بلينة) أصنافا معينة من البلح ، بينما يذهب آخرون الى أن هذه الأصناف المستثناه (العجوة) هى اللينة بالذات ، كمــا

يختلفون فى الاشتقاق اللغوى وهل جاءت كلمة (لينة) من الفعل (لان يلين) أم من اللون .

ونحن نكتفى من ذلك كله على ضوء الوقائع الثابتة ، أن رسول الله شرع فى قطع نخيل بنى النضير ، أيا كان نوع البلح الذى ينتجه هذا النخيل وقد كان من ضروب الجهالة التى يعيش فيها العرب فى الجاهلية ، أن يستفظعوا قطع النخل ويعتبروه فسادا فى الأرض وذلك فى الوقت الذى كانوا يعتبرون فيه القتل وازهاق الروح البشرية من أيسر الامور وأهونها حتى ليجعلونه موضع فخارهم ، وعلى ذلك فقد فوجىء بنو النضير بسيدنا محمد يقطع نخيلهم فحاولوا أن ينددوا بذلك على ماقدمنا اذ قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فما بالك تقدم عليه .

وهنا يعلم القرآن اليهود والمسلمين والدنيا قاطبة : أن سيدنا محمدا لم يقدم على ذلك الا باذن الله ، ولما كان استسلام اليهود قد جاء على أثر هذه العملية ، فأنعم به وأكرم من قطع بضع نخلات أدت الى وضع نهاية للحرب وحقن دماء البشر .

قارن ذلك بما تم فى عصرنا الحديث ،حيث كان هناك شعب قد بدأ يتفاوض بالفعل فى التسليم ومع ذلك القيت عليه القنابل الذرية التى أزهقت أرواح مئات الالوف من الأطفال والنساء وكل صنوف الحياة (قنبلتا هيروشيما ونجازاكى) .

وقد قيل فى تبرير هذا العمل اللا انسانى أنه أريد به تقصير أجل الحرب . فهل هناك بعد ذلك ذرة من شك فى أن سيدنا محمدا هو نبى الرحمة حتى فى قتاله ، فأذن له الله فى قطع بعض أشجار (ليخزى الفاسقين) أى لكى يقهرهم ويكمدهم ، وربما كانت هذه الحركة البسيطة هى التى ملأت قلوب اليهود بالرعب فأستسلموا ، أقول ربما ، فهذا هو أقصى ما يمكن أن يسمح لنفسه به ، والا فالأمر كما أسلفنا معجزة الهية ، أجراها الله على يد سيدنا محمد ،والا فقد كان من الممكن كما قدمنا ، أن تزيد اليهود حنقا وحقدا واضرارا على المقاومة والله تعالى أعلم .

وما افاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير . ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله أن الله شديد العقاب .

افاء بمعنى رد وهى هنا بمعنى وهب وأعطى أى ما أنعم الله به على رسوله .

أوجف : من الايجاف وهو التحرك السريع ، يقال وجف الفرس اذا أسرع .

ركاب : الابل .

وكان الرسول صلوات الله عليه عقب غــزوة بدر وانتصــار المســلمين على المشركين ، قد قسم الغنائم التى أحرزها المسلمون الى خمسة أقسام أعطى الذين اشـــتركوا فى القتـــال اربعة أخماس ،واستبقى الخمس تحت تصرفه مالا عاما يوجهه الى مصارف حددتها سورة الانفال،مما سنشرحه بالتفصيل فى حينه .

فلما فتح الله على رسوله فى غزوة بنى النضـــير واســـتولى على بيوتهم ، وحصونهم ، وأراضيهم تصور المسلمون،أنه سيوزع عليهم الأرض ، فنزل القـــرآن يلفت نظرهم الى الفارق بين ما حدث فى،بدر حيث اصطرعوا مع المشركين وجها لوجه وقاتلوا وقتلوا ، واذا كان النصر من عندالله ، فقد تم النصر على أيدى المسلمين وما بذلوا من جهود وصـــدقوا فى القتال،وصبروا ، أما فى غزوة بنى النضير ، فقد تم الأمر على ما قدمنا بطريق الاعجاز الالهى،حيث قذف الله الرعب فى قلوب اليهود ، فاذا بهم يستسلموا ، حيث لم يكن المسلمون،يتوقعون ذلك ، بل لم يكونوا يتصورون أن يستسلم اليهود بدون قتال على الاطلاق فقدتم الأمر بارادة الهية مباشرة **(ولكن الله يسلط رسله على من يشاء)** واللطيف هنا،والذى يجب أن يكون درسا للحكام مهمـــا علا شأنهم ، أن تكون قراراتهم مســـببة،ومنطقية ، فلا يستطيلون بسلطانهم فهذا هو الله سبحانه وتعالى قد منح النصر هدية،منه الى سيدنا محمد ووهبه كل أملاك بنى النضير ومع ذلك فقد شاءت حكمته أن يبين،للناس ما تطمئن له قلوبهم فذكرهم بأنهم ماركبوا خيلا ولا أبلا فى هذه الغزوة وبالتالى،فلم يبذلوا أى جهد أو مخاطرة .

على أن رسول الله لم يستأثر بمـــاحصل عليه لنفسه . بل انه قسمه قسمين، أحدهما وزعه على أشخاص بعينهم ، أما،القسم الثانى فاحتفظ به كمرفق عام ينفق منه على العوزة والمحتاجين ممن عددتهم،الآية الكريمة .

المهاجرون : أما الأفـــراد الذين اختصهم رسول الله بتوزيع بعض الأموال عليهم ، فهم المهاجرون وكان اعطاؤهم قسما،من المال دون الأنصار يحقق غرضين :

الأول : أنه بمثابة تعويض عما فقدوه من أموالهم فى مكة بسبب الهجرة .

الثانى : أن يرفع مشقة اعالتهم عن،الأنصار ذلك أن رسول الله عندما هاجر بمن معه الى المدينة ، آخى بين المهاجرين والأنصار والحق كل مهاجر بزميل من الأنصار يكون مسئولا عن الانفاق عليه ، وقد بلغ،الأمر ببعض الأنصار ان قسم كل ممتلكاته بينه وبين أخيه المهاجر ، فلما أن وضع الله،أموال بنى النضير بين يدى سيدنا محمد خاصة انتهز هذه الفرصة ليحقق الغرضين،السابق ذكرهما .

وفقراء الأنصـــار :

على أن بعض المحتاجين من الأنصار،منهم أبو دجانة السماك بن خرشة ، وسهل ابن حنيف والحارث بن الصمة قد أعطو،نصيبا كذلك .

وقد أسلم رجلان من بنى النضير فاحتفظا بأموالهما .

القطـــاع العـــام :

أما القسم الثانى من الأموال فقد احتفظ به رسول الله فيما يشبه فى أيامنا الحديثة أن يكون قطاعا عاما ، أى فى ملكية المجتمع للانفاق على متطلبات المجتمع ، وقد حددت الآية المصارف الشرعية لهذا الانفاق وهى :

لله ورسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

والانفاق فى سبيل الله مقصود به كل ما يعود على المجتمع الاسلامى بالنفع . وذو القربى هم آل سيدنا محمد الذين احتملوا ما احتملوا لمحض قرابتهم لرسول الله ولم يشأ سيدنا محمد أن يوزع عليهم كما فعل بالنسبة لباقى المهاجرين ملكا خاصا مكتفيا بالانفاق عليهم ما يحول بينهم وبين قبول الصدقة المحظورة عليهم .

وقد تصور آل رسول الله ان ما كان تحت يد سيدنا محمد من أموال يجب أن يؤول اليهم بعد وفاته بالوراثة فأبى خليفته أبو بكر من بعده أن يفعل ذلك استنادا على حديث سمعه من رسول الله وسمعته معه الصحابة بما فيهم آل محمد انفسهم وهو قول رسول الله ، **(نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) .**

فكان أبو بكر رضى الله عنه يجرى على آل رسول الله من النفقة ما اعتاد رسول الله أن يجريه عليهم . اليتامى والمساكين وابن السبيل .

هؤلاء هم بعض الأصناف الذين كان الرسول ينفق عليهم ، واليتيم فى نظام يقوم على الاسرة ، هو القاصر الذى فقد أباه وهو العائل له بحكم الابوة والمسكين هو المحتاج لضرورات الحياة .

وابن السبيل هو ابن عابر سبيل اذ يستطيع أن يلجأ الى بيت مال المسلمين ليحصل منه على ما يعينه فى غربته ، الى أن يعود الى بلده ، أو يستقر فى مجتمعه الجديد .

وهكذا كان الاسلام يشرع للبشرية منذ أربعة عشر قرنا التكافل الاجتماعى بأوسع معانيه .

كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم .

دولة : حكر .

قلنا ان القرآن الكريم قد حرص على أن يبين للناس السر فى اختلاف الحكم فى ما تم عقب غزوة بنى النضير ، من حيث اختصاص رسول الله بكل الغنائم وقد رأينا كيف وزع قسما من هذه الغنائم على المهاجرين وفقراء الانصار ، واستبقى القسم الاكبر ليكون مالا عاما ينفق منه على مصالح المجموع بسد حاجة المحتاجين منهم ، وفى هذه الآية **[كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم] .**

يكشف القرآن عن كراهيته لتكدس المال فى أيدى الأغنياء ، لان معنى ذلك أن يزداد الفقراء فقرا ، وهو مالا يرضاه الاسلام وهنا تتجلى عظمة الاسلام ، وأنه دين الوسط فى كل شيء [وكذلك جعلناكم أمة وسطا] فهو لايكره للناس أن يكونوا أغنياء، ولكنه فى نفس الوقت يعمل على احسان توزيع الثروة بين الناس ، فهو حرب على الربا الذى هو فى حقيقته زيادة الثروة بدون جهد وهو من الناحية الاخرى قد فرض قدرا معينا من مال الغنى ليعطى للفقراء ، وذلك كله حتى يضمن لكافة أفراد المجتمع حدا أدنى لا يهبطون عنه .

وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا

تضع هذه الآية الكريمة أصلا من اصول التشريع الاسلامى ويسهب الفقهاء فى استخلاص المبادىء منها وحسبنا الآن معناها الظاهر بيقين ، فكل ماثبت على وجه القطع أنه أمر من رسول الله فقد وجب اتباعه بلا مناقشة أو تردد . وكل مانهانا عنه فيجب الانتهاء منه وأوامر رسول الله ونواهيه كلها من عند الله ذلك أنه لا ينطق عن الهوى وانما هو وحى يوحى ، على أن كتب الفقه تفرق بين ما أثر عن رسول الله ، وفى درجة وجوبه وفرضيته فليرجع الى كتب الفقه من يريد التفصيل فى أحكام السنة المحمدية ، ولكنا نقرر بمناسبة هذه الآية التى نحن بصددها ان كل ما نقل عن سيدنا محمد بصيغة الأمر أو النهى فقد وجب اتباعه .

واتقوا الله ان الله شديد العقاب

أى أن الله سبحانه وتعالى يحذر مغبة عدم اطاعة رسول الله فى كل ما يقول أو يفعل ويطلب من المؤمنين أن يتقوا الله ، أى يتحاشوا اغضابه بعصيان الرسول ، ويذكرهم بعقاب الله الشديد .

للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون .

تسجل هذه الآية ما فعله رسول الله مما قدمنا الاشارة اليه حيث وزع بعض أموال بنى النضير على المحتاجين من المهاجرين وبين ما اختصوا به من الفضل ، فقد سبقوا الناس طرا فى الايمان بسيدنا محمد ، ولاقوا فى سبيل ذلك من قومهم مالاقوا من صنوف العذاب والاضطهاد ، حتى وصل الأمر الى حد خروجهم من مكة نجاة بدينهم وبأنفسهم ، وما كان أغناهم عن ذلك كله لو لم يؤمنوا برسالة سيدنا محمد ، اذا لظلوا فى بيوتهم وأولادهم وأموالهم معززين مكرمين ، ولكنهم آثروا نصرة الله ورسوله ، وتركوا الأوطان والأهل والمال ، ورأوا العزة كل العزة فى متابعة رسول الله ونصرته ، ولم يعجبنا ما جاء فى تفسير القرطبى وهو ليس الا ترديدا لما جاء فى تفاسير

أخرى من أن معنى [**يبتغون فضلا من الله**]أى غنائم فالمهاجرون الأولون لم يكونوا يتصورون أن سيكون فى انتظارهم الا العنتوالتشريد ويكون معنى [**يبتغون فضلا من الله ورضوانا**] **أى** الثواب ورضاء اللهعنهم ، وقد حق أن يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم الصادقون ، أى الذين صدقواما عاهدوا الله من نصرته ونصرة نبيه .

والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم ، يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علىأنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

تبوءوا : أى استوطنوا .

التبوء : التمكن والاستقرار والمقصود هنا هم الأنصار رضوان الله عليهم .

يؤثرون : من الايثار وهو تقديم الغيرعلى النفس .

خصاصة : الحاجة الماسة .

الشح : البخل .

بعد أن أثنى القرآن على المهاجرينالأوائل ، وبين سبب توزيع بعض أموال بنى النضير عليهم ، أردف ذلك بالثناء علىالأنصار مسجلا ماكانوا عليه من روحعالية فى التضحية والايثار ، فكتب السيرة تحدثنا ، أن سيدنا محمد قبل أن يوزع بعض أموال بنى النضير على المهاجرين للاسبابالتى قدمناها قال له سعد بن معاذ : أعطهم يا رسول الله ما شئت على أن يبقوا علىما هم عليه ، أى فى كفالة الأنصار الذين كانوا ملتزمين باعالتهم كما قدمنا .

ويسجل القرآن للانصار هذه الروحالسامية ، وكيف انهم لم يضيقوا ذرعا بالمهاجرين الذين وفدوا عليهم يقاسمونهمالرزق ، بل على العكس من ذلك أحبوهم وأكرموهم ، وعندما أعطاهم رسول الله ما أعطى ، لم تضق نفوسهم ، ولم يحسدوهم ، وانما قابلوا ذلك بالرضاوالارتياح ومضى القرآن يسجل للانصار ميزتهم الكبرى وهى « الايثار » أى تقديممصلحة الغير على مصلحتهم ، مهما كانت هذه المصلحة هامة وضرورية ، متى كانتمصلحة الغير أكثر أهمية وضرورة ، وتغص كتب التفسير بالقصص التى يقال أنها كانتسبب نزول الآية ، أو التى حدثت بعد ذلك تطبيقا لها ونحن ننقل هنا بعض هذهالوقائع ، ايمانا منا بأن هذه الروح هى أحوج ما نكون اليها ، اذا أردنا أن نستعيدماكنا عليه من عز وسؤدد وقدرة على النصر .

واليك ما جاء فى كتب التفسير منالأحاديث الصحيحة :

جاء رجل الى رسول الله فقال : انىمجهود فأرسل الى بعض نسائه ، فقالت :

والذى بعثك بالحق ما عندى الا ماء ، ثم أرسل الى الاخرى فقالت : مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك .

فقال من يضيف هذه الليلة رحمة الله فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فانطلق الى رحله (استصحب الضيف الى بيته) فقال لامرأته هل عندك شىء ، قالت : لا الا قوت صبيانى ، قال فعلليهم (أى صبريهم) بشىء ، فاذا دخل ضيفنا فاطفئى السراج ، وأريه أنا نأكل ، فاذا أهوى ليأكل فقومى الى السراج حتى تطفئيه ، قال : فقعدوا وأكل الضيف ، فلما أصبح ، غدا على النبى (أى ذهب الى النبى) فقال (النبى صلى الله عليه وسلم للصحابى) قد عجب الله عز وجل من صنيعكما بضيفكما الليلة .

وكان هذا سبب نزول الآية على ماجاء فى الأحاديث ، مع اختلاف فى بعض العبارات .

فى معركة اليرموك :

وقد ظلت هذه هى الروح السائدة بين الصحابة حتى بعد وفاة رسول الله مما مكنهم من هزيمة أعظم جيوش العالم آنذاك ونعنى بهما جيش الفرس والروم ، سجلت لنا كتب التاريخ الحادثة التالية :

قال حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من الماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به ، فقلت : أسقيك فأشار برأسه أن نعم فاذا أنا برجل يقول : آه ، آه فأشار الى ابن عمى أن انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص ، فقلت له : أسقيك ، فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه ، آه ، فأشار هشام أن انطلق اليه ، فجئته فاذا هو قد مات ، فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات ، فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات .

وهذا هو أروع تطبيق للآية فقد مات الثلاثة وكلهم يؤثر رفيقه على نفسه .

وهذه هى روح النصر فى كل زمان ومكان مهما تنوعت الأسلحة وتعقدت ايلكترونية أو غير ايلكترونية ، ذلك ان الأسلحة فى نهاية الأمر يقابل بعضها بعضا ، ويبقى التفوق والغلبة للروح الانسانية ، التى تبلغ أوجها فى هذه الصفة التى وصف بها القرآن الأنصار وهى تحليهم بصفة الايثار أروع الفضائل الانسانية .

وتختم الآية بالحض على فضيلة مستطاعة وهى البذل والعطاء حتى يخرج الانسان بذلك من دائرة الشح والبخل ليصبح من المفلحين أى الناجحين فى الدنيا ، والناجحين فى الآخرة ، فليس هناك ما يرفع من شأن الرجل ويفتح له القلوب بالمحبة ، أعظم من الكرم ، وليس هناك ما يبغض الناس فى الرجل أكثر من أن يكون بخيلا ،

وقد أوعدنا الله وبشرنا ، بأنه من يوق شحنفسه ، اى من استطاع أن يتغلب على الأنانية فى نفسه ويبذل للآخرين بعض ماأنعم الله عليه فأولئك هم المفلحون .

والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنااغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انكرءوف رحيم .

والذين جاءوا من بعدهم .

فسرها البعض على أن المقصود بهمهم التابعون أى الجيل الذى خلف الصحابة، ولكن ذلك تخصيص بغير مخصص ، ولذلكفنحن نرجح قول من قال ان المقصود هم المؤمنون الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وسمة هؤلاء المؤمنين فى كل زمان ومكان ، أن يطلبوا من الله المغفرة لانفسهمولاخوانهم المؤمنين ، سواء المعاصرين منهم ، أو السابقين ، تأكيدا للحقيقةالثابتة من أن المسلمين فى كل زمان ومكان، هم أمة واحدة ((**ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**)) وبالمثل تنتهى هذه الآية باظهار كيف أن الله سبحانه وتعالىبالمؤمنين رءوف رحيم فلا يجب أن يكفوا عن التوسل له بطلب المغفرة لانفسهمولاخوانهم الذين سبقوهم بالايمان ، وأن يطهر قلوبهم وينزع منها كل غل وحسدوالغل هو الحقد ، وأن من أعظم صفات الايمان هو سلامة القلب وطهارته وخلوهمن كل ضغن وحقد وحسد .

ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداابدا وأن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهمولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لانتم أشدرهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

تسجل هذه الآيات ما سبق أن نقلناهعن كتب السيرة من أن عبد الله بن أبى زعيم المنافقين فى المدينة وسوف، نتحدث عنقصته بالتفصيل . اذا شاء الله فى سورة (المنافقون) تقول أرسل عبد الله بن أبى ،الى يهود بنى النضير يستعديهم على سيدنا محمد ويحرضهم على قتاله ويعدهم **(وما يعدهم الشيطان الا غرورا)** بأنه سيقف الى جوارهم فى تحديهم لرسولالله ، فان شاءوا أن يقاتلوا رسول الله ، قاتلوه معهم ، واذا أخرجهم رسول اللهخرجوا معهم ، وقد نكل عبد الله بن أبى فى كل هذه الوعود ، وترك يهود بنى النضيرلمصيرهم وذلك خوفا من المسلمين ، وليس ذلك الا بعض مظاهر الاعجاز الالهى وسوف نحلل بالتفصيل عند شرح سورة (المنافقون) اذا شاء الله ، لماذا كان زعيمالمنافقين يتخاذل كلما جد الجد ، وتسجل الآيات التى نحن بصددها عليه ، انه كاذبفى وعوده وعهوده ، وأنه لن يخرج اذا خرج اليهود ولن يقاتل معهم اذا قوتلوا وحتىلو قاتلوا ليهزمن وليولن الأدبار خوفا ورعبا

من مواطنيهم واتباعهم الذين كانت أغلبيتهم العظمى قد اعتنقت الاسلام فى حق وصدق، وسوف نشرح فى المستقبل لماذا أبقى رسول الله على المنافقين مع علمه بأنهم يكيدون له ، ذلك أن سيدنا محمدا لم يكن مجرد حاكم أو سلطان يبطش بالناس على الظنة والشك ، وانما كان هاديا ومرشدا ،وبحسب أى انسان أن يقول بلسانه أشهد أن اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، لكى يكون آمنا على نفسه وماله .

وقد رأينا كيف أن من أسلم من بنى النضير قد احتفظ بأرضه وأمواله ولو أن بنى النضير أسلموا كلهم لما أجلاهم رسول الله ولاحتفظوا بكل ما فى أيديهم ولكنهم ، لعنهم الله ، استحبوا الكفر على الايمان .

لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم .

القرآن ووصف اليهود :

تمثل هذه الآية أحد مظاهر الاعجاز القرآنى ، اذ ترسم صورة لليهود منذ أربعة عشر قرنا ، تنطبق كل الانطباق على أسلوب اليهود فى الحرب فى كل زمان ومكان وعلى مظهرهم الخادع أنهم على قلب رجل واحد، مع أنهم فى حقيقتهم مختلفون أشد الاختلاف، ولقد كتبت موسوعة فى تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، فكان طبيعيا ، أن يرد فى ثنايا هذا التاريخ ، تاريخ اليهود ، فأشهدانني لم أر شعبا قد نال من نفسه ، كما فعل اليهود بأنفسهم ، فلا يكاد يوجد لهم مجتمع مستقر حتى ينقسموا على أنفسهم ويحاول بعضهم أن يفنى البعض الآخر ، وأكاد أتخيل أن نهاية اسرائيل فى عصرنا الحاضر ستكون على أيدى اليهود أنفسهم **(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أى تظن انهم يد واحدة**، وهم فى حقيقتهم متعادون متباغضون ، وليس سوى اليد الأجنبية التى تحفظ لهم (مؤقتا) هذا المظهر الخداع من أنهم متحدون ، مع أن حقيقتهم بخلاف ذلك .

أما من حيث أسلوبهم فى القتال **(لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر)** فمنذ بدأ اليهود يتسللون الى فلسطين وهم ينشئون الحصون باسم المستعمرات واليهودى يحارب دائما من خلف جدار ، أو ما يسمى فى اللغة العسكرية الحديثة (ساتر) ولا يكاد المقاتل اليهودى يجد نفسه فى العراء بدون هذا (الساتر) حتى يستسلم ، وما عليك الا أن تسمع قصص المحاربين العرب الذين أتيح لهم مواجهة اليهود .

فان بعض المفسرين يقول أن المقصودهم (بنو قريظة) ولكن واقعة بنى قريظة لاحقة على حادثة بنى النضير وليست سابقة ، ويقول بعض آخر أن المقصود هم بنو قنيقاع وهم حى صغير من اليهود أجلاهم سيدنا محمد من سوق المدينة ، ولكن عبارة **((ذاقوا وبال أمرهم))** تشع مايشعر بالمصير السىء والعذاب الداهم وهو ما يصور ما حدث لكفار قريش فى غزوة بدر .

ولهم عذاب أليم :

وأيا كان المقصود بالكفرة من عهدنوح وما تلاه حتى أيامنا هذه فلهم عذاب أليم .

كمثل الشيطان اذ قال للانسان أكفرفلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النارخالدين فيها وذلك جزاء الظالمين .

سياق الكلام واضح فى أنه يشبه ماحدث بين المنافقين واليهود بما يمارسه الشيطان فى كل لحظة مع بنى البشر ، حيثيوســوس للانسان بكل أصنــاف الشرور وعلى رأسها الكفر بطبيعة الحـــال ، ثميتنصل تماما كما فعل المنافقون باليهود اذ وعدوهم بالوقوف الى جوارهم وشد أزرهمفى محاربة سيدنا محمد ، ثم نكلوا فى وعدهم كما قدمنا ، فهم أشبه بالشيطان ومع وضوح هذا المعنى فقد أبى المفسرون القدامى الا أن يحشوا تفسيرهم ببعض القصص الاسرائيلية وخلاصة أقاصيصهم ، أن راهبا عابدا يدعى (برصيصا) فتنه الشيطانبأن أوقعه فى غرام فتاة عذراء أؤتمن عليها ، وتتطور القصة الى حد أن تصور الراهبيسجد للشـــيطان ، وهنا فقط يتبرأ منه الشيطان وكل ذلك لاغناء فيه فالكلام عاميتحقق فى كل زمان ومكان فلامحل لتخصيصه بحادثة معينة حدثت فى بنى اسرائيل ، واللهأعلم اذا كانت قد حدثت بالفعل أو لا .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوالله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ـ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنةأصحاب الجنة هم الفائزون . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشـــية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

كتاب هداية وارشاد :

القرآن كتاب هداية وارشاد ودعوةللايمان بالله وتوحيده والايمـــان بالجنـــة والنار والثواب والعقاب وهذا هو المحوروالهدف من كل ما يذكره القرآن من أحاديث الأمم السابقة ، وقصص الأنبياء ، وأخيراحديث وقائع رسول الله فى جهاده وصراعه مع المشركين ، وذلك فبعد أن سردت الآياتقصة غزوة بنى النضير وما تم فيها ، انتقلت الآيات الى تذكير بنى البشر الى الهدفالرئيسى من كل نشاط يبذله سيدنا محمد ويبذله المؤمنون معـــه ، فيطالبهم بتقوىالله ، ولتنظر كل نفس (أى كل انسان) ماذا قدمت لغدها من صالح الأعمال .

(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) .

أى لا تكونوا أيها المؤمنون كالذيننســوا الله ، أى عند ارتـــكاب الذنوب

والمعاصى ، فأنساهم أنفسهم أى بحسب الانسان أن يغفل عن ذكر الله وعن تمثله حتى يذهل عن نفسه ويقع فى الخطيئة ،وأولئك هم الفاسقون .

وتمضى الآيات لتبين الفرق بين الصالحين والمتقين ، وكيف أنهم أصحاب الجنة ، وبين الكفرة والعصاة والمارقين وكونهم أصحاب النار ، وشتان بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فالأولون هم الفائزون ،وأما الآخرون فهم الخاسرون .

ويضرب القرآن بعد ذلك مثلا فى عظمة القرآن ، وعميق تأثيره بحيث يتأثر به الجماد فلو أنزل على جبل من الصخر لتأثربه ، وامتلأ خوفا من خشية الله ، ويكون مظهر هذا الخوف أن يتصدع الجبل أى يتشقق ، فكيف بالانسان وقد زوده الله بالقلب والمشاعر والعقل والفكر ، الحق أن من يكفر بالله ويجحده ، يكون أدنى وأحقر، لا من البهائم العجماوات بل ودون الجماد نفسه الفاقد لكل احساس .

هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

معاشرة القرآن :

الذين اعتادوا معاشرة القرآن بمعنى أنهم يتخذون من تلاوته آناء الليل وأطراف النهار والذين يطالعونه بالروح كلها سرعان ما يحسون وهم يرتلون بعض الآيات ، كما لو كانت الأرض والسماوات ، والانس والجن والملائكة كلها ترتل معهم فى موسيقى روحية هذه الآيات ، ومن هذا الطراز الآيات من آخر سورة الحشر ، واذا جاز لى أن أتحدث عن تجربتى الشخصية فانى كلما ترنمت بهذه الآيات أحسست كما لو كنت أرتفع عن الأرض ، وبوزنى يخف ،وكما لو كنت أسمع الدنيا كلها تغنى بهذه الآيات التى تردد بعض أسماء الله الحسنى.

هو الله الذى لا اله الا هو

هذا هو التوحيد فى أصفى صوره والذى يمتاز به الاسلام من بين سائر ما عرفت البشرية من أديان وما جعله بحق ختاما حسنا لسائر الأديان فليس وراء التوحيد الالهى فى الاسلام ، زيادة لمستزيد ،وقد تحدثنا بما فيه الكفاية (قدر استطاعتنا) عن التوحيد ، فى تفسيرنا لسورة الاخلاص(قل هو الله أحد) .

عالم الغيب والشهادة

أى عالم السر والعلن ، عالم بالمنظور وغير المنظور ما كان وما هو كائن وماسوف يكون ، وعالم الشهادة بصفة عامة هى هذه الدنيا التى نشهدها وعالم الغيب هو كل ما يتعين علينا نحن المؤمنين أن نؤمن به ابتداء من يوم القيامة وما وراءه .

هو الرحمن الرحيم

تكلمنا عن هذين الاسمين فى تفسيرنالفاتحة الكتاب وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعل وصفه بالرحمة والمبالغة فى الرحمةفى مستهل كل سورة من سور القرآن لتكون سابقة على أى معنى آخر .

الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيزالجبار المتكبر

القدوس ، اى المنزه .

السلام ، وهو المثل الأعلى الذى يتوق له البشر .

ولقد جاء الاســـلام يحمل للبشريةالسلام ، بحيث أصبحت تحية المسلمين فى الدنيا والآخرة هى المناداة بالسلام (وتحيتهمفيها سلام) .

وعندما نرى البشر فى القرن العشرينلا يتحدثون الا عن الســـلام ، ويؤلفون مجالس السلام ويشكلون المنظمات الدوليةللمحافظة على السلام ، استطعنا أن ندرك عظمة الاسلام عندما يجعل المسلم اذا ماقابل أى انسان ابتدره بقوله « الســـلاَم عليكم » .

وحذر المسلم من أن يعتدى على أىانسان بادره بالسلام .

كل هذه بعض المعانى التى يشعهاتسمية الله عز وجل بالسلام

المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر

يقول بعض المفسرين أن المقصود بكلمة **المؤمن** هو معناها الظاهر فالمؤمن هو من يؤمن بالله ووحدانيته وقدرته « شهدالله أنه لا اله الا هو » .

وغنى عن البيان أن الله عز وجلعالم بوحدانيته ، وأزليته وقدرته فهو من هذه الناحية مؤمن بذاته ، مؤمن بكل مايجبعلى المؤمن أن يعرفه من أمر ربه ايمانا يليق بذاته ويتفق وكماله وذاته .

بينما يقول آخرون انه مؤمن من الأمن والأمان ،، فهو يؤمن أولياءه من الخوف.

« وآمنهم من خوف »

أما نحن فنقول أنه اسم ارتضاه اللهلنفسه ، فهو من أسماء الله الحسنى ، نتعبد لله ونتقرب بذكرها وترديدها ، وأن لها معما قبلها ، وما بعدها لحلاوة وموسيقى تنتشى بها الروح .

المهيمن العزيز الجبار المتكبر

كلها أسماء وصفات الله عز وجل تعنى السيطرة والقدرة والعلو والعزة والعظمة بما يليق بجلاله ويهمنا أن نلفت النظر الى أن صفتى الجبروت والكبرياء مكروهتان بالنسبة للبشر باعتبارهما من صفات الالوهية فلا يجوز للبشر أن يتصفا بها ، وهما فى حق الله يعنيان العظمة والعلو والاقتدار .

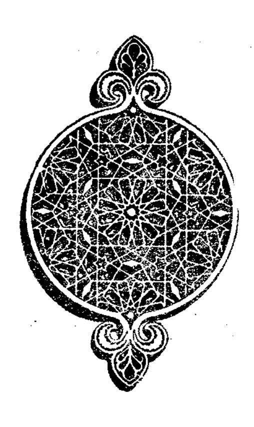
جاء فى الحديث الصحيح : ((**الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فى واحد منهما قصمته ثم قذفته فى النار**)) .

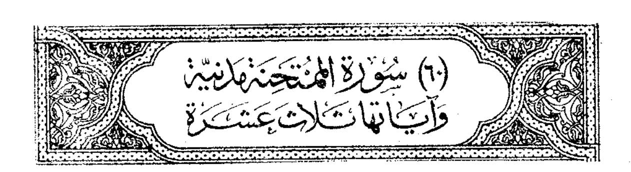
فليتواضع ابن آدم ليتواضع ويدع الجبروت والكبرياء بمعنى العظمة والعلو لله سبحانه وتعالى ، فمهما بالغ الانسان فى علو شأنه فهو لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا ، ومهما امتد به الأجل فمصيره حفرة من التراب ، ونهايته طعاما للدود .

هو الله الخالق البارىء المصور

وهذه بدورها بعض أسماء الله الحسنى وهى تدور حول الخلق والايجاد والابداع ، وتنتهى السورة بما يجب أن لا يبرح ذهن المؤمن ولا قلبه لحظة واحدة وهو أن كل من فى السموات والأرض يسبح بحمده وهو العزيز الحكيم .

تم بعون الله تفسير سورة الحشر





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ
يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم
بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ
لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ
أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ
وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ
رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٥) لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ
فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦) * عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٧) لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ

إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ
وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ
ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ
وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا
وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ
فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾



سورة مدنية :

سورة مدنية بالاجماع ولم يوجد من يشذ عن هذا الاجماع لاى سبب من الاسباب ذلك أنها نزلت بسبب حادثة محددة من وقائع السيرة التى لم يجر اى خلاف حولها بحيث يستطيع الدارس ان يحدد تاريخ نزولها ، فهو يقع على وجه التحديد بعد صلح الحديبية الذى تم بين سيدنا محمد ومشركى قريش فى العام السادس من الهجرة وذلك أن السورة قد اشتملت على بعض أحكام اعتبرت استثناء من هذا الصلح وكما انها وعلى وجه التحقيق لابد أن تكون قد نزلت قبيل شهر رمضان من العام الثامن للهجرة وهو العام الذى فتح فيه رسول الله صلوات الله عليه وسلم مكة فقد تضمنت السورة فى ختامها نص البيعة التى بايع بها رسول الله نساء مكة .

أما لماذا قلنا قبيل رمضان فذلك لأنها تعقب على حادثة لابد أن تكون قد وقعت ورسول الله يتجهز لفتح مكة .

كبوة حاطب بن أبى بلتعة .

وقد ورد وقائع القصة حول أحد الصحابة الذين شهدوا مع الرسول غزوة بدر وهى موقعة الاسلام الفاصلة التى عز الاسلام بعدها وساد وظل نجمه فى صعود، ومن هنا فقد كان للمسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة وضع خاص كما سنرى.

وستكشف لنا الواقعة التى نزلت بمناسبتها هذه الآية عن عبقرية الرسول الحربية كعبقريته فى شتى ميادين الحياة ،فقد كان ولا يزال أهم عامل من عوامل النصر فى الحرب والقتال هو مباغتة العدو وهو ما كان يتبعه سيدنا محمد فكان ان اراد أن يهاجم شمالا اتجه جنوبا ليعمى على الخصم ، ثم يستدير شمالا بعد أن يبعد قليلا نحو الجنوب وكان يحيط حركاته العسكرية بالكتمان الشديد ، وهو ما حاول حاطب بن أبى بلتعه أن يفشيه كما سنرى .

وتبين السورة ما ينبغى أن يكون عليه سلوك المؤمنين حيال أعداء الاسلام، وكيفية التصرف حيال النساء اللواتى اعتنقن دين الاسلام ومدى ارتباطهن بأزواجهن الذين ظلوا على شركهم ، والعكس بالعكس أى حكم النساء اللواتى ظللن على شركهن، وتختتم السورة بنص البيعة التى كان من المتعين على رسول الله أن يبايع بها النساء.

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ».

توجيه الهى وارشاد :

ترشد الآية جماهير المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسالة سيدنا محمد ويغارون على دينه ، أن لا يوالوا الكفار أعداء الاسلام وان لا يعقدوا معهم عهود المودة والصداقة الى أبد الأبدين ذلك أن الكفار الذين لايؤمنون بدين الله ليس لهـــم أمـــان أبدا وكل ما يصبون اليه هو أن ينزعوا الايمان من قلوب المؤمنين ويردونهم كفارا .

ذلك هو التحذير الالهى للمؤمنين فى كل زمان ومكان .

مناسبة التنزيل :

أما مناسبة تنزيل هذه الآية فقد أجمع عليه جميع المفسرين وأصحاب الأحاديث والسير وهو مالا يكاد يتوفر كثيرا ، ولذلك فنحن ننقل رواية البخارى فهى عين ما جاء فى رواية مسلم وسائر المحدثين ، بزيادة كلمة أو حرف هنا وهناك ، ليس له أدنى تأثير على جوهر القصة .

حديث البخارى :

عن سيدنا على رضى الله عنه قال : **بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا والزبير والمقداد فقال ، انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة (اى امرأة مسافرة) معها كتاب فخذوه منها ، فذهبنا (تعدو) بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظعينة ، فقلنا ، اخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى من كتاب ، فقلنا ، لتخرجن الكتاب او لتلقين ثيابك (اى يجردوها من ملابسها) فاخرجته من عقاصها (اى شعر رأسها) فاتينا به النبى صلى الله عليـــه وسلم فاذا فيــه (أى فى الـــكتاب) من حاطب بن أبى بلتعة الى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض امر النبى صلى الله عليه وسلم (وهو تجهزه لغزو مكة) ، فقال النبى ، ما هذا يا حاطب ، قال لاتعجل على يا رسول الله ، انى كنت امرأ من قريش وكان من معك من المهـــاجرين لهم قرابات يحمون بها اهليهم واموالهم بمكة ، فاحببت اذا فاتنى من النســـب فيهم ان اصطنع (اليهم) يدا يحمون قرابتى : ومافعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قد صدقكم ، فقال عمر (ابن الخطاب) دعنى يا رسول الله اضرب عنقه (فقال (اى النبى) أنه شهد بدرا : وما يدريك ، لعل الله عز وجل اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وقال عمرو ونزلت فيه يا أيها الذين آمنوا ...... الآية(١) .**

---

(١) انتهى نص حديث البخارى . والكلمات التى بين الأقواس ليست من نص الحديث .

خيانة عظمى بمقاييس عصرنا :

وهــذا الذى فعــله حاطب بن أبى بلتعة ، ويعتبر فى عصرنا الحاضر خيانة عظمى تعاقب عليها كافة التشريعــات فى مختلف الأنظمة بالاعدام اذ هو افشاء لسر عسكرى خطير ، قد يترتب عليه ، ليس فقط احباط الخطة وبالتالى تعذر النصر ، بل قد يؤدى الى هلاك الجيش ، ومثل هذا العمل كان يعاقب عليه بالاعدام كذلك ، ومن هنا أشار سيدنا عمر على سيدنا محمد بانزال حكم الاعــدام على حاطب ، وهنا تتجلى شخصية الرسول باعتباره نبيا مرشدا ، وليس حاكما متسلطا ، فما دام الله عز وجل بتوفيق من لدنه قد كشف الواقعة فى الوقت المناسب فحال دون وقوع الضرر ، فقد توقف سيدنا محمد عن أن يعاقب الرجل لسابق بلائه فى الاسلام ، ونزل القرآن الكريم يؤيد سيدنا محمدا فى اجتهاده ويتخذمن هذه الحادثة مناسبة لتعليم المؤمنين واجباتهم فى هذه الفترة ، فقد كانوا حتى ذلك الوقت لم يقطعــوا علاقاتهم مع المشركين فكان هذا الذى فعله حاطب بن أبى بلتعة ، وتقول بعض الروايات أنه قال لرسول الله ، أنه كان متأكدا أن الله ناصر سيدنا محمدا على قريش وان تعلقوا بأذيال السماء ، فلم ير كبير ضرر فى تحذيرهم ، ومن هنا نزل القرآن الكريم يحذر من فعل ذلك ، وكعادة القرآن الكريم وهو التربية من خلال الاقتناع ، فقد راح يذكر بما فعله المشركون من ايذاء المسلمين لمجرد ايمانهم بالله الحق وتحليهم بمكارم الأخلاق ، وكيف أخرجوا ســيدنا محمدا وبقية المسلمين من بلادهم وديارهم .

وقد أتى بعض الصحابة فى مناسبات مختلفة بعض الأخطــاء التى ندموا عليها وتابوا وأنابوا (أبو لبابة) والثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، ولكن القرآن نزل مسجلا توبتهم وعفو الله سبحانه وتعالى عنهم ، أما فى حادث حاطب ابن أبى بلتعة ، فلقد نعت القرآن تصرفه بأنه (ضلال عن ســواء السبيل) وان كان لم يسقط صفة الايمان عنه ، اذ أدرجه فى عداد الذين آمنوا وهو ما تبــدأ به الآية **(يا أيها الذين آمنوا) .**

ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير .

يثقفوكم ، أى يظفروا بكم .

يبسطوا اليكم أيديهم : أى يمدوا أيديهم اليكم .

ويمضى القرآن الكريم فى تعليل نهيه عن موالاة الــكفار ، بمعنى مصــادقاتهم ومناصحتهم واتخاذهم أعوانا : ليس فقط من أجل ما فعلوه فى الماضى والا كان الأمر مجرد انتقام وأخذ بالثأر ، وهو ما ينبغى أن يعف عنه المسلمون بطبيعة الحال ، وانما المسألة أن الحرب كانت ما تزال مستمرة وخطر الكفار مايزال قائما ، بحيث لو قدر

لهم أن يظفروا بالمؤمنين، بمعنى أن ينتصرواعليهم ، اذا لا عادوا الكرة ونكلوا بالمؤمنين وحاولوا أن يردوهم كفار .

عذر مرفوض :

ولا عبرة بما قد يسوقه البعض دفاعاعن موالاته للذين كفروا ، بأنه انما يفعل ما يفعل حماية لأولاده أو ذوى قرباه ، فكلذلك لا يدفع عن الانسان يوم القيامة حيث (لاينفع مال ولا بنون) .

وتنتهى الآية بتذكير المؤمنين بما هممؤمنون به من أن الله بكل ما يعملون بصير (يعلم السر وأخفى) .

قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيموالذين معه اذ قالوا لقومهم أنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيهلاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليكالمصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم .لقد كان لكم فيهم اســوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتول فان اللههو الغنى الحميد .

الاسوة : القدوة .

انبنا : أى رجعنا وتبنا .

حديث سيدنا ابراهيم فى القرآن :

حديث سيدنا ابراهيم فى القرآن هوحديث الاســلام كله ؛ فالاسلام هو دين الفطرة ، ودين ابراهيم دين الفطرة كذلك ،والفطرة واحدة ، فالاسلام هو بعث لملة ابراهيم حنيفا ،، والاسلام هو الحنيفيةالسمحة ، أى بعد أن تطهرت من الشوائب التى غشيتها ، وابراهيم هو جـد العرب المستعربة الذين انحدروا من سـيدنا اسماعيل وابنه عدنان ، وابراهيم هو بانى الكعبة والداعى الى منسك الحج ، ومن هنا كان حديث سيدنا ابراهيم لا تكاد تخلوسورة من سور القرآن من الاشارة اليه بالاسم الذى ذكر عشرات المرات ، وستمرقصته بالتفصيل مذ كان صبيا تمرد على عبادة الأوثان حتى وصل به الأمر الى حدتحطيمها ومعاقبة قومه له بالقائه فى النار التى أنجاه منها الله بتحويل النار (برداوسلاما) وسيمر بنا رحلة سيدنا ابراهيم فى البحث عن الله ، ومجابهتـــه للملوكوالجبارين .

والذى يعنينا الآن بصدد سيدنا ابراهيم بمناسبة هذه الآية ، أن الله يرشد جماعة المؤمنين الى الاقتداء بسيدنا ابراهيموصحبه عندما قطعوا كل روابطهم بقومهم

ما بقوا على الشرك وعبادة الأوثان ، حتى ان القرآن ليفسر للمؤمنين ، أنه اذا كان سيدنا ابراهيم قد استغفر لأبيه فقد كان ذلك قبل أن يعلم اصراره على الشرك وعبادة الأوثان وانه لم يفتأ يؤكد لأبيه أنه لا يملك له من الله شيئا اذا ظل على كفره وهو ما يؤكد لنا حرص الله الشديد على أن ينذرنا ويحذرنا أن ليس ينفع الانسان الا ايمانه وعمله فضرب لنا الأمثلة بشتى قرابات الانسان ، وكيف أن أحدا كائنا من كان لا يستطيع أن يشفع لخاطىء فضلا عن كافر (باستثناء سيدنا محمد ، حيث اذن له أن يشفع لفريق من أمته يوم القيامة) .

وعلى ذلك فقد رأينا ابن نوح يموت على كفره ، وهذا هو والد سيدنا ابراهيم ، وزوجة لوط . وعم سيدنا محمد (ابو لهب) .

والمهم ان الآية التى نحن بصددها تطالب المؤمنين بالاقتداء بسيدنا ابراهيم وصحبه فى التبرؤ من المشركين ، وتستثنى من الاقتداء بسيدنا ابراهيم فى استغفاره لأبيه فهى خصوصية لسيدنا ابراهيم ولم يلبث أن عدل عنها . وقد وردت الاشارة الى وعد سيدنا ابراهيم أن يستغفر لأبيه فى سورة مريم .

واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا . اذ قال لأبيه يا ابت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا .يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا. يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا. واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا .

وورد تحلل سيدنا ابراهيم من وعده فى سورة التوبة (آية ١١٤) .

— وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم .

وقد دار خلاف بين المفسرين حول المقصود من (ابراهيم والذين آمنوا معه) أهم فريق من قومه ، أم سائر الأنبياء الذين جاءوا من بعده ، وعندنا أن هذا هو الالحاح على التشقيق والتفريع الذى ولع به البعض فظاهر القول واضح وصريح فى أن القرآن يطلب من المؤمنين الذين التفوا حول سيدنا محمد أن يسلكوا مسلك الذين آمنوا مع سيدنا ابراهيم حيث تبرأوا من قومهم وأعلنوهم بالعداوة والبغضاء الى أن يؤمنوا .

لا تجعلنا فتنة للذين كفروا

وقد دار خلاف حول المقصود بهذاالدعاء ، والمعنى أن المؤمنين يدعون الله أن لا يكونوا سببا فى عـذاب الكافرين وهومعنى بالغ السمو كما ترى ، أن يسـأل المؤمنون الله ، أن لا يكونوا سببا فى عذاب الكافرين .

وقد دار الخلاف حول موجبات هذاالتعذيب فراى يقول : اى لا تظهر الكافرين علينا ، أى تنصرهم فيظنوا أنهم على الحق(فيتورطوا فى كفـرهم) ورأى يقـول : لا تسلطهم علينا فيعذبوننا ، وعندى أن الرأى الأول هو الأرجح .

ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد.

ويعود القرآن فيحذر من الانحراف عن أوامره ونواهيه ، فيذكر انه الغنى الحميد ، أى المستغنى عن الأرض ومن فيها ، والحميد فى نفسه وصفاته ، ولابد ان جماعة المؤمنين قد شقوا كثيرا بهذه الآية التى طالبتهم بالتبرؤ من آلهم وذويهم حتى لقد حظرت عليهم الاستغفار لهم ،فنزلت الآية التالية تخفف من شدة هذه الآية وتعد المؤمنين بأن ذلك ليس الا اجراءمؤقتا استدعته حالة الحرب ولن يلبث أن يسود السلام بانتصار المؤمنين ، (وهوما تحقق بعد فتح مكة الذى كان قد أصبح وشيكا) .

عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم .

هذه هى الآية التى بشرت بقرب وقع النصر وارتفاع الحرج عن المؤمنين لمقاطعتهم اهلهم وذوى قرباهم .

زواج سيدنا محمد بابنة ابى سفيان :

ويذكـر المفسرون كنمـوذج لانقلاب العداوة الى مودة ، حادث زواج رسول الله بأم حبيبة بنت أبى سفيان ، فقد كانت قدرجعت من الحبشة بعد أن مات زوجهـا (عبد الله بن جحش) وكان قد هاجر اليها فيمن هاجر ، فبعد أن رجعت الى المـدينة تزوجها رسول الله وهكذا وجد أبو سفيان نفسه (صهرا) لرسول الله ، فأسقط فى يده وغلب على أمره ، حتى لتروى لنا كتب السيرة أن أبا سفيان عندما بلغه زواج سيدنا محمد لا بنته . انه قال : ذلك الفحل لا يقدع انفه (أى لا يضرب أنفه لانه كريم) .

وقد كانت حركة من أم حبيبة هى التى حطمت آخر حصون العناد فى قلب أبى سفيان ، فقد دخل عليها وكان قد جاء الى المدينة ، ليتفاوض مع رسول الله فى اطالة صلح الحديبية ، فلما دخل على ابنته وكان على الأرض ما يشبه أن يكون (سجادة) فطوتها ابنته حتى لا يجلس عليها ، فلما سألها ابوها عن سبب ذلك ، لم تتردد فى

أن تجابهه بالحقيقة من انه رجـل نجس بسبب كفره ، وعليك أن تتصـور برجل يجابه بابنته فى مثل ذلك الزمان تقول له ما قالت لقد أدرك أبو سفيان أن القضية قد حسمت نهائيا لصالح سيدنا محمد أوبالاحرى لصـالح الدين الجـديد ، دين التوحيد ، فلم يلبث أن دخل فى دين الاسلام،وجيوش المسلمين تطرق ابواب مكة .

لماذا سقنا هذه الحادثة :

واذا كان بعض المفسرين القدامى يسوقون حادث زواج رسول الله كتفسير لانقلاب العداوة الى مودة .

فليس ذلك فى رأينا الا نموذج واحدمن عشرات الالوف من الأمثلة فى كل زمان ومكان ، وانما سقنا حادث زواج رسول الله من أم حبيبة لنظهر به السر ، وراء زواج النبى بمن تزوج بهن ، فلم يكن ذلك لمآرب جسدية كما يزعم المتخرصون ، فمثل أم حبيبة وقد بلغ بها السن ما بلغ ، وقد كانت تحت رجل قبل رسول الله ليسـت ذات مطمع ، ولكن رسول الله وهو عالم بتقاليد العرب راى فى مصاهرة ابى سفيان مايكسر به حدة عدوانه ، وقد صح تصور رسول الله كما قدمنا فأسلم أبو سفيان وحسـن اسلامه وقد قدر لابنه معاوية أن يكون على رأس المسلمين .

● **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسـطوا اليهـم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجـوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم .**

تقسطوا : أى تعدلوا وقيل غير ذلك كما سنرى . قلنا واكدنا اكثر من مرة ، ان الأصل فى الاسلام ، هو السلام والمحبة ، ونشر البر والعدل بين الناس قاطبة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم فاذا كان القرآن قد طلب من المؤمنين ان يتبرأوا من ذوى قرباهم ، فليس ذلك بسبب عقيدتهم ، وانمـا لـكونهم حاربوا المـؤمنين وسيواصلون حربهم حتى يعيدوا المؤمنين الى حظيرة الكفر اذا استطاعوا لذلك سبيلا

ومن هنا أصبح الدفاع عن النفس والعقيدة ضرورة للمحافظة على الذات فاذا انتفى هذا المبرر ، فلا مجال للحديث عن قطع كل صلات بالمخالفين فى الرأى ، فضلا عن قتالهم وهو ما توضحه وتؤكده الآية التالية من أن النهى منصـب على الذين ما يزالون مستمرين فى حربهم وعدوانهم .

وقد روى البخارى ومسلم فى ايجـاز ، وتوسع الماوردى فى تفصـيله ما اعتبره البعض مناسبة نزول هاتين الآيتين وهو ان (قتيلة) أم أسماء ابنة أبى بكر الصديق ، ظلت على كفرها فطلقها أبو بكر ، وحدث أن قدمت الى المدينة فى المدة التى كانت فيها المهادنة بين كفار قريش وبين رسول الله ، فأهدت قتيله الى ابنتها أسماء قرطا وأشياء أخرى ، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسـلم فذكرت ذلك له وسألته : هل تصل أمها ، قال : نعم .

ونزلت آية (**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم**) .

وقد حاول البعض أن يقول أن هذه الآية قد نسخت ، ويرى البعض الآخر انها محكمة اى لم تنسخ ونحن من هذا الرأى وقد ناقشنا بتفصيل قضية الناسخ والمنسوخ فى القرآن فى كتابنا (الاسلام ورسوله بلغة العصر) .

وعلى أية حال فبخصوص هذه الآية ، فالأكثرون من أهل التأويل على أنهـا محكمة .

قول لابن عربى :

ومن أطرف ما طالعناه فى كتب التفسير قول ابن العربى فى شرح كلمة أن تقسطوا اليهم انها بمعنى (تعطونهم قسـطا من أموالكم) وذلك بحجة أن العدل واجب فى جميع الأحوال بالنسبة لجميع الناس مقاتلين أو غير مقاتلين ، ولكن هذا الرأى فى تفسير الكلمة على خلاف ما يشبه الاجماع، فضلا عن أنه لا يتفق والسياق ، ولكنا أثبتناه لنرى شديد حرص أئمة المسلمين على العدل حتى بالنسبة للأعداء .

● **يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهـاجرات فامتحنـوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحـوهن اذا أتيتموهـن أجـورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم .**

فامتحنوهن : اى اختبروا حقيقتهن ومنها أخذ اسم السورة (الممتحنة) .

تنكحوهن : تتزوجوهن . **أجورهن** :مهورهن .

عصم : جمع عصمة والمقصود بهـا هنا الزواج .

الكوافر : اى الكافرات .

استثناء من صلح الحديبية :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عقد فى السنة السادسـة من الهجرة صلحا مع قريش ، وسوف نذكر بالتفصيل اذا أحيانا الله بمناسبة تفسير سورة الفتح كل شىء عن هذا الصلح وظروفه وملابساته ، والذى يعنينا الآن من هذا الصلح أن مشركى قريش اشترطوا على سيدنا محمد فيما اشترطوه عليه ، أن من جاءه مسلما، فيجب عليه أن يرده الى الكفار،ولم يدر بخلد قريش ساعة أن اشترطوا هذا الشرط ، أن سيأتى وقت تخرج فيه النساء عن طوعهم ويهاجرن الى رسول الله ، وانما كان كل

تصورهم منصبا على الرجال ، ولكن الذىحدث أن الاسلام كان قد بدأ يعلو ويغزو القلوب ، وانفتحت قلوب السيدات وعقولهنلنور الاسلام ، بدون انتظار لراى الرجال، فكان أن بدأن يهاجرن من مكة الى المدينةأسوة بمافعل الرجال منقبلهن وكان طبيعيا أن تتمسك قريش باتفاقها مع رسول اللهوتطالبه بتسليم هاته المهاجرات فنزلت هذه الآية تحدد حدود هذه القضية .

وذكرت كتب التفسير أن من بين منوفدن على رسول الله ، أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط ، فخرج أخواها عمــارةوالوليد حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلماه فيها وطالباه بردهافنزلت هذه الآية تمنع ذلك اذ ظهر بعــد الامتحان أن المهاجرة مؤمنة وقد سئل ابن‌عباس ، كيف كان امتحان رسول اللهصلى الله عليه وسلم النساء ، قال كان يمتحنهنبالله ما خــرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض الى أرض وباللهما خرجتالتماس دنيا ، وبالله ما خرجت الا حبا لله ولرسوله .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس ،فى قوله تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن)) كانامتحانهن أن يشهدن أن لا اله الا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله ، وقال مجاهد:فامتحنوهن ، فاسألوهن عما جاء بهن،فان كان جاء بهن غضــب على أزواجهن أوسخطة أو غيره ولم يؤمن فارجعوهن الى ازواجهن .

وقال عكرمة يقال لها ما جاء بك الا حب الله ورسوله وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك فذلك قوله فامتحنوهن وقال قتادة كانت محنتهن (أى امتحانهن) أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز وماأخرجكن الا حب الاسلام واهله وحرص عليه . فاذا قلن ذلك قيل ذلك منهن .

فى العصر الحديث :

ويعجبنا من العصر الحديث فى مصرالتقليد المتبع فى حالة اعلان احد المسيحيين رغبته فى اعتناق الاسلام رسميا ، أن يجمعبينه وبين أحد القسيسين ليحاول اقناعه للعدول عن تغيير دينه ، والبحث عما اذاكان هناك سبب شخصى يدفعهللاقدام على هذا التصرف كرغبته فى التخلص من زوجتهالتى لا يستطيع طلاقها ، أو رغبة منه فى النكاية بشخص ما ، وليس يشهر اسلامأى مسيحى بطريقة رسمية الا بعد اتباع هذا الاجراء ونقول : يعجبنا لان الاسلامطيب لا يقبل الا الطيب ، والله أجل وأعلى وأسمى من أن يستغل دينه لتحقيق مآربذاتية ، وقد رأينا كيف أمر الله باجــراء امتحان على التفصيل المتقدم .

لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن :

والمهم أنهذا الامتحان يجب أنيؤخذعلى ظاهره (الله أعلم بايمانهن) أى ليس المقصود من الامتحان الوصول الى السرائروما هو فى أحشاء الضمائر ، ولكنه امتحان لتطمئن به قلوبنا .

فان علمتموهن مؤمنات :

أى بما يظهرنه من الايمان ، **فلا ترجعوهن الىالكفار** أىأنالله قد حرمارجاعهن الى الكفار وخاصة أن كن متزوجات فهجرنهن بعد اسلامهن قد فرقت نهائيا بينهن وبين هؤلاء الأزواج فأصبح كل منهما حرام علىالآخر فلم يعد يجوز زواج مؤمنة بكافرأى بمشرك ولا مؤمن بمشركه وفى كتب الفقهحديث حول السبب فى هذه البينونة الكبرى ،أهو الهجرة أم الاسلام،أم اختلافالدارينداد الحرب ، ودار الاسلام)،كما تضمنت المباحث الفقهية أحكام العدة ، والمدة التىيمكن فيها للزوج أن يراجع فيها زوجته بغير حاجة الى عقد جديد ، (عند زوال السبب).

واتوهم ما انفقوا

وتمضى الآية فى تنظيم هذه الحالة الجديدة التىاقتضاها تطور الاسلاموغلبته، اذ لمـــا كان الوقت وقت سلام ومصالحة ، فقد اقتضت عدالة الاسلام أن يعوض الأزواج بالرغم من (شركهم) على فقدانزوجاتهم ، فطالب جماعة المؤمنين أن يردوا لهم ما كانوا قد دفعوه مهورا لزوجاتهم .

ولا جناح عليكم أن تنكحوهن :

ومادام الله قد قضى بالتفريق بين المسلمة من زوجها الكافر ، فقد أصبحت حرة غير مرتبطة ، فصار من الجائز لأىمسلم أن يتقدم لزواجها شريطة أن يدفع مهرها (**اذا اتيتموهن أجورهن**) .

ولا تمسكوا بعصم الكوافر

ومأروع الاسلام دائما ، وهو يحقق المساواة دائما بين الرجل والمرأة فى كل ما يقبل المساواة بالطبيعة ، فهو اذا قضىبعدمجواز أن تبقىالمسلمة مرتبطة بكافر ، فقد جعل الحكم يسرى كذلك على رجال المسلمينفحظر عليهم الارتباط بالكافرات(**المشركات** من عبدة **الأوثان**) .

فقد كان بعض المسلمين الذين هاجروا قد خلفوا وراءهم فى مكة بعض زوجات ظللن على شركهن فقضى القرآن بأن الساعة قد حانت لوضع حد لهذه الحالة فطالب المسلمين بالتخلى عن زوجاتهم (الكوافر) وفى كتب التفسير أسماء بعض هذه الزوجات اللواتى طلقن بموجب هذه الآية ومصير كل منهن مما لا نرى ضرورة لذكره

واسئلوا ما أنفقتم وليسئلوا ما انفقوا

وكان طبيعيا وقد قضى القرآن الكريم المشركين أن يطالبوا بما دفعوه من مهور النساء اللواتى اسلمن ، أن يقضى كذلك للمسلمين الذين خسروا زوجاتهم بما دفعوه من مهور .

ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم

ارشاد من الله عز وجل لجماعة المؤمنين أن هذا النظام هو ما اقتضته مشيئة الله الذى يعلم بواسع علمه وحكمته ، مافيه الخير والصلاح فى الحال والمآل وكافة الأزمان .

— وان فاتكم شىء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما انفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

رأينا فيما سبق العدالة الالهية وكيف ساوت بين المشركين والمسلمين فيما يختص برد مهور النساء اللواتى انفصلن عن أزواجهن بالاسلام والعكس بالعكس .

وكان طبيعيا أن ينزل المسلمون عند حكم الله ، وان يرفض المشركون تنفيذ الحكم ، ويأبون المعاملة بالمثل ، ومن هنا تبين هذه الآية ما الذى يعمل فى مثل هذه الظروف ، فينبغى على جماعة المؤمنين اذا حدث وجاءت الى أيديهم أى (غنائم) نتيجة الأعمال العسكرية التى كانت جارية بين الطرفين ، أن يعوضوا الأزواج الذين فقدوا زوجاتهم .

وغنى عن البيان أن ذلك حكم (مرحلى) خاص بظروف هذه الفترة ، ومع ذلك ككل آيات القرآن واحكامه صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان عند تحقق الظروف التى أوجبته .

● يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم .

بيعة النساء بعد بيعة الرجال

الآية ايذان للنبى صلوات الله عليه وسلامه ان يقبل بيعة النساء اذا ما جئن يبايعنه كما بايع الرجال على الشروط التى عددتها الآية وهى أن لا يشركن بالله ولا

يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن جرياعلى عادة العرب فى الجاهلية ، حيث كانوا يقتلون الأطفال خشية الاملاق (اى الفقر)ويقتلون البنات خشية العار ، وينسحب هذا النهى على فعلة (الاجهاض) وهواسقاط الجنين الحى من بطن أمه فذلك داخل تحت حكم النهى عن قتل الأبناء ، ولايستثنى من ذلك الا حالة الضرورة القصوى وهو المحافظة علىسلامة الأم اما الاجهاضلغرض تحسين الأحوال المعيشية فذلك هو عين المنهى عنه (**ولا تقتلوا أولادكم خشيةاملاق نحن نرزقهم واياكم)** .

ولا يأتين ببهتان يفتـــرينه بين أيديهن وأرجلهن .

جمهور المفسرين على أن المقصود بذلك هو النهى عمن كانت بعض نساء العرب يفعلنه وهو أن يلحق بعض الأطفال بأزواجهن كذبا وزورا وهن لم يلدنهم .

ولا يعصينك فى معروف

أمر واضح وصريح فى أن يطيع النساء كل أوامر الرسول وان يجتنبن نواهيه ، واذا كانت طاعة الرسول وهو الذى لاينطق عن الهوى قد قيدت بأن تكون فى حدود المعروف ، فذلك تعليم من الله وارشاد لمن هم دون الرسول وأعظم من فى الدنيا ، ولا يمكن الا ان يكون دون الرسول ، أن تكون كل أوامـــرهم ونواهيهم فى حـــدود (المعروف) أى الشريعة ومكارم الأخلاق،ومن هنا كانت القاعدة الاصولية : أن لا **طاعة لمخلوق فى معصية الله**

النهى عن النياحة

وبالرغم من شمول الآية وعمومهافقد شاء بعض المفسرين ان يحددوهـــا بأن المقصود بها **(ولا يعصينك فى معروف)** هوالنياحة أو ما نسميه بلغتنا الدارجة التعديد على الميت وكل ما تفعله الندابات من لطم على الخدود وشق الثياب .

وذلك تطبيقا لأحاديث صحيحة وردت فى الصحيحين ، عن أم عطية قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا أن لا يشركن بالله شيئا ونهانا عن النياحة فقبضت امراة يدها فقالت أسعدتنى فلانة أريد ان اجزيها (اى ان امراة جاملتها فى وفاة عزيز عليها ، فأرادت أن ترد لهـــا الجميل) فما قال لها النبى صلى الله عليه وسلم شيئا فانطلقت فرجعت فبايعها .

وفى صحيح مسلم عن أبى مالك الاشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: **أربع فى أمتى من أمر الجاهلية فذكر منها النياحة .**

وثمة أحاديث أخرى أوردها ابن كثير فى تفسيره تشير الى أن الرسول بايع النساء على عدم النياحة ، وعندنا ان ذلك كله لا يخرج الآية الكريمة **(ولا يعصينك فى**

معروف) عن مدلولها الواسع الذى يشمل فيما يشمل النياحة وكل البدع التى يحيط بها الناس تشييع الميت الى مقره الأخير .

حوار تاريخى بين سيدنا محمد وبين هند زوجة ابى سفيان .

وتسجل لنا كتب السيرة قصة طريفة تتضمن حوارا جرى بين سيدنا محمد عقب فتحه مكة وبين هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، وقد جلس لمبايعة النساء بعد أن فرغ من بيعة الرجال .

ولولا أن كتب التفسير كلها قد تضمنت هذه القصة لما اثبتناها هنا فهى تحدثنا عن جراة لامثيل لها ، وعن شخصية متناهية فى القوة وهى شخصية هند ، ولولا يقيننا فى عظمة سيدنا محمد وأنه رسول الله الرحيم الذى لا يعنيه فى الدرجة الأولى الا أن تكون كلمة الله هى العليا ، أقول لولا ايماننا بذلك لما صدقنا حرفا واحدا ، على الرغم من أن جميع كتب التفسير ذكرتها وبعد هذا التحفظ الذى نبرىء به ذمتنا . اليك هذا الحوار التاريخى بين سيدنا محمد وبين هند أما لماذا نصفه بأنه ينطوى على جراة شديدة ، فذلك لان هندا هى التى حرضت على قتل سيدنا حمزة عم رسول الله ، بل حرضت على غزوة احد التى هزم فيها المسلمون ، وتروى عنها كتب السيرة انها كانت تحرض المحاربين بالدق على الدفوف والغناء مع صواحباتها .

نحن بنات طارق — نمشى على النمارق

ان تقبلوا نعانق — وأن تدبروا نفارق

على أن ذلك كله ليس مهما ، وانما المهم انها خرجت عن انسانيتها فراحت تبحث بين القتلى عن جثة حمزة حتى اذا عثرت عليها ، انتزعت منها القلب وراحت تلوكه بلسانها لتأكله ، فكان من الطبيعى وهذا مدى وحشيتها ان تكون واحدة من عشرة أشخاص أهدر رسول الله دماءهم عند فتح مكة ؟ خاصة وقد ظلت هند على كفرها حتى بعد أن أسلم زوجها ابو سفيان اذ راحت تحرض عليه فأمسكت بتلابيبه ودعت قومها الى أن يفتكوا به ، ولكن نصر الله كان قد جاء والفتح فلم يتابعها أحد ، وعندما جلس رسول الله يتلقى بيعة اهل مكة جاءت هند متلفعة بثوبها بين النساء اللواتى جئن لمبايعة رسول الله .

وبعد هذه المقدمة أو هذا التمهيد اليك هذا الحوار الذى دار بين رسول الله وبين هند حول هذه الآية :

رسول الله : ابايعكن على أن لاتشركن بالله شيئا .

هند : (وكانت متنكرة) كيف تقبل من النساء شيئا لم تقبله من الرجال ؟

رسول الله ، ولا تسرقن .

هند : والله انى أصيب من أبى سفيان بعض هنات لا أدرى أيحلهن لى أم لا ؟

أبو سفيان : (وقد كان حاضرا) ما أصبت منى من شيء مضى أو قد بقى فهو حلال لك .

رسول الله : وقد عرفها (يضحك).

هند : تأخذ بيد رسول الله (مستجيرة) .

رسول الله : أنت هند ؟

هند : عفا الله عما سلف .

رسول الله ، (ينصرف عنها ويمضى فى ترديد شرائط البيعة) ولا يزنين .

هند : وهل تزنى الحرة يا رسول الله ؟

رسول الله : لا والله ما تزنى الحرة. ولا يقتلن أولادهن .

هند : ربيناهم صغارا وأنت قتلتهم كبارا ، أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر .

رسول الله : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن .

هند : والله أن البهتان لقبيح ، ماتأمر الا بالأرشد ومكارم الأخلاق .

رسول الله : ولا يعصينك فى معروف.

هند : ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء . هذا هو نص الحوار ، والشيء المؤكد والذى لا خلاف عليه أن هندا بايعت رسول الله فيمن بايع وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفا عنها ، أما أن تصل فى تحديها لرسول الله أن تقول له على حسب ما تقول بعض الروايات عندما طالب سيدنا محمد النساء بأن لا يقتلن أولادهن ، فترد عليه قائلة ،ربيناهن صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا .

أقول أن الله ورسوله أعلم اذا كان مثل هذا القول قد قيل .

أحاديث فى البخارى

بقى حديثان وردا فى صحيح البخارى فى تفسير هذه السورة ونرى اثباتهما :

الحديث الأول :

عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر اليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله ((**يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك** .. الى قوله غفور رحيم ،فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بايعتك كلاما (أى بالقول) ولا والله ما مست يده يد امـــرأة قط فى المبايعة ، مايبايعهن الا بقـــوله قد بايعتك على ذلك .

الحديث الثانى :

قال ابن عباس شهدت الصلاة يوم (عيد) الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها (أى صلاة العيد) قبل الخطبة ثم يخطب

بعد ، فنزل نبى الله صلى الله عليه وسلمفكأنى انظر اليه حين يجلس الرجال بين يديه ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء معبلال فقال « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولايسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » حتىفرغ من الآية كلها ثم قال حين فرغ ، انتن على ذلك ، وقالت امرأة واحدة لم يجبهغيرها . نعـم يا رسـول الله فقال لهن ، فتصدقن وبسط بـلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخـواتم فى ثوب بلال (أى أنهن رحن يتبرعن ببعض حليهن)

الحقوق السياسية :

وهذا الموقف من رسـول الله صلى الله عليه وسـلم من مبايعته للنسـاء بعد مبايعته للرجـال هو ذروة المسـاواة بين الرجل والمرأة فى الاسلام من حيث الحقوق والواجبات .

فما كان أغنى رسول الله عن بيعة النساء فما من امرأة الا وهى تحت ولاية أو وصاية أب أو أخ أو ابن أو زوج ، ومع ذلك فقدكانت للمرأة شخصيتها المسـتقلة التى اعترف بها الاسلام وأكدها كما يرى فى هذه الآية الكريمة وما سبقتها من الآيات ومن هنا فى كتابنا « حقوق المرأة فى الاسـلام » أن ما أصبح يسمى فى الحـديث بالحقوق السياسية لا يتعـارض منحها للنسـاء معتعاليم الاسلام سواء من ناحية الروح أو النصوص .

يا أيها الذين آمنـوا لا تتولـوا قوماغضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور .

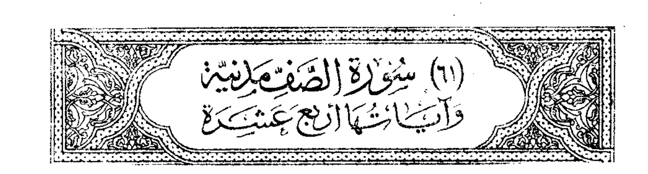
وتختتم السورة بما بدأت به من نهى المـؤمنين عن موالاة ومصـادقة الـكفار والمشركين وكل من نصب نفسـه عدو الله ورسوله فأعلن عليهما الحرب ويذهب بعض المفسرين الى أن القوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود وعندنا أن اليهود هم بعض المغضوب عليهم وكل من فعل فعل اليهود من معاداة الله ورسوله أصبح فى عدادهم : والقول هنا عام .

وعلى أية حال فقـد وصـفت الآية هؤلاء المغضوب عليهم بأنهم يائسـون من الآخرة .

واليأس هنا يجب أن يفسر اما بمعنى أنهم لا يؤمنون بالآخرة وكل ما يتصل بها من بعث ونشـور وثواب وعقاب ، واما أن تفسر بمعنى أنهم يئسوا من أن ينالوا خيرا فى الحياة الآخرة ، شأنهم فى ذلك شأن من مات منهم على الكفر وأصبح من سـكان المقابر اذ ان الغطاء قد كشف عنهم وبالتالى فقد أيقنوا بمصـيرهم ويئسـوا من رحمة الله .

ويرى البعض أن المعنى هو أن الكفار قد يئسوا من أن يرجع اليهم من فى القبور ، ولكن المعنى الأول هو الارجح والله تعالى أعلم .

«تم بعون الله تفسير سورة الممتحنة» ويليها سورة الصف .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ
صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ
إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ
فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى
ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ
أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

ســورة مدنيـــة :

سورة مدنية ومع ذلك فلن تعدم من يقول انها مكية والمصحف الذى فى أيدينا ينص على أنها مدنية وهو ما نأخذ به فى غير تردد فهو يخاطب فيها الذين آمنــوا ويشير الى القتال فى سبيل الله وفريضة القتال كما سنرى لم تقرر الا فى المدينة ، وفيها حديث مفصل عن موقف اليهود الخارج على سيدنا موسى للتنديد بهم وتفوق المسيحيين عليهم ، وهو التطور الذى حدث فى المدينـــة بعد أن ناصب اليهـــود سيدنا محمداً العداء .

سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم .

سبح بمعنى : نزه وعبد ، وقدس

أى ان كل العوالم والكائنات من جمادوحيوان وانسان وما نعرفه ومالا نعرفه وما نراه ومالا نراه يسبح بحمد الله ويشهدبوجوده وقدرته ووحدانيته وقد كان القدامى يتصورون بوضوح تسبيح الانسان والحيوان بقدرة الله وعظمته ، ثم يقيسون عالم الجماد على ذلك ، أما نحن فقد أصبحنا نرى عن طريق الالات انه ما من شىء فى هذا الكون الا ويتذبذب (أى يتحرك) وبالتالى ينبعث منه صوت هذا التذبذب ، واذا كانت أصواتها تخفى علينا ، فهى لا تخفى عن خالقها ، انك تنظر الى أى جسم هامد كأنه ساكن مع أنه يتألف من ذرات ، ونحن نعلم اليوم أن الذرة حركة لا تنقطع من الكهارب والاليكترونات التى لا تنفك تدور وتشع ، وهكذا كشف العلم المادى الحديث أن كل ما فى الكون يتحرك ويتموج والموجة هى ذبذبة وصوت الانســـان لا يعدو أن يكون موجات ، وهكذا يكون كل ما فى السموات والأرض يسبح .

والسماء هى كل ما علا رأس الانسان ونحن نطلق عليها بلغة العلم الفضاء الخارجى ونحن نؤمن أن هذا الفضاء مكتظ بالكائنات العلوية (الملائكـــة) واللطيف أن الماديين الملحدين أصبحوا يحدثوننا عن سكان الكواكب الأخرى ذوى القـــدرات الخـــارقة .

والمهم عندنا أن ذلك كله هو مصداق قوله عز وجل :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

فها هو العلم يكشف يوما بعد يوم ان كل ما فى السموات والأرض يسبح وينطق ويشهد بهذه القدرة الالهية ، وهو العزيز أى العالى الوحيد الفـــريد ، **الحكيم** أى المدبر الذى كل شىء عنده بمقدار .

يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون .

كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون .

مقتا : أى بغضـــا .

توجيه وارشاد من الله سبحانه وتعالى لجمـــاعة المؤمنين أن تكون أعمالهم مطابقة لأقوالهم والحق ان هذا هو المقياس الأبدى الخالد عند البشرية كلها لتقاس به رجولة الرجال وتتحدد به مكانة أى انسان ، فالأصل أن الكلمة تخرج من فم الانسان فهى تعبير عن ارادته ، وتحقيق ارادة الانسان هى مظهر كينونته ومكانه فى السلم الانسانى ولـما كان الانسان المؤمن يجلس على قمة السلم الانسانى ، فالله سبحانه وتعالى يطالب المؤمنين أن تكون أعمالهم مطابقة لأقوالهم والا تعرضوا لبغض الله .

كبر مقتـــا : أى عظم بغضـــا .

ويختلف المفسرون فى المناسبة التى نزلت من أجلها أو بسببها هذه الآيات ، فمن قائل انها نزلت فى المنافقين ، يقولون ما لا يفعلون ، ولكنا نســتبعد ذلك لأن المنافقين لا يخاطبهم الله بـــ (يا أيها الذين آمنوا) . لأن أول خصائص المنـــافق أنه غير مؤمن ، وقال آخرون انها نزلت بشأن بعض الصحابة زعموا بعـــد بعض المعارك أنهم قتلوا هذا المشرك أو ذاك خلافا للواقع .

ولكن القول الذى نرجحه ونرتاح اليه لأننـــا نجد سنده فى القرآن نفســـه وهو ظاهرة انسانية توجد فى كل عصر هو تشدق البعض بكلمات ضخمة عن التضحية والفداء واستعدادهم للموت فى سبيل هذا الشىء أو ذاك حتى اذا جد الجد وجاء وقت الامتحان وجدت هؤلاء المتشدقين أبعد النـــاس عن التضـــحية والفداء وللتحذير من ذلك نزلت هذه الآية ، فقد روى أن نفرا من الصحابة عنـدما لم يكن القتال قد فرض عليهم أظهروا تحمسا للقتال فلما ان فرض القتال بالفعل ، أظهروا ترددا وضعفا .

وقد حكى عنهم القرآن هذه الواقعة فى آيات أخرى :

« ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلمـــا كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليـــل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيـــلا أينمـــا تكونوا يدرككم المـــوت ولو كنتم فى بروج مشـــيدة » .

ونحن نرجح نزول الآية بمناسبة القتال ، لأن الآية التالية تكلمت عن القتـــال بالفعـــل .

وعلى اية حال فالآية عامة فى مدلولها وهو الحض على أن تكون الأقـــوال منطبقـــة على الأفعال .

ولقد اتخذ الفقهاء هذه الآية أساسا لأحكامهم حول الوعود ومدى ما يجب أن ينفذ منها ، وخاصة عندما يتعلق بها حق للاخرين على اختلاف بين المذاهب .

ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

مرصوص : أى متلاصق محكم .

قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : ان جماعة من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة قالوا فى مجلس : لو نعلم اى الأعمال احب الى الله لعملنا به حتى نموت ، فأنزل الله تعالى هذا فيهم ، فقال عبد الله بن رواحة لا ابرح حبيسا فى سبيل الله حتى أموت ، فقتــل شـــهيدا .

القتال فى سبيل الله ذروة الايمــان

ما من انسان الا وهو يحب الحياة وطول البقاء اكثر من أى شىء فى الدنيا ، ومن هنا كان اقتحام مخاطر الموت فى سبيل الله هو ذروة الايمــان به وأن سيكون بعد الموت حياة فى رحاب الله ، وان الموت فى سبيل الله ليس هو الموت المعتاد ، وانما هو البقاء الذى لا يطاوله بقاء ، ومن هنا كان من الطبيعى ، بل والحتمى أن يرضى الله كل الرضا عن من يموت فى سبيله ، فعبر لنــا بكلامنا الذى نفهمه أنه يحب الذين يقاتلون فى سبيله ، سواء ماتوا أو عاشوا بطبيعة الحال ما دام قــد صدقوا النية والعزم فى قتالهم ذلك ان الموت والحياة بقدر من الله تعــالى ، ولذلك فالمطلوب من المقاتل فى سبيل الله هو مجــرد النية والاستبسال فى القتــال بقطع النظر عن النتيجة ، وقد وعد الله المقاتلين صادقى العزم فى سبيله بأنه يحبهم ولست أتصور أو يمكن لأى احد أن يتصور درجة يمكن أن يصل اليها الانســان أعلى من أن يكون حبيب الله .

صفا كأنهم بنيان مرصوص

ولا يجب أن يفهم من التعبير عن المقاتلين بأنهم ((**صف**)) المعنى الحــرفى لكلمة ((**صف**)) وكذلك التشبيه بالبنيان ، فالمقصود بهذا التعبير هو اظهار ما قدمناه من صدق العزم والاستبسال والتضامن الوثيق بين المحاربين بحيث يساند بعضهم بعضا كأنهم جسم واحد مترابط متلاحم وقد فهم بعض الناس فى القديم (خطــأ) هذا التعبير بمعناه الظاهرى الحرفى فاستحبوا أن يحاربوا مترجلين ، أى (مشاة) بدعوى ان ذلك هو الذى يمكنهم من الحرب متكتلين صفا واحدا كالبنيان المرصوص، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى للفارس من الغنائم أضــعاف ما يعطيه (للمترجل) وقد طالبنا القرآن نفسه باعداد أكبر عدد من (الخيــل) لمجابهة أعداء الله والمسلمين ، وغنى عن البيان أن الفرسان المحاربين ، لا يمكن أن يحاربوا (صفا) بل ان أسلوبهم فى الحرب هو الكر والفر والدوران .

الحــرب الحديثــة :

وفى الحرب الحديثة ، أصبح الأصل فى الحرب هو تباعد المحاربين فيما بينهم حتى لا يكونوا طعمة للنيران الكثيفة التىتطلقها الأسلحة (الأوتوماتيكية) والموت الذى تنشره القنابل المتفجرة فى أوسع مساحة ، ومن هنا أصبح الأصل فى القتال اليوم ، هو الانتشار لا التكتل ، ومع ذلكتستبقى شدة الترابط والتلاحم بين جموع المقاتلين ، وأن يتحركوا ويتصرفوا كجسمواحد ، هو الأســاس والجوهر للوصول الى اى نتيجة حاسمة ، ناهيك بالحصول على النصر .

أنجح أساليب القتال فى عصر النبى

على أنه لا يجب أن يفوتنا بصدد هذه الآية أن نسجل أن أنجح أساليب القتال فى عهد النبى صلوات الله عليه وسلامه ، كانت هى الصف المتراص المتكتل ، وقد كان أسلوبا جديدا لا عهد للعرب به فقد كانوا يحاربون حيثما أتفق ، كل محارب يؤلف وحدة بنفسه ويحارب طبقا لخططه وما يدور فى رأسه ، وقد كان الرومان هم الذين ابتكروا فكرة تساند المحاربين ساعة القتال فى صــف واحد فقــد كان هــذا التســاند والترابط يقــوى عزائم الجنودويزيد فى شــجاعتهم ، ومن هنا فقــد كان اتباع سيدنا محمد لهذا الأسلوب فى القتال الذى لم يكن للعرب عهد به من قبل ، هو تعليم منه للمسلمين فى كل زمان ومكان ، أن يتمرسوا بأحدث التجارب الانسانية، وسنرى فيما بعد (اذا شاء الله) ونحن نفسر سورة الأحزاب ، أن الرســول كذلك قد أخذ بنظام التحصن وراء خندق ، وقد كان عمل الخندق بدوره شيئا لا عهد للعرب به من قبل ، وتقول كتب السيرة ، انه أوفد من يتعلم القذف (بالمنجنيق) ليستعمله فى حصار الطائف ، وهناك كتبتخصصت فى دراسة خطط رســول الله فى الحرب ، من أهمها كتاب لأخينا القائد المسلم الورع اللواء الركن محمود شيت خطاب (الرسول القائد) حيث يبين لنا أساليب الرسول وخططه فى شتى المعارك التى خاضها ، ومدى ما فى هذه الخطط ما يشهد لرسول الله بأنه كان فى القتــال ، شأنه شأن ذلك كشأنه فى كل ميادين الحياة ، هو الكامل المكمل الذى علمه الله سبحانه وتعــالى من لدنه علم الأوائل والأواخر .

القتــال فى الاســلام :

وقد زعم أعداء الاسلام أنه انتشر بحد السيف ، وهى فرية كبيرة واجتراء على النصوص الصريحة الواضحة تقطعبعكس ذلك وهــو اجتهــاد أعظم على التاريخ والوقائع الثابتــة ، وهو يناقضالواقع فىأيامنا الحاضرة على خط مستقيم، فقد دالت دولة المسلمين باعتبارهم أعظم قوة فى العالم منذ أمد بعيد ومع ذلك فقد اعتنق الاسلام أضعاف أضعاف من اعتنقوه والدولة الاسلامية فى ذروة قوتهــا ، ومن المتفق عليه ان الاسلام انتشر فى جنوب آسيا ، وفى غربها الشرقى (أندونيسيا،

وروما والملايو وتايلاند والفلبين وغيرها) على يد التجار ، والأفراد البسطاء العاديين ، وذلك بمحض نصاعة التعاليم الاسلامية وسموها ، وأنها دليل الحياة ، وكذلك الحال فى أواسط افريقيا وغربها وجنوبها ، فقد انتشر الاسلام ولا يزال ينتشر حتى أصبح معتنقوه يقدرون بعشرات الملايين (فى نيجيريا) على سبيل المثال ولا يستطيع زاعم أن يزعم ، أن قوة عسكرية اسلامية قد اقتربت من هذه الأمكنة .

الترك والتتار :

بل ان التاريخ ليروى لنا ما هو أعجب من ذلك ، وهو أن قوتين كبيرتين هزمتا الجيوش الاسلامية وهما قوة الأتراك والتتار حتى يخشى على الاسلام من شرهما ولكنهما لم تلبثا أن أصبحتا هما القوة التى حافظت على الاسلام ونعنى بهما قوة الترك والتتار والمسلمون اليوم فى الاتحاد السوفيتى هم الشاهد على ذلك لأنهم بقايا التتار .

فى أوربا الحديثة وأمريكا

ونحن نعلم اليوم أن القوة العسكرية ذروة القوة ، وشتى وسائل الحضارة أصبحت تتركز فى هذا الجزء من العالم (أوربا وأمريكا) ، ومع ذلك فنحن نسمع من حين لآخر عن اسلام البعض هنا وهناك وهذا البعض يكون من القوة والامتياز والقدرة ، بحيث يصمد لمواجهة الكراهية التى تواجهه ، وشتى صفوف الاغراءات التى تحاول أن ترده عن الاسلام ، وفى الناحية المضادة ، لن تجد مسلما واحدا يتحول عن دينه مهما أعطى له ملء الأرض ذهبا .

حملة التبشير فى مصر :

وقد لا يعرف الكثير من القراء أنه عقب احتلال الانجليز لمصر سلطوا على الشعب المصرى أكبر حملة تبشرية ، وكانت مسلحة بسيف المعز وذهبه ، وقد تستروا بستار التقدم ونشر المعرفة ومواساة المرضى والضعفاء فأنشأوا المدارس والملاجىء والمستشفيات ، بل والجامعات (كالجامعة الأمريكية ، ومستشفى هرمل ، وعشرات المؤسسات المماثلة) .

ووصل الأمر الى حد انهم كانوا يعدون براتب شهرى لمن يتنصر ، ومع ذلك لم يجدوا انسانا واحدا ينسلخ من نور الاسلام . فالزعم بأن الاسلام انتشر بحد السيف هو فرية وأكذوبة .

رأى بعض قدامى المسلمين :

وقد كان الأساس الذى قامت عليه هذه الفرية ، ان بعض كبار علماء المسلمين ابان عظمة الدولة الاسلامية ، راحوا يزينون لملوك الاسلام الفتوحات

على أساس أن ذلك واجب دينى وانصاع لرأيهم بعض الملوك والخلفاء ، بينما ادرك البعض الاخر ما فى ذلك من مجافاة لروح الاسلام وتعاليمه .

الغــارات على الاســلام :

ثم حدث أن تعرض الاسلام والمسلمون لأعنف الغارات عليهم من الغــرب والشرق (الصليبيون والتتــار) .

فكان طبيعيا أن يهب المسلمون للدفاع عن دينهم وارواحهم ، فكان هــذا النضال الباسل الذى يحتل أروع صفحات التاريخ .

حقيقة موقف الاسلام من القتال :

وتتلخص حقيقة موقف الإسلام من القتال فى قاعدتين أساسيتين :

الأول : ان لا اكراه فى الدين .

الثانية : ان لا يحارب المسلمون الا اذا اضطروا لذلك اضطرارا دفاعا عن أنفسهم وأراضيهم وعقيدتهم .

وسيرة رسول الله ناطقة بذلك فقد عاش ثلاثة عشر عاما فى مكة يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتى هى أحسن ، ويصبر على الأذى والاضطهاد هو وأصحابه ، بل يدفع السيئة بالحسنة ، وليس الا عندما ضيق المشركون الخناق على المسلمين فعذبوهم وطاردوهم وشردوهم ، وهمــوا بقتل الرسول ، صلوات الله عليه ، هنا وهنا فقط ، اذن الله لسيدنا محمد ان يدافع هو وصحبه عن أنفسهم .

((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،وان الله على نصرهم لقدير)) .

وظل الدفاع عن النفس والعقيدة هو المبرر الوحيد للقتــال ، وهى مســألة غريزية جبلية يقوم بها الكائن الحى فردا كان أو جماعة تلقائيا ومع ذلك فقد كبت رسول الله هذه الغريزة ، وأوقف عمل الطبيعة البشرية الى أن أذن له الله .

الله يحذر من الاعتــداء :

وما فتىء القرآن يحذر وينذر من أن يعتز المســلمون بقوتهم وتجــرفهم الحماسة لحرب غير المسلمين ، فصاغ لهم ما يجب أن نعتبره دستور القتــال فى الاسلام ، فقال وقوله الحق :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

هذا وقد كتب شيخنا ابو زهرة رسالة عن نظرية الحرب فى الاسلام ، فليرجع اليها من شاء الاحاطة بهذا الموضوع ، ومن ناحيتنا سنعود اليه فى مناسبات أخرى .

واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون انى رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين .

زاغوا : أى مالوا وانحرفوا .

وتقوم هاتان الايتان شاهدتين على مدنية السورة فليس الا فى المدينة ان بدأ القرآن يناقش اليهود الحساب وأزوارهم عن الحق مذ كانوا ، من ذلك انهم زعموا انهم لو كانوا يعلمون ان سيدنا محمد رسول الله لاتبعوه فذكرهم القرآن بمعارضتهم لسيدنا موسى مع علمهم بأنه رسول ويحكى ما يسمى (بالعهد القديم) المعجب والمطرب من مخالفتهم لسيدنا موسى حتى وصل الأمر بهم الى حد عبادة العجل مما سجله القرآن عليهم كذلك ، وفى هذه الاية اشارة لشكوى سيدنا موسى من اليهود وايذائهم اياه بشتى صنوف الايذاء ، وفى بعض التفاسير حكايات وقصص عن نوع الايذاء مما لا تطمئن نفوسنا لترديده ، وعندنا ان الايذاء لسيدنا موسى لم يكن شخصيا بل هو ايذاء لله من ناحية مخالفتهم لدعوة التوحيد التى جاء بها وافراد الله بالعبادة ، يدل على ذلك سياق الآية من حديثها عن زيغ اليهود أى انحرافهم عن الحق ، فأخذهم الله بكفرهم وتركهم وشأنهم ومواجهة المصير الذى اختاروه لأنفسهم فالله لا يهدى القوم الفاسقين أى الذين خيروا فاختاروا واستحبوا الكفر والعصيان والانحراف فيعمل الله ارادتهم فيما اختاروه لأنفسهم ، بهذا قضت مشيئته وحكمته .

واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .

التوراة بلغة اليهود تعنى الشريعة وهى التعاليم السماوية التى نزلت على سيدنا موسى . وفى سياق هذه الآية احدى خصائص القرآن المعجزة فى طريقة التعبير ففى الآية السابقة يتحدث سيدنا موسى الى قومه الذى هو واحد منهم ، أما هنا فالحديث عن سيدنا عيسى الذى جاء الى الوجود على خلاف العادة أى من غير أب وانما جاء عن طريق روح القدس (جبريل) مما جعل المسيحيين يقولون عنه ابن الله ، ولذلك فقد حرص القرآن على أن يقول عيسى ابن مريم ، ومن ناحية أخرى جعله لا يخاطب اليهود على أنهم قومه فهو ليس واحدا منهم .

فقال لهم : يا بنى اسرائيل ، وتمضى الآية فتؤكد بشرية سـيدنا عيسى فهـو ليس الا رسولا من الله وأنه لم يأت لليهود بشريعة جديدة ، وانما جاء ليعيـد اليهود الى رشدهم ، ويحارب انحرافاتهم وحسبك أن تعلم أن القوم الذين نهوا عن التعامل بالربا ، أصبحوا هم ملوكه وأساطينه حتى لقد حولوا هيكل عباداتهم الى سوق للبيع والشراء وأعمال الصيرفة على ما تحكى الاناجيل الموجـودة فى أيدينا حيث غضب المسيح وطرد الصيارفة من الهيكل ، وكون المسيح جاء مصـدقا لـما فى التوراة فهو مكتوب بالنص فى الأناجيل : ما جئت لأهدم الناموس (أى شريعة اليهود) ولكن لأكمله .

وقد لا يعرف الكثيرون أن السـيد المسيح ظل قاصرا دعوته على بنى اسرائيل وليس الا بعد أن رفع الى السماء على ما تقول الأناجيل أنه وجه تلامذته للتبشير فى سائر الأنحـاء .

ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد

والمسيحيون لا يعترضون على كون سيدنا عيسى قد جاء مصدقا لـما بين يديه من التوراة بدليل ان كتابهم المقدس المتداول فى أيديهم يضم كتاب اليهـود (العهد القديم) الى جوار (العهد الجديد — الأناجيل) ويعتبرون الاثنين معا هما كتابهم المقـدس .

التبشير بسيدنا محمـد :

ولكن الذى يتوقف أمامه المسيحيون هو كون سيدنا عيسى قد بشر بسيدنا محمد ، واذا تركنا جانبا انجيل (برنابا) الذى يتحدث عن سيدنا محمد بأسلوب واضح وصريح ومحدد مما يجعل المسيحيين يتشككون فى صحة نسبة هذا الانجيل الى السيد المسيح ، أقول اذا نحينا هذا الانجيل المتنازع على صحته ، فسوف نجد أن أحد الأناجيل المعترف بها والتى يتعبد بها المسيحيون كل يوم ، فيه الاشارة الواضحة المحققة عن سيدنا محمد لا من ناحية الاسم الذى قد يتغير مدلوله من عصر الى عصر حسب مفهوم اللغة وتغيرها وانما من حيث الوصف الذى ينطبق كل الانطباق على ما قام به سيدنا محمد بالفعل وقامت به تعاليمه وستظل تقوم الى يوم الساعة ، وقد وردت هذه الاشارة فى انجيل يوحنا ، وقد تعلق الكثيرون من المفسرين القدامى ومنهم الرازى بالاسم الذى ورد فى هذا الانجيـل وهـو اسم (الفارقليت) وقالوا ان هذه الكلمة تعنى الحمد والثناء أى أحمد ، وقـد كانت كلمة الفارقليت هى التى استعملت فى ترجمـة الأناجيـل الى العربيـة ، فلما أن تمسك المسلمون بهذه الكلمة ، ترجموا الكلمة ترجمة جديدة فقـالوا أنها تعنى (المعزى) وذلك ليتفادوا كون المسيح نطق باسـم سيدنا محمد ، وسنرى أنه

أيا كان الاسم ومفهومه الذى قد تغير فقد بقيت الأوصاف تنطبق كما قلت لك على سيدنا محمد ولا تنطبق الا عليـــه .

ولا نقل لك الان ما قاله الرازى فى تفسيره ، وما جاء فى انجيل يوحنا الموجود فى أيدينا ومما لا خلاف بين الكنائس على حجته .

يقول الفخر الرازى فى تفسيره ، قال :

ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام بمقدم سيدنا محمد عليـــه السلام فى عدة مواضع فى الانجيل أولها فى الاصـــحاح الرابع عشر من انجيـــل يوحنـــا .

« هكذا وأنا أطلب لكم الى أبى حتى يمنحـــكم ويعطيكم الفارقليط حتى يـــكون معكم الى الأبد » .

والفارقليط هو روح الحق اليقين ،هذا لفظ الانجيل المنقول الى العربى .

وذكر فى الاصحاح الخامس عشر هذا اللفظ :

« وأما الفارقليط روح القدس يرسله ابى باسمى ويعلمكم ويمنحكم جميـــع الأشياء وهو يذكركم ما قلت لكم ، ثم ذكر بعد ذلك بقليل ، وانى قد أخبرتكم بهـــذا قبل أن يكون حتى اذا كان ذلك تؤمنون .

وثانيها ذكر فى الاصحاح السادس عشر :

« هذا ولكن أقول لكم حقا يقينا انطلاقى عنكم خير لكم فان لم أنطلق عنكم الى أبى لم يأتكم الفارقليط وان انطلقت أرسلته اليكم ، فاذا جاء هو يفيد أهـــل العـــالم ويدينهم ويمنحهم ويوقفهـــم على الخطيئة والبر والدين .

وثالثها : ذكر بعد ذلك بقليل :

هذا فان لى كلاما كثيرا أريد أن أقوله لكم ولكن لا تقـــدرون على قبـــوله والاحتفاظ به ولكن اذا جاء روح الحق اليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه . انتهى ما جاء فى تفسير الرازى .

آخـــر ترجمـــة للانجيـــل :

ذلك ما نقله الرازى من الانجيل الذى كان متـــداولا فى عصـــره ويلاحظ أن المسيح قد تحدث بوضوح عن مجىء مبعوث من السماء يؤيد سيدنا عيسى ودعوته ويدعو البشر للخير والبر ، وقد سماه « الفارقليط » .

وقد قال البعض كما قدمنا ، انها مشتقة من مادة الحمد باللغة اليونانيـــة التى كتبت بها الاناجيل القديمـــة .

ولقد عدنا الى ترجمة حديثة للانجيل فوجدنا الاصحاح الخامس عشر من انجيل يوحنا يجرى على الوجه التالى :

« ومتى جاء **المعزى** الذى ارسله اليكم من عند الأب .

روح الحق الذى من الأب ينبثق ، فهو يشهد لى وانتم تشهدون لأنكم معى منذ الابتـــداء .

روح الحـــق

وهكذا نرى أن كلمة **الفارقليط** قـــد استبدلت بكلمة ((**المعزى**)) ولـــكن الذى ظل ثابتا لم يتغير ، وهو وصف هذا المبعوث الالهى بأنه :

١ ــ روح الحق .

٢ ــ وبأنه يشهد للمسيح .

ولا نحسب وقد انقضى الان قرابة الفى عام على ميلاد المسيح ، ان البشرية قد شهدت مبعوثا الهيا تتحقق فيه هاتان الصفتان من حيث كونه روح الحق ، وانه يشهد للمسيح ، الا سيدنا محمد فهو الحق كل الحق ، وهو نبى الانسانية الذى عرفها طريق الخير والرشاد ، وهو قد شهد لسيدنا عيسى ، ودفع عن أمه مريم فرية اليهود الشنيعة ، وشهد لســيدنا عيسى بأنه نفخـــة روح القـــدس (جبريل) فى مريم العذراء .

بحيث كنت دائما أقول انه لولا شهادة القرآن لسيدنا عيسى وكيف حملت به امه العذراء ، لنجحت فرية اليهود وقولهم على مريم بهتانا واثما عظيما .

شـــاهدان من تجـــاربى :

وفى حياتى شاهدان بارزان لمست فيهما بنفس مدى تأثير القرآن فى نفس اى مسيحى منصف غير متعصب ، اما احدهما فقد كان فى الولايات المتحدة الأمريكية وقد دعانى قسيس أحد الكنائس ان القى فى كنيسته على رعايا الكنيسة محاضرة عن الاسلام . وقد فوجئت بهذا الطلب الذى لم أكن مستعدا له فقد كنت قـــد سافرت الى أمريكا للدعاية السياسية لجلاء الانجليز عن مصر ووحـــدة مصر والسودان ، وكان ذلك منذ ربع قرن ،ولذلك فقد حرت ماذا أفعل ثم هدانى الله ان اتلو عليهم من مصحف مترجم الى اللغة الانجليزية ، آيات مختارة من القـــرآن

وفى مقدمتها سورة مريم ، وهى تحكى قصة ميلاد المسيح . فعندما مضيت فى القراءة استوقفنى القس وسألنى عن الكتاب الذى أطالع منه ، على الرغم من أننى أعلنت اننى سأقرأ عليهم بعض آيات القرآن ، فأكدت من جديد اننى أتلو من القرآن ومضيت فى قراءتى ، وبعد قليل لم يستطع القس أن يخفى دهشته فراح يسألنى ثانيـــة ، ما هذا الذى تقراه ، فأعدت القول بأنه القرآن كتاب المسلمين المنزل على سيدنا محمد وفى هذه المرة أبى القس الا أن يتثبت بنفسه فأخذ الكتاب من يدى وراح يطالع بنفسه وهو مذهول ، ثم قال لى : ولــكن هذا كأروع ما فى الانجيل ، فقلت له وانه لكذلك . فصرخ فى حدة : اذن ما هو الفرق بين الاسلام والمسيحية ؟

فقلت له : لا فرق الا انتم تقولون المسيح ابن الله ، أما نحن فنقول المسيح رسول الله ، فاعترض على أن علماءنا يفهمون من كلمة ابن الله أى رسول الله ، فقلت له على الفور فى هذه الحالة نكون قد اتفقنا .

الشــاهد الثــانى :

أما الشاهد الثانى فصديق من أعز أصدقائى المسيحيين وهو شديد التمسك بكاثوليكيته ، وقد اعتاد أن يقول لى أنه يحب القرآن جداً ، لاشادته بمريم العذراء بصورة لا تعلوها صورة ، ثم يردد من سورة آل عمران : **« واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » .**

هذان شاهدان لمستهما بنفسى عن تأثير القرآن على المســيحيين المنصــفين وكيف يشهد القرآن بسيدنا عيسى ، وينفى ما روجه اليهود عن حقيقة ميلاده ، فعندما يقول المسيح أن سيأتى من بعده من يشهد له ، فذلك هو التبشير بمقدم ســيدنا محمد وصدق الله العظيم عندما يقول لنا :

ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد

وامعانا فى الاعجاز وتحقيقا لنبوءة المسيح ، فقد جاءت تسمية سيدنا محمد بهذا الاسم على خلاف مألوف العرب ، فلم يعرف أن أحدا من العرب سمى بهــذا الاسم من قبل ، حتى لقد عاتب القرشيون عبد المطلب الذى سمى الرسول بهــذا الاسم الجديد ، تاركا أسماء آبائه وأجداده ، فأجابهم بأنه سماه محمدا ليكون محمودا فى الأرض والسموات ، ولم يكن يدرى بطبيعة الحال ان الله سبحانه وتعالى هــو الذى ألهمه هذا الاسم ليتم بذلك ما جرى به القلم من أنه محمد وأحمد ومحمــود والمصطفى يقول رســول الله صــلى الله عليه وســلم على ما جاء فى صــحيح البخــارى :

« ان لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا المــاحى الذى يمحو بى الله الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » .

ورواه مسلم بنحــو ذلك .

النجاشي وسيدنا محمد

وعلى ذلك تبشير سيدنا عيسى بسيدنا محمد ، فقد ذكرت لنا كتب السـيرة حديثا جميلا رائعا عن موقف النجاشي (ملك الحبشـة) وقـد كان من معتنقى المسيحية فى ذلك الوقت ، وكانت هجرة المسلمين الأوائل الى بلاده ونظرا لقرب عهده من المسيح ، فقد كان مفتوح الذهن والقلب معا لدعوة سيدنا محمد كما سنرى فى الحديث الذى ننقله اليك . عن عبد الله بن مسعود قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشي ونحن ثمانين رجلا منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى فأتوا النجاشى ، وبعثت قريش عمرو بن العـاص وآخر بهدية ، فلمـا دخلا على النجاشى سـجدا له ثم ابتداره عن يمينه وعن شماله ثم قالا له : ان نفرا من بنى عمنا نزلا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا ، فقال أين هم ، قالا هم فى أرضك فابعث اليهم ، فبعث اليهم .

فقال جعفر ، أنا خطيبكم اليوم فاتبعونى ، فسلم (على النجاشى) ولم يسـجد فقالوا : مالك لا تسجد للملك ، قال : انا لا نسجد الا لله عز وجل ، قال وما ذاك، قال ان الله بعث الينا رسولا فأمرنا أن لا نسجد لاحد الا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة قال عمرو بن العاص فانهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم ، قال ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه ، قال نقول كما قال الله عز وجل ، هو كلمـة الله وروحه ألقاها الى العذراء البتول ، التى لم يمسها بشر ولم يعترضها ولد ، قال فرفع (أى النجاشى) عودا من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ما يساوى هذا ، مرحبا بكم ومن جئتم من عنده ، اشهد أنه رسول الله وانه الذى نجده فى الانجيل وانه الذى بشر به عيسى ابن مريم ، أنزلوا حيث شئتم ،والله لولا ما أنا فيه من الملك لاتيته حتى أنا أحمل نعليه وأوضئه ، وأمر بهدية الاخرين فردت اليهم .. انتهى .

ومسيحيو الشرق بصفة عامة ، استقبلوا الاسلام استقبالا حسنا ورأوا أنفسهم يتعاطفون مع الدين الجديد ، بأكثر من تعاطفهم ، مع نظرائهم المسيحيين فى بيزنطة ، فضلا عن روما ، وقصة المقوقس زعيم قبط مصر وقبوله رسالة سيدنا محمد بقبول حسن وارساله اليه الهدايا الثمينة التى كان من أهمها مارية القبطية التى أنجبت لسيدنا محمد ابنه ابراهيم ، وقد حكى القرآن نفسه حديث هذا التعاطف بين المسلمين والمسيحين على خلاف العلاقة بين المسلمين واليهود التى كانت وما تزال تتصف بالعداء والخصومة فقال القرآن الكريم وقوله الحق :

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبـانا وانهم لا يستكبرون .واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين» صدق الله العظيم . سورة المـائدة ٨٢ ـــ ٨٣

فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين

والضمير هنا يعود على سيدنا محمد ، أى انه على الرغم من أن سيدنا عيسى قد بشر بسيدنا محمد فقد اتهمه الكافرون عندما جاء بآياته ومعجزاته ، أنه ساحر مبين .

ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدى القوم الظالمين .

يمكن أن يتجه القول بمناسبة هذه الآية الى طريقين :

فما أكثر ما زعم الكفار من قريش أولا ، ثم من اليهود ثانيا ، ان دعوى سيدنا محمد من أنه رسول الله ، دعوة كاذبة ، وكان ذلك هو ذروة التجنى والاجتراء السافر على الحقيقة فقد كانت شهرة سيدنا محمد التى اشتهر بها قبل البعثة انه لم يكذب قط ، أو كما قال له عمه ابو لهب : « ما جربنا عليك كذبا قط » فما أعجب أن يتحول رجل بعد أن جاوز سن الأربعين كاذبا على الله ، وهو لم يسمح لنفسه أن يكذب على الناس . وفى هذه الآية يذكر القرآن الكفار بهذه الحقيقة ، وكيف أن أظلم الظلم هو الكذب على الله ، فكيف يقدم عليه أتقى الناس ، وأروع الناس كافة من يؤمن بأن الله لا يمكن أن يهدى القوم الظالمين .

حجة دامغة :

ولقد كان هذا المنطق هو الحجة الدامغة التى دمغ بها سيدنا محمد وما زال يدمغ وسيظل يدمغ الى ابد الأبدين كل من ينكر رسالته ، فما كان الله عز وجل يؤيد ويدعم بكل هذه القوة وهذا النجاح خلال القرون المتعاقبة ، من كذب عليه وقال انه أوحى اليه ، ولم يوح اليه بالفعل .

التفسير الأرجح :

على أن التفسير الأرجح والذى عليه جمهرة المفسرين ، ويدعم قولهم (وهو يدعى الى الاسلام) .

ويكون المعنى المقصود هو وصف المشرك الذى يدعى الى التوحيد ، فيأبى الا أن يفترى على الله باشراك الأصنام فى ألوهيته فمثل هذا الكذب المفترى من أظلم الظالمين .

يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

هذا هو ما حاولت مختلف العناصر القوية على عهد رسول الله أن تفعله ، وهو أن يطفئوا هذه الشعلة من الضوء التى جاء بها سيدنا محمد لبنى البشر ، من

المحبة بين الناس والتآخى والمساواة والحرية فيما بينهم ، فتحالف اليهود مع الكفار من قريش ، والمنافقون من سكان المدينة ، وأطبقت الأحزاب من كل جانب للقضاء على نور الاسلام ولكن الله سبحانه وتعالى وعد ووعده الحق أن سيتم نوره وسينصر نبيه رغم أنف الكافرين ونحن اليوم بعد قرابة أربعة عشر قرنا نقول صدق الله العظيم، فنحن نعلم مدى انتصار الاسلام وانتشار تعاليمه ، وأنه ما من مجتمع من المجتمعات الا وقد تأثر به ولم تنهض أوروبا ، ولم تخرج من ظلمات العصور الوسطى الا بعد أن تأثرت بتعاليم الاسلام بطريق مباشر وآخر غير مباشر ، وما من فضيلة يتحلى بها أى شعب من شعوب العالم الا وهى من مشكاة الاسلام ، مما سيمر بنا فى ثنايا عرض التعاليم والمبادىء الاسلامية التى انفرد بها وامتاز على كل ما سبقه من أديان وتعاليم .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

هذه الآية هى تأكيد وشرح للآيات السابقة من كون سيدنا عيسى قد بشر بسيدنا محمد الذى سيحمل للبشر كافة رسالة الهدى والسلام ، وان الله قد شاء أن يجعل رسالته هى خاتمة الرسالات التى تغنى عن سائر ما تقدمها ، وأن الله قد شاء أن تعلو رسالة الاسلام وتظهر على سائر الأديان .

آخر الرسالات وخاتم النبيين :

وعندنا أن كون سيدنا محمد هو خاتم النبيين وان الاسلام هو آخر الأديان السماوية هو شاهد من الدهر على صدق سيدنا محمد وأنه رسول الله حقا وصدقا ، فقبل بعثة سيدنا محمد كانت الأنبياء والرسل تظهر هنا وهناك ، بحيث لم يكن يمضى بضعة قرون دون أن يظهر نبى ممن نعرف وممن لا نعرف حتى اذا جاء سيدنا محمد أخبر أنه خاتم الأنبياء وأن لا نبى بعده ، وصدق الزمن وصدقت الأيام ، فهـا قد مضى أربعة عشر قرنا لم يظهر فيها نبى بل أن الدعوة ارتفعت فى القرن التاسع عشر ، الى المادية والالحاد ، ونحن نشهد اليوم بدء انحسار هذه الدعوة وعودة البشر من جديد الى الايمان بالله ، وهكذا سوف تشهد الأجيال المقبلة انتصار رسالة الاسلام وسيادتها على العالمين على رغم أنف الكفرة والمشركين وكل الماديين والملحدين .

وقال بعض المفسرين : يظهره على الدين كله : أى يطلعه على الأديان كلها ، وهو اجتهاد أريد به الملاءمة بين المعنى وما هو واقع بالفعل من وجود سائر الأديان الى جوار الدين الاسلامى ، ولكن المستقبل لا يزال فى مكنون علم الله والوف السنين فى حياة البشر ليس الا مجرد فترة ، وعلى ذلك فوعد الله قائم من أنه سيظهر دين الاسلام على سائر الأديان والله تعالى أعلم بمراده . **يا أيها**

الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين .

التجارة بالنسبة للعـــرب :

بلاد العرب على أيام رسول الله حيث نزل القرآن كانت صحراء بلقع فى جزئها الأكبر وكان العرب لا يعرفون شيئا كثيرا عن الزراعة فضلا عن الصـــناعة ، والعرب أما بدو واما حضر (أى سكان المدن) . فأما البدو فقوام حياتهم الرعى، وأما الحضر فلم يكن لهم وسيلة للتكسب الا عن طــريق التجــارة ، وقــد كان العرب ينقلون تجارة الجنوب (آسيا) الى الشمال (الشرق الأوسط وأوروبا) .

فكانت لهم قافلتان عظيمتان فى الشتاء والصيف واحدة الى اليمن والثانيــة الى الشام ، ولم يكن هناك بيت فى مكة لا يكون له مال يتجر به على قدر سعته فى احدى قافلتين ، والمهم ان التجارة كانت قوام حياتهم وبالتالى شغلهم الشاغل، واذ كان القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب وراح يخاطبهم بمفاهيمهم وتصوراتهم فقد وصف القرآن الايمان والتقــوى على أنهما تجارة لن تبور واستعمل القــرآن دائما الفاظ البيع والشراء وصفا لأحوال المؤمنين « ان الله اشـــترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنـــة » .

وفى هذه الآية التى نحن بصددها يسائل الله المؤمنين الذين تتوق نفوسهم كبقية قومهم الى التجارة ، عما اذا كان يدلهم على خير أنواع التجارة التى تنجيهم (أى تخلصهم) من عذاب اليم (وهو عذاب الضمائر الحية فى الدنيا) وعذاب اهوال يوم القيـــامة .

وهذه التجارة التى دلهم عليها ، هى الايمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله بالأموال والأنفس ، ونحن نرى أن هناك فترات مصيرية فى حياة الجماعات والأمم تتطلب التضحية بكل شىء فى سبيل المصلحة العامة ، وقد كانت نصرة رسول الله والتضحية بكل شىء فى سبيل هذه النصرة ليست مسألة مصير للعــرب فى زمان معين ، وانما هو مصير البشرية كلها فى كل زمان ومكان ، فكان من الحق أن يوجه القرآن الكريم جماعة المؤمنين حول رسول الله الى أن واجبهم الأول هــو ان يتفرغوا ، بل ويكرسوا أنفسهم لخدمة قضية الايمان بالله على الصورة المشرقة التى جاء بها سيدنا محمد للبشرية وهو الايمان باله واحد لم يلد ولم يولد وانمــا هكذا كان بمحض ارادته قديما منذ الأزل وهو حى قيوم الى الأبد منزه عن الجسمانية والشبيه . وأن يكون الجهاد فى سبيل نصرة هذه العقيدة وتثبيتها فى النفوس هى تجارة المؤمنين التى تقوم عليها حياتهم .

ماذا يعنى الجهـــاد فى سبيل الله :

ويخطىء من يتصور أن الجهاد فى سبيل الله لا يعنى شيئا سوى الحـــرب والقتال فقد تكون الحرب جهادا فى سبيل الله وقد لا تكون ، وقد حارب المشركون سيدنا محمدا كأشد ما تكون الحرب ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال فى سبيل الله .

وتاريخ العرب فى الجاهلية ليس شيئا الا محاولة مستمرة لافناء بعضهم بعضا تعصبا وأخذا بالثأر وسعيا للغلبة وفى أيامنا شاهدنا حروبا لا تنقطع أظهر المتحاربون فيها ألوانا مذهلة من البسالة والاستماتة والتضحية والفداء ولم يكن ذلك كله فى سبيل الله بل وربما كان فى سبيل الشيطان ، وعندما يحارب المـــادى الذى لا يؤمن بالله فهو انما يحارب لنصرة الكفر والالحاد ، فالحرب اذن بعض سمات الـــكائن الحى يتقدم عليها فى كثير من المناسبات ،ولذلك نريد أن يفرق القراء بين مطلق كلمة الجهاد فى سبيل الله وبين الحرب ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وســـلم يقول كلما عاد من احدى الغزوات حيث حارب وانتصر « عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » وهو يعنى بالجهاد الأكبر جهاد النفس ، وذلك يبين بوضوح من نصوص القرآن حيث تقدم دائما الجهادبالمال على الجهـــاد بالنفس ، ذلك انك تجد العشرات من ألوف البشر الذين يضحون بأرواحهم فى سبيل قضية من القضايا، ولكنك لن تجد على مر التاريخ الا أفرادا يعدون على الأصـــابع وهم الذين قدموا اموالهم كلها فى سبيل الحق والخير ، أىالله ، ولقد اعتبر هـــذا النفر على مر العصور ، قديسين .

فالجهاد فى سبيل الله يبدأ من ترويض النفس البشرية ، وكبح غرائزها وميولها العدوانية وتغليب جانب الخير والاعتدال وكل ما يجعل الانسان عـــونا لأخيه الانسان ، ثم يتدرج الجهاد بعد ذلك من تربية النفس الى التعاون مع الاخرين على نصرة الحق والخير واستتباب الأمن والسلام ، وقد يتطلب نصرة الحق ، وسيادة العدل ودفع الظلم ونشر الخير ان يمتشق السلاح ويكون الانسان مستعدا أن يموت فى سبيل هذه المثل العليا ، فهنا وهنا فقط يكون هذا جهاد فى سبيل الله وهو الذى ينبه القرآن الكريم المؤمنين فى هذه الآية أنه غير مغانم الدنيا (ذلك خير لكم لو كنتم تعلمون) . ذلك أن جزاءه المحقق جنات تجرى من تحتها الأنهار بعد الموت .

ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم :

ونحن نفهم من عبارة مساكن طيبة ، انها مقامات محمودة ، ورتب عالية ، ونعيم مقيم ، تاركين الكيفية والتفصيل الى عالم الغيب والشهادة ولكن بعض المفسرين يأبون الا أن يخوضوا فى أوصاف وكيفياتوتفاصيل لم ترد فى القرآن ولا جاء بهـــا أثر صحيح عن المعصوم ومع ذلك فنحننثبتها طبقا لمناهجها وهو أن ننقـــل لك ما ليس هناك ضرر من نقله مع لفت النظر الى عدم اطمئناننا اليه ، فقد جاء فى تفسير القرطبى :

سألت عمران بن الحصين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية (ومساكن طيبة) فقال على الخبير سقطت سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : قصر من لؤلؤة فى الجنة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، وعلى كل فراش سبعون امرأة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى الله تبارك وتعالى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك كله » .

وأنت ترى أن الكلام يسوده التكلف ، وهو كما ذكرنا محاولة لوصف الغيب الذى اختص به الله ، والله تعالى أعلم .

(فى جنات عدن) يقول القرطبى أى اقامة .

وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين .

ونريد أن نقف قليلا أمام هذه الآية وما تشير اليه من أن الدين هو الحياة ، والاسلام بصفة خاصة ، يعد المسلمين أحسن اعداد لاجتياز مرحلة الحياة الدنيا فهو ليس كالأديان التى تزهد فى الحياة الدنيا بل وتبغض وتكره فيها ، وانما على العكس من ذلك يدعو القرآن المسلمين أن لا ينسوا نصيبهم من الدنيا ، بل ويأمرهم أمرا أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم حلالا طيبا .

حلاوة النصر :

وفى هذه الآية يتابع القرآن منهاجه فى الاعتراف بمباهج الحياة المشروعة فيؤكد للمؤمنين أن الجهاد فى سبيل الله أيا كان موضوعه لا يؤدى فقط الى الفوز العظيم فى الحياة الثانية ، بل هو يؤدى فى نفس الوقت الى النصر والنصر هو تحقيق ارادة الانسان وهو أعظم شىء فى هذه الدنيا وأحلى ما فيها ، والحياة البشرية هى مجموعة من عزائم الارادة الانسانية ويسعد الانسان ويحس بالرضا كلما تحققت ارادته ، وبهذا المعنى الشامل يجب أن نفهم معنى النصر ، وما دمنا قد فتحنا الباب واسعا أمام الجهاد حتى أصبح يشمل فيما يشمل جهاد النفس فكذلك يجب التوسع فى معنى النصر فهو ليس قاصرا على هزيمة الأعداء المحاربين، وانما هو يشمل أيضا النصر على الشهوات ، على الأطماع والانحرافات ، فانتصار الانسان على نفسه الامارة بالسوء لا يقل فى حلاوته عن الانتصار على أعتى الجيوش .

معجزة اسلامية :

على أن تفسيرنا الواسع للفظى الجهاد فى سبيل الله وعن النصر ، لا يجب أن يبعدنا عن المعنى الظاهر القريب وهو الاشارة الى الحرب والقتال فى سبيل الله ، وان الله عز وجل يعد المؤمنين بالنصر والفتح القريب .

ويقول المفسرون أن المقصود هو « هو فتح مكة ، ويقول آخرون ، بل فتح فارس والروم ، ونقول نحن انه وعد مطلق في كل زمان ومكان كقوله تعالى **«ان تنصروا الله ينصركم»** .

والمهم أن هذه الآية ككثير من آيات القرآن دليل على الاعجاز الالهى ، فقد حقق الله النصر للمسلمين كلما صدقوا العزم والنية .

وبشر المؤمنين :

هذا هو الوعد الالهى يبشر المؤمنين وقد لا يعرف الكثيرون أن أعظم ما يمكن أن يصل اليه المؤمن هو « الرضا » فهو ذروة ما يحصل عليه المؤمن فى هذه الدنيا ، وهذه هى البشارة أعظم البشارة .

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين .

الحواريون : هم خاصة تلاميذ المسيح وهم اثنا عشر ، وقد خانه واحد منهم وهو يهوذا الاسخريوطى .

ومن اشهر تلامذة المسيح بطرس ومرقص ومتى ويوحنا ، والمسيحيون يطلقون عليهم اسم « الرسل » .

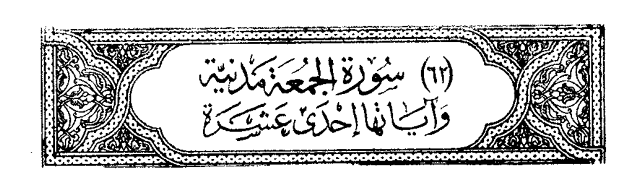
ومن عجب ومما لا يعرفه الكثيرون أن بولس أو من يسميه الغربيون **« سانت بول »** والذى تعزى اليه كل تعاليم الكنائس الغربية سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية ، لم يكن من تلامذة المسيح ولم يره فى حياته .

ظاهرين : أى عالين

وعد ثان للمؤمنين بالنصر والغلبة :

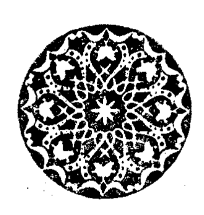
وفى هذه الآية دعوة للمؤمنين أن ينصروا الله فينصرهم الله على مخالفيهم ويعلو بهم فوقهم ، كما كان الشأن بالنسبة للمسيح فعلى الرغم من اضطهاد اليهود له حتى حملوا القائد الرومانى على الشروع فى صلبه لولا أن انجاه الله بأن القى شبهه على انسان آخر .

والمهم أن بنى اسرائيل انقسموا بالنسبة للمسيح الى فرقتين ، فرقة قليلة العدد جدا هى التى استجابت لسيدنا عيسى ، والفرقة الأكثر عددا كفرت برسالته ولكن النصر والغلبة والعلو كان لمن آمن بالمسيح ، وهو ما نراه ونلمسه ، وبمثل هذا يعد الله المؤمنين الصادقين بهذا النصر والغلبة والظهور بمعنى العلو والله تعالى أعلم . .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾
مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا
الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ
الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا
تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾



مدنية بالاجماع وحسبها أنها تشـير لصلاة الجمعة لتعلم أنها مدنية ، فلم يكن للمسلمين جمعة فى مكة ، وليس الا بعد أن هاجر رســول الله الى المــدينة أن شرع نظام صلاة الجمعة، وقيل ان سعدبن زرارةسبق بصلاة الجمعة قبل مقدم رسول الله الى المدينة ، وقيل بل مصعب بن عمير وكان رسول الله قد بعث به الى المــدينة ليفقه أهلها من المسلمين فى الدين ، فكان يجمعهم للصلاة ، وأرجح الآراء أن كلمة الجمعة مشتقة من الجماعة .

ولم يكن يوم الجمعة معروفا من قبل لدى عرب الجاهلية بهذا الاسم ، وانما كان يعرف باسم (العروبة) فألهم الله الانصار أن يقولوا ان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الاحد ، فاختاروا اليوم السابق عليهما ، وهو يوم (العروبة) كما قدمنا فجعلوه يوم المسلمين الاسبوعى وسموه يوم الجمعة ، وقداشتهر فى بادىء الامر (بجمعة الانصار) وقد وصل رسول الله الى المدينة لأول مرة يوم الاثنين لاثنى عشر خلت (أى مضت) من شهر ربيع الأول حين أشتد الضـحى (وهذا هو الحدث الـكبير الذى اعتبره سـيدنا عمر بن الخطـاب مبدأ لتـاريخ المسلمين (الهجرة) والمهم أن كتب السيرة النبوية تمضى فتقول : ان سـيدنا محمدا اقام (بقباء) وأسس بها أول مسـجد فى الاسلام ، وظل بقباء حتى يوم الخميس ثم خرج يوم الجمعة الى المــدينة فأدركته الصلاة فى بنى سالم بن عوف فى بطن وأدلهم وكانــوا قد اتخذوا فى ذلك الموضــع مسجدا (أى مكان يجتمعون فيه للصلاة) فجمع بهم سيدنا محمد وخطب فكانت هذه أول خطبة فى المدينة وأول صلاة جمعـة يؤمهـا النبى صـلى الله عليـه وسـلم وقد نقل القرطبى فى تفسيره نص أول خطبة خطبها رسول الله فى المدينة ، ولم أعثـر على نص الخطبـة فى كتب الأحـاديث الصـحيحة . كما لم أعثر عليهـا فى أكثر مراجعى ، ومن ناحيتى فلست أطمئن الى أن تكون هذه أول خطبة لرسـول الله فى المدينة فهى خطبة يمـكن أن تقال فى أى مناسبة وليس يشع منها أصداء هذا الحدث الضخم (حادث الهجرة) ومع ذلك وجريا على منهاجنا الذى اتبعناه حتى الآن ، فأنا أثبتها بنصها كما جاءت فى تفسير القرطبى ، ليكون بين يدى القـارىء هذا التفسـير اشـارة الى كل ما جاء فى كتب التفســير الشهيرة ، بعد أن أنبه الى الصحيح منها وما ليس كذلك (حسب منتهى علمى والله تعالى أعلم) .

جاء فى القرطبى ما يقال انه أول خطاب للنبى فى المدينة :

الحمد لله أحمده واستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره وأعادى من يكفر به ، وأشهد أن لا اله الا الله وحـده لا شريك له ، وأشهد ان محمـدا عبـده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من السـاعة وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصى الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا ، أوصيكم بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المسـلم المسـلم أن

يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله واحذروا ما حذركم الله من نفسه فان تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من (أمر) الآخرة ومن يصلح الذى بينه وبين ربه من أمره فى السر والعلانية لا ينوى به الا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم ، وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا **(ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد)** .

فانه يقول تعالى **((ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد))** .

هو الذى صدق قوله ، وأنجز وعده،لا خلف لذلك .

فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فىالسر والعلانية فانه **(ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا)** ومن يتق اللهفقد فاز فوزا عظيما ، وان تقوى الله توقى مقته ، وتوقى عقوبته ، وتوقى سـخطهوان تقوى الله تبيض الوجوه وترضى الرب وترفع الدرجة فخذوا بحظكم ولا تفرطوا فىجنب الله فقـد علمكم كتابه ، ونهج لـكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين،فأحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وعادوا أعداءه وجاهـدوا فى الله حق جهاده هواجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ، ولا حولولا قوة الا بالله ، فأكثروا ذكر الله تعالى واعملوا لمـا بعد الموت ، فانه من يصلحما بينه وبين الله يـكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضى على الناس ولايقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله اكبر ، ولا حول ولا قوة الا باللهالعلى العظيم .

(انتهى ما جاء فى القرطبى)

ونحن عند رأينا الذى قدمناه من انهذه الخطبة مجرد موعظة عامة مسـهبة يمكن ان تقـال فى أى زمـان ومكان ولاىصنف من المسلمين ، ونسـتبعد أن يكون الرسـول قالها فى هذه المناسبة الخطيرةويعزز احساسنا ان ائمة الحديث ، وكتب السيرة الموثوق بها لم توردها .

يسـبح لله ما فى السـموات وما فىالأرض الملك القدوس العزيز الحكيم .

التسـبيح : التنزيه ، **القـدوس :**المنزه ، العالى تستهل السورة ككثير من أوائل السور المدنية بالتسـبيح والتهـليلوالتكبير لله العلى العظيم الذى نصر عبده وفتح عليه بالهجرة الى المدينة .

ما فى السموات وما فى الأرض :

أى يعبد الله وينزهه ، كل من وما فىالسموات والأرض ، وقد كان القدامىيرون أن من فى السماء هم الملائكة ، أمـا نحنفنؤمن بذلك ، ونزيد ما بدأ يلوح علىالأفق

من ان تكون الكواكب مسكونة بمخلوقات من نوع الانسان ، والمهم أن آيات القرآن تتسع لكل تطور ولكل ما يمكن أن يكشف عنه الزمن ، فليصعد الانسان الى القمر أو المريخ فلتكن الكواكب مسكونة لبعض خلق الله فان كل ما فى الكون يسبح بعظمة الله ورفعته ووحدانيته وسموه وحكمته التى أبدعت الكون على هذا النسق البديع المحكم الدقيق .

هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

الاميون : جمع امى ، وهو الذى **لا يقرأ ولا يكتب .**

العرب قبل الاسلام :

ولقد حاول بعض غلاة المتطرفين أن يخرجوا كلام القرآن فى الآونة الأخيرة عن معناه العربى الفصيح المتفق عليه عبر القرون فقالوا : ان الأميين لا تعنى الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، وانما هى تعنى من لم يكن يهوديا ، وقد تعرضنا لهذا الموضوع بدراسة مستفيضة فى كتابنا (نبى الانسانية) الذى أصدره المجلس الاسلامى الأعلى: فنكتفى هنا بنقل نبذة مما قلناه بهذا الصدد :

الشعب الامى :

عندما يحدثنا القرآن الكريم عن الشعب الامى والنبى الامى فهذا لا يعنى سوى معنى واحد هو الذى فهمه منه العرب الذين خوطبوا بهذا القول ، ووصفوا بهذا الوصف وفهمه منه الصحابة ، فيما نقله عنهم كل من تصدى لتفسير القرآن الكريم من أن الامى هو الذى لا يعرف القراءة والكتابة والشعب الامى هو الشعب الذى لا تعرف أغلبيته العظمى القراءة أو الكتابة وانا لنأسف لهذه المحاولة الطائشة التى بدأت فى الآونة الاخيرة لمحاولة اخراج هذه الكلمة عن معناها ، وانها لا تعنى الجهل بالقراءة والكتابة فهى منسوبة الى «الأمم» وهى تعنى عند اليهود الشعوب غير اليهودية ، وعلى ذلك فليس يعنى وصف سيدنا محمد بأنه أمى انه لا يعرف القراءة والكتابة ولكن ذلك معناه انه من أمة غير امة اليهود .

أما لماذا سمحنا لأنفسنا فى معرض جدل علمى أن نصف هذه المحاولة بالطيش ، فذلك لان ذلك هو أبسط ما يمكن أن توصف به هذه المحاولة من الناحية العلمية البحتة .

فحجة القرآن القاطعة التى يفحم بها العرب من حيث ان القرآن وحى أوحى به الى سيدنا محمد هو انه أمى لا يعرف القراءة والكتابة ، فمن أين له وهذا شأنه أن يؤلف مثل هذا الكتاب ؟

تلك هى حجة القـــرآن التى ســـاقهاللرد على مزاعم قريش ، والحجة فـــوق انها تحمل فى طياتها التسليم بأنه لو كان سيدنا محمد يعرف القراءة والكتابة لجاز أن يؤلف القرآن ، فانهـــا صرحت بهذا المعنى بطريقة صريحة وذلك بقوله : ــ **وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون** (العنكبوت ٤٨) .

وهذا قول صريح فى أن سيدنا محمدالا يعرف القراءة والكتابة .. ولو انه كان يعرف لجاز للمبطلين أن يتشككوا ويرتابوا فى أن يكون قد تعلمه من غيره ونقله عن كتبهم ، فأما وهو لا يعرف القراءة والكتابة،فلم يعد من الجائز الارتياب أو التشكك .

ونستأنف شرح الآية فنقول : ان الله سبحانه وتعالى يلفت نظر اليهود بخاصة والدنيا بعامة الى اعجازه الالهى فى بعثة سيدنا محمد ــ من بين أقـــوام لم يكونوا يقرأون ويكتبون ، وبالتالى لم يكن لهم كتاب فضلا عن علم سابق ، ومع ذلك فقد انبثق سيدنا محمد من بين صـــفوفهم ليكون منار الحكمة والهدى وكل ما هو فاضل وجليل ، لا بالنسبة للعـــرب فحسب ، بل بالنســـبة للانسانية كلها فى سائر العصور .

ويوصف القرآن ما كان عليه العرب قبل الاسلام بأنه جاهلية ، وهو هنا يصف الجاهلية بأنها ضلال مبين ، وعندما يقرر القرآن فكل قول بعد ذلك هو اللغو .

وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العـــزيز الحكيم .

فى هذه الآية ما يشير الى ما فصله القرآن بعد ذلك من أن الرسول صلوات الله عليه قد بعث الى البشرية كافة ، ذلك أن يهود ذلك الزمان زعموا أن سيدنا محمدا قد بعث للعرب فقط مستندين لهذه الآية التى تتحدث عن الاعجاز فى بعثة النبى من وسط العرب ، مع أن كل آيات القرآن المكية كانت تقول ((**أيها الناس**))

((**يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا**)) .

وفى هذه الآية التى نحن بصددها تشير الآية الى ((**الاخرين**)) الذين لم يكونوا بعد ، الى الأجيال المقبلة .

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ نزلت عليه سورة الجمعـــة فلما قرأ وأخرين منهم لما يلحقوا بهم ، قال رجل : من هؤلاء يا رسول الله فلم يراجعه النبى صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثا ، قال وفينا سلمان الفارسى قال فوضع رسول الله يده على سلمان ثم قال : لو كان الايمان عند الله الثريا (أى نجم الثريا) لناله رجال من هؤلاء .. وفى رواية : لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس ، أو قال من أبناء فارس حتى يتناوله (لفظ مسلم) .

وقال عكرمة : هم التابعون وقـــال مجاهد : هم الناس كلهم . وعندنا أن مجرد

اشارة سيدنا محمد الى سلمان الفارسي تعنى أنه رسول العجم مثل ما هو رسول العرب ، وقد كان العرب يعتبرون كل من ليس من العرب أعجميا ، وقد أفصح رسول الله عن ذلك بصريح اللفظ فقال قوله المشهور فى حجة الوداع لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . وهو ترديد لاى القرآن الكريم ((**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا:ان أكرمكم عند الله أتقاكم**)) .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

افترق المفسرون فيمن هو المعنى بهذه الآية من حيث فضل الله عليه ، اهم العرب من حيث أن الله فضلهم ببعثة سيدنا محمد من بين ظهرانيهم ، أم هو سيدنا محمد نفسه حيث اختاره الله واجتباه من بين البشر ليكون هو دون غيره رسوله الى العالمين .

ونحن نرجح هذا المعنى ، فلا فضل لأى عربى لا يؤمن بسيدنا محمد وقد لعن القرآن عم سيدنا محمد بالذات (**تبت يدا أبى لهب وتب**) لانه كفر بسيدنا محمد وقد ذهبت أرواح زعماء قريش وهم من خاصة العرب الى جهنم وبئس المصير لانهم قاوموا سيدنا محمدا وقاوموا دعوته الى التوحيد ومكارم الأخلاق ، فعندما يقول لنا القرآن ((**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**)) فذلك رد على من كان يستكثر من اليهود والمشركين ان يكون الله سبحانه وتعالى قد اختار سيدنا محمدا بالذات لتبليغ رسالته فكان اليهود يقولون : لو أراد الله أن يبعث نبيا ، لارسله من بين صفوفنا ذلك انهم قد احتكروا الله بزعمهم لأنفسهم فهم أبناؤه واحباؤه ، وبقية البشر (من سقط المتاع) فى ذات الوقت الذى كان فيه المشركون يقولون : لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .

وهنا يرد القرآن الكريم على هؤلاء المتقولين بأن ذلك هو ((**فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**)) .

فهو رب البشر كافة ، وليس رب شعب معين أو طائفة وهذه احدى الدلالات على صدق سيدنا محمد وانه رسول من رب العالمين ، ففى بيئة بلغ التعصب فيها مداه حتى لتحارب كل قبيلة جارتها ، ولم يكن للناس هم الا التفاخر بالانساب ، جاء سيدنا محمد ليقول : ((**أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب**)) .

اشهد أن لا يقول ذلك فى هذا العصر السحيق ، الا نبى من رب العالمين .

وثمة قول ثالث قيل بمناسبة هذه الآية، نثبته نزولا عند منهاجنا وهو أن ننقل لك كل ما جاء فى التفاسير المشهورة مما لا يكون فى نقلها أى ضرر (كموضوع الاسرائيليات)

جاء فى تفسير القرطبى ما يأتى :

روى مسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك : قالوا : يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم« أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم الا من صنع مثل ما صنعتم ، قالوا . بلى يا رسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة (أى عقب الصلاة) ثلاثا وثلاثين مرة قال أبو صالح فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :« سمع أخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء «**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين .**

أسفارا : أى كتبا كبارا — وسمى الكتاب سفرا لانه يسفر أى يكشف عن المعنى .

اليهود :

تحدثنا فى تفسير سورة الحشر عن التطورات التى تطورت فيها العلاقات بين اليهود وسيدنا محمد وكيف بدأت بانحياز اليهود الى سيدنا محمد باعتباره النبى الموعود الذى تبشر به كتبهم ، أو بالاحرى التوراة التى كانت تشير اليه ، ولكن اليهود سرعان ما وجدوا ان دعوة النبى تهدد مصالحهم وحسبه انه يدعو الى تحريم الربا ويعتبره من أكبر الكبائر مع أن الربا هو قوام حياتهم ، ومن هنا فقد بدأوا يتنكرون لسيدنا محمد وينكرون نبوته فلما شرع سيدنا محمد يحاججهم بأن ما يدعو اليه هو عين ما تدعو له التوراة ، بدأوا يحرفون فى التوراة ويؤولون أقوالها لتتفق مع أهوائهم ، وفعلوا ما هو أكثر من ذلك ، اذ أخفوا بعض أجزاء من التوراة وانتهى بهم الامر الى أن ضربوا عرض الحائط بكل أحكامها ، ومن هنا نزلت هذه الآية التى نحن بصددها ، تضرب هذا المثل الرائع لموقف اليهود الذين يتشدقون بأنهم حملة التوراة وأصحابها ، ثم لا يعملون بها فأشبه حالهم حالة الحمار (أو أى دابة من دواب الحمل) تحمل فوق ظهرها كل علوم الدنيا فى صورة كتب وهى لا تحس ولا تشعر بما تحمله .

كالعير فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

وهؤلاء اليهود انما يظلمون انفسهم **بفعلتهم هذه ، والله يدع** الظالمين وشأنهم، فلا يهديهم ، وانما يتركهم وشأنهم الى أن تحين ساعة حسابهم .

ـ قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين . ولا يتمنونه ابدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين . قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .

الذين هادوا ، أى اليهود

وكانت اليهود (وما يزالون) يتصورون انهم (**أبناء الله وأحباؤه**) وان الله قد اختصهم لنفسه من دون البشر ، ولكن الله سبحانه وتعالى كما يقررون هم أنفسهم قد غضب عليهم بعد ذلك ولعنهم بما كفروا وكانوا يعتدون ، وعبادة اليهود ذروة العبادة هو البكاء والندم ، ولكنهم فى مواجهة سيدنا محمد أخذتهم العزة بالأثم فراحوا يقاومونه ويكفرون بدعوته ، بحجة أنهم هم المتعبدون أولياء الله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومن هنا فان القرآن يبهتهم ويتحداهم فان كانوا حقا وصدقا يعتقدون أنهم آمنوا من غضب الله فليتمنوا الموت ، ليلحقوا بجوار ربهم ويحظوا بنعيمه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك أبدا فلن تجد فى الدنيا كلها من هو شديد الحرص على الحياة من اليهود ذلك بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

وليس خوفهم المبالغ فيه من الموت الا شعورا منهم بما ارتكبوا من آثام اذا غابت عن علم الناس فلا تغيب عن علم الله .

على ان الموت الذى يحاول اليهود أن يفروا منه ، فانه ملاقيهم (**كل نفس ذائقة الموت**) ثم يرجع الجميع الى مالك الملك العزيز الديان ، فيحاسب كل نفس بما كسبت ، (عالم الغيب والشهادة) هو الله عز وجل ، فهو الذى انفرد بعلم الغيب أى ما وراء الظاهر وأحاط بعلم الكون المشهود ، أى المنظور وان كان قد سمح للانسان بقبس من هذا العلم الظاهر ولقد تحدثنا فى تفسير سورة « تبارك » عن الموت ، وكيف أنه الحقيقة الوحيدة فى هذه الدنيا باعتباره الظاهرة الوحيدة التى لم تتغير ولم تتبدل مذ كان الانسان انسانا والتى يقف منها انسان القرن العشرين ؛ كما وقف منها انسان ما قبل التاريخ ، أى موقف العجز والقصور المطلق حياله ، وهو ما يذكر به القرآن جماعة اليهود ومن لف لفهم على مر العصور ، بالغرور والصلف والكبرياء والعناد والتعالى على البشر .

يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون .

يا أيها الذين آمنوا

بعض الملاحظات التى لاحظها الدارسون للقرآن ، ان الاغلب والاعم فى آيات القرآن ، ان ما كان مبدوءاً « بيا أيها الناس » فهو مكى ، أما ما كان مبدوئا بيا « أيها الذين آمنوا » فهو مدنى ، فيما خلا بعض استثناءات طفيفة يحصرونها والقاعدة منطبقة هنا : فالسورة مدنية باتفاق .

نودى للصلاة : الآذان

فى هذه الاية اشارة للاذان للصلاة ،وهو نص على أن يدعى الناس للصلاة « حى على الصلاة » وليس بأى اسلوب آخر وكان بعض مسلمى المدينة ، قد اقترحوا على رسول الله اسلوبا لدعوتهم للصلاة كأن يقرع أحد ناقوسا ، أو ينفخ أحد فى بوق فأعرض رسول الله عن ذلك كله ، الى ان رأى أحد الصحابة صيغة الاذان فى منامه ، وشهد سيدنا عمر بن الخطاب نفس الصورة فى منامه ونفس الصيغة ، فأدرك سيدنا محمد أن ذلك قدتم بالهام من الله عز وجل ، فطلب من الصحابى أن يعلم بلالا نص الاذان كما رآه فى رؤياه ليؤذن به بلال باعتباره أندى صوتا وهكذا تم الاذان للصلاة الذى أصبح بمرور الايام أجمل ما يتحلى به المجتمع الاسلامى وكان هو الالهام لانشاء مآذن المساجد ترتفع شامخة صوب السماء شاهدة بقيامها على أن الله واحد .

صلاة الجمعة

وصلاة الجمعة طبقا لهذه الاية هى فرض عين على كل مسلم وليس كما يقول البعض من أنها فرض كفاية .

روى أبو داود والنسائى عن السيدة حفصة أم المؤمنين « على كل محتلم (أى بالغ) رواح الجمعة ، وعلى كل من راح الجمعة الغسل » .

وعن طارق بن شهاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة الا أربعة عبد مملوك أو امرأة أو صبى أو مريض) رواه أبو داود والبيهقى والحاكم .

شروط الجمعة :

وقد تضمنت كتب الفقه كل ما يتصل بصلاة الجمعة ووقتها وأركانها وشروطها فليرجع اليها من يريد التفصيل .

فاسعوا الى ذكر الله :

جرى خلاف فى مفهوم هذه الاية فقد تصور البعض أنه يتعين عليه أن يهرول لصلاة الجمعة على اساس أن السعى هو السير الحثيث ، ولكن البعض الاخر يرى أن السعى هنا ليس بلازم أن يكون بمعنى الاسراع فى السير .

قال الحسن : والله ما هو بسعى على الاقدام ولكنه سعى بالقلوب والنية ، (أى القصد) .

والثانى السعى بمعنى العمل كقوله تعالى **((ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن)) وقوله ((ان سعيكم لشتى)) وقوله ((وأن ليس للانسان الا ما سعى)) وهذا قول الجمهور .**

والذى يجب أن يتبع فى الذهاب الى المسجد ، هو أن يلتزم الانسان بالسكينة والوقار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **((اذا اقيمت الصلاة فلا تاتوها تسعون (أى تعدون) ولكن ائتوها وعليكم السكينة)) .**

وذروا البيع :

نص على وجوب ترك البيع بمجرد النداء على صلاة الجمعة ، والمفهوم من ذلك بطبيعة الحال هو التوقف عن كل صنوف المعاملات وقد ذكر البيع باعتباره أهمها واخطرها واذا كان التوقف عن البيع واجب فان التوقف عما عداه أوجب على أن النص على البيع بالذات جعل الفقهاء يتساءلون عن حكم البيع الذى يتم وقت صلاة الجمعة فقال البعض انه يكون مفسوخا .

واذا كنا فى مجتمعنا المعاصر نطبق القانون الوضعى الذى لا يأخذ فى اعتباره وقت صلاة الجمعة وتأثيرها على صحة العقود ، فيجدر بالمسلم الذى يريد أن يحترز لدينه أن لا يتعامل بأى صنوف المعاملات وقت صلاة الجمعة بالذات .

ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون :

هذه الاية هى التى استند عليها من يقول بعدم فسخ البيع على اساس أن الامر بترك البيع هو للندب وليس للوجوب ، ونحن عند رأينا فى الاحتراز لديننا بالنزول عند كل ما أوصانا به القرآن ، فاذا جاءت الضرورة فالضرورة تبيح المحظورة ، وفقنا الله الى كل ما فيه خيرنا .

فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .

امر بمعنى الاباحة :

واول ما يصادفنا من هذه الاية هو الامر بالانتشار عقب الصلاة والسعى فى طلب الرزق ، والجمهور على أن الامرهنا هو لمجرد الاباحة أى أنه لا جناح على أى مؤمن ان هو أشتغل بعد الصلاةبما يفيد ، وعندنا ان القرآن فى تعبيره بهذا الاسلوب أراد أن يحول بين المسلمين وبين أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود عندما اعتبروا أن من أكبر الكبائر هو العمل فى يوم السبت ، فقد كان ذلك مبالغة منهم وجنوحا وردة الى الوثنية ، فقد زعموا أن الله بنى الدنيا فى ستة أيام ثم (استراح) فى اليوم السابع وهو يوم السبت ، ومن هنا جعلوا أى ضرب من ضروب العمل يوم السبت فى مرتبة الكفر بالله ، ولقد جاء القرآن ليصحح هذه المفاهيم الخاطئة التى انحرف اليها اليهود فحقا بنى الله الدنيا فى ستة أيام (أى ستة أطوار) وما كان الله سبحانه وتعالى بالذى يتعب من خلق الدنيا حتى (يستريح) ويقول القرآن باسلوبه الرفيع **(ثم استوى على العرش)** وهو دائما وابدا مستو على عرشه بما يليق بكماله وجلاله ، وتنزهه عن الكيفية .

ومن هنا أراد القرآن الكريم أن يحصن المؤمنين من أن ينزلقوا الى ما انزلق اليه اليهود من أن هناك يوما فى الاسبوع يحرم فيه العمل بحجة أن الله استراح فى هذا اليوم ، فكان هذا الامر بالانتشار فى الارض والابتغاء من فضل الله ، عقب الصلاة مباشرة ، لتكون الصلاة الجامعة هى العلة فى وجوب التوقف عن الاعمال ولذلك فنحن من رأى من قال أن الامر هنا للاباحة وليس للوجوب .

وقال البعض أن المقصود من (وابتغوا من فضل الله) هو طلب العلم وصلاة التطوع .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شىء من الدنيا انما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة الاخ فى الله تعالى وعندنا أن ذلك كله داخل فى مفهوم **(وابتغوا من فضل الله)** ولكن السعى فى طلب الرزق هو أعظم ما يلتمسه الانسان من فضل الله ، ولكى يخالف المسلمون اليهود والا فاليهود لا يمتنعون عن العبادة يوم السبت .

ومن الغريب أنه توجد حتى الآن أحزاب فى اسرائيل يقوم كل نشاطها على محاربة اى عمل ونشاط انسانى فى يوم السبت تأسيسا على فكرة أن الله عز وجل (استراح) يوم السبت ، وهو ما برىء المسلمون من القول به .

واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون

هذه هى وصاية القرآن الدائمة للمؤمنين أن لا يكفوا عن ذكر الله فى كل مناسبة بكافة أنواع الذكر كالبسملة عند ابتداء أى أمر ، والحمد له (الحمد لله) فى أعقاب أى أمر وهكذا اذ أن ذلك هو طريق الفلاح (لعلكم تفلحون) .

الطبيعة البشرية واحدة :

جاء فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام ، فانفتل اليها الناس حتى لم يبق الا اثنا عشر رجلا — فى رواية أنا فيهم —فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة (واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائمـــا » .

الى هنا ينتهى حـــديث مسلم ، ولكن البعض زاد على الحـــديث بعض شروح واضافات ، فقال الكلبى وغـــيره (على ما جاء فى القرطبى) ان الذى قدم بها دحية ابن خليفة الكلبى من الشام عند مجـــاعة وغلاء ســـعر ، وكان معه جميع ما يحتاج الناس اليه من بر ودقيق وغيره فنزل عند أحجـــار الزيت ، وضرب بالطبـــل ليؤذن الناس بقدومه ، فخرج الناس الا الاثنى عشر رجلا (انتهى) .

ويشتم من هذا القول رائحة الدفاع عمن فعل هذه الفعلة (وانه كان مجـــاعة وغلاء أسعار) وينسى أصحاب هذا الدفاع أن الاية الكريمة لم تقتصر على ذكر التجارة وانها هى التى صرفت الناس اليها وانمـــا ذكرت أيضا (اللهو) .

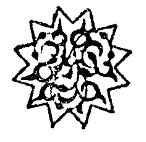
ونحن نستطيع الان بعد أربعة عشر قرنا أن نفهم هذا الذى كان يحدث اذ أن صورته مازالت تتكرر حتى الان فى صـــلاة العيـــدين ، حيث لا تزال الخطبـــة عقب الصلاة ، اذ لا تكاد الصلاة (صلاة العيد تنتهى) حتى يبادر الكثيرون الى مغـــادرة المسجد تصـــورا منهم ، أنهم وقـــد أدوا فريضة الصلاة فلا عليهم أن لا يستمعوا الى الخطبة ، ولذلك فقد حول رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الجمعة قبل الصلاة وبقيت خطبة العيد كما كانت بعد الصلاة ، بحيث نرى فيها عين ما كان يحـــدث أيام رسول الله عندما كانوا (كما يحكى) القرآن يتركونه قائما يخطب ليشغلوا بالتجارة ، أو اللهو ، ويذكر القرآن جماهير المؤمنين ما يعرفونه جيدا ولكن الشـــيطان ينسيهم اياه فى زحمة الحياة ، وهو أن ما عند الله للمحسنين من الثواب ، ما هو خير من اللهو والتجارة ، وأن الله هو خير الرازقين يرزق من يشاء بغير حساب .

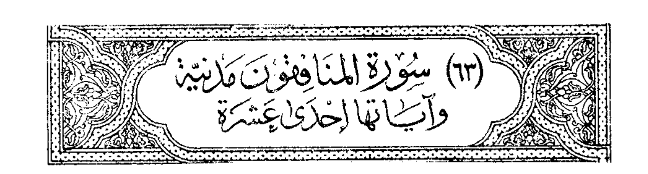
دين الوحدة والجماعة :

وعلى ذكر صلاة الجمعة التى تجمع مؤمنى (المصر كله — أى البلد كلهـــا) تبدو خصيصة الاسلام الكبرى بعد كونه دين (التوحيد) من أنه دين الجماعة لانه دين الحياة ، والجماعة هى قوام الحياة ، ومن هنا حض رسول الله على الجماعة .

فاذا كانت صلاة الانسان (الفذ) أى الواحد عليها ثواب الصلاة فان صلاة الانسان مع الجماعة يتضاعف ثوابهـــا بضعا وعشرين مرة ، وذلك رغبة من الله عز وجـــل أن يتجمع النـــاس ويتعاطفوا ويتساندوا . واذا كانت الصلوات الخمس يوميا قد لا تضم الا المتقـــاربين جدا (فى السكن) فقد كانت صلاة الجمعة كل اسبوع ،

لتضم جماعة اكبر من المؤمنين ، ثم كانت صلاة العيد لتضم حشدا اكبر واكبر ، ولم يقف الاسلام عند هذا الحد بل أبى الا ان يحشد المسلمين من سائر أرجاء الدنيا فى صعيد واحـــد وذلك فى منســـك الحج مماسنفصله فى حينه ، والمهم أن الاسلام كما هو دين توحيد الالوهية فهو دين تجميع البشر ، ولن ينهض المسلمون من كبوتهم الا اذا أدركوا هذه الحقيقـــة ، فعـــادوا للتجمع وآمنوا حقا وصدقا ان يد الله مع الجماعة وفقنا الله الى ما فيه الخير .





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ
ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ
وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ
وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سورة مدنية :

مدنية باتفاق ، وحسبك أن تطالع فى أى سورة من سور القرآن حديثا عن المنافقين لتكون متأكدا من أن السورة مدنية ، ذلك أنه كان من غير المعقول أن يتواجد من ينافق سيدنا محمدا فى مطلع البعثة فى المجتمع المكى ، فقد كانت السلطة فى أيدى المشركين والأغلبية الساحقة للمشركين وزعمائهم ، وكان سيدنا محمد يعتبر خارجا على التقاليد ، مارقا من دين الجماعة وهو الوثنية ، ولم يكن اتباعه يلقون الا الشر والأذى وكانوا يصادفون كل أنواع التعذيب حتى كان سيد بلال (أى من يملكه) يخرجه اذا اشتد قيظ الشمس وقت الهجيرة ويرقده عاريا على الحصى وينهال عليه ضربا بالسياط وهو لا يفتأ يردد « أحد احد » وما منع سيده من أن يقطع أوصاله أو يقتله الا انه كان يعتبره مالا وتقطيع أوصاله يفقده المال ، ولذلك فقد كان يقف عند حد تعذيبه بهذا الاسلوب الى أن اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه ولذلك فقد كان سيدنا عمر يقول وهو فى أوج عظمته تواضعا منه : سيدنا (أى أبو بكر) أعتق سيدنا (أى بلال) وهو لا يقدم بلالا على نفسه الا لسبقه فى الاسلام وما تحمّله فى سبيل ذلك ، ولم يكن ما لاقاه بلال الا صورة مما عاناه المسلمون الأوائل كآل ياسر (الذين كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يمر عليهم فسمع أنينهم لفرط ما يلقون من العذاب فلا يملك الا أن يقول لهم ((صبرا آل ياسر موعدكم الجنة)) .

وربما تكون هذه الصورة قد خفت بعض الشىء بعد اسلام سيدنا عمر وحمزة عم النبى ، ولكن الذى حدث أن الاضطهاد تحول من الارقاء الى السادة ، فأخذ صورة جديدة تتناسب مع كونهم سادة ينتمون الى اسر عريقة تتعصب لهم ، ومع ذلك ظل الاضطهاد هو الاضطهاد وليس أدل على ذلك من أن المسلمين الأوائل اضطروا للهجرة الى الحبشة مرتين ، والمهم انه وسط هذا الجو فمن غير المعقول أن يوجد من يتظاهر بالاسلام ، حيث يكلف الاسلام صاحبه عنتا وينافق المنافق ليأمن على نفسه وماله ، وليجر لنفسه مغانم لا ليخسر .

تغير الموقف بعد الهجرة :

هذه الصورة قد تغيرت عقب هجرة النبى صلوات الله عليه الى المدينة فهو لم يهاجر اليها الا بعد أن نشأ بها الاسلام ، وأصبح المسلمون هم أصحاب الكلمة العليا ، بحيث لم يكن ينقصهم الا أن يهاجر رسول الله اليهم ليقوم المجتمع الاسلامى الأول ، بشرائعه ونظمه والأداة التنفيذية التى تضع ذلك موضع التطبيق والتنفيذ .

معجزة الهية :

وعندنا ان كل ما يتصل بسيرة سيدنا محمد من نوع الاعجاز الالهى ، فهو الذى خلق الجو والظروف لتكون المدينة هى المسرح الذى ستجرى عليه أعظم ملحمة عرفها

البشر أو سوف يعرفونها ، لاقرار السلام وتحرير النفس البشرية من الخضوع الا لله الواحد الأحد وحسبك أن تعرف أن المدينة كانت مسكنا لقبيلتين من قبائل العرب (الاوس والخزرج) وكعادة العرب لا يحسنون الا أن يقتل بعضهم بعضا وضاعف فى هذا الروح تواجد اليهود بينهم، فأججوا العداوة بين القبيلتين فثارت بينهم الحروب التى كادت تفنيهما معا لولا أن تداركتهم نعمة الاسلام فقدا تسابقت كلتا القبيلتين لاعتناق الاسلام ليتفوق به على الاخرى فلما استضاءت عقول القوم وقلوبهم بنور الاسلام اذ به يستل الحقد من قلوبهم ، واذا بهم بنعمة الله اخوانا ، ولهذا يشير القرآن الكريم بقوله : « **واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » ١٠٣ م **آل عمران ٣ — « والف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم**» ٦٣ م **الأنفال ٨ .**

مجتمع المدينة عام الهجرة :

ولذلك فعندما نزل الوحى على سيدنا محمد يأذن له بالهجرة ، أو بالاحرى يأمره بالهجرة ، فقد كان كل شىء معدا لهذه المرحلة الجديدة ، فى تاريخ الاسلام ، كان كل من فى المدينة يتسابق لخدمة سيدنا محمد والانصياع لأوامره ، وتحدثنا كتب السيرة عن وصول سيدنا محمد الى المدينة، وكيف تظاهر النساء والأطفال قبل الرجال لاستقباله ، وراحوا لاول مرة فى تاريخهم ينشدون الأناشيد الجماعية (**طلع البدر علينا**) مما سنفصله بعد بمناسبة آيات أخرى ولم يكن اليهود بأقل حماسة فى استقبال النبى ، طمعا منهم كما هو شأنهم أن يسخروا هذه القوة الجديدة لحسابهم ، وقد رأينا كيف خاب فألهم ، واحبط الله كيدهم .

وسط هذه الموجة العارمة من الترحيب بسيدنا محمد ، والتسليم الاختيارى من جميع الأطراف بقيادة سيدنا محمد باعتباره رسول الله ، وهو فى كل ما يقول أو يفعل ينفذ أوامر الله التى ينزل بها الوحى كان من الطبيعى أن تتأذى مصالح بعض افراد بهذا الوضع الجديد فكرهوا مقام سيدنا محمد بينهم ، وكرهوا بالأكثر أن تكون كلمته هى العليا باعتبارها كلمة الله ، وفى ذات الوقت كانوا أجبن واضعف من أن يجاهروا برأيهم ، حرصا على أن يظلوا متمتعين ببعض مكانتهم القديمة عند اتباعهم الذين اعتنقوا الاسلام وأصبح سيدنا محمد والايمان برسالته اعظم من الدنيا بكل من وما فيها ، ومن هنا وجدوا أنفسهم مضطرين أن يظهروا عكس ما يبطنون ، ويقولون فى الخفاء ويدبرون بعض ما رأيناه من التآمر مع اليهود فى سورة الحشر ، وما سنراه فى هذه السورة التى خصصت لهم والكشف عن أحوالهم .

سيدنا محمد لم يكن حاكما متسلطا :

ولم يكن المنافقون يخشون بطش سيدنا محمد بهم ، فقد آمنوا جانبه بتظاهرهم بالاسلام ، ولم يكن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حاكما متسلطا يقتل على الظنة

والشبهة ، كما قال أحد الخلفاء(١) فيما بعد(وأيما غلام يبلغ سبعة أشــبار ، تتهمه فاقتله) .

وقد صدع من ألقيت هذه المهمة اليهبها على الوجه الأكمل ، حتى لقد قتل على ما يقال مئات الالوف ، كلا لم يكن سيدنا محمد كذلك وهو ما يؤكد فوق كل تأكيد أنه لم يكن بشرا عاديا ، وانما كان رسول اللهرب العالمين ، ولذلك فقد آمن المنافقون جانبه بمجرد أن نطقوا بالشهادتين ، وراحوايصلون مع الجماعة ، ولكن أخوف ما كان المنافقون يخافونه ، هم أتباعهم القدامى الذين أصبح الاسلام منهم يجرى مجــرى الدم ، وسوف ترى كيف أن عبد الله بن أبى،كبير المنافقين كاد أن يفقد حياته على يد ابنه بالذات لولا أن منعه رسول الله منذلك .

علامة المنافق :

وقد حددا رسول الله صلى الله عليهوسلم العلامات التى يعرف بها المنافق فقال وقوله الحق والصدق : آية المنافق ثلاث :((اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أؤتمن خان)) .

وفى رواية (واذا خاصم فجر) وتدبقى أن نعرف أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ذلك أن المنافق اشد خطرا منالعدو الصريح لانه بتظاهره بالصداقة يقف على أسرار الانسان ، فاذا ضرب فهو يضربفى الصميم ، ولذلك قال القــائل : اللهم احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا أتكفلبهم .

والمقصود بطبيعة الحال هم الأصدقاء الذين يتظاهرون بالصــداقة ويبطنون عكس ما يظهرون ، وليس هناك ما هو أشدخطرا على الحــكام من أن يقعوا فى يد المنافقين ، فليحذر كل مؤمن من أن يكونمنافقا ، وأسوأ أنواع النفاق ومالا عذر فيه لأحد هو ما يتطوع به البعض تطوعا ، لا ليدفع عن نفسه مضرة ، ولكن ليجد لنفسه نفعا على حساب الاضرار بالآخرينوليحذر الحــكام فى كل زمان ومكان من المنافقين ، فاذا كان سيدنا محمدا قد نجامن شرهم ، فما ذلك الا لان الله كان معه يرشده عليهم ، وينبهه الى خطرهم كما هوالشأن فى هذه السورة .

تفسير السورة من كتب التفسير :

وليس هناك ما يجعلك تفهم كل حرففى هذه السورة ، والمناخ والجو الذى نزلت فيه ، أكثر من أن ننقل لك ما ورد فىكتب السيرة المعتمدة ما جــاء حول هذه السورة وسبب نزولها ، وما تشير اليهآياتها من الحوادث ، وهذا هو الشــأن

---

(١) عبد الله الســفاح أول خلفاء بنى العباس .

بالنسبة لكثير من السور المدنية ، اذ تلقىعليها حوادث السيرة النبوية الضـــوء ، وهذا هو ما حدا بنا لكتابة سيرة الرسولممتزجة بتفسير القــرآن فى كتابنا (نبى الانسانية) الذى تفضل المجلس الاسلامىالأعلى فأصدر جزءه الاول ، فنقول وبالله التوفيق .

غزوة بنى المصطلق :

يقول ابن هشام فى كتابه العظيم :قال ابن اسحق ، بلغ رسول الله أن بنى المصطلق يجمعون له (أى يستعدون لحربه) .. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، خرج اليهم ، حتى لقيهم(وانتصر عليهم) ثم حدث أن وقع صدام بين تابع لعمر بن الخطاب وواحد من الأنصار ، فتصايح كل منهما مستنجدا هذا بالمهاجرين وذاك بالأنصار) .

فغضب عبد الله بن أبى بن سلول(كبير المنافقين) وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث .

فقال عبد الله بن ابى ، أو قد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله (أن حالنا وجلابيب قريش(كلمة سب يعنى بهاالمهاجرين) الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لو رجعنـــا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم قال لمن حضره من قومه : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم (أموالكم) لتحولواالى غير دياركم فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله عليهوسلم وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، فأخبره الخبر وعندهعمر بن الخطاب فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال له رسول الله صلى اللهعليه وسلم : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، لا ولكن أذنبالرحيل وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها ، فارتحلالناس وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول الى رسول الله حين بلغه أن زيدا بن أرقمقد بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله (أنه) ما قال (الذى قلت) ولا تكلم به ، وكان فىقومه (أى عبد الله بن أبى) شريفا عظيما، فقال من حضر رسول الله صلى الله عليهوسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثهولم يحفظ ما قال الرجل حدبا ودفعا عنه ، قال ابن اسحق : فلما استقل رسول اللهصلى الله عليه وسلم وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثمقال : يا نبى الله والله لقد رحلت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها ، فقال لهرسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟

قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال عبد الله بن أبى ، قال : وماذا قال ؟ قال : زعم انه ان رجع الى المدينة أخرجالأعزمنها الأذل ، قال : فأنت يا رسول الله والله

تخرجه منها ان شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به (أى ترفق به) **فوالله لقد جاءنا الله بك ،وان قومى لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فانه ليرى انك قد سلبته ملكا ، ثم مشىرسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس** يومهم هذا حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم **نزل بالناس فلم يلبثوا ان وجدوا مسالأرض (حتى) وقعوا نياما ، وانما فعل** ذلك رسول الله ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن **ابى (أنظر حكمة الرسول العالية ، وكيفعالج الموقف) ونزلت السورة التى ذكر الله** فيها المنافقين فى ابن أبى ومن كان على مثلأمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد ابن أرقم (أى أمسك بأذنه) وقال هذا الذى أوفى لله بأذنه .

وبلغ الخبر الى عبد الله بن عبد اللهبى ابى ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول اللهأنه **بلغنى انك تريد قتل عبد الله بن أبى** (أى والده) فيما بلغك عنه ، فان كنت لابدفاعلا فمرنى به فأنا احمل اليك رأسه فوالله ما علمت الخزرج ما كان فيها من رجلأبر بوالده منى ، وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر الىقاتل (أبى) يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار ، فقال رسولالله صلى الله عليه وسلم : **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا** ، وجعل بعدذلك اذا أحدث الحدث (أى عبد الله بى أبى) كان قومه هم الذين يعاتبونه ويؤاخذونهويعنفونه . فقال رسول الله لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلكمن شأنهم : كيفترى يا عمر اما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لارعدت له أنوف (أى تعصب له اقوام)لو أمرتها اليوم (أن تقتله) لقتلته .

قال عمر : قد والله علمت لأمر رسولالله اعظم بركة من أمرى .

اذا جاءك المنافقون قالوا نشهدانكلرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون . اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله أنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . واذا رايتهم تعجبك أجسامهم وأن يقولوا تسمعلقولهم كانهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم اللهانى يؤفكون .

تصوير المنافقين :

فى هذه الآيات يرسم الله عز وجللنبيه صورة المنافقين فى أيامه ليحذره منهم، فهم أعلى الناس أصواتا ، وربما أحسنهمصورا وأشكالا ، يتظاهرون بل ويفرطون فى اظهار المناصرة والتأييد ، وهم يبطنونالكفر ويتربصون برسول الله ، أن تدور به الدائرة ، فيجهزون عليه .

اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله

يخرج القرطبى كلمة (نشهد) عن معناها الظاهر ويفسرها بمعنى (يقسمون اى يحلفون) .

ولسنا نرى أى موجب لذلك فالمعنى الظاهر فيه كل الكفاية ، فقد كان المنافقون يحتمون خلف النطق بالشهادتين (أشهد ألا اله الا الله وأن محمد رسول الله) أى أنهم كانوا يكثرون من ترديد الشهادة ، ويعلمنا القرآن ويعلم الدنيا كلها أرفع أساليب الكلام ، فقبل أن ينزل حكمه على المنافقين بالكذب ، فقد قرر أولا ما يقولونه بألسنتهم هو الحق من عند الله (والله يعلم انك لرسوله) وبعد أن أثبت القرآن الحقيقة المؤكدة ، أنزل حكمه على المنافقين أنهم فيما يتظاهرون به من الاسلام، كاذبون ومن هنا قامت القاعدة الاصولية من أن الايمان قول باللسان وتصديق بالقلب ، فمن نطق الشهاتين باللسان ، وهو لا يعتقد ذلك بقلبه فهذا هو النفاق، ومن يؤمن بقلبه مثلا ثم لا ينطق بالشهادتين فلا يكون مسلما، فليدرك ذلك كل مسلم، من أن الايمان الحق، هو نطق باللسان وتصديق بالقلب فى كل ما يقوم به من ضروب العبادات .

اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله .

جنة : اى سترا ، ودرعا .

اى أن المنافقين راحوا يحتمون خلف اقسامهم وايمانهم .

يحلفون بالله ما قالوا ، وكان على رسول الله بطبيعة رسالته أن يصدقهم فى اقسامهم ، حتى اذا اطمأنوا على أنفسهم، راحوا يستخدمون نفوذهم وما بقى لهم من سلطان على بعض أتباعهم ، فى صرفهم عن الايمان الصادق برسول الله والتشكيك فى رسالته ، والتخذيل عن نصرته ، (كما فعل عبد الله بن أبى فى غزوة أحد ، حيث رجع بما يقرب من ثلث الجيش قبل المعركة) ويا سوء ما يفعل المنافقون فى كل زمان ومكان .

ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون .

طبع على قلوبهم : أى ختم الله عليها بالكفر .

يفقهون : أى يعقلون .

وهذا هو شأن منافقى المدينة فعندما كان سيدنا محمد لا يزال بعيدا عن المدينة ، فقد آمن كل من فيها بسيدنا محمد كما يقرر القرآن ، وقد رأينا كيف كان مقدمه على المدينة محل ترحيب اجماعى ، فلما ان استقر بها وشعر البعض أن مصالحهم قد أضيرت (اليهود وعبد الله بن أبى) كفروا برسول الله فى سريرتهم ذلك بأنهم قوم لا يعقلون فداحة ما ترددوا فيه ، اذ حلت عليهم الشقاوة .

هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون .

يؤفكون : يكذبون .

بعد أن بين الله لنبيه ، ان لا يخدعه المنافقون بطلاوة ألسنتهم ومعسول كلامهم، ولا بجمال صورهم وأشكالهم والتى تجعلهم أشبه بالصور والتماثيل الخالية فى الحقيقة من كل حياة وروح : **كأنهم خشب مسندة** ؛ واشار القرآن بعد ذلك الى ما كان يعيش عليه المنافقون من فزع (**يحسبون كل صيحة عليهم**) .

ويرجع فزعهم الدائم الى عاملين :

الأول : انه لخلو قلبهم من الايمان فقد كانوا فى حالة فزع مستمرة مما قد يفعله اعداء رسول الله بالمسلمين ، فكان يكفى أن يسمعوا صيحة من كائن من كان ، حتى يتصوروا أن المشركين أو اليهود قد هاجموا المدينـــة .

الثانى : أما العامل الثانى الذى كان يملأ قلوبهم بالرعب الدائم فهو أن يكون أمرهم قد افتضـــح وان تكون بعض آيات القرآن قد نزلت بشأنهم (كما هو الشـــأن فى هذه السورة) .

وتنتهى الآية الكريمة بتحذير سيدنا محمد من المنافقين باعتبارهم من اخطـــر الأعداء على ما بينا من قبل من أن الانسان لا يتوقع الشر ممن يخالطه .

— واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون • سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدى القوم الفاسقين • هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون •

عبد الله بن أبى

والاتفاق بين المفسرين على أن هذه الآيات نزلت كما قدمنا فى شأن عبد الله بن أبى كبير المنافقين وقد جاء فى تفسير ابن كثير (بسنده) أن عبد الله بن أبى كان قد اعتاد مذ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أن يقف فى كل صلاة جمعة بعد أن يجلس رسول الله للخطبة : « كان عبد الله بن أبى يقوم بين يدى رسول الله ويقول :

« أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم اكرمكم الله به وأعزكم فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس حتى اذا صنع يوم أحد ما صـــنع (يعنى رجوعه بثلث الجيش) قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا اجلس يا عدو الله لست لذلك بأهل بعد أن صنعت ما صنعت ، فخرج من المسجد

(غاضبا) وهو يتخطى رقاب الناس وهويقول : والله لكانما قلت بجرا (أى نكرا) ان قمت أشـــدد أمره .. فقـــابله رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا (له) ويلك مالك؟ قال قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى كأننى قلت بجراً أن قمت أشدد أزره ، فقالوا ويلك ارجع يستغفر لك رســـول الله قال والله ما ابتغى أن يستغفر لى » .

ولطالما أشرنا الى حكمة القرآن فى انه لا يخصص ، وانما يرسل القول عاما ليكون صالحا فى كل زمان ومكان ، فالمنافقون فى كل عصر ومكان هم أعلى الناس أصواتا ، حتى اذا جد الجد ، كانوا أسرع الناس الى الهرب ، فعبد الله بن أبى كان يركب موجة تأييد رسول الله ليزداد بذلك وجاهة ، فلما ان هزم المسلمون فى أحد ، كان منه هذا الموقف الذى رأينـــاه فيخرج غاضـــبا من المسجد ويحاول اثارة الأنصار بتظاهره بأنه ظلم واعتدى عليه حيث لم يرتكب وزرا ، ثم تأخذه العزة بالاثم فيرفض أن يعود الى المسجد وأن يستغفر له رسول الله عن فعلته (بتركه صلاة الجمعة وخروجه من المسجد مغاضبا) .

القرآن وحى :

ويهمنا بمناسبة هذه الآية (**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم أن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**) أن نلفت النظر الى انها وأمثالها الدليل على كون القرآن من عند الله ينزل به الوحى على سيدنا محمد فها هو يظهر أن الله سبحانه وتعالى لا يقر اجتهاد سيدنا محمد الشخصى فى استغفاره للمنافقين ، وقد حـــدث فيما بعد أن مات عبد الله بن أبى ، فصلى عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، صلاة الجنازة وذلك استجابة لرجاء ولد عبد الله بن أبى ، فنزل القرآن ينهى سيدنا محمدا عن أن يكرر هذه الفعلة (**ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره**) ٨٤ م التوبة ٩ .

لا تنفقوا على من عند رسول الله

وتتحدث الآية التالية عما عرضناه من قبل من تهجم عبدالله بن أبى على سيدنا محمد ومن معه حتى قال فيما قال : سمن كلبك يأكلك ، وقد كان من بين ما قاله من (التخريف) أن الأنصار لو أمسكوا يدهم عن الانفاق على المهاجرين لانفضوا من حول رسول الله ، وهو كلام لا يصدر حقا وصدقا الا من منافق كافر ، جعله حقده ينسى أبسط البديهيات فأصحاب رسول الله تركوا الوطن والمال والولد من أجل رسول الله ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يرزق بغير حساب ، وكل ما فى الـــكون ملك يمينــــه ويتم وفق مشيئته ، وقد رأينا فى تفسير سورة الحشر ، كيف فتح الله على سيدنا محمد بكل أموال اليهود من بنى النضير . فوزع بعضها على المهاجرين ، ولذلك قلنا أن عبد الله بن أبى ،

عندما قال انما كان يخرف وفى نوبة غضب طفح على لســانه بعض ما كان يخفيه فى قرارة نفسه ، ولذلك فقد أحس بهول ما قال وشناعته فأسرع كما رأينا يحلف لرسول الله أنه ما قال وها هو القرآن يكذبه .

الأعز والأذل :

وكان عجبا من اشد العجب ان يتصور عبد الله بن أبى أنه لا يزال له من الأمر فى المدينة شيء فتحدث عن الأعز والأذل .

وقد رأينا كيف أن أسيد بن حضيــر احد زعماء الأنصار ، عندما ســمع هــذه المقالة ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنت والله الأعز يا رســول الله وهو الأذل ولتخرجنه منها اذا شئت . على أن كتب السيرة تحدثنا أن عبد الله بن أبى كان أهون من ذلك كله ، وكان الله قد أعدله أشد القصاص جزاء على قولته فكان ابنه المنحدر من صــلبه ، هو الذى اعترض طريقه وحال بينه وبين دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله بدخول المدينة ، فلمــا فجع عبد الله بن أبى من هذا الموقف ، قال له ابنه الم تقل اذا رجعنــا الى المدينــة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسترى الآن من هو العزيز ومن هو الذليل .

وهكذا عرف عبد الله بن أبى من ابنه قبل أى انسان أن العزة حقا وصدقا هى كما تنص الآية لله وللرسول وللمؤمنين ، وليس منهم عبد الله بن ابى ، اذ لم يسمح ابنه له بدخول المدينة الا بعد أن أذن له رسول الله .

صكوك الغفران وصاحب العزة

وتحضرنا بهذه المناسبة عبرة تظهر كيف ترقى المجتمعات ، وتقوم وتنهض وفق سنن معينة ، ثم كيف تنحط وتتدهور بسنن معينة كذلك ، فقد وصــل الأمر بتدهور بابوات المسيحية فى العصور الوسطى الى حد أنهم راحوا يبيعون صكوكا للغفران لكل من يدفع الثمن ، فكانوا يكتبون فى أوراق أن الله قد غفر لفلان ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأنه سيدخله فسيح جناته ، وما على الشارى الا أن يكتب اسمه فى المكان المعد لذلك ، ولم تخرج أوربا من ظلمات العصور الوسطى الا بعد أن تبينت مقدار ما فى هذا الكلام من سخف

صاحب العزة

وشبيه ذلك ما حدث للمسلمين فى مرحلة تقهقــرهم وتخلفهم ، فالعــزة هى احساس داخلى يقوم فى نفس المؤمن ، عندما يؤمن بكل قلبه أن ليس فى الدنيا سوى اله واحد هو الذى يحيى ويميت ، وهو الذى يرزق ((**قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا**)) مثل هذا الايمان اذا ملا القلب فانه يجعل صاحبه يتصرف بقوة وشجاعة وكرامة وهو مايوصف بأنه (عزة) وعندما تدهورت أحوال المسلمين وتحول دينهم الى مجرد

ظواهر واشكال ، أنشأوا لقب صـــاحب العزة ، ثم وصل الأمر الى حد أن أصبحت الرتب تباع بالأموال وبعد أن كانت العزة مظهرا لجميع الفضائل ، أصبحت مجـــرد كلمة تكتب على قصاصة ورق ، وأحمد الله أن وفقنى للكفاح فى سبيل رفع هذه السبة عن مجتمعنا فعشت حتى رأيت الألقاب تلغى . والمهم هو أن لا تحل ألقاب من أى نوع كان محل القاب ليظل العمل وحـــده والايمان بالله هو مصـــدر العزة والكرامة والتقدم والرفعة وليس أى شيء آخر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكـــر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون » .

وهكذا نصل الى ختام السورة وكشأن القرآن دائما يعود الى الموضوع الرئيسى الذى أنزل من أجله وهو الهداية الى طريق الله المستقيم (اهدنا الصراط المســتقيم) والارشاد اليه ، وكل حديث عن الأمم السابقة ، أو الحوادث والمساجلات التى جرت أيام رسول الله ، فالهدف والغاية والمقصود من ذلك كله هو ما ينطوى عليه من عبـــرة وعظـــة .

وهو هنا ينبه المؤمنين الى أن حق الله عليهم هو الحق الذى تتفرع منه سائر الحقوق ولذلك فهو يجب أن يأتى دائما فى المقدمة وما أجمله القرآن هنا فى عبـــارة (أموالكم وأولادكـــم) فقـــد فصــــله فى آية أخرى .

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانـــكم وأزواجـــكم وعشـــيرتكم وأمـــوال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ــ فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاســـقين . »
سورة التوبة ٢٤ .

وعندى أن هذه الآية المبينة للآية التى نحن بصددها هى المفتاح لكل من يريد أن يعرف السبب فيما حاق بالمسلمين ، فصريح قول القرآن ينذر المسلمين انهم اذا شغلوا بأموالهم أو أولادهم أو عائلاتهم عن اداء حق الله عليهم ، فلا يجب أن يتوقعوا الا شرا ، وما عليك الا أن تنظر فيما يحيط بك لترى المسلمين وقد شغلوا عن حق الله بما هو أتفه من الأمور التى عددها القرآن (المـــال والزوجة والولد) .

أن بعض المسلمين قد يشرب الخمر مع أنه لا يريد أن يشربها بحجة أن صاحبه دعاه الى شربها فخجـــل من أن يرد طلبه فانظر يارعاك الله كيف ضـــعف حق الله فى النفوس الى حد أن أصبح المسلم قد يخجل من صاحبه فيرتكب الأمر المحظور ولا يخجل من خالقه ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

واذا أراد المسلمون أن ينهضوا من كبوتهم فلا سبيل أمامهم الا أن يغيروا ما بأنفسهم فينزلوا عند حكم هذه الآية التى نحن بصددها فلا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله ، وذكر الله هنا لايعنى مجرد التكرار لاسم الله باللسان ، وانما يعنى زيادة على ذلك ، القيام بالأعمال الصالحة ، كما يستفاد ذلك من الآية التالية ، فما من انسان كائنا من كان الا ويستعرض سجل حياته فى اللحظة التى تسبق الموت مباشرة وفى هذه اللحظة تستضىء روح الانسان بنور الحق فيظهر له ما ارتكب من سيئات ومعاصى وعلى رأس ذلك كله الكفر بالله .

وفى هذه اللحظة يتمنى كل انسان عاص أن يؤخر الله عز وجل عنه الموت ليراجع نفسه ويقوم بالأعمال الصالحة **(رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين)** .

ولكن هيهات أن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها والله بكل ما تعملون خبير .

واحسب أن الموت وما نراه من أشكاله وألوانه وميقاته هو الحقيقة الواحدة الثابتة المؤكدة فى هذه الدنيا حيث لا توجد حقيقة غيرها .

فليتدارك كل انسان نفسه قبل فوات الأوان وليذكر ربه بالاعمال الصالحة ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا شراء .

تم والحمد لله تفسير سورة (المنافقون) تعقيب حول الخير والشر .

يطيب لى بمناسبة سورة (المنافقون) أن أفتح كوة من الأمل فى بعض النفوس التى ملاها اليأس نتيجة استشراء الشر ، فان هذه السورة تدلنا على أنه فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كان الشر مسيطرا على بعض النفوس ولم يردعها كون رسول الله بين ظهرانيهم والآيات تجرى على يديه أو بالاحرى تجرى على لسانه كما قال أحمد شوقى فأبدع القول كعادته:

والآى تترى والخوارق جمة جبريل رواح بها غداء

أقول أنه بالرغم من ذلك فقد وجد المنافقون الذين أشقوا رسول الله كما يتضح من هذه السورة ومن سور أخرى .

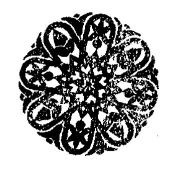
وقد أراد الله بذلك أن يعلمنا أن موجة الشر لا يمكن أن تنقرض أبدا ذلك أن الحياة تقوم على العنصرين معا فلولا الظلام ما عرفنا جمال النور وهكذا فلولا الكفر ما عرفنا حلاوة الايمان ولولا النفاق ما عرفنا عظمة الصدق والاستقامة والذى يجب أن نستحضره دائما فى أذهاننا أن الخير موجود أبدا ، كما أن الشر موجود أبدا وانما

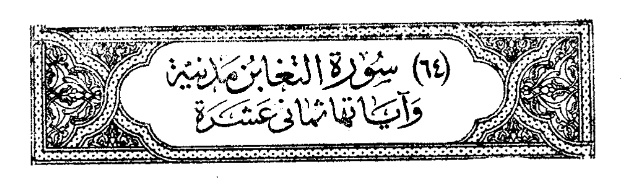
يختلف من عصر الى عصر فى أن موجة الخير تكون هى السائدة وهى الأظهر والأبين، وهذا لا يعنى بحال انقراض موجة الشر وانما تكون فى حالة انحســـار ، ذلك أن الله ســبحانه وتعالى شاءت ارادته أن **يبقى على ابليس (الشــيطان) ما بقيت** الحياة **ليجرى القلم بمكنون علم الله .**

وعلى **العكس اذا رأينا موجة** الشر هى السائدة ، فعلينا أن لا نتصور أن الخير قد انتهى **(الخـــير فى وفى أمتى الى يـــوم القيامة) .**

ويصبح واجبنا فى هذه الحالة ان نقاوم موجة الشر حتى تنحسر من جديد ولا يقولن قائل وماذا عساى أن أفعل لمقاومة موجة الشر العاتية ؟

ما عليك الا ان تلزم نفسك فعل الخير غير ناظر الى ما يفعله الآخرون من شر ، ومتى حرص كل انسان ــ يفتح الله عليه ــ على عمل الخير ، فان موجة الخير لاتلبث أن تصبح الغالبة ، والله تعالى أعلم .





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ
ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ
النَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ (١٢)
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ
وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ
شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

سورة مدنية :

الذى فى المصحف الموجود بين أيدينا وعليه الاعتماد أن سورة التغابن مدنية ، ولكن الاختلاف جرى بين المفسرين ، فقال البعض انها مكية ، وقال بعض آخر أنها مكية ما عدا الآيات من أول قوله تعـالى(**يا أيهـا الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم ...**) مدنية وذلك استنادا لحديث صح عندهم عن سبب نزول هذه الآية .

ولطالما أكدنا وكررنا أننا ممن لايحفلون كثيرا لمدنية او مكية السورة ، فالقرآن الكريم بعد أن تجمع على الصورة المثبتة فى المصاحف ، فقد لزمنا اعتباره كله وحدة واحدة فالكل كلام الله انزله على رسوله لا فرق بين مكى ومدنى واذا كانت المصاحف تصف السورة بأنها مدنية أو مكية فنحن نلتزم بما تقول ، وان كان خلاف المفسرين يسمح لنا بأن نقول رأينا فى أقوالهم هم ، فنحن مع قول من قال بمكيـة السـورة مستندين فى ذلك لدراسـة نص السورة فالذين تتبعونا ونحن نفسر سور هذا الجزء المدنية لابد أن يكونوا لاحظوا معنا الموضوعات الخاصة التى شملتها هذه السور ، فسورة الحشر حدثتنا عن اليهود وتصديهم لحرب الرسول حتى كانت غزوة بنى النضير وسورة المنافقون حدثتنا عن المنافقين فى المدينة وما سببوه من المتاعب لرسول الله . وسورة الصف حدثتنا عن الحرب والقتال ، وسورة الممتحنة حدثتنا عن بعض الوقائع التى سـبقت فتح مكة ولحقتها وسـورة التحريم حدثتنا عن الأزمة التى ثارت فى بيت النبوة بين النبى عليه الصـلاة والسلام وبعض زوجاته ، وسورة الطلاق بينت لنا حدود الطلاق المشروع والقيود التى فرضت على ممارسـة هذا الحق لكننا عنـدما نستعرض سورة التغابن كما سوف نرى ، فسنراها خلوا من كل اشارة الى اليهود أو المنافقين أو الى أى تشريع أو ايمـاء لبعض الغزوات والحروب والقتال وسنراها مشتملة على الأغراض التى تضمنتها السور المكية ، وهى الانذار بيوم القيامة والبعث والنشور والحسـاب والعقـاب والثواب والخطاب موجه فيها الى مشركى قريش بنفس الأسلوب المتبع فى سائر السور المكية وهذا ما يجعلنا من رأى من قال بمكية السورة ، ولكنا قدمنا أن المعول عليه هو المثبت فى المصحف من أن السورة مدنية والله تعالى أعلم .

((يسبح لله مافى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمـد وهو على كل شىء قدير)) .

المسبحات :

أعتاد المفسرون أن يطلقوا على كل مجموعة من سور القرآن اسما خاصـا يميزها ، فيقولون على سبيل المثال أن هذه السورة أخر المسبحات أى آخر السور التى تبدأ بآية التسبيح وهى على التوالى :

سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (الحديد) .

« سبح لله ما فى السموات ومافى الارض وهو العزيز الحكيم » (الحشر) .

« سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم » (سورة الصف) .

« يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » (سورة الجمعة) .

وانت ترى ان سبح ويسبح بمعنى واحد وهو الحال الواقع أبدا أى أن كل مافى السموات وما فى الأرض سبح ويسبح وسيظل يسبح الى أبد الأبدين .

فقد كان بعض المفسرين المحدثين الذين أحبوا أن يتشدقوا باسم العلم ، يقولون أن بنى الانسان يسبحون بلسان المقال أى ينزهون الله ويعظمونه ويقدسونه بألسنتهم أى بالكلام أما الجمادات فتقدسه بلسان الحال أى ان مجرد وجودها وقيامها شاهد على عظمة الله وقدرته .

أما نحن فنقول وبالله التوفيق أن كل من وما فى السموات والأرض يسبح لله بلسان المقال أى بجرس وصوت ، بذلك قال القرآن وقوله الحق ، وكشف العلم أخيرا عما يقرره القرآن وصدق الله العظيم يقول القرآن الكريم فى سورة الاسراء آية ١٧ .

« وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

فها هو القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا تقريبا يسوى فى تعبير جامع مانع بين سائر الأشياء (الانسان والحيوان والجماد) .

ويوحى تعبير (**ولكن لا تفقهون تسبيحهم**) بأن الكل يعبر ولا محل للتفريق — فهذا بلسان الحال وذلك بلسان المقال — فالكل يعبر بلسان المقال أى بالصوت ولكن الفارق أن ما ينطق به الانسان نفهمه وما ينطق به غير الانسان لا نفقه تسبيحه أى لا نفهم ولا ندرك تعبيره .

العلم الحديث

وما أروع أن يقول لنا العلم الحديث حتى لا يتشدق البعض باسم العلم فيحاولون صرف معانى القرآن عن مدلولها الواضح من أن كل شىء ، يسبح بحمد الله لا فرق بين انسان وحيوان وجماد .

يقول لنا العلم الحديث أن كل شىء يتألف من ذرات وأن هذه الذرات ليست شيئا جامدا كما كان يظن وانما الذرة فى حقيقتها ليست سوى شحنة من الكهرباء ، نواة

تدور حولها الكترونات أى انها تتحرك وتتذبذب ومتى كان هناك حركة فان هذا يعنى صوت للحركة وهكذا نزداد فهما وادراكالقول القرآن الكريم **(وان منشىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)** .

ونستأنف الآن شرح الآية .

ـ التسبيح : التنزيه وهو هنا يعنى كل ما يليق بالذات الآلهيــة من تقديس وتمجيد وتعظيم كما تنطق سائر الآيات الماثلة فى أوائل المسبحات من أنه العزيز الحكيم الملك القدوس .

وتنفرد هذه الآية بأنها تختم بأن اللهعلى كل شىء قدير .

والقدرة والعزة والحكمة كلها بعضصفات الله عز وجل من بيــده ملكوت كل شىء .

بقى أن نشير اكمالا للبحث أن جميعالمسبحات (الحــديد والصــف والحشر والجمعة) سور مدنية وربما كان هذا هوما استند عليه من قال بأن سورة التغابن مدنية وهو قول المصحــف والذى عليه المعول كما قدمنا .

((هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكممؤمن والله بما تعملون بصير)) .

مشكلة المشاكل :

نصل الآن الى احدى آيات القرآنالتى أثارت هى ومثيلاتها مشكلة المشاكل ونعنى بها ((الجبر والاختيار)) .

فالآية تتحدث عن أن الله خلق الخلقفمنهم كافر ومنهم مؤمن ، فقال البعض أن الله لم يخلق الكافر كافرا وانما الكافر هوالذى اختار الكفر لنفسه فأتى بالأعمال التى انتهت به الى الكفر أى أن كل انسانيخلق أفعاله ، واستندوا فيما استندوا اليه الى الحديث الشريف : **(كل مولود يولدعلى الفطرة وأبواه يهــودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)** كما استدلوا بما انتهت اليهالآية ((**والله بما تعملون بصير**)) اذ يدل ذلكعلى نسبة العمل الىالانسان،وذلككلهبالاضافة الى كلام كثير لا نحب أن نبلبل به النفوس وذاك هو قول المعتزلة ويمثلهم فىتفسير القرآن الزمخشرى صاحب الكشاف ولننقل لك نص عبارته على سبيل المثالقال :

((فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكمآت بالايمــان وفاعل له كقوله تعــالى : **((وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون))** .

والدليل عليه قوله تعالى : **((والله بماتعملون بصير))** أى عالم بكفركم وايمانكم اللذين هما من عملكم ، والمعنى هو الذىتفضل عليكم بأصل النعم الذى هو الخلق

والايجاد من العدم فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح وتكونوا بأجمعكم عبادا شاكرين فما فعلتم مع تمكنكم بل تشعبتم شعبا وتفرقتم أمما فمنكم كافر ومنكم مؤمن وقدم الكفر لانه الأغلب عليهم والأكثر فيهم، وقيل هو الذى خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية. ومنكم مؤمن به .

قول أهل السنة والجماعة :

أطلنا النقل من الكشاف لنضع صورة مما كان يقول به المعتزلة ، وكيف انزلقوا الى متاهات بدعوى الفكر وما يؤدى اليه المنطق . وكان طبيعيا أن يضيق أهل السنة الذين هم أهل الجماعة من قول المعتزلة من أن العبد خالق أعماله ، فالله هو خالق كل شيء ، بل هناك عشرات النصوص التى تقطع بأن أعمال العباد من خلق الله ((**والله خلقكم وما تعملون**)) ويسلمون كل أمرهم لله ولا يسألونه لماذا هذا ولماذا ذاك .

((**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)).

انزلاق المعتزلة :

وعندنا أن المعتزلة ، هم كأمثالهم من بعض مفكرى اليوم ، قد تصوروا أن العقل يصلح للخوض فى كل مسألة وكل قضية ، وهى لوثة تصيب البشر من حين لآخر لاسباب مختلفة ، فيمتلئوا غرورا بما أوتوه من علم ويتصوروا أنهم أصبحوا قادرين على كل شيء ، ولكن سرعان ما تكشف لهم الأيام قول القرآن الكريم ((**وما أوتيتم من العلم الا قليلا**)) ففى القرن الثامن عشر على سبيل المثال وقد اكتشف البشر أمريكا وطافوا حول العالم ، وتوالت بعد ذلك فى القرن التاسع عشر كشوف البخار والكهرباء والميكروبات ، تصور أقوام أن البشرية قد عرفت كل شيء وستحقق كل شيء ، حتى ليطلع الانسان أقوالا ساذجة عن قرب تغلب الانسان على الموت نفسه فضلا عن المرض والفقر ، وتتوالى السنون ، فاذا المرض هو المرض ، والموت هو نهاية كل حى ، أما الفقر فقد تضاعف وتراكم ، وأعلن الانسان افلاسه عندما أصبحت الصيحة التى تعلو بقية الصيحات هى منع التناسل والانجاب بدعوى توفير حياة أفضل ، ولسنا نريد هنا أن نناقش هذه القضية ، وانما نشير اليها لما تنطوى عليه من دلالة عجز الانسان بحيث أصبح مثله الأعلى هو الحيلولة دون تكاثر الجنس البشرى الذى هو أثمن ما تنطوى عليه الطبيعة والمهم أن الآمال العريضة التى شيدت على ما ظن أنه قمة العلم قد انحسرت ، ومن هنا يعود البشر لشكهم فى العلم وقدرته على حل كل مشكلة ، ومن هنا فان القرن العشرين سوف ينتهى بايمان أكثر وتسليم بالغيب والمجهول .

منطق الاغريق والمعلم الأول :

ولقد كانت هذه هى محنة المعتزلة ففى هذه الفترة (القرن الثانى والثالث)

بدأ مفكرو العرب يطلعون لأول مرة على الفلسفة الاغريقية وأعشى بصرهم منطق أرسطو حتى لقد أطلقوا عليه اسم المعلم الأول وهذا يدلك على مقدار افتتانهم بالمنهج العقلى فتصوروا أن العقل هو كل شيء وأن العقل قادر على أن يخوض فى كل شيء وان يتصدى لكل قضية بدون قيد أو شرط فتورطوا فى هذه المباحث العقيمة وانزلقوا هذا الانزلاق المخيف فراحوا يحكمون عقولهم فيما يليق بالله وما لا يليق ، بل ما ينبغى له وما لا ينبغى ، أنظر الى قول الزمخشرى فيما نقلناه لك ، الى أن الله لو كان هو خالق أعمال العباد لكان هو المسئول عن كفرهم ولكان هو الحقيق باللوم لا هم ، وغنى عن البيان أن المعتزلة كانوا حسنى النية ويهدفون الى تحميل كل انسان مسئولية ما يفعل ، ولكن ذلك هو منطوق الدين ولايحتاج الى هذه الشقشقة التى أدت بهم الى الانحراف ، حتى كانت سقطتهم الكبرى على يد المأمون عندما انساق وراء منطق المعتزلة فقال بخلق القرآن ، وكانت الفتنة التى عصفت بالعالم الاسلامى حتى كان النصر فى نهاية الأمر لعالم السنة الجليل أحمد بن حنبل الذى اعتبر مثل هذه المباحث بدعة وضلالة .

المنطقة المحرمة :

ان أعلم العلماء فى الوقت الحاضر وفى كل وقت يسلمون أن هناك منطقة لايستطيع العقل أن يجاوزها وهى منطقة المحسوس والملموس ويسمون ما بعد ذلك (ما وراء الطبيعة) ، ويحظرون على العقل أن يرتاد ما وراء الطبيعة ، وما يسميه العلماء الماديون ما وراء الطبيعة ، هو الذى نسميه نحن المؤمنين عالم الغيب ، وخطأ المعتزلة هى أنهم أرادوا أن يخوضوا فى عالم الغيب بعقولهم .

ما الذى ينبغى أن يكون عليه مسلكنا :

والآن ماهو رأينا نحن فى هذه القضية قضية الجبر والاختيار لطالما رددناه بمناسبة هذه الآيات المماثلة لما نحن بصدده ، وقد كررنا واكدنا خطأ من يحاول القطع برأى فى هذه القضية ، فسوف يجد من آيات القرآن ما ينطق بحرية الانسان فى الاختيار ، بل أن مجرد بعثة الرسل وانزال الكتب والعلم والتعليم والثواب والعقاب هى آية حرية الانسان فى اختيار أعماله وبالتالى مسئوليته عنها ، وفى ذات الوقت علينا أن نؤمن بقلوبنا وأن ترضى نفوسنا بأن الله هو خالق كل شيء ومقدر كل شيء ، أى أنه علينا أن نحيا حياتنا وان نتحمل مسئولية أعمالنا كما يتعلق بذلك الواقع ، فاذا وضعت يدك فى النار احترقت واذا لم تضعها سلمت ، علما بأن يكون فى نفسك الايمان العميق أن يدك اذا احترقت فذلك بتقدير الله واذا سلمت فبلطف من الله ، أى أن ما كان هو بتقدير الله فى كلتا الحالتين وهذا هو الجمع بين الحالتين الواقع والغيب .

فكلنا احســـاس اننا قادرون على الاختيار ، فلنجار احساسنا ولنحسن الخير ما استطعنا واننهج طريق الخير وســبل السلام ما استطعنا ، ولنتجنب الشر وكل ما نهانا عنه الدين ، وكلنا يشعر بقدرته على اصدار هذا القرار أو ذاك ، دون أن يبرح أذهاننا ولو للحظة واحدة أن الله هو مقدر كل شيء ، دون أن نقحم عقولنا لفهم ذلك فهى أعجز عن الفهم ، وهـــذه هى المنطقة التى يجب أن يسلم الانســـان فيها تسليما ، وهذا هو الاسلام .

« خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصـــير يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ماتسرون وما تعلنـــون والله عليـــم بذات الصدور » .

بالحق : أى بالاحـــكام والدقة أو بمشيئته .

الاعجاز القرآنى :

سيبقى القرآن الى أبد الأبدين آية على الأعجاز البيانى ليس فقط فى اللغـــة العربية فى عصر نزوله كما يتوهم البعض،بل بالنســـبة لجميع اللغـــات فى كل زمان ومكان ،فقد كان آخر ما سمعته قول كاتب انجليزى يحدد لمواطنيه من متكلمى الانجليزية ما يعده ذروة الفصاحة والبلاغة فى التعبير،وهو التعبير بأقل كلمات ممكنة مع الوضوح والدقة وهو ما نســـميه فى لغتنا العربية(الايجاز) ومن أطرف ما طالعت فى حياتى قول أحد الكتاب لصديقه « معذرة اذا لم أستطع الايجاز فأطلت » .

فليس هناك ما هو أشق من الايجاز ومن هنا كانت معجزة القرآن البـــلاغية ، وحسبك أن تتأمل هذه الآيات التى نحن بصددها ما لا يتجاوز العشرين كلمة ومع ذلك فقد صورت قدرة الله اللانهائية كما تتمثل فى خلق السموات والأرض من ناحية والانسان من ناحية أخرى وكل ذلك فى آية واحدة لا تزيد عن بضع كلمات ، أما الآية التالية فهى ترد على بعض تقولات الكفرة والملحدين وتظهر جانبا آخر من هذه القدرة اللانهائية فهى لا تقف عنـــد خلق الـــكون والانسان ثم تركه وشأنه بعد ذلك كما زعم البعض ، وانما يدبر الله الكون والانسان أبدا ويهيمن عليه أبدا ، عن طريق علمه اللانهائى بكل شيء صغر أو كبر فى هذه الدنيا ، أعلن وأخفى .

الكون والانسان :

وما أروع أن يضع القرآن خلق الانسان فى مواجهة الكون كله فيتحدث عن خلق السموات والأرض (أى الكون) ثم يثنى بخلق الانســـان بما يشـــعر بالبهاء والحسن (**وصوركم فأحسن صـــوركم**)والسموات جمع سماء والسماء هى كل

ما علا الانسان ، ولقد أشرنا أكثر من مرةأمام الآيات المماثلة ، الى أن هناك أكثر من سماء ، ولم تعد المسألة مجرد ايمانبالغيب بل أن الأقمار الصناعية ، والصواريخ المنطلقة فى الفضاء ، أصبحت تقربنا من السموات المختلفة فبعد أن حدثونا عن السماء الدنيا وان مجموعةالظواهر التى نراها هى خاصة بكوكبنا الأرض ، ثم بدأوا اليوم يحدثوننا عنصاروخ أطلقوه باتجاه الزهرة منذ عدة سنوات ثم تجاوز الزهرة وخرج مندائرة المجرة كلها ودخل كما يقولون الى منطقة من الفضاء لا يستطيعون حيالهاان يقولوا أى قول ولو على سبيل التخمين والتخيل وصدق الله العظيم اذ يحدثنا عنالسموات ، لا عن سماء واحدة .

خلق الانسان

وفى مواجهة هذا الكون خلق الله الانسان الذى هو أفسح واوسع وقد حرص القرآن على أن يميز دائما خلق الانسانويصفه بالحسن والكمال بالنسبة لسائر الكائنات .

((لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم)) .

((الذى خلقك فسواك فعدلك)) .

(وصوركم فأحسن صوركم) .

ولا عجب فى ذلك فالانسان هوخليفةالله فى الأرض ، وقد جعل الملائكة تسجد له فلما عصى ابليس واستكبر على السجودلآدم طرده الله من رحمته وسوف نتحدث بالتفصيل عن مكانة الانسان فى الوجود اذاأحيانا الله حتى نصل الى موضع القصة فى القرآن أما الآن فحسبنا ان نقف أمامهذه المقابلة بين خلق الكون وخلق الانسان .

وتحسب نفسك جرما صغيرا وفيك انطوى العالم الأكبر

وكما يعلم الله كل ما يدور فى هذاالكون **(يعلم ما فى السموات والارض)** فهو يعلم كل ما يدور فى حنايا الصدور .**(ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) .**

((ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبلفذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب اليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالواأبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد)) .

الم يأتكم :

والحديث هنا موجه فى الأصل الىكفار قريش ومن خلالهم الى الناس فى كل زمان ومكان يذكرهم بمصائب الأمم والشعوب من قبلهم وكيف يعانى الكفار بالذات

شديد المعاناة عندما تحين نهايتهم فى الدنياوينكشف عنهم الحجاب ساعة النزع ، اذ يروا ما هم صـــائرن اليه (**فذاقوا وبال أمرهم**) أى لاقوا السوء جزاء أعمالهم فى الدنيا .

(**ولهم عذاب أليم**) أى عذاب موجع فى الآخرة .

ويمضى الحديث الموجه الى مشركى قريش الذين اســـتكبروا عن اتباع النبى بحجة كونه بشرا .

« وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق (الفرقان) .

فيقول القرآن لمشركى قريش ومن خلالهم للدنيا فى كل زمان ومكان أن هذا الاعتراض هو ما يردده الكفار والملاحدة فى كل زمان ومكان عنـــدما تأتيهم رســــلهم بالبينات (أى بالآيات والشواهد) .

(**أبشر يهدوننا**) مع كون الرسل من البشر ، هو ضرورة حتمية لامكان ابلاغ الرســـالة ، اذ لو كانوا من طبيعة غير الطبيعة البشرية لانعدمت الصـــلة بينهم لاختلاف الطبيعتين ، ولقد كان هـــذا هو تعليل عبدة الحيوانات عندما كان العقلاء يستنكرون أن يكون المعبود حيوانا ، فيكون الرد ، أن المعبود قد اختار هذه الصورة حتى يكون ممكنا أن يقترب من الانسان ، وكذلك يقول الذين يؤمنون بتجسد الله فى صورة الانسان ، لأن هذا هو السبيل الوحيد لكى يعايش الانسان .

ومما يتصل بهذا الموضوع فى عصرنا الحاضر ما نراه فى القصص والمسلسلات التليفزيونية عن مجىء أقوام من الكواكب والعوالم الاخـــرى وهم من طبيعـــة غير الطبيعة البشرية ، ولكنهم وقد هبطوا على الأرض فيجب أن يكونوا مثل البشر .

والخلاصة أن كون الرسل بشرا هو ضرورة حتمية ليمكن الاستفادة منهم وابلاغ رسالات ربهم .

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلوا الطعام ويمشون فى الأسواق ».

هذه البشرية البديهية بالنسبة لكينونة الرسل ليؤدوا وظيفتهم هى التى أنكرتها الجماعات الكافرة التى سبقت قريشـــا كعاد وثمود وقوم نوح وأمثالهم (**فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد**) .

وغنى الله عن العالمين سواء آمنوا أو كفروا هو ما ينبغى أن يـــكون حجـــر الزاوية فى ايماننا بالله فنحن عندما نؤمن ونتعبد ، فانما نفعل ذلك لفائدتنا نحن ، وما نحس به من غبطـــة وراحة وثقـــة بالنفس ، وعلى الضد من ذلك عندما نكفر ، فهى التعاســـة والشقاء والقلق والضياع على مســـتوى الفرد ، والفوضى والتخبط والسير على غير هـــدى على مســـتوى الجماعة .

« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) .

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » .

الزعم : الظن .

لايزال الحديث موجها للكفار وهو ماجعلنا نميل لقول من قال بمكية السورة ، حيث كان الجدل لا يزال يدور حول البعث أو النشور واستبعاد حدوثه بعد أن يموت الانسان ويصبح ترابا وعظاما ، ويقول القرآن على لسان سيدنا محمد مجلجلا مدويا عذبا موسيقيا : **« بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم » .**

ولقد بينا أكثر من مره أن قضية البعث ثم الحساب والتى كانت عقول كفار قريش لا تستطيع هضمها قد جعلها العلم الحديث قريبة لا الى عقولنا فحسب ، بل الى أحاسيسنا ومشاعرنا فما من شيء فى الكون ألا ويدور وينتهى ليبدأ .

والانسان كل انسان لا يأخذ خصائصه وشخصيته الا من سر أخفى من الخفاء نفسه ، أنظر الى الولد كيف يكون أحيانا نسخة (بالكربون) من أبيه ، حتى ليحرك أصبعه ، ويهز رأسه ، ويومىء بعينيه كما لوكان أباه وخاصة بعد أن يتقدم به السن ، ويتشدق العلم المادى الذى يريد أن يصور لنفسه انه اهتدى الى كل شيء ، ان هذا التشابه يعود الى عوامل الوراثة ، والحيوان المنوى الذى ينشأ منه الجنين شيء متناه فى الصغر ، ومايسمونه عوامل الوراثة (كروموزومات) اصغر وأضأل ، ثم يقولون أن الجزء الفعال أصغر وأصغر وهو مجرد كلام نظرى وخير من هذا أن نسلم بالقدرة الالهية والذى يهمنا من ذلك كله أن العلم الحديث (المزعوم) يقول لنا أن مقومات كل شخص والتى تجعله هو من هو شيء دون الذرة بحيث أن مقومات البشر منذ كانوا بشراوما يحدد شخصية كل منهم لا يعدو أن يكون شيئا صغيرا مثبوتا فى هذا الكون ،ويكون الأمر لا يعدو ما يكرره القرآن من أنه يكفى أن تهطل الأمطار حتى تحيا وتخضر الأرض الميتة وهو ما نراه يتجدد امام أعيننا فى كل عام ، فليس يبعد على قدرة الله أن يبعث جميع الموتى وان يردهم أحياء وما أيسر محاسبتهم على كل ما قالوا وفعلوا ،بعد أن كشف لنا العلم الحديث أنه ما من حركة أو كلمة تخرج من فم الانسان أى انسان الا وقد سجلت على صفحة الكون ، واستعادة ذلك كله (**على الله يسير**) لانه القدرة المطلقة .

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير » . والنور الذى أنزلنا : أى القرآن الكريم .

بعد أن يحذر القرآن الكفار من مصائر أمثــالهم ، يدعوهم الى الايمــان ، الى النور الذى أنعم الله به عليهم ، من بعثة سيدنا محمد بين ظهرانيهم وليذكروا دائما (**والله بما تعملون خبير**) .

— ((**يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم . والذين كفـروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النــار خالدين فيها وبئس المصير**)) .

يوم التغابن : احد اسماء يوم القيامة وهو مأخوذ من الغبن فى البيع والشراء عندما يخدع أحد طرفى العقد الآخر فيحس الطرف المخـدوع بالمرارة والحسرة على ما فاته من الثمن اذا كان المخدوع هو البائع أو على ضآلة السلعة فى مقابل ما دفع من ثمن اذا كان المغبون هو المشترى .

يوم يجمعكم ليوم الجمع :

اعلام للكافرين والمكذبين بيوم البعث أنهم سيبعثون حتما يوم الجمع ، أى يوم القيامة ، وسمى كذلك لانه اليوم الذى يجتمع فيه جميع البشر ، منذ كانوا بشرا ، وقالوا يوم يجمع البشر الى أعمــالهم ، وقالوا يوم يجمع الظالم والمظلوم ، وكل ذلك داخل فى المعنى ولكن من المحقق أن المعنى الأول ليوم الجمع بانه اليوم الذى يجمع الخلق جميعا هو الأظهر والاشمل .

ذلك يوم التغابن :

وصف القرآن يوم القيامة بعديد من الصــفات كما مر بنــا من مثل تسميته بالقارعة والواقعة والصـــاخة والحاقة ، وكلها ألفاظ وصفات أريد بها تصوير هول القيـــامة على الكـــافرين وضروب الآلام الجسدية والعصبية والنفسية التى سوف يعانونها فى هذا اليوم .

— **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**) واذا كان العرب أو بالاحرى قريش تعيش على التجـارة فقد خاطبهم القرآن باللغة التى درجوا عليها والتى يفهمون كل أحاسيسها ومشاعرها وهى عملية البيع والشراء .

— ((**هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم**)) .

— ((**أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**)) .

— **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .**

ومن هذا النسق كان احد اسماء يوم القيامة ((**يوم التغابن**)) حيث يحس اكثر الناس فى هذا اليوم بصفقة المغبون ،ويتحسر الكافرون أن اشتروا الضلالة بالهدى ويندمون على مافاتهم من الخير ولات حين مناص ، بل حتى الأخيار أنفسهم يأسفون على أنهم لم يستزيدوا من عمل الخير .

بهذا المعنى وحوله اجمع المفسرون على تفسير ((**يوم التغابن**)) ولكن شيخنا الكبير عبد الجليل عيسى له رأى آخر شرحه لنا وكتبه لنا كتابة نقلا عن ((**تيسير التفسير**)) ولذلك نثبته هنا تعميما للفائدة .

قول للشيخ عبد الجليل عيسى :

أما ما فتح الله على عبده الضعيف بعد مراجعة كتب اللغة جميعا وعلى رأسها لسان العرب لابن منظور فهو ما يأتى .(**التغابن**) على وزن (**تفاعل**) هو فعل لايكون الا بين طرفين اشتركا فى مادته ،يقال . تضارب عمرو وبكر أى ضرب كل منهما الآخر ، فاذا كان الضرب من جهة واحدة يقال ضرب فلان فلانا (فالتغابن) يدل على وقوع الغبن بين طرفين غبن كل منهما صاحبه ، وللغبن عند العرب معان منها الجور والظلم ، وهذا لا يصلح هنا لانه لا يتصور أن يظلم رجلان كل منهما صاحبه لأنهما ان تكافآ فلا ظلم ،وان زاد أحدهما فى ظلمه فهو الظالم ، والآخر مظلوم ، انما المعنى المناسب هنا مأخوذ من قول العرب غبن فلان الشىء بفتح الغين وكسر الباء غبنا (بفتح الباء) اى نسيه أو اغفله أو جهله .

وتقول أيضا غبن محمد غيره بوزن ضرب اذا مر به وهو واقف أمامه ولم يره، فالمعنى يوم التناسى والذهول الذى يحصل بين الناس وهو يوم القيامة من شدة الهول .

انظر آيات ٢ صفحة ٤٣٣ ، ١٠ صفحة ٧٦٥ ، ٣٣ وما بعدها صفحة ٧٩٣ (سورة عبس) (سورة الحج) (سورة المعارج) والمناسبة آية ٣٧ من سورة عبس (**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**).

نروى هنا حديثا صحيحا أن عائشة رضى الله عنها لما سمعت قول الرسول صلى الله عليه وسلم ((**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة كيوم ولدتهم امهاتهم**)) .

فقالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله اهكذا يحشر الناس رجالا ونساء فى **مكان واحد ؟**

فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ».

انتهى ما جاء فى تيسير التفسير .

ـــ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار)) .

فريق للجنة وفريق للسعير :

وكما هو شأن القرآن دائما كلما حدثنا عن يوم القيامة ، أن نتيجته النهائية أن يفوز فريق بالجنة وهم المؤمنون فاعلوالخير وصالح الأعمال **(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار خالدينفيها وبئس المصير) .**

يكفر عنه سيئاته :

ونريد أن نقف قليلا أمام (يكفر عنهسيئاته) فهذا هو بعض جزاء المؤمن الصالح ومعنى ذلك انه أيا كانت درجةايمان الانسان وأعماله الصالحة فانه لا يسلم من الخطأ وارتكاب السيئات ، ولكن ايمانه وأعماله الصالحة تشفع له فيكفر الله عن سيئاته أى يمحوهامصداقا لقوله : « **ان الحسنات يذهبن السيئات » .**

فلا يفترن أحد بنفسه ويتصور أنهلا يخطىء أبدا وليكثر من الأعمال الصالحة فهى وحدها عندما تكون نتيجة الايمان العميق ، ما يكفر عن الانسان سيئاته .

– ما أصاب من مصيبة الا باذن اللهومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم . وأطيعوا الله واطيعوا الرسول فانتوليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين .الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

المصيبة : الشدة النازلة .

جاء فى القرآن الكريم .

– « الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوانا لله وانا اليه راجعون » .

– « ان أنتم ضربتم فى الأرضفأصابتكم مصيبة الموت » .

– « وما أصابكم من مصيبة فبماكسبت أيديكم » .

الدين للحياة :

عظمة الدين الاسلامى التى يعلو بهافوق سائر ما عرفت البشرية من أديان ، وما يجعله صالحا لكل زمان ومكان أنه لايصادر الطبيعة البشرية ، ولا يحاول أن يغيرها فضلا عن أن يلغيها ، ولكنه بعد أن يعترف بها ويقرها يعمل على تهذيبها وتحديدها فى أضيق نطاق .

مثال ذلك مواجهة مصائب الدنيا وكوارثها فهو لا ينكر أن الانسان يواجه بالمصائب ، بل ولا يحاول أن يتجاهلها ،وانما يعترف بها ويصف الموت بأنه مصيبة.

وبعد هذا التقرير يعلم المؤمن ويرشده الى ما ينبغى أن يكون عليه موقفه تجاه المصائب ، وهو أن يتجلد ويصبر ويسترجع **(انا لله وانا اليه راجعون)** روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حزن وبكى عند وفاة ابنه ابراهيم فعجب المسلمون لذلك وقالوا : أمثلك يبكى يا رسول الله ؟ فرد عليهم بروح القرآن وتوجيهه : يحزن القلب وتدمع العين ، ولا نقول ما يغضب الرب ، انا عليك يا ابراهيم لمحزونون .

وهذا هو الضابط لسلوك المؤمن عند المصيبة والفجيعة ، وهو الصبر والتجلد ولذلك فليس هناك ما هو أسخف من هذا الذى يذهب لتعزية انسان فى وفاة عزيز لديه ، ثم ينكر عليه مجرد الحزن بدعوى أن ذلك تعارض مع الايمان ، وهو مخالف لصريح القرآن من أن المصيبة هى المصيبة بالنسبة لجميع الناس ولكن المؤمن يحتمل ولا يجزع ويفوض أمره لله ويطلب منه أن يصبره ويقدر على احتمال المصيبة ، وهو ما تعد به الآية **((يهد قلبه))** .

فالآية صريحة أن كل ما يلم بالانسان مقدر عليه بقضاء الله .

ـ ((ما أصاب من مصيبة الا باذن الله)) .

ولكن المؤمن بأن كل شىء من الله سرعان ما يجد العزاء والسلوى .

ـ ((ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم)) .

قال ابن عباس : هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقال الكلبى : هو اذا ابتلى صبر واذا أنعم عليه شكر واذا ظلم غفر .

(والله بكل شىء عليم) .

أى يعلم موقف كل انسان تجاه المصيبة ومدى تفويض أمره الى الله .

ـ ((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين)) .

وهذه الآية مما يرجح قول من قال بمكية السورة ، فليس الا فى مكة ما كان يطلب من المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله ، وفى حالة العصيان **(فان توليتم)** يترك أمر العصاة والكفرة لله عز وجل ليتولى هو حسابه معهم فى الدنيا أو فى الآخرة .

ـ ((فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر . الا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر ان الينا ايابهم . ثم أن علينا حسابهم)) .

كان ذلك فى مجتمع الشرك ، حيث السلطة والقوة والحكومة فى يد الكفرة ، ففى هذه الحالة ، يكون ما على الرسول وبالتالى على كل داعية فى سبيل الله الا **(البلاغ المبين)** .

أما فى مجتمع المدينة حيث أصبحت السلطة التنفيذية بين رسول الله والمؤمنين فقد أصبح لزاما عليهم أن يفرضوا الطاعة لله ولرسوله فرضا على ما مر بنا ذلك فى سورة المنافقين ، ولماذا لم يوجد النفاق الا فى مجتمع المدينة .

الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

جوهر التوحيد :

لا اله الا الله ، لب التوحيد وجوهر الاسلام كله ، ويعجبنا قول الاصوليين من أن هذه الصيغة تقوم على النفى والاثبات.

(لا اله) أى لا معبود ، وهذا هو النفى **(الا الله)** وهذا هو الاثبات فليس يكفى فى التوحيد الخالص أن يكون الله معبودا ، وانما يجب أن لا تشرك فى عبادته

وكان طبيعيا وقد حصرت الآية العبودية لله وحده والصورة من أولها لآخرها تتحدث عن قدرة الله وأن بيده ملكوت كل شىء ، وأن لا شىء يحدث فى السماء والأرض الا بعلمه واذنه أن يجعل المؤمنون كل اعتمادهم على الله .

((يا ايها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفوررحيم . انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم .

نصل الآن الى الآية التى اتفق جمهور المفسرين على انها نزلت بالمدينة ، حتى من قال منهم بمكية السورة كالطبرى فقد استثنى هذه الآية وما بعدها فقال انها نزلت بالمدينة ، وذلك لما نقل اليهم من أن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية بالمدينة فى عوف ابن مالك الاشجعى شكا الى النبى صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فنزلت ذكره النحاس وحكاه الطبرى بن يسار .

قال : نزلت سورة التغابن كلها بمكة الا هؤلاء الآيات **((يا ايها الذين آمنوا ..** نزلت فى عوف بن مالك الاشجعى كان ذا اهل وولد ، وكان اذا أراد الغزو بكوا اليه ورفقوه فقالوا : **الى من تدعنا** ، فيرق فيقيم ، فنزلت .

((يا ايها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم)) .

وروى الترمذى عن ابن عباس أنه قال عن هذه الآية انها نزلت فى رجال من اهل مكة أسلموا وارادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فابى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، رأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، هموا أن يعاقبوه — **أى يعاقبوا أولادهم وأزواجهم** — فأنزل الله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا ... الآية » .

ويقول الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وكون الأزواج والأولاد يكونون أحيانا من المعوقات للانسان عن تحقيق خير لنفسه ، هو بعض ما يشاهد فى الحياة ، بل ان الأمر ليصل أحيانا الى حد أن يرتكب انسان بعض الجرائم كأن يسرق أو يختلس للترفيه عن أولاده ، ومن هنا يحذر الله المؤمنين من الانزلاق الى الامتناع عن فعل الخير فضلا عن الاقدام على عمل الشر من أجل الأولاد والأزواج ، وينبه القرآن المؤمنين الى أن أولادهم وازواجهم فى هذه الحالة يصبحون بمثابة الأعداء ، لان العدو هو ما يسعى لخسارة الانسان .

المعنى الظاهر :

على أنه اذا كان المعنى السابق هو ما يدل عليه جوهر المعنى فان المعنى الظاهر للكلمات من بعض الزوجات وبعض الأزواج يتحولون الى أعداء لبعضهم ، وكذلك الأبناء لآبائهم وأمهاتهم فذلك يحدث أحيانا وهو ما نسمع عنه من حين لآخر فى أيامنا هذه ، ومن هنا استعمل حرف (من للتبعيض أى بعض أولادكم ، لا كلهم وصدق الله العظيم **« وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم »** .

يجعل الله سبحانه وتعالى العفو والصفح عن كل اساءة تلحق بالانسان ، هو ذروة الفضائل الانسانية ولذلك يدعو اليه الاباء والأزواج الذين يتصورون أنهم قد أوذوا ، ويذكرهم بمغفرة الله الواسعة ورحمته .

« انما أموالكم وأولادكم فتنة » .

على أن الذى يغلب المعنى الأول هو هذه الآية .

الفتنة : المحنة والابتلاء .

فأموال الانسان وأولاده قد يكونان محنة للانسان ، اذ يقصر فى حق الشكر ، كما قد ينزلق فيمتلىء غرورا ، أو طغيانا ، ومرة أخرى يحذرنا القرآن من ذلك .

روى الترمذى عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فجاء الحسن والحسين عليهما السلام — وعليهما قميصان احمران يمشيان ويعثران ، فنزل صلى الله عليه وسلم (أى من فوق المنبر) ووضعهما بين يديه ، ثم قال : صدق الله العظيم : **« انما أموالكم وأولادكم فتنة »** . نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » ثم أخذ فى خطبته .

(والله عنده أجر عظيم) اى الجنة.

قال أبو سعيد الخدرى على ما روى البخارى ومسلم أن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة ، يا أهل الجنة فيقولون لبيك وسعديك فيقول : هل رضيتم فيقولون : وما لنا لا نرضى و قد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول . الا أعطيكم أفضل من ذلك ؟

قالوا : يارب وأى شيء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أحل عليكم رضــوانى فلا أسخط عليكم أبدا .

ــ ((فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . أن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم)) .

التقوى : من الوقاية وهى الحفظ ،أى احفظوا حق الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

ما استطعتم: أى قدر استطاعتكم .

(لا يكلف الله نفسا الا وسعها) .

والعمل قدر الاستطاعة هو أساس من أسس الدين الاسلامى التى تجرى فى كل تعاليمه ، فمن لم يستطع الصلاة قائما،فالصلاة بالنسبة له تكون بالقعود والحج لمن استطاع اليه سبيلا ، والوضوء يكون بالماء ((فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) .

وهكذا فنتقوى الله باتباع أوامره ،واجتناب نواهيه فى حدود الاستطاعة .

(لا يكلف الله نفسا الا وسعها) .

ويقول المولعون بالنسخ أن هذه الآية قد نسخت آية ((اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن ، الا وأنتم مسلمون)) .

ولست أفهم معنى النسخ هنا ، هل لم يعد المؤمن مطالب بأن يتقى الله حق تقاته ، أو لم يعد مطالب بأن يموت مسلما الا أنه مطالب فى كل الأحــوال ، وتحت مختلف الظروف أن تكون تقواه لله صادقة مخلصة متشددة وهذا معنى حق تقاته ، وذلك كله فى حدود الاستطاعة لان **(لا يكلف الله نفسا الا وسعها)** فالآيتان لا تتعارضان وانما يكمل كل منهما الآخر ، فالتقوى يجب أن تكون صادقة خالصة كما قدمنا فى حدود الاستطاعة ويسوق المولعون بالنسخ حديثا لا يدعم قولهم بقدر ما يفنده اذ قالوا لما نزلت آية **((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته))** اشتد على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى **((فاتقوا الله ما استطعتم))** فنسخت الاولى قال ابن جبير وحكاه القرطبى وابن كثير وغيرهما .

وهذه الرواية لا تفيد الا أن أقواما فهموا خطأ أن التقوى أحسن التقوى هى فى الاتيان بما فوق طاقتهم فنزلت الآية الثانية لتعلمهم وترشدهم الى ان العبادات كلها تقوى لله فى حدود الاستطاعة ، فلا ناسخ ولا منسوخ فكلها مبادىء ثابتة خالدة .

ـ واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرالأنفسكم .

أى اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه ، وقال قتادة عليهما بويع النبى صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة (وذلك فى بيعة العقبة) .

وانفقوا خيرا لأنفسكم .

قيل أن المقصود بالنفقة هنا الزكاة ، وقيل النفقـــة هي الصـــدقات بعامة وقال البعض هى نفقة الرجل على نفسه وعياله.

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم(على ما نقل القرطبى) أن رجلا قال لسيدنا محمد عندى دينار قال : انفقه على نفسكقال : عندى آخر قال : انفقه على عيالك ، قال : عندى آخر : قال انفقه على ولدك ،قال عندى آخر ، قال تصدق به فبدأ بالنفس ثم الأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك.

يقول القرطبى وهو الأصل فى الشرع . وعندنا أن كلمة انفقوا يجب أن تظل على عمومها وان لا تقيد الا بما قيدته بهالآية وهو أن يكون الانفاق خير للنفس بسد حاجاتها المادية أولا ، ثم اتخاذ الانفاقسبيلا بعد ذلك لمرضاة الله **((ان أحسنتم احسنتم لانفسكم)) .**

فكل ما يفعله الرجل من خير فهو على نفسه .

ـ ومن يوق شح نفســه فاولئك هم المفلحون .

الشح : أشد البخل .

يوق : من الوقاية وهى الحفظ اى منيستطيع أن يجنب نفســـه ويحفظها من البخل فقد فاز ونجا وأفلح ، وما أكثر ما شدد القرآن وغلظ على البخلاء وحذر من مغبة البخل .

ـ ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم .

شبه الله عز وجل الانفاق فى سبيلهانه بمثابة القرض لله والأصل فى القرض أن يرده المقترض على صاحبه ، ويشجعالله الناس جميعا على الانفاق فى سبيله واعدا اياهم بأن يرد لهم ما انفقوه أضعافامضاعفة بغير حدود .

ـ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيلالله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة .

ـ والســؤال الذى يرد على الخاطر هل الرد يكون عينا فى الدنيا من نوع ما انفق المحســن ام هو ثواب فى الآخرة يمنحه الله للمحسنين . فأما أنه ثواب فى الآخرة فذلك شىء محقق ومؤكد يعد الله به عبده المحسن ، أما الرد فى الدنيا فكثيرا ما يقع .

أعرف صديقا كلما وقع فى ضائقة واحتاج مالا ، اسرع فانفق فى ســبيل الله ، وكثيرا ما جاءنى ليرينى بعد ذلك ما افاء به الله عليه وما فك به ضائقته . وكان يقوم بالعملية على أساس حسابى بحت على أساس أن الحسنة بعشر أمثالها كحد ادنى ، ثم يضاعف لمن يشاء بما يشاء وكان صاحبى يدع هذا العطاء لله ولكنه يعمل حسابه دائما على العشرة أمثال وهذا هو ذروة الايمان فلينفق المؤمنون ، لينفقوا فى سبيل الله فهى تجارة رابحة وقرض مردود عليهم بأعظم الفوائد بمغفرة الذنوب وما هو أعظم من ذلك ، شكرا لله **(ويغفر لـــكم والله شكور حليم)** .

حليم : اى الذى لا يعجل

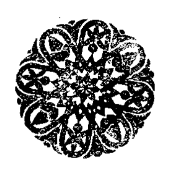
عالم الغيب والشــهادة العـــزيز الحكيم .

الغيب : كل ما هو خفى عن حواس الانسان وعقله .

فالله سبحانه وتعالى هو وحده العالم بكل ما نرى وما لا نرى .

(**العزيز**) أى الغالب القاهر ، أوالذى لا مثيل له لا يعادله أحد .

(**الحكيم**) فى تدبير خلقه .





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ
بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ
لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ
وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ
ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ
قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ
وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ
سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ
فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ
ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ
ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا
نُّكۡرٗا ﴿٨﴾ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ
مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾

تنبيـــه :

نريد قبل أن نبدأ فى تفسير السورةأن ننبه الى اننا لا نفصل أحكام الطلاق فذلك شأن المتخصصين فى الفقه وأحكامالطلاق استمدها الفقهاء من آيات هـــذه الســـورة ومن غيرها على أن لنــا بعضملاحظات خاصة سوف نســوقها بعد أن ننتهى من تفسير السورة طبقا لمنهاجنا الذىدرجنا عليه وهو الالمام بما جاء فى التفاسير القديمة ممـــا نطمئن اليه فنقـــول وباللهالتوفيق :

كلمة عامة عن نظام الطلاق :

الطلاق بمعنى كونه نظاما لفض الشركة الزوجية هو نظام يبدو للنظرة القاصرة نظام بغيض ، والله سبحانه وتعالى هوأكثر المبغضـــين له ، يقول رســـول الله ((**أبغض الحلال الى الله الطلاق**)) .

فهو نظام بغيض ، ومع ذلك فهو منناحية أخرى نظام ضرورى لسعادة الأسرة والمحافظـــة على كرامة المرأة وحريتهـــاوانســـانيتها وليس أدل على ذلك من أنه حيث تحررت المرأة واعتزت بكرامتها فقـــدطالبت بشرعة الطلاق حيث كان الطـــلاق ممنوعا ، فالمسيحية تحرم الطلاق الا لعلةالزنا ، وقد ظل ذلك متبعا فى عهد العبودية والرق والظلام فى أوربا ، فلمـــا أن كان الاصلاح الدينى وظهرت البروتستانتية فقد أبيح الطلاق فى ظلها فى القرن التاسع عشروكانت الولايات المتحدة الأمريكية فى مقدمة من أخذ بنظام الطلاق حيث بلغ اعتداد المرأةبنفسها أعلى مكانة وقد ظل الكاثوليك فى بعض الدول (ايطاليا ، حيث يوجد البابا)تعارض نظام الطلاق باعتباره ضد تعاليم المسيح بصورة مباشرة ، ولكن ايطاليا آخرحصون الكثلكة التى كانت تحظر الطلاق اصدرت قانونا يبيحه ، وهكذا لا نحسبأنه أصبح لا يوجد فى العالم قبيل نهـــاية القرن العشرين مجتمعا يحظر الطلاق فغنىعن البيان أن المجتمعات اللادينية تعترف بدورها بنظام الطـــلاق أى بفض الشركةالزوجية ، أى أن العالم انتهى بعد أربعة عشر قرنا الى ما شرعه الاسلام ولا عجبفى ذلك فهو دين منزل من السماء ، أى منزل من خالق البشر الذى يعرف ما فيهصلاحهم ، وهو ما يحتاج لبعض الايضاح .

الطلاق ضرورة اجتماعية :

أما لماذا انتهت البشرية كلها الى اعتناق نظام الطلاق عندما تحـــررت وارتفعت فيها كرامة المرأة ، فذلك لان الزواج هـــوشركة بين الرجل والمرأة تقوم لاســـعاد الطرفين والاســـتعانة على قطع مرحـــلةالحيـــاة ، مع مد الحياة بأسباب البقـــاء والاستمرار عن طريق انجاب الأطفـــال ،وتكون الحياة الزوجية مؤدية لأغراضـــها ما بقى التفاهم والود بين الزوجين ، والودوالمحبة والتعاون لا يمكن أن ينشأ بحال من القسر والاكراه ، وانما ينشأ الحب والمودةوالتعاون فى ظل الحرية ، ومن هنا كان لابد

لنجاح الحياة الزوجية ان تزدهر فى ظـل حرية الاختيار ، وما أعظم المفاسد التى نشأت فى ظل تحريم الطلاق ، لقد حـول المرأة الى شبه رقيق للرجل ، كما حـول الرجل الذى كره زوجته الى عـدو مبين يعمل بكل الوسائل على تنغيص حياتها ، حتى قد يصل الأمر الى حد تفكير كل من الطرفين فى قتل الاخر ، وكان اهون ما ابتدعوه للتحرر من قيود زوجية بغيضة ما اسموه (بالانفصال الجسدى) حيث يهجر الزوج زوجته والزوجة زوجها ، وفى مجتمع اسلامى كان بعض الازواج المسيحيين يخرج من دينه ويعتنق الاسلام كى يكون بقدرته التخلص من زوجته ، ومن هنا قلنـا أن أسـاس الشركة الزوجيـة هو المحبـة والتعاون ، فاذا انعدم هذا الاساس ، فقد اصبح ضرر استمرارها ، يفوق الفائدة من قيامها بالنسبة لجميع الاطراف المعنية .

أبغض الحـلال :

من هنا كان الطلاق بمعنى فض الشركة الزوجية هو ضرورة فى بعض الحالات ، ومن هنا تأتى عظمة التشريع الاسلامى فهو قد اعترف بهذا الحق ، فى الوقت الذى نبه فيه على عدم اساءة استعمال هذا الحق ، وأحاطه بالضمانات التى تجعله اذا وقـع لا يكون نتيجة تسرع أو غضب عابر ، أو نزوة طارئة ، وانما جعله اذا وقع يكون نتيجة ترو وتدبر وتفكير وبعد استنفاد كل وسائل العلاج والاصلاح لانه متى تحقق ذلك كله وظل أحد الطرفين مصرا علـى الطلاق فان عدم الاقدام عليه يكون مضرة كما قدمنا ، كما أجمعت المجتمعات البشرية على ذلك بعد التجربة والاقتنـاع .

بعد هذا التمهيد نشرع فى تفسـير السورة فنقول وبالله التوفيق .

سـورة مدنية :

مدنية باتفاق وحسبها أنها تنظم أخطر موضوع من موضوعات العلاقات الانسانية وهو موضوع العلاقة بين الرجل والمرأة وكيفية فصم العلاقة الزجية ، مما اصطلحنا على تسميته بالطلاق وما يصحبه من عدة وأنواعها وأحكامها .

ومن بقاء المطلقة فى بيت الزوجية وعدم اخراجهـا منه الا لاسـباب متناهيـة فى الخطورة ، مع وجوب الانفـاق عليها الى آخر ما سوف نتعرض له باذن الله تاركين ملاحظاتنا الى ما بعد الانتهاء من السورة كما قدمنا .

ـ يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقـوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

طلق : معناها اللغوى فك القيد ـ يقال أطلقت الاسير ، اذا حللت اسـاره وتخليت عنه وأطلقت القول اذا ارسلته من غير قيد ولا شرط ، وناقة طالق أى مرسلة ترعى حيث شاءت ومعناها الاصطلاحى ـ فصم عرى الزوجية .

عدة : لغويا مأخوذ من العدد والحساب ــ واصطلاحا عدة المرأة (أيام اقرائها) اى فترة زمنية يراد منها استبراء رحم المرأةالمطلقة أو المتوفى عنها زوجهـــا من آثار الزواج السابق ، على تفصيل سيرد فيمايلى :

اذا طلقتم ، أى اذا أردتم أن تطلقوا .

لعدتهن : أى فى عدتهن أى مستقبلات العدة .

كيف شرح رسول الله العدة :

جاء فى صحيح البخارى : طلق عبدالله بن عمر رضى الله عنه زوجته وهى حائض فذكر ذلك عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ فيه (أى منه) ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتىتطهر ثم تحيض فتطهر فان بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدةكما أمر الله عز وجل .

يا أيها النبى اذا طلقتم النساء :

صيغة فريدة فى القرآن أن يخاطب اللهالنبى ثم يتحدث عن تصرف المســلمين ، واختصر البعض الطريق فقالوا ان الله عزوجل يخاطب النبى بصيغة الجماعة تكريما له ، وقال بعض آخر ان الآية بدأت بنداءالنبى ، ثم وجهت الحـديث له ولســائر المؤمنين ، ومن المتفق عليه ان كل أمر للنبىصلوات الله عليه وسلامه هو أمر لأمته ما لم يثبت أنه خاص بشخص النبى بدليلقاطع .

لم يستعمل القرآن هذه الصيغة الا بهذهالمناسبة فقط :

ولقد عدنا الى القرآن الكريم نستقرئه فوجدناه يوجه الحديث كلمـا وجهه للنبى صلوات الله عليه وسلامه بصيغة المفردالمخاطب الا فى هذه الاية فقط .

يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعكمن المؤمنين ٦٤ م الانفال ٨ .

ــ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ٧٣ م التوبة ٩ .

ــ يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ٤٥ الاحزاب ٣٣ .

ــ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ٦٥ م الانفال ٨ .

ــ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل اللهلك . أم التحريم ٦٦ .

هذه الايات وأمثالها تدلك على أن الخطاب جرى دائما لسيدنا محمد بصيغة المفرد ، فليس صحيحا أن يقال أنه خوطب على طريق الجمع تفخيما له وتعظيما فقد عظمه الله عن غير هذا الطريق وهل هناكأعظم من أن يختصه بالنداء .

ومن هنا فقد أتفق جمهرة المفسرين ،على أن الحديث بعد هذا النداء يتجه صوب جماعة المؤمنين وعلى رأسهم سيدنا محمدبطبيعة الحال .

الطلاق أمر خطير :

وعلى ضوء قول رسول الله الذىرواه ابو داود :

ابغض الحلال الى الله الطلاق .

والحديث الذى أورده البخارى عنتغيظ رسول الله من ابن عمر لاقدامه على تطليق زوجته وهى حائض وأمره له أنيراجعها ، أقول على ضوء هذين الحديثين اللذين ينطقان بكراهية رسول الله للطلاق،أقتربت من سورة الطلاق اتفهمها ، فاذا بكراهية رسول الله للطلاق هو انعكاسلهذه السورة والتى كانت قد انتهجت اسلوبا فريدا ، فنادت النبى قبل أن توجهالحديث لجماعة المؤمنين ، فاذا بصدرى ينشرح لمعنى أن الله عز وجل بدأ بنداءالنبى تنبيها وتفتيحا للاذان والقلوب والعقول انه بصدد وضع تشريع خطير ،على كل مؤمن أن يتفهمه ويراعيه بكل دقة واذا كان ذلك لازم فى جميع الاحوال فهوهنا الزم لانه يتعلق بكيان الاسرة الذى هو قوام المجتمع ، ويكون بدء السورة بمناداةالنبى هو بمثابة تذكيره انه شاهد على أمته ، وربما كان هذا هو السر فى تغيظسيدنا محمد على ابن عمر عندما طلق امرأته على ما يخالف حدود الله ، واللهتعالى اعلم ، وبه ومنه التوفيق .

فطلقوهن لعدتهن :

قدمنا أن الحديث لجماعة المؤمنيناذا ارادوا أن يطلقوا النساء فلابد من اتباع شروط وأول هذه الشروط أن يقعالطلاق على المراة فى طهر لم يقع فيه جماع وذلك حتى لا تكون قد حملت من زوجهاحتى اذا وقع الطلاق صحيحا فالسورة الكريمة تحدد لنا انواعا من العدة (اىالمدة) التى يشرع فى حسابها قبل أن يصبح الطلاق مبتوتا أى نهائيا بعد التأكد منأمرين على ما يفهم من آيات القرآن فى هذا الصدد .

الاول : ان الرغبة فى الانفصال هىرغبة ثابتة ، وليست نزوة طارئة .

الثانى : التأكد من حالة الزوجة وهلهى حامل أو غير حامل وفى حالة الحمل فستكون عدتها كما سنرى هو وضعحملها .

وأحصوا العدة :

ولكى يتحقق الغرضان السابقان فقدفرض الله هذه المدة المعينة والتى سماها العدة وقياسها أو بالاحرى احصاؤها الذىأمرنا الله بمراعاته يختلف تبعا لظروف

الزوجة التى دخل عليها ، والتى لم يدخلبعد ، والتى تحيض والتى لا تحيض . وقد بين القرآن فى آية اخرى أن عدة المطلقــةالمدخول بها والتى لاتزال تحيض هى ثلاثة قروء ، وقد اختلف فى معنـــى القرء أهوالحيض أم هو الطهر الذى يليه ، فقال فقهاء ولغويون أن القرء هو الحيض ، وقـــال آخرون بل هو الطهـــر ، وأراح البعض انفسهم فقالوا انه من الاسماء المشتركة أى يطلق على الحيض والطهر معا ، وهذا الخلاف فى حد ذاته يدلك على شدة الحرص على تحديد مدة العدة بالضبط والدقة ذلك ان هذه المـــدة تختلف لو كان القرء يعنىالحيض أو الطهر .

واتقوا الله ربكم

ويبدأ الله عز وجل فى هذا الجزء منالاية يوجه نظر المؤمنين الى ضرورة تقوى الله باتباع أوامره للنجاة من غضبه .

ـــ لا تخرجوهنمن بيوتهنولا يخرجنالا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدودالله فقد ظلم نفسه لا تدرىلعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

نسبة البيت الى المرأة

وحـــكم العدة أى المـــدة التى تعقبالطلاق أن تلزم المرأة بيت الزوجية ، ونريد اولا أن نلفت النظـــر الى تكريم القـــرآنللمرأة فقد نسب اليها بيت الزوجية، فالبيت يكون بيت الرجل فاذا تزوج فقد أصـــبحالبيت ينسب الى زوجته وليس وراء ذلك تكريم ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التىاستخدم فيها القرآن هذا التعبير كرره فى اكثر من مناسبة .

ـــ وقرن فى بيوتكن

حتى بيوت النبى صـــلى الله عليـــهوسلم نسبت الى زوجاته .

ـــ واذكرن ما يتلى فى بيوتكـــن منآيات الله والحكمة .

ومن الجميل أن المشرع المصرى وهويصوغ القانون المدنى أى (قانونالمعاملات) قد اخذ بهذه القاعدة فاعتبر كل ما فى بيت الزوجية مملوك للزوجـــة الى أن يثبت العكس ، وهو مبدأ فريد لا مثيل له فى الدنياالا بالنسبة للمرأة المسلمة ، وحقـــا كان التقليد المتبع من أن الزوجة المسلمة هىالتى تؤثث البيت أثره فى ذلك ولكن الذى لا شك فيه أن أساس هذا التقليد المتبع هو نسبة البيت الى المرأة ، كما حكى القرآن فى هذه الآية وغيرها .

– ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة

قلنا ان الاصل هو أن لا يخرج الرجل المراة من بيت الزوجية بمجرد طلاقها ، بل يجب أن يتركها تلازم البيت حتى تستوفى عدتها وسنرى الحكمة من وراء ذلك على ما افصحت عنه هذه الاية بالذات ، وكان طبيعيا أن يأمر المراة نفسها بملازمة البيت لنفس الحكمة ، واستثنى من ملازمة البيت،أن تأتى المراة بفاحشة مبينة ، بمعنى أن يأتين بفعلة منكرة واضحة ، ولا يمكن بطبيعة الحال ، أن نحصى الاعمال المنكرة الواضحة ، فالظروف تختلف وقد فسر البعض الفاحشة المبينة بأنها الزنا . وعندنا أنه من الافضل أن تظل الاية على عمومها ، حيث تقاس كل حالة بظروفها ؛ والمهم أن نتمسك بروح الاية التى تشدد فى وجوب ملازمة المطلقة لبيتها ، وليس للزوج اخراجها خلال العدة الا اذا فعلت منكرا واضحا .

حالة الضرورة

وغنى عن البيان أنه يلحق بهذه الحالة ، حالة الضرورة ومقتضياتها وقد تحدثنا عن ذلك فى كتابنا « الاسلام محرر المراة » .

– وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه

لا نحسب أن هناك صيغة تفيد التشديد والتغليظ على من ينحرف عن التعاليم الصحيحة أقوى من هذا التعبير ،من أن كل ما يتصل بكيفية الطلاق المشروع، هو من حدود الله ، وعليك أن تتصورما الذى يعنيه الخروج عن حدود الله ، يقول القرآن الكريم **« ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه »** أى عرض نفسه للمهالك والمعاطب وسخط الله عز وجل ومهما نزل به فلا يجب أن يلومن الا نفسه فهو الذى ظلمها بالخروج على حدود الله .

ولست أحسب كما قدمت ان هناك فى القرآن صيغا أقوى من هذه فى التحذير والالزام باتباع أوامر الله .

لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

نصل الان الى بيت القصيد أو بالاحرى الحكمة من نظام العدة ، ولماذا كره رسول الله ان تطلق المراة وهى حائض ، ثم اشترط القرآن ان تلزم المراة بيتها مدة العدة ، وجعل العدة ثلاثة قروء بينها أطهار ان اذا كان القرء بمعنى الحيض ، أو ثلاثة أطهار اذا كان القرء بمعنى الطهارة،ذلك انه فى زمان وفى بيئة لم يكن الرجل فيها يستطيع الاستغناء عن الاتصال بزوجته ليلة واحدة ، فان معنى استغناؤه عن اتصاله بزوجته وهى حلال له (لان الاتصال يعنى على الفور الرجوع عن الطلاق)

طوال مدة العدة ، لا يعنى شيئا الا انـــهقد كره زوجته الى الحد الذى جعله يتغلب على غريزته ويمتنع عن مقاربة زوجته ،وذلك بالاضافة الى فشل مساعى الصلح، اذ يوصى القرآن فى سورة النساء باستنفادوسائل الاصلاح بين الزوجين ، عند تأزم العلاقات بينهما وذلك على ايدى نفر من المحكمين .

ــ وان خفتم شقاق بينهما فابعثــواحكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما (النساء ٣٥).

وهكذا يكون المقصود أولا من العدةفى رأينا والله تعالى اعلم هو الاستيثاق من كون الزوج أو الزوجة قد زهد كلاهمـــا فى الاخر نهائيا . وان تكون وسائل الاصلاح بين الزوجين قد فشـــلت ثم يأتى الهـــدف النهائى من العدة وهى ثبوت حالة الزوجة نهائيا من حيث كونها حامل أو غير حامل(وهو ما يلخص فيه بعض الفقهاء حكمة العدة) وعندى أن حصر الحكمة فى العدةفى هذا الهدف اذا جاز وصح بالنسبة لعدة الارمل التى مات عنها زوجها ، فهو ليس كذلك بالنسبة المطلقة حيث شرعت العدة بالنسبة لها اولا بفكرة الصلح بينها وبين زوجها ، وعودة المياه الى مجاريها ، حتى اذا فشل الصلح واصبح الطلاق نهائيا ،أفادت العدة فى تحديد حالة الزوجة وهل هى حامل أو غير حامل واقراوا ان شتم .

ــ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

ــ فاذا بلغن أجلهــن فأمســكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشـــهدوا ذوى عـــدل منكم وأقيموا الشـــهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليـــوم الاخر ومن يتق الله يجعل له مخرجـــا ٠ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شىء قدرا)) .

فاذا بلغن أجلهن : اى اذا كملت العدة فأمسكوهن بمعروف : اى راجعوهن الى عصمتكم مع حسن المعاشرة .

أو فارقوهن بمعــروف : واذا أبيتم الا المضى فى الطلاق فليكن ذلك فى حـــدود المعروف كذلك .

وتمضى التعاليم السماوية الالهية فى تحديد حدود الله فى فصـــم عرى الزوجية عندما يصبح لا مناص منها ولكنه يعـــود للنصـــح باســـتمرار الحيـــاة الزوجيـــة ((**فأمسكوهن بمعروف**)) بل وفى آية أخرى يضع القاعدة **الشهيرة ((وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم))** .

وذلك كله ترغيب للزوجين فى استمرار المعاشرة فاذا كان ولابد من الطـــلاق : فيجب أن يتم فى حدود المعروف والاحسان اى لا يكون هناك مضرة أو اساءة .

— واشهدوا ذوى عدل منكم :

ثم يصل القرآن الكريم الى ذروة الاشعار بخطورة الطلاق فينص على أن تكون اجراءاته علنية وذلك باشهاد اثنين من العدول ومرة أخرى استعرضنا آيات القرآن فوجدناه لم يستخدم هذا التعبير **(واشهدوا ذوى عدل منكم)** الا فى مناسبة

أخرى لا تقل خطورة حيث يوصى الانسان ببعض ماله بعد موته حارما بذلك ورثته من بعض نصيبهم الشرعى فى ماله .

يقول القرآن الكريم :

— شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم (المائدة ١٠٦) .

هذه هى المناسبة الوحيدة الاخرى التى اشترط الله فيها أن يكون الشهود من ذوى العدالة وليس يعنى هذا بطبيعة الحال أن لا يكون الشهود عدولا فى جميع الاحوال فالعدالة هى الاساس فى كل شهادة ، ومع ذلك فالنص عليها بصريح اللفظ فيه معنى التذكير والتدقيق والتغليظ يقول القرآن الكريم فى مناسبات أخرى .

— واشهدوا اذا تبايعتم

— واستشهدوا شهيدين من رجالكم

وهكذا ينفرد موضوع الطلاق كموضوع الوصية بالنص على وجوب عدالة الشهود وذلك يتسق كما قدمنا مع كراهية الاسلام للطلاق واحاطته بكل الضمانات ، ولم نجد فى القرآن درجة اعلى من الشاهدين العدلين ، الا فى حالة واحدة أخرى حيث طالب القرآن بأربعة شهود ، وذلك فى حالة الزنا وقذف المحصنات ، وليس ذلك الا اية أخرى على اهتمام الشرع بحفظ كيان الاسرة والتوقف عن قذف النساء بتهمة الزنا .

الندب والوجوب :

ومرة أخرى نريد أن ننبه أننا لا نتعرض لاحكام الطلاق كما حددها الفقهاء فلذلك موطن آخر وانما نقف عند حد ماجاء فى كتب التفسير التى ننقل عنها ما نطمئن له . وتقول اغلب كتب التفسير ان اشهاد الشهود عند الطلاق والرجعة مندوب اليه عند أبى حنيفة كقوله تعالى **((واشهدوا اذا تبايعتم))** .

وعند الشافعى واجب فى الرجعة مندوب اليه فى الفرقة وأوجب احمد بن حنبل الاشهاد فى الرجعة .

لكننا مع قول من قال على ما حكى القرطبى فى تفسيره قال : (واشهدوا) أمر بالاشـــهاد على الطـــلاق وقيل على الرجعية فهذا هو ما ينطق به صريح اللفظ بالاضافة الى الروح العامة للآيات كمـــا شرحناها فيما سبق .

وأقيموا الشهادة لله

دعوة الى الشهود ان يؤدوا الشهادة على وجهها الصحيح خالصة لله .

ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الاخر :

استمرار فى تذكير الزوجين والشهود وكل صاحب مصلحة أن اتباع هذه الاوامر والتكاليف هو واجب كل مؤمن بالله واليوم الاخر أى يوم الحساب والدينونة .

ومن يتق الله يجعل له مخرجا

واذا كان الطلاق بطبيعته مشكلة ، والرجل الأمين اذا فكر فى الطلاق فمعنى ذلك انه أصبح فى ضيق وكرب من أمره ، فهنا يعده الله أنه مادام يخشى ربه ويعمل جاهدا على مرضاته ، فسوف يخرجه من كل ضيق ويكشف عنه كل غم وكـــرب ، ونحن نؤثر هذا الفهم العام لمدلول الآية ، على قول من قال يجعل له مخرجا أى من النار الى الجنة .

ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا .

القضاء والقدر :

تشير هذه الآية الى موضوع القضاء والقدر من أوسع ابوابه . وموضوع الرزق هو محور القضية فمن يتق الله يرزقه من حيث لا يحتسب ويقرر أكثر المفسرين انها نزلت فى عوف بن مالك أسر المشركون ابناله يدعى سالم ، فأتى رسول الله وشكا اليه الفاقة وقال : أن العـــدو أسر ابنى وجزعت الأم ، فما تأمرنى فقال عليه الصلاة والسلام : **اتق الله واصبر وآمرك واياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة الا بالله .**

فعاد الى بيته وقال لامرأته : ان رسول الله أمرنى واياك أن نســـتكثر من قول لاحول ولا قوة الا بالله .

فقالت : نعم ما أمرنا به ، فجعلا يقولان وغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها الى أبيه وهى أربعة آلاف شاة (وفى رواية مائة من الابل) فنزلت الآية .

وجعل النبى صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام (أو الابل) له .

وطالما نبهنا على أن القرآن وان كان نزولــه بمناســبات الا أن الآيات كانت تنزل عامة تقرر مبادىء خالدة هى بعض سنن الحياة ، وهذا هو موضوع الرزق لا جدال أنه مقدر لكل انسان ، بالقدر الذى قدره الله **(وفى السماء رزقكم وما توعدون)**.

وطالما اختلف الناس حول الرزق وهل هو على قدر الــكد والاجتهاد أم انه يأتى من السماء اجتهد الانسان أم لم يجتهد .

طرفة ادبية

ومن أطرف مامر بى حول هذا الموضوع قصة تحكى أن اثنين من العارفين بالله جلسا ذات مرة يتناظران فى قضــيةالرزق وكان من رأى أحدهما أن الأرزاق قسمت وانتهى الأمر وأن كل انسان سيصل له رزقه المقرر عمل أو لم يعمل ، سعى أو لم يسع ، وكان الآخر يعارضه وينص على وجوب العمل والسعى وكان كل منهما يسوق الأدلة والشــواهد لاثبــات وجهة نظره ، وفيما هما يتناقشان اذ مر بهما رجل يحمل بلحا (تمرا) وحدث أن تعثر الرجل فوقع منه الحمل تبعثر على الأرض ، فنهض احد العارفين بالله (وهو الذى يقــول بالعمل والسعى) وساعد الرجل فى جمع البلح المبعثر ، وبعد أن أتم المهمة ، شكره الرجل وأعطاه حفنة من البلح على ســبيل الهدية وعاد العارف بالله الى زميله وراحا يستأنفان مناظرتهما وقد شرعا يأكلان من البلح ، فقال من جاء بالبلح : أرأيت ؟ لولم أقم وأساعد الرجل لما حصلنا على هذا البلح ولما أكلت منه ، فقال له مناظره :وها أنا لم أقم ولم أتحرك من مكانى ومع ذلك أخذت نصيبى فى هذا البلح .

وموضع الطرافة فى هذه القصة انها لم تحسم القضية .

والحق ان هذه القضية قضية الرزق أحد أسرار الوجود ، ومن حسن الحظ أن الواقع سيطر على الموقف والواقع تدفرضته غريزة الانسان من حبه للحــركة والنشاط ، ،وحبه للابداع والانتاج ومن هنا فقد أصبح من القواعد الانسانية أن من جد وجد ومن زرع حصد ومع ذلك فما أكثر الذين يجدون ثم لا يجدون وما أكثر الذين يزرعون ثم لا يحصدون ، ولكن من رحمة الله بالعباد ، أن جعل ذلك هو الاستثناء وليس هو الأغلب والأعم ، فحقا هنــاك من تهبط عليه الثروة من حيث لا يحتسب، كأن يعثر على كنز أو يموت له قريب غنى أو يربح جائزة ، ولكن هذه مجرد حالات أما الأكثرية الساحقة فالثروة تأتى نتيجة العمل ، وقد احتفظ الله بحقه فى أن يرزق من يشاء بغير حساب ليظل يذكر ، بأنه هو وحده مقدر الارزاق .

وعندنا ان كل انسان يرزق فى هذه الدنيا حسب ايمانه واعتقاده فلو آمن بكل قوة أن رزقه سوف يأتيه ويسعى اليه ،لحصل على رزقه فعلا بهذا الاســلوب ، ولكن هذه مرتبة لا يقوى عليها الا أفــراد قلائل كبعض كبار المتصوفين .

ـ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاءبغير حساب .

ولكن هذه مرتبة لا يصل اليها الا الأقلون ، فعلينا نحن الضعفاء أن نعمل ونكد حتى نحصل على رزقنا ، فقد جعل الله العمل بالنسبة لنا مفتاح الرزق .

اعقلها وتوكل

وليكن نبراسنا فى ذلك توجيه رسول الله للاعرابى عندما تصور أن الاتكال على الله معناه أن لا يربط ناقته ، لان ما قدره الله للناقة من حيث الضياع وعدم الضياع فهو الذى سيكون حتما ، فقال له رسول الله ، **بل اعقلها وتوكل .**

اى خذ أولا بالسبب ثم توكل بعد ذلك . وربط الناقة سبب فى عدم ضياعها ، أما انها قد تضيع مع ذلك فهذه حالة أخرى وهى ليست بالأغلب والاعم ، **اى انه** على الانسان ان يأخذ بالأسباب مفوضا امره بعد ذلك لله وهذا هو الايمان ذروة الايمان وحياة سيدنا محمد وسيرته خير شاهد على ذلك .

ـ ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شىء قدرا .

وتؤكد هذه الآية وتذكر بأن الله هو رب كل شىء المقدر لكل شىء وان حكمه هو النافذ فى هذا الكون كله ، واذ يساق هذا القول بمناسبة الحديث عن الطلاق فيجب أن يفهم منه المؤمن أول ما يفهم تطبيق هذه المشيئة الالهية بالنسبة لهذا الموضوع فيوم أن يطلق زوجتــه فلا منــاص من التريث والتروى .

(لعل الله يحدث بعد ذلك امرا) وحكم الله هو الذى سـيكون فى النهاية **(ان الله بالغ امره) .**

قد جعل الله لكل شىء قدرا .

ذلك معنى قد تكرر فى القرآن **(وكل شىء عنده بمقدار) .**

والذى يعنينا الآن هو أن نقف أمام عبارة **(وكل شىء)** فمنـذ كان الانســان انسانا وقد أدرك أن كل ما يتصل به معدســلفا من لدن قوة علوية ، فمتى يولد الانسان وكيف وممن ومتى يموت وأين وكيف ، هذه مسائل ادركها أول ما أدرك ، ثم اتسع علمه فأدرك أن الظواهر الكبرى من حوله كذلك ،فحتى الآن لا يعرف الانسان متى يقوم الزلزال واذا قام فمتى ينتهى ، ولا كيف ينتهى وبالمثل كما لو قام اعصار أو طوفان أو وباء وهكذا .

ولقد لاحظ الانسان منذ عصر مبكر انه لا يوجد شيئان فى هذا الكون ينطبقان تمام الانطباق اى أن كل ورقة شجر ، وكل قطرة ماء وكل حبة رمل لها ذاتيتها .

وانتهى العلم الحديث بأن قلب كل المفاهيم العلمية رأســا على عقب بحيث أصبحت الحقائق العلمية احتمالات وليست مؤكدات .

وسنعود لهذا الموضوع فى مناسبة أخرى بالشرح والايضاح .

أما الآن فحسبنا أن نقول صدق الله العظيم فكل شيء فى هذه الدنيا ، كل شيء قد خلقه الله ويبقيه الى قدر معلوم وما دمنا بصدد الحديث عن الطــلاق وعن العدة ومدتها ، فيجب مــراعاة ذلك كله ، حتى يتبين قضاء الله النهائى فيه ، أما باستمرار الطلاق أو الرجوع فيه .

— واللائى يئســن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشـــهر واللائى لم يحضن وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله اليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا .

واللائى يئسن من المحيض

بعد أن حددت العدة فى سورة البقرة بثلاثة قروء على ما قدمنا جرى التساؤل عن حكم المــرأة المســنة أى التى توقفت دورتها الشهرية فلم تعد تحيض فحددت هذه الآية عدتها ثلاثة أشهر ، وتسرى هذه المدة فى حالة الارتياب من حالة المرأة وما ينزل عليها دم أهو دم حيض أم علّة .

وللفقهاء كلام كثير فى هذه النقطة أوردها القرطبى فى تفسيره .

وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن .

أما عدة المرأة الحامل ، فمدة عدتها هو وضع حملها .

ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا

ويعود القرآن باعجازه البيانى ليكرر وعده لمن يتقى الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه أن يخرجه من كل ضيق وكرب وهم ويجعل له من بعد عسره يسرا .

ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا .

ويواصل الله عز وجل اسباغ نعمه على من يتقيه ، فوق كونه يجعل له المخرج من همومه ومشاكله فى الدنيــا ويحل له أزماته ويحول العسر الى يسر فهو يكفر عنه سيئاته ، أى زلاته وأخطائه التى وقع فيها بحكم كونه انسان ، بل ويعظم له أجره يوم القيامة ذلك كله وعد الله الحق لمن اتقاه ، والقرآن هنا يذكر ذلك كله حتى

ليكرر الأمر بالتقوى مما لا مثيل له فى أى موضع آخر بمناسبة الطلاق وتحديد الله لحدوده . والترغيب فى اتباعها والتخويف من اهدارها .

اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كن اولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان ارضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له أخرى .

من وجدكم : اى من وسعكم اى مماتطيقونه .

ولا تضاروهن : اى فى السكنى لتضيقوا عليهن فيضطروا للخروج .

وتمضى الآيات فى تحديد الحدود الشرعية وهى كلها تنادى بدفع المساءة والمضرة عن المراة المطلقة فيحذر الله الأزواج من أن يضيقوا على زوجاتهم المطلقات فأمر باسكانهن كما اعتدنا ان يسكن بحسب قدرة الزوج واستطاعته .

وعندما تكون المطلقة حاملا ، فان عدتها كما قدمنا حتى تضع حملها ، ونص القرآن على وجوب الانفاق عليها خلال هذه الفترة .

— فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن :

ويعطى القرآن الكريم للمراة المطلقة الحق فى أن تتقاضى أجرا على ارضاع وليدها، وليس وراء ذلك محافظة على حقوق المراة وصيانة لها من ناحية ووسيلة للضغط على الزوج لمراجعة مطلقته ، فلا يتصورن رجل انه يستطيع التحلل من مسئولية انجابه

طفلا بالاعتماد على غريزة المراة وانها سترضع طفلها على كل حال ، يبدد القرآن هذا التصور من ذهن الرجل ويكلفه بأن يدفع لمطلقته أجرا على الارضاع .

وائتمروا بينكم بمعروف

ما أشد حرص القرآن على أن يسود التفاهم والتعاون الحياة الزوجية ، حتى بعد انفصام عروتها ، فلا يفتأ يحث على المعروف : وهى دعوة موجهة للمراة مثل ما هى موجهة للرجل فقد بدأ هنا مخلوق ثالث فى الوجود وهو الطفل فأصبح من المتعين مراعاة مصالحه ، وهو ما يستلزم من الطرفين اتباع المعروف بمعنى الاحسان فى كل تصرفاتهم .

وان تعاسرتم فسترضع له أخرى

تعاسرتم : تضايقتم والمعنى اذا لم تستطيعوا الانفاق ففى هذه الحالة يتولى ارضاع الطفل امراة أخرى ، وهو حث للام على الامتناع عن التعنت والا أخذ منها

طفلها . وللفقهاء فى هذا الصدد كثير من التفريعات والفروض فليرجع اليها من أراد التفصيل وسيجد فى تفسير القرطبى طلبته وفى كتب الفقه بطبيعة الحال .

لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا .

لينفق : أى لينفق الزوج حيث أمره الله بالنفقة فى الحالات الواجبة سواء على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه أى طاقته ، حتى يوسع عليهما اذا كان موسعا عليه ، واذا كان فقيرا فعلى قدر طاقته كذلك **«لا يكلف الله نفسا الا وسعها»**، وما ذكر القرآن كلمة الفقر أو الضيق أو العسر الا وفتح دائما باب الأمل والرجاء سيجعل الله بعد عسر يسرا .

ـــ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكرا . رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا .

عتت : أى عصت ـــ **وكأين من قرية :** أى أهل القرية ـــ **فذاقت وبال أمرها :** أى عاقبة كفرها وانحرافها عن طريق الحق والخير والاستقامة ـــ **يا أولى الألباب :** ياأيها العقلاء ـــ **أنزل الله اليكم ذكرا :** أى أنزل القرآن عليكم .

البيان القرآنى .

طالما أكدنا أن القرآن كله كلام الله ولا تفاضل بين سوره وآياته ومع ذلك فان مشاعر الانسان تهتز فى بعض الأحيان امام سورة معينة ، فى وقت معين ، ومناسبة خاصة ، ولا حد لمشاعر الانسان ، وهو يسمع موسيقى الألفاظ والمعانى ، بالنسبة لسورة تتناول موضوعا تشريعيا وتفصل أحكامه ، وتغلف الموضوع كله بهدف القرآن النهائى وهو الايمان بالله والخوف من اغضابه باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه،

وقد بدأت السورة بمناداة النبى ليكون شاهدا على أمته فى ممارستها لأوامر الله وقد رأينا كيف كانت الآيات لا تفتأ تذكر وتحذر وتنذر بوجوب اتباع مارسمه الله للطلاق فى حدود ، على أن القول كان موجها على الدوام للانسان الفرد .

تحذير الجماعة كلها

على أن السورة تختتم بتوجيه التحذير للجماعة كلها لتكون بدورها يقظة لتحول دون وقوع المخالفات والانحرافات التى تقع من الأفراد فليس المجتمع سوى مجموع من الأفراد ، فاذا تفشت الاخطاء والانحرافات ، ولم تجد اصلاحا أو رادعا ، فان المجتمع كله لا يلبث أن يدفع الثمن كما نشهد دائما بأنفسنا .

فالقرآن الكريم يذكر فى هذه الآيات عقب الفراغ من بسط أحكام الطلاق ، بما جرى المجتمعات التى استهانت بأحكام الله ، حيث حاسبها الله حسابا شديدا فى هذه الدنيا قبل الآخرة ، وعذبها عذابا نكرا (أى منكرا) قيل أى فى الآخرة ونقول فى الدنيا والآخرة بأن يسلط عليها عدوا خارجيا أو طاغية يأخذ الناس بالعذاب وهكذا تذوق المجتمعات وبال أمرها ، أى نتيجة أعمالها المنحرفة وقد بلغ ايمان المسلمين الأوائل بهذه الحقيقة ، الى الحد الذى جعلوها أساس النجاح والفشل فى كل أمر فكانت جيوش المسلمين اذا تأخر عليها الفتح أيام عمر بن الخطاب شكت اليه ، فيرد عليهم أن سبب فشلهم لابد أن يكون راجعا الى الذنوب ، ويأمرهم أن يبحثوا ويفتشوا عن المخالفات والانحرافات ، فلا يكادون يصححونها ، حتى يتم الفتح ، وفى تاريخ الطبرى عن هذه الفترة عديد من النماذج لهذه الحالة حيث تأخر الفتح بسبب بعض الأخطاء فلما اكتشفت وصححت وحسنت النوايا حقق الله وعده بنصر المؤمنين .

اعد الله لهم عذابا شديدا

أى للمخالفين فى الدنيا والآخرة .فاتقوا الله يا أولى الألباب يا من آمنتم بالله ورسوله وما أنزل عليه من القرآن .

ـ رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور .

فليس هذا القرآن الكريم وما احتواه من مبادىء وتعاليم الا طريق النجاة والهدى وهو (أى القرآن الكريم) كفيل أن يخرج الذين آمنوا به وعملوا بأحكامه من الظلمات الى النور ، ظلمات الجهل وعماية الفساد الى نور العلم ورحابة الحق وطهر الايمان .

ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا .

الايمان والعمل :

لا يكون الايمان صحيحا الا اذا انبثق منه العمل ، ومن هنا لا يذكر القرآن الايمان الا ويشفعه على الفور بذكر العمل الصالح وجزاء الايمان والعمل الصالح هو النجاح والفلاح فى الدنيا ، والنعيم فى جنة الخلد فى الآخرة .

قد أحسن الله له رزقا

أى أن دخول المؤمن الجنة هو أحسن الجزاء وخير ما يمكن أن يرزق به الانسان ويجب أن يفهم على ضوء ما مر بنا بأن الايمان والعمل الصالح سبيل الرزق

المضمون فى الدنيا والآخرة معا بموجب وعدالله القـــاطع وما كان الله ليخلف الميعاد حاشاه جل جلاله .

ــ ((**الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن** يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير **وأن الله قـــد أحاط بكل شيء علما**)) .

خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن

عملية الخلق

زعم المتشدقون باسم العلم فى يوم من الأيام ، أن الكون قديم ، أما فى عصرنا الحاضر كما فى كل زمان اجماع على أن هذا الكون كان حيث لم يكن من قبل أى انه خلق خلقا بواسطة قوة أعلى منه وأكبر وهو الله عز وجل .

سبع سموات

بقطع النظر عن الرقم ٧ ومدلوله الذى هو سر من الأسرار كما يبدو فالسموات سبع والارضون سبع وأيام الاسبوع سبع بل لقد سمى أسبوع من رقم سبعة والطواف حول الكعبة ٧ أشواط وكان يظن دائما أن الكواكب سبع ، كل ذلك يدل على أن رقم ٧ له سر خاص به ، وقد حاول بعض المفسرين المحدثين ، أن يصرف باسم العلم مدلول سبع سموات وسبع أرضين عن المعنى الظاهر ، ولكننا لا نسايرهم فى ذلك ، فالعلم فى تطور مستمر وما يعتبر علما فى عصر من العصور لا يكون كذلك فى عصر آخـــر ونحن نفهم من سبع سموات أنها أكثر من سماء ، وها نحن قد بـــدأنا نـــرى بالعين المجردة أعنى الذين انطلقوا الى الفضاء ان هذا الذى نراه بأعيننا مما نطلق عليه لفظ سماء ليس الا كما حكى القرآن ((سماء الدنيا)) أى خاص بالدنيـــا فقط ، ونعنى بالدنيا هنا الكرة الأرضية فالغلاف الجوى المحيط بها والذى لا يزيد سمكه عن ٢٠٠ كيلو فقط ، هو الذى يكون هذه المجموعة من الظواهر مما نسميه سماء ، أما بعد ذلك فالمنظر جد مختلف ــ والبقية تأتى ، فانتوقف اذن ولا يخطئن أحد باسم العلم فيقـــول انها سماء واحدة .

وسبع أرضين .

ومن السماء ننتقل الى الأرض ومرة أخرى ندع مدلول الرقم سبعة جانبا ، ونفهم منه أن هذه الأرض التى نعيش فوقهـــا ليست وحدها فى هذا الكون وكان القدامى يتصورون هذه الأراضى السبع على شكل طوابق تحت أرضنا هذه التى نعيش عليها ويتخيلون ذلك تخيلا .

يقول القرطبي في تفسيره

ومن الأرض مثلهن : يعني سبعا واختلف فيهن على قولين احدهما وهو قول الجمهور — انها سبع أرضين طباقا بعضهافوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء وفي كل أرض سكان من خلق الله وقال الضحاك ومن الأرض مثلهن أي سبعا من الارضين ولكنها مطبقة على بعض من غير فتوق بخلاف السموات يقول القرطبي والأول أصح .

أرض القمر :

واليوم وقد وضع الانسان قدمه على سطح القمر ، فليس ذلك الا البداية ليصل الانسان الى أرض أخرى في (المريخ والزهرة وغيرها) وما كان المسلم الأول يؤمن به على أنه شيء من الغيب فقد أصبح اليوم حقيقة تدرك بأن حواس وغدا تصبح واقعا يعيش فيه ، وصدق الله العظيم عندما يقرر أنها ليست أرضنا فقط .

يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علما .

في هذا الكون ايا كان طوله وعرضه وعمقه وارتفاعه ايا كان ما يشتمل عليه من نظام وما فيه من سموات وأرضين فارادة الله هي التي تحكم كل ذرة من ذراته وقدرته هي التي تهب كل شيء كينونته ونظامه ، اما علمه فقد وسع كل شيء وأحاط بكل شيء وقدره الله وعلم الله مما لا يستطيع العقل المحدود ان يستوعبه ، وكل ما نستطيعه هو أن نتأمل بعض مظاهر هذه القدرة والعلم وان نتغنى بهما ، ونؤكد عجزنا حيالهما ونقف عند حد التسبيح والتهليل والتكبير بعظمة الخالق وسوف نقف أمام هذا المعنى اكثر في مناسبات مقبلة اذا شاء الله .

تم بعون الله تفسير سورة الطلاق ويليها سورة التحريم .

تذييــل :

نبهنا في مطلع حديثنا عن سورة الطلاق أنه ليس من منهاجنا وليس في نيتنا أن نتعرض لاحكام الطلاق فذلك شأن الفقهاء المجتهدين مجتمعين ومن هنا فقد احتفظنا ببعض ملاحظات لنا نسوقها بعد الفراغ من تفسير السورة لنضعها تحت أنظار من سوف يتصدون لاعادة قانون الطلاق تبعا لاحكام الشريعة الاسلامية .

كراهية وبالتالي تشديد وتغليظ .

امتلأنا بالشعور ونحن نمضي في استعراض آيات السورة الى أن الروح العامة للتشريع هي كراهية الطلاق وحصره في نطاق الضرورة .

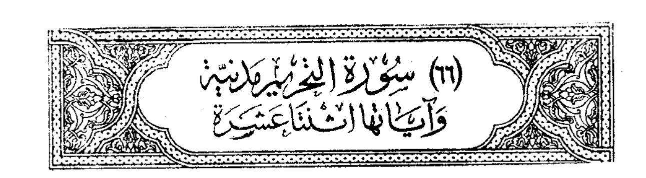
ومن هنا ففى رأينا المتواضع ان كل تنظيم يوضع لممارسة هذا الحق فى أضيق الحدود مع ابقاء الكلمة النهائية للزوجين فمثل هذا التشريع لا يجافى روح الاسلام كما ينطق به القرآن وتؤكده السنة .

ثانيا : يتصور اقوام ان مجرد كلمة تخــرج من فم الزوج فى اى حالة وفى اى مناسبة كافية لفصم عرى الزوجية وحقا كان ذلك هو الحال أيام النبى صلوات الله عليه وسلامه ولكن ذلك لم يكن امرا قاصرا على الطلاق بل كان شــاملا لجميع المعاملات وسائر التصرفات فلم تكن القراءة والكتابة هى أساس التعامل فى المجتمع اذ لم يكن لهما وجود على الاطلاق قبل بعثة النبى فاذا رأينا القرآن الكريم يحيط الطــلاق بشروط خاصة فيقول لنا ((**وأشهدوا ذوى عــدل منكــم**))

فان هذا هو الدليل على رغبة القرآن الكريم فى اختصاص الطلاق باجراءات خاصــة .

فاذا كنا قد وصلنا الى عصر اصبحت الكتابة فيه بل والتسجيل أحيانا شرطا لازما لصحة العقود ، فكل أنظمة توضع من هذا القبيل لاتمام الطلاق مستحبة ان لم يكن واجبة شريطة المحافظة على جوهر الحق وهو الحرية فى ايقاع الطلاق عندما يصبح لا مناص منه للزوج وباستطاعة الزوجة أن تشترط لنفسها هذا الحق فى عقد الزواج.





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ
تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ
بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ
مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً
نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ
رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ
ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

سورة مدنية :

مدنية باتفـــاق ، كمـــا تنطق بذلكآياتها فهى تتحدث عن زوجات النبى ، ولم يكن لسيدنا محمد أكثر من زوجة الا فىالمدينة لاعتبارات اقتضتها ظروف الدعوة وهى اعتبارات أهم ما فيها أنها لا تتصـــلبالرغبة الجنسية كما يزعم المتخرصون ، فقد أمضى سيدنا محمد شـــبابه وصـــدرزجولته ، وهى الفترة التى تبلغ فيها الرغبة الجنسية أوجها ، وهو مقتصر على زوجةواحدة كانت تكبره فى السن وهى أم المؤمنين السيدة خديجة ولا يظنن ظان أنه كان برمابذلك ، فقد ظل بقية عمره بعد أن توفيت السيدة خديجة وهو يحن الى أيامها ويشيدبها ونحن نعلم حب سيدنا محمد الشـــديد للسيدة عائشة لعدة أسباب مجتمعة منهاأنها كانت ابنة أبى بكر صفيه وخليله ومنها شدة ذكائها واســتعدادها المفرط للتلقىوالتعلم على يد رسول الله ، ولانها كانت الوحيدة بين زوجات النبى صلى الله عليهوسلم التى لم تتزوج أحدا قبله ، فهى البكر الوحيدة التى تزوجها صلوات الله عليه ،الذى يهمنا فى هذا المجـــال أنه كان يحبها حبا شديدا ومع ذلك فلم يكف عن الاشادةبخديجة كما قدمنا ، وتحدثنا كتب السيرة أن نار الغيرة اشتعلت فى صدر السيدة عائشة والغيرة طبيعة انسانية كما سنرى فقالت لسيدنا محمد ما يفهم منه أن الله قد أبدله عن السيدة خديجة بما هو خير منها وهى تعنى نفسها بطبيعة الحال ، ومع حرص سيدنا محمد على ارضاء عائشة فلم يسكت على قولها ورد عليها .

— لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها،لقد آمنت بى حيث كفر بى الناس وصدقتنى حيث كذبنى الناس ولقد واستنى بنفسهاومالها وكان لى منها ولد ، لقد كانت وزير صدق لى فى الاسلام .

والخلاصة أننا يجب ان نفهم أن زواجسيدنا محمد بمن تزوج بهن كان خصوصية من خصوصياته ورهنا بفترة معينة وظروفمعينة ، فلما انتهت هذه الظروف بانتصار الاسلام واستقراره نهائيـــا نزل القـــرآنالكريم يحرم على سيدنا محمد أن يتزوج بعد ذلك .

— ((**لا يحل لك النساء من بعـــدولا أن تبدل بهن من أزواج**)) الاحزاب ٥٢

ويكون معنى ذلك :

— أن سيدنا محمدا ظل حتى سنالخمسين ليست له الا زوجة واحدة .

— أنه بعدانتصارالاسلام واستتبابهحرم عليه الزواج مع أن المألوف والمعروف والذى يكاد يكون من المجمع عليه : أن القادة والزعمـــاء والملوك والمشـــاهير ، يترخصون لأنفسهم فى موضوع النساء بعدأن يحققوا أغراضهم العامة .

محمد رسول الله :

ولكن سيدنا محمدا صلوات الله عليهوسلامه ، لم يكن ملكا ولا قائدا أو زعيما ، وانما كان رسولا نبيا ، ولذلك فقد جاءتتصرفاتـه على خـلاف تصرفـات البشر العاديـة ، فحيث تسـتبد بهم الرغبة الجنسية فى الشباب وفى الرجولة ، كان هو العف المقتصد ، وبعد أن يصل الرجالالىقمة مطلوبهم ، فيطلقون العنان لرغباتهم، نزل القرآن الكريم يحرم على سيدنا محمدالزواج . وليس وراء ذلك دليل على ان الزيجات التى عقدها سيدنا محمد بعد وصوله الى المدينة كانت احدى ضروريات الدعوة وتهيئة أسـباب القوة لها حسب الأساليب المتبعة فى ذلك العصر .

وحياة سيدنا محمد كلهـا هى أكبرشاهد على أنه استخدم المألوف والمعروف لحماية الدعوة وتأمينها مما لا يتعـارضوجوهر رسالته وهى التوحيد ومناهضـة الشرك .

هذه السورة :

وسنرى فى هذه السورة بعض ما كانيلقاه سيدنا محمد صـلوات الله عليـه وسلامه من عنت زوجاته ، ولو لم يكن هوحقا وصدقا رسول الله وانه لم يتزوج بمن يتزوج بهن الا لحكمـة وغـاية اعلى منالرغبة الجنسية ، اذن لطلقهن وتخفف من عبئهن ، خاصة وقد رخص الله له بذلك معالوعد الالهى بأنه فى حالة طلاق زوجاته، فسيعوضه الله خيرا منهن ، ولكن سيدنا محمدا صـلوات الله عليه وسلامه خير فاختار وكان اختياره ان يبقى على عروةالزواج مع زوجاته ، وهكذا قام الدليـل القاطع على أن المسألة لم تكن مسـألةرغبة جنسيةوانما هو جهاد مستمر متصل، لاعلاء كلمة الله ولتمكين دعوته الصالحةفى الارض .

مناسبة هذه السورة لما قبلها :

وقـد جرى بعض المفسرين قدامىومحدثين ، على محـاولة الربط بين كل سورة وما سبقتها ، ولم نشأ أن نجاريهم ، ايمانا منا بأن ترتيب السور فى القرآن وترتيب الآيات فى السورة الواحدة (علىوجه التحقيق) هو ترتيب توقيفى نزل به جبريل عليه السـلام ، وقـد نزل القرآنمنجما (أى متفرقا) خلال ثلاث وعشرين سنة ، فمن التكلف (فى رأينا) محـاولةتسبيب وتعليل لماذا جاءت هذه السـورة بعد هذه السورة .

شدة الارتباط :

هذا هو رأيى ومع ذلك فلم استطعان اقاوم ما غلب على شعورى وعقلى من التنويه بشدة الارتباط بين هذه السـورة(سورة التحريم) وبين سورة الطلاق التى سبقتها أو ربمـا لحقتهـا والمهم انهمـامرتبطتان شكلا وموضوعا ، فأما من حيث

الشكل فقد انفردتا ، كلتاهما بأنهما مبدوءتان بـ (**يأيها النبى**) وأما من حيث الموضوع فكلتاهما تكمل الاخرى فى موضوع الطلاق ، فاذا كانت احداهما تحدد الحدود للطلاق المشروع ، مما يبين منه أن أبغض الحلال الى الله الطلاق ، فان السورة الثانية تظهر موقف الرسول نفسه من موضوع الطلاق عندما توفرت دواعيه فقد كرهه ورغب عنه مكتفيا بالتهديد به ليكون ذلك زاجرا وواعظا . واذا كنا مأمورين بالتأسى برسول الله ، فها هو يجعل نفسه قدوة لامته على كل العصور فى كراهته للطلاق ، فلا يطلق حيث شاع واستفاض انه طلق كما سوف نرى وثمة ملاحظتان اخريان نريد أن نمهد بهما قبل المضى فى تفسير السورة ، ليكون ذلك على هديهما :

أما الملاحظة الاولى فهى بشرية الرسول التى هى احدى معجزاته الباهرة .

والملاحظة الثانية هى وحدة الطبيعة البشرية وتحققها فى كل النفوس على اختلاف الازمنة والامكنة والظروف ، من ذلك موضوع الغيرة النسائية الذى كان هو السبب على الارجح فى حدوث هذه الازمة بين النبى صلوات الله عليه وزوجاته مما تشير له هذه السورة .

بشرية الرسول :

كل سور القرآن ناطقة ببشرية الرسول اما بالقول المباشر أو بالصفة والتصرفات . وهذه السورة على رأس السور التى تصف بعض الجوانب من حياة الرسول الانسانية البحتة ، وهو ما سجله القرآن بنص قاطع فى سورة فصلت :

ــ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد .

ونقف طويلا أمام رغبة القرآن فى اثبات بشرية سيدنا محمد فلم يكتف باستعمال كلمة « انما » التى هى أداة حصر ، والحكم بعد ذلك على سيدنا محمد بأنه « بشر » بل أبى الا أن يرفع كل لبس أوشك فى نوع هذه البشرية فقال (**مثلكم**) .

فقد كان يسوع المسيح لا يكف عن ترديد انه ابن الانسان ، كما هو مثبت فى الاناجيل ومع ذلك فان هذا لم يحل دون تأليهه ، ومن هنا فقد حرص القرآن على تأكيد حقيقة بشرية سيدنا محمد بما لا يدع مجالا للانحراف فكان هذا التعبير بكلمة (مثلكم) وفى كتابنا « نبى الانسانية » الذى اصدره المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ناقشنا باستفاضة بشرية الرسول ، فهو الانسان الوحيد الذى جنب أتباعه من أن يعبدوه من بعده وذلك بفضل القرآن وسلوك سيدنا محمد . وفى هذه السورة صورة كاملة لبشرية الرسول والمتاعب التى عاناها كرب بيت ، فسوف تحدثنا السورة عن احدى هذه الازمات فى بيت النبوة وهى من نوع الازمات التى تثور فى كل بيت .

الطبيعة البشرية الواحدة :

ولو لم يكن القــرآن وحيــا من رب العالمين ، لما تضمن مثل هذه السورة التى تتحدث عن أخص خصوصيات سيدنا محمد وهى علاقاته بزوجاته ، ونحن نرى أن المألوف والمشاهد هو أن يحاول كل انسان أن يبقى تصرفاته الخاصة فى الخفاء ، ولكن سيدنا محمدا عليه الصــلاة والسلام لم يكن ينطق عن الهوى ، وانما هــو وحى يوحى ، فقد سجل لنا القرآن والاحــاديث النبوية الصحيحة ادق التفاصيل عن حياة سيدنا محمد الخصوصية ، ذلك أنه انمــا ارسل ليكون معلما لبنى الانسان ، كيف يكون سلوكهم فى الحياة الدنيا وهل هناك ما هو أخطر فى العلاقات الانسانية من علاقة الرجل بزوجته . وتكشف لنا هذه السورة عن أن الحياة الزوجية تتعــرض للازمــات والعواصف وان أحد أسباب هذه الازمات هو الطبيعــة البشرية التى تجعــل المرأة شديدة الغيرة على زوجها .

وكلما كان زوجها عظيما وكبيرا ، كلما كانت الغيرة أشد ، وقد اعتاد الرجال أن يتبرموا من هذه الغيرة على أســاس أنهم (فوق الشبهات) ومن هنا يأتى التعليم والارشاد الالهى فى هذه السورة ، فهــا هو سيدنا محمد نفسه سيد الخلق يعانى من فرط غيرة نسائه ، حتى وهو فى حدود حقه . ومن شأن ذلك أن يعلم الازواج فى كل زمان ومكان أن يصبروا على غيرة زوجاتهم وان لا يتخذوا من ذلك ذريعة للطلاق .

وبعد هذا التمهيــد اللازم والــذى توسعنا فيه عمدا ، لفهم المقصود من هذه السورة ، نقول وبالله التوفيق :

— ((يا أيها النبى لم تحرم ما احل الله لك تبتغى مرضــات أزواجــك والله غفور رحيم .

منذ عرفت نفسى أى منذ كنت حدثا ، واشــتغلت بحفظ القــرآن ودراســـة تفسيره ، وانا لا اعرف الا مناسبة واحدة نزلت هذه السورة بصددها ، ولكنى عندما شرعت فى مطالعة أكبر قدر من التفاسير ، لاعرض عليك ما أراه جديرا بالعرض فوجئت برواية أخرى تضمنها العديد من التفسيرات القديمة ، ان لم يكن كلهـــا تقريبا . بل لقد وجدت تفسيرا حديثــا لاخ كريم لم يذكر سوى هذه الرواية . واقتصر عليها مخالفا بذلك ما درج عليه الاقدمون من ذكر الروايتين فدلنى ذلك على أن الخلاف فى الرأى سنة الهية ، ولن تجد لسنة الله تبــديلا وما ينشرح له صــدر انسان يزور عنه انسان آخر ، ولذلك فلا مناص من اثبات الرواية الثانيــة ، مع أنها لم ترد فى البخارى ومســلم وأغلبية الصحاح .

تحريم النبى شرب العسل على نفسه :

ولنبدأ باثبات القصة : التى رواهــا الشيخان عن سبب نزول الآية ، وما هو الشىء الذى حرمه ســيدنا محمــد على نفسه ، مع أن الله قد أحله له ولسائر الناس كيف لا وهو لا يعــدو أن يكــون ((**شرب العسل**)) .

حديث مسلم :

عن عائشة رضى الله عنها ان النبىصلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش (احدى زوجات النبى)فيشرب عندها عسلا ، قالت : فتواطأت أنا وحفصة ان ايتنا دخل عليها رسول الله صـلىالله عليه وسلم تقول انى أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير؟فدخل علىاحداهمافقالت له ذلك ، فقال : بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، ولن اعـود له ، فنزل « لم تحرم ما أحل الله لك » الى قوله « ان تتوبا » (لعائشة وحفصة) .

رواية البخارى :

عن عائشة رضى الله عنها قالت :كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يشرب عسـلا عند زينب ابنـة جحش ،ويمكث عندها فواطيت (أى تواطأت) مع حفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : اكلتمغافير ؟ انى أجد منك ريح مغافير : قال : لا ولكنى كنت اشرب عسلا عند زينب ابنةجحش فلن أعود له وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا » .

وقد جاء هذا الحديث فى البخارىفى أكثر من باب وعندما يتفق الشيخان على حديث يصبح عند الاصوليين ، من أصحالصحيح . وقبل أن ننتقل لاثبات الرواية الاخرى نرى أن نزيد فى توضيح الحادثةالسابقة ، وهى تتلخص فى أن السـيدة زينب بنت جحش اعتادت أن تسقى سيدنامحمدا عليه الصلاة والسلام شراب العسل ممزوجا بالماء ، وكان سيدنا محمد يستطيبذلك ، فاشتعلت نار الغيرة فى قلب السيدة عائشة والسيدة حفصة فأرادتا ان يكرهاسيدنا محمدا فى هذا الشراب ، وكان اكره الاشياء الى سيدنا محمد أن ينبعث منه أى رائحة غير طيبة ، فاتفقتا فيما بينهما أن يصورا لسيدنا محمد كلما رآياه خارجامن عند زينب ابنة جحش ، رائحةالمغافير تفوح منه ، والمغافير نبات كريه الرائحة(كالثوم مثلا) ويظهر أن زوجات النبى او بالاحرى (عائشة وحفصة) قد أحكمتاالتدبير وحرضتا باقى زوجاته أن يقلن مثل قولهما ، بحيث تصور رسول الله صلىالله عليه وسلم أنه كلما شرب العسـل الذى تقدمه له زينب بنت جحش فاحت منههذه الرائحة الكريهة فآلى على نفسه أمام احدى زوجتيه (عائشـة أو حفصـة) أنلا يعود لشرب العسل . ويفهم من سياق الايات أنه حلف أن لا يشرب العسل ،فنزلعليه الوحى ، يخبره بأنه حرم على نفسه امرا حلالا طيبا ، واعلمه بما دبرته زوجتاهلحمله على فعل ما فعل ، فى الوقت الذى كان يسعى فيه لمرضاتهما .

هل فى الآية عتاب ؟

ويـرى بعـض المفسرين أن الايـةتتضمن عتابا لسيدنا محمد ، ونحن لسـنا من هذا الرأى ، فالعتاب القرآنى لسيدنامحمد ، يكون دائما فى اجتهادات الرسول فى شأن يتصل بأمور الدعـوة والعبـادةوالمصلحة العامة ، أما فى هذا الموضـع

فالامر بخلاف ذلك ، اذ ان الله سبحانهوتعالى يرفع عن نبيه الحرج الذى وقــع فيه ، ويخفف عنه ما التزم به حيث لالزوم،وذكره بأنه حتى اليمين فقد جعل الله له كفارة **(قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم)**فالمسألة فى رأينا ليســت عتابا يحمل فى طياته معنى اللوم وربما كان العكس هوالصحيح ، أى أن الله يكرم سيدنا محمدا بهذه الايات ، ويخفف عنه الشـــدة التىفرضها على نفسه .

هـــذه هى الرواية كمـــا وردت فىالصحيحين ، وهى التى تفسر فى رأينـــا اكمل تفسير لهذه الآية وما تلاها ، وليسفيها ما ينبو عنه الذوق ، او يتعـــارض مع جلال النبوة ، فقد حرم سيدنا محمـــدعلى نفسه شرابا معينا ، وهذا التحريم خاص به شخصيا لا يتعدى أثره لكائن منكان .

والان انتقل الى الروايةالثانية والتىأشارت اليها كثير من التفاسير .

الرواية الثانية : وقد تشبث بها منأوردوها ، وذكروا لها تفاصيل ، فهى تقول ان الذى حرمه النبى صلوات الله عليـــهوسلامه على نفســـه هو جـــاريته مارية القبطية ، ولو اقتصرت الرواية على ذلك لفوضنا العلم لله ولقلنا كما قال الطبرى : « والصواب من القول فى ذلك أن يقـــال ان ما حرم النبى صلى الله عليه وســـلم على نفسه ، كان شيئا أحله الله له وجائزأن يكون جاريته وجـــائز أن يكون شرابا من الاشربة وجائز أن يكون غير ذلك » .

ونحن ننقل الآن من القرطبى الذىأخذ بالرواية الاولى ، باعتبارها هى الاصح والاولى بالاعتبار ، وكذلك فعل ابن كثيروالبغوى فى تفسيرهما ، قال القرطبـــى : وقـــول ثالث أن الذى حرم ، هى ماريةالقبطية فواقعها فى بيت حفصة . روى الدارقطنى عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول اللهصلى الله عليه وسلمبأم ولده مارية فى بيت حفصة ، فوجدته حفصـةمعها — وكانت حفصة غابت الى بيت أبيها . فقالت له : تدخلها بيتى . ما صنعت بى هذا من بين نسائك الا من هوانى عليك ، فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهى على (أى مارية القبطية) حرام ان قربتها ، قالت حفصة : وكيف تحـــرم عليك وهىجاريتك ؟ فحلف لها الا يقربها .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تذكريه لاحد » فذكرته لعائشة فآلى الا يدخل على نســـائه شهرا ، فاعتزلهنتسعا وعشرين ليـــلة فأنزل الله عز وجل ((لم تحرم ما أحل الله لك)) الآية . .

وتزيد الرواية فتقول ان سيدنا محمداذهب الى حد قوله لحفصـــة حتى يخفف عنهـــا : ان ابا بكر وعمر سيحكمان منبعده ، وطلب منها أن لا تفشى هذا السر ولكنها أفشته .

دحض الواقعة :

وبدون التعرض لفكرة أن يكون التحريم منصـــبا على مارية لسبب ما فنحن لا نقبل هذه الواقعة بهذه التفاصيل .

١ — تتحدث سورة التحريم عن زوجتين لرسول الله وقفتا منه موقفا خاصا ، استحقتا أن يعنفا عليه حتى يصل الأمر الى حد التهديد بطلاقهن . وليس فى الحديث المشار اليه ما يقطع بأن شيئا ما ، قد وقع من زوجات النبى ، وانما كان هو الذى عمل ما اعتبره خطأ حاول أن يصححه بتحريم مارية على نفسه ، فأين هنا خطأ زوجتى سيدنا محمد اللتين يغلظ عليهما القرآن ؟

قد يقال (وقالوا بالفعل) أن حفصة أفشت السر بأن نقلته الى عائشة ، مخالفة بذلك تحذير النبى ، فاذا صح هذا فما هو ذنب عائشة ، حتى لو افشت الخبر . فسيدنا محمد لم يحذرها ، وما ذنب بقية نسائه حتى يعتزلهن رسول الله ؟

٢ — اذا جاز أن يحرم رسول الله على نفسه أمرا ، وهو أن لا يشرب العسل فهذا مفهوم ، وهو فى حدود الرخصة التى يزاولها أى انسان ، وهو ان يأكل أو يشرب هذا الشىء أو ذاك أو لا يفعل ، أما أن يحرم أم ولده ابراهيم على نفسه ، فهى عقوبة ينزلها رسول الله على من لم يرتكب خطأ من أى نوع كان فهى جاريته وملك يمينه ، يأمرها فتأتمر ، وما كان رسول الله وهو من هو بالذى يقع فى المحظور . واللطيف ان الحديث المروى لم تفته هذه النقطة ، فقد دهشت حفصة لهذا التحريم فقالت له (حسبما يروى الحديث) كيف تحرم عليك وهى جاريتك ؟

اى أن حفصة نفسها قد هالها الامر ، فما أعجب أن يزداد سيدنا محمد اصرارا ، بل ويشدد ويغلظ ، فيحلف بعد أن لم يكن قد حلف .

٣ — أما بالنسبة لما قيل من أن الرسول قال لها ان ابا بكر وعمر سيحكمان بعده واستكتمها ، فهو قول نعيذ رسول الله منه ، ولو كان سيدنا محمد . يعلم بأن ابا بكر وعمر سيحكمان من بعده لأوصى بذلك ، ولكننا نعلم من وقائع السيرة أن سيدنا محمدا ، مع شديد لهفته أن يخلفه أبو بكر من بعده فقد أبى أن يأمر بذلك أمرا ، واكتفى بالايماء . وباستطاعتنا أن نمضى الى ما شاء الله فى دحض هذه الرواية التى لم ترد فى البخارى ومسلم الى ماشاء الله ، ولكن حسبنا هذا القدر وبالله التوفيق .

— قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم ، والله مولاكم وهو العليم الحكيم . واذ أسر النبى الى بعض ازواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه ، عرف بعضه واعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من انبأك هذا قال نبانى العليم الخبير .

تحلة ايمانكم : اى كفارة ايمانكم .

وقد جرى التساؤل عما اذا كان الرسول قد كفر عن يمينه فى هذه المناسبة أو لم يكفر ، فقال البعض لم يكفر فان الله قد غفر له من ذنوبه ما تقدم وما تأخر .

والحديث عن الكفارة فى هذه السورة انما هو أمر للامة ، قال بذلك الحسن .

وقال البعض : ان النبى صلوات الله عليه وسلامه كفر فى هذا الموقف بعتق رقبة . ويرجح القرطبى هذا الرأى ، أما نحن فنفوض العلم لله .

والكفارة تحل للحالف ما حرم على نفسه ، اى اذا كفر صار كمن لم يحلف ، وهى تكون بعتق الرقبة ، اى تحرير انسان من العبودية ، او باطعام الطعام ، او بالصوم لمن لا عبيد عنده ولا مال .

والله مولاكم ، اى سيدكم ووليكم وناصركم يرفع الحظر الذى فرضتموه على انفسكم .

واذ أسر النبى الى بعض أزواجه حديثا :

أسر من السر وهو ما يكتم ونقيضه العلانية ، ويستفاد من الاية أن النبى صلوات الله وسلامه عليه استودع بعض أزواجه سرا ، وطلب منهن كتمانه فأفشينه ، وفى حديث منسوب الى الدارقطنى يقررون أن السر هو تولية أبى بكر وعمر الخلافة بعد النبى ، وقد قدمنا رأينا فى هذا الموضوع ، والله تعالى أعلم .

فلما نبات به : اى أفشت السر .

واظهره الله عليه : اى أخبره الوحى وأطلعه على ما وقع من زوجته بمخالفتها أمره وأفشائها ما أوصاها به رسول الله من ضرورة كتمانه ، وذلك مستفاد من قوله : (واذ أسر النبى) .

عرف بعضه وأعرض عن بعض : اى أن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه أخبر زوجته التى أفشت السر بعض ما أخبره به الوحى ، وسكت عن بعض (أعرض) تكرما . وقال بعض المفسرين : عرف بعضه اى غضب .

وعلى القول الأول جمهرة المفسرين .

أما نحن ففى رأينا المتواضع وبالله التوفيق ، أن الوحى عندما قص على سيدنا محمد ما كان من زوجاته ، عرف بعض ما قيل له ، فهو ترديد لما قاله بالفعل ، بينما كان جزء من الكلام ليس له أصل ودل على التحامل . ومن هنا أنكره الرسول (أعرض عنه) هذا هو رأينا نحن والله تعالى أعلم .

وما يجعلنا نطمئن الى هذا الفهم : أن الرسول وهو فى معرض التعليم والارشاد ، ما كان ليسكت عن اى أمر من الامور (تكرما) كما يقولون . أما الامر الثانى الذى يجعلنا نطمئن لفهمنا ، فهو الاية التالية حيث اشتد التغليظ على زوجتى رسول الله ، وطالبهما الله بالتوبة ، مما يدل على أن ما وقع منهما لا يمكن السكوت عليه .

ـ ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير .

صغت قلوبكما : اى زاغت ومالت عن الحق . ويكون المعنى توبا الى الله ، اذ زاغت قلوبكما عن الحق .

تظاهرا : اى تتظاهرا وتتعاونا عليه بما يؤذيه ويكدره .

فان الله هو مولاه : أى وليه وناصره.

وصالح المؤمنين ، حاول البعض أن يحدد المقصود من صالح المؤمنين ، بأنه سيدنا على بن أبى طالب ، وقال البعض أن المقصود به هو أبو بكر وعمر ، ولكننا من رأى من قال انها اسم جنس كقوله تعالى ، ((**والعصر ان الانسان لفى خسر**)) أى جنس الانسان وعلى هذا يكون المقصود بصالح المؤمنين أى : صالحو المؤمنين .

ظهير : أى ناصر ومعين .

وهذه الاية الكريمة هى التى استندنا عليها فى دحض بل وانكار الرواية التى تتحدث عن تحريم مارية القبطية ، اذ أن الآية توجه الحديث الى اثنتين ، وتشير الى أنهما تظاهرتا على النبى ، أى اتفقتا على أمر لا يحبه رسول الله ، وهو ما ينسجم كل الانسجام مع اتفاقهما لتكريه رسول الله فى شراب العسل ، بايهامه أنه تنبعث منه رائحة كريهة ، حتى حملتاه على تحريمه على نفسه ، لولا أن اظهره الله على ما دبرتا .

من هما الزوجتان :

وقد جرى التساؤل منذ نزول هذه الاية عن المقصود من زوجات النبى بهذا الخطاب والاتفاق على أنهما عائشة وحفصة حسبما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان عن ابن عباس أنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن اسأله هيبة له ، حتى خرج حاجا ، فخرجت معه فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل الى الاراكى لحاجة له ، قال : فوقفت له حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت يا أمير المؤمنين من (هما) اللتان تظاهرتا على النبى صلى الله عليه وسلم من ازواجه ، فقال تلك حفصة وعائشة ، قال (أى ابن عباس) فقلت والله ان كنت لاريد أن أسألك عن هذا منذ سنة ، فما أستطيع هيبة لك ، قال فلا تفعل ، ماظننت أن عندى من علم فاسألنى فان كان لى علم خبرتك به(١) ، ثم قال عمر والله ان كنا فى الجاهلية ، ما نعد للنساء أمرا (أى لم تكن للمرأة أى قيمة عندهم) حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ، فبينما أنا فى أمر أتأمره (اذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، فقلت لها مالك ، وفيما تكلفك فى أمر أريده ، فقالت له عجبا لك يا ابن الخطاب ماتريد أن تراجع أنت وان ابنتك (أى حفصة) تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، فقام عمر فأخذ رداءه ودخل على حفصة ، فقال لها : يا بنية انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، فقالت حفصة والله انا لنراجعه ، فقلت تعلمين انى أحذرك عقوبة الله وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يابنيتى لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها (و) حب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها يريد عائشة ، قال ثم خرجت حتى

---

(١) انظر وتمعن الحرص على التعليم والتعلم الذى درج عليه الصحابة .

دخلت على أم‌سلمة لقرابتى منها فكلمتها(١)فقالت ام سلمة : عجبا لك ياابن الخطاب دخلت فى كل شىء ، حتى تبتغى أن تدخل‌بين رسول الله وازواجه ، فأخذتنى والله كسرتنى عن بعض ما كنت أجده ، فخرجت‌من عندها وكان لى صاحب من الانصار اذا غبت أتانى بالخبر ، واذا غاب كنت أناآتيه بالخبر ، ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا انه يريد أن يسير الينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فاذا صاحبى الانصارى يدق الباب فقال : افتح .. افتح .. فقلت جاء الغسانى ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله صلى‌الله عليه وسلم أزواجه ، فقلت : رغم أنف حفصة وعائشة . فأخذت ثوبى فأخرج‌حتى جئته فاذا رسول الله فى مشربة له يرقى عليها ، وغلام أسود(٢) لرسول الله‌على رأس الدرج فقلت له قل هذا عمر ابن الخطاب ، فأذن لى ، قال لى عمر : فقصصت على رسول الله هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سلمة ، تبسم رسول‌الله صلى الله عليه وسلم وانه لعلى حصير ما بينه وبينه شىء ، وتحت رأسه وسادة‌من ادم (أى جلد) حشوها ليف ورأيت اثر الحصير فى جنبه فبكيت ، فقال : ما يبكيك؟فقلت : يا رسول الله ، ان كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ، فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الاخرة ؟

بقية القول من حديث مسلم :

قال عمر بن الخطاب لما اعتزل نبى‌الله صلى الله عليه وسلم نساءه دخلت المسجد ، فاذا الناس ينكتون بالحصى‌ويقولون طلق رسول الله نساءه (ويمضى الحديث مشيرا الى بعض ما جاء فى حديث‌البخارى الى أن يسأل سيدنا عمر سيدنا محمدا) .

اطلقتهن (أى أزواجه) قال : لا :قلت يا رسول الله : انى دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون : طلق‌رسول الله نساءه ، افأنزل فأخبرهم انك لم تطلقهن ؟ قال : نعم ان شئت فلم أزل‌أحدثه حتى انحسر الغضب عن وجهه وحتى ضحك ، وكان من أحسن الناس ثغرا ، ثم‌نزل نبى الله ونزلت .. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق‌رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه . (ونكتفى بهذا القدر)

لا طلاق :

وهكذا يتضح من هذين الحديثين أن‌رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يطلق نساءه كما أرجف المرجفون .

دفع شبهة :

لما كنت أكتب هذا التفسير للشباب‌بصفة خاصة ، فأنا حريص على عرضه عليهم كما أعرضه على بعض الفقهاء قبل‌نشره ، فكان ان سألتنى احدى السيدات

---

(١) كان ذلك قبل نزول آية الحجاب .
(٢) فى حديث مسلم اسم الغلام وهو رباح .

الشابات ، وما هو وجه الخطورة فيما فعلته زوجتا النبى وبقية نسائه ، وحقا كان يمكن التهوين من شأن الواقعة ، لو أنها وقعت من نسوة عاديات ، أو ان المجنى عليه لم يكن هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

لستن كأحد :

فأما أن نساء النبى لسن كبقية النساء ، فذلك مقرر بصريح القرآن .

يا نساء النبى لستن كأحد من النساء :

والامر بالنسبة لسيدنا محمد وخطورة مركزه ودقة ما يتصل بأى شأن من شئونه، مسألة لا خفاء فيها ، وقد نوه بها القرآن عندما طالب زوجات النبى :

— **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** » فاذا كان ذلك كذلك كان شططا من غير شك أن تترك بعض زوجاته نار الغيرة تعصف بها الى الحد الذى وصلت اليه اذ تواطأتا على أمر ليس فيه رضا رسول الله بطبيعة الحال، وزادتا على ذلك أن حرضن بعض الزوجات الاخريات على التضامن معهن فيما دبرنه، وبلغ من نجاحهن أنهن حملن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرم على نفسه بعض ما أحل الله له ، وكل ذلك ان جاز فى أى بيت عادى ، وبالنسبة لانسان عادى، فهو لا يجوز بالنسبة لسيدنا محمد وهو من هو ، فكان لابد من وقفة ولابد من تأديب المتصلات بسيدنا محمد بالادب اللائق بأعظم نساء العالم بحكم موقعهن من رسول الله ، وهو الادب الذى حددته الايات التالية ، والتى تصف ما ينبغى أن تكون عليه زوجات النبى من صفات ، وقد دل ابقاء سيدنا محمد عليهن ، على الرغم من تصريح القرآن له بطلاقهن ، على أنهن يتمتعن بالفعل بهذه الصفات ، وأن هذا الذى حدث انما هو (شطط فى المزاح) شاء الله أن يقع ، ليكون سبيلنا الى التعلم، كمناسبات أخرى كثيرة ستمر بنا ، اراد الله ان يعلمنا من خلالها .

— عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا :

يقول المفسرون : كل عسى فى القرآن واجب الا هذا ، وقيل هو واجب على مقتضى القاعدة ، ولكن الله عز وجل علقه بشرط الطلاق ولكن رسول الله لم يطلقهن .

خيرا منكن :

الاجماع على أن زوجات النبى صلى الله عليه وسلم هن خير نساء العالمين . ولكن ذلك مشروط ببقائهن متصفات بهذه الصفة ، أما عندما يطلقهن رسول الله فلا يصبحن كذلك ، فأما وقد ابقاهن رسول الله ، فقد أصبحت كل هذه الصفات تنطبق عليهن والا لما ابقاهن .

مسلمات : يعنى مخلصات

مؤمنات : يعنى مصدقات بما أمرن به ، ونهين عنه

قانتات : مطيعات ، القنوت الطاعة .

تائبات : مستغفرات من ذنوبهن

سائحات : أى صائمات وقيل مهاجرات

ثيبات وأبكارا : الثيب هى التى سبقلها الزواج ، والبكر هى العذراء ، والطف ما قيل فى سبب تسمية الثيب بهذا الاسمانها تثوب (أى ترجع) الى بيت أهلها . وثمة ملاحظة بيانية أى (من حيث البلاغةوالفصاحة) فقد ذكرت كل الصفات بدون ان تخللها أداة العطف (و) الا بين (ثيبات وأبكارا) ذلك أن كل هذه الصفات تتحقق فى ذات الشخص ، ماعدا هذه الاخيرة .ومن هنا جاء حرف العطف (و) بمعنى(أو).

ـ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكموأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون اللهما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم انما تجزونما كنتم تعملون .

قوا أنفسكم وأهليكم :

أى اعملوا على وقاية أنفسكم وأهليكم من نار جهنم

غلاظ شداد :

اى أقوياء جبابرة أعدهم الله ليكونوازبانية العذاب

واجب التربية :

فى هذه الاية الكريمة ما يفيد حق الصغير والجاهل فى التعليم ،وواجب الكبير فى التعليم وتوجيه النصح والارشاد .

وهذا هو تضامن الاجيال والمحافظةعلى الكيان الانسانى والتمسك بالقيم الانسانية الرفيعة ، وعلى راسها الدينباتباع أوامره واجتناب نواهيه .

ان الطفل فى حاجة الى تغذية عقلهمثل تغذية جسده ، فالحياة الانسانية قصيرة لا تتيح لاى انسان أن يبدأ تجاربخاصة به، لمعرفة قواعد السلوكالاجتماعى وآدابه ، فأصبح واجب كل والد أن يقدملولده خلاصة تجاربه فى هذه الناحية ، وتكون مهمة الولد أن يصحح أو يضيف أويحسن ، أما ما أصبحوا يسمونه بلغتهم الحديثة (الرفض) أى الاعراض عن كلما هو قديم والتمرد عليه وعدم الاصغاء لنصح الاباء والكبار بحجة التقدم والتطورفليس لذلك من نتيجة سوى الفوضى والاضطراب ، وهو ما تعانى منه البشرية بعامة وعالمنا العربى المعاصر بخاصة . ولو وقفنا طويلا أمام هذه الاية لاتضح منها جليا ان التربية والنصح والارشاد هو واجب كل انسان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ((**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**)) **فما يتصوره بعض آباء**هذا الزمانمن ان التربية العصرية هى ترك الولد او

البنت أو الزوجة ، كل يفعل ما يريدبدعوىأن هذه هى الحرية (والتقدمية) فهذا هو العبث وهو الهوان ، وهذه الآية الكريمةتذكر كل انسان عن مسـئوليته فى وقاية نفسه ، ومن يحب (قدر استطاعته) من**النار** .

جاء فى الحديث على ما روى القرطبى : « حق الولد على الوالد أن يحسـن اسمه وأن يعلمه الكتابة ويزوجه اذا بلغ » .

وقال عليه السلام على ما روى القرطبى كذلك : « ما نحل والد ولدا افضل من ادب حسن » .

ومن الأحاديث فى التربية الدينية :مروا الصبى بالصلاة اذا بلغ سبعا ، فاذا بلغ عشرا فأضربوه عليها .

نارا وقودها الناس والحجارة :

لم تتصور قريش نارا يكون وقودهاالحجارة فقد كانوا يطهون طعامهم بالذات على الحجارة التى تشتعل حولها النـارفلا تنال منها ، أما نحن اليوم ، فنعلم أن الحـرارة ترتفع الى الحد الذى يحـولالأحجار الى سائل مذاب مشتعل .

وهكذا يخوف الله عباده المؤمنين نارجهنم الرهيبة وملائـكة الجحيم القائمين عليها الغلاظ الشداد . ولا يظنن ظان أنهسيكون بقدرته أن يواجه هؤلاء الملائكة بأى ضرب من ضروب المواجهة ،فملائكة العذابكسائر الملائكة مفطورون على أداء مهمتهم التى عهد بها اليهم ، ولا يمكن بطبيعة الحالأن يعصوا الله ما أمرهم وانما شأنهم : (يفعلون ما يؤمرون) .

ومن الذين آمنوا حيث يحذرهم اللهمن النار ، الى الذين كفروا يزجرهم الله ويذكرهم بأن ما يعانونه من العـذاب هوجزاء لما قدمت أيديهم .

ـ يا أيها الذين آمنوا توبوا الى اللهتوبة نصـوحا عسى ربكم أن يكـفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتهاالأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم**يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شىء قدير .**

التوبة النصوح:

التوبة هى الرجوع عن الذنب والاستغفار عنه والنصوح الصادقة من النصح، اى توبة نصح لأنفسكم ، أو كما قال المبرد:توبة ذات نصح .

وقد قيل الكثير والكثير جدا فى وصفالتوبة النصوح وأركانها مما تغص به كتب اهل التصوف بصفة خاصة .

على أن أهم ما نحب نحن أن نسجله،ونضغط عليه وننبه اليه ، أن التوبة لاتقبل من أى انسان الا بعد أن يصلح شئونه معالبشر ، فهذا هو المقياس الصحيح لأى

توبة فاصلاح ما أفسد الانسان بقدرالامكان والتعويض عما لا يمكن اصلاحه ، ورد الحقوق ورفع المظالم ، ووصل ماانقطعوالاحسان فى كل المعاملات بدلا من الاساءة والبذل والعطاء كل ذلك هو علامة التوبة.

عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم :

قدمنا أن المفسرين يقولون أن ((عسى))من الله واجبة أى أن المؤمن اذا تاب توبة نصوحا أى صادقة خالصة ، غفر الله لهذنبه على وجه التحقيق ، مصداقا لما جاء فى الحديث . « التائب من الذنب كمن لاذنب له » .

ولكنا من ناحيتنا نحب الجرس والاشعاع الذى تشعه كلمة « عسى » حيث تفيد الرجاء ، ليبقى قلب المؤمن يقظا متعلقاعلى الدوام بحبال الرجاء فى جنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين وجنةتجرى من تحتها الأنهار .

((**يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه**)) أى يوم القيامة اليوم الموعود.

((**نورهم يسعى بين أيديهم**)) سواء كان العمل الصالح شبيها بالنور أو هو النور نفسه ، فبالضد من ذلك فان العملالطالح (السيء والشرير) هو ظلام وعتمة .

فالمؤمنون وعلى رأسهم سيدنا محمدعليه الصلاة والسلاميستضيئون يوم القيامة بصالح أعمالهم ، واذ يتذوق المؤمنون حلاوةالنور وجماله فى هذا اليوم العصيب فهم يسألون الله أن يتمه عليهم وأن يزيدهم منه،ولما كان ما سوف يكونون فيه من النور هو شيء عظيم ، ولا زيادة بعد لمستزيد ولكنالله سبحانه وتعالى لا حد لقدرته **(ان الله على كل شيء قدير)** .

من الخاص الى العام .

قلنا أكثر من مرة أن القرآن هو كتاب للبشر كافة ، وانه يتخذ من كلالمناسبات وسيلة للتعليم والتوجيه ، وهكذا بعد أنوجه الحديث الى زوجات النبى ودعا زوجتين الى التوبة ، توجه بالحديث عنالتوبة وأنها مفتوحة أمام كل من اخطأ وزل به القدم .

ـ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير .

تنطق هذه الآية بالتطور الذى آلتاليه الامور بعد أن قامت الدولة الاسلامية فى المدينة اذ أصبح علىسيدنا محمد باعتبارهالمسئول عن الدفاع عن مجتمع الاسلام ان يقف بكل شدة فى وجه من يحاربون الاسلاموالمسلمين (الكفار) ومن يتربصون بهم الدوائر (المنافقون) .

وحيث كان القرآن يشيد بسيدنا محمد وسماحته ورحمته وعطفه على أتباعه وأصحابه .

((**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**)) .

فحيث ينفى القرآن عن سيدنا محمد غلظ القلب فهو يدعوه للاشتداد والتغليظ على الكفرة والمنافقين .

ويعمم القرآن الكريم القاعدة ،فيجعلها سمة المؤمنين بعامة ((**أشداء على الكفار رحماء بينهم**)) .

وهذا هو الميزان الدقيق لتزن بهتصرفات كل حاكم ، فحيث تراه حازما حاسما فى مواجهة أعداء الله والحق تراهسهلا لينا مع أنصار الحق ، أما عندما تصبح الشدة والغلاظة طابع تصرفاته فىمواجهة الجميع فهذا هو الانحراف .

الناسخ والمنسوخ :

ويرى البعض أن هذه الآية وأمثالهامما نزل فى المدينة قد نسخ كل ما نزل من آيات القرآن فى مكة والتى تدعو الىالصبروالاحتمال والتسامح ودفع السيئة بالحسنة ، ولقد ناقشنا هذه القضية بتوسعفى كتابنا الاسلام ورسوله ، وبينا أن لكل آية ظرفها الذى تعمل فيه اذا توفر فى أىزمان ومكان .

— ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأةنوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما منالله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين .

لا محسوبية :

يعود القرآن للتذكير بالقاعدة الأساسية التى ما فتىء القرآن يشير اليها وهى أن كل انسان محاسب بما قدمت يداهوليس بنافعه أن يكون ابنا لهذا النبى أو أباله كما هو الشأن بالنسبة لابنى نوح ووالد ابراهيم ، ولما كان الحديث فى هذه السورة يدور حول زوجات النبى ، فهويذكرهم بهذه القاعدة ، وأن قربهم الشديد منه لا يخولهم حصانة ضد المساءلة ، اذاهن أخطأن ، بل ربما كان هذا القرب ، كما سنرى فى سورة أخرى ، مدعاة للتشديد عليهن .

فخانتاهما : جرىالبحث بينالمفسرين عن طبيعة خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ، ونحن نرى أن نقف عن حد اللفظ وما يفهممنه ، من أنهما خرجتا على دعوة زوجيهما للايمان باللهالواحد الأحدفقيل (**ادخلا النار**مع الداخلين) .

أما كل ما زاد على ذلك من تفاصيلتتصل بنوع الخيانة ، فضلا عما يقال من أن اسم امرأة نوح والهة ، وامرأة لوط والعة فذلك كله بغير سند .

— وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأةفرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله : ونجنىمن القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحناوصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

الخير والشر :

الخير والشر ، الظلام والنور ، الحياة والموت ، الجنة والنار ، هذان هما العنصران الذى يقابل كل منهما الآخـــر ،وحيث يوجد أحدهم فلابد أن يوجد الآخر ، ولكن القرآن دائما يجعل كلمة الخير هى العليا وهى النهائية بطبيعة الحال ، لان الله هو الخير ، ومن هنا نبهنا دائما الى أن القرآن لا يشير الى العقاب الا وشفعه على الفور بحـــديث اكثر استفاضــــة عن الثواب .

وهنا لا يكاد يفرغ من الحديث عن امرأتين يمثان الى عالم الظلام ، عالم الشر ، عالم الكفر والجحود ، حتى انثنى يحدثنا عن امراتين من عالم النور . عالم الخير والايمان ، وهما امرأة فرعون التى تشـــير الآية أنه رغم قربها من فرعون الذى كان يعتبر نفسه الها ، فقد كفرت به وآمنت برب السموات والأرض ، ولم تخش من غضب فرعون وعذابه ، وانما اســـتعانت بالله وطلبت منه أن يعد لها بيتا فى الجنة ، أى أنها باعت العاجل بكل ما فيه من عز وسؤدد ونعيم ، بالأجل البعيد .

اما المراة الاخرى فهى مريم العذراء أم المسيح **(التى أحصـــنت فرجها)** وقد تحدثنا فى سورة الصف عن دفاع القرآن المستمر عن السيدة مريم العذراء البتول فى وجه افتراء اليهود ، وقولهم عليها قولا عظيما (اثما وبهتانا) .

وفى هذه الآية يسد القرآن على المتقولين كل ثغرة ، فيصف مريم بأنها **(أحصنت فرجها)** اى حافظت على بكارتها فلم تسمح لأى بشر أن يمســسها .

فنفخنا فيه من روحنا :

سوف نقف فى مناسبات قادمة أمام قصـــة امراة فرعون وميــلاد عيسى عليه السلام بتطويل أكثر ، أما الآن فحسبنا أن نشير الى ما وقف عنده المفسرون من كلمة (فرجها) وذلك بمناسبة نفخة سيدنا جبريل فى مريم العذراء . قال بعض المفسرين : الفرج هنا بمعنى الجيب اى فتحة الثوب .

وعندنا أن كلمة الفرج ، هنا مقصودة لرفع كل لبس أو شك فى عذرية مريم ، وأنها كانت طاهرة مبراة من كل سوء ، أما عندما نصل الى مكان النفخ ، فهنا تـــكون آية ((**فنفخنا فيه من روحنا**)) .

هى الحاكمة .

— وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

كلمات ربها : قيل على لسان جبريل اى ما قاله جبـــريل لها نقـــلا عن الله عز وجل .

القانتين : اى المطيعين المصلين .

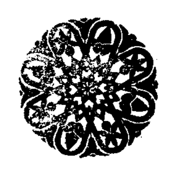
وسيرد الحديث بالتفصيل عن السيدة مريم فى السورة المسماة باسمها .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ
تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ
فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ
ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ
ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا
ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا

فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ
أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾



ســـورة مكية :

لم يجر اى خلاف حول مكية السورة ، واذا كانت فى المصاحف تسمى سورة الملك فقد اشتهرت باسم تبارك ، بل أطلق اسـمها (تبارك) على الجزء التـاسع والعشرين من القرآن ، بحيث أصبح اسمه جزء تبارك .

كما أصبح الجزء الثلاثون ، يسمى جزء عم .

وقد لا يعلم أبناء الجيل الجديد أنه كان حتما علينا فى طفولتنا أن نحفظ على اقل تقدير ، هذه الأجزاء الثلاثة من القرآن عم ، وتبارك ، وقد سـمع ، وذلك فى مدارس الدولة ، أما فى الكتاتيب التى كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها ، فقد كان حفظ القرآن كله ، هو المفتاح لطلب العلم ، وانعم به من مفتاح ، بل هو العلم كله اذا أحسن فهمه وتدبره .

ســورة تبـــارك :

سقت هذه النبذة التاريخية لأشير الى تجربتنا نحن الأطفال ، فى أن سورة تبارك ، كانت من أسهل السور فى حفظها عن ظهر قلب ، وبالتـالى من أحبها الى نفوسنا ونحن نعلم اليوم بعد أن كبرنا أن لا تفـاضل بين سور القرآن فكلها كلام الله ، وبالتالى فكلها على نسق واحـد ونهج واحد ، ومع ذلك فهو كأى ظاهرة الهية : تتفاوت فى كيفيتها ، وألوانها ، وتأثيرها ، واذا كان من المتفق عليه ، أن للقرآن كله موسيقى مادية ومعنوية وروحية ، فإن جوهر الموسيقى هو الايقاع وتتباين ضروب الايقاع وتتفاوت النفوس فى تجاوبها مع ضرب معين من الايقاع ، ومن هذا القبيل تتجاوب بعض النفوس بشـدة مع الايقاع الخاص بسورة تبارك ، فلا تكاد تجرى على ألسنتهم ، حتى تتمايل أجسادهم ، وتخفق قلوبهم وتحلق أرواحهم .

بهذا الشعور بدأت أراجع كل ما كتبه المفسرون ، القدامى عن ســورة تبــارك ، فأسعدنى أن أرى مصـداق شـعورى عشرات من الأحاديث ، التى تشيد بسورة تبارك وتبين فضلها ، وهى كلها أحاديث ضعيفة ، ليس فيها الا حديث واحد أورده الترمذى وحسنه ، واليك نص بعض هـذه الأحاديث ، أو فلنسـمها : « المـأثورات » أى أنها قيلت ورددت ، وتداولها المسلمون وتأثروا بها .

واليك نص ما جاء فى كتاب بصائر ذوى التمييز من فضل السورة :

فيه حديث حسن عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان سورة من كتاب الله ، ما هى الا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيـامة من النـار وأدخلته الجنة سورة تبارك » .

وأحاديث ضعيفة منها حديث أبى « وددت أن تبارك الذى بيده الملك فى قلب كل مؤمن » وحديث « ان فى القرآن سورة تجادل عن صـاحبها يوم القيامة

خصماءه ، وهى الواقية تقيه من شدائد يوم القيامة ، وهى الدافعة تدفع عنه بلوى الدنيا ، وهى المانعة تمنع عن قارئها عذاب القبر فلا يؤذيه منكر ونكير» ، وحديث على : « يا على من قرأها جاء يوم القيامة راكبا على أجنحة الملائكة ووجهه فى الحسن كوجه يوسف الصديق وله بكل آية قرأها مثل ثواب شعيب النبى صلى الله عليه وسلم » انتهى ما جاء فى كتاب بصائر ذوى التمييز ، وقيل غير ذلك بنفس المعنى ، ولكننا نكتفى بهذا القدر .

تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير :

تبارك : من البركة أى الزيادة والنمو ، وتعالى الله وتنزه عن أن يزيد وينمو ، ولكنها تعنى الدعاء الى الله أن يزيده فى نفوسنا علوا وأن يضاعف ايماننا به ويقويه ، على أن كلمة تبارك منسوبة الى الله عز وجل ، اشعاع فى النفس لا نقدر على تفسيره فهو أحد مظاهر ما فى الاعجاز القرآنى من أسرار لا يحيط بها الانسان وقد وردت كلمة تبارك تسع مرات فى القرآن ، يحس أمامها من تعود على تلاوة القرآن بالخشوع وهى من نوع سبحان الله والحمد لله ، ومفتتح هذه السورة شبيه بافتتاح أم الكتاب .

« الحمد لله رب العالمين » .

بيده الملك :

وليس هناك ما يدل على أن القرآن الكريم يستخدم الكلمات العربية ليوصل المعانى الى قارئيه من هذه العبارة (**بيده الملك**) فلا يجب أن نفسرها بحسب الظاهر وانما نستشف منها ومما تلاها أن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شىء وسيد كل شىء والمهيمن على كل شىء .

وهو على كل شىء قدير :

لا نحسب أن فى الآية ما يحتاج الى شرح فهى اشارة لقدرة الله التى لا يحدها حد ، ومع ذلك فقد اتخذ أهل الكلام من هذه الآية بخاصة ، ومن بقية آيات السورة فرصة للتحدث عن مذاهبهم ونظرياتهم فى قدرة الله ومدى ما تصل اليه ، مما نراه مبسوطا فى تفسير الرازى ، ونمسك عن ترديده منعا لما يحدثه فى النفوس الضعيفة من آثار ضارة ، ونحسب أن قدرة الله على كل شىء أول معنى من معانى الربوبية — ومنها تتفرع بقية الصفات ، وقد راحت الآيات التالية تعدد بعض مظاهر هذه القدرة .

الذى خلق الموت والحياة :

وأول مظاهر هذه القدرة التى يجب أن تظهر قدرة الله التى لا تحدها حدود ، هو ظاهرة الحياة والموت التى يعايشها الانسان كل انسان واذا كان خلق

السموات أعظم واكبر واعقد ، كما جاء فى آيات أخرى ، فان الحياة والموت أقرب وهى ملاصقة لكل انسان ، وقد راح بعض المفسرين يتســاءل عن الحكمة فى تقديم الموت على الحياة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، أحســنها أن الموتَ سابق على الحياة تصوروا منهم أن الانسان يبــدأ من نطفة (ميتة) فلم يكونوا قد عرفوا بعد أن النطفة حية مع أن القرآن قد أشار الى ذلك فى أول آيات نزلت من القرآن .

« **خلق الانسان من علق** » ، فقد كانوا يتأولون العلق بأنه جمع علقة وهى احد أطوار الجنين بعد أن تدب اليه الحياة .

أما نحن اليوم فنعلم أن كلمة « **العلق** » بصيغة الجمع مقصودة ، ذلك أن ماء الرجل يغص بملايين من الحيوانات المنوية التى تشبه فى شكلها « **العلق** » وعلى هذا فيكون التصور بأن الموت سابق الحياة ، مسألة فيها نظر .

كفى بالموت واعظا :

وعندنا أن محاولة تعليل تقديم لفظ على لفظ فى القــرآن لا ينبغى أن نقف أمامه طويلا ، الا اذا كان يترتب على ذلك تغير فى الحكم أو المعنى ، فان كان المعنى واحدا فى كلا الحالين ، فانه يكون من التكلف الاغراق فى الفروض والتخيــلات ، ومن ناحيتنا وبغير التعرض لموضوع التقــديم والتأخير ، أن ليس فى هذه الدنيا ما يملأ النفس ايمانا بالله ورهبة منه وطمعــا فى رضائه من الموت ، وليس سوى الموت ما دفع الانسان منــذ كان انسانا ، الى التطلع الى هذه القوة العلوية التى تميت الانسان ، كل انسان من أصغر صعلوك الى أعتى الجبابرة ، وعندى انه منذ كان الانســان انسانا لم يعرف ســوى حقيقة واحدة لم تتبدل ولم تتغير حيث تغير كل شىء يتصل بالانسان وحيــاة الانسان ، وهذه الحقيقة هى « **الموت** » واغلب ظنى أن ذلك سيبقى الى أبد الآبدين ، فنحن اليوم نموت كما مات الانسان منذ خمسين أو مائة الف سنة أو مليون سنة اذا شئت ، ولن تجد شيئا آخر يتصل بالانسان يقف عند هذه النقطة ، وصدق رسول الله اذ يقول كفى بالموت واعظا .

ثلاثة أمثلة :

وما من قارىء الا ويسمع من حين لآخر كيف مات هذا الشخص وهو أوفر ما يكون صحة ، وعاش هــذا بعد أن أعدوا له القبر ، واذ كنت اكتب هذه الأبحاث للتعليم فانى لا أستطيع أن أمنع نفسى من تسجيل أحوال ثلاثة صادفتنى أخيرا ، وهى تهتف بقدرة الخالق على كل شىء ، وأن بيــده وحده الحيــاة والموت ، أو بحسب نص الآية « **الموت والحياة** » .

حالتى :

أما الحالة الأولى فهى حالتى ، فقد أصبت بضربة مزدوجة تعنى الموت المحقق وراحت اجهزة جسدى تتعطل واحدة بعد اخرى ، وغرقت فى غيبوبة الموت ووقف

كل من حولى فى انتظـــار توقف القلب ،وأصدر اخى وحبيبى شيخ أطبـــاء مصر الدكتور محمد ابراهيم ، أصدر أمره وهو المؤمن العميق الايمان أن يخلو بينى وبين ربى فهو وحده الذى سيقضى قضاءه ،وها أنذا بعد عامين ونيف ما زلت حيا أخط هذه السطور ، حقا لا زلت عاجزا مشلولا ، ولكن ارادة الله شاءت أن تبقينى حيا .

عظيم من العظماء :

أما الحالة الثانية ، حالة عظيم من العظماء ملأ الدنيـــا دويا ، ورأيته على شاشـــة التليفزيون أوفر ما يكون صحةوعافية ، وكأنه عملاق يطاول السماء ، ومع ذلك فقد كان السر الالهى قد غادره منذ ساعات وهو الذى كان ملايين من البشر يتمنون لو يفتدونه ، وكل علم الدنيا كان على استعداد أن يخف لنجدته ، ولكن من بيده الموت كان قد قضى قضاءه ولا مردلقضـــائه ولو اجتمع كل من فى السماء والأرض .

رواد الفضاء :

أما الحالة الثالثة فهى رواد الفضاء الثـــلاثة الذين تحـــدوا كل ما تعـــرف وما لا تعـــرف من مخـــاطر الدنيـــا ، فداروا فى الفضـــاء حول الأرض وحـــول القمر ، وخرجوا من مركباتهم وســـبحوا فى الفضاء وانتقلوا من مركبة الى أخرى ، وسط ذهول العالم واعجابه واشفاقه ،وقد احتاج ذلك كله الى عدة أسابيع كانت الأجهزة تسجل خلالها أنهم أوفر ما يكونون صحة وعافية ، بل وعنوانا على اللياقة الجسدية الكاملة فى مثلها الأعلى .

ودعوا الى الأرض ، بعد أن أكملوامهمتهم الاعجازية فى الفضاء وسار كل شيء على ما يرام وظل الاتصال بهم فى مرحلة العودة على أتم وأكمل ما يكون ، ولم يحدث أنهم شكوا شـــيئا أو تخوفوا من شيء ، وهبطت مركبتهم بسلام فى المكان والوقت المحدد لهبوطهم على وجه الدقة ،وهرع اخوانهم على الأرض يهنئونهم بهذا الاعجاز البشرى ، فاذا بهـــم موتى ...موتى وذهل كل انســـان ولكن الذهول تضاعف ... وتضاعف عندما عجز القوم بكل علومهم التى يتشـــدقون بهـــا ، بكل ما وصـــلوا اليه بزعمهم من التفوق على الأوائل والأواخر ، عن أن يعلموا كيف ماتوا وما هو سبب موتهم ، بل متى ماتوا وهكذا وقفوا حيـــارى عاجزين أمام سر الموت الرهيب ، كأى فلاح ، أو اى واحد من الـــرعاة أو زنجى من الـــزنوج ، أو بالأحرى كأبسط انسان فى أى عصر من العصور ، **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قـــدير . الذى خلق الموت والحيـــاة .**

ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفـــور .

يبلوكم : اى يمتحنكم وهذا هو سر وجودنا فى الحياة .

أما لماذا شاءت ارادة الله أن يمتحننا ويجربنا ! فذلك مما تعيا عقولنا عن ادراكه ، وكل من فى الكون حتى الملاحدة والماديين يسلمون أن هناك مالا نستطيع أن ندركه بعقولنا ، حتى لقد صاغوا كلمة يختبئون وراءها كلما صادفهم ما تعيا به عقولهم ، فيقولون أن هذا الشيء أو ذاك (وراء الطبيعة) أى خارج عن دائرة العقل .

أما نحن المؤمنين بنعمة من الله فنقول أنه من دائرة العقل ، ولكنه داخل فى دائرة القلب ، أى الشعور والوجدان فما من مؤمن الا ويحس بقلبه بيقين ثابت أن هذه الدنيا لا يمكن أن تفسر ، ولا معنى لها الا أن تكون معبرا لحياة أخرى ، أحسن وأكمل ، والعمل الصالح ، والعمل الصالح وحده هو جواز المرور اليها .

أيكم أحسن عملا :

ويدهشنا من بعض المفسرين أن يقولوا : أحسن عملا اى أحسن عقلا ، ويدهشنا بالأكثر أن ينسبوا هذا القول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لنا المرحوم الشيخ عبد القادر المغربى فى تفسير سورة تبارك عن هذا الأمر :

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه السورة حتى بلغ قوله تعالى : ((**أيكم أحسن عملا**)) فسره بقوله ، أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله .

ومضى الشيخ الكبير يفسر حسن العمل بأنه العقل ، ولقد توقفنا طويلا أمام هذا المعنى ، ولم نرتح لتفسير أحسن عملا بأنه عقلا ، فالعمل الحسن والصالح يتم بتوفيق الله ، ويكون الباعث عليه هو الفطرة السليمة والضمير والوجدان ، وكم من عاقل يسخر عقله فى الشر ، وكلما ازداد عقله ازداد شره ، كما هو الشأن بالنسبة للجبابرة والطغاة .

ولم يطاوعنا قلبنا أن يكون رسول الله هو القائل بهذا القول ، فرجعنا الى ابن كثير وهو الثبت المحقق ، فرأيناه لا يشير الى هذا الحديث ، أما القرطبى فقد أورد الحديث وليس فيه عبارة أحسن عقلا ، وهذا نص ما أورده :

« قال ابن عمر ، تلا النبى صلى الله عليه وسلم « تبارك الذى بيده الملك حتى بلغ — أيكم أحسن عملا فقال : أورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله » أى أن الحديث قد ذكر خاليا من عبارة (**أحسن عقلا**) وليس فى سوى البغوى ما جاء فيه .

وروى عن ابن عمر مرفوعا ، أحسن عملا أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله .

والورع لا يكون بالعقل ، كما أن المسارعة الى طاعة الله تتم كذلك عن طريق الوجدان .

ولذلك فقد زاد اطمئناننا الى عدم اخراج ((**أحسن عملا**)) عن معناها المتبادر الى الذهن بأنها الأعمال الصالحة والخيرة خاصة وأن الايمان لم يذكر فى القرآن الا وتلته الأعمال الصالحة ، نذكر على سبيل المثال :

((**والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**)) .
والايمان مبعثه فى الدرجة الأولى القلب لا العقل :

فدل ذلك على أن العمل الصالح ثمرة الايمان . والايمان مبعثه فى الدرجة الأولى القلب لا العقل ، والله ولى التوفيق

وهو العزيز الغفور :

وبرحمة من الله بعد أن يحدثنا عن سر الخلق وأنه للابتلاء ، من علينا برحمته فذكرنا بأنه فى حالة توفيقنا للعمل الحسن فبعزة منه فاذا نسينا أو اخطأنا فلا يجب أن نقنط من رحمة الله ، فهو الغفور الرحيم ((**الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير .**

تفاوت : أى تباين أو تناقض (فات بعضها بعضا) وتباعد .

فطور : أى تشقق ، جاء فى القرآن ((اذا السماء انفطرت)) وجاء فيه أيضا : ((اذا السماء انشقت)) فدل ذلك على أن الافطار هو الانشقاق ، والمقصود هنا (هل ترى فيها أى فى السموات خللا) .

خاسئا : أى ذليلا متصاغرا .

حسير : أى كليل ، متعب ، مرهق وصل الى نهاية الاعياء .

وبعد أن بين الله مظهر القدرة الالهية فى الموت والحياة والذى يحس به كل انسان حتى ولو كان أعمى ، انتقل من الانسان الى الكون ، أى من الفرع الى الجذر ، فما الانسان الا بعض موجودات الكون وهو هنا يذكر بالحقيقة التى لا فكاك منها ، وهى أن هذا الكون لا يمكن الا أن يكون من صنع خالق .

ويفتح القرآن باب العلم على أوسع مصاريعه ، فيطلب من الانسان أن ينظر ، لا نظرا سطحيا عابرا ، بل نظر المحقق المدقق فى ملكوت السموات والأرض وعندما يقول القرآن : ((**فارجع البصر**)) فان ذلك معناه أن لا نكتفى بالنظرة

السطحية العابرة ، وانما نظرة المراجع المدقق ، ثم يمضى القرآن الكريم فى الحث على النظر والتأمل فيقول : ثم ارجع البصر كرتين ، والتعبير بمعنى ارجع ، فيه معنى الاعادة ثانية وثالثة الى ما شاء الله ، ففى كل مرة تنظر الى السماء يكون عليك أن تعيد النظر (ارجع) والمقصود هو التأمل فى عجيب صنع الله وعظمته ودقته ولا عجب وقد كان هذا شأن القرآن ، أن كان المسلمون أبان حضارتهم من أعظم علماء الفلك ، ولا تزال الأسماء التى أطلقها علماء المسلمين ، على بعض الأجرام والظواهر الفلكية ، مستخدمة حتى الآن فى اللغات الأوربية المعاصرة بنصها العربى ، آية على أن علماء المسلمين ، كانوا هم الذين أغنوا علم الفلك ، وعنهم تلقت أوربا ، ولا جدال أن هذه الدعوة الصريحة المباشرة لتأمل السموات بتدقيق وتحقيق لها أكبر الأثر فى ذلك .

دقة النظام الكونى واحكامه :

ويسأل الله بنى الانسان فى كل زمان ومكان ، أن يتأملوا فى السموات فلن يروا مهما أمعنوا النظر وأبعدوا فى الأعماق الا هذا الاحكام الذى يذهل من روعته .

وبعد أن نكس المسلمون على رؤوسهم وأصبح العلم كل العلم أن يكتفوا باعراب الكلمات والوقوف عند هذا الحد ، انتقل العلم والتأمل فى السموات والأرض الى علماء أوربا .

ويعجبنا من نيوتن العالم الانجليزى المسيحى الذى كان أول من خرج على الدنيا بنظرية الجاذبية ، التى حاول أن يفسر بها نظام المجموعة الشمسية وكل ما فى الكون من حركة ، أقول يعجبنى منه ، وهو أعظم عالم ، أنه خرج بعد دراسته وتأملاته فى السماء عملا بدعوة القرآن من حيث لا يدرى بالجملة التالية : « لا تشكوا فى الخالق ، لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود .

فمن المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة لأن هذه القوة تدفع نحو الشمس ، فيجب لكى تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد الهية تدفعها على الخط المماس لمدارتها . من الجلى الواضح أنه لا يوجد سبب استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وفى مستوى واحد بدون حدوث أى تغير يذكر .

فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه .

ثم انه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبا دقيقا مع مسافاتها بالنسبة للشمس ومراكز الحركة تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعا فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته ،

يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة وادرك ما يجب أن يصدر منها من القوى الجاذبية ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها (سايترن والأرض والزهرة والمريخ والمشترى و ... الخ) وقدر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مركزا لها ، اذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجوب سبب لا هو سبب أعمى ولا حادث بالصدفة ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة .

وغير هذا ففى تكوين الأجرام السماوية ، كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم الى قسمين القسم المضىء منها انحاز الى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم يجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها

كل هذا لا يعقل حصوله الا بفعل عقل لا حد له .

ومضى نيوتن فى استعراضه للكون المعجز ، وانتهى الى النتيجة التى لا مفر منها ، ولأثبتها بنص عباراته قال :

((ألا يدل ذلك كله على وجود اله منزه عن الجسمانية ، حى حكيم موجود فى كل مكان يرى حقيقة كل شىء فى ذاته ويدركه أكمل ادراك)) .

وهكذا يلتقى العلم ، أعلى درجات العلم ، مع الايمان الفطرى السليم الذى يمتلىء به قلب المؤمن ، اذ يقلب بصره ، فى السموات والأرض .

ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .

السماء الدنيا :

ما أروع أن يكشف لنا العلم آنا بعد آن حقائق نطق بها القرآن وكان الأقدمون يقولونها ، ويؤمنون بها فى غير بحث فضلا عن احاطة ، أما نحن اليوم فقد دخلت فى دائرة علمنا المحقق ، وأصبحت ترى بالعين المجردة ، فهذه السماء كما نراها فوق رؤوسنا زرقاء اللون مضيئة مشرقة بنور الشمس ، هى ظاهرة بالكوكب الأرضى (الدنيا) فالغلاف الجوى المحيط بالأرض ، والذى لا يتجاوز سمكه ١٢ كيلو متر ، هو الذى ينعكس عليه ضوء الشمس فتبدو الصورة والألوان وسائر المرئيات بالحالة التى نراها عليها وقد أجمع ملاحو الفضاء ، على أنهم بمجرد اختراق الغلاف الجوى فى وضح النهار ، يرون الكون خارج سفنهم غارقا فى الظلام ، ويرون قرص الشمس متلألئا والظلام يحيط به ، بينما تتجلى تحتهم الكرة الأرضية مضيئة بنور الشمس ، كما نرى نحن القمر بالليل وهكذا أصبح يرى بالعين المجردة أن الغلاف الجوى الأرضى هو الذى يشكل **(السماء الدنيا)** .

وقد حاول بعض المفسرين المحدثين أن يخوض فى موضوع السموات السبع وأن ذلك كان مفهوم الأقدمين وقد خاطبهم القرآن بمفاهيمهم ، ونحن نسلم أن القرآن قد خاطب العرب بمفاهيمهم فيما لا يتعارض مع حقيقة التوحيد وأصول العبادات ولكنه من الشطط ، أن يتلقف المفسر بعض الغموضات العلمية والنظريات ، وأن يحاول تفسير القرآن على ضوئها ، فعندما يقول لنا القرآن أنها سموات سبع فهى سبع ، ولا عبرة بمن يقول أنها سماء واحدة ، فها قد رأينا أن هذه الصورة التى عرفها البشر ، منذ كانوا بشرا ، عن السماء هى كما قال القرآن الكريم ليست سوى السماء الدنيا ، وصدق الله العظيم عندما يقرر :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

بمصابيح :

ونقف مرة ثانية أمام كلمة مصابيح تشبيها لنجوم السماء وكواكبها ، فليس يعنى ذلك أن هذه كل مهمتها ، ففى القرآن ما يدل على أن لها مهام أخرى ، والذى يهمنا أن نشير اليه بمناسبة هذه الآية وأمثالها ، ان الانسان ومشاعر الانسان وأحاسيسه ومعتقداته ، هى الغاية النهائية من هذا الكون فهو أثمن ما فيه وكل شىء مسخر لخدمته ، فلتكن النجوم ما تكون ، لتكن بغير عد أو حصر ، ليبلغ حجم الواحدة منها ما يبلغ ، فهى بالنسبة للانسان بالليل مصابيح تدله على طريقه وييسير على هداها فى البر والبحر وهى متعة لناظره ، وحلية للسماء ، ونور يبدد الظلام .

فقد وصل الانسان للقمر ، ووضع أقدامه على أرضه ، ولكن ذلك لن يغير من الواقع شيئا وهو أن القمر سيظل يغمر الأرض بأشعته الفضية ويضيئها هو وبقية الكواكب كالمصابيح .

رجوما للشياطين :

أفضنا طويلا فى شرح هذا المعنى فى سورة الجن وقد اتجه بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية وجهة خاصة فقالوا ان الشياطين هنا هم شياطين الانس ، أى المنجمين ، و **(رجوما)** من الرجم بالغيب ، أى التظنن والتنبؤ ، ويكون المعنى فى رأيهم أن النجوم والكواكب مزلقة ينزلق فيها من يغويهم الشيطان من بنى الانسان فيصبحون بدورهم شياطين ، وينشغلون بالتنجيم والعرافة .

وهو تفسير يقبل من قائليه لو كان الأمر مقتصرا على هذه الآية أما وقد فصل القرآن ما أوجزه فى هذه الآية كما جاء فى سورة الصافات — **« انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .**

فأنت ترى هنا أن عبارة ((**رجوما للشياطين**)) يجب أن تفسر فى هذه الحدود، وقد أفضنا القول فى سورة الجن حول هذا المعنى فليرجع اليه من يريد التفصيل .

وأعتدنا لهم عذاب السعير :

وتكمل الآية ، بأن الشياطين سواء كانوا انسا أو جنا ، سيصلون نار جهنم .

وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير • اذا ألقوا فيها سمعوا لهـا شهيقا وهى تفور • تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير • قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنـا وقلنا ما نزل الله من شىء ان أنتم الا فى ضلال كبير • وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السـعير • فاعـترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير •

تمـيز من الغيظ : تمـيز أى تتقطع وتتفرق ، تصوير لشدة حنقها وانفعالها ضد الكفار .

خزنتها : أى ملائكة النار .

شـهيقا : هو صوت الهواء عند التنفس .

تفور : تغلى .

سحقا : بعـدا

الحساب والجزاء يوم القيامة :

تصور هذه الآيات ما أفضنا فى شرحه فى أكثر من سورة من أهوال يوم القيامة ، ويفترق المفسرون القدامى ازاء أمثال هذه الآيات ، فمنهم من يعتبر تغيظ النار على سبيل المجاز ومنهم من يقول بمعناها الحسى ، والاتفاق على أن النار فى تأججها يقرقع صوتها بالشهيق المتفق والمتنـاسب بطبيعة الحال مع كونها نار جهنم وقانا الله واياكم شرها .

اعتراف الكفار :

وبلغتنا القانونية الحديثة نقول ان الاعتراف هو سيد الادلة ، أى ليس قبله أو فوقه دليل ، فما من أحد منهم الا وهو يحاول دفع التهمة عن نفسه ، فاذا أقر المتهم بجريمته ، فلم يعد هناك قول لقائل . وهذا هو عين ما يحدث يوم القيامة عندما يحصحص الحق ، وتلجم الألسن عن قول الزور والبـاطل ، وتحكى هـذه الآيات ما يدور من حديث بين خزنة جهنم ، أى ملائكتها وبين الكفار ، سـواء بلسـان الحال أو بصريح اللفظ فالنتيجة واحـدة والعبرة التى تنطق بها الآيات واحدة مع أن الكفار يعترفون بذنبهم ، وأن الله عزوجل قد أوفى بعهده .

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وهكذا يقر الكفار بأنهم لم يظلموا فقد جاءهم النذير بالبينات والهدى والمصباح المنير ، فكذبوا وانكروا أن يكون الله قد أنزل شيئا وحكموا على أنفسهم بعد فوات الوقت ، انهم لو كانوا يسمعون ويعقلون ما سمعوا ما كانوا من أصحاب السعير .

ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير :

وكشأن القرآن الكريم دائما لا يكاد يشير الى العذاب ، حتى يشفعه على الفور ، بذكر رحمة الله وانه الرحمن الرحيم ، كما يتجلى ذلك فى مغفرته ، بل ومنح الأجر العظيم .

وأحاديث الرحمة والمغفرة قد تكررت فى القرآن بحيث أطمعت أشد العصاة والبغاة فى رحمة الله ، وثمة رواية طريفة تروى عن الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اشتهر عبر التاريخ الاسلامى .

ولسنا ندرى بطبيعة الحال مدى صحة الرواية ولكنا نقصها لطرافتها ولما تدل عليه من سعة رحمة الله وعظيم غفرانه تقول القصة ، أن الحجاج بن يوسف عندما حضره الموت ، قال يارب ان الناس تقول ، انك لن تغفر لى ، ولكنك قلت وقولك الحق : ان الله يغفر الذنوب جميعا وانى أطمع أن تغفر لى .

فلما مات الحجاج ، نقل قوله هذا الى بعض الصالحين فقال لهم : أو قالها حقا ؟ والله انى لأخشى أن يغفر له بها .

وهى حكاية طريفة كما ترى وما كان لنا بطبيعة الحال أن نتدخل فى مشيئة الله وهل يغفر لهذا أو ذاك أو لا يغفر ولكن الواجب يدعونا أن نقول ان الله قد يتسامح فى حقوقه قبل الانسان الخاطىء ، ولكنه أنذرنا أنه قد فوض عباده فى التسامح فى حقوقهم وعلى ذلك فليحذر ... فليحذر كل انسان وهو يتعامل مع البشر أن يظلم أحدا أو يغتال حق أحد ، أو يعتدى على أحد ، فالويل له يوم القيامة اذا لم يتنازل واحد من هؤلاء عن حقه قبله .

يخشون ربهم بالغيب :

هذه هى صفة المؤمن الكبرى وهى خشية الله فى السر قبل العلن ، وهو ما أفصحت عنه الآية التالية بالذات :

وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور . الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

يقول بعض المفسرين ان سبب نزول هذه الآية أن قريشا كانت تقول لبعضها ، اخفتوا أصواتكم حتى لا يسمعنا محمد ، فيقول لهم القرآن أو بالأحرى يقول لبنى

البشر فى كل زمان ومكان أنهم سواء جهروابالقول أو تخافتوا به وأسروه ، فالله **يعلم به ويدريه** بل يعلم ما هو أخفى من ذلك ،وهو ما يدور فى النفوس **((انه يعلم السر وأخفى))** وهو يعلم بمجرد النوايا التى لميتحرك بها لسان الانسان .

ألا يعلم من خلق :

وما أعظم القرآن واروعه عندما يخاطب العقل بالدليل والبرهان ، وهو هنا يؤكد علمه بما يدور فى النفوس ، فلا بدأنه قد دار فى نفوس المشركين استبعادهم أن يعرف الله سبحانه وتعالى ما يدور فىنفوسهم ، فقال لهم ان كل صانع يعرف ما صنع ظاهره وباطنه ، فكيف يجهل اللهكل شىء يتصل بالانسان وهو الذى خلق الانسان ، وجهزه بما جهزه به ، وأودعهكل أسراره .

وهو اللطيف الخبير :

ما أجمل أن تنتهى كل آية باسم من أسماء الله العظمى يتناسب وموضوع الحديث ، فهو يجرى هنا حول علم الله بخفايا الأمور فيذكر القرآن اسم اللطيف وفيه معنى الدقة من (لطف الشىء) صغر حجمه ودق فهو لطيف .

وعندما يوصف الله عز وجل بأنه اللطيف الخبير ، أى الذى يعلم كل شىء ما صغر وما كبر ما أعلن وما أخفى .

هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور .

ذلولا : أى ممهدة لتجوالكم والمطية الذلول هى المطية المروضة المؤهلة للركوب .

مناكبها : أعاليها وهضابها ومرتفعاتها وقيل على سبيل التخصيص ، انها جبالها ، منكب الانسان كتفه .

النشور : هو يوم البعث ، عندما يخرج الناس من قبورهم (كأنهم جراد منتشر) .

خصيصة الدين الاسلامى :

وفى هذه الآية خصيصة الاسلام الكبرى بعد كونه دين التوحيد الصارم ، من أنه دين للحياة ورقيها وازدهارها ،فهو على خلاف الكثير من الديانات السابقة عليه والتى كانت تزهد فى الحياة وتنفرمنها وتحض على مقاطعة كل انتاج فضلا عن نشاطه بصفة عامة ، جاء الاسلام ،أو بالأحرىالقرآن يقررأن الدنيا طريقنا الى

الحياة الثانية ، وليس معنى العبودية لله الازورار عن هذه الدنيا كلها واعتزالها وانما على العكس من ذلك دعا الى أن يأخذ الانسان حظه من الدنيا فى اعتدال « **ولا تنس نصيبك من الدنيا** » فدعا فى هذه الآية الى التجوال فى الدنيا والسعى فى أرجائها طلبا للرزق ، واذا كان هذا يتم بالغريزة فقد جعله القرآن تكليفا وواجبا دينيا حتى لا يتصور متصور ، أن هناك تعارضا بين أن يكون الانسان متعبدا متبتلا ، وبين أن يسعى فى الرزق ، فهو مأمور بذلك أمرا وسنرى فى مناسبة أخرى، أن الأمر يصل الى حد التكليف بالهجرة ومرة أخرى لا عجب أن طاف المسلمون الأوائل أرجاء الأرض ، برها وبحرها سعيا وراء الرزق ، حاملين معهم لواء الاسلام وقد لا يعرف الكثيرون أن بلادا كانت الى وقت قريب جدا تعتبر رمزا على التخلف ، كاليمن وحضرموت وعمان ومسقط وبقية امارات الخليج ، كانت فيما مضى هى التى أوصلت الاسلام الى أندونيسيا والملايو والفلبين وفى أحشاء أفريقيا وذلك كله تأثرا بروح الاسلام التى تدعو كما فى هذه الآية الى العمل والنشاط والسياحة فى طلب الرزق ولنا الى هذا الموضوع عودة .

دوران الأرض

وقد أعجبنا فى تفسير الشيخ عبد القادر المغربى لهذه الآية اشارته الى دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، فبالرغم من هذا الدوران ، فقد ذللها لحياة الانسان الذى يعيش ويتحرك فوقها دون أن يشعر فضلا عن أن يتأذى بحركتها ، وهذا منتهى ما تصل اليه المطية الذلول المدربة ، فهذا كله يدخل فى معنى أن الله سخر الأرض للانسان وأخضعها لسلطانه وذللها له تذليلا .

أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور • أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير • ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير •

خسف : اى غاب فى الأرض ومنها خسوف القمر اى أظلم واعتم وذهب نوره .

تمور : اى تتحرك بشدة وتضطرب .

حاصبا : الريح الشديدة العنيفة عندما تثير الحصى فيصبح رذاذا قاتلا : وحصبت الرجل اى رميته بالحصباء .

نكير : الأصل فى معناها التغير ، ولكنها تعنى هنا التنكيل والوبال والهلاك .

قريش والايمان بالله :

كانت قريش على خلاف ما يتصور الكثيرون تؤمن بالله الخالق القادر على كل شىء ، ولكن المشكلة كانت تدور حول أنهم كانوا يجعلون لله شركاء ولذلك وصفهم

القرآن بأنهم مشركون وكانوا شركاء فى زعمهم وهى هــذه الأصــنام والأوثان التى اقاموها حول الكعبة وراحوا يعبــدونهاويتقربون اليها بشتى صنوف القرابين وقد سجل القرآن الكريم ونعنى بهــا ايمانقريش بالله وأنه الخالق لكل شىء فى أكثر من آية .

— « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقــولن الله » العنكبوت ٦١ .

— « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتهــا ليقولن الله » العنكبوت ٦٣ .

— « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » الزخرف ٨٧ .

ورد مثل ذلك فى سورتى لقمان والزمر وعلى ذلك فلم يكن ايمانهم بالله محل شك : وانما كان جحودهم لسيدنا محمدالذى دعا الى وحــدة الألوهية ، وذلك مبحث مستفيض آخر سنعود اليه ، والذىيتصل بنا الآن هى هذه الايات التى نحن بصــددها حيث يخوف الــقرآن ويحذرســامعيه أن لا يأمنــوا من غضب الله عليهم ، القــادر أن يخسف بهم الأرض ،كما يحدث فى الزلازل والبراكين ، حيث تدك مدن بأكملها وتغيب فى باطن الأرض ،أو تعصف بهم الرياح فتــذر عامرهم ، قاعا صفصفا ، خرابا يبابا كما هو شــأنالأقوام التى سبقت قريشا كعاد وثمود .

الله فى كل مكان :

ولقد قام قديما جدل حول مكان اللهوأنه ليس فى السماء ولكن ذلك لم يعد له محل فى الوقت الحاضر فنحن نعلم اليومأن السماء هى كل الفضاء الخارجى وان الأرض كلها لا تعدو أن تكون ذرة فى الفضاءفعندما يقول القرآن الكريم : **« أأمنتم من فى الســماء »** فهــو اذ يحاجج المشركينبمفهومهم ، فهو فى نفس الوقت يقرر أن الله عز وجل فى كل مكان وتعالى عن المكانفى ذات الوقت لأن السماء ، وهى الفضاء . الذى تسبح فيه الأرض هو كرسى اللهوملكوته وعرشه الذى هو كل السموات والأرض وما نعرف ومالا نعرف من أكوانوعوالم .

أو لم يروا الى الطير فوقهم صافاتويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شىء بصير .

الطير صافات : اى عنــدما تبسطالطيور اجنحتها .

ويقبضن : هى الحركة الثانية التىيتألف منها طيران الطيور عندما يضممن اجنحتهم اليهم .

والقرآن لا يدع ظاهرة من ظواهرالحياة والطبيعة كائنة ما كانت ، صغرت أو كبرت الا ويلفت اليها الأنظار دعوة منهالى التأمل فى بديع صنع الخالق ودقته وأحكامه ونروى هنا نبذة علمية كتبهــاخبراء المجلس الأعلى للشئون الاسلامية فى تفسيره الحديث للقرآن الكريم ، قالوا :

الصف هو أن يبسط الطائر جناحيه دون أن يحركهما وفى آيات الطيور آيات معجزات لم نفهم بعضها الا بعد تقدم علوم الطيران (نظريات الحركة — الديناميكا الهوائية) ولكن أكثر ما يثير العجب هو أن يمضى الطائر فى الجو بجناحين ساكنين حتى يغيب عن الأبصار .

وقد كشف العلم أن الطيور الصافة تركب متن التيارات الهوائية المساعدة التى تنشأ اما من اصطدام الهواء بعائق ما أو من ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فاذا ما كانت الريح هينة ظلت الأعمدة قائمة وصفت الطيور فى أشكال حلزونية أما اذا اشتدت الريح انقلبت الأعمدة أفقية ، فتصف الطيور فى خطوط مستقيمة بعيدة المدى . وتتحلى الطيور عامة بخصائص منها خفة الوزن ومتانة البناء وعلو كفاءة القلب ودورة الدم وجهاز التنفس ودقة اتزانها وانسياب أجسامها وهى خصائص أودعها فيها العليم البصير لتحفظها فى الهواء حين تبسط جناحيها أو تقبضهما ، الا أن الطيور الصافة تتميز على سائر الطيور باختصار حجم عضلات صدورها مع قوة الأوتار والأربطة المتصلة بأجنحتها حتى تستطيع بسطها فترات طوال دون جهد كبير .

أما الطيور صغار الأحجام ، التى تعتمد فى طيرانها على الدفيف ، فانها تضرب بجناحيها الى أسفل والى الامام لتوفير الدفع والرفع اللازمين لطيرانها ، ثم تقبض أجنحتها ولكنها تظل طائرة بقوة اندفاعها المكتسبة .

وهكذا يتضافر البناء التشريحى والتكوين الهندسى للطيور بكافة أنواعها على طيرانها وحفظ توازنها وتوجيه أجسامها فى أثناء الطيران .

انتهى ما قاله الخبراء الفنيون وهو ليس الا قطرة من بحر علم الطيران الذى أوصل الانسان لما وصل اليه .

والمهم أن القرآن الكريم كان يعطى للمسلمين اشارة البدء فى دراسة الطيران، وهو ما صدعوا به بالفعل فبدأوا هذه الرحلة التى توقفت من بعدهم لتستأنف فى العصر الحديث الى أن انتهت الى ما انتهت اليه .

وقد لا يعرف الكثيرون أن مسلما كان أول من بدأ الخطوة العملية لامكان طيران الانسان فى الهواء ، فصنع لنفسه جناحين ضخمين من ريش الطيور ، وكان هذا العربى المسلم يدعى « عباس بن فرناس » .

واذا كانت محاولته قد باءت بالفشل ، وقدم حياته على مذبح المحاولة ، فقد كانت هذه المحاولة هى الأساس التى بنى عليها من جاءوا بعده بعدة قرون من الغربيين ، اذ اكتشفوا أهمية الذيل فى حفظ التوازن وبدأ تطور الاختراع العظيم .

عندما نكس المسلمون :

تعتبر محاولة عباس بن فرناس للطيران مظهرا لما كان عليه المسلمون من شجاعة وايمان وتطلع للتفوق ، حيث توجد لدينا صورة مضادة تصور مدى ما كان بعض المسلمين قد بلغ اليه من تخلف وجهل .

فقد حدث أن أغارت بعض طائرات المستعمرين على منطقة عربية اسلامية ، لا داعى لذكر اسمها ، فراحوا يقاومون الطيارات المغيرة بتــلاوة جزء من هذه الآية التى نحن بصددها فراحوا يكررون بصوت مرتفع ((**ويقبضن**)) ولكن الطائرات بطبيعة الحال ظلت باســطة جناحيهــا تصليهم نارا حامية .

وهذا هو الفارق بين المسلمين فى عزهم ، والمسلمين فى نكستهم فحيث كانوا يتلقون عن القرآن توجيهات فى طلب العلم والتأمل والدراسة والنشاط فى كل المجالات عزوا وسادوا ، وأما عندما اتخذوا من القرآن وآياته أحجبة وتمائم وتعاويذ فقد انتهوا الى ما انتهوا اليه وكلنا أمل ورجاء أن يعودوا لمـــا كان عليه أسلافهم ، وهو أن يتلقوا عن القرآن الايمان والعمل معا ، فهما جناحا الدين الاسلامى وسر عظمته وتفوقه على سائر الأديان .

— أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون الا فى غرور ٠ أم من هذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ٠ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ٠

قل هو الذى أنشـــأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون قـــل هو الذى ذرأكم فى الأرض واليه تحشرون ٠ ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ٠ قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين ٠ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون ٠

بل لجوا فى عتو ونفور : اى تمادوا فى تمردهم وجحودهم .

مكبا على وجهه : اى يتعثر فى مشيته ويتخبط ذات اليمين وذات اليسار .

ذرأكم : اى خلقكم وكثر عددكم ومنه (الذرية) اى النسل .

زلفة : اى قريبا ودانيا .

والذين سايرونا فى هذا التفســـير يرون أننا نكتفى بتكرار آيات القرآن عندما تكون ظاهرة واضحة فى معناها ، فبعد أن خوف القرآن المشركين من رب السموات الذين كانوا لا ينازعون فى وجوده وقدرته وأنه هو الخالق وهو الرازق راح يزيل الغشاوة عن أعينهم والغفلة عن نفوسهم بتذكيرهم بهذه القدرة ، وأنه لا توجـــد عندهم جنود يستطيعون أن يقفوا بجانبهم فى مواجهة الله عز وجل ، ثم يسائلهم ماذا عساهم يفعلون ان أمسك الله عنهم الرزق ، فلم ينزل عليهم الغيث ، ومع علم الكافرين بذلك ، فقد كانوا يكابرون واسترسلوا فى عنادهم وتكذيبهم ويصور القرآن الفـــارق بين المؤمن والكافر فالمؤمن كمن يسير فى النور على طريق معبد مستقيم حيث يسير الكافر كالأعمى مكبا على وجهه يتخبط فى سيره ويتعثر .

ثم يعود القرآن الكريم ليذكر الناس بنعم الله عليهم التى لا تعد ولا تحصى وأولها نعمة الحياة وما يتمتع به الانسان من نعمة السمع ، ونعمة البصر ، وفوق

ذلك كله نعمة العقل التى تجعل الانسان انسانا وترفعه مكانا عليا فوق سائر الكائنات والقرآن هنا يعبر عن العقل بالفؤاد (الأفئدة) وذلك مستفاد من ذكر الأفئدة بعد ذكر السمع والبصر وهما الحاستان اللتان توصلان للعقل ما يفكر فيه ويتأمله .

ثم يحكى القرآن شكوك المتشككين فى يوم القيامة بتساؤلهم عن هذا اليوم ومتى سيكون ، ويؤكد لهم القرآن أن موعد هذا اليوم عند الله وما سيدنا محمد الا نذير يحذرنا من ذلك اليوم ، ولكنه واقع بيقين وسوف تسود وجوه الكافرين عندما يرون ذلك اليوم أقرب مما يظنون . ذلك أن يوم القيامة مهما بعد فسيكون الاحساس به يومئذ أنه قريب ويبكت المجرمون بأن هذا هو اليوم الذى كانوا به (يدعون) أى يكذبون أو يطلبون تعجيله .

ـ قل أرأيتم أن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم .

وفى هذه الآية الكريمة يذكر سيدنا محمد القوم أن المسألة والقضية ليست مسألته وقضيته فقد كان المشركون قد لحقوا القضية فى شخص سيدنا محمد وأنه سيموت يوما ما وينتهى كل شىء ، وهنا يقول لهم القرآن فليكن مصير محمد ما يكون ، فليمت وقت ما يموت ، أو فليحيى ما شاء الله له الحياة فما ذلك فى علاقة كل انسان بربه وأنه محاسب على أعماله ولن يجد الكافرون من يجيرهم من العذاب.

ـ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين .
قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين .

ويحسم سيدنا محمد القضية بين المشركين والمؤمنين الى أبد الآبدين ، فالمؤمنون قد آمنوا بالله الرحمن الرحيم وعليه توكلوا وسيأتى يوم الفصل الذى يعلو فيه الحق ويفترق أهل الصلاح عن أهل الفساد وتختتم السورة بموسيقى القرآن وايقاعه فى المبنى والمعنى حيث يعود لتذكير أهل الكفر والعناد بماذا يحل بهم وماذا يكون مصيرهم اذا أذهب الله الماء الذى منه يشربون فجفت الآبار والعيون ، فمن الذى يأتى الكافرين بماء طاهر متدفق والذى هو قوام حياتهم .





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ (٣) وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ (٤) فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ
مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ (١١) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ
ذَا مَالٖ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا
بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمۡ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ
صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ (٢٤) وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ
قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا
تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ
أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ (٣٥)
مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (٣٦) أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ
عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ (٣٩) سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ
بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ (٤١) يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً

أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ
نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ
فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ
لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾



سورة مكية :

السورة من أوائل ما نزل من السور فى مـــكة ويعتبرها البعض الثانية فى الترتيب ، ولكن هذا يصدق أن صدق على الآيات الأولى حيث يقسم الله بالقلم ، اما بقية الايات فيستفاد منها مضى مدة علىبدء الدعوة المحمدية ، وما قاله مشركو قريش طعنـــا على ســيدنا محمد ، ومافتروه عليـــه وقال البعض ان الســـورة تحتوى بعض آيات مدنية . ونحن كمـــاقلنا اكثر من مرة لا نعول كثيرا على ترتيب النزول ، وانما نذكر ذلك لنضع امام القارىءاشـــارات لكل ما يرد فى كتب التفســـير والسورة كسائر السور المكية ، فيهاتحذيروانذار للكفار من عواقب كفرهم وفيها حث لرسول الله على الصبر على المشاق والمكارهفى سبيل نشر الدعوة وتبشير الله عز وجل لنبيه بالنصر على الكفار فى خاتمة المطاف .

(ن) وأوائل السور :

وتبدأ السورة بحرف (ن) الهجائىبينما قال البعض أن كلمة (ن) هى اسم لمسمى سنعود لذكره وقد اعتاد المفسرونأن يعرضوا لموضوع فواتح السور عنـــد تفسيرهم لمفتتح سورة البقرة وهو (الم) . أما نحن وقد بدأنا تفسير القرآن من جزء عم فهذا أول افتتاح لسورة يطالعنا ، وقدقيل كلام كثير فى هذه الحروف التى افتتحت بها بعض السور وكانت التفسيرات المختلفةتتكيف بحسب العصور واختلاف الأفكار والمفاهيم ، فحيث ساد فى بعض العصورما أسموه (حساب الجمل) حيث يضعون لكل حرف من الأبجدية قيمة عددية ، فقدراحوا يفسرون هذه الأحرف على ضـــوء هذه القاعدة ويحاولون ان يستخلصـــوابعض المعانى والدلالات .

أما الصحابة فقد قالوا ويا خير ماقالوا ، قالوا ان هذه الأحرف التى بدأت بها بعض السور من أمثال (الم ، وحم)هى من متشابه القرآن الذى لا يعلمـــه سوى الله والراسخين فى العـــلم (وهمليسوا منهم) أما الذين جاءوا بعد ذلك فقد راحوا يصولون ويجولون فقال بعضهمان هذه الأحرف أســـماء للقرآن ، وقال البعض بل هى أسماء الله عز وجل وزادبعضهم أنها اسم الله الأعظم لو علم الانسان كيف يرتبها ، ولعل أطرف ما قيل فى هذاالاتجاه هو اشارة البعض الى أن (الر) ، (حم) و (ن) هى (الرحمن) مجزأة .

وقال بعض المفسرين ، أن هذه الأحرفالمقطعة هى اشارة من الله عز وجل الى أن القرآن الكريم هو من نوع الكلام الذى تتكلمونه وتنطقون به ، وذلك داخل فى معنى تحدى القرآن للمشركين أن يحاكوا القرآن ويقلدوه لو استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وهو ما عجزوا عنه رغم بلاغتهموفصاحتهم ، ورغم شديد حرصهم على معاندة سيدنا محمد وتكذيبه .

ورغم أن القرآن الكريم قد أمعن فى تحديهم ، فبعد أن طالبهم بمحاكاة القرآن ، اكتفى بأن طالبهم بمحاكاة عشر سور ، ثم ارتفع التحدى فطالبهم بمحاكاة سورة واحدة حتى ولو كانت من قصار السور فعجزوا عن ذلك كله ، مع أن القرآن كلام من نوع ما ينطقون من هذه الأحرف (الم ، والر ، ق ، ص ، ... الخ) وكل هذه اجتهادات لأصحابها ، والله تعالى أعلم بحقيقة مراده .

على أن أقوالا أخرى قيلت حول (ن) مفتتح هذه السورة ، فقيل أن (ن) تعنى كلمة الحوت ، ثم يروحون يسهبون فى هذا الحوت الذى يقسم الله به ، وأنه الحوت الذى يحمل الأرض فوق ظهره وهو ما كان يروج له الاسرائيليون ، وأن هذا الحوت على ظهر ثور ، وهى المعتقدات التى كانت سائدة فى العصور القديمة ، فلما تسللت الاسرائيليات الى كتب التفسير القديمة ، أصبحت هذه الأقوال البدائية تصادفك فى تفسير هذه الآية ، غير أنه قد أعجبنا من قول بعض علماء المسلمين ، انهم بعد أن يتحدثوا عن الحوت الذى يحمل الأرض ، وأنه محمول بدوره على ثور ، يزيدون على ذلك قولهم : وأن ذلك كله محمول بقدرة الله وتعجبنا أن تكون خاتمة المطاف هى قدرة الله ، فعندما تقول فى عصرنا الحديث ، أن الأرض معلقة فى الفضاء وتدور حول الشمس بقوة الجاذبية فليست الجاذبية فى حقيقتها الا بعض قدرة الله . ويقول بعض المفسرين ليبعدوا عن هذا الخضم ان (ن) تعنى الدواة أى المحبرة فهى مكملة للقلم ، ويكون الله عز وجل قد أقسم بالقلم والدواة .

ونحن عند القول بأن مفتتح السور هو من المتشابه الذى احتفظ الله بمكنون علمه ، غير أنه اذا جاز لنا أن نقول ما نستشعره عندما نسمع كلمة (ن) فهى أشبه بالمفتاح الموسيقى الذى تبدأ به الموسيقى ، وكأنه يشير الى النغمة التى تسود الدور كله ، وهى هنا (ن) اشارة الى حرف الهجاء الذى ستجرى عليه أغلب فواصل السورة ، حيث تنتهى كلها بحرف (ن) (مجنون ، يبصرون ، المفتون ، فيدهنون) وأعود فأقول أن ذلك مجرد احساس يقوم فى نفسى ، ولست أدعى أنه محاولة تفسير ، فأنا عند قولى : ان الله أعلم بمراده ، وأعوذ بالله واستغفره من كل خطأ وزلل ولو كان بحسن نية .

ـ والقلم وما يسطرون :

والقلم وينقسم المفسرون القدامى حيال القلم فيقول البعض أن المقصود به هو القلم الالهى ويذكرون عدة أحاديث تدور حول خلق القلم وأنه كان من أول ما خلق الله ثم أمره الله أن يكتب أقدار البشر ، كل البشر من يوم ولادتهم الى يوم موتهم ، وباختصار كل ما سيكون .

وفريق آخر من المفسرين يرون أنه القلم العادى المألوف الذى يستعمله البشر ودليلهم على ذلك الكلمة التالية (ومايسطرون) ونحن جريا على منهاجنا نعرض المسألة على القرآن نفسه لنرى كيف استعمل كلمة (القلم) بصيغة المفرد مرتين ، فى هذه الآية الكريمة وفى سورة اقرأ .

— « اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »

— ولو انما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله (لقمان ٢٧) .

— وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم .

واستخدم كلمة القلم بصيغة الجمع فى الآيتين السابقتين .

وهذا الاستعمال فى الايات الثلاث يدل على ان المقصود بالقلم هو عين القلم المعروف الذى نكتب به ولذلك نرجح أن هذا هو المقصود فى هذه الآية ويدعم ذلك مفتتح السورة (ن) وأنه الحرف الهجائى :ويدعمه بالأكثر الكلمة التالية (**وما يسطرون**) أى مايسطره الكتاب وتتجلى هنا روعة القرآن وعظمته ، وأنه وحى من لدن السميع العليم ، فحيث كان النبى صلوات الله عليه وسلامه أميا لا يعرف القراءة والكتابة وكذلك جمهرة العرب من معاصريه ، فقد جاءت آيات القرآن الأولى تنوه بالقلم وتشيد به وترفع من شأنه باعتباره الوسيلة الى العلم .

فلا عجب ان كان ما كان من شأن العرب اذا انتقلوا من الجاهلية والضياع الى قمة الحضارة التى قامت على دعامتين من . الايمان والعلم .

— ما أنت بنعمة ربك بمجنون :

كان نزول الوحى لأول مرة على سيدنا محمد مفاجأة اذهلته على ما بينا فى شرح سورة اقرأ ، وكيف أنه رجع الى السيدة خديجة قلقا مضطربا وهو يقول لها (زملونى — زملونى — دثرونى دثرونى) .

وعندما تسامعت قريش بنبأ الوحى الذى هبط على سيدنا محمد اتهموه بالجنون، فنزلت هذه الآية الكريمة تطمئن سيدنا محمدا على نفسه وتثبت فؤاده وتؤكد له أنه بنعمة من الله فى كمال قواه العقلية .

واللطيف أن هذا الاتهام الذى قال به المشركون منذ قرابة أربعة عشر قرنا ، هو بعينه ما يتخرص به بعض المستشرقين الذين كتبوا سيرة سيدنا محمد فى القرن الماضى ، فهم عندما لم يستطيعوا نفى ظاهرة الوحى المؤكدة ، اذ تحدث عنها القرآن كحقيقة مؤكدة ، وأجمع عليها كل صحابة رسول الله ، فحاولوا أن يؤولوها بتأويلاتهم السخيفة فقالوا ويا شؤم ماقالوا ، قالوا أن رسول الله كان مصابا بالصرع ، واذا جاز لقريش أن تتصور ذلك منذ أربعة عشر قرنا تقريبا والاسلام فى أول مراحله ، فان من العار على ما يقول (كارليل الانجليزى مؤلف كتاب الأبطال) أن يكرر هذا القول فى عصرنا الحاضر ، بعد أن غمر الاسلام البشرية كلها بالنور فى العصور الوسطى والاسلام هو دين خمس البشر فما كان لداعية أن يكون مجنونا وهو الهادى والمرشد لبنى البشر .

— وان لك لأجرا غير ممنون ٠ وانك لعلى خلق عظيم :

غير ممنون : اى غير مقطوع ، اىان لك يا محمد فى مقابل ما تعانيه وتصبر عليه أجرا عظيما لا ينتهى ابدا .

والآن نصل الى آية كريمة ، طالمااعتبرتها انا شخصيا لب الدين الاسلامى ، وهى جديرة أن يتحلى بها كل مسلم وانتكون نبراسه فى كل ما يقول أو يفعل .

أما أنها لب الدين الاسلامىفمستفادمن أننا مأمورون أن نتخذ من شخص سيدنا محمد نبراسا لنا وأسوة حسنةواذا كان الله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يثنى على نبيه ويطريه لم يجد ما يصفهبه أكثر من أنه على خلق عظيم ، استبان لنا أن الأخلاق الكريمة هى لب الدين وجوهره يعزز ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، ثم يقول لنا : ادبنى ربى فأحسن تأديبى .

واذا كان الأمر كذلك فقد أصبح منالواجب علينا أن نتعرف على مكارم الأخلاق ، وعن الأدب الالهى الذى تأدب بهسيدنا محمد ، لنغترف منه . وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن أخلاقرسول الله فأجابت : كان خلقه القرآن ، وهى اجابة عامة تحتاج الى شىء من التفصيل ، بأن نتتبع وصف أخلاق المؤمنين فى القرآن فتكون هى بعض أخلاق سيدنامحمد ونقول (بعض) لأن ما تضمنه القرآن من أوامر ونواه لعامة المؤمنين فانها تتوفربطبيعة الحال فى سيدنا محمد ثم يزيد عليها بأخلاق النبوة الخاصة به . ومن القسمالأول على ما يرى بعض المفسرين الآيات العشر الأولى من (سورة المؤمنون) .

— ((قد أفلح المؤمنون ٠ الذين هم فىصلاتهم خاشعون ٠ والذين هم عن اللغو معرضون ٠ والذين هم للزكاة فاعلون ٠والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غيرملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهمراعون ٠ والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوسهم فيها خالدون)) .

على أنه من الواضح ان ما اشتملتعليه هذه الايات هى بعض صفات المؤمنين المتوفرة بطبيعة الحال فى سيد الخلق ، فلايمكن أن تكون هى تفصيلا .

— (وانك لعلى خلق عظيم) .

وأمثال هذه الايات التى تصف المؤمنين بعامة كثيرة فى القرآن ، مثل قوله .

— ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)) (الى آخر الآيات) . .

فكل هذه آيات عامة تسرى على سائر المؤمنين وانما يجب التماس أخلاق الرسول الخاصة فى مثل قول القرآن الكريم (**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**) ومن وصف القرآن المباشر فى وصف أخلاق النبى ، مثل قوله :

— « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** » .

وهناك أحاديث كثيرة تحاول أن تصف أخلاق الرسول ، ونحن لا نفيض فى نقل هذه الأحاديث لأنها فى رأينا لا تحقق المقصود منها فأخلاق الرسول فى حاجة لمجلدات ضخمة ، وسيرته كلها حديث عن أخلاقه فليس يغنى عن ذلك بعض الأحاديث التى أوردتها كتب التفسير كقول أنس بن مالك : قال خدمت رسول الله عشر سنوات فما قال لى أف قط ، وما قال لى لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركتــه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقــا . (ويجب أن يفهم هــذا الحديث بمعناه العام لا الحرفى ، أى سعة صدر الرسول وتسامحه والا فالرســول معلم وما كان ليترك — أنس — يخطىء ثم لا ينبهه لخطئه) وقوله فى حديث آخر : أن رسول الله كان اذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو (أى الرجل) الذى ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عن وجهه (أى وجه مخاطبه) حتى يكون هو الذى يصرف وجهه عن وجهه ، ولم ير مقــدما ركبتيه بين يدى جليس له) .

وقالت السيدة عائشة : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيئا قط الا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا امرأة .

وليس هذا الا نموذجا لبعض ما يقال عن أخلاق رسول الله ، وهو — كما قدمنا — بعض من كل ، وقطرة من نهر والأمر فى حاجة الى مجلدات ، وانما الذى يهمنا اثباته فى هذا الموطن لاظهار خطورة الأخلاق فى حياة المسلم المؤمن هو قــول رسول الله صلى الله عليه وســلم على ما روته السيدة عائشة : « **ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصــائم النهــار** » .

وحديث أبى هريرة « اكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق » .

فليتدبر كل مؤمن هــذه المعــانى ، وليقف أمامها طويلا ، فليست العبــادة أصدق العبادة مجرد حركات وأقوال ترددوانما هى أخلاق قبل كل شىء ، ورحم الله شوقى عندما قال :

انما الأمــم الأخــلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

— فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم .

المفتون : المجنون أو الضال المنحرف .

تدهن : تلاين وتصانع **هماز :** شتام أو عيـــاب .

مشاء بنميم : يسعى بالنميمة بين الناس . **عتل :** جاف غليظ .

زنيم : اى دعى (ابن زنا) .

الخرطوم : اشارة الى الأنف لبروزه من الوجه ، ومنه خرطوم الفيل .

سنسمه : مشتقة من الوسم وهو الكى بالنار .

تمضى السورة الكريمة لتقول لسيدنا محمد ، لست أنت المجنون ، وسوف تكشف الأيام ، وسيرون جميعا بأبصارهم ويلمسون بأيديهم ، من هو المجنون ، من هو الذى قد ركبه الشيطان ، أنت يا محمد ام المتقولون عليك بالكذب ، ثم يحذر سيدنا محمدا من أن يصـــغى لاقتراحات القوم عنـــدما يحاولون أن يقنعوا سيدنا محمدا أن لا يتكلم بالسوء عن آلهتهم وأصنامهم فى مقابل أن يكفوا بدورهم عن سب اله محمد ، أو أن يعبد هو الاصنام معهم فى مقابل أن يعبدوا هم لهه ، وهو ما رد عليه القـــرآن فى حزم فى سورة (**الكافرون**) .

ـ قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين .

فلابد أن يكون هذا المعنى هو ما تشير اليه آية (**ودوا لو تدهن فيدهنـــون**) اى **تمالئهم ، فيما لئونك** ، وتلاينهم فيلا ينونك .

وقد نهى رسول الله عن هذه الخطة وطلب منه أن يحذر من هذه الطغمة من قريش ، وهم أغنياؤها وأصحاب السلطان فيها ، وراح القرآن يصفهم على حقيقتهم من انهم قوم كذابون افاكون ، وآية ذلك كثرة حلفهم بالله ، فليس يسرف فى الاقسام الا كل كذاب يحس من نفسه الكذب فيؤكد كلامه بكثرة الايمان . أما الصادق الأمين فهو على ثقة من نفسه فلا يرى نفســـه محتاجا لتأكيد كلامه بالقسم ، وهو ما نشهده كل يوم بأعيننا ، حيث يسرف الباعة الكاذبون فى تأكيد اكاذيبهم بالحلف بالله .

وتمضى الايات فى رسم صورة المعاندين لسيدنا محمد والمنكرين عليه ، فلا يجب أن يأسى على موقفهم فهم جماعة دابهم كراهية الخير ، والســـعى فى الشر ، جفاة غلاظ ، يسعون بين الناس بالوشاية .

ومن عجب أن هذا النفر قد اشتط هذا الشطط ، لمـــا تصور نفسه عليه من غنى وكثرة أولاد وأتباع فأباح لنفســـه أن يقف هذا الموقف من رسول الله ، وسوف يدفع ثمن ذلك غاليا ، عندما يمسك الله عز وجل بتلابيبه ، ليعاقبه على ما قدمت

يداه ، فيكون أبسط ما يعاقب به أن يسمه الله على أنفه (يكويه بالنار) وقد كانوا فى العصور القديمة يشهرون بمن يريدون عقابه وليس هناك تشهير فوق وسم الوجه أى (كيه بالنار) ويأبى المفسرون القدامى الا أن يزجوا باسم بعض مشركى قريش الذين نزلت هذه الايات بحقهم ، ويذكر بعضهم اسم الأخنس بن شريق أو الأسود بن عبد يغوث . ويأبى البعض الا أن يذكروا اسم الوليد بن المغيرة . وعندنا أن ذلك كله لا غناء فيه فالايات فضلا عن كونها عامة فهى تبدأ بكلمة (كل) وهكذا أصبحت تشمل كل من تتوفر فيه هذه الصفات ،وهى صفات تتوفر فى نفر من الناس فى كل زمان ومكان . فالسبابون العيابون النمامون الجفاة الفلاظ الذين يمنعون الخير عن الناس لا يخلو منهم مجتمع .

حتى أن ما ذهب اليه هؤلاء المتخرصون من أن القرآن من تاليف سيدنا محمد وأنه لا يعدو أن يكون منقولا عن الكتب الخرافية القديمة لم يعدم المتقولين به اليوم وبعد مرور أربعة عشر قرنا من مجتمع قريش الأول وهذه بعض معجزات القرآن .

ـ انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن أغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا أنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الاخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

بلوناهم : اختبرناهم وامتحناهم . **الصرم :** القطع وهو هنا بمعنى قطف الثمرة .

كالصريم : أى كالمقطوف . **حرد :** شدة التصميم أو سوء النية والقصد **تحذير أغنياء قريش .**

وتمضى الايات الكريمة ، بعد أن وصفت الكافرين والمكذبين وحذرتهم من مغبة كفرهم من الاخرة لتذكرهم أن عقاب الله عز وجل غير بعيد فى الدنيا ذاتها ، فلا تغرنهم كثرة أموالهم وأولادهم ، فالله سبحانه قادر على أن يدمر أموالهم وأولادهم فى غمضة عين ، وذكرهم بقصة لابد أنها كانت شائعة ومعروفة فى قريش .

وهى أن رجلا صاحب بستان ينتج مختلف أنواع الثمار كان قد اعتاد أن يعطى للفقراء حصة من ثمار بستانه ، فلما أن مات الرجل وورثه أبناؤه عز عليهم أن يؤدوا حق الفقراء فى بستانهم ، فتواصوا فيما بينهم أن يمتنعوا عن دفع نصيب الفقراء وتحقيقا لذلك تواصوا على أن يبكروا فى حصد بستانهم قبل أن يتوافد عليهم الفقراء .

فما راعهم عندما وصلوا بستانهم فى الصباح المبكر ، الا أن يروا بستانهم وكأنه قد احترق ، حتى لقد ظنوا فى بادىء الأمر أنهم ضـلوا الطريق عن بستانهم ، فقـد غادروه فى الليل مزهوا ، ليروه فى الصباح خرابا يبابا ، عصفت به العاصفة فمات الثمر ، وذبلت الورود . فأدركوا بعد فوات الوقت أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم عنـدما انتووا ما اعتزموه من الشر ، وهو حرمان الفقراء من نصيبهم الذى اعتادوه .

وقد كان هناك واحد منهم (**أوسطهم أى أحسنهم**) كما هى العادة أن لا يخلو أى مجتمع من عنصر الخير . كان هذا الناصح الأمين قد حذرهم من حرمان الفقراء حقهم ، ولكنهم لم يستمعوا اليه ، فلمـا وقعت الواقعة ، ذكرهم بما كان منهم ، وطلب منهم أن يستغفروا الله ويتوبـوا اليه ، عسى أن يعوضهم عن بستانهم الذى هلك .

وجمهرة المفسرين . وهم يسردون هذه القصة ، يفسرون آية (**ولا يستثنون**) أى أنهم لم يقولوا (ان شاء الله) ويكون المعنى أنهم لم يقولوا لن نسمح لأحد من الفقراء أن يأخذ نصيبه ان شاء الله .

ونعجب كيف وقع الجميع على فضلهم واجتهادهم ، فى هذا الوهم ، فما نظن أنه من واجب الانسان اذا اعتزم شرا أن يقول (ان شـاء الله) بل لا يطوف اسـم الله سبحانه وتعالى فى ذهن من انتوى شرا ، ويكون معنى (ولا يستثنون) أى لا يستثنون أحدا من الفقراء فيحرموهم جميعا بدون اسـتثناء .

هذا هو المعنى الوحيد المقبـول فلا نظن أن الله سبحانه وتعالى قد عاقبهم على عدم قولهم ان شاء الله وانما عاقبهم على ما انتووا ارتكابه من الشر بحرمان الفقراء من نصيبهم .

وهنا طرفة قانونية أو تشريعية أثارها بعض المفسرين ، اذ تساءلوا كيف يعاقب أصحاب البستان على النية ، ومن المتفق عليه أن لا عقاب على النية السيئة وانما يكون العقاب على أعمال قد وقعت بالفعل (ولعل هذا ما جعلهم يقولون أنهم عوقبوا على عدم قولهم ان شاء الله) .

وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد وعدنا أن لا يعاقب على النيـة ، وما توسوس به أنفسنا ، رفعـا عن الحرج ، وكذلك القانون الوضعى فى كل زمان ومكان لا يعاقب على مجرد النية .

ولكن النية مسألة ذاتية داخلية لا يعلم بها الا صاحبها . ولكن عندما يتفق جماعة على عمل ما ، فالمسألة لم تعـد مسألة نية وانما أصبحت اتفاقا جنائيا وفى قصتنا تم هذا الاتفاق الآثم . وشرعوا فى تنفيذه بالفعل مع (سـبق الأصرار) اذ تقول الايات :

ـ فتنادوا مصبحين • أن أغدوا علىحرثكم ان كنتم صارمين • فانطلقوا وهم يتخافتون • أن لا يدخلنها اليوم عليكممسكين • وغدوا على حرد قادرين •

(أى مصممين على ظلمهم وسوء مثلهم • ففوجئوا بقضاء الله فى بستانهم اذ اجتاحته بالليل جائحة مما يصيب الزرعفى كل زمان ومكان ولا حيلة للانسان فيه •

الفلاحون أكثر الناس ايمانا :

ومن هنا كان المشتغلون بفلاحة الأرض من أشد الناس ايمانا بالله ، وخاصة بقضائه وقدره . وذلك لسببين :

الأول : أن الفلاح يعيش فى الخلاء بين السماء والأرض والماء والنبات فهو يرى قدرة الله فى كل لحظة ، وليس كمنحبسوا أنفسهم فى الحجرات .

أما السبب الثانى : وهو الأهم فهو ما تشير له هذه الايات . فالفلاح يعمل ويكد ويشقى طول العام ، ثم قد تأتى آفة فتدمرالمحصول ويخرج صفر اليدين وهذا هو الفارق بين الصناعة والزراعة .

فالصناعة تقوم على التخطيط ، ويمكن دائما زيادة الانتاج بزيادة ما يبذل من جهد ، ولذلك فان الدول التى اصبحتتخطط لانتاجها أصبح باستطاعتها أن تضاعف انتاجها الصناعى مرة ومرتين وثلاثة الى ما شاء الله ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل مثل ذلك فى الزراعة ، فقد تبذلالدولة فى الزراعة أضعاف ما بذلته من جهود سابقة ، ثم يكون المحصول أقل منالمعتاد ، أولا محصول على الاطلاق . وهذا ما يجرى فى دم كل فلاح فهو يبذل جهده ،ولكن الاثمار من عند الله . ولذلك فهو دائم التطلع الى الله والرجاء اليهأن يحفظ زرعهوان يبارك فى ثمرته .

ومن هنا كانت المجتمعات الزراعية فى مجموعها أشد ايمانا بالله وبالقضاء والقدر خيره وشره : ولما كانت مصر مجتمعازراعيا منذ أقدم العصور ، فقد كان المصريون من أعظم الناس ايمانا على مرالعصور .

وآتوا حقه يوم حصاده :

ولعل هذه القصة فى القرآن ، كانتتشير فى وقت مبكر لما ستقوم عليه تعاليم الاسلام من فرض نصيب للفقراء فى أموال الأغنياء (الزكاة) وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .

وأول ما تجب فيه الزكاة هو الزرعوغلاته وأنها يجب أن تؤدى بمجرد حصد الزرع (وآتوا حقه يوم حصاده) .

ـ ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم • أفنجعل المسلمين كالمجرمين • مالكم كيف تحكمون • أم لكم كتاب فيه تدرسون • ان لكم فيه لما تخيرون • أم لكم ايمان

علينا بالغة الى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون . سلهم أيهم بذلك زعيم . أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون . فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين . أم تسألهم اجرا فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون .

اعجاز القرآن :

لا يستطيع أى انسان أن يفهم كتاباكتب منذ مائة سنة فقط ، فضلا عن أن يكون مكتوبا منذ بضع مئات من السنين ، واللغات التى كانت يوما ما هى لغة البشر كاللاتينية أو الاغريقية ، فانها تسمى اليوم لغات ميتة ، وليس سوى اللغة العربية التى حافظت على كيانها وذلك بفضل القرآن ، وها هى آياته الكريمة ليس فيها كلمة واحدة يعيا عن فهمها من يفهم اللغة العربية ، وهذا هو اعجاز القرآن . والايات رد على المشركين وغرورهم وتشدقهم ، فقد كانوا يقولون على سبيل الاستهزاء والسخرية أنه لو صح ما يدعيه محمد من أنه هناك حياة أخرى فسوف يكونون هم سادتها وكبراؤها ، كما هم سادة هذه الدنيا . من هنا يرد القرآن الكريم على أوهامهم وأحلامهم ، فيقول لهم .. أن هذا العالم الآخر وما فيه من نعيم انما هو حق المؤمنين المتقين ، وليس الكافرين والجاحدين .

ويعجب القرآن الكريم من عقلية المشركين الفاسدة عندما يتصورون أن الله عز وجل يسوى بين (المسلمين والمجرمين) ويسائلهم من أين جاءهم هذا الوهم ، هل طالعوه فى كتاب أنزل عليهم من السماء وهم يتدارسونه فيما بينهم ، أم عندهم وعد من الله سبحانه وتعالى أن يحقق لهم مايتمنونه ويشتهونه ، أم أنهم يعلمون الغيب ، ويطلب القرآن من سيدنا محمد أن يتحداهم ويسألهم أيهم يدعى ذلك (**سلهم أيهم بذلك زعيم**) أم ان لهم شركاء فى السماء قد زينوا لهم هذا الوهم ، **فليأتوا** بهؤلاء الشركاء ان كانوا صادقين .

وبعد أن يدحض القرآن أوهام المتوهمين ينذرهم بالمصير الحق الذى ينتظرهم وأنهم سيقفون بين يدى الله أذلاء مرهقين لا يستطيعون مجرد السجود لله بعد أن كشف عنهم الغطاء وأشرقت الحقيقة ، وذلك عقابا لهم عن أحجامهم عن السجود لله فى هذه الحياة الدنيا ، عندما كان السجود فى مقدورهم (**يوم يكشف عن ساق**) .

وكعادة المفسرين فى العصور المتأخرة يقفون أمام هذه العبارة ، ويحاولون تحديد الكشف عن الساق ، ولماذا يكشف عن الساق ، أما نحن فاعتناقا لمذهب السلف الصالح لا نرى فى هذه العبارة كما فى غيرها من أوصاف يوم القيامة الا الكناية عن شدة هذا اليوم ، وقانا الله وأنجانا من أهواله .

(أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) .

ويمضى القرآن الكريم فى اظهار عجبة الكفار وضيق صدورهم بدعوة سيدنا

محمد الى الحق والى الخير ، وقد كان يمكن أن يتصور ذلك لو كنت تطلب منهم أجرا على دعوتك ، أما وأنت لا تكلفهم شيئا ، ففيم هذا الضيق والأزورار عن دعـــوة الخـــير .

الحق أن لا تفسير لذلك الا أنه قــد غلبت عليهم الشقاوة ، ولذلك ينذرهم الله بالعذاب الأليم فى الاخـــرة جزاء تكذيبهم **(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين) .**

ذكرنا من قبل فى تفسير مثل هذه الآيات التى تتحدث عن مكر الله ، وكيده ، واستدراجه أنها ليست الا مجرد مساجلة كلامية بلغة القوم التى يفهمونها وهى اللغة العربية تبين للمشركين دائما أن قدرة الله فوق كل قدرة .

فاذا تحدث المشركون عن قوتهم فالله أقوى ، واذا تحدثوا عن مكرهم فان مكر الله أعظم من مكرهم ، واذا تصوروا أنهم يستطيعون أن يكيدوا لرسول الله ، فان كيد الله غالب على كيدهم .

أى أن الله وقدرته فوق قدرة الانسان فى سائر أحواله الطيب منها والخبيث بهذا المعنى يجب ان نفهم كل ما جاء فى القرآن الكريم عن مكر الله وكيد الله ، فقد تنزه وعلا علوا كبيرا عن أن يتصـور متصور أنه يمكر من نوع مكر البشر ، أو يكيد من نوع كيد البشر ، وانما هى قدرة مطلقة فـوق كـل شىء ، وتعـلو كـل شىء **(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .**

وفى هذا الضوء يجب أن نفهم كذلك مثل هذه الاية التى تتحدث عن الاستدراج فهى رد على المشركين ، الذين يقولون على سبيل التحدى ، فليمتنا الله فى التو واللحظة ان كنا كاذبين . أو فليسقط السماء علينا ، أو يزلزل الأرض فيعلمنا القرآن ، ان ذلك ليس هو طريق الله فهو لا يأخذ بالعـــذاب المباشر وانما يدع كل انسان وما يختار ثم يكون الحساب بعد ذلك فى الحياة الأخرى .

فلا يتصـــور أن عـــدم معاجلة الله بالعذاب لمستحقيه دليل على عدم وجـــود الحساب على الاطلاق فليس ذلك الا امتحان وابتلاء من الله عز وجل والله تعالى أعلم .

ـــ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهـــو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين .

ـــ وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمـــا سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون . وما هو الا ذكر للعالمين .

قصـــة سيدنا يونس :

ذكر سيدنا يونس بالاسم فى القرآن الكريم اربع مرات . سورة النساء آية ١٦٣ والانعام آية ٨٦ ويونس آية ٩٨ والصافات آية ١٣٩ .

وذكر بوصفه فى سورة الانبياء فى قوله تعالى **(وذا النون اذ ذهب مغاضبا)** ولعل هذا التعبير هو الذى حدا ببعض المفسرين أن يقولوا أن نون تعنى الحوت . وقد أقامت

قصة يونس جدلا شديدا بين بعض علمــاءالأزهر وبين الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه عن قصص الانبياء .

ولذلك نكتفى فى الوقت الحاضر بالايات التى نحن بصددها تاركين التفصيل لمناسبة أخــرى .

ومجمل القول هنا ، أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد أن يصبر على قومه ولا يضــيق بهم ، وأن يحتمل شكهم ، وعنادهم ، وكفرهم وأن يصبر على مشاق الدعوة وعنائها وآلامها ولايتصرف كما تصرف يونس من قبل ، اذ ضاق صدره بعناد قومه فخرج من بلده غاضبا على قومه هائما على وجهه ، فعاقبه الله على تسرعه ثم تاب عليه وانجاه مما وقع فيه من ضيق سنفصله فى حينه .

وقد وعى رسول الله هذا التوجيه الكريم فلم يفكر فى الهجرة الا أن يأذن له الله وقد جاء على سيدنا محمد وقت هاجر فيه كل أصحابه ما عدا أبو بكر الذى راح يستأذن النبى كل يوم فى أن يهاجر بدوره ،فكان النبى صلوات الله عليه يستمهله ، حتى أذن لسيدنا محمد بالهجرة .

وهنا فقط صدع بالأمر وكانت هجرته المشهورة والتى صاحبه فيها ابو بكر وهذا هو موطن العظة عندنا فى قصة سيدنا يونس كما أشير اليها فى هذه الايات .

— وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمــا سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون . وما هو الا ذكر للعــالمين .

(يزلقونك) يصرعونك .

أى أن كفار قريش كانوا ينظرون لسيدنا محمد شذرا كلما سمعوه يتلو القرآن وكانت أعينهم تطفح بالبغض والكراهية حتى لكأنهم يريدون أن يصرعوا سـيدنا محمدا بأعينهم .

وقد وقف بعض المفسرين القــدامى وخاصة ابن كثير وقد راحوا يسهبون فى حديث الاصابة بالعين ومدى فاعليتها وقدرة بعض الأشخاص على الحسد حتى لتصبح نظرة أحدهم وكأنها رصاصة مسدس قاتلة ، ولقد أفضنا فى دراسة هذا الموضوع فى كتابنا الطاقة الانسانية فليرجع اليه من يريد استيعاب هذا البحث .

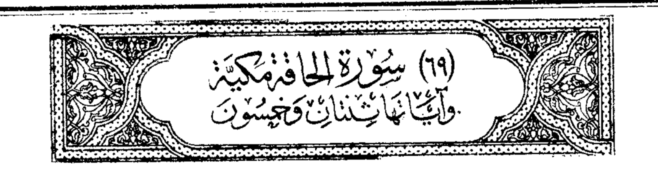
(ويقولون انه لمجنون) .

عود لتكرار مزاعم المشركين على سيدنا محمد وما نفاه الله عنه فى أول السورة .

وما هو الا ذكر للعالمين :

أى أن هذا القرآن الذى تتقولون عليه ليس الا وحيا من رب العالمين ليكون بلاغا وذكرا للعالمين ، وصدق الله العظيم فها هى ذى أربعــة عشر قرنا انقضت منذ نــزل القرآن على سيدنا محمد وهو أعظم بلاغ وذكر للعالمين .

والحمد لله من قبل ومن بعــد .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟
بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ
بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ
أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾
فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سورة مكية :

هى سورة مكية بالاجماع ، وتتجلى فيها خصائص السور المكية ، بل أول منازل من هذه السور ، حيث تناقش تخرصات المشركين والملاحدة من ان القرآن من نوع أقوال الشعراء ، أو سجع الكهان ، وتؤكد كونه وحى من رب العالمين ، نزل على سيدنا محمد لينذر به الناس اجمعين ، ويدعوهم الى سبل الحق والسلام والخير ، ويحذر الكافرين والمعاندين من أهوال يوم القيامة .

الحاقة . ما الحاقة . وما ادراك ما الحاقة :

يسرف المفسرون القدامى فى التشقيقات والتفريعات لتحديد المقصود بكلمة « الحاقة » ، مع اتفاقهم على انها اسم ليوم القيامة ، وأنها مشتقة من الحق ، وهذا يكفينا ، أما السؤال عنها ، وتكرار السؤال فى أقوى الصيغ ، فهو اظهار لعظيم امرها وخطر شأنها .

وقد حاول بعض المفسرين أن يسن قاعدة تقول : ان كل ما اشتمل عليه القرآن من مثل « ما أدراك » ، فان سيدنا محمدا (صلى الله عليه وسلم) ، « يدريه ويعلمه » ، وما اشتمل عليه من مثل « ومايدريك » فهذا هو الذى لايعلمه رسول الله ، وهو من ضروب التكلف التى ولع بها قدامى المفسرين ، مع أن الآيات موجهة للبشر فى كل زمان ومكان ، فلا محل لتخصيصها بسيدنا محمد ، وبهذا يصبح لا محل للبحث فى الفارق بين « ماأدراك » و « ما يدريك » .

ومفتتح هذه السورة هو من نوع افتتاح سورة « القارعة » .

القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة .

ولكى تتم المشاكلة ، فان الآية التالية ذكرت بالذات كلمة « القارعة » « **كذبت ثمود وعاد بالقارعة** » ، فدل ذلك على ان الحاقة هى مرادف للقارعة وللواقعة وليوم القيامة .

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فاما ثمود فاهلكوا بالطاغية . وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية .

صرصر : اى شديدة .. **حسوما** : أى متتابعة . وقيل انها مشتقة من الحسام أى السيف ، بمعنى انها قطعت دابر الكافرين .

أعجاز نخل : أى أصول النخل وجزوعها .

خاوية : أى فارغة .

فهل ترى لهم من باقية : اى انهم هلكوا وانقرضوا .

عاد وثمود : هما اصلان من أصول العرب البائدة .

وعندما ولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ونشأ ثم بعث .. كانت الحقيقة التاريخية السائدة والمشهورة ان العرب ينقسمون الى قسمين ، العرب البائدة وهم الذين كان العرب فى أيام سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) يتحدثون عنهم باعتبارهم شعوبا قديمة قدأبيدت وانقرضت ، ولم يبق منهم سوى الاثار التى تدل على أنهم كانوا وانقرضوا ، ومن هؤلاء عاد وثمود ، وكان موطن عاد بالاحقاف فى منطقة حضرموت ، وأما ثمودفقد كانت فى شمال الجزيرة فى الطريق الى الشام ، فيما يعرف بمدائن صالح .

العرب المستعربة

وأما القسم الثانى فهم العرب المستعربة ، والذين كانوا يملأون الحجاز ، ونجد على أيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والذين نشأوا من ولد سيدنا اسماعيل ، بعد ان تزوج من العرب الذين وفدوا من جنوب الجزيرة .

وقد فصلنا القول تفصيلا عن العرب وأصولهم وتفريعاتهم فى كتابنا : ((نبى الانسانية)) .

ولطالما نبه القرآن الكريم قريشا ومن لف لفهم من المشركين ، بأن لا يمتلئوا غرورا بقوتهم وعزهم ، وان يذكروا ماحدث للمجتمعات السابقة عندما أشرت وبطرت وطغت ، حيث قصم الله ظهورهم وأفناهم فى عشية أو ضحاها ، فأصبحوا كأن لم يغنوا بالامس ، وكان طبيعيا ان يذكر القرآن العرب بأقرب الناس اليهم وما يعرفونه عن مصائرها ، وعلى رأس هؤلاء جميعا عاد وثمود ، وقد كان لقريش قافلتان فى الشتاء والصيف تنقلان التجارة من الجنوب الى الشمال وبالعكس ، وكانت القافلة المتجهة الى الشام فى الصيف تمر بآثار مساكن ثمود ، ولقد وصل القرآن الى حد تحديد الوقت الذى كانت فيه قافلة قريش تعبر مساكن ثمود المندرسة : ((وانكم لتمرون عليهم مصبحين)) .

أما عاد ، فقد كان حديثهم وما انتهوا اليه هو شغل المسافرين الى الجنوب الشاغل .

ولقد فصلنا القول فى قوم عاد وثمود عند تفسيرنا لسورتى الفجر والشمس ، وتحدثنا هذه الآيات التى نحن بصددها عن الكيفية التى انتهت بها عاد وثمود

((فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية)) ، وقد اختلف المفسرون فى المقصود من كلمة الطاغية فقالوا الطاغية أى الصيحة ، والاصل فى الطغيان هو تجاوز الحد ،

وهذا يغنينا عن اى معنى آخــر ، فليس هناك ما يصيب المجتمعات بالانحلال ، بل والفناء ، سوى انعدام العدل واستشراء الظلم واهدار الحقوق .

واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. وقيل معناها ، ريح باردة شديدة الهبوب وان اى مقيم فى الصــحراء يســتطيع أن يتصور ما الذى يعنيه هبــوب الزوابع والأعاصير التى تبلغ من الشدة الى الحد الذى يدفن مدنا عامرة بكل من فيهــا تحت الرمال ، ومن هنا كان البدو يعيشون فى الخيام ليستطيعوا دائما الهروب من وجه هذه الأعاصير أما المدن الثابتة المبنية فهى مهددة بمثل ما أصاب قوم عاد وثمــود وهو ما كان يهدد أهل مكة .

وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفــكات بالخاطئة . فعصــوا رسول ربهم فاخذهم اخذة رابية . انا لمــا طغا الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلهــا لكم تذكرة وتعيها اذن واعية .

المؤتفكات : قيل هم قوم لوط ولكنا نراها عامة تشمل كل من كذب الرسل فيمــا سبق من الزمان .

رابية : من الربا وهى الزيادة فأخذهم اخذة رابية اى قوية شديدة « أخــذ عزيز مقتدر » .

الجارية : سفينة نوح .

وبعد أن حذر القــرآن قريشــا من قارعة تصيبهم كما اصابت عاد وثمود الذين يرون آثارهم رأى العين، انتقل الى تذكيرهم بما اصاب كل من سبقهم من أمم وشعوب، وما تعرضوا له بسبب كفرهم وعنادهم اذ أصبحوا سيرة سيئة تلوكها الالســنة وتذكرها بالسوء بعد وفاتها ، وما الانسان اى انسان فى هذه الدنيا الا مجرد سيرة بعد موته بالمــدح أو الذم حيث يكون ذلك مؤشرا لرضا الله أو غضبه .

فرعون : وفى مقدمة الســــير التى كانت مشهورة وسط العرب عمن هم خارج جزيرتهم هو فرعون ملك مصر ، وذلك كما قلنا من قبل لسببين :

الأول : أن مصر هى الشاطىء المقابل لجزيرة العرب ولولا فقر الجزيرة العربية وانها كانت غير ذى مطمع لوقعت الجزيرة تحت سلطان مصر .

اما السبب الثــانى لذيوع قصــة فرعون وموسى فى الجزيرة العربية فقــد كان ذلك بسبب انتشار اليهود فى أنحــاء الجــزيرة بعد أن هربوا اليهــا فى فتــرة ضياعهم وتشتتهم ، ومن هنا فقد أشــار القرآن عشرات المرات الى العبرة المستفادة من حــديث موسى وفرعون ، احيانا على سبيل الرمز والاشــارة كما فى هذه الآية واحيانا على سبيل التفصيل والحكاية كما فى سور أخرى ، كما سيرد فيما بعد .

ســـائر الامم :

وهكذا انتقل القرآن من التحـــذيربالأقرب (عاد وثمود الى التحذير بالقريب (فرعون) ومن التخصيص الى التعميم .

(المؤتفكات بالخاطئة) الخاطئة أى الخطيئة خطيئة الكفر والجحود والعصيان ، فقد عصت هذه المجتمعات رسل ربهم الذين‌دعوهم الى الحـــق والى كل ما يصـــلح شأنهم فكانت نهايتهم نهاية سوء ، اذ أخذهم‌الله بظلمهـــم ، فحلت بهـــم النــــــوائب والكوارث من كل نوع .

انا لمـــا طغا المـــاء حملنـــاكم فى الجارية :

ومن التعميم فى المكان أعاد القـــرآن‌الى اذهان ســـامعيه حديث ســـيدنا نوح والطوفـــان الذى أغرق المعمـــور من هذه‌الدنيا فى حينه .

ولقد تحدثنا باسهاب عن قصة سيدنانوح فى سورة نوح .

حملناكم : أى حملنا أسلافكم‌واجدادكم‌الذين آمنوا فى سفينة نوح ، وقد كان‌هؤلاء المؤمنـــون هم الذين أعادوا تعمير الـــكرة‌الأرضية ، وما أجـــدر كل عاقل أن يتعظ بذلك كله ، وهذه هى رسالة سيدنا محمدوما جـــرى على لســــــانه بوحى من رب العالمين ، حيث راح يحذر وينذر كل من له‌أذنان للسمع .

والسمع المقصود ليس هو مجردالعملية‌المادية ، أى اهتزاز طبلة الاذن تحت تأثير الأمواج الصوتية ، وانما المقصود بالسمع‌هو الفهـــم والادراك والتـــدبر وبالتـــالى الاستفادة بالعبرة فى الموعظة وهذا تفسيرقوله (وتعيها اذن واعية) .

ـــ فاذا نفخ فى الصور نفخة‌واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء‌فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائهـــا ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية .

أسلوب القرآن :

وفى هذه الآيات يصور القرآن ما فتئ‌يصوره‌من ظواهر يوم‌القيامة ،وهو ماكرره فى عشرات من قصار السور المكية ، وقدكان بهذا التكرار يكشف للبشرية منذأربعة عشر قرنا عن قوة الكلمة وشـــدة نفوذها وتأثيرها على البشر خاصة عندما تكون صادقة وامينة وهو ما ادركه البشر جميعاهذه الأيام فأصبحت وسائل الاعلام كلهـــا والاعلانات التجارية تعتمد على تـــكرار الكلمة وتنويعها وتلوينها ،شتان بين كلمات موحى بها من‌الله فهى عنوان الحق‌والصدق، وكلمات زائفة ومضللة ـــ والمهم عندنا أنهم بدأوا يتنبهون لسر جاء به القرآن منذأربعة عشر قرنا ، وهو ما يفعله التكرار فى

النفـــوس من أثر عميق ولقد ظل القـــرآن يحفر فى نفوس المؤمنين من آيـات الغيب وعلى رأسها يوم القيامة بأحداثه الرهيبة،حتى كان من شـــأن المســـــلمين ما كان فاستهانوا بالموت ، اذ كانوا يرون الجنةرأى العين ، ويحسون بريحها تهب عليهم **فكان قائلهم يقول : ((وعجلت اليك ربلترضى)) أو يقول :**

ولست أبالى حين أقتـــل مؤمنـــا على أى جنب كان فى الله مصرعى

ولقد تحدثنا فى تفسير أكثر من ســورةعن يوم القيامة وكيف أنه أصـبح فى دائرة العلم الحديث وعندما يتحدث عن اختـــلالقانون الجاذبية أو انفراط عقد النظام الذى ينسق بين دوران الكواكب والنجـــوم ،وكيف يصبح كل ما تحدث عنه القرآن من أمثال **((اذا الســماء انشقت)) ((اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت)) ((واذا الشمس كورت)) ((واذا البحارفجرت))** أقول يصـــبح ذلك كله مفهومـــا ومدركا ومتخيلا ، ومن ذلك ما اشـــتملت عليه هذه الآيات من اندكاك الأرض والجبال، بحيث تصـــبح كلها كتلة واحـــدة لا تبين معالمها ، ثم تنسف نسفا لتصـــبح هبـــاء منبثا . وتنشق السماء أى يختل نظمهـــا وتجلى الملائكة فى جنباتها فى هذا الحين أمر جد مفهوم وقد تكرر ذكره فى القرآن باعتباره بعض أحداث هذا اليوم **((يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا))** .

ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية :

نقف قليلا أمام هذه الآية التى أثارت جدلا كبيرا بين المفسرين عاكسين فى آرائهم التصورات والمعتقدات فى أيامهم وبالتالى فقد اختلفوا فيما بينهم اختلافا ــ عظيمـــا ونبادر فنقول اننا مكلفون كمســـلمين أن نؤمن بكافة الغيبيات ، ذلك أن الايمـــان بالغيبيات هو صفة المؤمن ومن ذلك الايمان بالعرش فى غير كيفية أو هيئـــة معينة ، ولذلك فعندما يقول القرآن الكريم **((ويحمل عرش ربك فوقهـــم يومئـــذ ثمانية))** فان قلوبنـــا تطمئن الى ذكر الله والى عظمتـــه وجبروته ، ولا نحاول أن نضـــيف قليلا أو كثيرا الى رقم الثمـــانية ، فهـــكذا ورد فى الآية مجرد رقم حســـابى تجريدى وبذلك فقد كان تزيدا لا مبرر له من بعض المفسرين يقولون هم ثمانية آلاف من الملائكة وقالوا ثمانية صفوف ، فى كل صف كذا وكذا من المـــلائكة ، وقالـــوا ما هو أكثر من ذلك فراحوا يصـــفون هؤلاء المـــلائكة ، ولقد ترددنا كثيرا قبـــل أن نقول ما قالوا لعدم اطمئناننا اليه ولولا اننا قـــد التزمنا أن نعرض كل ما قيل، ليكون القارىء على بينة، ليختار لنفسه ما يطمئن اليه فؤاده ، فقالوا والعهدة على الراوى :

((ان حملة العـــرش ثمانية أملاك على صورة الأوعال ما بين اظلافها الى ركبهـــا مسيرة سبعين عاما للطـــائر المسرع)) .

ونجتزىء مما قالوا بهـــذا القدر ،وعندنا أن هذه الأقوال وأمثالها مما يتعارض مع صريح نص القرآن ((**وما يعلم جنود ربك الا هو)) ((يومئذ تعرضون لا تخفى**

منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه . انى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفهـا دانيـة . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعهـا سبعون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعـام الا من غسلين .

الحساب والعقاب والثواب :

وتتحدث سورة الحاقة كسورة القيامة والمرسلات والقارعة والواقعة والغاشيـة وعشرات السور الاخـرى مما شرحنـاه سابقا وأفضنا فيه عن الحسـاب فى يوم القيامة والوان العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين « **يومئـذ تعرضـون لا تخفى منكم خافية** »

ولقد كان العرب بعامة وقريش بخاصة يستبعدون أن تكون أعمالهم فضلا عن أقوالهم محصية عليهم ، أما نحن فى العصر الحديث فقد أصبحنا نشهد أجهزة التسجيل ، وكيف أنه فى بعض المحاكمات يواجه المتهمون بكل ما قالوا مسجلا عليهم وحاضرا بين أيديهم ، واذا كان الانسان قد صنع ذلك ، فما أحرى أن يكون خالق الانسان أقوى وأقدر . وعلى هذا الاسـاس يجب أن نكون موقنين اننا سـنعرض يوم الدينونة والحسـاب يوم القيامة لنواجه بكل أعمالنا طوال حياتنا .

اليمين والشمال :

كان أحد معتقدات العرب وما عاشـوا عليه هو فرحهم واغتباطهم وتفاؤلهم بكـل ما كان يمينا حتى اتخذوا من مادة اليمين كلمة اليمن بمعنى الخير والسـعد ، وعلى العكس من ذلك اشتقوا من الشمال كلمات الشؤم .

واذا كان القرآن قد نزل بلغة العرب فالمؤمنون المتقون هم اهل اليمين وكل أعمالهم تبدأ من اليمين .

فالمؤمن يوم القيامة يتناول كتابه أى سجل أعمـاله باليمين فيكاد يطير من الفـرح ، ويحب أن يشرك من يحب فى أفراحه فيصيح قائلا : تعالوا اقرءوا كتابى وما احتـواه من خـير كثير أنعم الله به على ، جـزاء ومكافأة على ايمانى وأعمالى فى الدنيا .

انى ظننت أنى ملاق حسابيه :

يسرع بعض المفسرين فيختصروا الطريق بقولهم « **ظننت هنا بمعنى أيقنت** » .

ويكون المعنى أن المـؤمن متحقق من الحساب يوم القيامة ، ولا جدال ان المؤمن موقن بقلبه تمام اليقين . أما بالنسبة للعقل فكل الأمور خارج سلطان العقل الذى تقوم

مدركاته عن طـريق الحــــواس . اى السمع والبصر واللمس والشم والذوق، وغنى عن البيان ان المستقبل فضلا عن الغيب الذى اختص الله بعلمــه لا يمكن أن يدرك بالحواس ، ولذلك كان الايمان بالغيب عن طـريق القلب ومن هنــا فقد اســتخدم القرآن كلمة يظن ، وهو ظن عقلى يدعمه القلب ويحوله الى يقين ، والله تعـــالى أعلم .

وهكذا يفرح المؤمن يوم القيامة وهو يطالع كتابه يوم القيامة عندما رأى نعمــة الله عليه ، ثم يصـــير الى الجنة الموعــودة ، فيتمتع بخيراتها ، ويحس بالرضا الذى هو قمة السعادة وينعم بطعام أهل الجنــة وشرابهم فى غير تحرج أو خوف ممايعرض للناس فى الحياة الدنيا وذلك جزاء الصالحين بما قدموا من أعمال صالحة وخيرة فى الحياة الدنيا (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) .

اصحاب الشمال :

وفى الطرف الآخر ، يقع أصحاب الشمال من الكافرين والمجرمين والعصــاة فحيث يستلم المتقون كتابهم باليمين عــلامة على الخير الذى ينتظرهم فهؤلاء يتلقون كتابهم بالشمال فلا يكاد الواحد منهم يلقى نظرة على سجل أعماله فى الدنيا حتى ينخلع قلبه من الرعب ويدرك أن الساعة قد حانت حيث لا ينفــع مال ولا بنون ولا جــاه أو سلطان ، فيتمنى لو ظل ميتا بغير بعث **(ياليتها كانت القاضية)** .

هلك عنى سلطانيه :

يقول بعض المفسرين ان سلطانيه فى هذا الموطن تعنى الحجة ، ولكنا نرى السلطان هنا بمعنى النفوذ والاقتدار والسيادة ومامن انسان كبر أو صغر الا وعنــده قبس من السلطة فى محيطــه ولو على الأقل على نفسه ، وبهذا القدر من السلطة اختار طريق العمل على الايمان ، ومن هنا يدرك يوم القيامة انه يقف أعزل من كل شىء **((خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه))** .

واذا جاز لنا أن نســتعمل التعبيرات الحديثة لنكلم الجيل بالمعانى التى يألفهــا ، فنحن نلفت نظره هنا الى سيمفونية الآيات القرآنية وموســيقاه التصــويرية وتجاوب المشاهد وتركيبها فحيث يقرع الكافر سن الندم ويروح يعنف نفسه ويأخذها باللائمة، اذ ينبعث الصــوت الالهى بغير جــرس بطبيعة الحال وربما بلسان الحال «خذوه»، أى الكافر فشدوا منه الوثاق بالسلاسل والاغلال ثم اقذفوا به فى جهنم ، ولايقفن واقف طويلا أمام طول السلسلة فينزلق كما انزلق بعض المفسرين ، فراح يقول أن الذراع ، ســبعون باعا ، كل باع طـــول المسافة من الــكوفة الى مكة ، أو يقول قائل : سبعون ذراعـــا بذراع الملك ، فكل هذه تزايدات وقد قلنا ولن نفتأ نقــول ، ان كل ما يتصل بالجنة والنار من الامور الغيبية والتى نؤمن بها ، دون أن نحاول الوقوف على كيفيتها ، وما دام القرآن قد نزل باللغة العربية لمخاطبة العرب بمــا

يفهمون ، فقد كان لا مناص من هذه الصور لتحدث اثرها فى النفوس ، ونحن نطالعها فتنخلع قلوبنا من هول الجحيم وما أعده فيه للكافرين من الوان العذاب ، ونحن شوقا الى ما فى الجنة من نعيم ، دون أن نحاول تقصى الكيفية ، وحسبنا من الجنة انها عيشة راضية ، ومن الجحيم أنها عيشة مضنية .

انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولايحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون .

ويروعنا من القرآن ويأخذ بلبنا كيف انه يسوى بين الكفر بالله وبين عدم اطعام الفقراء والمحتاجين .

وهذان هما جناحا الدين ، حق الله ، وحق البشر ولا دين بغير هذين الجناحين معا ، فالله غنى عن العالمين والايمان به هو السبيل والطريق الى الاحسان لعباد الله وقد افضنا القول فى شرح سورة الانسان حول فضيلة اطعام الطعام ، والذى نضيفه هنا أن الانسان مكلف اذا لم يكن عنده ما يطعم به الجائعين ، فقد وجب عليه أن يحض غيره ممن يقدر ويحثه على اطعام الفقير ، واذا كان هذا كذلك فباستطاعتنا أن نتصور هول جريمة من يحبس الطعام عن المحتاجين اليه ، عن طريق الاحتكار ، أو الشح والبخل والتقتير .

فليس له اليوم هاهنا حميم . ولاطعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون .

فمثل هذا الكافر والبخيل لن يكون له يوم القيامة صديق أو نصير **ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون .**

لا نجارى قول من قال ان الغسلين هو القيح والصديد ، فهذا تخبط ، وانما نقول بقول القرآن ، الغسلين كالزقوم ، هو طعام الآثمين وقانا الله جميعا هذا المصير .

فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون :

فلا اقسم : احدى صيغ القرآن واساليبه للفت النظر لاهمية الشىء التالى ، ويستوى بعد ذلك أن تكون « لا » نافية أو زائدة فالنتيجة والغاية واحدة وهو لفت نظر السامع والقارىء الى ما هو آت من الكلام .

بما تبصرون ومالا تبصرون :

هذا هو بيت القصيد من المقصود بالقسم لخطر شأنه طبقا لأسلوب العرب فى الكلام ، أو لنفى القسم باعتباره أظهر وأبين من أن يحتاج لقسم لتأكيده مثل « لا اقسم بيوم القيامة » .

وتبصر وتبصرون ، مساوية للظاهر والخفى ، ولا يمكن أن يخلو شىء فى هذا الوجود من أن يكون ظاهرا لعين الانسان وما يكون خافيا عليها . وهذه الصيغة من

صيغ القرآن هى نموذج لاعجازه وطلاوته، فهو يوجز فى العبارة القصيرة ما يتسع من حيث المعنى لكل شىء فى العبارة الشيقة الطلية التى تفيض بالبيان وعميق الأثر « ماتبصرون ومالا تبصرون » وقديما كانوايفسرون ما لا تبصرون ، بأنه الآخرة ، أو ما فى جوف الأرض ، أو الأرواح ، أوالملائكة والجن وقيل النعم الباطنة ، الى آخر ما قيل وكل ذلك يدخل فى مدلول الآية .

وباستطاعتنا اليوم أن نضيف كل ماكشفه العلم الحديث عن أشياء مادية حسية ومع ذلك لا تراها عين الانسان ،ذلك أن العين مجهزة بكيفية مخصوصة بحيث لا ترى الا ما غمرته أشعة معينة ،ولكن ثمة أشعة لا تراها العين كالاشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء . وهناك اشياء لا تستطيع العين المجردة رؤيتهافأنت تنظر للماء الرائق بالعين المجردة فتراه شفافا لامعا فاذا نظرت اليه تحت مجهر مكبر الوف المرات لعافته نفسك لكثرة ما يغص به من أحياء ، وقد ظل ذلك مما لا يبصره البشرعشرات الألوف من السنين. حتى القرن التاسع عشر عندما اكتشف الميكرسكوب ، وكلما أبصر الانسان شيئا ادرك بحسه أن لا يزال هناك مالا يبصره، وهكذا تتضمن هذه الآية الكريمة فى عذوبة وطلاوة كل شىء ، وهى فى نفس الوقت بمثابة المؤشر لبنى البشر أنهم لم يؤتوا من العلم الا قليلا ، كلما امتد بصرهم الى ماهو أبعد وأخفى تبين لهم أن ما خفى أكبر وأعظم .

انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين :

البرهان الرياضى :

أقوى البراهين فى عالم العقل والمنطق العقلى هو البرهان الرياضى الذى يحاصر العقل ويلزمه النتيجة الحتمية التى لافكاك منها . ويقوم البرهان الرياضى على تأكيد الحقيقة التى يراد الوصول اليها ، ثم التسلسل فى سوق المسلمات التى يختلف عليها ، حتى ينتهى الأمر كما بدأ باثبات الحقيقة .

والحقيقة هنا ان سيدنا محمدا هو رسول الله الصادق الأمين والقرآن هو كلام الله الموحى به اليه .

هذه الحقيقة التى يقررها القرآن« **انه لقول رسول كريم** » هى التى نازعت فيها قريش ، بكل الوسائل التى ذكر القرآن بعضها فى هذه الآيات وذكر بعضها الآخر فى آيات أخرى ، وهو ما نسميه بعملية التمحيص لأى رسول وتعتبر عملية التمحيص هذه جزءا لا يتجزأ من اثبات صدق أى رسالة ، ولقد قامت قريش عن البشرية كلها فى كل زمان ومكان بعملية التمحيص هذه فلا يتصورن غرير أو جاهل أن باستطاعته أن يقول مالم تقله قريش .

ليس كاذبا :

فعندما قال سيدنا محمد أنه رسول رب العالمين وأن الوحى ينزل عليه من السماء، لم يكن باستطاعتهم أن يقولوا عنه كاذب فلم يكن فى قريش كلها من هو أصدق منه حتى لقد نعتوه قبل البعثة بأنه الامين وشهد أعتى أعدائه ونعنى به أبو لهب ، أنهم ما جربوا عليه كذبا قط .

وهكذا استبعد هذا الفرض ، وكانت ظاهرة الوحى ظاهرة مؤكدة ، فحاولوا أن يقولوا شططا ففرضوا أن يكون سيدنا محمد مجنونا ، ولكن هذا الفرض قد استبعد بدوره فما كان لمجنون أن ينطق بكل هذه الحكمة وفصل الخطاب ، وروى عنهم القرآن هذه الفرية ونفاها كما نفوها هم أنفسهم **(وما صاحبكم بمجنون)**، وهكذا سقط هذا الفرض كذلك ، وفى هذه الايات يستبعد القرآن مع قريش فرضين آخرين ، من أن يكون محمد شاعرا ، فقد عرف العرب فى الجاهلية أشخاصا قالوا الشعر ، وضمنوه صورا جميلة وخيالات وحكمة ، ولكن القرآن لم يكن من نوع الشعر الذى ألفوه شكلا وموضوعا ، فلاهو موزون مقفى على مثل ما اعتادوا من أوزان الشعر ، ولا هو يتضمن ما اعتاد الشعراء أن يضمنوه شعرهم من حب وغزل ومدح وهجاء وانما هو دعوة لرب العالمين .

وهكذا سقطت أيضا هذه الفرضية من أنه شاعر ، فافترضوا أن يكون كاهنا ولكن عهدهم بالكهنة أنهم أصحاب حرفة يتكسبون بها وسيدنا محمد لايسألهم أجرا على دعوته، بل لقد عرضوا كل صنوف الجاه والسيادة والملك والغنى على سيدنا محمد فرفض ذلك كله وأباه مؤثرا على ذلك الضيق والشدة والاضطهاد ، وليس ذلك شأن الكهان شكلا وموضوعا كذلك ، فقد كان للكهان لغة مظلمة معتمة مضطربة ، فأين ذلك من نظم القرآن واشراقه وهكذا سقط هذا الفرض بدوره .

ولما كان عهدهم بسيدنا محمد أميا لايقرأ ولايكتب ، فمن أين جاءه فجأة كل هذا العلم والنور ، وما دام انه ليس بشاعر ولا بكاهن أو ساحر ، ومادام أنه ليس كذابا باقرار الجميع فلم يبق الا التصديق بما يقول من أنه رسول كريم ، وان هذا القرآن تنزيل من رب العالمين وهذا ما نسميه بالدليل الحسابى الرياضى المنطقى ، أقوى مايرضخ له العقل من أدلة .

تمحيص الزمن :

ونحن المحدثين عندنا الدليل الذى لم يكن عند قريش ، وهو تمحيص الزمن، فبعد أربعة عشر قرنا يظل لواء الاسلام مايزيد على ربع البشر ، وهو الذى بدأ وسط بضع مئات من البشر لم تدخر وسعا فى محاولة اطفاء هذا النور الذى جاء به محمد وتحداهم القرآن بأنه متم نوره ولو كره الكافرون ، وهذا ما شهد به الزمن والأيام ندل على أن القرآن قول رسول كريم أى أنه ينطق برسالة كلف بأدائها ، وهذه الرسالة (تنزيل من رب العالمين) .

وقد حاول بعض المفسرين أن يقول أن المقصود بالرسول الكريم هو جبريل عليه السلام ولكن الايات التالية من نفى صفة الشاعر والكاهن هى التى رجحت عندنا أن المقصود هو سيدنا محمد على التفصيل السابق الذكر .

ولو تقول علينا بعض الاقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين .

لأخذنا منه باليمين : كناية عن شدة ما يلقاه من الانتقام .

الوتين : أهم شريان أو وريد يخرج من القلب أو يصب فيه ، فقد جاء فى القرآن : ((**ونحن اقرب اليه من حبل الوريد**)) .

وقال بعض المفسرين أن الوتين هو نياط القلب .

وبلغتنا الحديثة فى علم التشريح هو الأورطة أو الشريان التاجى ، وكل ذلك داخل فى المعنى المقصود وهو كناية عن ازهاق الحياة عن طريق بتر الرقبة وقطع مجرى الدم الأساسى بالتالى .

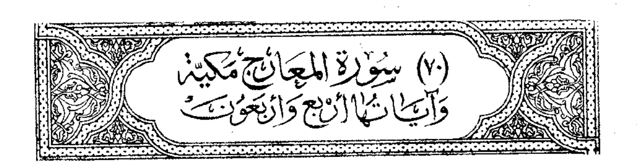
فما منكم من أحد عنه حاجزين :

اى لن يستطيع أى منكم مهما كانت قوته وكان سلطانه أن يدفع عنه بطشنا . وليس هناك ما هو آية على صدق سيدنا محمد وأن القرآن هو تنزيل من رب العالمين ، من أمثال هذه الآيات التى تدل على مدى استشعار سيدنا محمد من هول الكذب على الله وما كان الله عز وجل بالذى ينصر من يتقول عليه بغير الحق .

وهكذا بعد ان يدحض الله تخرصات المشركين من أن سيدنا محمدا شاعر أو كاهن يسوق لهم الحجة الأخيرة التى يفهمونها من غير شك ويقدرونها حق قدرها وهو أن الله سبحانه وتعالى ليس بالذى يترك سيدنا محمدا ليفترى ويقول أنه أوحى اليه مع أن ذلك لم يحصل .

وانه لتذكرة للمتقين . وانا لنعلم أن منكم مكذبين . وانه لحسرة على الكافرين . وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم .

واذا كان القرآن هو تنزيل من رب العالمين فهو نعم الذكر للمتقين الذين يشرح الله صدورهم للاسلام ، حيث تمتلىء قلوب أهل الشقاوة والتعاسة بالغيظ والحسرة وتظاهرهم بتكذيب ما جاء به سيدنا محمد، ونقول تظاهرهم بالتكذيب ، فقد كانوا فى قرارة أنفسهم لا يستطيعون أن يماروا فى صدق سيدنا محمد . ولكن الحسد والحرص على ما بأيديهم من المنافع التى كانوا يستفيدون بها من الأوضاع الفاسدة التى جاء سيدنا محمد للقضاء عليها ، كل ذلك أوقفهم من سيدنا محمد موقف المعاندة والتكذيب لما لا يكذب . فما القرآن الا حق من حق (**وانه لحق اليقين**) فسبح يا محمد وأنت تؤمن بالله الى أبد الآبدين . سبح باسم ربك العظيم . أى أعبده ونزهه .



بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا (٦) وَنَرَىٰهُ
قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)
يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى
تُـْٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧)
وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (١٨) * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥)
وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨)
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ
وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ
قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّآ ۖ
إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا
نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ
سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ (٤٤)

ســورة مكيــة :

لم يدر خلاف حول مكية السورة ، **وآياتها تنطق بأنها نزلت فى وقت متأخر** عندما احتدمت الدعوة وزاد لجاج المشركين وعنادهم وتحديهم حتى **ليتســاءلوا** فى سخرية واستهتار متى هذا العذاب الذى يعدنا به [محمــد] **ومن ناحيــة** ثانية ، فقد بدأت الرسالة تتفرع ، **وبدأ جوهر الدعوة وهو الايمان بالله وتوحيده،** يحدث آثاره فى السلوك العام للانسان بجعله مثلا أعلى فنرى صورة للانســان المؤمن وهى الصورة التى كررتها بأسلوب آخر سورة [المؤمنون] **وذلك لتثبيتهــا** فى النفوس جريا على أسلوب القرآن .

وفى السورة كأغلب السور المكية تصوير لأهوال يوم القيامة **وما ينتــاب** الكفار والطغاة والظالمين من خوف وهلع وعذاب .

سال سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة . فاصبر صــبرا جميلا . انهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا .

الســؤال أو الدعـــاء :

افترق المفسرون القدامى حول معنى هذه الآية أهى تشير الى **مجرد السؤال** أم أنها تعنى الدعاء ، بمعنى أنها تشير الى هذا النفر من المشركين الذين اتخذوا من الانذار بيوم القيامة وما أعده الله فيه من العذاب للكافرين موضوعا للسخرية والتندر والتحــدى حتى كان قائلهم يقول : على ما حكى القرآن .

ــ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينـــا حجــارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ! أما نحن فنفهم من اللفظ مدلوله الظاهر الا أن يصرفه عن المعنى الظاهر صــارف لفظى أو معنوى، ويكون المعنى أن **السؤال عن العذاب** الذى سيحل بالكافرين يتردد ، فلا تشك لحظة فى أنه سيقع ، **ولن يكون له دافع** من الله عز وجل .

واذا كان الكافرون يتصورون هذا العذاب [بعيدا] **أى مستحيلا فاننــا** نراه (قريبا) أى واقعا وحالا فلا تتعجل [يا محمــد] **واصبر صبرا جميلا وقــد** كان توجيه الحديث الى سيدنا محمد بدعوته الى الصبر **هــو ما حــدا ببعض** المفسرين الى أن يقولوا أن السائل : متى يكون العذاب ؟ هو سيدنا محمد نفسه ، ولكنا لا نطمئن الى هذا القــول فمـــا كان سيدنا محمد **يرى هذا بعيــدا أى** محــــالا .

وهكذا يجب أن يكون الفهم والتلقى عن القرآن فى مجموعة ودلالة السياق العام على المفهوم ، ولم يعجبنا فى بعض ما قرأنا فى تفسير بعض المحدثين قوله : ان السائل قد يكون أحد المشركين وفى هذهالحالة يكون تنــكيره وتجهيله هو آيــة احتقاره وازدرائه وأما اذا كان السائل سيدنا محمد فيكون التنكير هو لعظمــة سيدنا محمد ، وقد قلنا راينا فى استبعاد أن يكون السائل هو ابتداء .

من الله ذى المعارج :

ويجدر بنا أن نقف طويلا أمام هذه الآية نبدد الشكوك ، ونجلو الشبهات ، قدر استطاعتنا وفهمنا لهذه الآية ، ونعيذ أنفسنا بداءة ذى بدء من أن نتصور قولنا هو الفعل أو هو عين الحقيقة ، فانماهو اجتهاد منا قد يصيب أو يخطىء ولكن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوىوالله يعلم أن نيتنا هى ملء قلوب المؤمنين فى العصر الحديث وخاصة منشباب الجيل بالايمان والتقوى .

وصف الله بالأوصاف المادية :

(تعرج) بمعنى تصعد أى ترقى ، والمعرج مفرد المعارج معناه المصعد ، أى أن الروح والملائكة تصعد الى الله فى علاه فهل يعنى ذلك أن الله فى مكان معين تصعد اليه فيه الملائكة وتهبط منه ، وقد تكرر هذا المعنى وأمثاله (نزل) فى القرآن ، ولذلك نريد أن نقف هنا طويلا لنحذر مما قد يتصوره البعض من وجود مكان يوجد به الله ، فوجود الله فى مكان ما يعنى أنه متحيز ، أى أن له جرما وهذا ما يتنزه عنه الله سبحانه وتعالى ، فيجب أن نفهم من كل وصف لله بالعلو والفوقية أنه من حيث المعنى السمو وعلوه على جميع الكائنات بدون استثناء .

أما أنه فوق بمعنى (المكان والجهة) فهذا ما يجب أن ننزه عنه الله سبحانه وتعالى .

وفى القديم وجد من يرفضون هذا النظر ويحاولون أن يثبتوا لله كل ما جاء فى القرآن من أوصاف لذات الله ومن انله (وجها) و (يدا) و (عينا) وهو على (عرشه) وعلى (كرسيه) ولكنهم يقولون على سبيل الاحتياط أن يد الله ليست كاليد التى نعرفها ، وأن الكرسى والعرش شيئان لا يمكن انكارهما أو صرفهما الى معان مجردة ، وان كانتكيفيتهما مجهولة ، وحجتهم فى ذلك أنه مادام القرآن قد ذكر هذه الألفاظ فيجبأن نأخذها بمدلولها ، والا انتهينا الى اهدار الدين من أساسه ، وعلى هذه الخلافات أن جازت فى الماضى فهى لم تعد جائزة فى عصرنا الحديث ، بعد أن أصبحت عصور الوثنية بكل مخلفاتها وتصوراتها من آثار الماضى البعيد جدا جدا وذلك بفضل الاسلام خاصة والذى حرم أن يرمز الى الله بأى صورة ، فضلا عن تمثال ، وقد أصبحنا من ناحية ثانية نعلم من شكل الفضاء الخارجى وموقع الأرض من هذا الفضاء ما لم يعلمه الأقدمون .

فنحن نعلم الآن أن الأرض ليست الاكوكبا من هذه الملايين من الاجرام السماوية التى لا حصر لها والتى نراهافوق رؤوسنا ونحن نعيش على واحدة منها ، وأنه ليس هناك فوق أو تحت الابالنسبة للانسان فى لحظة ومكان معينين،

والا فكل شيء يدور ، وما هو تحت يصبح فوق والعكس بالعكس ، وما هـو شرق يصبح غربا وهكذا .

والسماء أو بالأحرى الفضاء المحيط بالأرض هو كرة لا عالى لها ولا سافل ، فعندما نتحدث عن علو الله فهو علو غير مكانى وفى غير جهة ، ولقد كان من غفلة بعض الملحدين أن سأل سائل منهم أحد ملاحى الفضاء ، عما اذا كان قـد رأى الله فى الفضاء الخارجي ، فنفى وجود الله لأنـه لم يره ، وهـذه كلهـا سذاجة أو بالأحرى بلاهة ساقهم اليها هذه الأقاويل الخاطئة التى تقول ان الله (فوق) مع أن المؤمن الحق لا يعرف الله بذاته بل يعرف الله بصفاته تلك التى تحـدث عنهـا القرآن بشتى الأساليب .

ـ ((**فاينما تولوا فثم وجه الله** ، أى قدرة الله وملكوته ، وعندنا ان القرآن الكريم تضمن وصفا لله عز وجل لا يستطيع أعتى عتاة المـادية والالحاد أن يمارى فيه ، وهو قول القرآن فى وصف الله عز وجل بأنه :

((هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)) .

فما من أحد يمكن أن يمارى من الناحية العلمية المـادية البحتة ان هـذا الكون كان حيث لم يكن وأنه سائر الى نهاية ، ويكون الله عز وجل هـو الأول وهو الآخر ، وهو الذى نرى قدرته مبثوثة حولنا وفى أنفسنا وفى كل شيء (فهو الظاهر) ومع ذلك فهو أخفى من الخفاء بحيث (كما يقول الأصوليون) قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار .

هـكذا يجب أن نفهم :

هكذا يجب أن نفهم أمثال ((**الله ذى المعارج**)) فليس ثمة صعود الى ذاتـه العلية ، وانما هو كناية عن علوه عن كل خلقه علوا كبيرا .

وما دام القرآن يخاطب الناس بلغتهم ومفاهيمهم فلا مناص من هذه التشبيهات والكنايات ، على أن لا يغيب عن بالنا لحظة واحدة كل ما يتفق وجلال الله وعظمته وكماله وتنزهه عن كافة الأغراض من فوقية وتحتية وقدام ووراء ، ويمين وشمال وما أشـبه .

تعرج الملائكة والروح اليه . فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة :

طالما استشهدنا بهذه الآية الكريمة فى اظهار الفارق بين أسلوب القـرآن فى التعبير ، وبين أسلوب العهد القديم ، وهو الكتاب المقدس لليهود والذى يزعمون أنه التوراة ، ففى هذا الكتاب حديث عن الله أنه قد خلق الدنيـا فى ستة أيام ،

والمطالع لنصوص هذا الكتاب لا يكون عنده شك فى أن هذه الستة أيام هى من نوع أيامنا المعتادة ، اذ يقال فى كل يومهنها أنه كان ذا صباح ومساء ثم يقال ان الله قد (استراح) فى اليوم السابع وهو يوم (السبت) كأن الله سبحانه وتعالى قد تعب فارتاح ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وقد ذكر القرآن الكريم ، ان الله قد خلق الدنيا فى ستة ايام كذلك ، ولكنه حرص على أن يبين للناس ، أن اليوم عند الله ليس من نوع أيامنا فقال فى بعض الآيات :

— وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون :

وفى هذه الآية الكريمة يبين أن بعض الأيام مقداره خمسون الف سنة .

ويصل تجهيل مقدار اليوم فى حساب الله الى ذروته ، عندما يسأل البشر يوم القيامة كم لبثوا فى الأرض فيقولون له لبثنا يوما أو بعض يوم ، فيكون الجواب : ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون .

وهذا يدل على أن عمر هذا الكون أو على الأقل عمر البشرية على ظهر الأرض لا يصل أن يكون يوما أو بعض يوم وانما هو قليل : وحتى كلمة ليل قد استعملت لافهام البشر ومن وجهة نظرهم : والا فبالنسبة لله عز وجل لا يوجد ماض ولا مستقبل وبالتالى فهو خارج عن الزمان والمكان ، وبهذا الفهم يجب أن نفهم معنى قول القرآن الكريم « فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة » فقد كان العرب الذين جاء القرآن بلسانهم يتصورون أن الألف هو نهاية العدد فعندما يقول لهم القرآن « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » انما يريد أن يفتح آذانهم لآفاق جديدة بعيدة . بعيدة . أما عندما يصل الى وصف احد أيام الله بانه قدر خمسين الف سنة فقد أراد أن يطلع العرب على مقدار ملكوت الله من حيث الاتساع والعظمة والانفساح .

أما نحن اليوم الذى أعلمنا من شئون الكون ما لم يعلم الأقدمون فالخمسون الف سنة تصبح ضوئية (الضوء ينتقل بسرعة ٣٠٠ الف كيلو فى الثانية الواحدة) اى ٣٠٠ الف كيلو فى ٦٠ ثانية × ٦٠ دقيقة × ٢٤ ساعة × ٣٦٥ يوما × ٥٠ الف سنة ، ولا حاجة بك لاجراء هذه العملية الحسابية فهى لا تكاد تذكر بجانب العمليات الحسابية التى أصبحت تجريها العقول الالكترونية ، والمهم هو أن تدرك الاشارة الى ملكوت الله وعظمته .

الروح : يختلف المفسرون القدامى فى المقصود من الروح فى هذه الآية فيقولون أن المقصود به هو جبريل عليه السلام ، ولهم على ذلك شواهد من القرآن اشير بها الى جبريل بكلمة الروح ، ومفسرون آخرون قالوا بأن الروح هو صنف أعلى من الملائكة ، ونحن كما عودنا القارىء لا نخوض كثيرا فى هذه الغيبيات .

كلمــة عن الملائكة :

لا نريد أن نخوض فى الكلام على الملائكة فكل حديث عنهم رجم بالغيب ، ونحن نؤمن بوجودهم ايماننا بأرواحنا التى بين جنبينا ، فذلك فرع من ايماننا بالله ، ولكننا من ناحية أخرى نحب أن نقرب معنى من معانى الملائكة الى الذهن الحديث ، فمجمل ما يستفاد من دور الملائكة فى الوجود أنهم بعض خلــق الله ليدبروا أحــوال الكون باذن الله وبأمره فثمة ملك يختص بانهاء الحياة وآخر لبعث الحيـاة من جديد ، وثالث لتوجيه الرياح والأعاصير وانزال الامطار وهكذا ، والمــاديون فى العصر الحديث يحدثوننا عن **«النواميس»** وان كل الظواهر الطبيعية تتم بواسـطة النواميس أى قوانين الطبيعة ، ولو سألتهم وما هذه النواميس التى تتحـدثون عنها ، ومن الذى جعلها نواميس فلا يحيرون جوابا أنها هكذا .

وأنت ترى أن الأمر لا يعدو أن يكون اســتبدال لفظ مكان لفظ ، والقــرآن الكريم لا يستعمل كلمة نواميس للدلالة على قوانين الطبيعــة وانمــا يســتعمل كلمة مرادفة لها من حيث الدلالة على المعنى المقصود وهو كلمة « **سنن** » « **سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** » .

ولا يستعصى على العقل أن يتصور أن السنن هى النواميس .. هى الملائكة فى وظائفها ، ويبقى ان كنه الملائكة وماهياتهم من الغيبيـات التى لا يحيط بهـا العقل ولكنه يدرك آثارها والله تعالى أعلم .

يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا انها لظى . نزاعة للشوى . تدعوا من أدبر وتولى . وجمع فأوعى .

المهل : قيل كدر الزيت وقيل العفنة المذابة .

العهن : الصوف الأحمر المنفوش .

لظى : أى تتأجج باللهب وشدة الحرارة .

نزاعة للشوى : قيل أن الشواة فروة الرأس وقيل الوجه ، وقيل اليـدان والقدمان أى الأطراف وأحسن ما قيل هو أن الشوى هو الاصـابة فى غير مقتل.

فأوعى : أى جمع المــال واكتنزه ولم يؤد حق المال (بالزكاة) .

أهــوال يوم القيــامة :

فى هذه الآيات الكريمة صورة أخرى لمـا يقع للأرض فى يوم القيامة ممـا تحدثنا عنه فى كثير من السور المكية حيث تتبدل الأرض غير الأرض ، والسمـاوات غير السماوات فالسماء تمور مورا والجبال تنسف نسفا حتى لتصبح هباء منبثـا

أشبه بشعيرات الصوف ، وحيث يستولى الفزع على الكافرين والطغاة والمتجبرين والظلمة والفاسقين ، وقد وصف القرآن هذه الطوائف بكلمة وهى (المجــرمون) فصور حالتهم النفسية فأبدع التصوير كما هو شأنه ، فبين كيف ان الواحــد من هؤلاء لا يعود يفكر الا فى خلاص نفسه ، حتى ولو ضحى فى سبيل ذلك بالأهــل والزوجة والولد ، بل وهو على استعداد أن يذهب الى أبعد من ذلك لو استطاع الى ذلك سبيلا ، وهو أن يهلك كل من فى الأرض ليشـــترى نجاته ، ولــكن هيهات هيهات فالمصير الحتمى هو النار المتأججة فى هذا اليوم والتى أعدت للكافرين ، حتى لكأنها تدعوهم بلسان الحال .

تلظى : أى تتوهج وتتأجج من شدة الحرارة .

نزاعة للشوى : وقد ذكرنـــا ، انمفسرى الألفاظ القدامى حرفيا ، قالوا أن الشوى جمع شواة وقد اختلفوا فى معنىالشواة وهل هى فروة الرأس أو الوجه أو الأطراف وقد اخترنا قول من قال أن الشوى معناها الاصابة فى غير مقتــل لأن ذلك احـــد خصائص جهنم اذ لا تميت من تحرقهم ، والله تعالى أعلم .

ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصــلين . الذين هم على صــلاتهم دائمــون والذين فى أموالهم حق معــلوم للسائل والمحروم والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . أن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هملفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمنابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأمانـــاتهم وعهدهم راعون .والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جناتمكرمون .

الغـــريزة البشرية :

يحدثنا القرآن الكريم بعد ذلك مسجلا احدى الغرائز البشرية من أن الانسان خلق هلوعا وأحسن تفسير لمعنى (الهلع) هو ما تضمنته الايتان التاليتان :

((اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا)) .

أى اذا أصابه سوء من أى نوع كان أن واشتكى ورفع صوته بالصراخ الى عنان السماء ، فاذا ناله خير ضن به علىالاخرين أن يشتركوا معه ولو فى جـزء ضئيل مما أفاء به الله عليه .

وهى حقيقة ملاحظة ومشاهدة حتى غدت مألوفة ومما يتندر بها النـــاس قاطبة فأهل الشح والبخل هم الأغنياء ، واذا شذ غنى عن ذلك فهذا هو الاستثناء وليس القاعدة وحجة الأغنياء فى بخلهم،شـــحهم انهـــم لو لم يفعلوا ذلك لمـــا أصبحوا أغنياء ولصاروا فقراء .

اثر التربيـــة فى النفوس :

بعد أن يسجل القرآن الكريم هذه الغريزة البشرية يستثنى منهـــا المؤمنين الذين يعدد صفاتهم ، مثبتا بذلك حقيقة أخرى من حقائق الحياة ، وانه عن طريق التربية والاكتساب والاعداد يصـــبح من المستطاع السيطرة على الغرائز وتشذيبها وتهذيبها ، وهذا هو عمل التربية .

فالذين يدعون الى ترك الانســـان الى غرائزه بدون حدود أو ســـدود ، يخرجون الانسان عن انسانيته ويسقطون أحد أركان الطبيعة القائمة بالنســـبة للانسان على التربية والتعليم .

والحق أن الطبيعة تقـــوم على عاملين اثنين يحدثان فى الوجود التغيير والتبديل فبالنسبة للجمادات نفسها نلاحظ قـــوتين فاعلتين فى التأثير عليهما ، الأول الزلزال والبراكين والعواصف والأعاصير وهذه لا نعرف متى تجىء ولا من أين تجىء ولا كيف تجىء وهى مع شدة تأثيرها فهى ليست بالعنصر الحاســـم فى ســـير الطبيعة : وانما العنصر الأفعل هو ما يسميه الجغرافيون بفعل (التحات والتعرية) وهـــو ما تحدثه الرياح والساقية والمياه الجارية عبر ألوف السنين من تسوية الســـطوح المدببة : واذابة الجبال الشامخة .

والى هذين العنصرين معا يعود شكل الأرض على ما هى عليه ، وكذلك الشأن بالنسبة للانسان وكل ما يتصـــل به من كائنات .

أنظر الى قطعة من المـــاس ، انها شىء موجود بالطبيعة ولو رأيتـــه فى حالته البدائية ، لأنكرته وليس الا عملية التشذيب والصقل التى يجريها الانســـان على قطعة المـــاس هو الذى يكسبها هذا البريق وهذا الوهج ، وكم للطبيعـــة من جمال ساحر ، ولكن يد الانسان وعمله وفنه هو الذى يضفى على هذا الجمال بهـــاء وروعة .

الدين ذروة التربيـــة :

ولا جدال فى أن الدين هو ذروة مايملك البشر من وســـيلة للتربيـــة وبقطع النظر عن مصدر الدين الذى قد يختلف عليه .

فمما لا يختلف عليه أن الدين فيه حكمة الدهور وما برهنت الأيام على صحته وجدواه ، اذ أنه لا يصح فى المدى البعيد سوى الصحيح (فأما الزبد فيذهب جفـــاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) وهو ما يسمى بلغة العلم الحديث (البقـــاء للأصلح) وعلى ضوء هذا الفهم نتابع آيات السورة الكريمة التى تعدد لنـــا العناصر الكريمة التى تخرج الانسان من ضـــيق الغـــرائز الى رحاب الايمـــان والانسانية الكريمة .

الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون :

بدأ باستثناء البشر الذين يصلون ويعكفون دوما على الصلاة من عداد البشر الخاضعين لغرائزهم .

ذلك أن الصلاة اذا اديت بحق واقتناع بكل تفاصيلها وأحكامها ، فهى كفيلة بأن تربى النفوس تربية عالية اذ أنها جماع الفضائل **(ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)** وليس ذلك الا بعض آثار الصلاة والتى سنعود فى مناسبة أخرى للتحدث عنهـــا .

والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحـــروم : واذا كانت الصـــلاة هى الدواء الشافى للجزع ونوائب الدهر فان الزكاة بأنواعها هى علاج الشح والبخل الذى هو أعظم منقصة يمكن أن تصيب الانسان وسنتحدث فى مناسبة أخرى عن فريضـــة الزكاة حيث جاء الاسلام بنظام لم يسبق اليه ولم يلحق به وهو نظـــام الزكاة ، وقد عرفت البشرية قبل الاسلام وبعده نظام الصدقات والبر والاحسان ، ولكن نظام الزكاة يفترق عن نظام الصدقة .

فالصدقة منحة تعطى أو لا تعطى . أما الزكاة فنظام مقرر يجعل لمستحقيها حقا فيها وقد أشارت هذه الآية الى طرزين فقط ممن يستحقون الزكاة وهمـــا (السائل أى الفقير المحتاج) (والمحروم) وهو طرز من الناس يعف عن السؤال حتى ليحسب من الأغنياء المستغنين أى أن الاسلام منذ أربعة عشر قرنا قد جاء يحارب العوز والحرمان ويجعل المـــال مال الله ويفرض حصـــة معينـــة فى كل ما يملكه غنى قادر لصالح كل فقير ومحروم ، وللحديث بقية .

والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . ان عذاب ربهم غير مأمون .

وبعد أن ذكر القرآن ذروة الايمـــان كما تتمثل فى الصلاة والزكاة ، عاد يفصل القول وينوه ببعض مظاهر الايمان الجديرة بالتسجيل ، فلا ايمان بالله الا اذا آمن الانسان بيوم القيامة ، يوم الحساب على ما قدمت يد الانسان ، وسمة الايمان بيوم القيـــامة هو التـــوجس مما قد يصـــيب الانسان ، اذ يتوقف على ما يحسه الانسان من خشية هذا اليوم ، سلامته من الزلل ، ولا يجب أن يتصور انسان كائنا من كان أنه ناج من الحساب والمؤاخذة الا بفضل من الله ونعمة ، فعلى الانســـان أن يظل حياته وحتى النفس الأخيره يرجو رضوان الله ورحمته .

ـــ والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون .

تنظيم الغريزة الجنسية :

ينتقل القرآن بعد ذلك الى ظاهرة أخرى من ظواهر المؤمنين وهو وضعهم القيود والحدود لغريزتهم الجنسية فالاسلام على خلاف المسيحية والبوذية لا يحارب الغريزة الجنسية ، لأن ذلك معناه محاربة الحياة نفسها ، وقد فشـــلت المســـيحية

فى هذه الحرب ، وقام الاصلاح البروتستانتى على السماح للقساوسة والرهبان على الزواج وذلك درءا للمفاسد التى كانتترتب على عدم الزواج .

واليوم نسمع عن لحاق رجال الدين الكاثوليك باخوانهم البروتستانت ، وهو عين ما حدث بالنسبة للبوذيين .

وقد أدرك الاسلام هذه الحقيقة فلم يصادر الغريزة الجنسية ، وانما قيدها ونظمها فقصرها على شريكة الانسان بالزواج .

أو ما ملكت أيمانهم :

وجاء الاسلام ونظام الرق نظام انسانى معترف به منذ قرون وأجيال حتى أصبح الأساس لعملية الانتاج ، فواجهه الاسلام بأسلوبه فى التدرج وقد تحدثنا فيما مضى كيف ان الاسلام بحق يعتبر محرر العبيد ، وفى هذه الآية التى نحن بصددها أباح الاسلام معاشرة الاماء ، وقد لا يعرف الكثيرون ان الجارية اذا رزقت مولودا تصبح (أم ولد) فلا يجوز بيعها ، وكان المتبع غالبا فى هذه الحالة أن تحرر الجارية ويتزوجها سيدها .

فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون :

فى هذه الحدود التى بيناها لا جناح على المؤمن أن يشبع غريزته الجنسية ، ولكن محاولة اطلاق الغريزة بلا قيود أوحدود أو سدود فيه هدم للمجتمع الذى يقوم على سلامة الأسرة ووحدتها ، وبالتالى المجتمع كله وهو ما نراه واقعا فى هذه المجتمعات التى قامت تنادى بالحرية الجنسية حيث أصبح القلق والاضطراب والاخلال بالأمن هو طابع الحياة . وعلىهذا يؤكد القرآن ويدمغ المتجاوزين بأنهم معتدون .

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون :

وينتقل القرآن بعد ذلك الى التحدثعن حلية المؤمن أو بالأحرى علامة المؤمن وهو أن يكون أمينا يأتمنه الناس علىأموالهم وأحوالهم وأسرارهم ، فيحفظالسر، ويصون الوديعة ، واذا عاهد على أمر ،أو تعاقد على أمر وفى بعهوده وعقوده .

وقد شدد الاسلام على وجوب المحافظة على العهود والمواثيق ووجوب رد الأمانات ليس فقط بالنسبة للفرد المسلم ، بل وللجماعة الاسلامية كلها وذلك بالمحافظة على المعاهدات وقد ورد هذا الواجب الشديد فى أكثر من آية من آيات القرآن .

— وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم . ٩١ ك النحل ١٤

— واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا . ١٥٢ م الأنعام ٨

— وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسـئولا . ٣٤ ك الاسراء ١٧

— والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ١٧٧ م البقـرة ٢

— والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ٨ ك المؤمنون ١٨

عدم الوفاء بالعهد :

وبلغ من تغليظ القرآن وتشديده على المؤمن للوفاء بوعده وعهده ، ان جرده من صفة الايمان ونعته بأخس الصفات وهو النفاق ، ان هو أخلف الوعد أو العهد والاتفاق . فقال سيدنا محمد وهو أحكم القائلين ((**آية المنافق ثلاث ، اذا حـدث كذب : واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان**)) وفى رواية أخرى **اذا حدث كذب : واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر**)) .

الوفاء بالالتزامات أساس المجتمع :

وقد بقى ان تعرف أن أساس العمران البشرى يقوم على الوفاء بالعهـود والعقود وهو ما أصبح يسمى بلغة القانون الحديث ((**الالتزامات**)) هى أسـاس المعاملات اليوميـة .

والذين هم بشهاداتهم قائمون :

ومما يتصل بالأمانة وتطبيقاتها ،اداءالشهادة على وجهها الصـحيح اذا دعى الانسان لأدائها ، فيجب أن يؤديها بصدق وأمانة ، واعتبر القرآن التخلف عن أداء الشهادة ، مبعثا للأثم ، فقال وقوله الحق:

— ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه .

وقد تنبه واضعو القوانين الوضعيةفى كافة أنحـاء العـالم لمـا دعا اليـه القرآن منذ أربعة عشر قرنا فوضعوا عقوبة مغلظة على شهادة الزور ، كمـا وضعوا العقوبة على من يكتم الشهادة .

ويقول بعض المفسرين القـدامى ، ان المقصـود بالشهادة هنا هو النطق بالشهادتين (أشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبـده ورسوله) .

والمعنى الأول هو الأولى والأظهر ، لأنه المتفق مع السياق .

ـ والذين هم على صلاتهم يحافظون :

عود الى الاجمال بعد التفصيل ، فقد ذكرنا من ان المحافظة على الصلوات هى مصدر كل فضيلة ، وقد عاد القرآن لينبه الى ذلك .

ـ أولئك فى جنات مكرمون :

ذلك هو الجزاء الحق وخاتمة المطاف لمن اتصف بهذه الصفات . وقد ذكرت هذه الصفات مرة أخرى بمثل هذا الترتيب تقريبا فى سورة (المؤمنون) . وختمت بقولها عن المؤمنين المتحلين بهذه الصفات « **أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** » وهكذا يكرر الله وعده للمـــؤمنين فى كل مناســـبة بأن مأواهم الجنة هم فيها خالدون .

فما للذين كفروا قبلك مهطعين . عن اليمين وعن الشمال عزين . أيطمـــع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم . كلا انا خلقناهم مما يعلمون . فلا أقســـم برب المشارق والمغارب انا لقادرون . على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعا . كأنهم الى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . ذلك اليـــوم الذى كانوا يوعدون .

مهطعين : اى منطلقين .

عزين : أى متفرقين .

الأجداث : القبـــور .

نصب : الأصنام والأوثان .

يوفضـــون : يسرعون .

تصور هذه الآيات مجتمع قريش ابان الدعوة المحمدية ، وكيف كانت قريش اذا رأت النبى صلوات الله عليه هرعوا نحوه لعلمهم بفضله وكمـــاله فاذا دعاهم الى التوحيـــد وتلا عليهم القرآن ســـدوا آذانهم وعقـــولهم وتفرقوا عنه وراحـــوا يلجون فى عنادهم وكفرهم ، وبلغ من هذيانهم أن قالوا ، اذا كان ما يدعو اليـــه محمد من وجود جنة فى الآخرة ، فهى انما خلقت لأمثالنا فنحن الناس وغيرنا ليســـوا بالنـــــاس .

هكذا بلغ الصلف والاستعلاء بقريش ، فيوقظهم الله من غفلتهم (كلا) ليس الأمر كما يتوهمون ويزعمون ، ولكى يرد القرآن عليهم تكبرهم واستعلاءهم يذكرهم

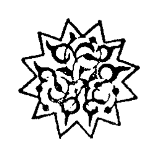
بالأصل الذى نشأوا منه . **(ألم نخلقكم من ماء مهين)** **(فلينظر الانســــان مم خلق • خلق من ماء دافق)** .

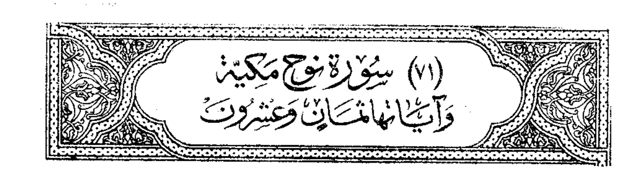
ولكنه فى هذه السورة يومىء الى هذا المعنى ايماء **(انا خلقناهم مما يعلمون)** وهذه احدى خصائص الاعجاز القرآنىحيثيصرح فى بعض الآيـــات بما يرمز له فى آيات أخرى وهكذا .

فلا أقسم برب المشارق والمغارب :

احدى صيغ القرآن عن طريق ذكر القسم أو نفيه لاسترعاء الانتبـــاه الى احدى ظواهر الطبيعة ، وهنا يلفت النظر لتعدد مشارق الأرض ومغاربهـــا ، نظرا لكرويتها ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، وقد كان القدامى يرون فى هذا التعبير **(المشارق والمغارب)** **صيغةبيانية** ، أما نحن اليوم فندرك أنه حقيقــة علمية فالشمس تشرق على الأرض كل يوم فى مشرق جديد ، وكذلك غروبها .

وتأتى باقى الآيات حتى نهاية السورةوعيد للكفار ان الله ســبحانه وتعــالى قادر فى الدنيا على أن يهلكهم ويأتى بخير منهم (وما نحن بمسبوقين) اى ليس سوى الله وحده من يقدر على فعل ذلك ، ويطلب القرآن من سيدنا محمد أن يمهــل الكافرين : والمعاندين فى لهوهم وانحرافهم ، فالساعة آتية لا ريب فيهـــا يوم يبعث هؤلاء الكفار من مراقدهم فيخفون سراعا كما اعتادوا أن يفعلوا فى الدنيـــا وهم يهرعون الى أصنامهم واوثانهم • فاذا بالحقيقة تفاجئهم ، وأنه الحساب والدينونة الذى طالما سخروا منه : فينعكس فرحهمالى حــزن وكبرياؤهم الى ذل وقانا الله واياكم شر هذا اليوم العظيم •





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ
ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ
ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا
كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا
وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا
تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

سورة مكية :

مكية باجماع الاراء ، وهى تتضمن الحديث عن سيدنا نوح والاشارة الى قصته من مبدئها الى منتهاها ، وهى ككل قصص الانبياء فى القرآن الكريم تساق لتحقيق هدفين أساسيين ، الاول هو وحدة الدعوة الدينية السماوية ، منذ كان الانسان انسانا ومنذ كانت بعثة الأنبياء والرسل . فالجميع منذ أقدم العصور واختلاف الأزمنة والأمكنة ، قدعوا الى عبادة الله الواحد الاحد ، واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ليتحقق للبشر بذلك سعادة الدنيا والاخرة معا .

أما الهدف الثانى من قصص الانبياء . فهو التسرية عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبقية المؤمنين والمجاهدين فى سبيل الحق أى الله وأن طريقهم سيكون دائما مليئا بالصعوبات والمعوقات وأن أهون ما سيلقونه هو السخرية منهم واستصغار شأنهم ، ولكن العاقبة ستكون دائما هى انتصارهم المحقق ، وارتفاع كلمة الحق التى هى كلمة الله .

قصة سيدنا نوح :

وقصة سيدنا نوح كما وردت فى القرآن تتلخص فى انه فى مكان ما وزمان ما (جريا على أسلوب القرآن من انه ليس كتاب تاريخ وانما هو تذكرة وموعظة) ارسل سيدنا نوح الى قومه (يدعوهم الى ترك عبادة الاصنام والاوثان ، وافراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، فأنكر قومه هذه الدعوة وسخروا منها ، فما هو هذا الاله الواحد غير المنظور الذى يدعى أنه مبعوثه ، وبطبيعة الحال يكون المنتفعون من عبادة الاصنام كالكهنة وبعض الحكام الطغاة والأثرياء اعدى اعداء هذه الدعوة الجديدة الى النور والحق التى تسوى بين الناس فى عبوديتهم لله ، فتراهم يستنكفون من هذه الدعوة التى تقوم على هذا الأساس ، ويأخذون على النبى والرسول ان أول من أتبعه وأصاخ لدعوته هم من صغار القوم والضعفاء والعبيد . وهكذا وقف قوم نوح منه موقف العداء ، وازدادوا تمسكا بمعتقداتهم الفاسدة ، وشاءت حكمة الله عز وجل أن يفنى هذا الجيل من البشر عن طريق الطوفان أى الاغراق بالماء ، فأوحى الى سيدنا نوح أن يصنع سفينة ، ولابد أن تكون هذه أول سفينة عرفها البشر ، فقد راح قوم نوح يسخرون من هذا الذى يصنعه نوح ، ولكن نوحا صبر كما يصبر كل مجاهد ، ومضى فى اتمام ما أوحى اليه ان يتمه ، وهو بناء هذا الفلك (السفينة) حتى اذا فرغ من بنائها ، شحنها كما أوحى اليه بأزواج من الكائنات الحية كلها ، حتى اذا حانت الساعة الموعودة ، دخل نوح الى السفينة ومعه كل من آمن بدعوة الحق وهم بطبيعة الحال نفر قليل ثم بدأ الطوفان ، أمطارا تهطل من السماء ، ومدا يغمر الارض ، حتى غرق كل من كان حيا ، الا نوحا ومن معه فقد نجوا لركوبهم السفينة ، التى قامت على سطح الماء بطبيعة الحال حتى انتهى الطوفان ، فهبط نوح ومن معه الى الارض بسلام ، وبدأ عمار الكون مرة أخرى وقد ورد اسم نوح فى القرآن ٤٣ مرة ولكن القصة السابقة كما أشرنا اليها ذكرت

بالتفصيل فى سورة هود ، وهو ما يساق على فهم الاشارات الى وقائع القصة كما وردت فى سـورة نوح ولذلك نثبت هنـاما جاء فى سورة هود : ـ

ـ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضـل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسئلكم عليه مالا ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للـذين تزدرى أعينـكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين . قالوا يا نوح قـد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعـلى اجرامى وأنا برىء مما تجرمون . وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قـال ان تسـخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنـه وكان فى معزل يا بنى اركب معنـا ولا تكن مـع الكافرين . قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيـل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقـوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم . تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هـذا فاصبر ان العاقبة للمتقين . .

فى تواريخ الأمم والشـعوب :

وقد جاءت قصة الطوفان فى تاريخ الشعوب القديمة كالهنود والبابليين ، وقد احتوى تاريخ اليهود المسمى بالعهد القديم ، تفصيلا لقصة نوح ، ولكنه ككل

ما اشتمل عليه هذا الكتاب ملىء بالكفريات والعبـــارات التى لا تليق بكمال الله سبحانه وتعالى تنزه عما يقولون وعلا علوا كبيرا ، كقولهم فى سبب الطـــوفان ، ان الله ندم على خلق الانسان فقرر ان يهلكه ، وهو قول هراء بطبيعة الحـــال ، ليس فقط لمـــا يتضمنه من الاجتراء على الله عز وجل ، بل لأنه يخالف ما حدث ، اذ لو شاء الله أن يهلك البشر جميعا لمـــا كان هناك معنى لانقاذ نوح ومن معه ليعيدوا تعمير الكون ببنى الانسان ، **والبك ما تضمنه العهد القديم بهذا الصـــدد لتتبين بنفسك جمال القرآن ومعجزته الكبرى ليس فقط من حيث البلاغة والبيـــان ولكن من حيث سرده الوقائع والحقائق فى ايجاز وجلال بعيدا عن كل حشو وتزيد وتفصيلات لا غناء لها فى حقيقة الموعظة والأثر المطلوب من ذكرها ، واليك نص ما جاء فى هذا العهد القـــديم كتاب اليهود ونربأ بأنفسنا أن نسميه كما يسميه اليهود بالتوراة : لأن الذى لا شك فيه أن التوراة بنص القرآن الكريم تتنزه عن هـــذا اللغو واليك النص بعد تجاوز فصله الأول الذى تضـــمن سبب غضب الله على البشر . كان نوح رجلا برا كاملا فى أجياله وسلك نوح مع الله . وولد نوح ثلاثة بنين ساما وحاما ويافث . وفسدت الأرض أمـــام الله وملئت جـــورا . ورأى الله الأرض فاذا هى قد فسدت لأن كل جسد قد أفسد طريقه عليها . فقال الله لنـــوح قد دنا أجل كل بشر بين يدى قد امتلأت الأرض من أيديهم جورا فهأنذا مهلكهم مع الأرض . وأصنع لك تابوتا من خشب قطرانى واجعله مساكن وأطله من داخـــل ومن خارج بالقار . كذا تصنعه ثلاثة مائة ذراع طوله وخمســـون ذراعا عرضـــه وثلاثون ذراعا سمكه . وتجعل طاقا للتابوت والى حد ذراع تكمله من فوق واجعل باب التابوت فى جانبه ومساكن سفلى وثوانى وثوالث تصنعه . وهأنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل ما فى الأرض يهلك . وأقيم عهدى معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك معك . ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين من كل تدخل التابوت لتحيا معك ذكرا وانثى تكون . من الطير بأصنافها ومن البهـــائم بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل اليك اثنان من كل لتحيا . وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه اليك فيكون لك ولهم مأكلا . فعمل نوح بحسب كل ما أمره الله به هكذا فعل .**

وكان نوح ابن ست مئة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض . ودخل نوح التابوت هو وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان . ومن البهـــائم الطاهرة ومن البهائم التى ليست بطاهرة ومن الطير وجميع ما يدب على الأرض . دخل التابوت اثنان اثنان الى نوح ذكورا واناثا كما أمر الله نوحا . وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض . فى السنة الست مئة من عمر نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر منه فى ذلك اليوم تفجرت عيون الغمر العظيم . وتفتحت كوى السماء . وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة . وكثرت المياه جدا أو تعاظمت على الأرض فسار التابوت على وجه المـــاء . وكثرت الميـــاه جدا جدا على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت السماء كلهـــا . وعلت الميـــاه خمس عشرة ذراعا على الأرض وتغطت الجبـــال . فهلك كل ذى

جسد يدب على الأرض من الطير والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التى تزحف على الأرض والناس كافة . كل من فى أنفه نسمة حياة من كل من فى اليبس ماتوا . وذكر الله نوحا وجميع الوحوش والبهائم التى معه فى التابوت فارسل الله ريحـا على الأرض فتناقصت المياه . وانسدت عيون الغمر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء . وكانت المياه تتراجع عن الأرض كلما مرت وعادت ونقصت الميـاه بعد مائة وخمسين يوما . واستقر التابوت فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر منه على جبال أراراط . وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين منه جفت الأرض . فخاطب الله نوحا قائلا : أخرج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك . وجميع الوحوش التى معكمن كل ذى جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعى على الأرض أخرجهن معك ليتوالدن فى الأرض وينمون ويكثرون عليهـــا .

وعلى ضوء هذا البسط الكافى لقصةسيدنا نوح ، نشرع بعون الله فى تفسير آيات الســـورة .

ـ انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم انى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون .

نوح رســـول لقـــومه :

يفهم من هذه الآية ان نوحا عليه السلام قد أرسل الى قومه ، أى انه لم يكن رسولا للانسانية كلها كسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن هنا دار الجــدل حول ما اذا كان الطوفان قد أغرق قوم نوح وبلادهم فقط أم أنه عم البشرية كلهــا وترجيح أحد القولين رجم بالغيب فمن ناحية لم يكن البشر فى القديم موزعين كمـــا هو اليوم على قارات الدنيا الست ، ولميكونوا بهذه الـــكثافة بطبيعة الحـــال وهكذا يمكن الجمع بين أن يكون الطوفان قاصرا على قوم نوح وأرضهم وأن يكونوا هم كل البشر فى عهدهم وتكون أرضهم هىما عرف من الأرض فى زمانهم وقد عبر القرآن الكريم بكلمة الأرض وهو يعنى اقليما محددا كمصر مثلا .

ـ وان فرعون لعـــال فى الأرض .

ـ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض .

ـ قال اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم .

وهكذا نقف عند حد القرآن الكريم من أن نوحا أرسل الى قومه ، وأن طوفانا قد أغرقهم وأغرق بلادهم وقضى على كل من فيها وما فيها ، وبالنسبة لمـــا يقوله اليهود فى كتابهم ، **فنقف حيث أمرنا أن نقف فلا نصدق ولا نكذب فى كل ما هو جائز ومحتمـــــل .**

وقد اعتدنا أن نضع أمام القارىء الحديث آخر معطيات العلم ليفكر على ضوئها بما يشاء ، ويقرر علماء الجيولوجيا أن سطح الكرة الأرضية ، قد غطى بالجليد أكثر من مرة ، بحيث هلك كل كائن‌حى على سطحهـــا ، كما أنهم يعثـــرون دوما على بقايا كائنات بحرية فوق قمم التلال والجبال مما يدل على أنهـــا كانت مغمورة بالمـــاء ، وفى مصر على سبيل المثال يتحدثون عن وجود البحر فى منطقـــة أسوان يوما ما ، اذ يجدون بين الصخور ما يدل على ذلك ، ولقد سمعنا وعاينـــا فى هذه الأيام الأخيرة ، كيف طغت مياه البحر على مدن فى باكستان الشرقية فأهلكت من فيها واختفت مدن وقرى من الدنيا وكأنها لم تكن .

بلاغة القـــرآن :

وتمضى آيات القرآن الكريم فى تلاحق فتنتقل بنا من مشهد الى مشـــهد آخر فى الآية التالية ، فبينما تقص علينا الآية الأولى بعثة سيدنا نوح ، اذ تحكى الآية التالية على الفور كلام نوح الى قومه بعد أن اضطلع بالرسالة ، ونراه أمينـــا ودقيقا ، فيعلن قومه بأنه نذير لهم .

والانذار هو التحذير (ومبين) من الابانه ، أى الوضوح والاشراق . وفى هذه الآية الكريمة خلاصة ما دعا نوح قومه‌اليـــه ، وهـــو جوهـــر جميـــع الأديان السماوية والهدف منها وهو :

- **عبادة الله الواحد الأحد .**
- **تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه .**
- **اطاعة أولى الأمر الذين يحملون الأمانة ويقومون بأداء الرسالة .**

وهذه الأسس الثلاثة متى اتبعت فى صدق وأمانة قام عليها العمران البشرى خير قيام وتحققت سعادة الانسان بقدر الامكان فى الدنيا ، وبالقدر التام والكامل فى الآخـــــرة .

يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون .

مأزق المفسرين القـــدامى :

وضع المفسرون القدامى أنفسهم فى مأزق عندما تجاوزوا حدهم ولم يكتفـــوا بالوقوف موقف الصحابة والسلف الصالح حيال القرآن اذ يسمعون آيات القرآن وما تشعه فى النفوس من روح الايمان والتقوى ، وراحوا يحاولون تفصيل القول وتفريعه ، والســـير حول مدلولات بعض الكلمات والحروف اللغوية كما حدد معناها المتأخرون لا السابقون .

فكان مما قالوه ووضعوا أنفسهم بذلك فى مأزق : ان (من) للتبعيض ويكون **معنى الآية أن قوم نوح ان هم آمنوا واتقوا يغفر الله بعض ذنوبهم** ، ثم راحـوا يتساءلون كيف ذلك والمفروض أن يغفر الله للمؤمنـين كل ذنوبهـم ، وردوا على هذا التساؤل بأن الله يغفر ذنوب ما قبل الايمان اذ أن الايمان يجب ما قبله .

وقال بعض آخر ، ان الذنوب التى تغفر هى الذنوب فى حق الله ، أما الذنوب فى حق العباد فأمرها منوط بأصحاب الحق فيها .

ورأى فريق ثالث أن يخرج من هذا الحرج بأن يقول ان (من) هنا زائدة وكل هذه أبحاث لا محل لها فقواعد النحو والصرف والبلاغة قد وضعت فى عصور متأخرة عن القرآن ، وهى اجتهادات لأصحابها ، وعندنا أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ويجب أن نفهم المقصود من أى آية على ضوء القرآن ككل .

والقرآن قد علمنا فى كثير من آياته أن المغفرة هى حق الله المطلق ، فهو يغفر ما يشاء لمن يشاء بغير حد أو قيد على مشيئته ، فمن غير الصواب (فى رأينا) **أن يقول قائل ان من للتبعيض ، فكيف يغفر الله بعض الذنوب دون بعض** ، وما هى هذه التى يغفرها والتى لا يغفرها ، كل ذلك منوط بارادة الله ومشيئته وليس من حقنا نحن البشر أن نخوض فيما ليس من سلطاننا وحسبنا أن نعلم أن الله هـو الغفور وانه رحيم .

ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون :

ووقع المفسرون كذلك فى حيرة من أمرهم امام هـذه الآية ، حيث يعـد نوح المؤمنين بأنهم اذا آمنوا يتأخر أجلهم ، فى الوقت الذى تقرر فيه الآية الكريمة بأن الأجل اذا جاء لا يمكن أن يؤخر .

وعندنا على ضوء آيات القرآن ان الآجال محددة يستوى فى ذلك الاخيار والأشرار ، والمؤمنون والكافرون .

— ((**فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**)) (٦١ ك النحل ١٦)
وقد مات سيدنا نوح نفسه ، كما ماتت القرون السابقة كلها ، ومات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهى سنة الله فى خلقه أن يمـوت جميـع كل كائن حى **(انك ميت وانهم ميتـون)** .

وتكون القاعدة الثابتة هو ما نبهت عليه الآية من **(ان أجـل الله اذا جاء لا يؤخر)** اما كلمة أجل الأولى فمعناها أجل العذاب فالمؤمنون لا يعذبون فى الدنيا ، لأن قلوبهم تكون عامرة بالايمان راضية مطمئنة ، فلا يحسون بآلام الحياة أو الموت نفسه ، ويستقبلونه اذا وقع برضا وطمأنينة ، اما غير المؤمن والعاصى والشرير ، فهو يتعذب بالليل والنهار ولا يجد عزاء من داخل نفسه .

ويكون معنى الآية الكريمة فى تصورنا انكم أيها الناس متى آمنتم أبعدتم عن أنفسكم صور العذاب ، وآلام الكوارث التى لا تفتأ تصيب الانسان ، والله تعالى أعلم .

قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى الا فرارا . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم انى دعوتهم جهارا . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا .

شكوى :

وفى هذه الآيات يشكو سيدنا نوح الى الله عز وجل ما قوبل به من قومه من اعراض وتكذيب ، وفشل كل محاولاته لحملهم على الهداية والايمان وهى تسرية عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وتعزية له عما يلقاه من قريش من الصد والاعراض .

فمن قبله عانى الانبياء والرسل مثل ما عانى وجأروا جميعهم بالشكوى الى الله عز وجل ، ومرت بهم لحظات أقرب الى أن تكون يأسا .

— « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » (١١٠ ك يوسف ١٢) وقد سلك نوح عليه السلام فى دعوته نفس الطريق الذى سلكه فيما بعد سيدنا محمد ، حيث بدأ دعوته الى التوحيد سرا ، ثم نقل الدعوة الى العلن بعد اسلام سيدنا عمر الذى لقب بالفاروق ، لأن اسلامه كان الفارق بين مرحلتين من مراحل الدعوة من السر الى العلن ، ثم بدأت الدعوة تتراوح بين السر والعلن حسب الظروف والاحوال والمناسبات ، وهو ما يقرره سيدنا نوح من أنه جهر بالدعوة ، ثم أسر بها أو أسر أولا ثم جهر ، ثم تراوح بين الأسرار والعلانية ، وقد قابل قومه هذه الدعوة الكريمة [كما فعلت قريش] بالانكار والجحود والعناد ، حتى كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ، ويحنون رؤوسهم خلف ذيول ثيابهم (واستغشوا ثيابهم) أى غطوا وجوههم ورؤوسهم بأطراف أثوابهم وكل ذلك فعلته قريش حتى لا يستمعون الى القرآن .

— **« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه »** ٢٦ ك فصلت ٤١

فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا .

ولم يكن هذا الذى دعا نوح اليه قومه كسائر الانبياء والرسل من بعده والذى قابله الاشقياء بما قابلوه من صد وكفر وعناد ، الا قول الحق بالدعوة الى عبادة الله الذى يغمر الانسان بالنعم التى لا يحسبها الا الانسان المؤمن ، ولا يذوق حلاوتها

ويسعد بها الا من آمن بالله ، وعندنا أن هذه الآيات وأمثالها التى تتحدث عن نعم الله عز وجل يجب أن تفهم على هذا الأساس فالامطار تهطل على الاشرار مثل ما تهطل على الاخيار والشمس تطلع على البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ولكن غير المؤمن والكافر يمر على هذه النعم ولا يكاد يحس بها وانما يحس دائما بما ينقصه فيظل طول حياته فى لوعة وحسرة ، لأن الانسان منذ يولد الى أن يموت يظل يتطلع لما ليس فى يده ، ولن يكون فى يده كل شىء أبدا لأن ذلك من طبيعة الحياة ، فيظل طول حياته فى عذاب وشقاء ، أما المؤمن فان حياته كلها مليئة بالرضا لما أنعم الله به عليه ، وما من انسان أيا كان شأنه وحظه فى الحياة ، الا وقد أنعم الله عليه بالكثير وحسبك نعمة البصر والسمع والحركة وفى هذه الآيات يشير سيدنا نوح الى بعض نعم الله على عباده ، عندما ينزل لهم من السماء مطرا (**مدرارا — كثير الأدرار**) فيكون سببا فى تحويل الأرض القاحلة الماحلة الجدباء الميتة ، الى أرض تغص بالحدائق والبساتين والمزارع والأنهار الجارية .

ويفيض على الانسان بنعمة الأبناء التى لا يعرف قيمتها وحلاوتها الا من حرموا منها ولا يعرف قيمتها بالاكثر الا المؤمنون يعرفون أكثر من غيرهم قدرة الله عز وجل على حرمانهم منها ، ومن هنا تكون سعادتهم غامرة عندما يرزقون بالبنين والبنات والأحفاد ، وكل ما فى الدنيا من نعم ومباهج ، لا يقدرها ويذوق حلاوتها كاملة كما قدمنا الا الانسان المؤمن .

« مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا .

يسائل نوح قومه فى عجب ودهشة ، كيف لا يخافون من الله وتخشع نفوسهم أمام عظمته ، ويعود فيلفت نظرهم الى آيات الله وقدرته كما تتجلى فى أنفسهم وفى الكون من حولهم .

وليس هناك ما يرشدنا الى طريق الله سوى التأمل فى كتاب الطبيعة من حولنا وفى أنفسنا .

وقد خلقكم أطوارا . أى خلقكم حالا بعد حال . وقد فصلنا قصة تطور الجنين فى بطن أمه وكيف يبدأ من اتحاد حيوان منوى باحدى بويضات الانثى مما لا يمكن رؤيته بالعين المجردة ، ثم يظل هذا المخلوق الذى لا يكاد يرى ينمو ويتكاثر حتى يصبح طفلا يوزن بالارطال .

وقد فصل القرآن الكريم فى بعض آياته الأخرى هذه الأطوار التى يجتازها الجنين فى رحم أمه **فقال وهو أعلم القائلين :**

— ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام

لحما ثم أنشـــأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم انكم بعـــد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون .

هذه هى الاطوار التى يمر بها الانسان منذ يخلق الى أن يموت وخلق الانسان من الطين حقيقة مذهلة ينادى بها العلم الحديث بعد أن ظهرت بدعة الألحاد مما يقطع بأن القرآن من لدن سميع عليم ، فما كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو النبى الأمى الذى يتصور منشـــأ الانسان وأنه خلق أول ما خلق من سلالة من طين ، ثم يتتبع أطوار الجنين بعد ذلك فى بطن أمه ، وهى كلها أمور لم تنكشف الا فى العصر الحديث بعد أن اكتشفت المجاهر (الميكروسكوبات) والتصوير بالأشعة وعلم التشريح كل ذلك جاء مفصلا فى آيات سورة (المؤمنون) والتى أجملتها هذه الآية من سورة نوح **(وقـــد خلقكم أطوارا)** .

خلق السموات والشمس والقمـــر :

وبعد أن استرعى نوح أنظار قومه الى معجزة الخلق الانسانى ، وجه أنظارهم الى معجزة الكون فى مجموعه كما يتمثل فى الســـماء ، والســـماء فى اللغة هى كل ما علا رأس الانسان وهو ماأصبحنا اليوم نطلق عليه كلمة الفضاء الخارجى .

ولقـــد هزأ يوما ما بعض المتنطعين باسم العلم بأن السموات سبع ، وقالوا ان هى الاسماء واحدة هى تلك التى نراها بأعيننا واليوم بعد أن وصـــل الانسان الى القمر يحدثنا رواد الفضـــاء عن أن الظلام يسود الكون بمجرد خروجهم من الغلاف الجوى الذى لا يتجاوز سمكه بضع كيلو مترات وليس القمر الذى وصله الانســـان بالنسبة للأرض ، الا كالضـــاحية القريبة من المدينة حيث تقاس المســـافة بألوف الكيلو مترات فأين ذلك من بقيـــة الكواكب التى يقاس بعـــدها عن الأرض بملايين الكيلو مترات ، وأين ذلك كله من المجرات الأخرى التى تقاس أبعادها بسرعة الضوء فيقال أنها تبعد عنا ســـنة ضوئية فعشر سنوات فميئاتها وألوفها ، والله وحده هو الذى يعلم ما ســـوف يتفتح أمام بصر الانســـان اذا هو وضـــع قدمه على كوكب من هذه الكواكب التى تدور فى سمائنا الدنيـــا ، أى فى مجموعتنا الشمسية .

القمـــر نور والشمس سراج :

ولقـــد تحدثنا أكثر من مرة على معجزة القرآن الربانية فى وصف الشمس بأنها سراج والقمر بأنه مجرد نور ، فالسراج هو الذى يحترق فيه الوقود ليضىء وهذا هو شـــأن الشمس فهى كتلة مشتعلة من النار تحترق فيهـــا الغازات لتوليد هذه الطاقـــة الضخمة من الضوء والحرارة أما القمر فليس الا جسما معتما يعكس نور الشمس فيكون هذا النور الذى نراه بالليل ويغيب بالنهار اذ تســـطع علينا أشـــعة الشمس بذاتها وقـــد تأكد ذلك الآن بعد أن وصـــل الانسان الى القمر وعاد بعينات من ترابه وصـــخوره .

مرة أخرى أشهد أن القرآن حق من حق ، وأنه وحى من لدن سميع بصير .

فما كان العرب كلهم بالذين يكتشفون هــذه الحقيقــة العلميــة التى لم تثبت ــ وأصبحنا نلمسها باليد ــ الا فى القرن العشرين .

وأعنى بهذه الحقيقة كون الشمس تضىء لأنهــا تحترق اما القمر فهو ينير فقط لأنه يعكس ضــوء الشمس .

ــ والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها ســبلا فجاجا .

يلفت سيدنا نوح نظــر قومه الى أن الأرض هى مصــدر كل حياة بما فى ذلك الحياة الانسانية نفسها .

فالنبات هو كائن حى تتمثل فيه كل خصائص الحياة من تنفس وغذاء ونمو وتكاثر وتوالد ثم موت فى خاتمة المطــاف .

والحيوان هو كائن حى كالنبات تماما يزداد واحدة وهى القدرة على الانتقال من مكان الى مكان وهو ما لا يقوى عليه النبات ، ويأتى الانسان بعد ذلك ولكنه يزيد على الحيوان بالعقل والمهم ان الأرض هى منشأ كل الكائنات الحية ليس فقط لأن أصــل الانسان من سلالة من طين ، ولكن لأن الانسان يتغذى وينمو وبالتــالى يكبر ويعيش على ما يأكل من الحيوانات أو النباتات ، والحيوانات بدورها لاتعيش الاعلىماتنبته الأرض ، أو الحيوانات التى تعيش على نبات الأرض ، فالمرجع فى النهاية والمعول فى حياة الانســان هو على ما تنبته الأرض ، فلا عجب ان كان الانســان بعض نتاج الأرض ، ولعل هذا هو ما يفسر لنا حبكل انسان لمسقط رأسه (الوطن) اذ انه التربة التى عاش عليها ونما منها فهى داخلة فى بنــاء انسجته ، ولا يستطيب أى بيئة أخرى الا لفترات محددة ، يحن بعدها الى مسقط رأسه الذى فيه نشــأ ومن أرضه تــكون .

كل هذه معانى قد تخصصت علوم الحياة فى عصرنا فى دراستها وتلخصها هذه الآية الكريمة **(والله أنبتكم من الأرض نباتا)** . اما عودة الانســان الى الأرض التى حدثتنا عنها الآية التالية ، فمسألة قد رآهاكل انسان بالعين المجردة ، عندما يتحول كل انســان بعد موته الى تراب يسمدون به الأرض فيزكو النبات الذى يسمد به ، واذا كانتأرض مصر منأعظم أراضىالدنياخصــوبة ، فما ذلك الا لقدمها ووفــاة الملايين تلو الملايين على أرضها عبر العصور ، وتحولهم الى تــراب وتــراب جيــد لاخصــاب الأرض .

وكما يتحول الانسان الى تراب ، فليس بعيدا عن التصور أن يعود الانسان مرة أخرى من التراب كما هو شــأن النبات الأخضر المزهر المثمر عاما بعــد عام .

ـ والله جعل لكم الأرض بساطا :

اشرت أكثر من مرة الى أن موضع الشاهد فى مثل هذه الآية وهى أنه على الرغم من كروية الأرض فهى صالحة تماما لسكنى الانسان الذى يسير عليها كأنها بساط مفروش .

(سبلا فجاجا) أى طرقا واسعة وهى رمز للطرق المفتوحة أمام الانســـان واهمها بطبيعة الحال والذى يجب أن يقطع فيه الانسان رحلة الحياة هو الطريق المســـتقيم .

ـ قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا .

يواصل سيدنا نوح شكواه الى الله عز وجل مما لقيه من قومه وكيف انهم انصرفوا عن دعوته دعوة الحق وانطلقوا فى طريق الضلال والغواية خلف رؤسائهم وزعمائهم الذين ما زادهم ما أنعم به الله عليهم من المال والولد الا كفرا وجحودا بهذه النعم ، وراحوا يزينون لهم التمسك بعبادة الاصنام بدعوى أن عبادتهم هى دين الاباء والأجداد .

ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا :

وهذه الخمس كلمات هى أســـماء الاصنام التى كان يعبدها قوم نوح ، ومن عجب أن عبادة هذه الأصنام ، بقيت آثارها فى جزيرة العرب حتى البعثة المحمدية .

فكان العرب فى الجاهلية يســـمون بعض أبنائهم عبد يغوث وعبد ود وقد اثبت المفسرون القدامى ما قاله ابن الكلبى فى كتابه عن الأصنام أن (ود) كان صنما على صورة رجل لبنى كلب فى حومة الجندل و (سواع) على صورة امرأة لهمذان أو هزيل و (يغوث) لمذحج أو غطيف وكان على صورة امرأة و (يعوق) لمراد أو لهمذان وهو على صورة فرس و (نسر) لحمير أو لذى كلاع من حمير وهو على صورة نسر .

وكل هذه القبائل فى بلاد اليمن .

الأصل فى عبادة الأصـــنام :

والأصل فى عبادة الاصنام هو رغبة الانســـان الحسية فى أن يكون الله قريبا من الانسان وفى متناول يده فرمز له بهذه التماثيل والنصب وهى آفة لم يتخلص منها اتباع **أى دين من الأديان** . ومن هنا تظهر عظمة الاسلام ، وتفوقه على ســـائر ما عرفت البشرية من الأديان اذ أنه اســـتطاع أن يستأصل الوثنية من أعماق اتباعه حتى خلت دور العبادة الاسلامية على خلاف أى دور عبادة أخرى فى العالم كله ، ليس فقط من

التماثيل ، بل ومن الصور أيضا وذلكسداللذريعة ، وحذر الاسلام أتباعه من تخيل صورة الله فى اذهانهم ، مجرد تخيل ، حتى قرر الاصـــوليون أن كل ما دار فى ذهن الانسان عن الله فالله بخلاف ذلك .

وهذا تأسيس على قول القرآن الكريم(ليس كمثله شيء) وفى هــذه الحقيقــة يكمن سر قوة الاسلام ، وأنه دين الانســـانية كلها ولا دين بعده لأنه صـــور الالوهية والربوبية فى صورتها الكاملة الناصعة ، والتى لا يمكن أن يكون بعدها أو فوقها صورة عندما وصف الله عز وجل وصـــفا عقليا رياضيا علميا لا يســـتطيع العقل اى عقل ، فى أى زمان أو مكان أن يفك منه حتى ولو كان ماديا ملحدا وذلك عندما يقول **(هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)** .

ولا تزد الظالمين الا ضلالا :

فى هذه الآية ، كما سنرى فى آيات تالية يتجلى ضيق سيدنا نوح بقومه لكفرهم وعنادهم ، حتى أنه بدأ يدعو عليهم ، وسنرى الفارق فى ذلك بينه وبين سيدنا محمد .

مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنـــا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا . (ديارا) أى كل صاحب دار أو المقصود هنا كل كافر سواء كانت له دار أو لم تكن **(تبارا)** أى هلاكا .

وتمضى الآيات لتشير الى ما فصـــلته الآيات الأخرى التى ذكرناها من حديث الطوفان الذى أغرق قوم نوح ، وبعد أن أغرقهم الطوفان جازاهم الله على أعمالهم السيئة بما أعده للكافرين والاشرار والعصاة من نار جهنم ، وهـــذا هو الذى نفهمه من قول القرآن الكريم **(مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا)** ويتكلف البعض فيقول أنهم (أى قوم نوح) كانوا يغرقون فى المـــاء ويحرقون بعد ذلك بالنار ، ويستند البعض الى هذه الآية فى اثبات عذاب القبر أىبمجرد موت الانسان ، ونحن نمسك عن هذه الغيبيـــات .

فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا :

كلام واضح مبين لا يحتاج الى تفســـير فالكفار والمشركون والطغاة والاشرار والمتجبرون يصولون ويجولون ما بقوا أحياء ، حتى اذا أدركهم الموت على أى صورة من الصور ظهر عجزهم وقلة حيلتهم أمام جبروت الله .

دعـــــاء نـــوح :

ومعنى نوح يدعو بالمغفرة لمستحقيها وهم كل من آمن بالله .

(ولن دخـــل بيتى) .

ويثور التساؤل حـــول عبارة (بيتى) ما هو المقصود بهـــا ، أهو بيت نوح فعلا أم سفينته أم عقيدته وكل ذلك جائزلأن سيدنا نوحا لم يلبث أن عمم الدعاء ليشمل كل مؤمن بالله فى أى زمان ومكان وهناك أحاديث تفصيلية حول ما حدث لزوجة نوح وابنه سنعود اليها فى مناسبة أخرى ، وحسبنا أن نشـــير الى أنهما لم يكونا مؤمنين ، فخرجا من نطاق هذه الدعـــوة .

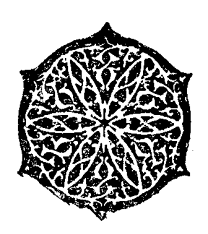
شـــدة ســـيدنا نوح :

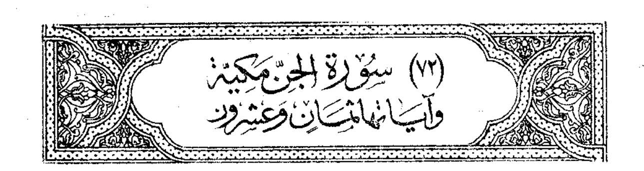
وفى ختام السورة عاد سيدنا نوح يدعو الله لتشديد النكير على الكفار والظالمين وقد رأينا كيف دعا الله سبحانه وتعالى أن يبيدهم من فوق ســـطح الأرض بمقولة أنهم مهما عاشوا فلن يلدوا (**الا فاجرا كفارا**) .

وهذا هو الفارق بين سيدنا نوح وسيدنا محمد فقد كانت دعوة سيدنا محمد على قريش عندما لجوا فى عنادهم وكفرهم وخصومتهم ، (رب اغفر لقومى فأنهم لايعلمون) .

وعندما فتح مكة ووقف أهلها من الكفار بين يديه وهم يرتجفون رعبا مما قد يحل بهم ، قال لهم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وعفا عنهم جميعا .

ولا عجب فى ذلك فما ســـيدنا محمد عليه الصلاة والســـلام الا رحمة للعالمين وصدق الله العظيم ..





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ
بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ
أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ
قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن
يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟
رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾
وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾
قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾
إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟
مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ
أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ
خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

سورة مكية

سورة مكية باتفاق ، وهى تعكس فى آياتها أصداء الدعوة المحمدية فى بادىء أمرها وهى فى تصورنا احدى معجزات القرآن الكريم .

اذ تحدث فيها عن زوال دولة الجن ،فى وقت كانت البشرية فيه بعامة ، وعرب الجاهلية بخاصة يؤسسون حياتهم على الاعتقاد بسلطان الجن المطلق،على بنى البشر ، وما قام على أساس هذا الاعتقادمن ممارسة السحر والكهانة والتنجيم ، فنزلت هذه السورة على سيدنا محمد لترفع الغشاوة عن عين البشر ، وان الجن ، كائنا ما كان أمرهم ، فهم بعض خلق الله ، المستظلين بسلطانه وملكوته ،وانهم لايملكون لبنى البشر ضرا ، ولا نفعا ، وان جاز أن يكونوا فى الماضى السحيق على شىء من العلم يتسقطونه بالاستراق والاستماع من الملأ الأعلى ، فان ذلك قد انتهى منذ بعث النبى صلوات الله عليه ، واصبحوا كبقية خلق الله مكلفين ومحاسبين على أعمالهم وتصرفاتهم ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

جملة القول فى موضوع الجن :

واذا كانت هذه السورة تسمى سورة الجن ، والحديث فيها يدور على الجن ، فلا مناص من التعرض فى شىء من التوسع لموضوع الجن .

منكرو الجن :

حاول بعض المتحذلقين فى كل زمان ومكان ومن يتشدقون باسم العلم (والعقلانية ، كما يقولون) أن ينفوا وجود الجن .

وكان آخر ما طالعنا من هذا القبيل ما قاله البعض من ان الجن المنصوص عليهم فى سورة الجن ، هم فى حقيقتهم من رجال الأنصار الذين اجتمعوا برسول الله فى الخفاء ، فيما يذكر فى التاريخ بانه (العقبة) الأولى والثانية .

ولو ان قائل هذا الراى عرضه على انه وجهة نظر ، ثم فوض العلم بالحقيقة لله عز وجل ما كان عليه لوم أو تثريب :ولكنه كما قال المعترضون عليه انه ساق القول فى معرض التقرير ، وان الامر لا يجب أن يكون غير ذلك ، وغنى عن البيان انه قال ما قال ليعبر عن عدم اعترافه بوجود الجن .

وقد استند فى هذا التصور الى المعنى اللغوى لكلمة (الجن) وان مادتها تعنى الخفاء والاستتار ولما كان الأنصار الأول قد اجتمعوا برسول الله فى الخفاء ، ثم عادوا الى قومهم منذرين ، فلابد فى رأيه ان يكونوا هم المقصودين بـ (قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن) .

ونحن ممن يرون ان ليس هناك ما هو أخطر من أن يتوقف انسان أمام المعنى **اللغوى** لـكلمة فى القرآن ، دون ان يضع فى حسابه كيفية استخدام القرآن بالذات للكلمة .

فالمادة اللغوية للفظ (**الجن**) تعنىالاستتار والخفاء ومن هنا سمى الطفل فى بطن امه (**جنينا**) كما سمى الدرع (**المجن**)لأن المحارب يستتر به ، وجن الليـل أى أى قدم وسربل العالم بالظلام .

ومن هنا فقد سميت بعض الكائنات‌غير المنظورة بأنها (**جن**) والمطالع للقرآن يجد أن كلمة (**الجن**) قد اسـتعملت ٢٢مرة ، ولا يبقى فى نفس مطالع القرآن ذرة من الشـك فى أن الجن عالم كامل كعالم الأنس ، غـير أن عالم الانس منظور ، وعالم الجن غير منظور .

فما من مرة ذكر فيها(**الانس**)الا وذكر(**الجن**) وحسبنا أن نشير الى آية واحدة يحفظها كل انسـان (**الذى يوسـوس فىصدور الناس ، من الجنة والنـاس**) بل ان الواقعة التى تتحدث عنها سورة الجن،قد تكون هى بنفسـها المشـار اليهـا فى سورة الأحقاف .

ـ واذ صرفنا اليك نفـرا من الجـن‌يستمعون القرآن‌فلماحضروه قالوا انصتوا، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوايا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعدموسى مصدقا لـما بين يديه يهدى الى الحق والى‌طريق مستقيم » .

فكون القرآن الكريم يثبت عالم الجن ، وأنه شبيه بعالم الانس ، وأنه فى سورة الجن بالذات ، تحدث عن واقعة استماع‌الجن للقرآن الكريم،وما قالوه تعليقا على ذلك ، كل هـذا دليل على وجود الجـن‌حقيقة .

الظاهرة مؤكدة ، والاسماء تختلف :

بقى أن نثبت للمتشككين والمنكرين ان مايتصورونه بنفى‌الكائنات غيرالمنظورة، أنهم يتكلمون بالعلم ، انما يتكلمون جهلا،**فالعلم** . يقوم أول ما يقوم على عدم القطع بعدم وجود شىء ، لأنه كما يحتاج الاثبات‌الى دليل ، فان النفى فى حاجة الى دليل كذلك ، ولا يمكنك ان تقيم الدليل على عدم‌وجود شىء لمجرد كونك لا تراه . وتاريخ تطور المعارف البشريـة أعظم دليل على‌ذلك .

فـكل ما تعرفه الانسانية اليوم من‌اختراعات واكتشافات ، قد ظلت مجهولة قبل ذلك ، الا على سبيل التخيل فقط ثم‌انتقلت من مجـرد التخيـل الى الواقع المـادى . ومنذ كان الانسان انسانا ، لم‌يطف فى خياله ، ان اصغر شىء فى الوجود اذا تفتت خرجت منه أعظم طاقة عرفها البشر حتى الآن وهى الطاقة النووية .

وفى عصر ازدهار المادية وهو القرن الثامن عشر ، كان التصور العلمى ان الذرة هى وحدة المادة ، وكان تعريف الذرة انها أصغر وحدة فى المادة بحيث لا تقبل الانقسام بعد ذلك .

وسرعان ماكشفت الأيام عن ان الذرة لا تنقسم فحسب ، بل وتنبعث منها اذا انقسمت ما يساوى ملايين الأرطال من المتفجرات .

فان قال لك قائل ، ليس هناك كذا ويؤكد كلامه باسم العلم ، فاعلم بداءة ذى بدء ان العلم منه براء . ان أعلم العلماء اذا أراد أن ينفى شيئا ، قال : ان منتهى علمى أن لا يوجد شىء من هذا القبيل ، أى أنه هو لا يعلم وقد يعلم غيره ، وقد يعلم من هو أعلم منه ، وقد ينكشف الأمر فى مقتبل الزمان وصدق القرآن الكريم اذ يقول: ((**وما أوتيتم من العلم الا قليلا**)) .

ولكى يعلم كل مسلم حقيقة هذا القول نسوق له كلمة قالها أعلم علماء الانجليز فى كل العصور وهو (نيوتن) مكتشف قانون الجاذبية ، اذ يقول :

انه بكل ما اكتشف من حقائق علمية لا يعدو أن يكون طفلا يلعب على شاطىء البحر المحيط ، ومن حين لآخر قد يعثر على صدفة براقة ، ولكن بحر الحقيقة يظل أمامه بلا نهاية . وعلى ذلك فمن نفى لك شيئا بغير دليل فاعلم انه جاهل .

عالم الجن حقيقة :

وعالم الجنة حقيقة مادام أن القرآن يذكره والعلم لا يستطيع أن ينفيه، والشواهد تؤيد وجوده ، فنقول وبالله التوفيق ان الانسان منذ كان انسانا ، أحس احساسا عميقا أنه لا يعيش وحيدا فى هذا الكون ، **وأنه الى جوار القوى التى يراها بعينيه أو يسمعها بأذنيه أو يلمسها بيديه ، توجد قوى أخرى غير منظورة، تؤثر على ما حوله وعليه أحيانا . ومنذ أقدم العصور قسم الانسان هذه القوى الخفية ، الى قوى شريرة وقوى نافعة . ولم يفارق هذا التصور الانسان لحظة واحدة وهو مايجمله القرآن فى قوله : ((فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)) .**

وفى أيام الشرك والوثنية البحتة سميت هذه القوى الخفية بالالهة وقسمت كما تقدمت الى آلهة شريرة عدوة للانسان ، وأخرى خيرة .

وبارتقاء العقل البشرى ، وما وفق اليه الانسان بالالهام والوحى ، توحدت الالوهية وسميت فوق بقية الكائنات وأصبحت الكائنات الخفية الخيرة تسمى ملائكة والقوى الخفية الشريرة ، تسمى جنا وعفاريت .

وظل هذا شأن الانسان ومعتقداته خلال عشرات القرون من المدنيات والحضارات القديمة لا يشذ فى ذلك انسان عن انسان ايا كان دينه أو علمه . حتى اذا كان القرن

الثامن عشر الميلادى غشيت أبصار الناس فى أوربا ، لما اكتشفوه من بعض أسرار المادة ، **فخيل لاناس ذلك العصر أنهم قد** عرفوا كل شيء ، وأن المادة المحسوسة **الملموسة هى كل شيء فى الكون ولا شيء وراءها أو قبلها وبعدها وقالوا فيما قالوا ان الأمراض (وقد كانت) مما يعزى الى** الجن والعفاريت **هى من تأثير ما أسموه** الميكروبات **(غير المنظورة)** ولما استطاعوا ان يروا **الميكروبات ولم تستطع أن تحل كل الاشكالات قالوا بالفيروسات ومرة أخرى** قالوا عن الفيروسات انها لا ترى بأعظم **المجاهر التى تكبر ملايين** المرات ، ويوم أن يروا الفيروسات **(وقد يكونون قد رأوها) فسوف يحيلون الأمر** الى كائنات أخرى لا ترى .

وهكذا ترى انه حتى المشتغلين بالمادة ولا يعترفون بما وراء المادة يتحدثون كبقية البشر عن تأثير كائنات لا ترى .

وقبل أن أنتقل من هذه النقطة أريد كعادتى أن اشير الى أن هذا التصور لم يغب عن ذهن رجل كابن سينا فوصف الجن بما يشبه ان يكون حديثا عن الميكروبات ، واليك نص عبارته كما سجلها الفخر الرازى :

« **الجن حيوان هوائى متشكل بأشكال مختلفة** » والاتفاق ان الهواء أكبر حامل للميكروب . ونحن نعلم اليوم أن الميكروب كائن حى (**حيوان**) . على انه لا يجب أن يفهم **من** قولنا هذا ، اننا نقطع بأن الجن هى الميكروبات ، وانما سقنا هذا القول لندلل انه حتى الماديين اضطروا للاعتراف بوجود عوالم غير منظورة تؤثر على الانسان .

وظل القرن الثامن عشر ، بتفكيره المغرق فى المادية بين بعض فلاسفة أوربا ، حتى جاء القرن التاسع عشر بروحانيته الجديدة حيث ازدهر ما يسمى علم الأرواح ، **واشتغل به** فطاحل العلماء ، ويطول بنا المدى لو رحنا نذكر أسماء العلماء الذين اشتغلوا بهذا العلم ، ومن جديد ظهر التقسيم الازلى من وجود أرواح خيرة ، **وأخرى شريرة** .

حتى اذا وصلنا الى عصرنا الحديث جدا عصر انفلاق الذرة ، والصعود الى القمر : بدأ الحديث يدور حول الأطباق الطائرة وحول سكان الكواكب الأخرى ، وبدأنا نسمع ان الأرض فى عصر مضى وانقضى ، كانت مسكن كائنات غير انسانية وتصدر الكتب فى أكبر المجتمعات اغراقا فى المادية تتحدث عن سكان الكواكب الأخرى والاشارات الخفية التى يبعثون بها الى الأرض .

فأنت ترى ان الانسان يدرك دائما أبدا ان فى هذا الكون من حوله كائنات لا يراها بأحدث آلاته ، فضلا عن العين المجردة ، وهذه الكائنات تؤثر فيه وعليه بشتى المؤثرات .

فعندما يحدثنا القرآن عن العالم غير المنظور ، **وانه يؤلف أمما أمثالنا فيجب** ان نقول آمنا وصدقنا ، **فاكتبنا مع الشاهدين.**

واذا كان القـدامى يسـمون هذه الكائنات جنا ، فهو مجرد تسمية . . .

وعندما تحدثنا سـورة الجن بصفة خاصة عن زوال ما كان للجن من صـولة وجولة فى القديم ، فيجب أن يزيدنا ذلك ايمانا بأن القرآن الكريم من لدن سميع عليم ، خالق السموات والارض ومن فيهن، فما كان لسـيدنا محمد اذا كان ينطق عن الهوى ، أن يتحدى جبروت عالم الجن كما كان العرب ، بل البشرية كلها تتصوره فى عصره ، ويعلن للانسانية أن سلطان الجن قد زال ، وأنهم أصـبحوا كبقية خلق الله لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فضلا عن الأضرار أو النفع للناس .

وان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام قد بعث للجن كما بعث للانس وعليك ان تتصور وقع هذا القول على عقول قريش بخاصة ، والعرب عامة ، وسـيدنا محمد يتحدث عن زوال سـلطان دولة الجن ، بعد أن بعث وأن قلوب بعض الجن وعقولهم قد وعت رسالة سـيدنا محمد فى التوحيد وتنزيه الله عن الصاحبة والولد .

وعلى ضوء هذا الذى قلنـاه على سبيل التمهيد نشرع فى تفسير آيات السورة فنقول وبالله التوفيق .

((قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن)) .

تقطع هذه الآية ان سـيدنا محمدا عليه الصـلاة والسـلام ، قد أوحى اليه باستماع الجن اليه ، أى أنه لم يرهم فضلا عن أن يكلمهم ، ويكون ما اشـتملت عليه كتب التفاسير القديمة ، من خـوض فى موضوع هؤلاء الجن هو من قبيـل التزيد والقول بما ينافى صريح القرآن من أنه نبىء بأن نفرا من الجن قد استمعوا له .

ويذهبون الى حـد حصرهم وذكر اسمائهم ، والمتحفظين منهم يكتفون بالقول أن الجن الذين استمعوا ، كانوا من جن نصيبين .

وتروى أحـاديث ينسب بعضـها لابن عباس ، وهو يؤكد عدم رؤية رسول الله للجن ، بينما يروى عن ابن مسعود أنه كان مع رسول الله عندما ذهب ليتلو القرآن على الجن .

ونحن نقف عند نص القرآن ولا نزيد من ان سيدنا محمدا قد أوحى اليه ان نفـرا من الجـن قد استمعوا له وهـو يرتل القرآن .

((فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا . وانه تعالى جد ربنـا ما اتخـذ صاحبة ولا ولدا . وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا)) .

أن وان

ليس من منهاجنا كما يعرف المتتبع لتفسيرنا أن نسهب في قواعد اللغة والنحو ومع ذلك فنحن لا نستطيع من حين لآخر الا أن نشير لامهات المسائل اللغوية ولتكون الاشارة الى ما فى كتب التفاسير القديمة كاملة .

وقد دار خلاف طويل بين سائر المفسرين حول كلمـــة (أن) التى ترددت كثيرا فى هذه السورة وهل هى (أن) بفتح الهمزة أو (ان) بكسر الهمزة ، واختلف القراء بين ما يفتح ، وما يكسر من كلمة (ان) وأهمية الخلاف تظهر فى أن كلمة (ان) تكسر بعد القول، فعندما تقرأ كلمة (ان) بالكسر فان هذا يعنى أن ما بعدها هو من قول الجن، وعندما تقرأ بالفتح يكون ما بعدها من الوحى المباشر لسيدنا محمد وليس حكاية عما قاله الجن .

ونحن نريح القارىء الحديث من هـــذه المشاكل التى لا قبل له بها ونطلب منــه فى هذه المسألة كغيرها من المسائل ان يلتزم بما هو فى المصحف المتداول بين أيدينا ، فما كان فيه مفتوحا فهو مفتـــوح وما كان مكسورا فهو مكسور .

حكاية الجن لقومهم

والآيات السابقة هى كما هو واضح ما حكاه الجن الذين استمعوا القرآن لقومهم من أنهم سمعوا قرآنا يهدى الى الرشـــد فآمنوا به ، وأنهم لن يشركوا بعد ذلك فى عبادتهم أحدا غير الله الواحد الاحد ، الفرد الصـــمد ، وان الله ســـبحانه وتعـــالى وعظم شأنه ، ليس له صاحبة **(زوجة) ولا ولدا « لم يلد ولم يولد ولم يكن لـــه كفوا أحد »** (وجد ربنا) أى وعظمة ربنا ، وكتب التفسير تعطى كثيرا من المعـــانى لعبارة **(جد ربنا)** ولكننا نختـــار من هذه المعانى أصحها وأوفقها وهى عظمة ربنا .

جاء فى أقوال الصـــحابة ، **« كان الرجل منا اذا حفظ سورة البقرة وآل عمران جد فى نظرنا »** أى عظم قدره فى أعيننا .

ومعنى هـــذا النفر المؤمن من الجن فى حديثه لقومـــه بعد أن استضـــاء كبنى الانسان بنور الايمان ، ينبه الى ما وقعوا فيه من الاوهام والأخطاء ، وكيف أن سفيه الجن أى جاهل منهم ، وخصص البعض بأن ســـفيه الجن هو ابليس بالذات وهـــو تخصيص بغير مخصص والأولى دائمـــا صرف القول الى معناه العام ، فكل من يحكى عن الله غير الحق فهو ســـفيه .**(وشططا)** أى انحرافا وطغيانا وكفرا .

ومضى الجن يبدون دهشتهم وعجبهم من أن يوجد انسان واحد أو جان يجرؤ على أن يتقول على الله غير الحق ، الى أن علمهم القرآن أن هذه هى ارادة الله فى خلقه ، وان له فى خلقه شـــئونا ، وقد شاءت ارادته أن يترك الانسان حرا فى

أن يؤمن أو يكفر (**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**) ((**وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ٠وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحــدا**)) ٠

وفى هذه الآيات نموذج لـما قدمناه من الفارق بين أن وان ، **فهل هــذه الأقوال من مقولة الجن لاصحابهم** ، أم هى من التقديرات التى تقال مباشرة لسيدنا محمد ؟

والمعنى لا يختلف فى كلتا الحالتين ،وهو أن رجالا من الأنس ، كانوا يحتمون بالجن ٠ وقد كان العرب فى الجاهلية ،اذ نزلوا واديا من الوديان ، قالوا ((**نعوذ بك يا سيد هذا الوادى**)) يعنون بسـيد الوادى ، سيده من الجن القاطنين به ٠ مما أدى الى زيادة طغيان الجن وتحكمهم واستبدادهم بالبشر ٠

(**فزادوهم رهقا**) وقد يكون المعنى ان استـعاذة الانس بالجـن زاد هؤلاء الاخيرين اثما ، على ما قال بعض المفسرين ولكنا نفضل المعنى الأول فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ومن غير المعقول أن يتحمل الجن أخطاء البشر ٠

ومن أطرف ما طالعنا فى التفاسير ،قول البعض ، ان الاستعاذة من الجن ، كانت الى رجال من البشر ، وهم الكهان والسحرة الذين استغلوا هــذه الفرصة فأرهقوا البشر الذين لجأوا اليهم بمطالبهم التى لا تنتهى ٠

على أن هذا المعنى على طرافته فيه بعض التكلف ، ويكون المعنى الأوضح والأظهر ، أن استعاذة الانسان من الجن لا يزيد المستعيذ الا خوفا واضطرابا ٠

وليس سوى الله سبحانه وتعالى من يجدر بالمؤمن أن يستعيذ به فى كل أموره ، أى يلجأ اليه ، ويحتمى به (**قل أعوذ برب الناس ٠ ملك الناس ٠ اله الناس ٠ من شر الوسواس الخناس ٠الذى يوسوس فى صدور الناس ٠ من الجنة والناس ٠**) ((**وأنهم ظنوا كمــا ظننتم أن لن يبعث الله أحدا**)) ٠

أى أن الجن كالانس ، تصـوروا ووهموا ان الله لن يبعث الى الأرض نبيا جديدا ٠ (**وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ٠ وأنا كنـا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ٠ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهــم رشــدا**) ٠

ويمضى الجن فى حكاية ما حدث وكيف أنهم فى القديم كانوا يتسمعون الى الملأ الأعلى ، أى الكائنات العلوية وينقلون عنهم نتفــا من الأخبار ، عما جــرى وسيجرى ، وكيف ان ذلك أصبح متعذرا عليهم بعد البعثة المحمدية ٠

وكتب التفسير القديمة غاصة ببعض الحكايات وكيف أن الجن شكوا لابليس ما أصبحوا يلقونه من عناء حيث أصبحت الشهب ترصدهم فقال لهم : ما حدث

ذلك الا لامر يراد ، فانطلقوا فى **مشـــارق** الأرض ومغاربها ، وابحثوا عما طرأ من جديد على الكون ، فعلموا عندما وصلواالى جزيرة العرب وبالتحديد عند مـــكان يسمى **(نخلة)** فى الطريق من سوق عكاظالى مـــكة صادفوا النبى صــلوات الله وسلامه عليه فسمعوا منه القرآن وهو يتلوه فى صـــلاة الفجر ، فأخبروا ابليس فاسقط فى يده ولنا نص القرآن اذ يحكىعن جماعة الجن ، أنهم وقفوا حيارى أمام ما يرونه من ظواهر جديدة فى الســـماءتصدهم عما اعتـــادوا فعله من استراق السمع ، وهل هذه الظواهر نذير سوءوشر للبشر أم نذير خير وبركة .

وفى ذلك الدليل على أن الجن كبقيةما فى الكون من عـــوالم قد حجب عنهم الغيب ، والا فقد كانت بعثة الرسول رحمةللعالمين . **((وما أرســـلناك الا رحمـــة للعـــالمين))** .

((وانا منا الصالحون ومنا دون ذلككنا طرائق قددا . وانا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا . وانا لماسمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وانا منا المسلمونومنا القاسطون فمن أسلم فاولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنـــمحطبا . وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيـــه ومنيعـــرض عن ذكر ربه يســـلكه عـــذابا صعدا .

(طرائق قددا) اى فرق شتى .**(القاسطون)** الجائرون والظالمون .

(ماء غدقا) اى ماء غزيرا .

(عذابا صعدا) اى عذابا شديدا .

وهكذا يمضى الجن فى التحدث عنأحوالهم وكيف انهم كبقية خلق الله منهم الصالح ومنهم الطالح ، بل أن فرقهـــملتتعدد وتتنوع **(طرائق قددا)** وهم كبقية خلق الله ان هم آمنوا بالله وعملوا صالحافيجب أن تطمئن قلوبهم الى عـــدل الله سبحانه وتعالى فلا يخافوا **(بخسا ولارهقا)** اى لا يخافوا أن تبخس اعمالهم ، ويصلوا العذاب .

اما **(القاسطون)** اى الجـــائرونالظـــالمون المنحرفون عن الحق فســـوف يصلون كبقية الكائنات العاصية نار جهنم**(فكانوا لجهنم حطبا)** اى وقودا .

وان من بين ما ظنه الجن وتوهموهوظن هنا بمعنى اليقين ، انهم لايستطيعون ان يفلتوا من قبضة الله او يهـــربوا منسلطانه فالسموات والأرض هى ملكوته ، ولن تعجز قدرة الله عز وجل عن الاتيانبهم حيثما كانوا .

(القاسطون) ولا نستطيع الا أنتلفت النظر لكلمة **(القاسطون)** فهى لم تذكر فى القرآن بهذا المعنى الا فى هـــذهالاية .

ولكن مادة (**القسط**) وما يتفرع منهاكالقسطاس أى الميزان ، فقد ذكرت أكثر من مرة فى القرآن بمعنىالعدل والانصاف .

— **وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى**: بمعنى اذا خفتم الا تعدلوا بين اليتامى .

— **وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** : (الرحمن) .

— **وأوفوا الكيل اذا كلتم . وزنوابالقسطاس المستقيم** (الاسراء) .

— **ان الله يحب المقسطين** .

وهذا الاستعمال المزدوج ، جعل البعض يعتبرونها من الاضداد ، وتتضمن كتب التفسير حكاية طريفة حول هذه الكلمة .

فقد سأل الحجاج بن يوسف الثقفىوكان جبارا طاغية ، سأل سعيد بن جبير قبل أن يقتله فى رأيه فيه **(أى فى الحجاج)**

فقال له : أنت القاسط العادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال : حسبوا انه وصف الحجاج بالقسط والعدل ، ولكن الحجاج قال لهم يا جهلة لقد سمانى ظالما مشركا وتلا لهم قول القرآن الكريم « **وأماالقاسطون فكانوا لجهنم حطبا**) .

وقول القرآن الكريم : « **ثم الذينكفروا بربهم يعدلون**) .

« وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا»

اى الجن كبقية الكائنات ، عندما يستقيمون ويتبعون طريق الحق والصراط المستقيم فان الله سبحانه وتعالى كفيلبأن يغمرهم بنعمه التى لا تعد ولا تحصى ونظير هذه الاية فى القرآن قوله « **ولو أنأهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** » .

وقوله : « **ولو أنهم أقاموا التوراةوالأنجيل . وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** » .

« **لنفتنهم فيه** » أى أن نعم الله علىعباده الصالحين انما هى اختبار لهم وابتلاء ليعلم أيكفرون أم يكونون من الشاكرين . ومن يفشل فى الامتحان ويعرض عن ذكر الله فان مصيره جهنم وبئس المصير .

« وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا . وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا . قل انما أدعواربى ولا أشرك به أحدا قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل انى لن يجيرنىمن الله أحد ولن اجد من دونه ملتحدا .

الا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبــدا » .

« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » .

كلام واضح ومبين كفلق الصبح ،وهو ان المساجد **(بمعناها الواسع)** أى دور العبادة ، كلها مخصصة لعبادة الله الذى لا اله غيره فليفهم كل انسان هــذه الحقيقة ، فلا يدعوا مع الله أحدا .

ويحملنا على القول بأن المساجد هنا تعنى دور العبادة كلها انه ساعة ان نزلت هذه الاية لم يكن ثمة مساجد بالمعنى المألوف الان ولكن كان هنــاك بيت الله الحرام **(الكعبة)** فى مــكة ، وقد كان المشركون يدنسونه بعبادة الأصنام ، كما كان هناك بيت المقدس ، وكان فى يــد النصارى **ومن هنا قال بعض المفسرين** ان اليهود والنصارى ، كانوا يشركون فى عبادة الله غيره .

ونحن نرى أن نفسر كلمة المساجد على انها دور العبــادة .

وقد جاء فى الحـديث الشريف : **(جعلت لى الأرض مسجدا)** وفى بعض الصــيغ **(جعــلت لى الارض مســجدا وطهورا)** .

ومن هنا قام المبدأ الشرعى من أن الصلاة تصلح فى كل مكان متى توفرت الطهارة ، وكذلك صلاة الجماعة ، وقديما عندما كانت المســاجد المبنية لا تتســع لجمهور المصلين ، كانت الجماعة فى صلاة العيدين تقام فى الخلاء .

وهــذا هو الفارق الأســاسى بين المسجد كما اصبحنا نفهمــه الآن ، وبين الكنيسة فالعبادات ، والطقوس الدينية ، لا تصــح عند اليهود والنصارى وبقيــة الأديان الأخرى الا فى داخل الهياكل الدينية المخصصة للعبادة ، الأمر الذى ترتب عليه نشوء طبقة الكهان .

وليس الأمر كذلك فى الاسلام تأسيسا على هذا النص **(جعلت لى الأرض مسجدا)** فلا يجب فى طول الدنيا وعرضها أن تقام الصلاة لغير الله الواحد سبحانه .

وقد ذهب بعض المفسرين الى أن المقصود بالمساجد هو موضع السجود من جسم الانسان وهو عظام الجبهة والأنف والكفين وأصابع القدمين . ويكون المعنى أن السجود لا يكون لغير الله ، ولا تعارض بين المعنيين ، والفكرة واحدة وهى افراد الله بالعبــادة .

« وأنه لمـا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » .

لبدا أى ملتفا . ومنها لبدة الأسد وهو الشعر الذى يحيط بوجه الاسد .

وقال بعض المفسرين فى تفسير هـــذه الاية أن الجن عندما سمعوا رسول الله يتلو القرآن تزاحموا من حوله كل يريد أن يقترب منه ليحسن السماع ، وقال آخرون بل الكلام هنا من حكاية الجن لقومهم ، يصفون أحوال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والتفاف الصحابة من حوله .

ولكن القول الذى نأخذ به وينسجم فى رأينا مع الآية التالية هو قول من قال ان مشركى قريش ، عندما سمعوا دعوة سيدنا محمد لله الواحد الأحد حاولوا أن يصرفوه بكل الوسائل عن هـــذه الدعوة ليطفئوا نور الله ، فصمد سيدنا محمـــد عليه الصلاة والسلام فى وجه الاضطهاد والاغراء والوعد والوعيد ، وراح يقول لهم ، كما يحكى القرآن فى الايات التالية أنه (أى سيدنا محمد) لا يستطيع الا ان ينفذ ما أمر به ، وهو الدعوة الى سبيل الله الواحد الأحد ، وأن لا يشرك به أحدا ، **وأنه ان فعل غير ذلك** فمن الذى يجيره كبقية الخلق من عذاب الله ، واذا كانت الجن قد أدركت أنها لا تستطيع أن تهرب من الله فى الأرض ولا فى السماء ، فبمن يلـــوذ ســـيدنا محمـــد والى من يلتجىء (**ملتحدا**) أى ملجأ .

فسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، لا يملك دفع الضر عن نفسه ومن باب أولى عن البشر (**قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشـــدا**) .

حتى الهداية نفسها فهى من الله عز وجل (**انك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء**) .

« **الا بلاغا من الله ورسالاته . ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا** » .

فسيدنا محمد لا يملك ، ولا يستطيع ، الا أن يؤدى الامانة التى حملها ، وهى الدعوة الى التوحيد ، والويل له كبقية البشر ، أن هـــو قصـــر فى أداء ما كلف بأدائه .

ـــ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من النـــاس .

ـــ حتـــى اذا رأوا ما يوعـــدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . قل ان أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا .

فى هذه الايات الكريمة ، يمضى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فى تحديد وظيفته ومهمتـــه التى جاء ليـــؤديها لبنى الانسان ، فهو قد جاء بشـــيرا ونذيرا ، وهاديا ومرشدا لبنى البشر ، لا يستطيل عليهم بسلطان أو جبروت ولا يسوق كلاما غامضا ليؤوله المؤولون كما حدث بالنسبة لبعض الرسل من قبله **حيث تلقف أتباعهم**

كلمات غامضة صدرت من أفواههم ليدعوا أنها تعنى انهم ليسوا من جنس البشر ، بل هم الى الالوهية أقرب ، أو هم الله بذاته وقد تجسد على الأرض فى سورة انسان ، سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، **ومن هنا جاء** القرآن الكريم بكلام عربى مبين ، يتحدث عن بشرية الرسول مثل بقية بنى البشر **(قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى)** فسيدنا محمد يختلف عن بقية البشر فى انه أوحى اليه بالقرآن **(وليس هذا بالشىء القليل بطبيعة الحال)** . وفى هذه الايات التى نحن بصددها يفصل القرآن الكريم ، ما الذى يعنيه كون سيدنا محمد ، بشرا مثلنا ، فهو لا يعلم الغيب الذى هو من أخص خصائص الله عز وجل ، فهو لا يعرف متى تقوم الساعة ، أى يوم القيامة ، وهل اقترب هذا اليوم ، أم أن الله سيبعده عن البشرية ، وهذه الايات وأمثالها فى القرآن هى آية صدق رسول الله وأمانته فى ابلاغ الرسالة ، فما أكثر ما الح عليه المشركون ، ومن بعدهم اليهود ليقول لهم متى تقوم القيامة وما كان أيسر على سيدنا محمد لو كان ينطق عن الهوى ، ولم يكن وحيا يوحى ان يقول لهم اى اجل فى المستقبل ، ولم يكن فيهم من سيمتد به الأجل ليحاسبه او يناقشه ، ولكن الرسول الصادق الأمين ، وقف عند حده لا يعدوه ، فيوم القيامة من الأمور الغيبية التى احتفظ الله بسرها وحجبها عن البشر .

الا من ارتضى من رسول ، فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم .

وليس هناك قيود أو سدود أو حدود على ارادة الله ومشيئته ، فاذا شاء ان يطلع احدا من عباده على الغيب فلا دافع لمشيئته ، **وهذا ما جعل بعض المفسرين** يقفون هنا طويلا ليتحدثوا عن الأولياء وكراماتهم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد يكشف لبعضهم عن بعض غيبه ، **ولنا عودة لهذا البحث الطويل** وما يعنينا الآن من هذه الآية هى ما احتوته من نص على أن الله سبحانه وتعالى يحيط رسله الذين أرسلهم الى البشر برسالته بملائكة يحرسونهم ويحفظونهم حتى يؤدوا ما كلفوا بأدائه ، وهذه الاية مثل آية : **(والله يعصمك من الناس)** من أعلام النبوة ، فقد كانت من أوائل ما نزل من القرآن ، **وما أعظم ما تعرض له سيدنا محمد** من صعوبات ومشقات واضطهادات كان من شأنها أن تحول بينه وبين أداء رسالته ، بل وأن تضع حدا لحياته كلها ، ولكن الله سبحانه وتعالى مكنه من أداء رسالته رغم كل شىء ، وأطال فى حياته ، حتى أتم مهمته ، ومن هنا قلنا أن هذه الاية وأمثالها مما يتحدث عن صيانة الله لسيدنا محمد هى من أعلام النبوة .

ـــ واحاط بما لديهم واحصى كل شىء عددا .

حديث عن علم الله عز وجل الذى يشمل كل شىء ، ويتناول كل شىء بالعدد والاحصاء **(وسع كرسيه السموات والأرض)** ونحن نعلم اليوم بعلومنا المادية ، ما لم يكن معلوما من قبل ، ان كل ما فى الكون محسوب ومعدود ، فلا عجب أن كان خالق هذا الكون يعرف من أمره كل شىء . والحمد لله رب العالمين .

(٧٣) سُورَةُ المُزَّمِّلِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا عِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ
تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ
سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ
قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾
ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ
يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ
يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا
وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

ســـورة مكية :

سورة مكية ما عدا آيتها الاخيرة فيرى البعض انها **مدنية** على تفصيل سنسوقه عند التعرض لهذه الآية ونحن من هـــذاالرأى للاسباب التى سنذكرها .

والسورة من أوائل ما نزل من السور ، وآياتها تنطق بذلك ، وهى تحمل طابع بدء تكليف سيدنا محمد بأداء الرســـالة ،وتبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ينتظره من متاعب ومصاعب ، وتحثهعلى الصبر الجميل ، وأن لا يشغل نفســـه طويلا بالمكذبين ، فالله هو الـــذى يدبـــراحوالهم ومصيرهم .

يا أيها المزمل . قم الليل الا قليلا .نصفه أو انقص منه قليـــلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . انا سنلقى عليك قولاثقيلا . أن ناشئة الليل هى أشد وطئـــا وأقوم قيلا . ان لك فى النهار سبحا طويلاواذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا .

المزمل : المتلفف فى ثوبه ـــ **الترتيل**هنا بمعنى التأنى فى القراءة وتجويدها بتبين كل حرف من حروفها .

ناشئة الليل : اى ساعات الليل .

أشد وطئا:اى اكثر موافقة ومطابقة للسمع والبصر ، **واقوم قيلا :** اى أصوب واحكم **وتبتل اليه تبتيلا :** اى انقطع لعبادته .

اعداد الرسول لأداء الرسالة :

فى هذه الايات كما قدمنا اعداد للرسول صلوات الله عليه للقيام بأداء الرسالة ولقد تحدثنا باستفاضة فى تفسير سورة(اقرأ) وسورة المدثر كيف هبط الوحى لأول مرة على سيدنا محمد ، وكيف أشفقعلى نفسه فى بادىء الأمر ، تصورا منه أن ما رآه وما سمعه ليس من الله عز وجل ،وهذه هى آية صـــدقه وأمانته ، فقبل أن يتصدى لدعوة الناس كان عليه هو نفسهأن يتحقق مما أنزل اليه ، ولهذا تشير الاية الكريمة من آخر سورة البقرة اذ تقول :**آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه .**

ولقد بينا فى تفسير سورة العلق ـــ بفتح العين واللام ـــ كيف عاد سيدنا محمد وفؤاده يرتجف عندما نزل عليه الوحىلأول مرة فى غار حراء ، ورجع لزوجته الأمينة الصادقة وكاشفها بما رأى وسمع ،وقال لها انه يخشى أن يكون قد أصـــابه مس .

وقد كانت المرأة العظيمة ، هى التىهدأت من روعه ، وذكرته بخصاله الحميدة، وأخلاقه الـــكريمة ، وأن الله لايمكن أنيجزيه أبدا ، وكان مما قاله سيدنا محمد للسيدة خديجة عقب عودته من غار حراء« **زملونى زملونى ، أو دثرونى دثرونى »** اى أنه طلب أن يلتف بثوبه ، ويترك لينامليستريح من شدة التجربة التى حلت به ، فنزلت هاتان السورتان « **يا أيها المدثر ،ويا ايها المزمل » .**

والمطالع الدارس للسورتين ، لا يستطيع أن يقول أى المطلعين من السورتين قد نزل أولا فكلاهما يوجه الخطاب المباشرلسيدنا محمد ويناديه بصفة خاصة به ساعة نزول الايات على سبيل التحببوالاعزاز **(يا أيها المزمل : يا أيها المدثر)** وكلا المطلعين يعدان الرسول لأداء الرسالةالتى اختاره الله من بين البشر لأدائها ، ففى سورة المدثر يقول له : **قم فانذر** ، وفى هذهالسورة يقول له : **قم الليل الا قليلا** ، وكل من الامرين متصل بالاخر فلكى يقوى علىتبليغ الرسالة ، لابد له من قوة روحية ، وقيام الليل هو مصدر هذه الطاقة الروحية،واذا كان أى السورتين قد نزل أولا من الأمور التى لا يمكن فيها تغليب رأى علىرأى ، فالذى نستطيع أن نجزم به فى اطمئنان أنهما متعاقبتين متلاحقتين ، اذ انفردتا بمناداة النبى بنفس الوصف الذى أعقب رؤيته للوحى لاول مرة **(يأأيهاالمزمل ، يا أيها المدثر)** .

قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا .

يكثر المفسرون القدامى من محاولة تقصىالقدر الذى كان يقومه سيدنا محمد، ويتساءلون أهذا القيام كان فرضا أمتطوعا ، وهل كان خاصا برسول الله ، أم هو خاص بكل مسلم .

وينتهون الى القول بأنه كان فرضا بالنسبة للمؤمنين كافة ، ثم أصبح تطوعا بالاية الاخيرة ونحن لا نوافق على شىءمن ذلك كله وقد فصلنا القول فى ذلك فى كتابنا **((الاسلام ورسوله بلغة العصر))**فى البحث الخاص بالناسخ والمنسوخ .

وعندنا انه عندما نزلت هذه الايات لم يكن ثمة مؤمنون الا سيدنا محمد وزوجه وتابعه وصاحبه ، ولذلك فالحديث موجهالى سيدنا محمد خاصة وقيام الليل هو الشحنة الروحية التى يحتاجها سيدنامحمد لمواجهة ما هو مقبل عليه ، والدعوة الى قيام الليل ، صيغت بالأسلوب الذىيدع الخيار لسيدنا محمد فى مدى ما يقوم فيه للصلاة بالليل ، ومن المعروف والمشهورأن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان يخلو بنفسه شهرا كاملا فىغار حراء يتعبد فيه لله بوجدانه ، وبقدر ما تهديه اليه فطرته السليمة النقيةالطاهرة ، والمهم انه كان يعتزل الناس وشواغل الحياة ، وغنى عن البيان انه فىهذه العزلة المطلقة لم يكن يديم النوم ، أما وقد هبط عليه الوحى وأصبح مكلفابأداء الرسالة ، فقد بدأ الله يوجه سهره وسهده بالليل ، فلا يكون أرقا ، ولا يكونقلقا ،وانما يكون توجها لله عز وجل ويكون دعاء وصلاة وتهيؤا للاضطلاع بالرسالة .

ونحن لا نفهم من قول القرآن الكريم **(نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه)** الا انه رخصة لسيدنا محمد أن يقوم قدراستطاعته .

فمحاولة تحرى مدة القيام بالضبط وهل هى الثلث أو الربع أو اكثر أو اقل هو تكلف لا ضرورة له خاصة وان طولالليل يختلف من فصل لاخر ، بل من يوم

ليوم وهو ما أشارت اليه الاية الأخيرة من السورة بالذات حيث ظن بعض المؤمنين الأوائل أنهم مقصودون بهذا الخطاب وليس الأمر خاصا بسيدنا محمد فراحوا يقومون الليل كله من باب الاحتياط ويتحملون ما لايطيقون ، حتى لقد قيل ان أقدام بعضهم قد تورمت ، ومن أجل تصحيح هذا الفهم الخاطىء نزلت الاية الاخيرة كما سنرى : فالقاعدة الشرعية الأساسية وهى حجر الزاوية فى كل عبادات الاسلام .

(لا يكلف الله نفسا الا وسعها) .

انا سنلقى عليك قولا ثقيلا :

يحاول بعض المفسرين القدامى أن يصرف كلمة «ثقيلا» الى معناها الحرفى فيقولون ان الكلام ثقيل لأنه كلام الله فلا هو بالفارغ ولا هو بالسفساف ، ويقولون ثقيل ، أى فى الميزان ... وكل هذا تكلف فالقرآن يفسره ما قبله وما بعده ، ويفسره بالأكثر واقع الحال .

وواقع الحال هنا أن الله سبحانه وتعالى ينبه رسوله الى ما سوف يلقى على عاتقه من مهام جسام ، وان هذه الدعوة الى توحيد الالوهية وهجر الأصنام ليست بالشىء الهين البسيط ، وانما هى مسألة تحتاج الى كل عزم الرسول واحتماله المشاق والأثقال ، وأنه يجب لذلك أن يتذرع بالصبر والصلاة .

والصلاة أطيب الصلاة هى ما كانت فى هدوء الليل ، حيث يتفرغ القلب من شواغل الدنيا ، ويصبح التوجه الى الله وتلاوة القرآن أكثر موافقة ومطابقة .

ان ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا . ان لك فى النهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا .

ناشئة الليل : يدور خلاف كبير حول ناشئة الليل ، فيقولون هى أول الليل ، ويقولون بل هى كل ساعات الليل ، وينتقل البعض بالمعنى من أنه وصف للزمان الى أنه وصف للمصلى نفسه ، وقد رجعنا كعادتنا لاستلهام ألفاظ القرآن فوجدنا أن القرآن الكريم قد استعمل كثيرا فعل انشأ بمعنى خلق وبدأ غير أن المداوم على تلاوة القرآن سرعان ما تتكون عنده حاسة اشعاع كلمات القرآن .

والمعنى الذى تشعه عبارة ناشئة الليل وهى فى هذا السياق مع ما قبلها وبعدها ، ان القيام بالليل والناس نيام ،والتوجه الى الله عز وجل فى هدأة الليل له خصائصه ومزاياه حيث تشف الروح ،ويزداد التقارب من روح الله ، فتصبح لتلاوة القرآن مذاق أى مذاق .

وأقوم قيلا : أشد تثبيتا للنفس والفؤاد .

ثقل الوحى :

على أن ثمة أحاديث تساق فى هذا الموطن للتدليل على ثقل الوحى على رسول الله ونحن مع عدم موافقتنا على أن ذلك هو المقصود بهذه الاية ، ومع ذلك لا يسعنا الا أن نثبتها ليكون أمام القارىء كل ما قيل .

فيروى عن السيدة عائشة قولهـا ،((**ولقد رأيته ينزل عليه الوحى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الشديد البرد فيفصمعنه وان جَبينه ليتفصد عرقا)) .**

وقال الامام أحمد عن السيدة عائشةانها قالت : ((ان كان ليوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلتهفتضرب بجرانها)) .

وقال ابن جرير بسنده : ان النبىصلى الله عليه وسلم كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها (بمعنىبركت على الأرض) فما تستطيع ان تتحرك حتى يسرى عنه . (أى ينتهى عنه الوحى)الجران هو باطن العنق .

وغنى عن البيان أن ايراد هذه الأحاديث بهذا الصدد يراد أن تفسر به كلمة (ثقيلا) وقد قدمنا أننا لسنا من هــذاالراى ...

فالمقصود هنا هو ثقل عبء المهمة التى ستلقى على كاهل سيدنا محمد فعليه أن يتذرع بالصبر والصلاة .

ان لك فى النهار سبحا طويلا :

ومرة أخرى يتوه بعض المفسرين القدامى مع الألفاظ وحرفية معانيها ، فيذهب بعضهم الى أن سبحا معناها (نوما) .

أى قم يا محمد بالليل والنهار أمامك لتنام فيه ، وهذا فى رأينا عكس المعنى الذى تشعه لنا الايات ، وهو على خلافما كرره القرآن دواما من ان الله جعـل النهار مبصرا للجرى على المعايش ، وعلىهذا الضوء يجب أن تفهم آية **(ان لك فى النهار سبحا طويلا)** . أى أن النهـارسيكون مخصصا للمعايش من ناحية ، ولمهام الدعوة ومشاقها من ناحية أخرى ،فليكن الليل وسكونه وظلامه هى فرصتك فى مناجاة ربك والانقطاع لعبادته (وتبتل اليه تبتيلا) .

رب المشرق والمغرب لا اله الا هوفاتخذه وكيلا ــاى فوض اليه جميع أمرك واعتمد عليه .

وفى هذه الآية الكريمة لب هذه الرســالة التى حملها ســيدنا محمد لقومه وللبشرية كلها . وهى توحيد الألوهية .

وقد كانت القضية كل القضية ، ليسفقط بالنسبة للعرب ، بل لسائر الشعوب ليست مسألة وجود الله أو عدم وجوده ،فتلك مسألة خارجة عن كل بحث . فالله موجود حقا وصدقا قد أجمع البشر علىذلك ولا شك فيها ، وانما المسألة والقضية كانت فى تعدد الالهة وأنه اله واحد ، لا ترمزله هذه الأصنام ، ولهذا أشــار القرآن الكريم فى أكثر من آية :

ـــ ولئن سألتهم من خلق السموات، والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله .

وأنما كانت مشكلة قريش أن سيدنامحمدا قد جعل الله واحدا احدا .

ـــ اجعل الالهة الها واحدا ان هذالشيء عجاب .

وهذا هو موضع انكار قريش ، وهذا هو ما جعل رسالة سيدنا محمد ثقيلة على أنفسهم كل الثقل .

خاصية تعبيرات القرآن :

وقد أشرنا أكثر من مرة خلال تفسيرنا لسور القرآن الى اتساع معانيها لكل ما تكشف عنه الأيام من تطورات وحقائق .

وهذه الاية (**رب المشرق والمغرب**)فنحن نعلم الآن بعد ثبوت كروية الأرض ان ليس ثمة ما يطلق عليه مشرق أبداومغرب أبدا .

والأرض اليوم مقسمة الى ٣٦٠ درجة نصفها هو ١٨٠ درجة .

وعندما تشرق الشمس على نصفالكرة الغربى فانها تغرب عن النصف الشرقى والعكس بالعكس .

أى أن هناك منطقتين متميزتين لكل منهما شروق وغروب وهنا نجد القرآن الكريم يقول لنا :

ـــ رب المشرقين ورب المغربين :

ولكننا أصبحنا نعرف ان الكرة الأرضية تدور ، وبناء عليه فالشمس تشرق فى كل يوم على بقعة من الأرض جديدة ،خلاف شروقها السابق من حيث الزمان والمكان ومن هنا يقول لنا القرآن الكريم((**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**)) .

وهكذا تتضح آيات القرآن لكل ما يمكن أن يسفر عنه الكون من حقائق على مر العصور والقرآن يستخدم مختلفالصيغ لتكون متسقة مع اختلاف الفهم .

لا اله الا هو فاتخذه وكيلا :

ان يجعل الانسان الله تجاهه فى كلأمر من أموره .

(**فاتخذه وكيلا**) أى سندا ومعينا ،وهذا هو اكسير الحياة الطيبة والسعادة فى الدنيا والاخرة ، هذا هو ينبوع القوةوالشجاعة والنجاح .

هذه هى عدة سيدنا محمد وخلفائه من بعده فكان هذا النجاح المذهل الذى حققوه .

واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . ان لدينا انكالاوجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا .

اهجرهم : أى اعتزلهم ، **انكالا** : اغلالا وقيودا ، **ذا غصة** : أى يقف فى الحلق **الكثيب** : تل الرمل ، **المهيل** : الرخو المتداعى .

واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وفى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا بأن يتقلد السلاح الثانى من أسلحة المجاهد والداعية فى سبيل الله والحق وهو أن يتذرع بالصبر ، أما السلاح الأول فهو ما بدأت به السورة وهو القيام لله أى التوجه اليه والاعتماد عليه والايمان بأنه مصدر القوى ونعم المولى ونعم النصير ، وقد جمع القرآن الكريم هذين السلاحين فى آية واحدة عندما يقول :

— « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » .

ولقد تحدثنا فى أكثر من مناسبة عن الصبر وانه ليس قوة سلبية وانما هو قوة ايجابية وشرطه ان يتحمل الانسان المصاعب والمشاق وكل صنوف الحرمان مع الادراك والشعور والوعى وذلك فى سبيل غاية سامية ، وهدف محدد يتصل بالمثل العليا .

وهذا الادراك من ناحية ، والهدف السامى من ناحية أخرى هو الذى يفرق الصبر عن السلبية والاستسلام والموات ، والا فهناك مئات الملايين من البشر يعيشون فى الحرمان والالام ولا يمكن اعتبارهم من الصابرين ، لانهم لا يحسون بما هم عليه من ناحية ، ولأنه لا يوجد لهم أى هدف فهم يعيشون لمجرد أنهم وجدوا فى الحياة .

واهجرهم هجرا جميلا :

ولسنا نستطيع الا أن نقف طويلا ، أمام هذا الأدب العالى والتربية السماوية لرسول الله ، اذ يأمره الله سبحانه وتعالى أن يصبر على أذى القوم له بالقول ، وان يعتزلهم لا عزلة القطيعة والمعاداة ، بل عزلة المعاتبة والاحتجاج الأخوى ، فهم أهله وعشيرته وقبل ذلك فهم البشر الذين جاء لهدايتهم واخراجهم من الظلمات الى النور فاذا قاطعهم وأعرض عنهم نهائيا ، فكيف يؤدى الرسالة التى كلف بأدائها لهم فليس أمامه الا الصبر والمصابرة ، وما أسماه الله بالهجر الجميل وليس يحسه ويفهمه الا الدعاة الصادقون فى سبيل الله أى الحق .

منسوخ بآية السيف :

وليس هناك ما نأسى له أكثر من أن نجد فى التفاسير القديمة ، ان أمثال هذه الآية قد نسخ بآية السيف ، بمعنى أنه قد بطل مفعولها .

وقــد ابدينا دهشــتنا فى بحثنا عن الناسخ والمنسوخ من مثل هذا القول ، فهذه الدعوات والتوجيه الالهى الكريم لا يمكن أن تنتهى أبدا ، فهى خالدة ما خلدت السماء والأرض ، وهى تعمل كلما توافرت دواعيها .

فكل مجاهد ، فى كل زمان ومكان وكل داع للحق والخير يتواجد فى مجتمع معاد لدعوته ، عليه أن يفعل مثل ما فعل سيدنا محمد فى مستهل دعوته ، وقد كان جهل بعض الدعاة لهذه الحقيقة وتصورهم ان هذه الآية منسوخة بآية السيف ، أقول كان لجهل هذه الحقيقة السبب الأكبر فيما أصيبوا به من متاعب ونكسات .

وذرنى والمــكذبين أولى النعمــة ومهلهم قليلا :

يقول الله سبحانه وتعالى لسيدنا محمد : اتركنى يا محمد اتصرف مع هؤلاء الأقوام الاغنياء والاسياد الذين جحــدوا نعمتى عليهم ، فأنا أتكفل بتدبير شــأنهم (فكان منهم من آمن ومنهم من قتل فيما بعد) .

ومهلهم قليلا : اى لا تعجل عليهم ، فليس أصعب على نفوس هؤلاء الكبراء أن ينزلوا عن معتقداتهم وتقاليدهم التى عاشوا عليها ، وان ينزلوا بالأكثر عن نفوذهم وسلطانهم الذى يتمتعون به فى ظل المجتمع القديم وهذا توجيه من الله عز وجل لكل صاحب رسالة أن لا يتعجل وان يتأنى ، وان يصبر على المخالفين حتى يألفوا الخير الجــديد .

ان لدينا انكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا .

حديث عن يوم القيامة وبعض اهواله ، حيث ينعكس كل مطبوع ، ويشذ كل مألوف .

فالسادة الذين فى الدنيا الذين اعتادوا أن يقيدوا الناس فى السلاســل يجدون انفسهم وقد أصبحوا هم فى الاغلال والسلاسل والذين اعتادوا على ترف الدنيا فى مطاعمهم ومآكلهم ، سوف تغص حلوقهم بأطعمة جهنم من زقوم وغسلين وهيئــات وكيفيات لا يعلمها الا الله .

وترجف الأرض والجبال اى تزلزل (**اذا زلزلت الأرض زلزالها**) .

وكانت الجبال كثيبا مهيلا اى تتحول الجبال عن طبيعتها فبدلا من أن تكون هى العمد الرواسخ والأوتاد تصبح ترابا يبابا .

(**ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا**) سورة طه .

انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رســولا . فعصى فرعون الرسول فاخذناه أخذا وبيلا . فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به كان وعده مفعولا . ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا .

وترد الاشارة الى قصة سيدنا موسى وفرعــون وقد ذكرنا من قبل ان قصــص الأنبياء والرسل قد وردت فى القرآن لتحقيق هدفين : **أولهما** : وحدة الدعوة الحقة الى الله .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينـــا اليك وما وصـــينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى ١٣ .

والهدف الثانى : هو تثبيت فؤاد سيدنا محمد ، ووعده بالنصر النهـــائى وتحذير الكفار والمشركين بالتالى من مغبة كفرهم وعنادهم لان الأمر سينتهى فى كل الأحوال بخذلانهم وانتصار دعوة الحق .

ولقد أشرنا بافاضة فى تفسير سورة النازعات الى قصة سيدنا موسى وفرعون وكيف عرضت فى القرآن .

واغلب الظن والله تعالى اعلم ، ان قصة سيدنا موسى وفرعون كانت معروفة وشـــائعة فى الجزيرة العربية لســـببين : **الأول** : ان مصر وخليج السويس وشـــبه جزيرة سيناء حيث دارت وقائع القصة تؤلف أجزاء مكملة لشبه جزيرة العرب ان لم تكن جزءا منها فى هذا التاريخ البعيد .

السبب الثانى لانتشار القصة وشيوعها ، هو تواجد عناصر يهودية بالذات حول قرى شبه الجزيرة ، وخاصة فى مـــكة ، وبصفة أظهر وأقوى فى المدينة المنورة . والآيات واضحة وصريحة من حيث تحذيرها لقريش من أن الله سبحانه وتعـــالى قد أرسل اليهم رسولا ، كما أرسل موسى من قبل الى فرعون والويل لهم ان هم كذبوا هذا الرســـول وعصوه ليـــكونن جزاؤهم وعاقبتهم هو عين جزاء فرعون عندما اخذه الله أخذا وبيلا ، أى دمره واهلكه بكفرانه وطغيـــانه .

فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا . .

حديث عن اهوال يوم القيامة و (**الولدان شيبا**) كناية عن شدة هـــول ذلك اليوم والا فلن يكون هناك اطفال .

السماء منفطر به كان وعده مفعولا :

وانفطار السماء أى انشقاقها واختلال نظمها هو أحد مظاهر يوم القيـــامة وقد فصـــلنا فى ذلك القول فى تفســـير سور الانفطار والانشقاق والتكوير .

ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا .

هذه هى عظمة الدين الاسلامى من حيث تقديسه للحرية الفردية ، فقد كان سبحانه وتعالى قادرا على أن يخلق البشر كسائر الكائنات الاخرى مطبوعين علـــى عبادته ولكن شاءت ارادته لحكمة يعرفهـــا هو أن يجهز الانسان بحرية الاختيار .

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ولقد فصلنا القول فى الايات المماثلة .

ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم .

نصل الآن الى ختام السورة بآية دار حولها أكثر الجدل ، فمن قائل انها مكية ومن قائل انها مدنية ، وليس هذا هو المهم ،ولكن المهم أن جمهرة المفسرين والفقهاء القدامى يقولون أنها نسخت صدر السورة.

فبعد أن كان قيام الليل فريضة أصبح تطوعا .

فأما الذين قالوا بمكية الآية فقد استندوا الى أحاديث منسوبة الى السيدة عائشة تقول انها نزلت بعد عام من نزول الآيات الأولى وفى خلال هذه السنة عانى الصحابة من قيام الليل ما عانوا فنزلت الآية الأخيرة تخفيفا عنهم . أما الذين قالوا بمدنية الآية فقد استندوا الى أحاديث أخرى تقول ان الآية نزلت بعد عشر سنوات كما استندوا بالأكثر الى سياق الآية نفسها وطابعها .

ونحن من هذا الرأى فالآية تتحدث عن القتال فى سبيل الله كسبب للتخفيف ولم تكن فريضة القتال للدفاع عن العقيدة قد فرضت فى مكة حيث كانت الدعوة للصبر الجميل واحتمال الأذى والبعد عن العنف ،فنحن ممن يرجحون مدنية الآية .

الناسخ والمنسوخ :

على أن هذا ليس هو لب المشكلة وانما تبدأ المشكلة عند قول من قالوا ان هذه الاية تنسخ ما قبلها على الوجه المتقدم ،وقد شرحنا باستفاضة موضوع الناسخ والمنسوخ فى كتابنا الذى أشرنا اليه ،ولسنا نرى أى نسخ اذ لا تعارض بين ما جاء فى مستهل السورة وما جاء فى آخرها ، وقد ظل قيام الليل احد مظاهر عبادة سيدنا محمد حتى آخر لحظة من حياته ، وقد كرر القرآن دعوته لسيدنا محمد لقيام الليل **(ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .**

والحقائق التاريخية فى السيرة النبوية تدلنا على أن سيدنا محمدا والذين كانوا أول من آمن به من الصحابة ، لم يكن لهم من عمل طوال اقامتهم فى مكة الا احتمال الأذى والصبر على المكاره ، وليس شك أن قيام الليل هو زاد هذه المرحلة ، أما بعد أن هاجروا الى المدينة فقد اختلف الوضع وأصبح المجتمع اسلاميا ، فأخذ الصحابة

يزاولون النشاط الانسانى المعتاد ، وقاموافوق ذلك بالدفاع عن العقيدة عن طـريق القتال ، فأصبح ذلك مما يتعارض مع قيامالليــل .

وهذه الحقيقة هى أحد مظاهر عظمةالدين الاسلامى وما يجعله دين الانسانية بلا مراء . فهو يرتفع بالجرى وراء المعايشوطلب الرزق الى مرتبة العبادة بل أرفع درجات العبادة وهى قيام الليل .

فعندما ترى نفســك أيها القــارىءالكريم مجهدا منالسعى فىالحياة لتستغنى بالحلال عن سؤال الناس ، فأعلم أنك مقبول عند الله ، وأنه راض عنك .

وليس تفسير عبارات الآيات بعد ذلك بالشىء الصعب .

ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه :

اشارةالى محاولة تحرىسيدنا محمدلـمـدى ما يقــومه من الليل ، فحينــا يحاول أن يقوم النصف (أدنى من الثلثين وتارة يقوم الثلث أدنى من النصف) وأحيانا دون الثلث (الربع) وقد قلنا أنه من رأينا أن هذه المقادير كانت اجتهادية ، فلم تكن هناك ســاعات ولا حتى (مزاول) وهوما يشير له القرآن صراحة **(علم أن لن تحصوه)** وأن الله وحده هو الذى يقــدرالليل والنهــار .

وطائفة من الذين معك :

هذه الآية هى دليلنا على أن قيــام الليل لم يكن كما قيل فريضة ثم أصــبح تطوعا فهى تتحدث عن نفر من المؤمنينتطوعوا أن يقتدوا بسيدنا محمد فى قيــامه الليــل ، ولم يكونوا مــأمورين بذلك ، فالخطاب كما قدمنا موجه بصفة خاصةالى سيدنا محمد (يا أيها المزمل) .

فاقرءوا ما تيسر من القرآن :

وأصبح الواجب على المسلم أن يقرأما تيسر له من القرآن قدر استطاعته .

وقد استند بعض الفقهاء الى هذهالاية فى اشتراط قدر معين من تلاوة القرآن لصحة الصلاة ، حتى ذهب البعض الى أنتلاوة آية واحدة تكفى لصحة الصلاة ولكن هيئة الصلاة وكيفيتها ، قد نقلا الينا بالتواترعن رسول الله ، وعندنا أن لا صلاة الا بأم الكتاب (أى الفاتحة) ثم يزاد عليها ما تيسرمن القرآن ، وهذا هو فعل الرسول الذى داوم عليه .

وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة :

هذا هو النص على فرضى الصلاة والزكاة كما تحددتا فى المدينة .

وأقرضوا الله قرضا حسنا :

تعبير آخر من التعبيرات التى استعملت فى المدينة وهو يدعم ما ذهبنا اليه من مدنية الآية ، فالقرآن يستحث المسلمين على عمل الصالحات ، ويشبه لهم ذلك بأن كل عمل طيب يرفعونه لله فسوف يحفظه لهم ، ويرده عليهم اضعافا مضاعفة بالثواب والعطاء وقد استعمل القرآن هذا التعبير فى أكثر من سورة مدنية فأخذه اليهود (لعنهم الله) على ظاهره وحرفيته ، وقالوا أن محمدا يدعونا لنقرض الله فنحن اغنياء وربه فقير فدل ذلك على سفه عقولهم ورغبتهم فى التجنى والعناد ، والا فالمعنى واضح ومشرق من ان أى خير يفعله الانسان ، فسوف يجده عند الله محفوظا بل وقد نما وربا وصار أضعافا مضاعفة .

واذا كان المجتمع العربى مجتمع تجارة يدور على البيع والشراء والربح والخسارة ، فقد استعمل القرآن هذه العبارات القريبة الى أذهانهم الحبيبة الى نفوسهم ، فنرى فى القرآن :

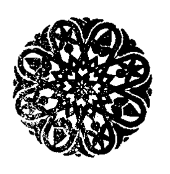
ان الله اشترى من المؤمنين .

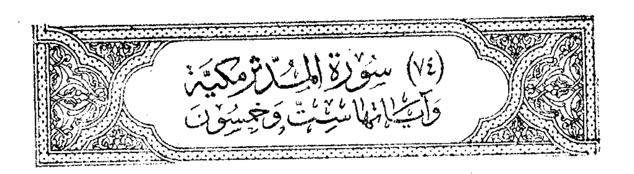
ـ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به .

تجارة لن تبور .

واقراض الله هو من هذا القبيل كناية عن القيام بصالح الاعمال .

الاستغفار والتوبة : وتختم الآية بأمر المؤمنين بالاستغفار ، والاستغفار هو مراجعة النفس ومحاسبتها وعندما يحاسب المؤمن نفسه حقا وصدقا ويعتزم ويصمم أن لا يعود لمثل ما فعل ، ويصدق النية فهذا هو أحسن النسك والله تعالى أعلم والحمد لله .





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن
تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ
قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾
لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ
وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾
وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ
نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ
فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ
مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾
كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

ســـــورة مكية :

وهى سورة مكية باتفاق بل لقد قيل أنها أول السور نزولا وقد ذكر الأستاذ الكبير عزت دروزة فى تفسيره الحديث أنه استند فى تفســيره على مصحف يجعل ترتيب نزولها الرابعة أى بعد سورة اقرأوسورة [ن] ثم سورة المزمل . والجمهور جمهور المفسرين على أن الست آيات الأولى من سورة اقرأ هى أول ما نزل من القرآن ونحن من هذا الرأى .

وقد ورد فى البخارى وبعض كتب الأحاديث الأخرى ما يفيد أن اقرأ كانت أول ما نزل من القرآن كما جاء فيها أيضا أن سورة المدثر هى أول القرآن نزولا على أن التوفيق بين القولين ممكن فمن المسلم والمتفق عليه أن الوحى نزل على سيدنا محمد أول ما نزل فى غار حراء وقال له : « اقرأ » فأجاب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ما أنا بقارىء (أى لا أعرف القراءة) ولكن جبريل عليه السلام هتف به مرة ثانية : « اقرأ » ثم ثالثة ثم قال له :

اقرأ باسم ربك الذى خلق
خلق الانسان من علق
اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم
علم الانسان ما لم يعلم

فرجع سيدنا محمد الى السيدة خديجة وهو يرتعد من الخوف والفزع وقال لها : زملونى زملونى ودثرونى دثرونى الى آخر ما ذكرناه بالتفصيل فى تفسير سورة اقرأ ولكن البخارى يروى لنا حديثا آخر عن جابر يصر فيه على أن الآيات الأولى من المدثر هى أول ما نزل من القرآن واليك نص الحديث ، حدثنا الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عنفترة الوحى فقال فى حديثه : فبينما أنا أمشى اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فجثيت منه رعبا فرجعت فقلت زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله تعالى : يا أيها المدثر.. الى قوله : والرجز فاهجر . (قبـــل ان تفرض الصلاة) وهى الأوثان وقد روىالبخارى هذا الحديث بعدة طـــرق تنتهى كلها الى جابر بن عبد الله ولكننا اخترنا هذا النص الذى يتفق والنصوص الأخرى .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن الملك الذى سبق أن جاءه بحراء والحديث يتحدث عن فترة انقطاع الوحى عن رسول الله فترة ثم معاودة نزول الوحى . واما أن الوحى انقطع فترة عنرسول الله فذلك مستفاد من آية القرآن « **ماودعك ربك وما قلى** » على ماقلنـــاهفى تفســـير سورة الضحى من أنه قيـــل لرسول الله لـــا انقطع عنه الوحى : أن ربه قلاه أى تخلى عنه فنزلت الآية : « **ما ودعك ربك وما قلى** » .

وهكذا تتكامل الأحاديث الصحيحة فالآيات من سورة اقرأ كانت أول ما نزل ويا أيها المدثر أول ما نزل بعد فترة الانقطاع والله تعالى ومنه وبه التوفيق .

يا أيها المدثر . قم فانذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر .

يا أيها المدثر : الخطاب لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقد ذهب المفسرون منذ اقدم العصور فى تفسير هذه الآية وما تلاها من آيات الى مذهبين : احدهما يأخذ بمدلول اللفظ الظاهر ، والثاني يتمسك بالمعنى الباطنى .

ونحن ممن يأخذون بظاهر اللفظ وباطنه فى نفس الوقت ما دام لا تعارض بينهما . وكلا المعنيين لو صحا لكان ذلك مما لا يتعارض مع مقام النبوة والحقائق الثابتة وتاريخ سيرة الدعوة المحمدية .

فأما عن المعنى الظاهر لكلمة المدثر فمعناها : (ما يتدثر به الانسان وهو ما يلقيه عليه من كساء أو غيره فوق الشعار .

وفى السيرة وما سقناه من احاديث قال رسول الله لأهل بيته : « دثرونى دثرونى » وقد ذكرنا أنه قال ذلك عقب مفاجاته بالوحى ولكن بعض المفسرين يقولون : (ولا نعرف سندا لهم من حديث صحيح) أنه قالها من فرط حزنه وغمه فقد أسمعه قومه ما يكره وآذوه فعاد الى بيته حزينا وطلب أن يدثروه لينام فنزلت هذه الآيات تطالبه بالنهوض وأن يشمر عن ساعد الجد فى سبيل الدعوة .

أما أصحاب المعانى فيقولون ان الرسول صلوات الله عليه بدأ دعوته فى الخفاء فكأنه كان متدثرا فأمره الله عز وجل أن يخرج من الخفاء الى العلانية ، وأن ينذر المشركين بما جاءه من الحق ، وكل ذلك جائز ، ولنا ما فى الأحاديث الصحيحة من أن رسول الله قال عقب عودته من غار حراء وقد عاين الوحى لأول مرة . « دثرونى .. دثرونى » فنزلت آية **يا أيها المدثر** .

ومخاطبة الرسول بهذه الكناية فيه تحبب واعزاز .

قم فانذر وربك فكبر :

جاء فى بعض الروايات انه لما نزلت آية : « وربك فكبر » كبر رسول الله هاتفا الله أكبر فسمعته السيدة خديجةفكبرت بدورها وآمنت بأن رسول الله قدأوحى اليه ويسرف المفسرون فى الوقوف أمام هذهالآية طويلا ويتساءلون هل كانت قبل فرض الصلاة وكيف كانت هيئة الصلاة ساعتئذ . ويدخلون فى مباحث مستفيضة حول تكبيرة الاحرام التى لا تصح الصلاة بدونها وأنها مفتتح الصلاة .

أما نحن فنصلى لأنه هكذا علمنا الرسول أن نصلى والآية واضحة وصريحة فى وجوب تعظيم الله ووضعه فوق كل كبير مهما علا شأنه وارتفع وأن لا ننزلق الى عبادة الأوثان فضلا عن عبادة الأشخاص أيا كان شأنهم .

وفى السيرة النبوية ، أنه عقب غزوة أحد وانهزام المسلمين هتف أبو سفيان : أعل هبل (وهو اسم صنمهم المعبود) .

فقال سيدنا محمد لصحابته ردوا عليه . فقالوا : ماذا نقول يا رسول الله قال ، قولوا : الله أعلى وأكبر . ومن الواضح من مطالعة السيرة النبوية أن سيدنا محمدا فى بادىء الأمر آثر عدم مجابهة المشركين بتسفيه أحلامهم ، والتنديد بأصنامهم الى أن نزل عليه الوحى فى هذه الآية وأمثالها تحدد له معالم الطريق وأن لا يأبه بالمشركين .

((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)) .

وهذه الآية التى نحن بصددها أمر من الله سبحانه وتعالى لسيدنا محمد ومن بعده لكل انسان على ظهر البسيطة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها أن يكبر الله لا باللسان فحسب بل ومن أعماق القلب فيستشعر كبره وعظمته فوق العظماء ولقد أصبحت عبارة ((**الله أكبر**)) هى شعار المسلمين فى كل زمان ومكان وهى نشيدهم والايمان بها قمة أسلحتهم .

وتحت لواء الله اكبر رفع الاسلام أعلامه من الصين حتى أسبانيا على شاطىء الاطلنطى غربا،وتحت راية الله اكبراعتنق التتار والاتراك الدين الاسلامى بعد أن حاربوه وارتفع صوت المؤذن الله أكبر فوق دور العبادة فى القسطنطينية أعظم مدن العالم القديم فى وقتها وعاصمة الامبراطورية البيزنطية .

هذا هو ما تشعه لنا اليوم آية ((**وربك فكبر**)) أما المباحث الفقهية ودور تكبيرة الاحرام فى الصلاة فمكانها كتب الفقه وعلى أى حال ففريضة الصلاة ونظامها ومواقيتها وعدد ركعاتها وهيئتها ابتداء من تكبيرة الاحرام حتى التحلل منها بالسلام فكل ذلك تم فى وقت متأخر .

ولذلك فنحن نميل الى أن تكبير الله وتعظيمه فى هذه المرحلة كان يعنى توحيده وعدم الاشراك به ومحاربة الأصنام ولذلك فنحن ممن يقولون أن الدعوة الى التوحيد تسبق الدعوة الى أى عنصر آخر من عناصر الاسلام فى أى مجتمع غير اسلامى .

وثيـــابك فطهر :

وحول هذه يتضح هذا الذى ذكرناه من قبل من أن بعض المفسرين أخذوا بمدلول الآية الظاهر من تطهير الثياب ، وراحوا يفصلون فى مقتضيات الطهارة وأول شرائطها تقصير الثوب حتى لا يؤدى الافراط فى طوله الى التدنس بملامســته الأرض .

ويتخذ الامام الشافعى رضى الله عنه هذه الآية أساسا لتفريعاته عن طهارة الثوب ومن المفسرين من سـلك الطريق الآخر وقال ان المقصود بطهارة الثوب هو طهارة النفس واستندوا الى أبيات جاهلية من الشعر تنطق بأن العرب كانت تكنى عن طهارة النفس بطهارة الثوب وعندنا أن كل ذلك مقبول ومفهوم ومطلوب ولاتعارض بين طهارة القلب والنفس وطهارة الثوب ومما لا جدل فيه أن القول موجه لسيدنا محمد فالتوجيه كامل وشامل لكل أنواع الطهارات المعنوية والمـادية وكذلك الشأن بالنسبة لكل مسلم يجب أن يقتدى برسول الله وهو الأصل والأساس فى تعاليم الاسـلام .

والرجز فاهجر :

الأصل فى معنى كلمة الرجز أنها العذاب جاء فى القرآن الكريم :

— ((**فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء**)) ٥٩ البقرة .

— ((**فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون**)) ١٦٢ الأعراف .

— ((**انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء**)) ٣٤ العنكبوت .

والمعنى هنا أى اهجر (ابتعد — تجنب) موجبات العذاب التى تؤدى اليه وهى عبادة الأصنام وكل مظاهر الشرك وكل صنوف الانحرافات ولذلك قال البعض أن الرجز هنا بمعنى الرجس .

فاجتنبوا الرجس من الأوثان :

وجمهرة المفسرين على أن معنى الآية ((اهجر الأوثان)) .

ولا تمنن تستكثر :

أى لا تعط عطاء أو تقوم بأى عمل من الأعمال فى انتظار مقابل أكثر منه فعلى كل مؤمن مسلم أن يفعل الخيرات ويقوم بالصالحات بدون انتظار أى جزاء أو مكافأة الا الرضا والاطمئنان الذى يحس به المعطى وفاعل الخير والعمل الصالح .

ولم يعجبنى ما ذهب اليه بعض المفسرين من أن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه لا تستكثر قيامك بالدعوة الى الله وقيامك وصلاتك لا أظن أن مثل هذا الاحساس دار بنفس سيدنا محمد ولو لمدة لحظة واحدة وهو الكامل المكمل الذى لم يكن بطبعه يمن على البشر فمن غير المعقول والمقبول أن تهجس فيه خاطرة المن على الله سبحانه وتعالى الذى كرمه أعظم تكريم باختياره لأداء الرسالة وفى القرآن الكريم :

ـ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى .

ـ الذين ينفقون أموالهم فى سـبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منـا ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم .

الجزاء فى ثنايا العمل الصالح :

واريد ان اقف هنا قليلا لأقول لكل مسلم مؤمن أن الجزاء والمكافأة على أى عمل طيب يكمن أول ما يكمن فى العمل الطيب نفسه حتى ليكاد المؤمن الصادق أن يكون هو الذى يشكر من اعطاه عطية أو عمل له معروفا لأنه هيأ له فرصة الاحساس بالرضا والسعادة وهو يعطيه أو يعاونه .

وعندى ان اى عمل خير يقـوم به الانسان انما يقوم به لأنه مدفوع اليه دفعا وهو يحس بعد أن يقوم به براحة نفسية ما كان ليحس بها لو لم يقم بهذا العمل الطيب اما الذى يقوم بأى عمل فى انتظار المكافأة والمقابل من الناس فهذا هو العمل غير الطيب وان بدا فى صورة الطيب .

ولربك فاصبر :

وفى هذه يأمر الله النبى صلوات الله عليه ومن بعده الى كل مسلم وخاصة المجاهدين منهم بالصبر والحق انه لا سلاح للمؤمنين لاجتياز معركة الحياة الا الصبر ولقد افضنا فى الحديث عن الصبر فى تفسير آية **((وتواصوا بالصبر))** فى سورة العصر وكيف أن الصبر لا يعنى السلبية وانما يعنى تحمل المشاق وكل صـنوف الحرمان بالنسبة للمؤمن العادى وكل صنوف الايذاء والاضطهاد بالنسبة للمجاهدين عن وعى كامل وادراك ورضاء .

وفى هذا الوعى والرضا يكمن الفارق بين الصبر وعدم الصبر فالمحنة تصيب كل الناس على السواء سواء صبروا أو لم يصبروا ولكن الصابر يدرك ابعـاد المحنة ويعانى آلامها فى رضاء ويقين بأنها ستزول شريطة أن يبذل كل وسعه وجهده اما غير الصابر فينوء تحت ثقل المحنة ويتملكه اليأس من زوالها فيستسلم وكل الذى يفعله أن يظل يندب سوء حظه .

وكان من الطبيعى ورسـول الله يصدع بأمر الله له فى ابلاغ الرسالة لآله وعشـيرته أن يكلفه الله بالصبر فالطريق طويل وشاق ومحفوف بالآلام والمخـاطر وليس له ما يستعين به هو ومن سيسير معه الا الصبر ولا شىء غير الصبر .

فاذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير :

حديث عن يوم القيامة ويحاول بعض المفسرين القدامى جريا على عادتهم أن يصوروا لنا الناقور وانه نوع من الطبل ويقارنون بينه وبين النفخ فى الصور الذى هو البوق ويتساءلون عن موعد الناقور هل هو النفخة الأولى أم الثانية ، ويرجحون بغير علم أنه النفخة الثانية ونحن نقف من كل ذلك كما اعتدنا أن نقف وهو أن نفوض العلم الى الله . ويكفينا أن الله عز وجل يحدثنا عن يوم القيامة وأنه سيكون يوما صعبا وشاقا على الكافرين (عسير) يسير على المؤمنين وكونه يسيرا على المؤمنين مستفاد من قول الآية الكريمة « **على الكافرين غير يسير** » اى أنه يسير وسهل وهين على غير الكافرين والله تعالى أعلم .

ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا انه كان لآياتنا عنيدا . سارهقه صعودا . انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم ادبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر .

آيات عامة كشأن كل آيات القرآن موجهة فى كل زمان ومكان لبنى الانسان من الأغنياء وأصحاب الجاه والسلطان حيث يكونون هم على الأغلب والأعم من الجاحدين والمعاندين والمنكرين فينذرهم الله سبحانه وتعالى بسوء العاقبة والمصير ولكن القرآن الكريم كان يوحى لسيدنا محمد بحسب المناسبات فيجرى على لسانه أحكامه خالدة أزلية وتتضمن الأحاديث النبوية الصحيحة ذكر المناسبة التى نزلت فيها هذه الآيات وقد تعددت صيغ هذه الأحاديث وتعدد رواتها ولكنها جميعا بمعنى واحد وتكاد تتفق فى الصياغة ولقد أخترنا منها ما جاء فى سيرة ابن هشام اذ يقول :

« اجتمع الوليد بن المغيرة الى نفر من قريش وكان الوليد ذا سن فيهم (أى من كبار زعمائهم) وكان موسم الحج قد حضر فقال الوليد ، يا معشر قريش انه قد حضر هذا الموسم وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (اى سيدنا محمد) فأجمعوا فيه أمرا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا (أى يتناقضون) فقالوا : فأنت يا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقل به فقال : بل قولوا انتم وأنا أسمع قالوا : نقول كاهن (اى على رسول الله) قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه (وفى رواية أخرى أنه قال لقد رأينا الكاهن يصدق مرة ويكذب اخرى ولكن محمدا ما جربنا عليه كذبا قط) قالوا : فنقول عنه مجنون . قال : فما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا : فنقول شاعر قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا : فنقول ساحر قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال والله ان لقوله لحلاوة وأن أصله لعذق وأن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف انه باطل وأن اقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول

هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك .

ومن منهاجنا أننا نعرض كل ما يروى عن رسول الله على القرآن فاذا وافقه اطمأننا لهذا الذى يروى .

وفى القرآن الكريم وصف سيدنا محمد على لسان المشركين بأنه كاهن أو مجنون ((**فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون**)) . **وقالوا** عنه أنه شاعر وقالوا عنه أنه ساحر فتكون الرواية المنسوبة الى الوليد بن المغيرة ثابتة فى حقيقتها وجوهرها .

ذرنى ومن خلقت وحيدا :

أى دعنى يا محمد أتولى شأن من خلقت وحيدا وقد اختلف المفسرون فى معنى (وحيدا) فقال بعضهم أن الله الواحد الأحد هو خلقه بدون معاونة أحد أو مساعدته ((**لمــا خلقت بيدى**)) وقال آخرون ان معنى وحيدا أى أن الوليد ابن المغيرة قد خلق كأى انسان آخر طفلا عاريا ضعيفا وحيدا وشط بعض المفسرين فقالوا ان الوليد كان يسمى وحيدا لشرفه وسيادته على العرب وكذلك أبوه من قبله ولذلك فكان يطلق عليه الوحيد ابن الوحيد ومن قبلنا سخر الامام الرازى فى تفسيره بهذا القول لأنه من غير المعقول أن يصدقه الله — فى مزاعمه من أنه وحيد بين العباد .

والرأى الذى نختاره ونطمئن اليه ويتفق مع عمومية القرآن لكل البشر فى كل زمان ومكان أن الانسان أى انسان يولد من بطن أمه وحيدا أى طفلا وحيدا ضعيفا لم يعرف بعد حظه من الحياة حتى ولو كان أبوه ملكا وأطلق عليــه اســم ولى العهد فقد ينزع الملك من أبيه وقد يشرد بعد ذلك ولى العهد أو يلاقى حتفه فكل البشر يبدأون من نقطة واحدة وهو ميلادهم كأطفال ضعفاء وحيدين كما ينتهون جميعا بنهاية واحدة وهى الموت وبين الميلاد والموت تتفاوت حظوظهم وأقدارهم أيا كان النظام الذى يظلهم .

وجعلت له مالا ممدودا :

وتفترق بعد الميلاد حظوظ الناس أيا كان منشأهم والنظام الذى يظللهم فبعض الناس يصعد من أسفل الدرجات الى أعلاها والعكس بالعكس .

وفى هذه الآية يشير الله لمن بسط لهم فى الرزق وأغناهم بالمــال الكثير ويقول المفسرون الذين يريدون قصر الآيــة على الوليد بن المغيرة أن أمواله كانت ألف دينار (كان العرب فى الجاهلية يعتبرون الألف ذروة العدد) بينما يقول البعض الآخر أن ثروته كانت تقدر بأربعة آلاف دينار ويدع البعض أحاديث الدنانير ويتحدث عن بساتينه فى الطائف والتى تمتد حتى مكة » .

وكل هذا حشو وتزيد وأقوال بغير سند وانما نسوقها لك لأنه لا يوجد تفسير قديم لا يقول بها ومنهاجنا أن نطلعك على كل ونختار لك ما يطمئن قلبنا اليه وهو أن الآية عامة تصف أى انسان بسط الله له فى الرزق والمـال والولد وبـدلا من أن يتوجه بالشكر لله عز وجل الذى أسبغ عليه هذه النعمة يركب راسه ويستولى عليه الغرور كما هو شأن الوليد بن المغيرة .

وبنين شـــهودا :

وكما حاول المفسرون القدامى أن يحددوا ثـروة المغـيرة فكذلك حـاولوا أن يحصوا أبناءه وانهم كانوا عشرة سبعة ذكور وثلاث اناث أشهرهم بطبيعة الحال من أصبح بعد الاسلام هو سيف الله المسلول ونعنى به خالد بن الوليد ويصر المفسرون تحديد كلمة ((**شهودا**)) بأن أبناء المغيرة كانوا دائما حوله لا يفارقونه لاستغنائهم عن السعى طلبا للرزق .

وكل هذه محاولات لتفصيل مدلول الآيات على المغيرة مع أنها كما قلنا وان نزلت بمناسبة المغيرة فان مدلولها عام فى كل زمان ومكان تنطبق على كل من أنعم الله عليه بالمـال والولد فرد على النعمة بالجحود والنكران بدلا من الشكر والعرفان ويصبح المعنى المستفاد من « بنين شهودا » أن مجرد وجودهم شاهد على نعمة الله .

ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد :

ويمضى الله عز وجل فى التذكير بنعمه التى ينعم بها على من يرزقه المـال والولد وكيف أن ذلك يلين له جوانب الحياة وييسرها ويمهدها فلا يؤدى ذلك بالانسان كائنا من كان ابتداء من الوليد بن المغيرة حتى أمثاله فى كل وقت وآن وزمان ومكان اذ تتسع أطماعهم ويزيد طغيانهم ويتفاقم شحهم وبخلهم وقبل ذلك جحودهم وانكارهم كما تكشف عن ذلك الآية التالية :

« كلا انه كان لآياتنا عنيدا » (أى معاندا) .

سارهقه صعودا : وهذا هو الوعيد والانذار لكل من يكون هذا حاله وشأنه .

انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم ادبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر .

((عبس وبسر)) :

العبوس معروف وهو تقطيب ما بين الحاجبين (وبسر) قريب من هذا المعنى وهو وصف لمن يطيل التفكير الذى ينتهى به الى مالا يرضيه وقد رأينا فى الرواية التى نقلناها لك أن الوليد بن المغيرة قد أطال التفكير والحساب والتقـدير

ليتقول على سيدنا محمد حتى خرج بالصيغة التى يجمعــون عليهــا حتى يصــدقهم باقى عرب الجزيرة فى شأن سيدنا محمد .

ويهمنا من قوله : ((**ان هذا الا قول البشر**)) وترجمة هذه العبارة أن القرآن هو من تأليف سيدنا محمد وليس وحيا من الله عز وجل ومثل هذا القول يقول به كل من لا يؤمن بالدين الاسلامى بطبيعة الحال بل ويقول به من لبسوا كالوليد ابن المغيرة لباس العلماء والباحثين ونعنى بهم المستشرقين بل ويقول به بعض الشباب المتحذلق فى أيامنا هــذه اعتناقا منهم للفلسفة المادية الالحــادية وهنــا تظهر اهمية هذه الآية اذ تظهر لهؤلاء الجهلة والمغرورين انهم فى افكهم لم يأتوا بجديد فمن قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا قال جهلاء العرب مثل قولهم وقد فصــل الزمن فى هذه القضية نهائيا واصبح التكلم فيها مجرد شقشقة وتخرص فأى كتاب من صنع البشر يضيع ويندثر بعد عشرات من السنين ولا يوجد سوى القرآن الكريم من حافظ على نصه فضلا عن تأثيره طوال هذه القرون ولا يزال القرآن يغزو القلوب وينير الطريق لمئات الملايين من البشر .

ومثل ذلك لا يمكن ان يكون من صــنع البشر ويكون ادعاء الوليد بن المغيرة كادعاء أى انسان فى أى زمان ومكان على القرآن من أنه ((قول البشر)) هو كذب ما بعده كذب واجتراء على الحقيقة وهو والله يستحق العقاب والجزاء الذى نصت عليه الآيات التالية :

ساصليه سقر . وما ادراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر .

سقر أحد أسماء النار والأصل اللغوى فى كلمة سقر أنه من سقرته الشمس اذا أذابته ولوحته وأحرقت جلده ووجهه .

وتغص التفاسير القديمة بمحاولة تحديد درجة سقر من النار . ونحن سيرا على منهاجنا نمسك عن الخوض فى هذه الغيبيات **وانما ننبه من حين لآخر على ما أصبح العلم الحديث يقربه الى أذهاننا من حديث النار فمن الحقائق المقررة أن الأرض لو دنت بعض الشىء من الشمس أكثر مما هى عليه الآن لهلك كل من عليها ولاحترقت الحجارة نفسها ، فما بالك بحرارة الشمس نفسها عند المركز التى تزيد على ملايين الدرجات وليست الشمس على عظم شانها وجلالة قدرها الا نجم واحد من هذه النجوم التى تفوق الحصر والتى قد يبلغ أحدها أضعاف أضعاف الشمس : أى أن الكوكب الأرضى كله يصبح بالنسبة لها أشبه بالذرة .**

الحق ان الانسان ليتملكه الدوار كلما حاول ان يتفكر فى عظمة هذا الكون واسراره .

لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر :

ولذلك نكتفى بالاستشعار بالرهبة والخوف من وعيد الله عــز وجــل بعــــذاب

الآخرة **ولا نقف طويلا** كما وقف المفسرون القدامى أمام لا تبقى ولا تذر فيقول بعضهم انها لا تبقىشيئا من لحمالانسان أو عظامهويقول البعض الآخر أى لاتميت الانسان ولا تبقيه حيا ويستند كل مفسر الى بعض آيات القرآن أما نحن فنمسك عن ذلك كله ونستعيذ من غضب الله وعدم رضائه أيا كان نوع عذابه .

« **لواحة للبشر** » وقد وقـــع الذينيحاولون تحديدنوع العذاب ودرجتهوالوانه فى شىء من الحرج عندما وصلوا الى آية « لواحة للبشر » **فالأصل فى كلمة لواحة** (انها بمعنى تغير) يقال لوحته الشمسأى غيرت لون جلده ولم يستسيغوا بعد أن اسهبوا فى وصف ما تفعله النيران « **لا تبقى ولا تذر** » أن يعودوا للقول أن جهنم تلفح الوجوه ، أى تغير لونها . فقالوا : لواحة أى تلوح أى تبدو وتظهر فيروى القرطبى عن ابن عباس قوله : « لواحةأىتلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام » .

وقال الحسن وابن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عيانا نظيره « وبرزت الجحيم للغاوين » .

أما نحن اليوم فلا نتعرض لتفاصيلهذه المباحث كما قدمت أخذا بنص القرآن نفسه كما سيطالبنا فى الآيات التالية ، أنلا نقف أمام ظاهر اللفظ ونحاول استكناه مـــدلوله .

وقد جاء هذا التحذير بمناسبة الآية التالية وما فعله المشركون حيالها .

عليها تسعة عشر :

ذلك أن كفار قريش وأعداء الاسلام من كل صنف وفى كل زمان ومكان يتفنون أمام هذا الرقم وبدل أن يفوضوا العلم لله عز وجل ، يتساءلون لـــماذا كانوا تسعة عشر ولــــماذا لم يكونوا عشرين ، وهل كل ما عند الله عشرين الى آخر هذه السفسطة والسخف .

فقد روىأنه عنـــدما سمع المشركون هذه الآية قال أبو جهل لقريش ثكلتكم امهاتكم ابن أبى كبشة (يقصد سيدنا محمدا) يخبر أن خزنة جهنم تسعة عشر وانتم الدهم (أى الشجعان) فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم .

قال أبو الاشدين كلدة بن خلف الجمحى انا اكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهرى وسبع على بطنى فاكفونى انتم اثنين وروى أنه قال : انا امشى بين ايديكم على الصراط فارفع عشرة بمنكبى الأيمن وتسعة بمنكبى الأيسر فى النار ونمضى فندخل الجنة .

وهكذا ترى أن المشركين قد اتخذوا الموضوع هزءا وسخرية ووقفوا أمام ظاهر اللفظ ونعنى به عدد التسعة عشر فنزل القرآن الكريم يلفت أنظارهم الى أن خزنة جهنم ليسوا من البشر ليتحدثوا عن امكان مواجهتهم ، **وأما بالنسبة للعدد فليس يعلم سوى الله عدة جنوده**

وهذه كلها من الأمور الغيبية : التى لا يعرف كيفيتها ، فضلا عن كنهها سوى الله عز وجل .

ولما كان القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية وخاطب العرب أول ماخاطب فقد راح يحاجهم بأساليبهم ومفاهيمهم ، فجرى فى بعض الأحيان على مألوف عادتهم ولكن القرآن الكريم كان ينبه من حين لآخر الى حقيقة الأمر ، كما هو الشأن فى هذه الآية ، اذ نبه الى أن الملائكة وأشكالها ، وأحوالها ، فضلا عن عددها من الأمور الغيبية التى لا يعرفها الا الله عز وجل .

((وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا)) والغريب أنه مع صريح هذه الآية وانها تنعى على الكفار تمسكهم بالعدد تسعة عشر ، فان بعض قدامى المفسرين الأجلاء لا يستطيعون الخلاص من شهوة الوقوف أمام هذا الرقم والخوض فيه .

فهذا هو البغوى (على سبيل المثال) يقول فى تفسيره المنشور على هامش تفسير ابن كثير (أى على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر) .

وجاء فى الأثر أعيانهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصى يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة نزعت منهم الرحمة ، يرفع أحدهم سبعين ألفا : فيرميهم حيث أراد من جهنم .

قال عمرو بن دينار ان واحدا منهم يدفع بالرفعة الواحدة فى جهنم أكثر من ربيعة ومضر .

ويقول القرطبى فى جزم ويقين : قلت والصحيح ان شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء (من أين جاءه هذا العلم) ويتدارك القرطبى نفسه فيمضى قائلا : وأما جملتهم (أى جملة الملائكة) فالعبارة تعجز عنها كما قال الله تعالى : **((وما يعلم جنود ربك الا هو))** .

ونكتفى بهذه الاشارة الى ما خاض فيه المفسرون القدامى من تفصيلات زبانية جهنم وأوصافهم وأعدادهم وكل هذه اسرائيليات .

والآية واضحة وصريحة فى أن المؤمنين عندما يستمعون الى أى آية من آيات القرآن يزدادون ايمانا فاذا كانت آية تحذير وتخويف امتلأت قلوبهم خشية من الله .

واذا كانت آية وعد وتبشير بالجنة ودار النعيم ، امتلأوا بالرجاء والأمل وكذلك حال المؤمنين من أهل الكتاب . **((سواء كانوا يهودا أو نصارى))** لأن الخوف من عذاب الله والرجاء فى رحمته ورضائه هو سمة أى مؤمن أيا كان دينه.

وليس سوى الكفار والجاحدين منيتمحكون بكلمة أو عبارة يتخذونهـا تكأة للتشكك والكفر والجحود ((ماذا اراد الله بهذا مثلا)) والحقيقة أن الكلمة الطيبة تقال فينقسم الناس حيالها (كل الناس) الى قسمين ما بين مصدق ومكذب وما بين منشرح الصدر لسماع الكلمة وبين ضيق الصدر .

وهكذا كانت حالة قريش ومن جاورهم من اليهود والنصارى عندما كانوا يسمعون آيات القرآن الكريم لأول مرة .

فالسعيد ينشرح صدره لكل مايسمعأما الشـقى كائنـا من كان ، مشركـا كان أو من أهل الكتاب فان صدره يضيق بما يسمع **((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعلصدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)) .**

وهذه الآية كمثيلاتها من الآيات الأخرى تفتح الطريق أمام مباحث الجـبر والاختيار ولقد أفضنا فى هذا البحث أكثر من مرة (**سورة الليل وسورة الشمس**) .

وخلاصة ما قلناه أن القرآن الكريم يتضمن من الآيات ما يفيد أن الهداية من الله عز وجل ، وفيه أيضا ما يفيد وما يقطع بأن الانسان سيد مصيره وانه حر فى الاختيار بل أن مبدأ الثواب والعقاب لايمكن أن يقوم الا على أساس هذه الحرية . وارسال الرسل والأنبياء وكل أنظمة التربية والتعليم لا يمكن أن تقوم الا على فكرة الحرية فى الاختيار وهـذا ما جعلسيدنا عليا ينكر على أحد أتباعه ما توهمه من أن الانسان لا اختيار له فى شـئونهواليكالنص: «سأل سائلسيدنا علياًفقال : **أكان مسيرك الى الشام (أى لقتال اهلها) بقضاء الله وقدره .**

فقال له : ويحك لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرا حاتما ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ان الله سبحانه أمر عباده تخييرا ونهاهم تحذيرا وكلف يسيرا ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يعط مغلوبا ، ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتب للعبـاد عبثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

هذا هو ابلغ ما يقال فى حرية الانسان ، وهو شيء يحس به كل انسان من نفسه فباستطاعته أن يقوم أو لا يقوم ، وأن يفعل هذا الشيء أو لا يفعله ، وأن يقول كلمة ما أو يسكت عنها . تلك حقيقة ثابتة ، وهى التى تفرق بين الانسان وبين بقية ما فى الكون من كائنات حية وغير حية ابتداء من النملة أو أصغر الأميبات حتى الفيل وأضخم الكائنات وابتداء من أصغر ذرة حتى الشمس وأضخم ما نعرف وما لا نعرف من أجرام سماوية . فكلها تسير على سنن مقررة ، لا تستطيع أن تخرج عنها .

وليس الا الانسان من يتغير ويتطور ، ويأكل أو لا يأكل ، ويتزوج أو لا يتزوج ، وكل ذلك بحريته واختياره .

ذلك كله مشاهد وملحوظ ، ولا يمكن تجاهله ولكننا فى نفس الوقت نشاهد ونلاحظ ، أنه ما من حركة يقوم بها الانسان ، أو كلمة ينطق بها الا وهى مقدرة عليه منذ الأزل وهى داخلة فى علم الله ، وعلينا نحن المؤمنين ، أن نؤمن بالحقيقتين معا ونعمل على أساسهما فنجتهد ما وسعنا الاجتهاد ونختار الخير لأنفسنا فاذا ما اخترناه علمنا أن ذلك بهداية وتوفيق من الله عز وجل .

ولا يحاولن محاول ، أن يتصور أن بقدرته عقليا ، الخروج مما قد يبدو لعقولنا القاصرة المحدودة تناقضا ، وهو عند الله ليس كذلك .

ولا يظن المؤمن ، أن الكفار والملحدين ومن يسمونهم بالماديين قد حلوا المشكلة ، بل انهم زادوها تعقيدا ، اذجعلوا التناقض أساس الطبيعة بل لقد وصفوا المادية بأنها جدلية أى أنها تعمل من خلال التناقض .

ونمتاز نحن المؤمنين على الماديين أنه لا تناقض عندنا فى خاتمة المطاف ونؤمن أننا ما أوتينا من العلم الا قليلا ، وأنه كلما ازددنا علما ، ازددنا فهما ، أما هم فقد سدوا الطريق على أنفسهم ولذلك فقد انهارت كل نظرياتهم ، ومفاهيمهم وبقى الثبات والخلود لآيات الله البينات ، وعلى هذا الضوء يجب أن نتلو كل ما جاء فى القرآن الكريم من آيات ، تنطق بأن الهداية والضلال من الله عز وجل ، ومع ذلك فعلى الانسان أن يسعى وأن يجتهد ما وسعه اجتهاد القلب والعقل معا والله تعالى أعلم وبه التوفيق .

كلا والقمر . والليل اذ أدبر . والصبح اذا أسفر . انها لاحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر .

كلا : كلمة ردع وزجر للكفار أى ليس الأمر كما يظنون من أن باستطاعتهم الهزء والسخرية بزبانية جهنم ، فضلا عن التغلب عليهم كما زعموا ووهموا .

والقمر . والليل اذ أدبر . والصبح اذا أسفر .

يقسم القرآن بعد ذلك جريا على أسلوب العرب واخذا بمناهج اللغة العربية من أن يكون القسم للتعظيم أو للفت النظر .

ويقسم القرآن بعديد من المظاهر الكونية ليلفت الأذهان اليها وما تنطوى عليه من سر لخالقها رب القدرة والملكوت .

وهو هنا يقسم بالقمر وساعة الفجر عندما يولى الليل ، ويقبل النهار ، ويا لها من ساعة جليلة ومهيبة ، تحس فيها الروح بالشفافية ، وكما لو كانت ستحلق فى معارج السماء ، وأهل المدن الذين لا يستيقظون مع الفجر ويستنشقون نسيم الفجر السارى يفوتهم خير كثير .

« والليل اذ أدبر . والصبح اذا أسفر » وما أجمل التعبير عن الليل اذ يهرب موليا بكلمة (اذ) وبالنهار عندما يسفر بكلمة (اذا) فتلك هى موسيقى القرآن التى تجعل من زيادة حرف ونقصانه سبيلا للوصف والتصوير والتنغيم فكلمة (اذ) تحمل فى طياتها المباغتة والسرعة وهذا ما يحدث فى الواقع ففى لحظة واحدة عند الفجر ينقشع الظلام وكلمة (اذا) فيها مد وتطويل وذلك هو شأن الضياء يظل يتزايد حتى يكون الصباح فالنهار .

« والقمر » وكان العربى بطبيعة الحال وطوال نيف وثلاثة عشر قرنا بعد ذلك عندما يطلب منهم القرآن أن يتأملوا فى بديع صنع الله فى القمر وهم يرونه كوكبا مضيئا يبدد لهم ظلام الليل .

فان الكلمة اليوم تشع لنا اشعاعا جديدا بعد وضع الانسان اقدامه على أرض القمر وتبين له أنه كوكب مثل كوكبنا الأرضى ، يسبح فى ملكوت الله الذى لا نعرف له بداية .

انها لأحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتاخر .

« الكبر » جمع كبرى . والحديث عن النار وأن اشارة القرآن لها على أى **صورة من الصور لتقريبها للاذهان ، انما هو على سبيل التحذير والانذار من غضب الرحمن .**

وعلى كل انسان ان يختار لنفسه هل يريد أن يسارع الى الخير بالايمان بالله والعمل الصالح فيكون من السابقين ، أو يتقاعس ويتأخر ويكفر فيكون ممن يحل بهم سخط الله .

ومثاله : **« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .**

كل نفس بما كسبت رهينة .

أى أن كل انسان مرتهن حتى تظهر نتيجة أعماله ان خيرا فخير وان شرا فشر .

الا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين .

كلام عربى مبين :

يصف القرآن دائما آياته بأنها بلسان عربى مبين ، أى واضحة ناصعة ، ولكن بعض المفسرين المتحذلقين الذين يأبون الا أن يرتبوا الأحداث يوم القيامة يخوضون فى المتاهات .

فكما قلنا أن كل نفس مرتهنة بنتيجة أعمالها ، وقد الف القرآن الكريم أن يطلق على الأخيار ممن يؤمنون ويعملون صالح الأعمال ، أصحاب اليمين .

من اليمن أى الخير والسعد أما الأشرار والكافرون فيطلق عليهم أصحاب الشمال (اليسار) .

وأصحاب اليمين هنا فى مكانهم الطبيعى الذى وعدهم الله به ، ولسان حالهم بطبيعة الحال يتأمل فى مصير أهل النار الذين كانوا فى الدنيا من المتجبرين والطغاة والمؤذين والمسكين .

ويجرى القول لاستعراض هاتين الحالتين على سبيل البيان وأساليب اللغة بما فيها من كنايات واستعارات وتشبيهات ، ويجب أن يفهم القرآن على هذا الأساس وخاصة عندما يتحدث عن الغيبيات .

ولكن المفسرين القدامى وخصوصا فى القرون المتأخرة ، يأبون الا أن يحددوا كل لفظ ، فيقول بعضهم عن أصحاب اليمين فى هذه الآية أنهم الأطفال وهو تخصيص بغير مخصص .

فان أهل اليمين هم أهل الخير أطفالا وغير أطفال ويكدون أذهانهم فى كيفية سؤال أهل الجنة لأهل النار وكيف يحدثونهم ، ويخبطون خبط عشواء فى الكيفية مع أن الآيات ناطقة بأنها تتحدث عن لسان الحال أى أن الموقف يبدو وكأن المؤمنين يتساءلون تساؤل العارف عما أوصل المجرمين الى ما أوصلهم اليه ، ولم يوصلهم الى ذلك الا أعمالهم الفاسدة كالكفر بالله والشرك به بعبادة الأصنام والصلاة هنا ((**لم نك من المصلين**))تفسر بكل معانيها ومدلولها اللغوى والاصطلاحى .

والاصطلاحى هو صلاتنا المألوفة ، وطبيعى أن يدخل النار تارك الصلاة ، ولكن بعض المفسرين يحاولون أن يفسروا كلمة الصلاة هنا بمعناها اللغوى ساعة نزول هذه الآيات بمقولة أن سورة المدثر من أوائل ما نزل من السور حيث لم تكن الصلاة المعروفة قد فرضت بعد . ويكون معنى الصلاة هنا أى الدعاء والتوجه لله وحده ، وهنا عمومية الكلمة ونصاعتها وانطباقها على المعنى الذى لا يفهم منها سواه ، وهو صلاتنا المعروفة ، التى هى ركن من أركان الاسلام وعمود الدين .

ولم نك نطعم المسكين :

اطعام المساكين كان دائما حجر الزاوية فى دعوة الاسلام وقد فصلنا فيه الأمر فى اكثر من سورة اشتملت على اطعام المساكين والحض على اطعامهم . والمسكين هو كل محروم من نوع معين من الأكل .

ولكل محروم الحق فى الزكاة ((**وفى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم**)) .

ومن هنا فقد كان السلف يطعمون الناس من صنف ما يحبونه ((**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**)) .

فليحذر الذين اذا فسد عندهم طعامأعطوه للناس وتصوروا أن ذلك صدقة . وليس هناك ما هو أبغض من الأصوات التى ترتفع لتهاجم الاحسان واطعام المساكين بمقولة أن ذلك صدقة .

والانسان (أى انسان) لا يحب أن يعيش على الصدقات وذلك حق وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((**لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**)) .

نقول ان ذلك حق من ناحية الانسان فيجب أن يعمل ليستغنى عن سؤال الناس . ولكن ذلك شىء وأن يشرك القادرون غير القادرين فى طعامهم شىء آخر . وهنا يظهر تفوق الوازع الدينى على أكثر القوانين صرامة .

فالوازع الدينى وليست القوانين هوما كان يجعل القدامى يطعمون الناس ، سائر الناس أفخر أصناف الحلوى واللحوم فى شتى المناسبات طوال حياتهم وبعد مماتهم ، لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع غير القادرين فى ذمة القادرين ورعايتهم ، واطعام الجائع والمحروم هو من أوليات الدين وفرائضه ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :((**ليس منا من بات شبعان وجاره جائع**)) .

وأيا كانت درجة هذا الحديث من حيث الصحة والدقة فان معناه وجوهره من أخص خصائص الاسلام ومقاصد القرآن .

وكنا نخوض مع الخائضين :

احدى صفات المغضوب عليهم أن يكونوا من جلساء السوء وأقرانهم الذين يتشدقون ويتقولون على الأخيار ويندون بالأعمال الصالحة .

وكنا نكذب بيوم الدين :

أى بيوم القيامة .

حتى أتانا اليقين :

اليقين هنا أى الموت ، أى أن الكفار والمعاندين ظلوا فى غوايتهم سادرين حتى توفاهم الله .

فما تنفعهم شفاعة الشافعين :

ومن كان هذا شأنه ، ولم يتب الى الله فى الوقت المناسب فانه يحرم نفسه من فسحة الأمل بأن يمن الله على بعض عباده من المذنبين والعصاة بالشفاعة شريطة أن يتوبوا قبل موتهم .

فما لهم عن التذكرة معرضين . كانهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة . بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفامنشرة . كلا بل لا يخافون الآخرة . كلا انه تذكرة . فمن شاء ذكره . ومايذكرون الا أن يشاء الله . هو اهل التقوى واهل المغفرة .

فما لهؤلاء الكفار والمعاندين يفرون من سماع الحق كأنهم حمر وحشية (جمع حمار) تفر من وجه جماعة الصيادين أو الأسد والمعنى واحد فى كل الأحوال سواء كانت كلمة قسورة بمعنى جماعة الرماة ، أو بمعنى الأسد والمهم هو فى تشبيه فرار المشركين من سماع الحق وازورارهم عن طريق الخير كأنهم يفرون من الموت أو خطر محقق ، وما دفعهم الى ذلك الا كفرهم وعدم ايمانهم بالآخرة .

(بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة) :

وكان كل كافر ومعاند لا يريد أن يؤمن الا اذا تسلم هو شخصيا كتابا من السماء ، أى يريد كل كافر أن لا يؤمن الا اذا أصبح هو نبيا يتنزل عليه من السماء . ((**أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه**)) الاسراء ٩٣ .
كلا انه تذكرة : ان الأمور لا يمكن أن تسيرعلى هذه الوتيرة وهذا الأسلوب والا لما كان هناك محل للعقاب والثواب والاجتهاد وانما الرسول قد جاء ينذر ويحذر وينبه الى الله عز وجل المستقر الايمان به فى كل نفس ومهمة الرسول هو أن يحرك هذا الايمان ويثيره ويشعله .

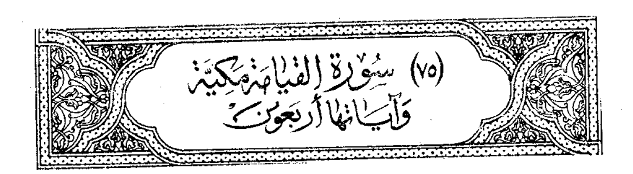
فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاءالله هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

عود الى ما عرضناه فيما سبق وأن كل انسان حر فى اختيار ما يريد وان كان ما يختاره فى نهاية الأمر انما يتم بتوفيق من الله وهدايته .

هو اهل التقوى وأهل المغفرة :

اى أن الله سبحانه وتعالى جدير بأن يتقى بالاقبال على طاعاته والابتعاد عن محارمه .

والله فى النهاية وفى البداية وهو دائما أبدا الغفور الرحيم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ
عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ
وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن
يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ
ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ
سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ
ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سورة مكية

سورة مكية باتفــاق الجميع ، وهى تشمل الحقائق الاســاسية ، كمــا كان القرآن الكريم يعرضها على قريش مخاطبا الانسانية كلهــا فى كل زمــان ومكان فى شخصهم من التذكير بيوم القيامة اى نهاية الدنيا . وقضية البعث بعد الموت ، وأن الله الخالق قادر على أن يعيد الخلق ويكرره كما يشاء ويختار وآية ذلك خلق الانسان كما يعــاينه بالتجربة الانســان نفسه .

ـ لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على ان نسوى بنانه .

القسم فى القرآن :

يقول المفسرون القدامى الكثير والكثير جدا فى كلمة (لا) فهى زائدة عند البعض، وهى صلة عند البعض الاخر تصل الكلام بما قبله ، وهى لا النافية ، عنــد بعض آخر أى أن الله لا يقســم بيوم القيامة فحقيقتها لا تحتاج الى قســم ، ويقــول البعض انها فى حقيقتها (**لا أقسم بيوم** القيامة) وقد فصلنا القول فى ذلك كله فيما سبق واخترنا القول بأن هذه الصيغة « لا أقسم » تماما مثل « أقسم » أحدى أساليب القرآن التى يلفت بها نظر السامعين الى ما يقول .

ويوم القيامة بمعنى نهــاية الكوكب الأرضى ، واختلال المجموعة الشمسية كلها ، أصبح من الحقائق العلمية المرجحة الحدوث وهو ما لم يكن يطــف بخيــال الأقدمين بينما يؤكد لنا العلم الحديث ان كارثة ما تصيب بعض النجوم من حين لآخر فاذا بها تفجر وتتحول الى غبار كونى .

ولا أقسم بالنفس اللوامة :

ويفترق المفسرون كما هى عادتهم حول النفس اللوامة ، من أقصى اليمين الى اقصى اليســار . فعنــد البعض النفس اللوامة هى النفس الخسيســة ، التى لا تفتأ تطلب المزيد وتتطلع الى ما ليس فى يدها ، وعند البعض الآخــر هى نفس المؤمن ، وهناك من يقول انها نفس الكافر والمذنب يوم القيامة اذ لا تفتأ تلومه وهذا هو مناسبة الاشارة اليها بعد يوم القيامة.

أما الرأى الذى نرتاح له ونقره باعتباره أجمل ما فى الحياة الانسانية فهو ان النفس اللوامة هى تلك النفس التى لا تفتأ تحاسب صاحبها كلما اخطأ أو أساء ، انها هذه الشعلة الالهية داخل نفوسنا والتى تحرص كل الحرص على أن تجىء أعمالنا كلهــا مستقيمة خيرة نافعة ، فاذا انحرفت هذه الاعمال أو تحولت الى ضــارة ، راحت النفس تنعى على صاحبها وتؤنبه وتعنفه ،وترده للجادة . بهذه الروح وبهذه الروح فقط يسود السلام وتهنأ الجماعات ، اذ يكون على كل انسان رقيب من نفسه .

وقد صغت هذا المعنى والحمد لله منذ أكثر من أربعين سنة ليكون دستورا للشباب فقلت :

— حاسب نفسك كل ليلة ...

ومن هنا فقد عشت طول عمرى أفهم أن ذلك هو المقصود بالنفس اللوامة ، أى التى تحاسب صاحبها بالليل والنهار ، ان هو أخطأ أو قصر فضلا عن أن يكون أساء والله تعالى أعلم .

أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه :

هذه هى المشكلة التى كانت عقــول قريش بخاصة والعرب بعامة تضيق بها ، فيقولون « ءأذا كنا عظاما ورفاتا ، أئنا لمبعوثون خلقا جديدا » .

فالبشر أو بالاخرى بعض البشر ، لم يتصوروا أن الأجسام بعد أن تتحلل يمكن أن تعود الى الحياة ، ومن هــؤلاء قدماء المصريين الذين مع ايمانهم العميق بالبعث والنشور ، والحساب والجنة والنار لم يتصوروا امكان بعث الاجسام بعد أن تتحلل فاخترعوا نظام التحنيط للمحافظة عــلى بقاء الاجسام سليمة بعد الموت .

أما نحن الآن فنعلم أنه يمكن دائما اعادة كل شىء الى أصله ، وأصبحت تجرى عمليات لا يكاد يصدقها العقل فميــــاه المجارى بكل ما تحمل من أوساخ وقذارات ونفايات ، يمكن اعادتها من جديد طاهرة نقية عذبة سائغة للشاربين ، وقطعة الورق التى احترقت وتلاشت فى الظاهر لو أننا جمعنا عناصرها التى تحولت اليها بعد الاحتراق لامكن اعادتها كما كانت وهكذا . وذلك كله تطبيقا للحقيقة العلمية من أن المادة لا تفنى ، فاذا علمنــا أن سر كل انسان ومقومات شخصيته أخفى من الخفاء فان عقولنا لم تعد تضيق بالخلق المتجدد .

— بلى قادرين على أن نسوى بنانه :

هذا هو الرد الالهــى على هــؤلاء المتشككين القدامى ، بأن يذكرهم بعظمــة عملية الخلق والتكوين وأن من قدر عليها اول مرة فهو قــادر على أن يكررهــا ، والاشارة هنا الى عجيب صنع أصابع يد الانسان ، ودقتها ومنافعها التى لا حد لها بالنســبة للانســان ، ويقول المفسرون القدامى أن من يسوى عظام الاصابع على صغرها ودقتها فهو على تسوية العظام الاكبر والاضخم أقدر .

علم بصمات الاصابع وهذه الآية :

ولقــد أدهشنى من الاســتاذ عزت دروزة فى تفسيره الحديث ضيق صــدره بمن حاول أن يشــير الى علم بصمات الاصابع بمناسبة هذه الآية ولعــل تعليله لهذا الانكار أدهش .

فهو يقول ان القرآن قد نزل يخاطب العرب ويحدثهم بمفاهيمهم ولم يكن العرب يعرفون شيئا عن علم بصمات الاصابع فلا يجب تحميل الآية مالا تحتمل .

ونحن نعترض على هذا القول أشد الاعتراض ، وحقا نزل القرآن بألفاظ عربية ، وحقا خاطب العرب بما يفهمونه ويدركونه ويألفونه كما هو الشأن فى حديثه عن الجنة والنار ، ولكن المعانى التى تكمن وراء الكلمات خالدة خلود الزمن لا تتقيد بزمان أو مكان وليس لاحد أن يحظر على أحد أن يفهم من اسرار عظمة الخلق الا فى حدود ما كان يفهمه العرب أو القدامى بصفة عامة الا من حيث ما اشتمل عليه القرآن من توحيد وتشريع وعبادات على أساس أنهم تلقوها مباشرة عن رسول الله ، فهم على فهمها وضبطها أقدر ، أما أن يتضمن القرآن أشارات الى حقائق كونية جهلها الاقدمون وانكشفت لنا ، فانه يكون من التقصير المعيب نحو ديننا وقرآننا أن لا نتحدث عنها .

والآية التى نحن بصددها هى نموذج لذلك فكل التفاسير القديمة تتحدث عن اصابع الانسان والفارق بينها وبين خف الجمل أو حافر الحصان ، لان هذا هو ما انكشف لهم .

فاذا جاء علم حديث يثبت لنا أن الله قد سوى بنان أى انسان على صورة تختلف مع أى انسان آخر . بحيث أصبح السبيل الوحيد للتحقيق من شخصية أى انسان هو عن طريق بصمة أصبعه الخاصة به والتى لا توجد اثنتان تتشابهان منها وسط الوف الملايين من البشر الذين كانوا والذين هم كائنون ، فان الانسان لا يتمالك نفسه من التسبيح بعظمة الخالق الذى فطر الخلق على هذه الصفة ، واللطيف أن الاستاذ دروزة يمضى فى اعتراضه فيقول:

واختلاف البشر فيما بينهم لا يقف عند حد بصمات الاصابع بل انه يشمل كل شىء من أصواتهم وحركاتهم ونحن نزيد على ما يقوله الاستاذ دروزة ، أن أى ورقة من أوراق الشجر لا تماثل الاخرى ، بل أن أى حبة رمل أو قطرة ماء تختلف عن الاخرى ، وكل هذه تأملات يجرنا اليها علم بصمات الاصابع . فعندما يقف قارىء القرآن أمام آية ((**بلى قادرين على أن نسوى بنانه**)) ويتأمل عظمة الله كما يكشف عنها العلم يوما بعد يوم ، فذلك نزول عند توجيه القرآن بالذات عندما يقول لنا :

— ((**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**)) .

ومثال ذلك عندما يعدد القرآن وسائل المواصلات التى كان يعرفها العرب من خيل وبغال وحمير ، وتنتهى الآية بقولها :

((**ويخلق مالا تعلمون**)) .

فيجب أن نتحدث بمناسبة هذه الآية عن كل ما ابتدع الانسان من أسباب المواصلات ، وكذلك الشأن عندما يحدثنا القرآن عن وجوب توفير أسباب القوة :

(ما استطعتم من قوة)

فمن غير المعقول والمقبول أن نقف عند حدود القوة كما فهمها العرب فى السيف والرمح ، وكذلك الشأن فيما يجب أن نفهمه من تسوية البنان فلا نقف عند حد المقارنة بخف الجمل وحافر الحصان ما دام قد انكشف لنا من بصمات الاصابع ما انكشف.

– بل يريد الانسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة . فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لاوزر . الى ربك يومئذ المستقر . ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره .

يفجر أمامه : اى يتابع هواه ويتمادى مع شهواته طوال حياته . ويقول البعض يرتكب المعاصى ويؤجل التوبة .

برق البصر : كما لو صدمه البرق اى تعطل من شدة الضوء .

خسف القمر : اى اظلم .

جمع الشمس والقمر : أى أختل نظامهما بانفراط قانون الجاذبية الذى يربطهما على هذا النسق .

ويقول المفسرون القدامى بأقوال ما أنزل الله بها من سلطان كأن يقذف بالشمس والقمر الى البحر ، وقيل الى جهنم وكل هذا تزيد وخوض فى تفاصيل أمور غيبية لا يمكن الا أن تؤدى الى الزلل.

لا وزر : اى لا ملجأ من الله .

بصيرة : اى حجة ودليل .

معاذيره : اى الاعذار

أحوال يوم القيامة :

كان الحديث عن يوم القيامة والانذار بها والتحذير منها هو أحد المحاور التى تدور عليها السور المكية ذلك أن الايمان بالحساب بعد الموت والثواب والعقاب هو مفتاح الفضائل كلها ، وضبط النفس وكبح الشهوات وعمل النافع والبعد عن الضار ، وقد حاولوا فى المجتمعات المادية الملحدة التى لا تؤمن بيوم القيامة أن تحل القانون الوضعى محل القانون السماوى ونعنى به الوازع الدينى والذى يجعل من ضمير كل انسان رقيبا عليه ، وسرعان ما اكتشفوا افلاسهم ، اذ يصبح من المتعين عليهم أن يضعوا بجوار كل انسان « بوليسا » ثم لا يحلون المشكلة لأن هذا «البوليس» بدوره فى حاجة الى « بوليس » ليراقبه وهكذا ، ولذلك فقد عادت هذه المجتمعات

تتحدث عن وجوب الوازع النفسى ، وقد تحدثنا فى أكثر من موضع أن ليس هناك سوى التربية الدينية يخلق هـذا الوازع ، والتربية الدينية تقوم أول ما تقوم على الايمان بيوم القيامة والحساب والعقاب والثواب .

ولذلك فنسمة الكفر والعصيان والفجور هو انكار يوم القيامة والتمادى بالتالى فى الاندفاع مع الشهوات والانحرافات .

(**يسأل أيان يوم القيامة**) اى سؤال المنكر لها ، وعدم التصديق بها ولكن سيرى هؤلاء الجاحدون ان القيامة حق من حق.

وتمضى آيات القرآن على نسقها الذى طالما فصلناه فى عديد من الآيات والسور ، عندما ينفرط عقد الكون ويختل نظامه ويستولى الهلع على نفوس البشر الذين يبعثون جميعا من مراقدهم .ويواجهون ما كانوا له منكرين فيتمنى العصاة والمشركون والكافرون لو كان لهم ملجأ يهربون اليه ويلوذون به ولكن هيهات هيهات فقد جاء أخيرا اليوم الموعود ينبأ كل انسان بما قدم من أعمال طالحة وأخر أعمالا صالحة ، ويصبح كل انسان هو الحكم على أعماله .

ـــ يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم.

ولا يعود أى انسان قادرا على سوق الاعذار عن نفسه .

ـــ لا تحرك به لسانك لتعجل به .ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه .

معجـزة قرآنيـة :

بينما نرى فى هذه الآيات الكريمة احدى معجزات القرآن ، فقد حاول بعض المفسرين القدامى ان يخرجوا بها عن معناها المتبادر للذهن ، فهى خطاب وتوجيه لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ان لا يتعجل فى تلاوة القرآن ساعة نزوله عليه فيروح يردده بلسانه خوفا من نسيانه ، ويطمئنه الله عز وجل انه كفيل بأن يثبت القرآن فى صدره وحافظته ، وأن الله متكفل بحفظه وجمعه .

ـــ « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وان مهمة سيدنا محمد بعد أن يتلو الوحى عليه القرآن ، هو أن يأتمر بأوامره ، ويتجنب نواهيه وأن يبلغها ويعلمها للناس (**فاذا قرأناه فاتبع قرآنه**) .

أما جمع القرآن ، وحفظه من الضياع والنسيان فهذه مهمة قد تكفل بها الله عز وجل .

وهذا هو المعنى الذى تنطق به الآيات ويقطع بأن هذا هو المعنى المقصود ، انه ورد فى آية أخرى :

ـ ((ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما)) .

وقد ورد من الاحاديث الصحيحة مايصف هذه الحالة بالدقة ، وقد وردت هذه الاحاديث فى البخارى ومسلم ، وغيرهما من كتب الحديث المتفق على صحتها ونحن نختار لك احدى صيغ هذا الحديث :

عن ابن عباس قال : كان رسول الله اذا نزل عليه الوحى لقى منه شدة وكان اذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره فأنزل الله تعالى **((لا تحرك به لسانك لتعجل به))**.

وهكذا قال الشعبى والحسن البصرى وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد أن هذه الاية نزلت فى ذلك .

حيرة بعض المفسرين :

أرأيت مدى وضوح الآيات وتأكيد القرآن والحديث للمعنى الظاهر المستفاد منها ، ومع ذلك فان بعض المفسرين القدامى (القفال على سبيل المثال) أوقعوا أنفسهم فى حيرة من هذه الايات ذلك أنهم تساءلوا عن علاقة هذه الايات الخاصة برسول الله بما قبلها وبعدها حيث يدور الحديث عن المشرك المكذب بيوم الدين ولذلك فقد أولوا هذه الايات بأنها حديث للكافر يوم القيامة أن يتريث وهو يطالع كتابه : وهو ابتعاد عن المعنى لا تحتمله الفاظ الايات ، وحاول مفسرون آخرون أن يوجدوا الارتباط بين سياق الايات، فقالوا ان الحالة هنا تشبه حالة المدرس عندما يكون منهمكا فى شرح الدروس ، ثم يلاحظ على التلميذ ملاحظة ، فيقول له : «انتبه» أو افعل هذا الشىء أو ذاك ، ثم يعود لمواصلة شرحه . وعندنا أن ذلك كله هو التكلف فليس القرآن كتابا من الكتب المألوفة ، وهو لم ينزل دفعة واحدة ، وانما نزل منجما على بضع وعشرين سنة ، والاصل فيه أن كل آية وحدة مستقلة الا أن ترتبط بما قبلها وبعدها فليس الاصل هو أن نبحث عن ارتباط الايات ونركب متن الشطط فى ربط الايات بما قبلها وما بعدها .

المعجزة القرآنية :

وطالما استشهدت فى كتبى وآخرها « نبى الانسانية » بدلالة هذه الاية ، على كون القرآن الكريم هو كلام الله القديم وليس كما قال المشركون والمتخرصون فى وقتنا الحاضر أن القرآن من تأليف سيدنا محمد ، فقد عاش سيدنا محمد ومات دون أن يجمع القرآن أو حتى يأمر بجمعه بعد موته ، فقد صدع بأمر ربه وترك لله عز

وجل أن يوفق البشر لجمع القرآن وحفظه وتفسيره وقد شرحنا باستفاضة فى كتاب « نبى الانسانية » كيف جمع القرآن ،وكيف حفظ وفسر على مر العصور ، حتى شهد غير المسلمين قبل المسلمين ، انه لا يوجدولم يوجد كتاب فى الدنيا حافظ عليه البشر وصانوه وفسروه وبينوه كالقرآن الكريم .

وارى ان اثبت هنا نص حديث زيد بن ثابت فى كيفية جمع القرآن ليظهر بجلاء كيف تمت كلمات الله حقا وصدقا .

وجمع القرآن بعد وفاة رسول الله بهداية الله وتوفيقه .

جمع القرآن بعد وفاة النبى :

قال زيد بن ثابت على ما روى البخارى : أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة (أى عقب موقعة اليمامة) فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه ، ان عمر أتانى فقال ان القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وانى اخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر هذا والله خير فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر انك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن .

قلت كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما :

فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الانصارى لم اجدها مع احد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) الى آخر براءة ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها .

(انتهى ما جاء فى البخارى) .

ــ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة .

العاجلة : أى الدنيا

باسرة : اى عابسة

تظن : فى هذا الموضع بمعنى يعتقد.

فاقرة : اى داهية ومصيبة .

والمعنى واضح وقد تكرر فى اكثر من سورة :

— وجوه خاشعة ، ووجوه ناعمة

— وجوه ضاحكة مستبشرة ووجوه عليها غبرة .

— وجوه بيضاء واخرى سوداء .

وهذا هو التقسيم المنتظر والمتوقع لاهل الرجاء وأهل الشقاء . فمن شقى فى هذه الدنيا دفاعا عن الحق ، واعلى صورة أن يحيا الانسان بشرف واستقامة كافا أذاه عن نفسه والاخرين وباسطا خيره ونفعه لبنى البشر أجمعين فمثل هذا الشخص متى عمل ذلك كله ايمانا بالله ، ورجاء فى ثوابه ، فانه يوم القيامة من الضاحكين المستبشرين ذوى الوجوه الناعمة والناضرة .

أما الصنف الثانى من البشر الذى لا يؤمن بالله واليوم الاخر وبالتالى تكون كل أعماله شرا وضررا بنفسه والاخرين فهؤلاء يجيئون يوم القيامة فى ذل ومهانة ، وجوههم عابسة سوداء كالحة ، وهم مضطربون فزعون لما سيحل بهم من عذاب .

— الى ربها ناظرة

هذه هى احدى الايات التى افترق حولها المفسرون القدامى الى فرقتين ، فرقة تقول بالمعنى المتبادر للذهن من معنى النظر ويدعمون قولهم بآية عكسية تصف الكفار وأهل الشقاء (**انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**) .

فأهل الشقاوة محجوبون وأهل السعادة (ينظرون) .

أما الفريق الآخر فقال بأن معنى (**ناظرة**) هنا اى راجية ثواب ربها فى انتظار قضائه الرحيم فيهم .

واستندوا على قول القرآن فى صفة الله عز وجل : (لا تدركه الابصار) وأن الله عز وجل قال لسيدنا موسى عندما طلب النظر اليه « لن ترانى » .

والذين قالوا بالنظر الى الله هم جمهرة السلف مستندين الى عديد من الاحاديث اوردها ابن كثير فى تفسيره .

أما المعتزلة فقد نفوا امكان الرؤية لان الرؤية لا تقع الا على جسم متحيز فى مكان وزمان وتنزه الله عن ذلك .

ولكن القائلين بالرؤية يقولون أنها تتم بقدرة الله ، وبدون احاطة .

تنزيه الله

وعندنا أن لكل مؤمن أن يعتقد فى هذه النقطة ما يشاء من الرأيين شريطة أن يتمثل دائما تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الجسمية والمكانية والزمانية ، وليس بمستبعد على قدرة الله فى العالم الاخر أن يمكن الانسان من الرؤية فى هذه الحدود .

اما المضى فى المناقشات والجدل ، فاضاعة للوقت والجهد ، ومزلقة وفتح باب للشيطان .

فما دمنا نسلم جميعا بأن الاحوال فى العالم الآخر تختلف كل الاختلاف عن الاحوال فى هذه الدنيا ، فلم يعد من الجائز أن نطبق احكامنا ومقاييسنا الدنيوية ، والمهم أن نطهر أنفسنا وعقولنا من كل معنى وشئ بأن ننسب الى الله مالا يليق بجلاله وكماله وأن ليس كمثله شئ وأن ننزهه ونسبحه بكرة وعشيا والله تعالى أعلم وهو ولى التوفيق .

ـ كلا اذا بلغت التراقى . وقيل من راق . وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . الى ربك يومئذ المساق . فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب الى أهله يتمطى . أولى لك فأولى.

التراق : جمع ترقوة وهى عظام بين النحر والحلق **(فلولا اذا بلغت الحلقوم)** .

وقيل من راق : اى استنجدوا بمن يعالج ويطبب عن طريق الرقى والعزائم كما كان شأن العرب .

وظن أنه الفراق : اى أيقن المحتضر بدنو الاجل .

والتفت الساق بالساق : كناية عن الشدة التى يعانيها المحتضر اثناء احتضاره أو بعد موته وقد ربطت ساقاه فى الكفن كما يقول بعض المفسرين .

أما نحن فنقف عند القول أنها كناية عن الشدة .

الى ربك يومئذ المساق : أى المصير .

فلا صدق ولا صلى : المقصود به كل انسان غير **مؤمن متعبد** .

ولكن كذب وتولى : أى كذب واعرض عن الحق . **ثم ذهب الى أهله يتمطى** : اى يتمايل ويختال اعجابا بنفسه .

أولى لك فأولى : تعنى هى والآية التى تليها تهديد الكافر وانذاره اذا لم يتدارك نفسه ويدرك أن الايمان والتصديق أولى به وأجدر .

ـ أيحسب الانسان أن يترك سدى:

سدى : أى مهمـــلا بغير ضابط واوامر ونواه .

والحق أن هذه هى المسألةالتى يجب أن يتدبرها ويعيها كل انسان لتدله على طريق الخير والشر ، فعلى الانســـان أن يسأل نفسه لماذا وجد فى هذه الدنيـــا ، هل وجد فيهـــا عبثا وبمحض الصـــدفة كما يزعم الماديون والملاحدة .

لئن كان الامر كما يزعمـــون لما كان هناك اى معنى لاى جهد يبذله الانســـان من أى نوع كان .

ولما كانت هناك لقيام مجتمعـــات وحضـــارات وعلم وســـعى وراء صنوف الكمالات ولما كان لكل حديث عن التعليم والتربية والأخلاق فضـــلا عن القوانين اى معنى .

فليس يســـتقيم ذلك كله ويصـــبحمفهوما ومستساغا ، الا ان نؤمن اننا قد خلقنا لغاية ، وهو أن نسعى لبلوغ الكمالأى الاقتراب من الله بالعملالصالح وحسن الاخـــلاق .

ـ ألم يك نطفة من منى يمنى • ثمكان علقة فخلق فســـوى • فجعـــل منه الزوجين الذكر والانثى • أليس ذلك بقادرعلى ان يحيى الموتى •

ويعودالقرآن فيذكر الجاحدين والمنكرين والكافرين بمعجزة الخـــلق والايجـــاد كما بيناه فى سورة الانسان وهو ما جعـــلالبعض يحاول الربط بين نهاية هذهالسورة وأول سورة الانســـان مما أظهرنا عدم جدواه فالقرآن كله وحدة متصلة بدون أن يترتب على ذلك محاولة ترتيبه ترتيبا خاصا .

ويسائل القرآن المشركين فى ختام السورة أليس من خلق الانسان على هذه الصورة التى تعيا بها العقول **بقادر** على أن يحيى الموتى وكان الكثيرون من السلف الصالح اذا تلوا هذه الآية أجابوا عليها بالايجاب قائلين : **((سبحانك الله بلى))** وقد سئل بعض من قال ذلك من الصحابة فقال سمعته من رسول الله .

(٧٦) سُورَةُ الإِنسَانِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا إِحْدَى وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا
وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا
يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟
جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَا۟ مِن
فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨)
* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا (٢٠) عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا (٢٣) فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا
شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

سورة مدنية :

الذى فى المصحف الذى بين أيدينا انهاسورة مدنية وطالما دعونا الى الالتزام بما فى المصحف ، ونحن عند هذا الرأى ، ولكنقدامى المفسرين اختلفوا فى شأنها فمنهم من قال انها مكية ، ومنهم من قال بأن بعضهانزل فى المدينة وبعضها نزل فى مكة ، ونحن ممن يقولون بمكية السورة ، فآياتها عامةوليس فيهـــا ما يشـــير عن قرب أو بعد لخصائص السور المدنية ، وما أصبح منلوازمه ، فالتشريع وفرائض الاسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج ، أو من حديثعن الحرب والقتال والنفاق ، وسنرى أن كلمة (الأسير) هى كلمة عامة ، والحديثيدور فيها كما هو الشأن فى جميع السور المكية بحقائق الكون الأســاسية والجنةوالنار ويوم القيامة ، وعن الايمان والكفر ، ودعوة رسول الله الى الصبر وذلك كله على سبيل الدعوة العامة ، وهذا ما يرجح فى رأينا قول من قال بمكية السورة .

ولكننا نزولا عند منهاجنا نلتزم بما هوفى المصحف الموجود بين أيدينا وهو مدنية السورة ، والله تعالى أعلم .

هل أتى على الانسان حين من الدهرلم يكن شيئا مذكورا . انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه . فجعلناه سميعابصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا .

أمشاج : أى اخلاط .

غير ذى موضوع :

طالعت لاكثر من مفسر عصرى محاولة لايجاد نوع من الترابط بين هذه السورة وسورة القيامة التى تجىء قبلها فى ترتيبالمصحف الذى بين أيدينا ، حيث تنتهى سورة القيامة بالآيات التالية :

— أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكروالانثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى .

فقد تحدثت هذه الآيات عن منشأ الانسان ابتداء من كونه نطفة من ماء الرجل ، حتى يصبح انسانا سويا .

وعندنا ان محاولة الربط غير ذاتموضوع ، فالقرآن كله مترابط ويؤلف وحدة واحدة بقطع النظر عن ترتيب السور فيمابينها بل حتى ترتيب الآيات فقد كان صدر السورة ينزل فى مناسبة ، وبعض آياتهاقد ينزل فى مناسبة أخرى بعد عدة أسابيع أو شهور ثم يطلب من سيدنا محمد أن يرتبهاهذا الترتيب .

ولفت النظر الى أصل الانسان وتطور الجنين وملحمة الحياة أو بالاحرى معجزة الحياة قد وردت الاشارة له والحديث عنه ، طورا على سبيل الايماء والايجاز وطورا على سبيل التفصيل ، فى أكثر من ســورةمن سور القرآن ، دون أن يكون اتصال فى الترتيب .

الانسان من هو المقصود به ؟

وقد افترق المفسرون القدامى حولمن هو المقصود بالانسان الذى كان فى فترة ما شيئا مجهولا لا شأن له أو ذكر ، فقالبعضهم أن المقصود به هو آدم قبل أن ينفخ فيه الله من روحه ، ويروحون يفصلون القول كيف أن آدم قد ظل أربعين سنة وهو من الطين ، وأربعين أخرى من صلصال وأربعين ثالثة من حمأ مسنون بما يبلغ فى جملته مائة وعشرين سنة ، وعندنا أن هذه كلهاخرافات اسرائيلية ، وجدت طريقها الى كتب التفسير القديمة والعجيب فى أمرها هوهذا التحديد لعدد السنوات التى تقلبت فيها صورة آدم .

والأعجب منه أن يقع فى هذه الاسرائيليات جهابذة من علماء المسلمين القدامى الذين تصدوا لتفسير القرآن ، مع أن الحديث عن كيفية خلق آدم وتحديد المراحل التى مر فيها حتى يصل الأمر الى التحديد الزمنىيخالف صريح نصالقرآن الذى يقول وقوله الحق :

ـ ما اشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم (الكهف ٥١) .

فانظر الى صريح قول القرآن وهويجزم بأن الله سبحانه وتعالى لم يطلع البشر على كيفية خلق آدم ، ومع ذلك تجد فىبعض كتب التفســـير المشـــهورة الحديث المستفيض عن كيفية خلق آدم وما أعجبأن ينجح اليهود فى دس خزعبلاتهم الى كتب التفسير القديمة .

الانسان هو اى انسان :

ولقد كان يغنى المفسرين القدامى ظاهر اللفظ (الانســـان) ما دام أنه يؤدى المعنى تماما ، وفيه كل العظة التى يريدالله سبحانه وتعالى أن يوجه أنظارنا اليها وهى ضآلة شأن الانسان فى أول دور منأدوار حياته ، عندما يكون لا يزال فى عالم المجهول مجرد (ذرة منوية) فى صـــلبوالده ، الى أن يصبح بشرا سويا ، وهو ما فصلته عديد من الآيات : نطفة فعلقة ،فمضغة فعظاما (غضـــاريف) فلحما ، فطفلا .

ويعجبنا من المفسرين القدامى انهمتنبهوا الى أن الجنين ينشأ مما أسموه ماء الرجل وماء المرأة مجتمعين ، ويصورونكلمة أمشـــاج على أنها اختلاط ألوان ماء

الرجل وماء المراة ، ونحن نعلم اليوم ان عملية الاخصاب التى يبدأ بها الكائن الحى، تتم عن طريق تلقيح حيوان منوى ذكر ، ببويضة الانثى ، ومن التحامهما تبدأ هذه الرحلة الطويلة ، الطويلة جدا فى عالم الاعجاز الالهى ، حيث يكون الانسان فى بادىء الأمر شيئا غير مذكور على الاطلاق.

ونرى أن نثبت هنا ملحمة الحياة الكبرى نقلا عن كتابنا (الطاقة الانسانية) وليعذرنا القارىء من اطالة الاقتباس ، ذلك اننا نصدع بأمر الله فى تأمل معجزته الكبرى الناطقة الشاهدة على وجوده وقدرته .وقد قال بعض المفسرين أو بالاحرى جمهرتهم أن « هل » هنا بمعنى « قد » أى أن الآية تقرر أنه قد أتى حين من الدهر على الانسان لم يكن شيئا مذكورا ، ويرى أخونا الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى تفسيره ان « هل » هنا مقصودة فهى سؤال موجه للانسان فيجيب عليه ، ليكون ابلغ فى العظة وباعثا على طلب العلم والاجتهاد والنتيجة واحدة فى ابراز عظمة المعجزة الالهية واسترعاء الأنظار اليها ، ولأنتقل الآن بعض ما قلته فى هذه المعجزة .

ملحمة الحياة :

من الخلية الواحدة تبدأ الطبيعة ملحمتها الكبرى التى لا يمكن أن يوجد فى الطبيعة ما يفوقها ، ملحمة الحياة النامية الهادفة ، التى تعمل طبق خطة موضوعة لتحقيق غرض معين ، كان ولا يزال سرا مغلقا على البشر الا على سبيل الحدس والتخمين .

ولا مجال للافاضة فى تتبع تطورات الجنين فى رحم الام منذ يكون بويضة قد لقحت حتى يخرج من دنيا الظلام بشراسويا ، وكتب الطب عامة وعلم الأجنة خاصة تغص بكل ما يذهل اللب ويحير الفؤاد ، وبحسبنا أن نعلم أن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم الى خليتين متلاصقتين تنقسمان بدورهما الى أربع فثمان فست عشرة فاثنتين وثلاثين وعند هذا القدر من الانقسام ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين الذى يؤلف من نفسه فى هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها ومغمورة بالماء من الخارج فهو الحياة على صورة النطفة العائشة فى الماء.

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها ، طورا بعد طور ومرحلة اثر اخرى فاذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبها بالدودة (العلقة) وتارة أقرب شبها الى السمكة والذى يهمنا أن نشير اليه ،أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين من المرات ، لقد أصبح طول حجمه يناهز البوصة وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة وأصبح أقرب مايكون فى التكوين الى الضفدعة واذ نكون قد وصلنا الآن الى الشهر الثالث فقد أصبح وزن الجنين أكثر من أوقية وطوله أكثر من ثلاث بوصات وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ،حتى الأعضاء التناسلية والأذرع والارجل والاظافر قد تكاملت وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتزايد بعد ذلك فى اطراد .

فاذا كان الشهر السادس فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمترا ووزنه ثلثى كيلو جرام وبعد ٢٥٢ يوما أى فى أواخر التاسع ، يكمل نمو الجنين ويصبح مهيأ للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها ، حيث يأتيه رزقه رغدا فى كل وقت وآن ، بدون جهد أو آلام ، ويقذفه الرحم خارج الجسم ، انه لم يعد الآن جنينا ، انه طفل الانسان ، ولما كان الطفل يحرم لأول مرة من الماء الذى كان يعيش فيه ، ويتغير المحيط من حوله ويصطدم بالهواء الجوى لأول مرة ، وهو ينفذ الى رئتيه فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة واعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار .

وعندما يولد الجنين فان وزنه يكون فى العادة بين ٢٫٧٥ و ٣ كيلو جرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمترا وقد حان الآن أن أذكرك أن هذا الحجم الضخم قد بدأ من هذه البويضة التى كانت ١ من ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الاوقية ، أى انها تضاعفت ألوف الملايين من المرات .

ولكى نعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر ، فلو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى لانتج حجما أضخم من كل المجموعة الشمسية . أى جسما قطره ملايين الأميال . ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين لزاد على المجرات حجما ، ولزحم الكون الذى نعرفه ، ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه الوتيرة ، فهى لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها الى حد وصورة معينين .

وما أوتيتم من العلم الا قليلا :

هذا هو بعض ما أصبحنا نفهمه عندما يذكرنا القرآن بمعجزة التكوين الانسانى منذ كان شيئا مجهولا فى عالم الذر الى أن يصبح انسانا متكامل الشخصية ويلعب دوره المقدور له فى الحياة .

نبتليه : أى نمتحنه ونختبره (وذلك لغاية لا يعلمها الا آلله) والمهم أن القرآن يقول لنا أن السر فى خلق الانسان هو ارادة الله ومشيئته فى ابتلاء الانسان أى تجربته وامتحانه ، فليقف الانسان كل انسان أمام هذه الآية طويلا وليعلم ان الدنيا دار ابتلاء حتى ما يعطاه الناس على أنه نعمة كالمال والولد والشهرة والجاه والسلطان فذلك كله لون من الوان الابتلاء يلقى على كاهله مسئولية كبرى ، فسوف يحاسب على قدر ما أفرغ الله عليه من النعم .

فجعلناه سميعا بصيرا :

يمضى القرآن الكريم بعد أن يذكر بنعمة الحياة الكبرى ومعجزتها ، فيقرر ويذكر بأعظم ظاهرتين من ظواهر الحياة ،وهما السمع والبصر ، .وكل منهما سر رهيب لا يقل عن سر الحياة نفسها .

ويتساءل المفسرون عن السـمع والبصر ، هل المقصـود بهما الحاسـتان المعروفتان ، أم أن البصر مثلا يعنى البصيرة ، أى الفهـم والادراك ، وعنـدنا أن لا فارق بين الاثنين فعملية السمع ، مثل عملية البصر ، تتم بواسطة العقـل فهو الذى يدرك ما يسمع ، ويدرك ما يرى ،وعندما يتعطل الادراك لا يفهم الانسـان حقيقة ما يسمع أو ما يرى .

فعندما يقول القرآن الكريم ان الله خلق الانسان سميعا بصيرا ، فهذا يعنى أنه خلقه عاقلا وحرا ، قادرا على التأمل والتدبر ثم الاختيار ومن هنـا جـاءت الآية التالية لتقول ((**انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا**)) أى أننا عرفناه طريق الخير والشر ، والاستقامة والانحراف ، والايمان والكفر وتركنا له حرية الاختيار .

الجنة والنار :

ويتضح ذلك المعنى من الآيات التالية ، والتى راحت تصـف ألوان العـذاب للاشرار والمنحرفين ، وألوان النعيم للابرار والمتقين الأخيار . **انا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا :**

وهذه هى بعض مظاهر العذاب التى أعدها الله لأهل الشقاوة الذين استحقوا جهنم ، ويفرق اللغويون بين السلاسل والأغلال ، والاولى قيود للأيدى والأرجل ، أما الأخيرة فللاعناق والرقاب ، وكل هذا لا غناء فيه ، فهذه مجرد اشارات لأنواع العذاب التى نجهل كيفيتها .

ان الأبرار يشربون من كـأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا :

انتقل القرآن بعد اشارة سريعة لألوان العذاب الى تفصيل أوفى لألوان النعيم ، ويجهد المفسرون أنفسهم فى محاولة تصور هذه الألوان من النعيم ، بل محاولة تذوقها، فيقفون حيارى أمام ما يقـولون أنه خمر ممزوج بالكافور ولا عهد لهم بالخمر يمزج بالكافور فيقولون أن المقصـود هو مجرد رائحة الكافور لا مذاقه .

أما اذا سألت ومن أين جاءوا بالخمر وليس فى الآية أى اشارة للخمر قالوا لنا ان كلمة الكأس لا تستعمل الا لاناء الخمر عندما يكون ممتلئا بها ويشربه الشارب لانه اذا كان فارغا من الخمر لا يسـمى كأسا ، بل (قدحا) ونحن كما قلنا أكثر من مرة لا نسيغ هذه الدقة فى محاولة تحديد معانى الألفاظ عندما نكون بصدد الاشارة الى ألوان النعيم فى الجنة .

عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا :

وعباد الله هنا هم المتقون والصالحون من أهل الجنة ، والعين من حيث المعنى اللغوى المتعارف عليه هى ينبوع الماء ،ويفجرونها تفجيرا اشارة الى روعة الماء

العذب المتدفق ، والذى لا يحس بروعته وجماله الا من وقف أمام شـــلال ينحدر ، أو نبع يفور من الأرض فورا ، ويقول المفسرون أن معنى يفجرونها تفجيرا ، أن هذه العين تجرى حسب مشيئتهم وارادتهم فى الوقت والمــكان وبالكيفيـــة وبالكم الذى يريدون .

يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا . انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا .

النذر : ما يوجبه الانسان على نفسه.

مستطيرا : اى فاشيا ، منتشرا .

قمطريرا : اى شديد العبوس .

بعض صفات المؤمنين :

جريا على نسق القرآن ، يروح يعدد بعض سمات المؤمنين . والذين يطلق عليهم هنا اسم الأبرار ، ومن أبرز صفاتهم ما أفضنا فى شرحه فى سورة المعارج من الوفاء بالعهود ومن العهود ما يقطعه الانسان على نفســـه ، لا رقيب عليه أو حسيب سوى الله وحده وآية المؤمن أنه اذا نذر للرحمن نذرا وفى به وحفظه ، لا مخافة من القانون ، ولكن مخافة من الله عز وجل ، ولقائه الموعود يوم القيامة .

اطعام الطعام :

ويصف القرآن بعد ذلك سمة أخرى من سمات المؤمنين ، وهى أنهم يطعمـــون الطعام (على حبه) أى حب هذا الطعام ،وحرص النفس البشرية على عدم التفريط فيـــه .

ولكن المؤمنين يبذلون هذا الطعام عن طيب خاطر للمسكين واليتيم والأسير .

الطعام فى حياة الانسان هو كل شىء :

ونريد أن ننبه هنا الى سخرية بعض المحدثين الماديين من فكرة أن يكون على راس الأعمال الطيبة هو اطعام الطعام للمحتاجين، وينسى هؤلاء الاغرار والمنافقون أن الطعام هو كل شىء فى حياة الانسان لانه وسيلته الى الحياة ، والبشرية مع كل تطورها فليس هناك ما يشغلها سوى توفير الطعام لملايين البشر .

ان العلم يتطور والآلات تخترع لكى يكون من الممكن فى النهاية توفير القوت للناس ، فملايين الأفدنة تزرع ، والصحارى تحـــول الى أرض زراعية ، وماء البحر

يحول بالطاقة الذرية الى ماء عذب لكي يكون من المستطاع زراعة أراض جديدة لاطعام الناس ، فاطعام الناس هو الهدف النهائى لكل نشاط انسانى للمحافظة على بقائه .

وتحضرنا فى هذا الصدد طرفة تروى على سبيل النكتة ولكنها فى الواقع تكشف عن عين الحقيقة ، فقد جرت مناقشة بين رجلين من سكان هذه البلاد التى يزعمون انها قطعت شوطا فى مضمار التقدم والحضارة ، قال الرجل لصاحبه :

— هل أتاك النبأ ؟

— أى نبأ ؟

— سيكون لكل واحد منا عام ١٩٨٠ طائرة خاصة . .

— وما جدوى الطائرة بالنسبة لى .

— هيا .. هيا ستكون ذات فائدة لا تقدر اذ يكفى أن نسمع أنه يوجد فى بلدة كذا البعيدة جدا كمية من البيض لكى يكون فى استطاعتنا أن نطير الى هـذه البلدة لنحصل على البيض .

فأنت ترى أن ذروة ما يسمونه بالتقدم أن يكون لكل انسـان طـائرة كى يكون باستطاعته أن يوفر بعض الطعام لنفسه .

فعندما يقول لنا القرآن أن من أكبر مظاهر الايمان بمعنى الصلاح هو اطعام الطعام فيجب أن نسبح بحمد الله الذى هدانا الى سر الحياة والاجتماع .

مسكينا ويتيما واسيرا :

يعدد القرآن الكريم بعض نماذج من الضعفاء والمحتاجين ، وقد رأيناه فى آية أخرى يشير الى السائل والمحروم .

والمسكين هو محدود الموارد ، واليتيم من لا عائل يعوله اذ مات الأب الذى كان يتولى رعايته .

واسيرا : نحسب أن هذه هى الكلمة التى استند اليها من قالوا بمدنية السورة، وينقلون أقوالا عن الصحابة ، بأن الاسرى كانوا من المشركين .

وعندنا أن الأسير هو مطلق الأسير ، وقد كانت حياة العرب فى الجاهلية حروبا كلها ، وكانوا يسترقون بعضهم البعض ، فالأسرى كانت فى أيدى العرب ، قبل الاسلام وبعد الاسـلام ، وتتجلى عظمـة الدين الاسلامى فى أنه يوصى بالأسير أيا كان شأنه، ويعتبر أن الرفق به واحسـان معاملتـه واطعامه من أجود الطعام هو من أعظـم

القربات الى الله وآية من آيات الايمان بهوالخشية من اهوال يوم القيامة ، **كما يدل على ذلك الآيات التاليـــة ، حيث يقــول**المطعمون للمطعومين ، بلسان الحال انمــا نطعمكم لوجه الله ، اى ابتغاء مرضاة الله ،لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، والا فأى جزاء أو ما قيمة اى شكر يتقدم به الفقير والضعيف والمسكين ، وانما الجزاء والمكافأة يكونان من الله عز وجل .

وتذكر بعض كتب التفســـير القديمةعلى سبيل الايجاز فى بعضها (الكشاف) وظلت القصة تطول وتنمق ، وتضاف اليهاالحواشي والتفاصيل وأبيات من الشعر على لسان سيدنا على ، وتدور القصة حولمرض الحسن والحسين ونذر سيدنا على والسيدة فاطمة بالصوم ثلاثة أيام ان شفاهما الله أو تطول القصة وتتفرع لتقول أن سيدنا عليا وآل بيته قد عاشوا على الطوىطوال هذه الثلاثة أيام ، لانهم كلما جلسوا ساعة الافطار ليأكلوا طرق بابهم من يسألهم الطعام ، فيعطونه طـــعامهم ويواصــلون صيامهم ، حتى أصبحوا (جلدا على عظم)فنزل جبريل بهذه الآية (**ويطعمون الطعــام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)** وقد فند القرطبى هــذه القصـــة وردها ، بل وانكرها .

وعندنا أن ذلك كله لا غناء فيه فالآيةواضحة جلية فى حضها على اطعام الطعام واعتبار ذلك من اعظم القربات ، وقد مربنا كيف أن الكافر سوف يحاسب يوم القيامة على دعوته لمنع الطعام عن الفقراء والمساكين (ولا يحض على طعام المسكين) .

فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهمنضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرونفيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقونفيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تســمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدانمخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا .

الارائك : جمع اريكة وقد كانت فى زمن نزول القرآن تعنى كما يقول المفسرون، الاسرة (جمع سرير) فى الحجال اى السريروقد أسدلت عليه الستائر .

الزمهرير : اى شدة البرد ، وقيل أنالمقصود بها هنا القمر أى لا يرون فى الجنة شمســا ولا قمــرا .

الزنجبيل : هو جذور بعض النباتاتوله طعم حريف .

قطوفها : أى كل انواع الثمرات فى متناول يد المؤمن .

سلسبيلا : أى سائغا للشاربين ،من فعل سلس أى سهل .

ولدان مخلــدون : أى لا يهرمـــونولا يشيخون فهم على شباب دائم .

حسبتهم لؤلؤا منثورا : لان اللؤلؤالمنثـور يـكون أبهج اذ تنعكس ألـوانه وتتجاوب .

وهذه الآيات تقارب فى السياق ما جاء فىسورة الغاشية .

ــ وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية . فى جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة .

مفهوم الجنة والنار :

ولقد ذكرنا من قبل أننا نؤمن بالجنةوالنـار من حيث كونهما عقابا وثوابا فى الحياة الآخرة ، وكل ما جاء فى القرآن منأوصاف الجنة والنار ليس فيه الا الكلمات التى نستعملها وهذا هو مذهب السلف ،أما الكيفية فمجهولة وهى احدى الغيبيات التى احتجبت عن العقل البشرى ، ولنا ما قيل من أن فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ويجب أن نفهم أن الجنة هى الثوابوالمكافأة على صالح الأعمال ، وعلى ضروب الصبر ، واحتمال كل صنوف الحرمان فىسـبيل الله ، وهى على النقيض من كل ما الفناء فى هذه الحياة الدنيا ، فاذا كانشبح الموت يخيم فىهذه الدنيا على الانسان، فهناك الخلود ، وكذلك المرض والعجز والشيخوخة ، واذا كانت صفة الدنيا الغالبة هى الألم والمعاناة ، ففى الجنة لا ألم ولا معاناة .

واذا كان الانسان لا يدرك فى هذهالدنيا كل ما تشتهيه نفسه ففى الجنة يحقق كل ما تشتهيه نفسه من كل ضروب اللذاتالحسية والمعنوية .

ــ « **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذالأعين وأنتم فيها خالدون** » الزخرف ٧١ .

هذا هو ما يجب أن يفهمه المؤمن على وجه الاجمال من معنى الجنة ، وأنه نعيم دائم أو عطاء من الله بغير حد أو حساب .

ــ واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا :

هذه الآية الكريمة وأمثالها هى التى نقف أمامها ونلوذ بها فالجنة هى النعيم فى مقابل شقاء الدنيا ، وهى ملك عريض عرض السموات والأرض أعدت للمتقين .

أما محاولة تصوير الجنة كما اعتاد السياح أن يصفوا ماراوه وشاهدوه فعمل لا غناء فيه وربما بعث البلبلة فى بعضالنفوس .

من ذلك محاولة تقصى القوارير المصنوعة من الفضة والقول أن فى ذلك تعارض فالقوارير شفافة لانها من الزجاج ، والفضة لا يمكن أن تكون شفافة ، ويخلصون من هذا الحرج بما كان يجب أنيبدأوا به من ان الكيفية مجهولة والله قادر على كل شيء .

العلم الحديث والجنة والنار :

ومن فضل الله علينا نحن أبناء القرن العشرين أن ما انكشف لنا من الحقائق الكونية ، يقرب الى اذهاننا فكرتى النار والجنة .

فنحن نعلم اليوم أن هذه النار التى نستعملها فى حياتنا العادية لمختلف الأغراض لا تزيد عن ١٥٠٠ درجة أو الفين كما فى أفران الصلب ، وقد ترتفع بضع مئات اخرى من الدرجات ، فأين هذا كله من درجة حرارة نيران سطح الشمس فضلا عن باطنها الذى يصل الى عشرات الملايين من درجات الحرارة .

ونحن نعلم الآن أن لو اقتربت الشمس من الأرض لسبب ما بضع مئات من الوف الكيلو مترات لهلك كل ما فوق سطح الأرض من شدة الحرارة . فأين ذلك كله من ملايين النجوم الأضخم من الشمس .

لقد كانت قريش لجهلها تسخر من النار التى وقودها الحجارة ، تصوروا منهم أن النار لا تقوى على الحجارة .

ونحن نعلم الآن على سبيل المثال ان باطن الأرض القريب نسبيا ليس الا حجارة مذابة من شدة الحرارة والتى تقذف بها البراكين على شكل حمم . هذا عن النار وما انكشف لنا من أبعادها التى يكاد لايتصورها العقل ، فى الفضاء الخارجى أى فى السماء .

العلم والجنة :

وقد كشفت رحلات الفضاء عن أن كل النواميس التى نعيش فى ظلها خاصة بهذا الكوكب الأرضى ويكفى أن يخرج الانسان من نطاق الأرض وجاذبيتها وغلافها حتى تصبح النواميس غير النواميس ، والافهل كان من المتصور أن الانسان يمكن أن يمشى فى الفضاء الخارجى فى الفراغ المطلق كما يحدث الآن ، وهذا من شأنه أن يفتح كوة أمام العقل البشرى ، ليدرك أن كل شيء فى قدرة الله ، وأن الجنة حق من حق جعلها الله من نصيبنا نحن واياكم بفضل من الله ونعمه .

عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا اساور من فضة . وسقاهم ربهم شرابا طهورا . ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا .

سندس : رقيق الحرير ، **الاستبرق** : غليظ (سميك) الحرير .

وهذه الآيات نموذج للجهد الذى كان يبذله الأقدمون فى محاولة الاحاطة بالضبط والدقة لاحوال الجنة ، فيتساءلون علىسبيل المثال من هم الذين يرتدون الملابس المصنوعة من السندس والاستبرق ، اهمالأبرار والمتقون أم الولدان المخلدون ، مع ان الآية المتقدمة **(وجزاهم بما صبروا جنةوحريرا)** قد يكون فيها الجواب المطلوب ويقفون كذلك امام آية **((وحلوا أساور من فضة))** .

ويشيرون الى أنه قد ورد فى آية اخرى **(يحلون فيها من اساور من ذهب)** **ويروحون يخوضون فى مباحث** مستفيضةحول أساور الذهب والفضة ومتى تكون هذه ومتى تلبس تلك ، مع انهم لو تذكرواقول القرآن الكريم **((وفيها ما تشتهيه الانفس)) لأغناهم ذلك عن كل** هذه المباحثفمن اشتهت نفسه هذا الشىء أو ذاك تحقق له ما يريد بغير حدود أو سدود أو قيود والله تعالى أعلم .

كلمات معربة :

وعلى ذكر السندس والاستبرق فهذه أسماء الأقمشة الحرير التى كان العرب يستجلبونها من بلاد فارس باعتبارها اثمنالثياب فى أيامهم والتى لا يلبسها بطبيعة الحال الا الأغنياء والكبراء ، وقــد عرب العرب بطبيعة الحال هذه الكلمات الأعجمية ونطقوا بها على نفس القوالب العربية فأصبحت عربية ، وقد دار البحث دائما عما اذا كان فى القرآن الكريم كلمات غير عربيه ، وقد بحثنا هذا الموضوع باستفاضة فى كتابنا ((الأمة الانسانية)) .

ـ انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما او كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا. ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهميوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا اسرهم واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا .

تنزيل القرآن :

ويذكر الله سيدنا محمدا بنعمته الكبرى عليه وهو انزال القرآن عليه بمعنى الايحاء به اليه عن طريق الوحى ، ويطالبهفى مقابل ذلك بالصبر على مشاق الدعوة ، ويلفت نظره الى عدم الاستماع الى المشركين والكفرة والعصاة الآثمين وهو لفت نظر لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ،تردد أكثر من مرة فى القرآن الكريم .

((فلا تطع المكذبين .))

ذلك أن حرص سيدنا محمد على هداية قومه ، كانت تجعله يصــغى لبعض اقتراحاتهم طمعا منه فى اسلامهم ، فكانالله سبحانه وتعالى يحذره من ذلك ، وهذا

ما يرجح قول من قال بمكية الســـورةوالعجيب أن الذين يقولون بمدنية السورة هم من الذين يقولون بأن الدعوة الى الصبرقد نسخت بآية السيف ، ونحن عند رأينا أن لا نسخ فى القرآن ، فما كان الأمر بالصبرمما ينسخ ، وانما كلها أوامر وأحكام عاملة عند توفر الظروف الخاصة بكل حكم .

ـ واذكر اسم ربك بكرة واصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا.

جرى المفسرون على اعتبار ان هذهالآيات تشير الى الصلوات الخمس وقيام الليل ، وعندنا أنها كمثيلاتها من الآيات التى تتحدث عن ذكر الله وتســـبيحه بعامة وبالنسبة للصلوات الخمس ومواقيتها وكيفيتها ، وكل ما يتصل بأحكامها ، فقد فصلها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلمتفصيلا ، فهى لا تؤخذ رمزا ولا بالاشارة ولكن بالتلقى المباشر عن رسول الله .

ـ ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا اسرهم واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا .

يصف الله المشركين والكفرة الذين يحذر سيدنا محمد منهم بأنهم شديدو التعلق بالدنيا الفانية ، ويعرضون عن الآخرة الباقية ، مسقطين من حسابهم يوم القيامة بشدائده وأهواله وبقدرة الله عز وجل أن يبيد من على ظهر الأرض كل كافر وجاحد وأن يأتى بخلق جديد لا يفتر عن عبادتهبالليل والنهار .

ولكن هكذا شاءت ارادته أن يمهل الكفرة والعصـــاة والمنحـــرفين لحكمـــة يعرفها ، ثم يأخذ بتلابيبهم ساعة الحساب.

ـ ان هذه تذكرة . فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا . وما تشاءون الا أن يشاء الله ان الله كان عليما حكيما . يدخل منيشاء فى رحمتهوالظالمين أعد لهم عذابا أليما.

لغز القضاء والقدر :

نحن مأمورون بالامساك عن الخوضفى تعمق مشكلة القضاء والقدر، أو بالاحرى لغز القضاء والقدر الذى تتيه فيه العقول ، ومن اللطيف أن المـــاديين الذين يكفرون بالقضاء والقدر قد صـــاغوا كلمة جديدةلا تعنى شيئا الا القضاء والقدر وهى كلمة (الحتمية) فهذا الشىء أو ذاك سيتم بحتمية لافكاك منهـــا اليس ذلك هو التســـليم بالجبرية وليس ذلك الا أحد مظاهر فشلالماديين الذين يتصورون أنهم متى استبدلوا كلمة محل كلمة فقد حلوا المشكلة ، انظرالى كلمة **(الحتمية)** أليست تساوى بالضبط كلمة **(المكتوب)** .

ايماننا :

ونعود لشرح ايماننا كما تدعونا اليه هذه الآيات الكريمة . فليس القرآن الكريم الا ارشادا وهداية من الله عز وجل .

(ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) .

وهذا يعنى أن الله قد أنار لنا الطريق وأضاءه ، لمن شاء أن يسير فيه قاصدا وجه ربه . الحق والخير وهذا دليل قاطع على أنه زودنا بالقـدرة على الاختيار ، والتفريق بين الخير والشر ، بين ما هونافع للنفس وللناس ، وبين ماهو ضـار بالنفس وبالآخرين . وهذه القدرة والمكنة شىء يحسه كل انسان من نفسه .

فما من انسان الا وهو يسمع داخل نفسه هذا الهمس الذى يدعوه لعمل هذا الشىء أو الانصراف منه ، وليس باستطاعة أى انسان ان يفر من مسئولية اختياره واحتمال نتائج أعماله تلك حقيقة لايمارى فيها أى انسان ونحن نزاولها بالفعل .

— فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا .

— فمن شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر .

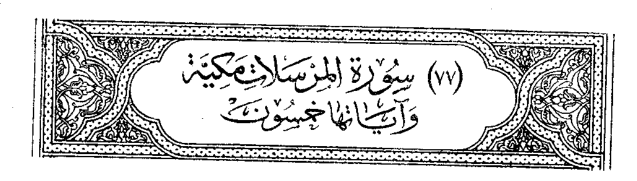
الله فوق كل شىء :

وعلينا فى ذات الوقت الذى نعمل فيه عقولنا ونحسن الاختيار فى كل صغيرة وكبيرة ونحتمل مسئولية ونتائج أعمالنا ، أن يكون ايماننا بالله عز وجل ، انه المهيمن على كل شىء ، انه خالق كل شىء أنه مقدر كل شىء .

— وما تشاءون الا أن يشاء الله :

وعلينا أن نؤمن عندما نوفق للعمل الصالح ان ذلك قد تم بفضل من الله ونعمة ، ونزيد فى حمدنا وشكرنا ليدخلنا فى رحمته وجنته .

ونعوذ بوجهه أن نكون من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم ، أو يظلمون الآخرين الذين أعد لهم الله عذابا اليما والحمد لله رب العالمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ
ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾
وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً
وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ
مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي
بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ
فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا
قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

سورة مكية :

مكية باتفاق وهى تتضمن المعــانى والاشــارات ليوم القيامة وما ســوف يلقاه المشركون والكافرون والطغاة .

والمرســلات عرفا . فالعاصــفات عصفا . والناشرات نشرا .

هى الرياح على ارجح الاراء عندما تهب متتابعة متلاحقة وتتحول احيانا الى عواصف واعاصير ، وهى فى كل الاحــوال تنشر السحب وتوزعهــا وقــال بعــض المفسرين انها الملائكة ولكن القول الاول الارجح .

ــ فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذرا او نذرا . انما توعدون لواقع .

جرى نفس الخلاف حــول الفارقات فرقا فقيل هى الرياح وقيل هى الملائكة ، واما بالنسبة للملقيات ذكرا فنحن نرجــح قول من قال انها الملائكة ولخصهم البعض فى جبريل حيث ينزل بالذكر اى (القرآن) عذرا لاقوام وانذار الآخرين .

ــ فــاذا النجــوم طمست . واذا السماء فرجت . واذا الجبال نســفت . واذا الرسل اقتت لاى يوم اجلت . ليوم الفصل . وما ادراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين .

فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت .

مثل قول القرآن الكريم :

اذا السماء انشقت . وانفطرت . واذا الشمس كورت .

فكلها بعض مظاهر يوم القيامة .

واذا الرسل اقتت : اى جمعت فى وقتها وهو يوم القيامة .

جاء فى القرآن الكريم :

ــ يوم يجمع الله الرسل .

وكان موعد جمعهم هو يوم القيامة . وهو يوم الفصــل الذى يكافأ فيه الاخيار ويعاقب فيه الاشرار .

ويل يومئذ للمكذبين : اى هــلاك وعذاب للمكذبين ، ويقول بعض المفسرين ولا نلقى بالا لاقوالهم لانها بغير سند ، ان (ويل) اسم واد فى جهنم .

ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعــل بالمجــرمين . ويل يومئــذ للمكذبين .

يذكر القرآن الكفار والمشركين وقدسماهم المجرمين أنهم مهما كبروا وتعاظموا فهم غير مخلدين فى هذه الحياة فقد هلك بنو البشر منذ كانوا بشراً ، ثم يكـون الحســاب يوم القيــامة والويل يومئــذللمكذبين .

الم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناهفى قرار مكين . الى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين .

لا يفتأ القرآن يذكر البشر بما كانواعليه ، وقد ذكرنا فى سورة الانسان بعض لمحات من تطورات الانسان ، منذ يكونحيوانا منويا يسبح فى (ماء الرجل) حتى اذا استقر فى رحم الانثى تطور ونما بقدرةالله الفائقة الى ان يصبح انسانا كاملاً فى صورة الطفل .

الم نجعل الارض كفاتا . احياء وامواتا.وجعلنا فيها رواسى شامخات واسـقيناكم ماء فراتاً . ويل يومئذ للمكذبين .

كفاتا اى مستقرا (ضامة) لبنى البشرالاحياء منهم والامـوات ، فالاحيـاء على ظهرها والاموات فى جوفها وهى مستودعوحرز للاثنين .

رواسى : اى الجبال .

شامخات : اى مرتفعات .

فراتا : اى عذبا .

وتامل موســيقى القــرآن المــاديةوالمعنوية معا فى آية ويل يومئذ للمكذبين ونقصد بالموسيقى المادية ما يحدثه التكرار من ايقاع يحدث أثره المادى فى النفس : واما الموسيقى المعنوية فتتجلى فى هــذاالتضاد بين التذكير بالنعم الالهية كما تتجلى فى حلاوة الماء العذب ، وانذاره للكافرينوالمكذبين بالويل والثبور .

ـــ انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من اللهبانها ترمى بشرر كالقصركانه جمالت صفر . ويل يومئذ للمكذبين .

اشارات ورموز الى الوان من الخوفوالعــذاب الذى سيلاقيه المجرمون يوم القيامة الذى كانوا يكذبون به .

ويحاول المفسرون القدامى أن يصفواهذه الامور الغيبية فيتحدثون عن الظـل انه دخان يتشعب الى ثلاث شعب ويسرفالبعض على نفسه فيروح يصف كل شعبة ويطلق عليها أسما ويحدد من يتوجهـونإليها ، وعندنا أن ذلك كله لا غناء فيه فهى كيفيات وغيبيات فوق مستوى ادراكنا ،لانها تتحدث عن عالم آخر ، بمقـاييس ونواميس اخرى يدل على انه لا يكاد يحدثناعن الظل الذى نعـرفه حتى ينفى عنـه خصـائص الظل التى نعرفها ((**لا ظليلولا يغنى من اللهب**)) .

ترمى بشرر كالقصر : اى ان شرر نار جهنم الذى يتطاير منها يشبه فى حجمه المبنى الكبير العالى ، وقالوا فى القصرغير ذلك .

كانه جمالت صفر :

الجمالات : جمع جمل الحيوان المعروف وقالوا ان العرب اعتادت ان تسمى الجمال السود بالصفر .

ولنا ان الاية الكريمة تشـــير الى اننار الاخرة ليست كالنار التى تعرف وانمـــا تبلغ من الضخامة أقصى حد نتصوره .

ـ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهمفيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين .

كناية عن الشدة والهول الذى يلقاه الكفرة والمشركون يوم القيـــامة حيث يرتج عليهم ولا يفتح الله عليهم بعذر مقبـــوليحتجون به عن جرائمهم .

هذا يوم الفصل جمعناكم والاولين .فان كان لكم كيد فكيـــدون . ويل يومئـــذ للمكذبين .

يوم الفصل : اى القيامة

كيد فكيدون ، اى ان كان لكم اىحيلة أو قدرة تقدرون بها على الفرار من هذا الموقف فافعلوا ولكنكم لن تستطيعوا .**فويل يومئذ للمكذبين .**

ان المتقين فى ظلال وعيون . وفواكهمما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . انا كذلك نجزى المحســـنين .ويل يومئذ للمكذبين .

وحيث يعانى الاشرار والكفار الوانالعذاب ويدعون الى تجرعه على ســـبيل التهكم بهم فان الاخيار بدورهم يدعـــونالى موائد النعيم والسرور جزاء ومكافأة على احسانهم فى الحياة الدنيا ..

كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون .ويل يومئذ للمكذبين .

وليس سوى الاعجاز القـــرآنى فىالبيان وموسيقى المعانى والالفاظ ما يجعله هكذا ينتقل من وصف حال الى حال مباينةومغايرة فى أقصر الكلمات وأوجزها فهـــو يعود لينذر المجرمين ويحذرهم وآية (**ويليومئذ للمكذبين**) هـــى التى تبقى الحبـــل متصلا وسياق الحـــديث فى اكمل رواءونظام .

وهو يقول هنا للمجرمين ان حياتهمالدنيا ليست الا وهما وسرابا ، ومهما اكلوا فيها وخيل لهم ان يتمتعوا فليس ذلك الاالى حين .

واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين . فبأى حديث بعده يؤمنون .

جرى الخلاف بين المفسرين حول رفض الكفار للركوع وهل هو فى الدنيا أو الاخرة حيث يعجز الكفار عن الركوع والارجح أنها وصف لاحوالهم فى الدنيا عندما كانوا يعرضون عن الركوع والسجود تكبرا وانكارا يؤيد ذلك ختام السورة .

« فبأى حديث بعده يؤمنون »

أى بماذا يؤمنون ويصدقون اذا هم كفروا بالقرآن .

مطابع الاهرام التجارية
رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٥ / ٢٤٣٣